الإمام الحسين عليه السلام

رائد الحركة الإصلاحية

دراسة مقارنة بين

حركة الإمام الحسين عليه السلام وحركة الأنبياء والأئمّة الأطهار عليهم السلام

في الأهداف والمناهج والنتائج

تألِيفُ

سماحة السيد صدر الدين القبانجي دام ظله

تقديم وتحقيق

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

رقم الإصدار: ٢٩

مؤسسة إحياء التراث الشيعي
www.turathshiai.com
E-mail:info@turathshiai.com
النجف الأشرف
شارع السور ــ قرب جبل الحويش
هاتف: ٢١٨٣١٨ و٣٧٢٠١١، النقال: ٠٧٨٠٤٧٥٤٥٣٥
ص.ب ٥٨٨

الإمام الحسين عليه السلام رائد الحركة الإصلاحية
السيّد صدر الدين القبانچي
رقم الإصدار: ٢٩
الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ
العدد: ٣٠٠٠ نسخة
جميع الحقوق محفوظة للمؤسسة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المؤلّف:

الحمد لله والصلاة على خير خلق الله محمّد وآله الطاهرين.

وبعد:

هذا الكتاب الذي بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ هو محاضرات كنت قد ألقيتها على جمع من السامعين في ليالي محرَّم الحرام للأعوام (١٤٢٦ ـ ١٤٣٠هـ)، في النجف الأشرف.

وقد قدَّمت فيها دراسة مقارنة لحركة الإمام الحسين عليه السلام الإصلاحية مع حركة الأنبياء أولي العزم، ثمّ الخمسة من أصحاب الكساء، ثمّ باقي الأئمّة الأطهار من أهل البيت عليهم السلام.

لقد تضمَّنت هذه الدراسة مقارنة في الأهداف والمناهج والنتائج.

* * *

هذا ولم يكن الهدف وحده هو تقديم دراسة نظرية مقارنة، بل كنت أهدف إلى جانب ذلك إيجاد مستوى من الشدّ التربوي والديني والأخلاقي من خلال عرض قرآني أحياناً، وحديثي أحياناً، وقصصي أحياناً ثالثة.

ولأجل ذلك فربَّما أجد نفسي أحياناً مضطرّاً للخروج عن صلب موضوع البحث للوقوف على ساحل المهمّة التربوية التي أتحمّلها.

* * *

وحيث كانت هذه الدراسة المقارنة قد قدّمت على شكل محاضرات فسوف تلاحظ الأسلوب الخطابي فيها، إلى جانب التبسّط في الطرح بغية إيصال الفكرة لأكبر عدد من السامعين.

* * *

وبودّي أن أشير إلى أنَّ هذه المحاضرات قدّمت في ظروف ساخنة سياسياً أحياناً وأمنياً أحياناً أخرى، وهي الظروف التي عاشها العراق خلال السنوات الخمس التي قدّمت خلالها هذه المحاضرات وربَّما تجدني أنساق أحياناً إلى ملامسة سريعة لذلك الواقع السياسي والأمني في العراق.

* * *

ولقد كانت هذه المحاضرات قد طبعت في أجزاء خمسة مستقلّة عن بعضها ولكنَّها حيث كانت تعبّر عن منهج واحد في الدراسة، ويجمعها موضوع واحد، فقد آثر إخواني الكرام في (مؤسسة إحياء التراث الشيعي) جمعها في مجلَّد واحد وإعادة طبعها تحت عنوان: (الإمام الحسين عليه السلام رائد الحركة الإصلاحية).

* * *

وفي ختام هذا التقديم لا يفوتني بعد حمد الله تعالى تقديم الشكر لأخي الكريم سماحة السيّد محمّد القبانچي وسائر العاملين معه في مؤسسة إحياء التراث الشيعي على الجهود الكبيرة التي قدَّموها في تحقيق هذه المحاضرات وتنظيمها واستخراج النصوص من مصادرها

والتدقيق فيها إلى جانب السعي في تقديمها مطبوعة على شكل كتاب يبقى بيد القرّاء الكرام.

* * *

لقد كنت حريصاً أن أختم كلّ محاضرة باستعراض جانب من مصيبة سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام خاصّة وأنّ هذه المحاضرات قد أُلقيت في ليالي العشرة الأولى من محرَّم الحرام للسنوات الخمس، وربَّما حافظنا على ذلك العرض في ما هو المطبوع الآن بين يديك وربَّما حذفناه بغية عدم التكرار، لكنّي أعتقد أنَّ هذه المحاضرات ستقدّم بحثاً جاهزاً بين يدي إخواني السادة خطباء المنبر الحسيني، والذين أحرص على المساهمة في دعمهم وخدمتهم وإسناد حركتهم، معتقداً أنَّهم يقدّمون خدمة كبيرة حفظت هذه الأمّة عن الضياع.

* * *

أسأل الله تعالى الذي وفَّقني لكلّ ذلك أن يتقبَّله منّي بلطفه، ويعفو عن أخطائي بكرمه، ويرزقني شفاعة الحسين عليه السلام يوم الورود، ويثبّت لي قدم صدق عنده مع الحسين وأصحاب الحسين الذين بذلوا مهجهم دون الحسين عليه السلام.

ليلة ٣٠/ صفر/ ١٤٣١هـ

النجف الأشرف

صدر الدين القبانچي

تمهيد

الحسين عليه السلام والأنبياء عليهم السلام:

قال الإمام الحسين عليه السلام عند خروجه من مكّة المكرمة:

«الحمد لله وما شاء الله، ولا قوَّة إلاَّ بالله، خُطَّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي وأوصالي يتقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأنَّ منّي أكراشاً جوفاً وأجربةً سُغباً، لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم. رضى الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين»[1].

وهنا يربط الإمام الحسين عليه السلام حركته بحركة الأنبياء عليهم السلام.

في أوّل خطبةٍ خطبها عند خروجه من مكّة المكرَّمة، في اليوم الثامن من ذي الحجة، عندما دخل عمرو بن سعيد الوالي الأموي بجنودٍ لقتل الحسين عليه السلام ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة.

يقول في أوّل خطاب له وقبل أن يغادر مكّة المكرمة: «وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف» حيث ينقلنا الحسين عليه السلام إلى عمق التاريخ، إلى حركة يوسف ويعقوب عليهما السلام ويربط حركته بتلك الحركة.

---

(١) مثير الأحزان: ٢٩؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٧.

حيث نتحدَّث باتّجاه معرفة فلسفة هذا الترابط بين حركة الحسين وحركة الأنبياء عليهم السلام.

وأيضاً في مرَّة أخرى عندما أراد الحسين عليه السلام الخروج من المدينة وعرض عليه عبد الله بن عمر البقاء في المدينة المنوَّرة أو مبايعة الحاكم الأموي.

قال له: «يا عبد الله أمَا علمت أنَّ من هوان الدنيا على الله أنَّ رأس يحيى بن زكريا عليه السلام أُهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل»(١).

هنا أيضاً هذا ربط وانتقال إلى يحيى بن زكريا عليهما السلام، أي إنَّ الحسين عليه السلام يقول بأنَّ حركته هي حلقة واحدة من سلسلة متّصلة وهي سلسلة الأنبياء عليهم السلام، ويجري عليه ما يجري عليهم.

وفي موضع ثالث يقول عليه السلام: «لن تشذّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لُحمته وهي مجموعة له في حظيرة القدس»(٢) حيث يربط حركته وموقفه وشخصيته برسول الله صلى الله عليه وآله.

حديثنا عن اكتشاف هذا الترابط، بين حركة الحسين وحركة الأنبياء عليهم السلام، من خلال عرض تاريخي فلسفي لحركة الأنبياء عليهم السلام ثمّ ربطها بحركة الحسين عليه السلام.

ونحن نجد أنَّ الأئمّة عليهم السلام أكَّدوا هذا الربط حينما نقرأ:

«السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ آدَمَ صَفْوَةِ اللَّهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ نُوح نَبيّ اللَّهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيل اللَّهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ

---

(١) مثير الأحزان: ٢٩.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ٣٨؛ كشف الغمّة ٢: ٢٣٩.

مُوسَى كَلِيمِ اللَّـهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ عِيسَى رُوحِ اللَّهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ مُحَمَّدٍ حَبِيبِ اللَّـهِ»(١) ويعني هذا أنَّ الحسين عليه السلام هو حلقة في هذه السلسلة وليس عملاً مفصولاً عن حركة الأنبياء عليهم السلام.

الحركة الإصلاحية ضرورة كونية:

الفهم الديني يقول: إنَّ الحركة الإصلاحية ضرورة في المجتمع البشري، ولا يمكن أن يتكامل بدون حركاتٍ إصلاحية، وهذا الأمر في غاية الأهمّية.

فلماذا يحتاج المجتمع الإنساني إلى حركة إصلاحية؟ ولماذا تكون على يد الأنبياء عليهم السلام؟

ويمكن القول في معرض الجواب أنَّ هناك حركة تكاملية في كلّ الكون، كما أنَّ هناك حركة تكاملية في الإنسان، لكن الحركة التكاملية في الكون هي حركة ذاتية قهرية وأمَّا الحركة التكاملية في الإنسان فهي حركة إرادية اختيارية، قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، أي إنَّنا نفهم أنَّ هذا الكون يتكامل ولا يتراجع سواءٌ الطبيعة أو الكائنات الحيّة، أو المجرّات السماوية، فهناك حركة تكامل في كلّ الوجود وهي حركة ذاتية.

فمثلاً النباتات تتكامل طبيعياً بحركة ذاتية فتمدّ جذورها إلى الأرض لتبحث عن الماء، وترفع أوراقها إلى السماء لتكتسب أشعة الشمس فتحرّكه بشكل ذاتي لاكتساب مصادر الطاقة لنموّه وتكامله.

وقد اكتشف العلم الحديث نجوماً في حالات النشوء، أي إنَّها ما

---

(١) المزار لابن المشهدي: ٢٣٠ و٢٣١؛ كامل الزيارات: ٣٧٥/ باب ٧٩/ ح (٥/٦٢١).

تزال في حالة جنينية، وهي الآن عبارة عن قطع غبارية تحاول أن تتكامل وتتحوَّل إلى نجم أو نجوم.

هذا التحرّك الذاتي والتكاملي في الطبيعة ربَّما نراه في إشاراتٍ قرآنية مثل قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ * وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ﴾ (الرحمن: ٥ ـ ٧)، أي إنَّ هناك نسقاً متكاملاً ومسيراً ذاتياً ﴿الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها﴾ (يس: ٣٨)، الطبيعة كلّها هكذا، فحركة الطيور ذاتية في هجرتها وذلك طلباً للطقس والمناخ المناسب، والأسماك كذلك، فملايين منها تقطع آلاف الكيلومترات بحثاً عن الماء الدافئ، لكي تضع بيوضها ثمّ تعود ﴿الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ (طه: ٥٠)، فالمفهوم القرآني يشير إلى أنَّ الكون كلّه يمشي بحركةٍ تكاملية وليس بحركةٍ تراجعية، والبحث في هذا الموضوع ودلائله العلمية واسع جدّاً.

أمَّا الإنسان هذا الكائن الحيّ العاقل الذي جعله الله تعالى خليفةً في الأرض، هذا الإنسان أيضاً يجب أن يشهد حياة تكاملية ﴿إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦)، يجب أن يعيش تكاملاً، وبما أنَّ الله تعالى أعطاه قدرات متميّزة عن سائر الكائنات، ومن جملتها العقل، والإرادة، فأصبحت حركة التكامل والإصلاح عنده ليست حركة ذاتية قهرية وإنَّما هي حركة إرادية يستطيع أن يتقدَّم فيها أو يتخلَّف عنها.

الإنسان يندفع طبيعياً لمعالجة الآلام، ودفع الأمراض، ويفرُّ من الفقر والذلّ والبؤس بحركةٍ ذاتيةٍ ولا يحتاج بذلك إلى واعظٍ ومرشدٍ يرشده. فكلّ الناس يتَّجهون ذاتياً نحو السعادة والسرور والغنى والعافية، لكن في الجانب المعنوي، والقيم الإنسانية فإنَّ الحركة التكاملية ليست ذاتية، بل تحتاج إلى إسناد ودعم ووحي سماوي وتسديد إلهي.

حيث نشهد معالم التسديد الإلهي في القرآن الكريم حينما يقول: ﴿الرَّحْمنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسانَ * عَلَّمَهُ الْبَيانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ﴾ (الرحمن: ١ ـ ٦)، فحينما يتحدَّث عن الشمس والقمر والنجم والشجر يشير إلى حركة ذاتية، لكن حينما يتحدَّث عن الإنسان يشير إلى امتلاكه للبيان والعلم والإرادة والاختيار، ولعلَّ هذا الأمر هو الذي يشرح لنا ـ كما يقول المفسّرون ـ سبب معرفة الملائكة طبيعة الإنسان حينما أراد الله تعالى أن يستخلفه في الأرض. قال تعالى: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ﴾ (البقرة: ٣٠)، من أين عرفوا؟ ولماذا لم يقولوا هذا الكلام عن سائر المخلوقات الطبيعية؟ هذا التحليل يمكن أن يجيب عن سبب اعتراضهم وهو أنَّ هذا الإنسان يملك عقلاً وإرادة وليس مجبوراً ومقهوراً على التكامل، وإنَّما بإمكانه أن يتكامل ﴿فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ﴾ (الزمر: ٤١)، وبإمكانه أن يتسافل ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها﴾ (الزمر: ٤١)، فإذا كان كذلك إذن هو سيُفسد في الأرض، لأنَّه غير مجبور على الصلاح والإصلاح، فأوحى الله تبارك وتعالى لهم ودلَّهم على أنَّ هذا الإنسان الذي سوف أجعله خليفة وأمنحه عقلاً وإرادة، سوف أمنحه إسناداً سماوياً إلهياً ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها﴾ (البقرة: ٣١)، وهذا أوّل إسناد إلهي، والبحث واسع في معنى ما هي الأسماء.

الفكرة التي نريد أن نصل إليها هي أنَّ الحركة التكاملية في الطبيعة هي حركة ذاتية فكلّ الطبيعة تتكامل من الأرض إلى النجوم لكن الحركة التكاملية في الإنسان ليست حركة ذاتية وإنَّما هي حركة إرادية واختيارية. لذا فهي بحاجة إلى دعم إلهي وسماوي لأنَّ العقل وحده والإرادة وحدها تخضع لضغوط مادية وتنهار أمام الضغوط المادية.

وأحد تلك الضغوط المادية التي يصوّرها القرآن هي الشيطان،

قال: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦)، أي إنَّ عقدة الإنسان أنَّه سيصطدم بمعوّقات في الحركة الإصلاحية، وهو يحتاج إلى منقذ وهذا المنقذ هم الأنبياء عليهم السلام.

الحاجة إلى الأنبياء عليهم السلام:

إذن بعث الأنبياء عليهم السلام ضرورة ولطف إلهي، والحركة الإصلاحية على يد الأنبياء عليهم السلام ضرورة، ولا يمكن للبشر أن يصلوا إلى التكامل بدون الأنبياء عليهم السلام ولهذا تكفَّل الله تعالى بهذا الجانب.

﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥)، ﴿وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً﴾ (القصص: ٥٩).

ويشبه الإنسان في هذه الخاصية وهي الحاجة إلى الأنبياء عليهم السلام في طريق التكامل مخلوق آخر مثله عنده عقل وإرادة وهو الجنّ، ولهذا في نظرية الأديان أنَّ الأنبياء عليهم السلام مبعوثون للإنس والجنّ، ممَّا يعني أنَّ هناك مجتمعاً آخر اسمه مجتمع الجنّ أيضاً يحتاج إلى حركة نبوية إصلاحية، إلاَّ أنَّها فيما يبدو تابعة لحركة البشر، والنبيّ الذي يُبعث إلى البشر هو نفسه يُبعث للجنّ أيضاً كما نقرأ في سورة (الجنّ: ١ و٢): ﴿فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾، وهذا البحث نؤجّله فعلاً، ونكتفي بالتأكيد على فكرة أنَّ حركة الأنبياء عليهم السلام حركة إصلاحية وهي ضرورة لا يمكن للبشر أن يتكاملوا بدونها.

إصلاح الدنيا والآخرة:

هنا يثار سؤال مهمّ، وهو من الأبحاث الساخنة المهمّة في عصرنا هذا. وهو: هل أنَّ بعثة الأنبياء عليهم السلام هي من أجل إصلاح الدنيا أو من أجل إصلاح الآخرة؟ وهذا الأمر يرتبط بالحركة الإصلاحية للأنبياء عليهم السلام.

ما هو هدف حركة الأنبياء عليهم السلام أساساً؟ هل بعثهم الله تعالى لإصلاح الدنيا؟ أم بعثهم الله لإصلاح آخرة البشر؟ هذا بحث معاصر وساخن ومهمّ بين الإسلام وبين الليبرالية الحديثة.

الليبرالية الحديثة تقول: إنَّ الأديان _ وبقطع النظر عن صحَّتها أو عدم صحَّتها _ هدفها بناء ما بعد الموت، شغل الأديان ليس الدنيا، وإنَّما الآخرة، أي إنَّ الأنبياء عليهم السلام يخطّطون لما بعد الدنيا، لكن السلاطين والملوك همُّهم التخطيط للدنيا، فالدنيا شغل الملوك والسياسيين والسلاطين، والآخرة شغل الأنبياء عليهم السلام ولكن هذا التصوَّر غير صحيح، ونظرية الأديان بشكل عامّ هي أنَّ مهمّة الأنبياء عليهم السلام إصلاح الدنيا والآخرة معاً، وبدون إصلاح الدنيا لا يمكن أن يتقدَّم البشر بشكل جمعي نحو الآخرة، وبدون إصلاح المجتمع سياسياً فإنَّ المجتمع سيسوقه الظالمون والكافرون والجبابرة إلى جهنَّم، ولهذا فإنَّ القرآن يتحدَّث عن فرعون فيقول: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدى﴾ (طه: ٧٩)، ومن هنا فإنَّ النظرية الدينية تقول: إنَّ مهمّة الأنبياء ليست مفصولة عن ساحة الدنيا. فهم يعملون للدنيا والآخرة معاً، يقول القرآن الكريم بصريح العبارة:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥)، ومعنى ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ ليس لينجو يوم القيامة ويدخلون الجنّة فقط، وإنَّما ليبنوا حياة عادلة في الدنيا، ومن ثَمَّ تترتَّب الحياة السعيدة في الآخرة.

إذن في ضوء هذه الآية فإنَّ الأديان والأنبياء عليهم السلام مبعوثون للدنيا والآخرة معاً.

قال تعالى: ﴿وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ﴾ (الرحمن: ٧ و٨)، فالأنبياء عليهم السلام بُعثوا لمعالجة المشكلات الاجتماعية.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ﴾ (الرحمن: ٩).

القرآن يخاطب المؤمنين ويقول: ﴿وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ﴾ (النساء: ٧٥)، لا تقولوا: إنَّ جُلّ همّكم هو الآخرة وتتركونَ الدنيا لأهل الدنيا والجبابرة، بل ادخلوا معهم في معركة في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين، أي ابنوا مجتمعاً سعيداً.

وهكذا القرآن الكريم يتحدَّث عن قيم أخلاقية للدنيا وليس فقط للآخرة يقول: ﴿وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢)، القرآن يتحدَّث عن خلاصة دعوة الأنبياء عليهم السلام، حينما يقول: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ (آل عمران: ٦٤)، أي إنَّ المجتمع إذا قام على أساس الاستعباد والاضطهاد، حينئذٍ لا الدنيا تصلح ولا الآخرة وسوف تكون نتيجتهم مثل نتيجة قوم نوح وقوم لوط عليهما السلام، أو نتيجة الأمّة الإسلاميّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كما جاء في كلمة الإمام الحسين عليه السلام: «قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الخلافة محرَّمة على آل أبي سفيان وعلى الطلقاء أبناء الطلقاء، فإذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه» فالخلافة قضيّة سياسية لكن الدين يتدخَّل في هذا الأمر، ثمّ يقول الإمام الحسين عليه السلام: «فوَ الله لقد رآه أهل المدينة على منبر جدّي فلم يفعلوا ما أمروا به، فابتلاهم الله بابنه يزيد، زاده الله في النار عذاباً»[1]، فالإمام الحسين عليه السلام هنا يتحدَّث عن قانون إلهي وهو: إنَّ الأمّة حينما تقبل بالانحراف وتستسلم له، فسوف يُسلَّط عليها الظالمون. لقد كانت نتيجة القبول بالانحراف في الأمم السابقة هو

(١) كتاب الفتوح ٥: ١٧.

الانتقام السماوي والإبادة العامّة، كما في قوم نوح وقوم لوط عليهما السلام، لكن في أمّة رسول الله صلى الله عليه وآله فإنَّ نتيجة الانحراف السياسي ليس هو الإبادة الجماعية، وإنَّما هو المزيد من الابتلاء والمحنة وتسلّط الظالمين وكما يقول الحديث الشريف: «لاَ تَتْرُكُوا الأمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ ثُمَّ تَدْعُونَ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ»(١).

الإصلاح الأخروي مرتبط بالإصلاح السياسي، ومن هنا كانت خلاصة دعوة الأنبياء عليهم السلام هو: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦).

وفق الرؤية الإسلاميّة إنَّ الدين غير مفصول عن السياسة، وإنَّ الأنبياء عليهم السلام مهمّتهم هي إصلاح الدنيا والآخرة معاً كما سنقرأ ذلك.

الأنبياء عليهم السلام أحياناً يدخلون في مواجهة مع الملوك والجبابرة وأحياناً لا يدخلون في مواجهة معهم، لكن الفهم القرآني يقول: إنَّه دائماً هناك تقاطع بين حركة الأنبياء عليهم السلام وحركة الظالمين، ومهما كان موقف النبيّ.

حتَّى إذا لم يدخل في مواجهة مباشرة مع الملك الظالم، فإنَّ الظلمة والملوك والجبابرة سوف يتعرَّضون للأنبياء عليهم السلام كما قال فرعون: ﴿إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ (غافر: ٢٦).

مثلاً أئمّتنا عليهم السلام وفي عصور متعدّدة لم يتدخَّلوا في الشأن السياسي، لعدم توفّر الشروط الموضوعية لكن رأينا أنَّ السلاطين كانوا يتعرَّضون للأئمّة عليهم السلام واحداً بعد واحد.

* * *

(١) نهج البلاغة ٣: ٧٧/ الخطبة ٤٧.

الدراسة الأولى:

بين الإمام الحسين عليه السلام

والنبيّ نوح عليه السلام

- ظاهرتان في مجتمع نوح عليه السلام.
- منهج الحوار.
- مشكلات الأمّة في زمن الإمام الحسين عليه السلام.
- الخطاب السياسي للإمام الحسين عليه السلام.

حركة نوح عليه السلام الإصلاحيّة:

أوّل أولئك الأنبياء المصلحين هو نوح عليه السلام، وهو أوّل الرسل من أولي العزم الخمسة، وهم أصحاب العزائم والشرائع أي أصحاب القوانين، أي إنَّ لديهم قانوناً أساسياً كما نصطلح عليه اليوم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٥)، أي إنَّ آدم عليه السلام لم يكن لديه العزم الكافي لتحمّل أعباء الرسالة الإلهية، هو نبيّ لكن مرتبة الرسول أعظم وهذه قضيّة تحتاج إلى شرح، كما أنَّ مرتبة الإمامة أعظم من مرتبة النبوّة، فبعض الرسل كان نبيّاً ورسولاً ولكنَّهم لم يصبحوا أئمّة، الإمامة هي مرتبة أعظم وتعني القيادة الميدانية في أحد معانيها، ولهذا يقول الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بعدما كان نبيّاً وكان رسولاً: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: ١٢٤)، أي إنَّك سوف تتطوَّر من نبيّ ثمّ رسول ثمّ تصبح إمام أُمّة كاملة.

وهناك تسعة آباء بين نوح وآدم عليهما السلام، أي إنَّ آدم عليه السلام هو الأب التاسع لنوح عليه السلام، والفاصلة بين ممات آدم وولادة نوح عليهما السلام هي (٧١٢) سنة.

ويبدو أنَّ نوحاً كان في بدايات تكوّن المجتمع الإنساني، فقبل نوح عليه السلام كان هناك مجتمع لم يبلغ إلى حدّ التعقيد الاجتماعي الذي يشهد تنافسات وصراعات، ولكن نوحاً عليه السلام شهد مجتمعاً معقّداً فيه تنافسات ومجاذبات اجتماعية متعدّدة.

ظاهرتان في مجتمع نوح عليه السلام:

لأوّل مرَّة برزت ظاهرتان وهي ظاهرة الوثنية، وظاهرة الاستعباد، وقد كانت حركة نوح تهدف إلى مواجهة هاتين الظاهرتين. الوثنية تعني عبادة الأوثان. والاستعباد يعني طبقات مختلفة فالطبقة الغنية تستعبد الطبقة الفقيرة. ولهذا نجد أنَّ نوحاً لم يقاوم ملكاً من الملوك مثل موسى عليه السلام الذي قاوم فرعون، لذا نجد أنَّ القرآن الكريم يتحدَّث عن نوح عليه السلام وقومه ولا يتحدَّث عن نوح وملك زمانه، ويبدو أنَّه لم تكن هناك دولة. تاريخياً نستطيع أن نقول: إنَّ نوح عليه السلام عاش مرحلة المجتمع بدون دولة وبدون ملك وحاكم، مجتمع عبارة عن طبقات أو عشائر أو شرائح متعدّدة عاش معهم نوح، وبرزت في هذه الحالة الاجتماعية ظاهرة الوثنية وظاهرة الاستعباد والطبقية، هذا ما نقرؤه في التصريحات الدينية والسياسية لنوح عليه السلام.

فالقرآن الكريم يتحدَّث عن نوح عليه السلام بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ (نوح: ٢٢ و٢٣)، هذه أسماء أصنام، ﴿فَقالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ﴾ (هود: ٢٧)، نوح عليه السلام بدأ يعالج قومه: ﴿وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (هود: ٢٩)، أي إنَّ هذه الطبقة التي أنتم تستحقرونها فأنا لا أؤيّدكم باستحقارها، ولا أقول: إنَّ الله تعالى سوف لن يوفّق هؤلاء لأنَّهم ضعفاء وفقراء، فربَّما يكون الخير كلّه على يد هذه الطبقة الفقيرة.

منهج الحوار:

نوح عليه السلام في آليات حركته هو أوّل من استخدم وشقَّ طريق الحوار العقلي أو الجدل والحوار الحرّ، فلا يتحدَّث القرآن في حركة نوح عليه السلام مع قومه الذين لبث فيهم ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً عن حرب ومعركة، ولكن يتحدَّث عن جدل عنيف وحوار بين نوح عليه السلام وقومه حتَّى يئس منهم. هذه آلية الحوار أي آلية الإصلاح السلمي، يعني أنَّ نوحاً في رسالته الإصلاحية اعتمد آلية الإصلاح السلمي.

يقول نوح عليه السلام بعد ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاَّ فِراراً * وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً﴾ (نوح: ٥ _ ٧)، لقد أصبح نوح عليه السلام يتحدَّث عن الأزمة ويقول تعالى على لسان قومه: ﴿قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (هود: ٣٢)، أي إنَّك تؤمن بالله ونحن لا نؤمن بالله، وتؤمن بالمساواة الاجتماعية ونحن نؤمن بالطبقية، وإذا كنت صادقاً فادعُ ربّك أن ينزّل علينا عذاباً من السماء، ونحن لا نخضع للأدوات العلمية والمنطقية، ﴿قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ (هود: ٣٣ و٣٤)، أي إنَّ نوحاً عليه السلام وصل إلى الطريق المغلق معهم وقد أكدَّ الله سبحانه وتعالى له ذلك فقال: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ (هود: ٣٦)، حينئذٍ قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً﴾ (نوح: ٢٦ و٢٧)، فهنا يتبيَّن أنَّ نوحاً عليه السلام لم يخض حرباً مسلَّحة وإنَّما التجأ إلى العقاب الإلهي وإلى قوَّة ما وراء الطبيعة، لأنَّ

هؤلاء يقفون حجر عثرة في طريق التكامل البشري وهذا الجيل الذي عاشه نوح عليه السلام يجب أن ينتهي لأنَّ حركة التكامل البشري لا يمكن أن تستمرّ مع وجود هذا الجيل، هذه المجموعة المصابة بعقم الهداية، هؤلاء يجب أن ينتهوا وتفتح صفحة أخرى لجيل بشري جديد والذي أخذ أصوله نوح عليه السلام في سفينته، ولهذا يقول القرآن: ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٨)، فالبركة ظهرت فيما بعد، أي في الأجيال الآتية التي جاءت بعد نوح عليه السلام.

أوّل من فتح باب التشريع:

نوح عليه السلام كان من الصالحين. وله الفضل على جميع البشرية، وإنَّ جميع الشرائع التوحيدية هي تابعة إلى نوح عليه السلام، فأوّل من شرَّع الشريعة الإلهية هو نوح، ثمّ إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ونبيّنا صلى الله عليه وآله ولهذا القرآن الكريم يتحدَّث عن هذا الأمر قائلاً: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ﴾ (النساء: ١٣٦).

العلاّمة الطباطبائي في تفسير الميزان له التفاتة رائعة يقول: قوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي العالَمِينَ﴾ (الصافات: ٧٩)، أي تحيّة وسلام على نوح عليه السلام في كلّ الخطّ العالمي البشري ﴿فِي العالَمِينَ﴾ فله فضل عليهم، هذا النمط من السلام لم يأتِ لنبيّ من الأنبياء، يوجد سلام آخر مثل: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ (مريم: ٣٣)، و﴿سَلامٌ عَلى إِلْ‌ياسِينَ * إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الصافات: ١٣٠ و١٣١)، ولكن ليس في العالَمين، هذا تخصيص لنوح عليه السلام[1].

(١) أنظر: الميزان في تفسير القرآن ٥: ٣٢.

أدب البسملة:

نـوح عليه السلام أوّل مـن بـدأ بشـعار بسـم الله الـرحمن الـرحيم أو بسـم الله، نحـن الآن فـي عُرفنـا الـديني نبـدأ كـلّ عمـل بــ (بسـم الله). وأوّل مـن بـدأ هـذه السُنّة هـو نـوح عليه السلام وذلـك كمـا يشـير إليـه القـرآن الكـريم حيـث قـال: ﴿وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللهِ مَجْراها وَمُرْساها﴾ (هود: ٤١).

سفينة نوح عليه السلام:

قال نـوح عليه السلام: ﴿ارْكَبُـوا فِيهـا بِسْـمِ اللَّـهِ مَجْراهـا وَمُرْسـاها﴾ وأخـذ مـن كـلّ زوجين اثنين، وجماعته المؤمنين وهم قلَّة، وتخلَّف عنه ابنه وقال: ﴿سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ (هود: ٤٣)، يذكر التاريخ كما في رواية التوراة: إنَّ السفينة بقيت أربعين يوماً على سطح الماء. وبعد هـذه المـدّة أرسـل نـوح عليه السلام غراباً ليعرف هل هناك أرض يابسـة أم لا، الغراب تلكَّأ ولم يتقدَّم كثيراً، فاستبدله نوح بحمامة ورجعت هذه الحمامة ولم تأو إلى أرض يابسة، وبعد أسبوع أرسل حمامة أخرى فذهبت بعيداً وجاءت بورقة زيتون (وهذه هي فلسفة شعار ورقة الزيتون كشعار للسلام) فعرف نوح من ذلك أنَّه بدأ الجفاف وأنَّ المياه بدأت تجفّ حيث ظهرت الأشجار، ثمّ بعد أسبوع أرسل حمامة أخرى فلم تعد إليه لأنَّها وجدت أرضاً وأشجاراً وبقيت هناك، ثمّ نزل نوح عليه السلام وبدأت المسيرة الجديدة، هذا حسب رواية التوراة[١].

الجـدل العقلـي والحـوار العلمـي الحـرّ كـان محـور حركـة نـوح عليه السلام. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها

(١) قاموس الكتاب المقدس: ٢١٩ (سفر التكوين/ مزمور ٥٥: ٦ - ٨).

وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ (نوح: ١٥ ـ ١٨). جدل وحوار علمي ومنطقي، واستخدام العقل إلى جانب الشرائع الإلهية، هذه هي الآليات التي استخدمها نوح عليه السلام في مواجهة الشرك العقيدي، ومواجهة الظلم الطبقي.

الإمام الحسين والنبيّ نوح عليهما السلام:

الإمام الحسين عليه السلام يضع نفسه موضع الوارث لحركة الأنبياء عليهم السلام الذي وضعه الله فيه بدءً من آدم عليه السلام كنبيّ ثمّ إلى نوح عليه السلام كأوّل الرسل أولي العزم وأصحاب الشرائع.

لننظر للحسين عليه السلام ماذا عمل؟ وما هي آليات وأدوات (وما يصطلح عليه اليوم بأجندة) الإمام الحسين عليه السلام في الحركة الإصلاحية.

كان الإمام الحسين عليه السلام يهدف إلى حركة إصلاحية حين قال: «إنَّما خرجت لطلب النجاح والصلاح في أمّة جدّي محمّد صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»[1]، فالحسين عليه السلام يجدها ضرورة ولا بدَّ له من قيادة رايتها ولا يمكن للأمّة أن تتكامل بدون حركة إصلاحية مدعومة إلهياً.

مشكلات الأمّة:

واجه الإمام الحسين عليه السلام في حركته الإصلاحية مشكلتين عند الأمّة:

المشكلة الأولى: هي مشكلة فقد القدرة على التمييز.

والمشكلة الثانية: هي فقد إرادة التغيير.

---

(١) كتاب الفتوح ٥: ٢١.

أمّة غير قادرة على أن تميّز ما هو الحقّ وما هو الباطل، أو ما ينفعها وما يضرّها، وهذا من أخطر الأمراض. إنَّ أمّة من الأمم تكون غير قادرة على التمييز لهي مثل الطفل الذي لا يميّز بين الماء والنفط فمن الطبيعي أن يحتاج إلى أُمّ وأب ليرشداه وإلاَّ فإنَّه سوف يشرب النفط ويهلك.

الأمّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أصيبت بحركة تحريف وكانت تحتاج إلى حركة تصحيح، الخطّ النفاقي قاد حركة التحريف والخطّ العلوي قاد حركة التصحيح، الأمّة بعد حركة التحريف اُبتليت بمرضين، المرض الأوّل هو فقد القدرة على التمييز، والمرض الثاني هو فقد إرادة التغيير.

فقد القدرة على التمييز:

أرسل معاوية رسولاً إلى الإمام علي عليه السلام يقول له: أبلغ علياً أنّي أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرّق بين الناقة والجمل[1]، أي ليس لديهم قدرة تمييز، وهم كالعميان والعبيد. ولهذا حينما قُتل عمّار بن ياسر وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال: «عمّار تقتله الفئة الباغية»[2] حدث شيء من القلق في جيش الشام وعرفوا بأنَّهم هم الفئة الباغية، فالعمى الذي أصاب الناس حينها، حيث تحرَّكت عليهم فضائيات إعلامية يومئذٍ وقالوا: أنتم لم تقتلوه، إنَّما قتله علي بن أبي طالب لما ألقاه بين رماحنا. وهكذا انطلت عليهم الشبهة واقتنعوا بأنَّهم ليسوا من قتل عمّار بن ياسر، وأنَّ علياً عليه السلام هو الذي قتله[3]، بأدنى حركة إعلامية تضليلية انتهت قدرتهم على التمييز، هذا معنى فقد القدرة على التمييز.

---

(١) الغدير للأميني ١٠: ١٩٦.

(٢) معاني الأخبار: ٣٥/ باب معنى الصراط/ ح ٤؛ صحيح البخاري ٣: ٢٠٧.

(٣) معاني الأخبار: ٣٥/ باب معنى الصراط/ ح ٤.

الشعب إذا فقد القدرة على التمييز ينتهي، وانتهت حضارات وشعوب لأنَّها لا تملك قدرة على التمييز بين الحقّ والباطل.

كانوا يقولون للإمام علي عليه السلام: يا أبا الحسن ما الدليل على أنَّك على حقّ؟ أنت صهر رسول الله صلى الله عليه وآله وعائشة أيضاً زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله فليس معلوماً أن تكون أنت الأفضل، إذا كانت المقاييس هي الانتساب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فكلاكما أنت وعائشة سواء في هذه النسبة، فليس لديهم قدرة على التمييز وليس لديهم أدوات يميّزون بها.

الإمام عليه السلام أشار إلى ضرورة استخدام أدوات صحيحة حقيقية فقال: «اعرف الحقّ تعرف أهله»[1] يعني إنَّ القضيّة أوّلاً أن تعرفوا الحقّ، حينئذٍ يكون لديكم بصيرة وعين ومجهر لكي تنظروا به الحقّ وتعرفوا من هو تابع الحقّ ومن هو المنحرف عن الحقّ.

الأمّة في زمن الحسين عليه السلام كتسلسل وتراكم أصيبت بفقد القدرة على التمييز وهذا حديث واسع جدًّا لأنَّنا نعيش حاجة مستمرّة إلى القدرة على التمييز. وأحد نقاط القوّة لدى الشيعة هو امتلاك القدرة على التمييز.

ذلك الذي يحمل رأس الحسين عليه السلام إلى الشام يقول ليزيد بن معاوية:

امـلأ ركابي فضَّةً أو ذهبا ... إنّي قتلت الملك المحجّبا

قتلت خير الناس أُمّاً وأبا ... ضربته بالسيف حتَّى انقلبا

فأمر يزيد بقتله وقال: حين علمت أنَّه خير الناس أُمّاً وأباً، لِمَ قتلته[2]؟

---

(١) أمالي المفيد: ٥/ ح ٣؛ بحار الأنوار ٦: ١٧٩/ باب ٧/ ح ٧.

(٢) الخرائج والجرائح ٢: ٥٨٠.

فقد إرادة التغيير:

وهـي المشـكلة الثانيـة التـي واجههـا الإمـام الحسـين عليه السلام فـي تلـك الأمّـة، أي إنَّ هـؤلاء حتَّـى وإن امتلكـوا شـيئاً مـن القـدرة علـى التمييـز فلـيس لـديهم إرادة التغييـر. لـديهم خـوف وانهيـار وهـو مـا يسـمّى اليـوم بالإحبـاط والهزيمـة النفسـية وعـدم الأمـل فـي النصـر، فـابن سـعد كـان قائـد قـوّات مسـلّحة مكوّنـة مـن ثلاثـين ألـف مقاتـل، وكـان بإمكانـه أن يغيّـر المسـير كلّـه، لكنَّه يفقد الإرادة رغم أنَّه لم يؤمن بشرعية الحرب ضدّ الحسين عليه السلام.

ومـن الأدوات التـي اسـتخدمها الإمـام الحسـين عليه السلام فـي المعركـة كما استخدمها نوح عليه السلام هي الحوار والجدل العلمي.

والإمـام الحسـين عليه السلام فـي كـلّ موضـع كـان يسـتطيع أن يحـاور، دخـل فـي حـوار. وفـي كـلّ موضـع كـان يسـتطيع أن يحـرّك الفطـرة، ذهـب ليحـرّك الفطـرة. إلاَّ إذا اصـطدم بفطـرة عميـاء ميّتـة مثـل مـا هـو موجـود فـي ابـن سـعد، حيـث أرسـل إليـه: «إنّـي أريـد أن أكلّمـك فـألقني الليلـة بـين عسـكري وعسـكرك»، فخـرج إليـه ابـن سـعد فـي عشـرين وخرجـه إليـه الحسـين فـي مثـل ذلـك، فلمَّـا التقيـا أمـر الحسـين عليه السلام أصـحابه فتنحّـوا عنـه وبقـي معـه أخـوه العبّـاس، وابنـه علـي الأكبـر، وأمـر عمـر بـن سـعد أصـحابه فتنحّوا عنه، وبقي معه ابنه حفص وغلام له.

فقال له الحسين عليه السلام: «ويلك يا ابن سعد أمَا تتَّقي الله الذي إليه معادك؟ أتقاتلني وأنا ابن من علمت؟ ذر هؤلاء القوم وكن معي، فإنَّه أقرب لك إلى الله تعالى»، كان جواب ابن سعد: (أخاف أن يُهدم داري)! يعني هو مستعدّ أن يقتل الحسين ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يعلم بأنَّه يرتكب أكبر جناية في التاريخ لمجرَّد أنَّه يخاف أن يهدم ابن زياد داره.

فقال له الحسين عليه السلام: «أنا أبنيها لك».

قال: أخاف أن تؤخذ ضَيعتي.

فقال الحسين عليه السلام: «أنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز».

فقال: لي عيال وأخاف عليهم، ثمّ سكت ولم يجبه إلى شيء.

دخل الحسين عليه السلام معه في حوار، لكن حوار مع ضمير ميّت بدون جدوى.

فانصرف عنه الحسين عليه السلام وهو يقول: «ما لك ذبحك الله على فراشك عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك، فوَ الله إنّي لأرجو أن لا تأكل من بُرّ العراق إلاَّ يسيراً».

فقال ابن سعد: في الشعير كفاية عن البُرّ[1].

هذا مستوى قائد قوّات قد فقد الإرادة على التغيير.

كان امتياز أصحاب الحسين عليه السلام ومنهم الحرّ الرياحي هو امتلاك التميز والإرادة على التغيير.

فلذا كان الإمام الحسين عليه السلام في حركته الإصلاحية يهدف إلى إعادة القدرة على التميز وإعادة روح الإرادة عند الأمّة.

فحركة التحريف تحتاج إلى حركة تصحيح تقابلها.

محاور حركة التصحيح:

قاد الإمام الحسين عليه السلام حركة التصحيح في محورين هما: محور الأمّة، ومحور الإمامة. الأمّة تحتاج إلى تصحيح والحكومة هي أيضاً تحتاج إلى تصحيح.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٨ و٣٨٩.

الإمام الحسين عليه السلام كان يمشي ويشع بنور التصحيح على مستوى الأمّة والإمامة، مرَّةً يقول: «لعمري ما الإمام إلاَّ الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط»(١)، هذه هي شروط الإمام الحاكم، أيّها الإخوة، أيّها المسلمون، الإمام له شروط وهذه هي شروطه، «ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحرَّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله»،(٢) هذه حركة تصحيح في موقع الإمامة.

من ناحية ثانية الإمام الحسين عليه السلام يشع أنواراً من خلال تصريحاته وخطبه ورسائله، لكي يستنهض الأمّة ويحرّكها ويعطيها إرادة حينما يقول: «ألا وإنَّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذلّة وهيهاتَ منّا الذلّة»(٣).

الخطاب السياسي للإمام الحسين عليه السلام:

كان الإمام الحسين عليه السلام قد خطب في يوم عاشوراء ثلاث خطب.

لماذا يخطب؟ تلك هي آليات حركة الإمام الحسين عليه السلام الإصلاحية كما هي لدى كلّ الأنبياء عليهم السلام، فأوّل آلية من آلياتها هي استخدام التوعية والموعظة. ولهذا فإنَّ فقهاءنا يقولون في باب الجهاد: يجب قبل القتال الموعظة أوّلاً والدعوة إلى دين الله، ثمّ يأتي القتال بعد اليأس من نجاح الدعوة، فالقتال هو حالة متأخّرة وليس حالة متقدّمة.

---

(١) روضة الواعظين: ١٧٣.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٧.

(٣) اللهوف في قتلى الطفوف: ٥٩.

قال الحسين عليه السلام في بعض تلك الخطب: «أمَّا بعد: فانسبوني فانظروا من أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم، وابن وصيّه وابن عمّه وأوّل المؤمنين المصدّق لرسول الله بما جاء به من عند ربّه، أوَليس حمزة سيّد الشهداء عمّي، أوَليس جعفر الطيّار في الجنّة بجناحين عمّي، أوَلم يبلغكم ما قال رسول الله لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنّة؟ فإن صدَّقتموني بما أقول وهو الحقّ، والله ما تعمَّدت كذباً منذ علمت أنَّ الله يمقت عليه أهله، وإن كذَّبتموني فإنَّ فيكم من لو سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري وأبا سعيد الخدري وسهل بن سعد الساعدي وزيد بن أرقم وأنس بن مالك، يخبرونكم أنَّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي، أمَا في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟».

ثمّ قال لهم: «فإن كنتم في شكّ من هذا، أفتشكّون أنّي ابن بنت نبيّكم؟ فوَ الله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري فيكم ولا في غيركم، ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص جراحة؟» فأخذوا لا يكلّمونه[1].

* * *

(١) الإرشاد: ٩٧ و٩٨؛ بحار الأنوار ٤٥: ٦ و٧.

الدراسة الثانية:

بين الإمام الحسين عليه السلام
والنبيّ إبراهيم عليه السلام

- نشوء المجتمع السياسي.
- أهداف إبراهيم عليه السلام.
- معالم المنهج الإبراهيمي.
- من معالم الحركة الحسينية.
- إصلاح الدنيا والآخرة.

الإمام الحسين والنبيّ إبراهيم عليهما السلام:

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا ذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الصافات: ٨٣ _ ٨٩).

قال إمامنا الحسين عليه السلام: **«... من كان باذلاً فينا مهجته وموطّناً على لقاء الله نفسهُ، فليرحل معنا فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله»**[(١)].

نتحدَّث في هذه الدراسة عن تجربة إبراهيم عليه السلام، وهو ثاني الأنبياء من أولي العزم. النبيّ الأوّل الذي حمل رسالة وتشريعاً للبشرية هو نوح عليه السلام، وبعد فاصلةٍ تزيد على سبعمائة وتسعين عاماً جاءت الرسالة الثانية الإصلاحية التغييرية الإلهية وهي رسالة إبراهيم عليه السلام الذي عاش من العمر مئة وخمسة وسبعين عاماً. وفي اعتقادي إنَّ هذه الأبحاث هي في غاية العمق، لكن أنا مضطرّ لتبسيطها ولتناول عناوين منها، وذكر بعض القصص التاريخية فيها حتَّى يكون الموضوع متماسكاً بما فيه من قرآن وتاريخ وموعظة ثمّ نصل للحسين عليه السلام.

شخصيّة إبراهيم عليه السلام:

لا نلاحظ في القرآن الكريم تسليطاً للضوء وتمييزاً لنبيّ من الأنبياء، كما جاء لإبراهيم عليه السلام.

---

(١) مثير الأحزان: ٢٩.

القرآن مرَّةً يقول: ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (هود: ٧٥).

ومرة يقول: ﴿وَاتَّخذ اللهُ إبراهيم خَلِيلاً﴾ (النساء: ١٢٥).

وتارةً يقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ (مريم: ٤١).

وأخرى يقول: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (البقرة: ١٣٠).

تميّز ولمعان في تاريخ الأنبياء عليهم السلام خاصّ بشخصية إبراهيم عليه السلام حتَّى أنَّ القرآن الكريم يعتبر إبراهيم عليه السلام هو أصل الإسلام وهو أبوكم ونبيّكم حيث يقول: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الحجّ: ٧٨)، ثمّ يقول: ﴿ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: ٦٧).

الحنيفيّة الكبرى:

هناك تميّز مخصوص يرجع إلى إبداع في شخصية إبراهيم عليه السلام، من أجل ذلك كانت مسألة الصراع على شخصية إبراهيم عليه السلام، اليهود يريدون أن يستميلوا إبراهيم عليه السلام إليهم، النصارى يريدون أن يستميلوا إبراهيم عليه السلام إليهم، الإسلام يقول: إبراهيم عليه السلام لا لليهود ولا إلى النصارى، وإنَّما هو أصل الحنيفية الكبرى التي هي عبارة عن دين النقاء والطهارة والإسلام لله بمعناه العامّ.

نشوء المجتمع السياسي:

لقد عاش إبراهيم عليه السلام عهداً بشرياً جديداً كما يبدو تاريخياً، هذا العهد الذي عاشه هو بداية لتأسيس المجتمع السياسي، أي إنَّه ما قبل إبراهيم عليه السلام لم يكن هناك مجتمع سياسي، كانت عشائر وقرى تعيش هنا وهناك، لكن في عهد إبراهيم عليه السلام شهدنا ملكاً ومؤسسات دولة، وضرائب وجنود يأخذون الضرائب

من الناس، بدايات تشكيل المجتمع السياسي، بينما الدراسة السابقة أوضحت أنَّ نوحاً عليه السلام لم يواجه ملكاً، وإنَّما كان يواجه قوماً[١]، لكن في زمن إبراهيم عليه السلام أصبحنا نجد هناك ملكاً في العراق وفلسطين ومصر لأنَّ إبراهيم عليه السلام هو وليد العراق، أو بالأحرى هو وليد منطقة من أطراف الكوفة، ثمّ ارتحل من هذه المنطقة إلى أور، ثمّ إلى فلسطين، ثمّ إلى مصر، هذه رحلة إبراهيم عليه السلام، إذن هو قد عاش بداية تكوّن المجتمع السياسي. وتاريخ إبراهيم عليه السلام بالنسبة لنا يمتدّ إلى أربعة آلاف عام. وهذا التاريخ هو تاريخ حمورابي، وكان مقارناً لظهور الشرائع وهنا كانت شريعة حمورابي: الشريعة العلمانية وليست الإلهية، وجاء إبراهيم ليعطي شريعة إلهية.

أهداف إبراهيم عليه السلام:

ما هي أهداف تجربة إبراهيم عليه السلام؟

وما هو منهجه؟

إبراهيم عليه السلام كان له هدفان:

الهدف الأوّل: التوحيد ومحاربة الأصنام، كما سنقرأ ذلك في القرآن الكريم.

الهدف الثاني: بناء المجتمع الصالح على أسس صالحة سُمّيت بالحنيفية، ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً﴾ (آل عمران: ٦٧).

هناك شيء اسمه الحنيفية.

وهذا في الحقيقة اصطلاح جديد، كما هو في زماننا حيث عندنا اصطلاح ديمقراطية واشتراكية. إبراهيم عليه السلام جاء بالديانة الحنيفية،

---

(١) أنظر (ص ٢٢) تحت عنوان: ظاهرتان في مجتمع نوح عليه السلام.

وأصلها اللغوي: الطهر والطهارة أي الطهر والنقاء، هذه هي الأسس التي دعا إليها إبراهيم عليه السلام لتشكيل المجتمع الإنساني.

معالم المنهج الإبراهيمي:

ما هو المنهج؟ هناك ستّة معالم لمنهج إبراهيم عليه السلام:

المعلم الأوّل: اعتماد أسلوب الحوار والدليل العلمي.

المعلم الثاني: التحدّي الميداني والدخول في مواجهة.

المعلم الثالث: التركيز على القيم الأخلاقية والسنن الصالحة.

المعلم الرابع: عدم الدخول في مواجهة الملك والسلطان.

المعلم الخامس: البراءة من أعداء الله والهجرة والمقاطعة لهم.

المعلم السادس: التسليم.

نتحدَّث عنها بشكل موجز.

المعلم الأوّل: الحوار:

إبراهيم عليه السلام يؤمن بالحوار والمناقشة الحرّة، حتَّى على مستوى الإيمان بالله تبارك وتعالى حيث قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبراهيم﴾ أيّها الناس اطلعوا على مسيرة أنبيائكم، اعرفوا حركة أنبيائكم الإصلاحية وماذا عملوا ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبراهيم * إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ * قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ * قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء: ٦٩ _ ٧٤)، فهاهنا مناقشة وحوار.

في سورة الشعراء استعراض لهذا الحوار بينه وبين قومه، حيث لا يوجد دليل علمي لديهم، عندما قال لهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ

﴿يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾؟ لم يكن لديهم جواب سوى أنَّهم يتَّبعون آباءهم، ﴿قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٥٣).

المعلم الثاني: التحدّي والمواجهة الميدانية:

ذكرنا أنَّ نوحاً عليه السلام هو أيضاً بدأ آلية الحوار مع الناس، لكن الفرق بين نوح وإبراهيم عليهما السلام نجدهُ في عدم دخول نوح عليه السلام في مواجهة. بينما إبراهيم عليه السلام دخل في تحدّي ومواجهة.

قوم نوح عليه السلام يتحدَّث عنهم القرآن قائلاً: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ (نوح: ٢٢ و٢٣)، ومع ذلك لم يدخل نوح عليه السلام معهم في مواجهة ميدانية ومعركة، بينما إبراهيم عليه السلام قال: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٥٧ _ ٥٩)، وهذه نقلة في الحقيقة ما وجدناها في الأديان السابقة. بدأها إبراهيم عليه السلام. قالوا: سمعنا أنَّ هناك فتىً إصلاحياً نازلاً في الميدان يقال لهُ: إبراهيم، ﴿قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ * قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، فكسَّر الأصنام إلاَّ الصنم الكبير، وعلَّق الفأس عليه، فلمَّا سألوه: يا إبراهيم من كسَّر الأصنام أأنت؟ قال: هذا كبيرهم ألا ترون الفأس على رأسهِ؟ اسألوهم، ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، هذا صنم لا يتكلَّم لا يتحرَّك، إبراهيم عليه السلام حجّته قويّة، ﴿فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي أصبحوا يتشاورون فيما بينهم، ثمّ طأطاوا رؤوسهم ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ﴾، أحدهم يقول للآخر: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾.

هذا معلم جديد في منهج إبراهيم عليه السلام وسوف يمتدّ إلى موسى

وإلى عيسى عليهما السلام في مراحل متطوّرة، حتّى نصل إلى نبيّنا صلى الله عليه وآله الذي أسّس الدولة.

إبراهيم عليه السلام دعا إلى تشكيل المجتمع المدني المتحضّر دون أن يؤسّس دولة، ودون أن يتصدّى للسياسة، ودون أن يطلب الملك والحكم. وهذه قضيّة متميّزة سنجدها فرقاً بين الإسلام وبين الأديان السابقة وهذا بحث عميق نكتفي بالإشارة إليه.

المعلم الثالث: الابتعاد عن المواجهة السياسية:

كان المعلم الثالث في حركة إبراهيم الخليل عليه السلام هو الابتعاد عن المواجهة السياسية فعملية تكسير الأصنام هي مواجهة، لكن يمكن أن نسمّيها: مواجهة عقائدية وليست مواجهة سياسية مع الدولة ومع الحاكم ومع المَلِك، وهنا القرآن الكريم يشير إلى أنَّ إبراهيم عليه السلام في الوقت الذي لم يدخل في المواجهة السياسية، لكن الملك والدولة جرَّتهُ إلى مواجهة سياسية، أي بدأ السلطان يتحرَّش بالنبيّ وليس النبيّ هو الذي يتحرَّش بالسلطان بخلاف الحال عند موسى عليه السلام حين قال له الله تعالى ولأخيه هارون: ﴿اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى﴾ أي إنَّ النبيّ موسى وهارون عليهما السلام كانا مكلّفين بالتصدّي للعملية السياسية ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ (طه: ٤٣ و٤٤)، أمَّا إبراهيم عليه السلام فرغم أنَّ هناك مَلِكاً موجوداً اسمه نمرود في العراق لكن القرآن الكريم لا يشير أبداً إلى أنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام أُمر بالذهاب إلى هذا السلطان ومحاجته، وإنَّما نمرود هو الذي ناقش إبراهيم عليه السلام وحاججه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إبراهيم فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إبراهيم رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قالَ أَنَا

أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبراهيم فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

إبراهيم الخليل عليه السلام كان يدعو إلى تشكيل مجتمع متمدّن. وهذا المجتمع المتمدّن الذي يدعو إليه إبراهيم عليه السلام يكون قائماً على قيم وأصول وليس على دكتاتوريات كما في حكومة نمرود.

المعلم الرابع: الهجرة:

الهجرة هي مشروع إبراهيمي. وهو الذي شرَّعه وهي أحد الآليات التي استخدمها إبراهيم عليه السلام وكذلك المقاطعة والبراءة من الذين كفروا ﴿قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (الصافّات: ٩٩ و١٠٠)، هاجر إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين، حيث لم يؤمن به إلاَّ زوجته ولوط عليه السلام (وهو ابن خالته)، وهؤلاء الثلاثة قرَّروا الهجرة ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ (العنكبوت: ٢٦).

قصة إبراهيم والمَلِك:

عمل إبراهيم عليه السلام تابوتاً وجعل فيه سارة وشدَّ عليها الإغلاق غيرة منه عليها ومضى حتَّى خرج من سلطان نمرود وصار إلى سلطان رجل من القبط يقال له: عرارة، فمرَّ بعاشر له _ وهم جباة ضرائب للدولة _، فاعترضه العاشر ليعشر ما معه فلمَّا انتهى إلى العاشر ومعه التابوت، قال العاشر لإبراهيم عليه السلام: افتح هذا التابوت حتَّى نعشر ما فيه.

فقال له إبراهيم عليه السلام: قل ما شئت فيه من ذهب أو فضَّة حتَّى نعطي عشره ولا تفتحه.

قال: فأبى العاشر إلاَّ فتحه.

قال: وغضب إبراهيم عليه السلام على فتحه، فلمَّا بدت له سارة وكانت موصوفة بالحسن والجمال، قال له العاشر: ما هذه المرأة منك؟

قال إبراهيم عليه السلام: هي حرمتي وابنة خالتي.

فقال له العاشر: فما دعاك إلى أن خبَّيتها في هذا التابوت؟

فقال إبراهيم عليه السلام: الغيرة عليها أن يراها أحد.

فقال له العاشر: لست أدعك تبرح حتَّى أعلم الملك حالها وحالك.

قال: فبعث رسولاً إلى الملك فأعلمه فبعث الملك رسولاً من قبله ليأتوه بالتابوت فأتوا ليذهبوا به، فقال لهم إبراهيم عليه السلام: إنّي لست أفارق التابوت حتَّى تفارق روحي جسدي، فأخبروا الملك فأرسل الملك أن احملوه والتابوت معه، فحملوا إبراهيم عليه السلام والتابوت وجميع ما كان معه حتَّى أدخل على الملك فقال له الملك: افتح التابوت.

فقال إبراهيم عليه السلام: أيّها الملك إنَّ فيه حرمتي وابنة خالتي وأنا مفتد فتحه بجميع ما معي.

قال: فغضب الملك إبراهيم عليه السلام على فتحه، فلمَّا رأى سارة لم يملك حلمه سفهه أن مدَّ يده إليها فأعرض إبراهيم عليه السلام بوجهه عنها وعنه غيرة منه، وقال: اللّهمّ احبس يده عن حرمتي وابنة خالتي، فلم تصل يده إليها ولم ترجع إليه.

فقال له الملك: إنَّ إلهك الذي فعل بي هذا؟

فقال له: نعم إنَّ إلهي غيور يكره الحرام وهو الذي حال بينك وبين ما أردت من الحرام.

فقال له الملك: فادع إلهك يرد عليَّ يدي فإن أجابك لم أعرض لها.

فقال إبراهيم عليه السلام: إلهي ردّ عليه يده ليكفّ عن حرمتي.

قال: فردَّ الله عزّ وجلّ عليه يده فأقبل الملك نحوها ببصره ثمّ أعاد بيده نحوها فأعرض إبراهيم عليه السلام عنه بوجهه غيرة منه وقال: اللّهمّ احبس يده عنها.

قال: فيبست يده ولم تصل إليها.

فقال الملك لإبراهيم عليه السلام: إنَّ إلهك لغيور فادع إلهك يردّ عليَّ يدي فإنَّه إن فعل لم أعد.

فقال له إبراهيم عليه السلام: أسأله ذلك على أنَّك إن عدت لم تسألني أن أسأله.

فقال الملك: نعم.

فقال إبراهيم عليه السلام: اللّهمّ إن كان صادقاً فردّ عليه يده، فرجعت إليه يده، فلمَّا رأى ذلك الملك من الغيرة ما رأى ورأي الآية في يده عظَّم إبراهيم عليه السلام وهابه وأكرمه واتّقاه وقال له: قد أمنت من أن أعرض لها أو لشيء ممَّا معك فانطلق حيث شئت ولكن لي إليك حاجة.

فقال إبراهيم عليه السلام: ما هي؟

فقال له: أحبّ أن تأذن لي أن أخدمها قبطية عندي جميلة عاقلة تكون لها خادماً.

قال: فأذن له إبراهيم عليه السلام، فدعا بها فوهبها لسارة وهي هاجر أُمّ إسماعيل عليه السلام.

فسار إبراهيم عليه السلام بجميع ما معه وخرج الملك معه يمشي خلف إبراهيم عليه السلام إعظاماً لإبراهيم عليه السلام وهيبةً له، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى إبراهيم أن قف ولا تمش قدام الجبّار المتسلّط ويمشي هو خلفك ولكن اجعله أمامك وامش خلفه وعظّمه وهبه فإنَّه مسلَّط ولا بدَّ من إمرة في الأرض برّة أو فاجرة، فوقف إبراهيم عليه السلام وقال للملك: امض فإنَّ

إلهي أوحى إليّ الساعة أن أعظّمك وأهابك وأن أقدّمك أمامي وأمشي خلفك إجلالاً لك، فقال الملك: أوحى إليك بهذا؟

فقال له إبراهيم عليه السلام: نعم.

فقال له الملك: أشهد أنّ إلهك لرفيق حليم كريم وأنّك ترغّبني في دينك[1].

نستنتج من هذا أنّ إبراهيم عليه السلام لم يدخل في مواجهة سياسية مع السلطان، ارتحل من العراق والتقى بالسلطان لكن لم يدخل معه في مواجهة، قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

المعلم الخامس: تأسيس قواعد المجتمع المتمدّن:

كان إبراهيم عليه السلام غاية في السطوع، أي إنّ نجم الأنبياء هو إبراهيم عليه السلام ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الحجّ: ٧٨)، سطوع على مستوى التشريع وعلى مستوى القيم الأخلاقية، هنا المفسّرون يذكرون أنّ الصلاة: هي تشريع إبراهيمي، الحجّ: تشريع إبراهيمي، بناء الكعبة: هو مؤسسة إبراهيمية، الزكاة: مشروع إبراهيمي. وهي تعني مجتمعاً متمدّناً ومتحضّراً يؤخذ من الغني للفقير على شكل ضرائب قانونية وليس على شكل لصوصية وسرقات، هذه معالم المجتمع المتمدّن وإبراهيم عليه السلام كان يرسمها حيث لم تكن موجودة من قبله.

وأوّل من شرّع السلام هو إبراهيم عليه السلام في قصّته مع أبيه آزر، قال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ (مريم: ٤٧)، حيث هدّده أبوه بالهجر والطرد، وكانت هذه بداية تشريع السلام ومنه الإسلام ومنه عملية السلام العالمي.

---

(١) الكافي ٨: ٣٧١ - ٣٧٣/ ح ٥٦٠.

الإسلام هو داعية السلام العالمي، والأنبياء هم دعاة السلام العالمي وهذا حديث واسع.

أيضاً يستمرّ إبراهيم عليه السلام في تأسيس قواعد المجتمع المتمدّن والمتحضّر، ومن جملة تلك القواعد هي: النقاء المادي إضافة إلى النقاء المعنوي، الصلاة نقاء معنوي قلبي، لكن إبراهيم عليه السلام ذكر شيئاً آخر وهو أنَّ المجتمع يجب أن يقوم على أسس من الطهارة والنقاء والنظافة، فهناك مجتمعات متخلفة وبعيدة عن النقاء والنظافة، الإسلام هو قمّة في ثقافة النظافة، الروايات تقول: إن إبراهيم عليه السلام جاء بالحنيفية وهي تعني الطهارة، «وهي عبارة عن عشر سُنَن: خمس في الرأس، وخمس في الجسد». إبراهيم عليه السلام وقبل أربعة آلاف سنة رسَمَ لنا الحنيفية الكبرى.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يكثر السواك ليس بواجب فلا يضرّك تركه في فرط الأيّام، ولا بأس أن يستاك الصائم في شهر رمضان أيّ النهار شاء، ولا بأس بالسواك للمحرم، ويكره السواك في الحمام لأنَّه يورث وباء الأسنان، والسواك من الحنيفية، وهي عشر سنن: خمس في الرأس وخمس في الجسد، فأمَّا التي في الرأس: فالمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وقصّ الشارب، والفرق لمن طول شعر رأسه، ومن لم يفرق شعر رأسه فرَّقه الله يوم القيامة بمنشار من نار، وأمَّا التي في الجسد: فالاستنجاء، والختان، وحلق العانة، وقصّ الأظفار، ونتف الإبطين»[(١)].

إبراهيم عليه السلام بدأ يؤسّس لمجتمع مدني متحضّر قبل أربعة آلاف عام وينظر إلى مدى بعيد ويقول: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾

(١) من لا يحضره الفقيه ١: ٥٣ و٥٤/ ح ١١٧.

(الشعراء: ٨٤)، أي ينظر إلى مدى الدهر، وهو يريد للحياة الأخلاقية والسنن أن تستمرّ، وقد استجاب الله له، فنحن ملّة إبراهيم عليه السلام وأمّته.

المعلم السادس: التسليم:

وأخيراً في المنهج الذي استخدمه إبراهيم عليه السلام هو الطاعة المطلقة لله، والتسليم له وعدم فرض الرأي على الوحي.

الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم عليه السلام بأن يأخذ زوجته هاجر ويتركها في مكّة المكرمة، حيث الوادي غير ذي الزرع، فنفَّذ إبراهيم عليه السلام أمر الله سبحانه وأخذ زوجته هاجر وولده إسماعيل عليه السلام وهو طفل صغير يرضع وهناك لا يوجد طعام ولا ماء، ومع ذلك استجابةً لله تبارك وتعالى فقد استسلم إبراهيم عليه السلام وترك زوجته ﴿بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، هنا قالت هاجر لإبراهيم عليه السلام: يا إبراهيم لِمَ تدعنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟

فقال إبراهيم: الله الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان حاضر عليكم[1].

التسليم هو مَعلم من مَعالم المنهج الإبراهيمي في الحركة الإصلاحية، ولهذا فإنَّ إسماعيل عليه السلام سار على نفس الخطّ وكذلك إسحاق ويعقوب عليهما السلام، كلّ الأديان ترجع إلى إبراهيم عليه السلام لما لديه من روح التسليم لله تبارك وتعالى.

وتسليم آخر أيضاً هو قصَّة ذبح إسماعيل عليه السلام، هنا تتجسَّد روعة الارتباط بالسماء، قال: ﴿يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى

(١) أنظر: تفسير القمي ١: ٦٠؛ بحار الأنوار ١٢: ٩٨/ باب ٥/ ح ٦.

قَالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبراهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠٢ _ ١٠٧)، هنا نعرف مدى التسليم لله تبارك وتعالى من قبل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهو ابن أحد عشر عاماً.

خمس كلمات:

الرواية تقول: إنَّ جبرئيل التقى مع إبراهيم عليه السلام في الهواء وقد وضع في المنجنيق، فقال: يا إبراهيم هل لك إليَّ من حاجة؟ فقال إبراهيم: أمَّا إليك فلا، وأمَّا إلى ربّ العالمين فنعم، فدفع إليه خاتماً عليه مكتوب: الكلمة الأولى: لا إله إلاَّ الله، الكلمة الثانية: محمّد رسول الله، الكلمة الثالثة: ألجأت ظهري إلى الله، الكلمة الرابعة: أسندت أمري إلى الله، الكلمة الخامسة: فوضت أمري إلى الله[1]، هذا اللجوء المطلق حينما يعيشه الإنسان حينئذٍ تصبح النار: ﴿بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ﴾، وحينئذٍ يكون بطن الحوت ليونس عليه السلام صندوق أمان، ذلك بمقدار الانقطاع واللجوء إلى الله تبارك وتعالى.

الحركة الإصلاحية تنطلق من الصالحين:

أحد معالم الحركة الإصلاحية للأنبياء عليهم السلام وعلى رأسهم إبراهيم عليه السلام أنَّها يجب أن تنطلق من الصالحين.

فحينما نتحدَّث عن الإصلاح السياسي في العالم، لا يمكن أن يتمّ على

(١) أنظر: تفسير القمي ٢: ٧٣.

أيدي الجبابرة والملوك، بل لا بدّ أن يأتي عن طريق أولئك الذين أصلحوا أنفسهم وهم الأنبياء وأتباع الأنبياء، ولهذا نحن نعتقد أنّ الإصلاح السياسي في العالم سيتمّ على أيدينا أي على يد قادة الإسلام وأمّة الإسلام، وليس على يد الأمم الأخرى، ولهذا يقول القرآن: ﴿سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي العالَمِينَ﴾ (الصافات: ٧٩)، ثمّ يقول: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات: ٨١)، أي إنّ الإصلاح يجب أن يصدر من إنسان مؤمن، ولهذا يقول القرآن: ﴿إِنَّ إِبراهيم كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: ١٢٠).

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلى إِبراهيم رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤)، أي إنّ المصلح لا يمكن أن يكون ظالماً، ولا بدّ من أن يكون عادلاً مقدّساً ورعاً نقيّاً وزاهداً في الدنيا، أمّا مثل يزيد، ومروان بن الحكم، وهارون الرشيد وصدام، فلا يمكن أن يقودوا حركة إصلاحية. وهكذا كلّ جبابرة العالم، لأنّهم لم يبدؤوا من إصلاح أنفسهم.

إبراهيم عليه السلام كان خليل الرحمن، أي إنّه غارق في العلاقة مع الله، وهي أروع صفة بعد صفة (حبيب الله) لنبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله.

معنى خليل الرحمن:

العرفاء والفلاسفة مثل ابن عربي يقفون عند وصف إبراهيم عليه السلام بالخليل ويقولون: إنّ معنى (خليل) هو دخول الشيء في جميع مسامات ومنافذ الشيء الآخر أي يتخلّله، وإنّ معنى (إبراهيم خليل الرحمن) يمكن أن نتصوّره بتصورين: إمّا أنّ الله تبارك وتعالى تخلّل في كلّ وجود إبراهيم عليه السلام أي في عروقه ومساماته، أي إنّ الرحمن قد خالط

لحمه ودمه وعروقه وعظامه. وإمَّا أنَّ إبراهيم عليه السلام تخلَّل في الذات الإلهية وفي كلّ موقع يوجد فيه اسم الله فيوجد فيه إبراهيم عليه السلام. وربَّما يشير لذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ نُري إِبراهيم مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالأَرْض﴾ (الأنعام: ٧٥)، أمَّا روايات أهل البيت عليهم السلام فهي تقول: «ما اتَّخذ الله إبراهيم عليه السلام خليلاً إلاَّ: لإطعامه الطعام، وصلاته بالليل والناس نيام»[(١)].

ضيف إبراهيم عليه السلام:

ولهذا، وانطلاقاً من مسألة إطعام الطعام، وأنَّ هذه كانت خصوصية إبراهيم عليه السلام فقد كان في البادية، حيث يتحدَّث القرآن الكريم ويقول: ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبراهيم الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ (الذاريات: ٢٤ ـ ٢٨)، إنَّ هؤلاء الملائكة جاؤوا في حالة ضيوف لإبراهيم عليه السلام. وهذا خُلُق ومكرمة أخلاقية، فالنبيّ يجب أن يكون أخلاقياً ومضيافاً في الدنيا، وهناك مسألة ثانية وهي أنَّ هؤلاء الملائكة الأربعة أخبروا إبراهيم عليه السلام بأنَّهم جاؤوا إلى قوم لوط عليه السلام وأنَّهم يريدون أن ينزلوا بهم العذاب من السماء ﴿لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ﴾ (هود: ٧٠)، وأصبح إبراهيم عليه السلام يتوسَّل بالله تعالى ويقول: إلهي لا تنزل عذابك على قوم لوط، والقرآن يقول: ﴿يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (هود: ٧٤ و٧٥)، أي إنَّه رقيق القلب.

---

(١) علل الشرائع ١: ٣٥/ باب ٣٢/ ح ٤.

مقارنة بين الحسين وإبراهيم عليهما السلام:

مرَّ في الدراسة السابقة[١] أنَّ الحسين عليه السلام كان يشهد أمّةً تعيش مرضين: المرض الأوّل هو فقد القدرة على التمييز بين الحقّ والباطل، والمرض الثاني الذي عاشته الأمّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو مرض فقد الإرادة على التغيير.

ولهذا كانت حركة الحسين عليه السلام باتّجاه تزريق الإرادة في الأمّة.

«ألا ترون أنَّ الحقّ لا يُعمل به وأنَّ الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً، فإنّي لا أرى الموت إلاَّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاَّ برماً»[٢].

«أيّها الناس إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر ما عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»[٣].

«من كان باذلاً فينا مهجته وموطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله»[٤].

هذا هو مشروع الهجرة.

ومشروع الدعوة للقيم الأخلاقية في يوم عاشوراء حين قال عليه السلام:

«إنّي أقول: أقاتلكم وتقاتلونني والنساء ليس عليهنَّ جناح».

---

(١) أنظر (ص ٢٦) تحت عنوان: مشكلات الأمّة.

(٢) تحف العقول: ٢٤٥.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٨٥.

(٤) مثير الأحزان: ٢٩.

هـذه قـيم أخلاقيـة، فصـحيح أنَّ بيننـا معركـة، لكـن نحـن لـدينا أصـول فـي المعركـة والأصـل هـو القـيم الأخلاقيـة، «إنّـي أقـول: أقـاتلكم وتقـاتلونني والنســاء لــيس علــيهنَّ جنــاح فــامنعوا عتــاتكم وجهّــالكم وطغــاتكم مــن التعرّض لحرمي ما دمت حيّاً»[1].

كان هذا هو اتّجاه حركة الحسين عليه السلام.

معركة الحسين عليه السلام غير مسلَّحة:

وهنـا قضـيّة مهمّـة نشـير إليهـا وهـي: أنَّ الحسـين عليه السلام لـم يقـم بحركـة مسـلَّحة علـى خـلاف مـا هـو المتصـوَّر عنـد النـاس. فالحسـين عليه السلام لـم يقـم بحركـة عسـكرية ولا ثـورة مسـلَّحة، بـل كانـت تغييـراً سـلمياً، لكـن القتـال فُـرض عليـه وقاتـل قتـالاً دفاعيـاً، فلـو كـان الإمـام عليه السلام يريـد قتـالاً عسـكرياً لكان حشَّد لذلك الحشود.

الروايـة تقـول: أقبـل القـوم يجولـون حـول بيـوت الحسـين عليه السلام فيـرون الخنـدق فـي ظهـورهم والنـار تضـطرم فـي الحطـب والقصـب الـذي كـان ألقـي فيـه، فنـادى شـمر بـن ذي الجوشـن بـأعلى صـوته: يـا حسـين أتعجَّلـت النار قبل يوم القيامة؟...

ورام مســلم بــن عوســجة أن يرميــه بســهم فمنعــه الحســين عليه السلام مــن ذلـك، فقـال لـه: دعنـي حتَّـى أرميـه فـإنَّ الفاسـق مـن عظمـاء الجبّـارين، وقـد أمكن الله منه. فقال له الحسين عليه السلام: «لا ترمه، فإنّي أكره أن أبدأهم»[2].

الحرّ الرياحي حينما اصطدم مع الحسين عليه السلام في الطريق، قال زهير بن

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٧١.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٦.

القين للحسين عليه السلام: إنّي والله ما أراه يكون بعد هذا الذي ترون إلاّ أشدّ ممَّا ترون، يا بن رسول الله، إنَّ قتال هؤلاء _ حيث كانوا ألف مقاتل _ الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم، فلعمري ليأتينا بعدهم ما لا قبل لنا به.

فقال الحسين عليه السلام: «ما كنت لأبدأهم بالقتال»[١]، وهو على ذلك المنهج إلى آخر وقت قبل بدء المعركة حيث حاول الدخول في مفاوضات في اليوم السابع من المحرَّم الحرام مع ابن سعد.

هذه هي الحركة الحسينية والتغيير الإصلاحي الذي قاده الحسين عليه السلام.

من معالم الحركة الحسينية:

من معالم الحركة الحسينية هو الهجرة، والحوار، وأخيراً التسليم لله تعالى وهو الذي كان عند إبراهيم عليه السلام.

أنا بهذا الصدد أذكر هذه الأبيات لأستاذنا آية الله الشهيد الفقيد الشيخ محمّد تقي آل صاحب الجواهر حيث يقول مقارناً بين الحسين وإسماعيل عليهما السلام:

فإن يكُ إسماعيلُ أسلمَ نفسَهُ ... إلى الذبح في حجر الذي هو راحمه
فعاد ذبيح الله حقّاً ولم تكن ... تصافحه بيض الظبى وتسالمه
فإنَّ حسيناً أسلمَ النفسَ صابراً ... على الذبح في سيف الذي هو ظالمه
ومن دون دين الله جاد بنفسه ... وكل نفيس كي تشاد دعائمه
ورضت قراه العاديات وصدره ... وسقيت على عجف المطايا كرائمه[٢]

(١) الإرشاد ٢: ٨٤.
(٢) الأخلاق الحسينية/ جعفر البياتي: ٢٥٠.

الأمّة الإسلاميّة:

وهذا الموضوع في غاية الأهمّية. فمن جانب أنّنا نحن أمّة رسول الله صلى الله عليه وآله نُسمّى الأمّة المرحومة التي لا ينزل عليها عذاب سماوي فيبيدها. وبالفعل إلى الآن ومنذ ألف وأربعمائة سنة، فإنَّ الأمّة الإسلاميّة لم تتعرَّض للإبادة مثلما أُبيد قوم نوح وقوم لوط عليهما السلام وأمم كثيرة.

لماذا أصبحت هذه الأمّة مرحومة؟

فلسفة هذا الشيء هو أنَّ هذه الأمّة لا يجفّ عنها الجذر النقي والطيّب ولن تموت، أمَّا تلك الأمم فإنَّ الله تعالى يقول: لا فائدة تُرجى منهم ﴿وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً﴾ (نوح: ٢٧)، وقد انتهى صلاحهم وأنَّ أيّ قدرة على الحياة لا توجد عندهم، إذن تستحقّ الإبادة، أمَّا أمّة نبيّنا صلى الله عليه وآله فإنَّها أمّة تحتفظ بقدرتها على التكيّف السريع والصلاح من جديد يوماً بعد يوم، وهذه هي الحقيقة فأمّة الإسلام لم تمت لحدّ الآن وهي من يقارع الكفر والاستكبار العالمي وببطولة عجيبة.

فكلّما تسقط ورقة تنبت ورقة أخرى، ولهذا فإنَّ إبراهيم عليه السلام كان يدعو الله تبارك وتعالى أن يرزقه هذه الأمّة، فأمّته قد انتهت، ولكن نحن أمّة إبراهيم عليه السلام وهو كان وحده ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً﴾ (النحل: ١٢٠)، ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنامَ﴾ (إبراهيم: ٣٥)، ﴿رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ...﴾ إلى أن يقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ﴾ (إبراهيم: ٣٧ ــ ٤١).

أهداف حركة الإمام الحسين عليه السلام:

الإمام الحسين عليه السلام أيضاً يهدف لإصلاح الدنيا قبل الآخرة في حركته.

قال الحسين عليه السلام في حواره مع مروان في المدينة حينما عرض عليه بأن يبايع يزيد: «على الإسلام السلام إذ قد بليت الأمّة براع مثل يزيد، ولقد سمعت جدّي يقول: الخلافة محرَّمة على آل أبي سفيان»، فحركة الإمام الحسين عليه السلام هي حركة إصلاحية على مستوى دنيا الناس وعلى مستوى دينهم وعلى مستوى آخرتهم جميعاً.

الإمام الحسين عليه السلام يريد أن يؤكّد أنَّ حركة الإصلاح لا يمكن أن يقودها مثل يزيد بن معاوية، لأنَّ الإصلاح يقوده الصالحون فقط.

الولاية مشروع إبراهيمي:

إنَّ الإسلام فيه أصول الدين وفيه فروع الدين. أصول الدين والمذهب خمسة وهي: التوحيد، العدل، النبوّة، الإمامة، والمعاد يوم القيامة.

أمَّا فروع الدين فهي عبارة عن الواجبات الكبرى في الإسلام وهي حسب ما يلخّصه علماؤنا وفقهاؤنا عشر واجبات كبرى وهي: الصلاة، الصوم، الحجّ، الزكاة، الخمس، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، الولاية، البراءة، والجهاد.

تجدون خمسةً من هذه الواجبات الكبرى ذات مدلول سياسي. وهي الجهاد، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، الولاية والبراءة، وهناك واجبات ذات مدلول مشترك عبادي وسياسي كالحجّ فهو مؤتمر عالمي يُعقد بين المسلمين لإعلان البراءة من أعداء الله، وهناك واجبات ذات مدلول اقتصادي مثل الزكاة والخمس.

ويمكن اعتبار البراءة والولاية أصلاً للنظرية السياسية الإصلاحية في الإسلام.

فهنا الإسلام يمتاز عن باقي الحركات والنظريات الإصلاحية بمادة الولاية والبراءة.

أوّلاً: ما هو معنى الولاية والبراءة؟

الولاية لأولياء الله ودين الله والبراءة من أعداء الله. هذا هو معنى الولاية والبراءة، فيجب على كلّ مسلم أن يوالي المؤمنين ويعادي أعداء الدين.

القرآن الكريم صريح في هذا الموضوع أنَّه لا يجوز لإنسان مسلم أن يكون محبّاً لأعداء الله ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (المجادلة: ٢٢)، إذا كنت مؤمناً فلا بدَّ أن تعادي أعداء الله، هذا هو معنى البراءة من أعداء الله.

كما يشير القرآن إلى مبدأ الولاية بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١)، هذه فكرة مبسطة عن الولاية والبراءة.

إبراهيم مؤسس البراءة:

البراءة هي مشروع أسَّسه إبراهيم الخليل عليه السلام.

إذا مضينا في تاريخ الحركات الإصلاحية للأنبياء عليهم السلام فالمفسّرون يقولون: إنَّ البراءة هي من مميّزات العهد الإبراهيمي، وخطوة متطوّرة في الحركات الإصلاحية.

نوح عليه السلام لم يعلن البراءة من أعداء الله فهو قد دعا عليهم ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً﴾ (نوح: ٢٦)، لكن البراءة بمعنى المقاطعة مع أعداء الله، فهذا تأسيس إبراهيمي.

ولهذا فإنَّ القرآن الكريم ينسب قضيّة البراءة إلى إبراهيم عليه السلام مثلاً القرآن يقول: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيم وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ﴾ (الممتحنة: ٤)، أي إنَّ أوّل من وضع مشروع البراءة والمقاطعة السياسية والنفسية مع أعداء الله هو إبراهيم عليه السلام، أي إنَّه بهذا قد وضع خطاً أحمر بين أمّة الإيمان وبين أمّة الكفر ﴿وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (الممتحنة: ٤).

أصول السياسة الخارجيّة:

مشروع البراءة له مدلول سياسي، وهو يؤثّر على السياسة الخارجية في الإسلام وأنا لا أستطيع أن أتناول هذا الموضوع الآن لسعته.

الإسلام له سياسة خارجية، فما هي علاقتنا الخارجية من وجهة نظر إسلاميّة؟

اليوم العلاقات الخارجية في العالم تعتمد على مجموعة أصول:

الأصل الأوّل: المصالح المشتركة.

الأصل الثاني: التعايش السلمي.

الأصل الثالث: عدم التدخّل في الشؤون الداخلية للشعوب الأخرى.

ولكن الدول الكبرى اليوم أضافت أصلين آخرين بعيداً عن وثيقة حقوق الإنسان أو مقرّرات جنيف الدولية.

الأصل الرابع: حماية المصالح الحيوية.

والأصل الخامس: هو الضربة الاستباقية.

يعني على بُعد آلاف الكيلومترات يقولون: إنَّ مصالحنا الحيوية موجودة في الخليج فلا بدَّ أن نتدخَّل في الخليج. وبالتالي تمتدّ يدهم

لكلّ شعوب العالم بعنوان أنَّ مصالحنا الحيوية موجودة هناك. هذا قانون غير موجود في وثيقة الأمم المتّحدة.

وهكذا مشروع الضربة الاستباقية الذي يجيز ضرب أيّ دولة أو شعب من الشعوب لمجرَّد افتراض أنَّه يمثّل تهديداً احتمالياً لمصالح الدولة الكبرى.

الأصل السادس: جاء الإسلام ووضع أصلاً جديداً في شأن العلاقات الخارجية وهو أصل البراءة من أعداء الله والولاية لأولياء الله، فالإسلام يهتمّ كثيراً بشأن العلاقات الإنسانية، كيف تترتّب العلاقات بين البشر؟

يقول الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أقربكم منّي غداً وأوجبكم عليَّ شفاعةً أصدقكم لساناً، وآداكم للأمانة، وأحسنكم خلقاً وأقربكم من الناس»(١)، التفتوا إلى أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يقل: أكثركم صلاةً أو صوماً، ومعنى ذلك أنَّ أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في الجنّة من تتوفَّر فيه هذه الشروط الأربعة من العلاقات الإنسانية، إذن الإسلام يريد علاقات إنسانية صحيحة، الدين يهدف إلى علاقات إنسانية جميلة وصحيحة، العبادات هي كذلك أيضاً، فإنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولهذا فالإنسان الذي لا يغضب لله وللمظلومين وللحقّ فلا يفيده دعاؤه ولا صلاته، المطلوب أن يكون لديه غضب لله وهذا أحد امتيازات المسلمين، وبالخصوص شيعة أهل البيت عليهم السلام، فالحميّة لله ودين الله هي جوهر الدين.

---

(١) أمالي الصدوق: ٥٩٨/ ح (٥/٨٢٦).

قصّة العابد المتقاعس:

هناك رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تقول:

«إنَّ الله عزّ وجلّ بعث ملكين إلى أهل مدينة ليقلباها على أهلها فلمَّا انتهيا إلى المدينة وجدا رجلاً يدعو الله ويتضرَّع.

فقال أحد الملكين لصاحبه: أمَا ترى هذا الداعي؟

فقال: قد رأيته ولكن أمض لما أمر به ربّي.

فقال: لا، ولكن لا أحدث شيئاً حتَّى أراجع ربّي.

فعاد إلى الله تبارك وتعالى فقال: يا ربّ إنّي انتهيت إلى المدينة فوجدت عبدك فلاناً يدعوك ويتضرَّع إليك.

فقال: امض لما أمرتك به فإنَّ ذا رجل لم يتمعَّر[1] وجهه غيضاً لي قطّ»[2].

أي إنَّ هذا رجل عابد لكن ليس لديه ذرّة غضب لله فهو يصلّي كثيراً ويدعو كثيراً لكن لا يفكّر بهموم الإسلام والمسلمين والشعوب والفقراء والضعفاء والظلم الذي يجري على الناس.

سوف نعرف أنَّ جوهر الدين هو الغضب لله وللحقّ، والحقّ يعني العدالة، والعدالة تعني رحمة الناس.

جاء الإسلام بعد موسى وعيسى عليهما السلام واستمرَّ مشروع البراءة، وحين جاء الإسلام طوَّر مشروع البراءة وجعله أصلاً من أصول العلاقات الخارجية، أي إنَّ الأصل التاسع والعاشر من فروع الدين هما البراءة والولاية، فبدون ولاية لا يُقبل إسلام المسلم ولا يُقبل إيمان المؤمن.

---

(١) تمعَّر: تغيَّر وعَلَتْهُ صُفْرَة.

(٢) الكافي ٥: ٥٨/ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر/ ح ٨.

وأنزل الله سورةً اسمها سورة براءة وتسمّى: سورة التوبة، التي تبدأ بقوله: ﴿بَراءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: ١).

وفي آية أخرى: ﴿وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة: ٣).

سورة براءة هي بداية القطيعة السياسية بين الأمّة الإسلاميّة وبين الأمّة الكافرة، فقبل سنة كان المسلمون والمشركون يحجّون معاً، فالمشركون لديهم حجّ أيضاً لكن حجّهم للأصنام الموجودة على الكعبة، أمّا الآن وفي السنة التاسعة للهجرة فقد نزلت سورة براءة وكانت عبارة عن قرار سياسي بالقطيعة بين الأمّة الإسلاميّة وبين الأمّة الكافرة، هذه السورة بعث بها رسول الله صلى الله عليه وآله بيد أبي بكر ليقرأها على المسلمين في منى في مكّة المكرَّمة، ليكون ذلك إعلاناً سياسياً عن القطيعة، وبإجماع المؤرّخين من الفريقين ذهب أبو بكر وبيده سورة براءة وهي تصريح سياسي خطير لكي يقرأها على المسلمين.

تقول الرواية: فلمَّا أتى ذا الحليفة أتبعه علياً عليه السلام فأخذها منه.

قال أبو بكر: يا علي ما لي أنزل فيَّ شيء؟

قال: «لا، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لا يؤدّي عنّي إلاَّ أنا أو رجل من أهل بيتي».

سلَّم أبو بكر سورة براءة إلى علي عليه السلام ـ بإجماع المؤرّخين ـ[1] ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال: يا رسول الله أنزل فيَّ شيء؟

(١) أنظر: سنن النسائي ٥: ١٢٩/ ح ٨٤٦٢؛ الدرّ المنثور ٣: ٢٠٩؛ مناقب الخوارزمي: ١٦٥/ ح ١٩٧.

قال: «لا، ولكن لا يؤدّي عنّي إلاَّ أنا أو رجل من أهل بيتي»(١).

سورة براءة التي هي تصريح سياسي تحتاج إلى ممثّل من الدرجة الأولى، وكان هو علي عليه السلام.

قد يقول البعض: كيف تجتمع البراءة من أعداء الله مع نظرية التعايش السلمي المطروح اليوم؟ أي هل سنتقاتل مع الصين واليابان وكوبا وألمانيا؟ فهل هذا معنى البراءة؟

الجواب: إنَّ هناك قانونين تعتمد عليهما السياسة الإسلاميّة:

القانون الأوّل يسمّى: قانون البراءة والولاية.

القانون الثاني هو: قانون التعايش السلمي.

الإسلام يؤمن بهذا القانون، بل الإسلام يؤمن بقانون ثالث أكثر تطوّراً ممَّا هو موجود اليوم لدى العالم. وهو قانون الإحسان للآخرين.

القانون الأوّل: البراءة، وهي تعني المقاطعة النفسيّة والعقائدية مع غير المسلمين. والمقاطعة هنا لا تعني المواجهة والدخول في معركة، بل هي حالة نفسيّة عقائدية وتنعكس سياسياً على مستوى الانفصال السياسي بين أمّة الإسلام وأمّة الكفر.

القانون الثاني: التعايش السلمي الذي يعني التعامل الاجتماعي الايجابي بدون عدوان ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦١).

أي إن كانوا مسالمين فأنتم أيضاً مسالمون معهم.

القانون الثالث: الإحسان للشعوب الأخرى، وهو يعني خطوة متقدّمة على خطوة التعايش السلمي. المطلوب هو الإحسان للشعوب

---

(١) علل الشرائع ١: ١٨٩/ باب ١٥٠/ ح ١.

الأخرى حتَّى لو افترضنا أنَّهم عبدة البقر أو الأصنام، حتَّى وإن كانوا من الأديان الأخرى، فموقفنا تجاههم يكون كما في قوله تعالى: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨)، هذه هي السياسة الإسلاميّة للبشرية كلّها.

النقطة التي طوَّرها الإسلام في الحركة الإصلاحية للأنبياء عليهم السلام هي مسألة الولاية والبراءة، حيث جعلها أصلاً في العلاقات الإنسانية بدءً من إبراهيم عليه السلام، وجاء الإسلام وطوَّر ذلك فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ (التوبة: ٧١).

* * *

الدراسة الثالثة:

بين الإمام الحسين عليه السلام
والنبيّ موسى عليه السلام

- أهداف موسى عليه السلام.
- مشاكل بني إسرائيل.
- مقارنة بين الحسين وموسى عليهما السلام.
- نظرية تكامل الأنبياء.
- مؤتمر مكّة المكرَّمة.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٨ و١٢٩).

قال إمامنا الحسين عليه السلام: **«ألا ترون أنَّ الحقّ لا يُعمل به، وأنَّ الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً، فإنّي لا أرى الموتَ إلاَّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلاَّ برماً»**[١].

الحسين وموسى عليهما السلام:

الحديث في هذه الدراسة عن ثالث أنبياء أولي العزم والحركة الإصلاحية التغييرية التي قادها موسى بن عمران عليه السلام، وهي من أعظم الحركات النبوية التي سلَّط القرآن الكريم عليها أضواءً كبيرة ما لم يسلّطه على نبيّ من الأنبياء. فحينما تقرأ القرآن تجد أنَّ قصَّة موسى وبطولات موسى ومواقفه ومعاركه تأخذ قسطاً كبيراً من القرآن الكريم. والتراث الروائي أيضاً مملوء أكثر ما يكون عن موسى عليه السلام وتجربته وقومه وما عاناه، وكان عمر التجربة التي خاضها موسى عليه السلام مائتين وأربعين سنة وهي تقريباً عمر تجربة أئمّتنا من الإمام علي عليه السلام وإلى الإمام المنتظر عليه السلام الذي ولد في سنة مائتين وخمسين للهجرة، فعمر

(١) تحف العقول: ٢٤٥.

تجربة الأئمّة كلّهم هي مائتان وخمس وخمسون سنة، وسوف نرى أنَّ أئمّتنا كانوا يعمدون إلى ملء الفراغات، كما كان موسى عليه السلام يملأ الفراغات.

ممَّا يظهر أنَّه قاد حركة إصلاحية تغييرية متميّزة. ونحاول تسليط الضوء على بعض معالم هذه الحركة الإصلاحية التي قادها موسى عليه السلام حتَّى نصل للإمام الحسين عليه السلام ونجد نقاط التشابه بين حركة الحسين عليه السلام الإصلاحية وحركة موسى عليه السلام.

ومن الملفت للنظر أنَّ الحسين عليه السلام حينما خرج من المدينة إلى مكّة المكرَّمة استشهد بقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٢١)، وهي آيات تتحدَّث عن هجرة موسى عليه السلام.

وحينما دخل مكّة المكرَّمة أيضاً استشهد بقوله تعالى في قصَّة موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ﴾ (القصص: ٢٢)[١].

الحسين عليه السلام في بدايات حركته يستشهد بحركة موسى عليه السلام، هجرة موسى عليه السلام وكيفية هجرته، وسنجد هناك نقاط شبه بين حركة موسى عليه السلام وحركة الحسين عليه السلام، وحديثنا يكون مُنصَبَّاً على بيان معالم الحركة الإصلاحية التي قادها الأنبياء عليهم السلام مقارنةً بحركة الحسين عليه السلام، ولو كنّا نريد التوسّع في بحث حركة الأنبياء عليهم السلام فإنَّ تاريخ موسى عليه السلام يستحقّ عشرات الساعات من الدراسة والحديث والتحقيق كما أنَّ القرآن الكريم أيضاً خصَّص شيئاً كثيراً لذلك.

---

(١) أنظر: الإرشاد ٢: ٣٥ و٣٦؛ مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ١١.

نشأة موسى عليه السلام:

عاش موسى عليه السلام ونشأ في مصر التي كانت يومئذٍ يتقاسمها طبقة حاكمة مسلّطة وطبقة محكومة مستضعفة، الطبقة الحاكمة هم الأقباط، وفرعون من هذه الطبقة، وأمَّا الطبقة المسحوقة المستضعفة فهم الطبقة العبرانية أي العبرانيين وهم بنو إسرائيل. وبنو إسرائيل يعني بني يعقوب، ويعقوب عليه السلام اسمه إسرائيل، وبنو إسرائيل هم الطبقة المستعبدة من قبل آل فرعون، موسى نشأ في هذا المجتمع، وسط شريحة متديّنة وهم بنو إسرائيل يومئذٍ وطبقة حاكمة متسلّطة وهم الأقباط.

أهل اللغة يقولون: إنَّ أصل كلمة (موسى) من (مو) بمعنى الماء بالعبرية و(سى) أو (سي) بمعنى الشجر، لأنَّ التابوت الذي فيه وجد بين الماء والشجر فسمّي به، وقيل: هو بالعبرانية موسى، ومعناه الجذب لأنَّه جذب من الماء، واشتقاقه من الماء والساج، فال(مو) ماء و(سى) شجر[1].

شخصية موسى عليه السلام:

القرآن الكريم يعطي لشخصية موسى عليه السلام صفات وتكريماً مهمّاً، يقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخلصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ (مريم: ٥١).

ويقول: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (مريم: ٥٢).

ويقول: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾ (الأحزاب: ٦٩).

ويقول: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ (النساء: ١٦٤)، ولهذا يوصف موسى عليه السلام بأنَّه كليم الله، وهذا امتياز لموسى عليه السلام، فإنَّ كلّ الأنبياء عليهم السلام يوحي إليهم الله تعالى لكن هنا مع موسى عليه السلام توجد نقطة امتياز،

(١) لسان العرب ٦: ٢٢٤.

وهي أنَّ الله سبحانه وتعالى كلَّمه مباشرةً. لقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ (الشورى: ٥١)، ولكن الله تبارك وتعالى في حديثه مع موسى عليه السلام كان يكلّمه تكليماً أي إنَّ موسى عليه السلام كان يسمع الصوت مباشرة بدون جبرئيل ولا هو وحي في القلب وإنَّما يسمع الصوت من وراء حجاب أو من وراء شجرة أو من النار ﴿يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ (النمل: ٩)، فهو يجد أنَّ الله يتكلَّم، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾ (النساء: ١٦٤).

الحقيقة أنَّ موسى عليه السلام يمثّل بداية مرحلة جديدة في حركة النبوّة، وهي انتقال من مرحلة إبراهيم إلى مرحلة موسى عليهما السلام وبعدئذٍ سنجد انتقالاً من مرحلة موسى إلى مرحلة عيسى عليهما السلام حتَّى نصل بعدئذٍ إلى مرحلة الدولة العالمية الكبرى التي دعا إليها نبيّنا صلى الله عليه وآله، وهي بداية تأسيس العالمية الإسلاميّة وهذا ما سنصل إليه حينما ندرس التطوّر الذي حدث في حركة نبيّنا صلى الله عليه وآله.

ما هو التطوّر الذي حدث في حركة موسى عليه السلام؟

شهد عصر موسى عليه السلام بدايات تأسيس المجتمع وعملية إسقاط الجبابرة، يعني بدأت حركة النبوّة بالتطوّر التدريجي عبر تطوّر حركة المجتمع، وتاريخ موسى عليه السلام يلتهب بالحديث عن المعركة مع فرعون المتجبّر، بينما لا نجد مثل هذا الواقع عند نوح وإبراهيم عليهما السلام. فلقد بُعث نوح عليه السلام إلى قومه، وكذلك بعث إبراهيم عليه السلام إلى قومه، أمَّا موسى عليه السلام هذه المرَّة فإنَّه مبعوث إلى فرعون مباشرة لتتمّ عملية التغيير الديني من خلال التغيير السياسي.

أهداف موسى عليه السلام:

لقد كان موسى عليه السلام يهدف إلى أربعة أمور:

الهدف الأوّل: نبذ الوثنية والدعوة للتوحيد.

الهدف الثاني: إسقاط الحكم القائم وتأسيس حكم ديني.

أي إنَّ موسى عليه السلام شهد بدايات العمل على تأسيس المجتمع الديني والانتقال من مجتمع مدني علماني إلى مجتمع مدني ديني يقوم على أساس الشريعة الإلهية، وعلى أساس القيادة الإلهية. وهذا ما سنشرحه بإيجاز كما أنَّ القرآن الكريم يلفت النظر ويسلّط الضوء على هذه القضايا.

لقد كان الهدف الثاني بعد أصل التوحيد ونبذ الشرك هو إقامة الحكم الديني وتكوين الدولة، موسى عليه السلام كان يريد تكوين دولة إسلاميّة سياسية وليس مجرَّد قاعدة جماهيرية، بل كان يهدف إلى إسقاط حكم فرعون أو تصحيحه من أجل تكوين دولة قائمة على أساس الدستور الإلهي.

الهدف الثالث: تكوين النخبة الصالحة.

وبما أنَّه في بداية الطريق فقد كان يعمل على تكوين النخبة الصالحة، وهو لم يستطع تكوين أمّة صالحة، بل استطاع تكوين نخبة صالحة. وعلى أساس ذلك فقد عمل موسى عليه السلام بمبدأ اعتماد المجتمع النخبوي، أي إنَّ مجموعة صغيرة وحدهم أصبحوا يشكّلون المجتمع الذي يريده موسى عليه السلام بمعنى أنَّ الأقلية أصبحوا يشكّلون وضعاً مستقلاً بعيداً عن الأكثرية، وهنا تأتي قصَّة بني إسرائيل وعبورهم من النيل إلى الجانب الآخر باتّجاه فلسطين حيث شكَّلوا مجتمعاً نخبوياً، مصغَّراً يتمثَّل في بني إسرائيل فقط.

الهدف الرابع: تكوين الدستور.

موسى عليه السلام وهو يهدف إلى تأسيس حكم ديني قدَّم لنا دستوراً ليس فقط في القضايا الأخلاقية وإنَّما دستوراً تعتمد عليه الدولة، هذه هي شريعة التوراة، ولهذا تجدون القرآن الكريم لا يتحدَّث عن صحف نوح أو صحف إبراهيم عليهما السلام وربَّما كانت موجودة والله العالم، لكنَّها لم تكن تمثّل دستوراً متكاملاً كما هو في التوراة، بينما بقيت التوراة إلى اليوم.

التوراة هي أوّل دستور تقوم عليه الدولة وهذا ما سنشرحه جزئياً ببعض الروايات.

إنَّ الفاصلة بين إبراهيم وموسى عليهما السلام هي أربعمائة سنة إلى خمسمائة سنة تقريباً، إبراهيم عليه السلام يمثّل الأب السادس أو السابع لموسى عليه السلام، القرآن الكريم يسلّط الضوء على الدستور الذي جاء به موسى عليه السلام كدستور دولة ويقول: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٤٥)، معنى هذا أنَّ التوراة فيها دستور شامل وهذا لم يأتِ في رسالات نوح وإبراهيم عليهما السلام، وإنَّما جاء في رسالة موسى عليه السلام، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ (المائدة: ٤٤)(*).

(*) وهذه الآية هي من الآيات التي كان يستشهد بها أستاذنا آية الله العظمى الشهيد السعيد محمّد باقر الصدر رضوان الله عليه واعتبرها إحدى الآيات الدالّة على موقعية الفقيه والمرجع الديني كشاهد على الأمّة في كتابه (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء) وكان يقول رضوان الله عليه: إنَّ (الربّانيون) في الآية الكريمة هم الفقهاء ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾.

القرآن الكريم يستمرّ في حديثه عن التوراة قائلاً: ﴿وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٥)، هنا تشريع قانون العقوبات، ممَّا يعني العمل على تكوين دولة وقانون العقوبات الجنائية وهذا تطوّر في حركة الأنبياء حيث إنَّه لم يعد كافياً أن يقول الشخص: (أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أنَّ نوحاً نبيّ الله، وأشهد أنَّ إبراهيم نبيّ الله) بل لا بدَّ من تسليم للتشريع الإلهي، والذي لا يسلم بالتشريع الإلهي هو بمثابة الكافر ﴿فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢٩)، وفي آية أخرى: ﴿هُمُ الْكافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٥)، ولعلَّ الآيات التالية تشير بشكل واضح إلى هذا التطوّر في حركة موسى عليه السلام حين تقول:

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٣ و٤)، ثمّ يقول تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: ٥ و٦)، القرآن حينما يتحدَّث عن موسى عليه السلام يتحدَّث عن مفهوم جديد اسمه: مفهوم وراثة الأرض، يقول: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ﴾ وهذه هي ثقافة تأسيس الدولة يعني يا أتباعي وأتباع الأديان والأنبياء أنا أريدكم أن تكونوا ورثة الأرض وخلفاء في الأرض وتؤسّسوا دولة ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨)، إلى أن يقول في بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤).

مواجهة السلطة:

هذه خطوة قام بها موسى عليه السلام والقرآن بشكل واضح جداً وفي عشرات الآيات يتحدَّث عن معركة كبرى بين موسى عليه السلام وفرعون، مثلاً أنَّ فرعون يقول لموسى عليه السلام لمَّا جاءه: ﴿قالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى﴾ (طه: ٥٧)، في إشارة واضحة إلى أنَّ موسى عليه السلام كان يهدّد السلطان، وما كان يتحدَّث فقط عن قضيّة عقائدية.

في آية أخرى: ﴿قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ (طه: ٦٣)، أي إنَّ موسى عليه السلام وهارون يخطّطان لثورة سياسية.

في آية أخرى: ﴿قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ (الشعراء: ٣٤ و٣٥)، إذن هنا عملية تغيير السلطة، هذا هو مشروع موسى عليه السلام ولم يكن هذا مشروع إبراهيم ولا نوح عليهما السلام، هذا ما نفهمه من القرآن حينما يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ * إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ﴾ (غافر: ٢٣ و٢٤)، أي إنَّ الله سبحانه وتعالى أرسل موسى عليه السلام إلى السلطة وليس إلى الناس فقط، وهو مكلَّف بأن يتحدّى السلطة ويدخل في معركة مع فرعون وهامان ﴿اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى * قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هارُونَ أَخِي﴾ (طه: ٢٤ _ ٣٠).

عقدة لسان موسى عليه السلام:

ما هي العقدة التي كانت في لسان موسى عليه السلام وكيف كان هارون أفصح من موسى عليه السلام كما تقول الآية: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً﴾ (القصص: ٣٤)؟

هناك عدّة تفاسير لهذا الموضوع:

التفسير الأوّل: إنَّ موسى عليه السلام في صباه أخذ جمرة ووضعها على لسانه واحترق لسانه وذلك لكي يُخدَع فرعون بأنَّ موسى عليه السلام حينها طفل صغير لا يميّز بين الجمرة والتمرّة فأصبحت هناك لكنة في لسانه على أثرها[1].

التفسير الثاني: إنَّ موسى عليه السلام تأخَّر عليه الرضاع من لبن اُمّه أيّام صباه لمَّا ألقته في اليم واُخذ الصندوق وجيء به إلى قصر فرعون ثمّ جاؤوا بمرضعات ورفضهنَّ موسى، وهذه تستغرق وقتاً طويلاً ﴿وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ﴾ (القصص: ١٢)، فكان يُعرض عن الرضاعة من المرضعات إلى أن جاءت أخته وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ﴾ (القصص: ١٢)، أي هل أدلّكم على مرضعة؟ وهي اُمّه وهي عبرية أيضاً فدُعيت وتقبَّلها موسى عليه السلام فوراً ﴿فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها﴾ (القصص: ١٣)، وأصحاب التجربة يقولون: إنَّ الطفل إذا تأخَّر عليه الرضاع من اُمّه فترة سوف يصير بلسانه لكنة، ويكون نطقه غير دقيق، وموسى ابتُلي بهذه القضيّة.

التفسير الثالث: يذكره الدكتور النجّار في كتابه قصص الأنبياء عليهم السلام وهو تفسير لطيف رغم أنَّه ليس يقينياً، يقول: إنَّ موسى عليه السلام هاجر من مصر إلى مدين وهي على بعد ثمان ليالٍ عن مصر، وهم قوم شعيب، وعمل موسى عليه السلام لدى شعيب لمدّة عشر سنوات وتزوج إحدى ابنتيه، تقول بعض الروايات: إنَّه رجع بعد انقضاء العشر سنوات[2]، وروايات أخرى تقول: إنَّه مكث عشر سنوات أخرى، أي إنَّه قضى عشرين سنة في أرض الهجرة وبعيداً عن لسان المصريين الأقباط، وحينئذٍ اختلط

(١) أنظر: التبيان ٧: ١٧٠.

(٢) أنظر: تفسير القمي ٢: ١٣٩.

لسانه بلغات أخرى كما هو شأن من يهاجر عشرين سنة وهو في بداية شبابه حيث تنقطع عليه سبل الاتّصال وخاصّة في ذلك الزمن حيث لا يوجد الراديو والفضائيات وقنوات إخبارية وصحافة وكتب، يقول هذا التفسير: إنَّ ذلك هو منشأ أنَّ هارون كان أكثر فصاحة من موسى عليه السلام لأنَّ هارون عاش عمره كلّه في مصر ولم يهاجر ولم يختلط لسانه، ولذا قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (القصص: ٣٣ ـ ٣٥).

ممَّا يلاحظ أنَّ موسى عليه السلام وهو يهدف إلى تأسيس المجتمع المدني الديني والدولة المدنيّة الدينية، أسَّس لظاهرة (الثقافة الدينية)، لقد كان موسى عليه السلام يعطي ثقافة دينية للناس، ومجمل رواياتنا يشير إلى ذلك.

لقد كان يكثر من الموعظة الدينية والإرشاد، فرغم أنَّه لا يوجد حينها تأليف وكتب لكن موسى عليه السلام أُثر عنه قصص جمّة في تكوين ثقافة دينية.

تحجّر بني إسرائيل:

بنو إسرائيل الذين كانوا غايةً في التحجّر قالوا له: يا موسى نحن نريد منك أن تدعو الله بأن ينزل المطر إذا أردنا ذلك، ويوقف المطر إذا أردنا ذلك، أي أن يفعل الله ما نريد نحن، كان هذا هو فهمهم لله تعالى ومستوى تعاملهم معه.

قال موسى عليه السلام: إلهي أنا ابتليت ببني إسرائيل، إلهي إذا دعوك بنزول المطر فأعطهم وإذا سألوك أن ينقطع المطر فاقطعه، فاستجاب الله

له ذلك، وأصبحوا بفضل ذلك يملؤون المخازن بالحبوب نتيجة كثرة الزراعة حتَّى أنَّه لم يبقَ لهم قدرة على التصريف، إلى أن ضجّوا ورأوا أنَّ هذا الأمر أصبح يضرّهم.

قالوا: يا نبيّ الله نحن اشتبهنا والله أعلم منّا بموعد نزول المطر وموعد انقطاعه حسب حالة متوازنة فاسأل الله أن يعود إلى مشيئته فيعطينا متى ما أراد ذلك، ويقطع عنّا متى ما أراد ذلك فهو أعلم بذلك منّا.

موسى عليه السلام سأل الله ذلك، الله تعالى قال له: ألم أقل لكم أنا أعلم بالحكمة منكم؟ أنا أعرف لماذا أقطع المطر ولماذا أعطي المطر.

الحديث عن تحجّر بني إسرائيل وثقافتهم السطحية. وكان موسى عليه السلام يعلّمهم الثقافة الدينية العميقة مرَّةً على لسانه هو، لأجل تربية الآخرين ومرَّة بعرض قصص مع نفس بني إسرائيل.

قصَّة الصياد:

القصَّة تقول: بينما موسى يمشي على ساحل البحر، إذ جاء صياد فخرَّ للشمس ساجداً وتكلَّم بالشرك، ثمّ ألقى شبكته فخرجت مملوءة، ثمّ ألقاها فأخرجها مملوءة، فأعادها فأخرجها مملوءة، ثمّ أعادها فأخرج مثل ذلك حتَّى اكتفى، ثمّ مضى، ثمّ جاء آخر فتوضَّأ وصلّى وحمد الله وأثنى عليه، ثمّ ألقى شبكته فلم تخرج شيئاً، ثمّ أعاد فلم تخرج شيئاً، ثمّ أعاد فخرجت سمكة صغيرة، فحمد الله وأثنى عليه وانصرف.

فقال موسى: يا ربّ، عبدك جاء فكفر بك وصلّى للشمس وتكلَّم بالشرك، ثمّ ألقى شبكته، فأجرها مملوءة، ثمّ أعادها فأخرجها مملوءة، ثمّ أعادها فأخرجها مثل ذلك حتَّى اكتفى وانصرف، وجاء عبدك

المؤمن فتوضَّأ وأسبغ الوضوء ثمّ صلّى وحمد ودعا وأثنى، ثمّ ألقى شبكته فلم يخرج شيئاً، ثمّ أعاد فلم يخرج شيئاً، ثمّ أعاد فأخرج سمكة صغيرة فحمدك وانصرف!؟

فأوحى الله إليه: يا موسى أنظر عن يمينك، فنظر موسى فكشف له عمَّا أعدَّه الله لعبده المؤمن فنظر، ثمّ قيل له: يا موسى أنظر عن يسارك، فكشف له عمَّا أعدَّه الله لعبده الكافر فنظر، ثمّ قال الله تعالى: يا موسى ما نفع هذا ما أعطيته، ولا ضرَّ هذا ما منعته.

فقال موسى: يا ربّ، يحقّ لمن عرفك أن يرضى بما صنعت[1].

كان هذا كلّه باتّجاه تكوين ثقافة دينية، وهكذا كان موسى عليه السلام يهدف إلى تكوين مجتمع إسلامي ثمّ دولة إسلاميّة فهو مسؤول عن تكوين ثقافة دينية كبيرة.

وفي هذا الاتّجاه تحرَّك موسى عليه السلام لتكوين مجتمع النخبة أي مجموعة خاصّة هم أقلّية، ثمّ يخرج بهم وراء النيل ويكوّن لهم دولة صغيرة، وهذا هو ما طلبه موسى عليه السلام من فرعون ﴿وَقالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ (الأعراف: ١٠٤ و١٠٥)، وقد يبدو أنَّ هدف موسى عليه السلام كان في تلك المرحلة أن يخرج هو وبنو إسرائيل ويكوّن لهم مجتمعاً ودولة دينية لهم وحدهم، بعيداً عن الأكثرية وهم الأقباط، تكوين مجتمع نخبة وليس مجتمعاً قائماً على أساس الشمولية والتعدّدية للجميع، ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ (يونس: ٨٧)، الخطاب فقط لهؤلاء الأقلّية

(١) كتاب المؤمن: ١٩/ باب شدّة ابتلاء المؤمن/ ح ١٤؛ بحار الأنوار ١٣: ٣٤٩ و٣٥٠/ باب ١١/ ح ٣٨ باختلاف يسير.

وهم بنو إسرائيل. وهذا حديث واسع في قصَّة تأسيس الدولة والقرآن الكريم يشير إلى ذلك، مصر فيها فرعون. وفرعون غرق في قصَّة معروفة، وبنو إسرائيل كانوا مع موسى عليه السلام في الجانب الآخر من النيل وهم ستّة آلاف، وتوجد في الجانب الآخر فلسطين وغزّة. وبنو إسرائيل أصبحوا في الصحراء المحاذية لفلسطين أي بيت المقدس، ومعنى المصر في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾ هو المدينة وهي فلسطين.

موسى عليه السلام يقول لهم: ادخلوا مصر، قالوا: ﴿إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها﴾، الله تبارك وتعالى ابتلاهم بتيه دام أربعين سنة في صحراء سيناء ومعهم نبيّهم الأوّل والثاني أي موسى وهارون عليهما السلام وكان هذا الابتلاء نتيجة ثلاث مشاكل، ولمَّا كانت الأمّة لا تستحقّ الهداية فإنَّ النبيّ ضاع معهم أيضاً، يعني مثلما أنَّ الحسين عليه السلام قُتل في كربلاء فالجرم ليس جُرم الحسين لكن الأمّة التي لا تستحقّ الحسين عليه السلام يُقتل فيها الحسين عليه السلام، هكذا الأمّة التي لا تستحقّ تكوين دولة دينية تبقى في الصحراء والنبيّ يضيع معهم أيضاً، واعلموا أنَّ موسى وهارون عليهما السلام ماتا في التيه، أي إنَّهما لم يدخلا فلسطين وإنَّما بنو إسرائيل دخلوا فلسطين فيما بعد، أي إنَّ موسى عليه السلام لم يشهد الدولة ولذا قلنا: إنَّ موسى عليه السلام شهد بدايات تأسيس دولة دينية، وابتُلي موسى عليه السلام ببني إسرائيل.

المشكلة البارزة في بني إسرائيل:

ويلخّصها القرآن في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ * كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ * تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ﴾ (المائدة: ٧٨ _ ٨٠)، أي ليس لديهم براءة من أعداء الله، الإسلام يريد براءة من أعداء الله بأعمق المستويات.

في زمن عيسى عليه السلام حسب رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «مرَّ عيسى بن مريم عليه السلام على قريةٍ قد مات أهلها وطيرها ودوابها، فقال: أمَا إنَّهم لم يموتوا إلاَّ بسخطة ولو ماتوا متفرّقين لتدافنوا.

فقال الحواريون: يا روح الله وكلمته اُدع الله أن يحييهم لنا فيخبرونا ما كانت أعمالهم فنجتنبها.

فدعا عيسى عليه السلام ربَّه فنودي من الجوّ أن نادهم، فقام عيسى عليه السلام بالليل على شرف من الأرض فقال: يا أهل هذه القرية، فأجابه منهم مجيب: لبيك يا روح الله وكلمته.

فقال: ويحكم ما كانت أعمالكم؟

قال: عبادة الطاغوت وحبّ الدنيا مع خوف قليل وأمل بعيد وغفلة في لهو ولعب.

فقال: كيف كان حبّكم للدنيا؟

قال: كحبّ الصبي لأُمّه، إذا أقبلت علينا فرحنا وسررنا وإذا أدبرت عنّا بكينا وحزنّا.

قال: كيف كانت عبادتكم للطاغوت؟

قال: الطاعة لأهل المعاصي.

قال: كيف كان عاقبة أمركم؟

قال: بتنا ليلة في عافية وأصبحنا في الهاوية...

قال: ويحك كيف لم يكلّمني غيرك من بينهم؟

قال: يا روح الله إنَّهم ملجمون بلجام من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد وإنّي كنت فيهم ولم أكن منهم، فلمَّا نزل العذاب عمَّني معهم، فأنا معلَّق بشعرة على شفير جهنَّم لا أدري أكبكب فيها أم أنجو منها».

أي إنَّ هذا الشاب لا توجد لديه براءة من أعداء الله فلو كانت لديه براءة منهم لم يكن يجلس معهم فشمله العذاب السماوي معهم.

أيّها الشباب إذا وجدتم أناساً غير صالحين، لا تجلسوا معهم لأنَّه في أيّ لحظةٍ سينزل عليهم عذاب أو نقمة فيشمل من كان معهم، احذروا أن تجلسوا في مجالس الفاسقين والمجرمين فإنَّكم سوف تتلوَّثون بهم فإنَّهم مرضى ومرضهم مُعدٍ فاحذروا من مجالستهم.

فقال عيسى بن مريم عليه السلام للحواريين لمَّا سمع ذلك: «يا أولياء الله أكل الخبز اليابس بالملح الجريش والنوم على المزابل خير كثير مع عافية الدنيا والآخرة»[1].

مشاكل بني إسرائيل:

بنو إسرائيل كانت لديهم مجموعة مشكلات:

المشكلة الأولى: التردّد السياسي.

المشكلة الثانية: الشكّ العقائدي.

المشكلة الثالثة: حبّ الدنيا.

التردّد السياسي عند بني إسرائيل عندما قال لهم موسى عليه السلام: ادخلوا مصر، قالوا: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها﴾، ثمّ قالوا لنبيّهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤)، وهذا صار شعاراً لبني إسرائيل.

---

(١) الكافي ٢: ٣١٨ و٣١٩/ باب حبّ الدنيا والحرص عليها/ ح ١١.

أمَّا مرض الشكّ العقائدي فهو يعني أنَّ أمّة رأت المعجزات الكبرى على يد موسى عليه السلام، ومع ذلك كلّه، وفي قصَّة خلاف عشائري وقتيل وجد مقتولاً على الأرض، وحين ارتفعت الشكوى إلى موسى عليه السلام قال لهم: إذا كنتم تريدون معرفة قاتله فاذبحوا بقرة وسوف تعرفون القاتل وذلك في قصَّة معروفة، ها هو موسى عليه السلام يقول لهم: اذبحوا بقرة فيقولون: ما هي؟ ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فأوّل شيء قالوه له هو: هل تهزأ بنا يا موسى عليه السلام؟ ﴿قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً﴾ وهذا شكّ بالنبيّ وصدقه رغم أنَّهم مؤمنون به ﴿قالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾ ولكنَّهم واصلوا لجاجتهم.

﴿قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ﴾؟

﴿قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ﴾.

﴿قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها﴾؟

﴿قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النّاظِرِينَ﴾.

﴿قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَإِنّا إِنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

﴿قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها﴾.

﴿قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة: ٦٧ ـ ٧١)، فهم بعد كلّ الجدل والمعجزات قالوا في النهاية: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ وكأنَّ موسى عليه السلام كان قبل ذلك على باطل، ويشير القرآن إلى هذا المرض والتثاقل في قبول الموقف من النبيّ بالقول: ﴿فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ﴾، وهذا هو التردّد السياسي والعقائدي.

أمَّا حبّ الدنيا عند بني إسرائيل فبمجرَّد أن صنع لهم السامري عجلاً له خوار مصنوع من الذهب، ارتدّوا وخدعوا و﴿قَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ (طه: ٨٨).

القرآن الكريم يقول: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ (البقرة: ٩٣)، أي حبّ الدنيا. والقرآن يتحدَّث أنَّ نتيجة الأمّة التي يملكها حبّ الدنيا هي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (الأعراف: ١٥٢).

معايشة الطبقة الضعيفة:

من معالم الحركة الإصلاحية لموسى عليه السلام هو المعايشة مع الطبقة المستضعفة، كما في قصَّة القبطي والإسرائيلي حين جاء موسى عليه السلام إلى جمهور الشعب وشاهد معركة محتدمة بين رجل من بني إسرائيل ورجل من الأقباط، وانتصر موسى لذلك الإسرائيلي على القبطي وقضى عليه، لقد كانت هذه صفة من صفات موسى عليه السلام أن يعيش ميدانياً مع المجتمع وينتصر للطبقة الضعيفة.

التنظيم السرّي:

لقد بقي موسى عليه السلام ثلاثين سنة في مصر الفرعونية، ويبدو أنَّه خلال هذه الفترة قام بعملية تنظيم نخبوي سرّي يقوده هو شخصياً من داخل القصر الفرعوني، والله أعلم.

مقارنة بين موسى والحسين عليهما السلام:

توجد عشر نقاط تشابه بين الحركة الإصلاحية لموسى عليه السلام

والحركة الإصلاحية للحسين عليه السلام، تشابه على مستوى الأمّة وعلى مستوى الحركة.

١ _ التردّد السياسي لدى أمّة موسى والإقبال على الدنيا، وهو ما قامت به أمّة رسول الله صلى الله عليه وآله وكما فعله أصحاب موسى عليه السلام من بني إسرائيل، وهي أحد أهمّ المشاهد التي تورَّط بها بنو إسرائيل والأمم السابقة، وكما حدث مع مسلم بن عقيل عليه السلام حيث كان معه ثمانية عشر ألفاً ولكنَّه بعد صلاة العشاء لم يجد من يدلّه على الطريق، هذا هو التردّد السياسي وعدم الإقدام وحبّ الدنيا، حيث كانوا يقولون: (ما لنا والدخول بين السلاطين)[1]، ثمّ إنَّ هؤلاء هم أنفسهم جاؤوا لحرب الحسين عليه السلام والحسين ليس لديه إلاَّ نخبة قليلة بينما الأعداء سبعون ألفاً أو ثلاثون ألفاً أو عشرون حسب الروايات[2]، خرجوا في جيش ابن سعد، هذا هو التردّد في طاعة الإمام المعصوم.

٢ _ تسلّط آل فرعون في زمن موسى عليه السلام وفي زمن الحسين عليه السلام تسلّط آل أميّة، وهم عصابة حكموا البلاد وليس شخصاً واحداً، يقول القرآن في قصَّة موسى عليه السلام: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾ (القصص: ٨)، عهد موسى عليه السلام كان يشهد تسلّط آل فرعون وليس فرعون وحده، وفي عهد الحسين عليه السلام كان آل أميّة هم المتسلّطون على رقاب الناس.

٣ _ موسى عليه السلام أُرسل إلى فرعون للقيام بعملية تغيير ﴿اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ﴾ والحسين عليه السلام كذلك قام بعملية تغيير ومحاولة لإسقاط السلطة الأموية.

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢: ٣٨٥.

(٢) أنظر: اللهوف في قتلى الطفوف: ٥٣.

إنَّ الهدف هو تغيير السلطة السياسية أو تصحيح مواقفها كما كانت هي مسؤولية موسى عليه السلام تجاه فرعون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

٤ ـ عشر سنوات قضاها موسى عليه السلام مع شُعيب في مدين وكان صهراً لشعيب عليه السلام وخادماً عنده ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ (القصص: ٢٧)، والحِجَج جَمع حِجَّة وهي تعني السنة. وهو خلال هذه الفترة لم يقم بثورة ولم يكن مبعوثاً ونبيّاً بعد، بل إنَّه عندما عاد من مدين إلى مصر في الطريق اختاره الله نبيّاً وكلَّمهُ تكليماً وأمره أن يذهب إلى فرعون، والحسين عليه السلام أيضاً بقي عشر سنوات بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام ولم يقم بثورة خلالها وخلال حكم معاوية إلى أن جاء يزيد فقام الإمام الحسين عليه السلام بحركة ثورية.

٥ ـ سبعون رجلاً هم أصحاب موسى عليه السلام ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ (الأعراف: ١٥٦)، وهم نخبة انتخبهم موسى عليه السلام لكي يأتوا للميقات أي اللقاء مع الله تبارك وتعالى ونزول التوراة، وأصحاب الإمام الحسين عليه السلام أيضاً كانوا سبعين رجلاً.

٦ ـ موسى عليه السلام قال: أنا أريد من هو أفصح منّي لساناً وهو هارون عليه السلام، الله تبارك وتعالى قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ (القصص: ٣٥)، في كربلاء لدينا الحسين عليه السلام وأخوه العبّاس لإسناد حركة الحسين عليه السلام وهو نفس الإسناد بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين أمير المؤمنين عليه السلام في الحديث المعروف: «إنَّما أنت منّي بمنزلة هارون من والعبّاس أيضاً هو إسناد للحسين عليه السلام في كربلاء.

(١) أمالي الصدوق: ٢٣٨/ ح (٨/٢٥٢).

٧ ـ موسى عليه السلام يزرع روح المواجهة مع فرعون أي إنَّه يغذّي الأمّة بروح التحدّي والمواجهة، والحسين عليه السلام أيضاً كان أحد آليات حركته هو تغذية الأمّة بروح المواجهة في قوله: «ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً، فإنّي لا أرى الموت إلاَّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاَّ برماً»[1]، «ألا وإنَّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذلّة وهيهاتَ منّا الذلّة»[2]، أي إنَّ هناك تعبئة روحية وزرع روح التحدّي والمواجهة مع الظالمين.

٨ ـ الحوار بدل العنف. موسى عليه السلام لمَّا خرج من قصر فرعون وجاء إلى المدينة على حين غفلةٍ من أهلها ووجد اثنين يتخاصمان أحدهما من شيعته والآخر من الأقباط فاستغاثه الذي من شيعته وكان موسى عليه السلام ـ وكما يتَّفق عليه التاريخ ـ رجلاً قويّاً شديد البأس فوكزه فقضى عليه واكتشف الأقباط أنَّ هناك حركة سياسية ضدّ فرعون وهم لا يعلمون من يقودها، وفي اليوم التالي نزل موسى عليه السلام إلى المدينة ليتفقَّد الضعفاء فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه، فقال له موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ (القصص: ١٨)، أي إنَّ سياسة موسى عليه السلام لا تعتمد على العنف، بل على الحوار. ولهذا القرآن الكريم يقول في المرَّة الأولى: ﴿قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾ (القصص: ١٥)، وفي المرَّة الثانية همَّ إليه وأراد أن يقتله فالتفت إليه الذي من شيعته وقال: ﴿إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (القصص: ١٩)، أي نبَّهه فالأنبياء عليهم السلام ليست طريقتهم العنف فانسحب موسى عليه السلام واستغفر ربّه وهذا تأكيد على أنَّ الدعوة يجب أن تكون باتّباع سياسة الحوار بدل العنف.

---

(١) مثير الأحزان: ٣٢.

(٢) مثير الأحزان: ٤٠.

الحسين عليه السلام حينما قطع عليه الطريق الحرّ بن يزيد الرياحي، قال زهير بن القين للحسين عليه السلام: إنّي والله ما أراه يكون بعد هذا الذي ترون إلاّ أشدّ ممّا ترون، يا بن رسول الله، إنّ قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم، فلعمري ليأتينا بعدهم ما لا قبل لنا به.

فقال الحسين عليه السلام: «ما كنت لأبدأهم بالقتال»(١).

فحركة الحسين عليه السلام ليست حركة عنف وشدّة ولكنّهم إذا اعتدوا عليه سوف يردّ عليهم.

مرَّة أخرى نجد ذلك في يوم عاشوراء حين طلبوا من الحسين عليه السلام بأن يرموا الشمر بالسهام قال الحسين عليه السلام: «لا ترمه، فإنّي أكره أن أبدأهم»(٢)، فهو يطلب الحوار بدل العنف.

٩ ـ هجرة موسى عليه السلام من مصر إلى مدين وكذلك الحسين عليه السلام هاجر أيضاً من المدينة إلى مكّة ومن مكّة إلى العراق، هذه ثقافة الهجرة فالإمام الحسين عليه السلام حينما خرج من المدينة قرأ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٢١)، ولهذا فإنّ شاعر الحسين عليه السلام يقول:

مثل ابن فاطمة يبيت مشرّدا	ويزيد في لذّاته متنعّم
ويضيق الدنيا على ابن محمّد	حتّى تقاذفه الفضاء الأعظم
خرج الحسين من المدينة خائفاً	كخروج موسى خائفاً يتكتّم
وقد انجلى عن مكّة وهو ابنها	وبه تشرّفت الحطيم وزمزم

---

(١) الإرشاد ٢: ٨٤.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٦.

لـم يَـدر أيـن يـريح بـدن ركابـه   فكأنَّمـا المـأوى عليـه مُحـرَّم

ولمَّا دخل الحسين عليه السلام مكّة المكرَّمة قرأ: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (القصص: ٢٢).

١٠ ـ المعايشة مع الضعفاء، فأصحاب الحسين كان معظمهم من الطبقة الضعيفة. فهو لم يصطفِ أصحاب الجاه والثروة، بل كانت حركة مفتوحة فيها الوجوه الكبيرة مثل بُرير والحرّ وما شاكل، وفيها طبقة محرومة ومستضعفة وعبيد، مثل شوذب العبد مولى عابس بن عبد الله الشاكري، وآخر اسمه جون وهو عبد لدى أبي ذر الغفاري، والحسين عليه السلام يحتضن كلّ هذه الطبقات الضعيفة.

شرائط الحركة الإصلاحية:

كلّ حركة إصلاحية تغييرية تحتاج لنجاحها إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأوّل: المبدأ الصالح.

الأمر الثاني: القيادة الصالحة.

الأمر الثالث: الأمّة الصالحة.

أي إنَّنا نحتاج مبدأ وقائداً وشعباً، فقد يكون لدينا مبدأ لكن ليس لدينا قائد فلن ننتصر، وإذا توفَّر المبدأ والقائد ولا توجد أمّة صالحة فلن ننتصر أيضاً.

أمير المؤمنين عليه السلام كان قائداً صالحاً، ومبدأ الإسلام هو مبدأ صالح لكن الإمام لم يكن لديه أمّة صالحة ولهذا لم يستطع أمير المؤمنين عليه السلام أن يحقّق ما يصبو إليه، موسى عليه السلام كان لديه مبدأ صالح وهو شريعة التوراة وهو كتاب منزل من عند الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ

فِيها هُدىً وَنُورٌ﴾ (المائدة: ٤٤)، وهذا هو الشرط الأوّل وهو متوفّر لدى موسى عليه السلام، والشرط الثاني وهو القيادة الصالحة متوفّر أيضاً، فموسى عليه السلام قائد صالح فهو نبيّ ورسول، قال تعالى: ﴿وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا﴾ (مريم: ٥٢)، ﴿إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ (مريم: ٥١)، ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾ (النساء: ١٦٤)، لكن حركة موسى عليه السلام كانت تفتقد الشرط الثالث للنجاح وهو الأمّة الصالحة.

تكامل الأنبياء عليهم السلام:

قد يتصوَّر البعض ويقول: إنَّ النبيّ معصوم منذ يوم خلقه الله وسواء عاش خمسين أو ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً، فإنَّ إدراكاته ومعلوماته وقدراته هي نفسها منذ ولدته اُمّه، وهذا التصوّر خطأ طبعاً، فصحيح أنَّ النبيّ معصوم لكنَّه بشر، والتجربة الدينية بالنسبة له وعبر الوحي والتسديد الإلهي لا شكَّ أنَّها تعطيه المزيد من الكمال.

نبيّ الله نوح عليه السلام بعد ألف سنة من التجربة يختلف عمَّا كان عليه قبل ذلك، حيث مرَّ بتجارب كثيرة مُدعمة بالوحي والتعليم الإلهي والمواعظ الإلهية من الله تعالى، وهكذا نبيّنا صلى الله عليه وآله فهو خاتم الرسل وسيّد الخلق لكنَّه أحياناً كان يطلب من جبرئيل الموعظة ويقول له: «يا جبرئيل عِظني»[1]، فهو يحتاج إلى الوعظ والتسديد، فالنبيّ المعصوم يحتاج دائماً إلى الوحي والتسديد وهناك أمور هي من علم الله تبارك وتعالى لا يعرفها النبيّ فيعلّمها له الله تعالى بمرور السنين، قال تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء: ٨٥)، إذن هذا تعليم من الله تعالى،

(١) من لا يحضره الفقيه ١: ٤٧١/ ح ١٣٦٠.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ (الكهف: ٦٥)، أي إنَّه لا يمكن في أوّل يوم ولدته أُمّه أن يمتلك المعلومات التي يمتلكها بعد ستّين سنة مثلاً.

موسى عليه السلام وبناءً على هذه النظرية (نظرية تكامل حركة الأنبياء) قد مرَّ بعملية تكامل. فهو قد بقي ثلاثين سنة في مصر فرعون وصار شاباً قوي الساعدين وشديد الإرادة، ولم يكن خلالها نبيّاً، وانتقل من مصر إلى مدين وبقي عشر سنوات يخدم في دار شعيب وبعد ذلك _ أي بعد أربعين سنة _ حينما خرج إلى الصحراء ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ (طه: ١٠)، حينئذٍ بعثه الله تعالى نبيّاً: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ﴾ (النمل: ٩)، هذه الأربعون سنة كانت بمثابة دورة تأهيل لموسى عليه السلام وهذا لا يتنافى طبعاً مع العصمة، وكان لدى موسى عليه السلام حركة سياسية سرّية مع بني إسرائيل، ولمَّا انكشفت هذه الحركة السرّية جاء شخص من أصحاب موسى عليه السلام ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (القصص: ٢٠)، تقول الروايات: إنَّ موسى عليه السلام لم يرجع إلى البيت ليأخذ معه طعاماً أو ما شاكل ذلك، بل هاجر إلى مدين فوراً، وبعض الروايات تقول: إنَّه لم يكن يرتدي الحذاء فتقشَّر جلد قدميه من المشي حافياً(١).

وفي مدخل مدَين وجد مجموعة من الرعاة متجمّعين يسقون من البئر وكانت امرأتان واقفتين في جهة تريدان السقي من البئر ولا تستطيعان فسألهما موسى عليه السلام: ما خطبكما؟

قالتا: أبونا شيخ كبير ونحن جاريتان ضعيفتان لا نقدر أن نزاحم الرجال فإذا سقى الناس سقينا.

موسى عليه السلام كان شديداً وقويّاً فأبعد من كان حول البئر وسقى

(١) أنظر: جامع البيان للطبري ٢٠: ٦٦/ ح ٢٠٧٩٥.

لهما ﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٣ و٢٤)(١)، لقد كانت تجربة العمل السرّي انطلاقاً من قصر فرعون ثمّ الهجرة هي بمثابة دورة تأهيل لموسى عليه السلام، وحينئذٍ وبعدما قطع موسى هذه التجربة التربوية العظيمة مع الله اتَّخذه الله كليماً.

لمحات من شخصية موسى عليه السلام:

هناك رواية تقول في الدلالة على تكامل موسى الكليم أنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: تدري لِمَ انتخبتك من خلقي واصطفيتك بكلامي؟

قال: لا يا ربّ.

فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه: إنّي اطلعت إلى الأرض فلم أعلم لي عليها أشدّ تواضعاً منك(٢).

ومرَّة أخرى أوحى الله عزَّ وجلَّ إليه: يا موسى اشكرني حقّ شكري.

قال موسى عليه السلام: يا ربّ، وكيف أشكرك حقّ شكرك وليس من شكر أشكرك إلاَّ وأنت أنعمت به عليَّ؟

قال: يا موسى الآن شكرتني حين علمت أنَّ ذلك منّي(٣).

ورغم أنَّ موسى عليه السلام قد تكامل خلال الهجرة لكن بعض الروايات تقول: إنَّ موسى صعد المنبر فحدثَّ نفسه أنَّ الله لم يخلق خلقاً

---

(١) أنظر: كمال الدين: ١٥٠؛ بحار الأنوار ١٣: ٤١/ باب ٢/ ح ٩.

(٢) الدعوات: ٧٨/ باب ٢/ ح ١٨٨؛ بحار الأنوار ٥٩: ٢٦٨/ ح ٥٤.

(٣) الكافي ٢: ٩٨/ باب الشكر/ ح ٢٧.

أعلم منه، فأتاه جبرئيل فقال: إنَّك قد ابتليت فانزل فإنَّ في الأرض من هو أعلم منك فاطلبه، وكان موعد اللقاء هو مجمع البحرين أي ملتقى النهرين، ولمَّا مضى موسى عليه السلام ويوشع وقطعوا مسافة ﴿قالَ لِفَتاهُ﴾ وهو يوشع ﴿آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً﴾ (الكهف: ٦٢)، فقال يوشع: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَما أَنْسانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾ (الكهف: ٦٣)، الروايات تقول: إنَّ الحوت وهو السمكة كان ميّتاً ومملّحاً، وروايات أخرى تقول: إنَّ السمكة كانت حيّة فسقطت في الماء وذهبت(١)، على كلّ الأحوال موسى عليه السلام قال: هذه هي العلامة بيني وبين الله فمتى ما ذهبت السمكة في الماء فأنا أذهب لذلك المكان وألتقي بأستاذي فرجع والتقى بعبدٍ ﴿آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ (الكهف: ٦٥).

الروايات تسمّيه: (الخضر)، وسمّي كذلك حسب ما تقول بعض الروايات، لأنَّه كان لا يجلس على جذع يابس إلاَّ واخضرَّ ولا على أرض جافّة إلاَّ واخضرَّت، أي إنَّه إنسان مبارك(٢)، فدخل معه موسى عليه السلام دورة تعليم عدّة أيّام(٣).

مشكلة الأمّة:

كان موسى عليه السلام قائداً صالحاً والتوراة مبدأ صالح، فأين المشكلة؟ ولماذا لم ينتصر قوم موسى عليه السلام؟

---

(١) تفسير الميزان ١٣: ٣٣٩.

(٢) أنظر: علل الشرائع ١: ٥٩/ باب ٥٤/ ح ١.

(٣) راجع: تفسير العياشي ٢: ٣٣٢/ ح ٤٧.

المشكلة هي أنَّ الشرط الثالث للنجاح غير متوفّر وهو الأمّة الصالحة، وبنو إسرائيل أمّة غير صالحة.

لقد انتخب موسى عليه السلام منهم سبعين رجلاً من علمائهم وذلك لكي يذهبوا للتعبّد على الجبل ولكنَّهم لم ينجحوا في التجربة، فقال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٥). إذن أمّته وهم بنو إسرائيل أمّة غير صالحة، ولهذا فإنَّ بني إسرائيل لم يدخلوا فلسطين ولم يسمعوا كلام موسى عليه السلام، ومات موسى وهارون عليهما السلام في التيه الذي استمرَّ أربعين سنة، وبعد مدّة دخل اليهود فلسطين وذلك في عهد يوشع وصيّ موسى عليه السلام.

اليهود في فلسطين:

تقول الروايات: إنَّهم لمَّا دخلوا فلسطين بقوا ثلاثمائة وستّة وخمسين سنة ولم يؤسسوا دولة ولم يكن لديهم ملك، وإنَّما تأسست الدولة في عهد داود أي بعد خمسمائة سنة من موسى عليه السلام[1]، لكن هذه الدولة هي دولة استثنائية وبدون أمّة صالحة، فإنَّ داود لم ينتصر بالأمّة الصالحة وإنَّما انتصر بالجنّ والطير والرياح والجبال، وهذا بحث آخر قد نتناوله في موضع آخر.

جاء في تقرير أنَّ الولايات المتّحدة الأمريكية والشعب الأمريكي، حسب ما تخطّط له الإدارات الكبرى يفترضون أنَّهم هم الأمّة التي بلغت قمّة الحضارة وتريد أن تصبح هي الأمّة المصلحة للعالم وهذه هي العولمة الأمريكية.

---

(١) أنظر: تفسير القمي ١: ١٦٥.

نحن في فهمنا أنَّه لا يمكن لأمّة غير صالحة أن تقود العالم، ربَّما تغلب كما غلب فرعون، لكن هداية العالم تحتاج إلى أمّة صالحة.

القرآن يقول: إنَّ الأمّة الصالحة التي تهدي العالم هي أمّة الإسلام ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: ١٤٣)، أمَّا الأمّة الأمريكية فجاء في تقرير حسب ما نشرته بعض الصحف:

قال المسؤول عن قطاع تنظيم الجنائز في ضاحية مدينة شيكاغو: إنَّ ثَمَّة طلباً متزايداً من الناس لدفنهم مع حيواناتهم المدلَّلة في مدافن عائلاتهم.

ثمّ يستمرّ التقرير ويقول: عادةً ما تدفن الحيوانات الأليفة في مدافن مخصَّصة لها، وتمَّ على هذا الأساس تخصيص موقع مساحته أربعون فداناً لدفن الحيوانات مع أصحابها في مدافن (إيدن بارك) في متنزّه (تشيلر) في ولاية (أنينا) وعشرون فداناً في مدافن (بانيفيو) في متنزّه (بيجبارك)، ثمّ يتحدَّث التقرير عن كيفية الدفن ويقول:

الطريقة التي اختاروها _ وهذه هي قمّة الحضارات _ أنَّهم يدفنون الحيوانات على عمق سبعة أقدام ونصف في حين يدفن أصحابها عندما يموتون فوقها أي على عمق ستّة أقدام[(١)].

سبحان الله هؤلاء يفكّرون أن يقودوا العالم بهذه الحضارة، صحيح أنَّهم يملكون قوّة، لكنَّهم لا يملكون حضارة متقدّمة كما يملكها الإسلام والأديان الإلهية.

إنَّ أحد شروط انتصار الحركة الإصلاحية العالمية هو وجود الأمّة الصالحة ذات الثقافة الصالحة.

---

(١) جريدة الصباح الجديد: العدد ٥٠٨/ (٢/ شباط/ ٢٠٠٦م).

الخطاب السياسي للحسين عليه السلام:

الإمام الحسين عليه السلام كان عنده المبدأ الصالح وهو القرآن والإسلام، والقائد الصالح موجود وهو الحسين عليه السلام، لكن النقص الموجود هو الأمّة الصالحة، ولقد كان جهد الحسين عليه السلام وجهد الأئمّة عليهم السلام من بعده في تجربة عمرها مائتان وخمسون سنة هو التثقيف السياسي والتثقيف الديني لتحقيق الأمّة الصالحة.

الحسين عليه السلام عنده حوالي خمسين خطاباً سياسياً، وسوف أقرأ لكم شيئاً من التثقيف السياسي الذي زرَّقه الإمام في الأمّة حتَّى وصلنا إلى يومنا هذا. فالقدرة التي يمتلكها شيعة أهل البيت والاعتصام السياسي والوعي السياسي لم يأتِ بالمجّان وإنَّما كان نتيجة التثقيف السياسي الذي غرسه الإمام الحسين عليه السلام في الأمّة.

يبدو أنَّ الحسين عليه السلام مثلما كان موسى عليه السلام يعمل لمدّة ثلاثين سنة حتَّى انكشف أمره عند فرعون، وعندها هاجر موسى عليه السلام. وهكذا الإمام الحسين عليه السلام فقد عمل عشر سنوات بعد الإمام الحسن عليه السلام في التثقيف السياسي حتَّى قيل لمعاوية: (أمَّا بعد، فإنَّ عمرو بن عثمان ذكر أنَّ رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن علي، وذكر أنَّه لا يأمن وثوبه، وقد بحثت عن ذلك فبلغني أنَّه يريد الخلاف يومه هذا، ولست آمن أن يكون هذا أيضاً لما بعده...) هذا ما اقترحه مروان والي معاوية في المدينة[1].

مجموعة أخرى قالوا لمعاوية: إنَّ الناس قد رموا أبصارهم إلى

(١) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٥٠ و٢٥١/ ح ٩٧.

الحسين عليه السلام، فلو قد أمرته يصعد المنبر ويخطب فإنَّ فيه حصراً أو في لسانه كلالة.

فقال لهم معاوية: قد ظننا ذلك بالحسن، فلم يزل حتَّى عظم في أعين الناس وفضحنا، فلم يزالوا به حتَّى قال للحسين: يا أبا عبد الله لو صعدت المنبر فخطبت.

فصعد الحسين عليه السلام على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله، فسمع رجلاً يقول: من هذا الذي يخطب؟

فقال الحسين عليه السلام: «نحن حزب الله الغالبون، وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله الأقربون، وأهل بيته الطيّبون، وأحد الثقلين اللذين جعلنا رسول الله صلى الله عليه وآله ثاني كتاب الله... فأطيعونا فإنَّ طاعتنا مفروضة»(١)، كان هذا تثقيفاً سياسياً ومثل هذه الخُطَب لدينا الكثير موجودة في المصادر.

مؤتمر مكّة:

جمع الحسين عليه السلام بنيّ هاشم، رجالهم ونساءهم، ومواليهم، وشيعتهم، من حجَّ منهم ومن لم يحجّ، ومن الأنصار ممَّن يعرفونه، وأهل بيته، ثمّ لم يدع أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ومن أبنائهم والتابعين، من الأنصار المعروفين بالصلاح والنسك إلاَّ جمعهم، فاجتمع عليه بمنى أكثر من ألف رجل...

فقام الحسين عليه السلام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

«أمَّا بعد فإنَّ الطاغية قد صنع بنا وبشيعتنا ما قد علمتم ورأيتم وشهدتم وبلغكم، وأنّي أريد أن أسألكم عن أشياء فإن صدقت

---

(١) الاحتجاج ٢: ٢٢ و٢٣.

فصدّقوني، وإن كذبت فكذّبوني...»، ثمّ بدأ الحسين عليه السلام بذكر ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله في فضل الحسن والحسين عليهما السلام، وكلّ ذلك يقول الصحابة: اللّهمّ نعم، قد سمعناه وشهدناه، ويقول التابعون: اللّهمّ قد حدَّثنا من نصدّقه ونأتمنه.

فقال: «أنشدكم بالله إلاَّ رجعتم وحدَّثتم به من تثقون به»(١).

هذا هو التثقيف السياسي وهو في مكّة المكرَّمة وقبل أن يتحرَّك في الثورة والهجرة إلى العراق وكربلاء.

قصَّة الأعرابي:

جاء أعرابي إلى الحسين عليه السلام وكان صاحب حاجة فقال له: سمعت عن جدّك يقول: «إذا سألتم حاجة فاسألوها من أربعة: إمَّا عربي شريف، أو مولى كريم، أو حامل القرآن، أو صاحب وجه صبيح»، فأمَّا العرب فشرّفت بجدّك، وأمَّا الكرم فدأبكم وسيرتكم، وأمَّا القرآن ففي بيوتكم نزل، وأمَّا الوجه الصبيح فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إذا أردتم أن تنظروا إليَّ فانظروا إلى الحسن والحسين».

فقال له الحسين عليه السلام: ما حاجتك؟

فكتبها الأعرابي على الأرض، فقال له الحسين عليه السلام: «سمعت أبي علياً يقول: المعروف على قدر المعرفة، فأسألك عن ثلاث مسائل إن أجبت عن واحدة فلك ثلث ما عندي، وإن أجبت عن اثنين فلك ثلثا ما عندي، وإن أجبت عن الثلاث فلك كلّ ما عندي، وقد حملت إليَّ صرّة من العراق».

---

(١) أنظر: الاحتجاج ٢: ١٩.

فقال له: سل ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله.

فقال الحسين عليه السلام: «أي الأعمال أفضل؟».

قال: الإيمان بالله.

فقال الحسين عليه السلام: «صدقت، وما النجاة من الهلكة؟».

قال: الثقة بالله.

فقال الحسين عليه السلام: «صدقت، فما يزين المرء؟».

قال: علم مع حلم.

فقال الحسين عليه السلام: «فإن أخطأه ذلك؟».

قال: مال مع كرم.

فقال الحسين عليه السلام: «فإن أخطأه ذلك؟».

قال: فقر معه صبر.

فقال الحسين عليه السلام: «فإن أخطأه ذلك؟».

قال الأعرابي: صاعقة من السماء فتحرقه، فضحك الإمام ورمى إليه بالصرّة[1].

إذن الإمام الحسين عليه السلام يوظّف عملية الكرم في التثقيف الديني، وهكذا نحن نحتاج إلى تثقيف سياسي وإلى تثقيف ديني.

* * *

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ١: ١٣٠ و١٣١.

الدراسة الرابعة:

بين الإمام الحسين عليه السلام

والنبيّ عيسى عليه السلام

- أهداف عيسى عليه السلام.
- نقاط تشابه مع الحسين عليه السلام.
- كلمات ضدّ الحسين عليه السلام.

حركة عيسى بن مريم عليه السلام:

عيسى بن مريم عليه السلام هو النبيّ والرسول الرابع من أولي العزم، واليوم يؤمن به مليارات من الناس باعتباره شخصية مقدَّسة هو وأُمّه مريم ابنة عمران عليها السلام، ويظهرون الاتّباع لهم، نحن المسلمون أيضاً نعتقد بقدسية عيسى عليه السلام وصحَّة دينه، إذن هذا إنسان له إشعاعات في تاريخ البشرية ممتدّة إلى يومنا.

نقطة الامتياز عند عيسى عليه السلام أنَّه كان روح الله، بينما كان إبراهيم خليل الله، وكان موسى كليم الله، أمَّا عيسى فهو روح الله، عيسى عليه السلام ليس له أب، أي إنَّ أُمّه مريم ابنة عمران عليها السلام ليس لها زوج، وإنَّما نفخ الله فيها من روحه فكان عيسى عليه السلام، وهو كلمة الله ألقاها إلى مريم عليها السلام.

حيث عظَّم القرآن هذا الإنسان فقال: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ﴾ (النساء: ١٧١).

والفاصلة الزمنية بين موسى عليه السلام وبين عيسى بن مريم عليه السلام هي ألف وسبعمائة سنة[(١)]، وقيل: ألف وتسعمائة سنة[(٢)]، وقيل: ألفا سنة[(٣)]، وقيل غير ذلك، وكان بنو إسرائيل يعيشون في فلسطين بدون دولة، وفيما بعد سألوا الله تعالى أن يجعل لهم ملكاً[(٤)]، واستجاب الله تعالى لهم وجعل لهم طالوت ملكاً حيث

---

(١) أنظر: تفسير جوامع الجامع ١: ٤٨٧.

(٢) أنظر: فتح القدير ٢: ٣٦.

(٣) أنظر: فتح القدير ١: ٣٤٩.

(٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإَ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ (البقرة: ٢٤٦).

صارت الدولة، ثمّ داود عليه السلام ثمّ سليمان عليه السلام ثمّ إنَّ هذه الدولة انتهت حينما مات سليمان عليه السلام لأنَّها كانت حالة استثنائية غير طبيعية، دولة قائمة على أساس التنفّس الاصطناعي، لأنَّ داود وسليمان عليهما السلام يعتمدان على جنود من الجنّ والطير والملائكة والرياح والجبال، أمَّا الناس فليسوا جنوداً وهم بنو إسرائيل الذين قالوا لنبيّهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا﴾ (المائدة: ٢٤)، فأنزل الله تعالى الجنّ والملائكة والحجارة والمياه والرياح تسبّح لداود وسليمان عليهما السلام لكي يؤسّس أعظم دولة بدون إسناد بشري، وهذا أمر على خلاف القاعدة الإلهية، ولهذا فإنَّه بمجرَّد أن مات سليمان عليه السلام انتهت الدولة العبرية، لأنَّ انتصار الحركة التغييرية وقيام دولة صالحة يحتاج إلى مبدأ وقيادة صالحة وشعب صالح حسب ما ذكرناه سابقاً، فإذا كان الشعب غير صالح فلا يمكن تأسيس الدولة الصالحة، وبنو إسرائيل كانوا شعباً غير صالح بعد أن فضَّلهم الله تعالى على العالمين ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٤٧)، ولكنَّهم لم يعرفوا استحقاق هذا التفضيل، ولذا قال الله تعالى فيهم: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٧٠ و٧١).

لقد بعث الله بعد موسى عليه السلام مجموعة أنبياء، وهم: داود وسليمان وأيّوب ويونس عليهم السلام خلال قرون من السنين حتَّى بُعث عيسى بن مريم عليه السلام الذي نشأ في فلسطين، وبُعث بهدف تصحيح أمّة بني إسرائيل، أي إنَّ عيسى بن مريم عليه السلام قام بحركة تصحيحية داخلية في داخل البيت الإسرائيلي الذي يمثل الأمّة الدينية آنذاك، لكنَّهم انحرفوا.

عيسى بن مريم عليه السلام وهو في المهد، قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ

الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ (مريم: ٣٠)، وأنا لست بصدد الحديث عن تفاصيل شخصية عيسى عليه السلام ومعجزاته، لأنَّ حديثنا فقط عن الحركة الإصلاحية، ولكي نقارنها بحركة الحسين عليه السلام، عيسى عليه السلام كان ابن خالته نبيّاً أيضاً وهو يحيى عليه السلام، وكان قبل عيسى عليه السلام وكان يبشّر بعيسى عليه السلام، وبعد ثلاثين سنة من عمره بُعث عيسى عليه السلام بالرسالة والنبوّة بهدف أن يخوض عملاً تصحيحياً.

عيسى عليه السلام كان آخر أنبياء بني إسرائيل. بنو إسرائيل قتلوا كلّ الأنبياء الذين بعثهم الله إليهم، وقد حوَّل تبارك وتعالى الكرامة الإلهية من بني إسرائيل إلى أمّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

نبوّة عيسى عليه السلام كانت قصيرة جدّاً من ناحية زمنية، حيث كانت حوالي ثلاث سنوات من مبعثه وإلى أن رفعه الله إليه. خلال ثلاث سنوات كان عيسى عليه السلام مؤثّراً جدّاً في النفوس، ولقد كان يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله وهذه معاجز لكن أصل القضيّة هي قوّة الشخصية والقدرة القلبية التي لدى عيسى عليه السلام التي جعلت العالم يتأثّر به إلى اليوم.

أهداف عيسى عليه السلام:

كان لدى عيسى عليه السلام خمسة أهداف:

١ ـ إنقاذ بني إسرائيل من عبودية الأرباب من دون الله، حيث إنَّ بني إسرائيل تورَّطوا بمشكلة وهي: أنَّ علماء السوء عندهم حوَّلوا أنفسهم إلى آلهة مقدَّسين، وأصبح الناس عبيداً لهؤلاء العلماء، ولهذا فإنَّ عيسى عليه السلام شنَّ حملةً شعواء على علماء السوء من بني إسرائيل الذين قاموا بعمل تحريفي في ديانة موسى عليه السلام، والقرآن الكريم يؤكّد

هذا قائلاً: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١)، جاء عيسى عليه السلام ووجدهم يعبدون أصناماً بشرية، فقال لهم: ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ﴾ (المائدة: ٧٢).

٢ ـ إنقاذهم من التعصّب القومي، فلقد كان بنو إسرائيل متعصّبين وعندهم نزعة قومية متطرّفة وباصطلاحنا اليوم (تكفيريين) وإلى اليوم هذه النزعة القومية الجاهلية موجودة لديهم، قالوا: نحن شعب الله المختار، القرآن أيضاً ينقل مقالتهم: ﴿نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ (المائدة: ١٨)، ولديهم ادّعاء عريض جدّاً بأنّهم الأمّة المنتخبة التي يجب أن تسود العالم، وأمّا عيسى عليه السلام فقد أصبح يهدّم هذه النزعة التكفيرية التي تتعالى وتستحقر سائر الشعوب.

٣ ـ مواجهة التحريف الديني حيث إنَّ بني إسرائيل حرَّفوا ديانة موسى عليه السلام، وأعلنوا مبدأ الإباحية يوم السبت، وهذه إحدى التحريفات التي قام بها اليهود، وجاء عيسى عليه السلام لكي يصحّح هذا الأمر التحريفي، ولعلَّ هذا ما يشير إليه القرآن الكريم وهو يتحدَّث عن بني إسرائيل قائلاً: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ...﴾، إلى أن يقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٥ ـ ٧٩).

٤ ـ التزهيد في الدنيا: كان هذا هو أحد أهداف ومناهج حركة عيسى عليه السلام الإصلاحية فقد غرق بنو إسرائيل اليهود في حبّ الدنيا وانغمسوا فيها إلى الأعناق، وكانت النزعة النفعية المادية هي المتحكّمة بسلوكهم دائماً، مع موسى وبعد موسى عليه السلام.

كان حديثهم مع موسى عليه السلام حديث الدنيا ﴿يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ﴾ (البقرة: ٦١)، ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ﴾ (المائدة: ١١٤).

٥ _ تأسيس منهج المحبّة، فلقد كان اليهود تكفيريين وأهل عدوان، وعيسى عليه السلام هو داعية السلام والسلم العالمي، جاء لغرس منهج المحبّة للإنسانية كما هو منهج نبيّنا صلى الله عليه وآله.

نصوص الإنجيل:

هذه هي الأهداف الخمسة لعيسى عليه السلام، وهناك نصوص من إنجيل عيسى عليه السلام باتّجاه الأهداف الخمسة التي أشرت إليها، تقول:

(يا بني إسرائيل أمَا تستحيون من الله... ألم تسمعوا أنَّه قيل لكم في التوراة: صلوا أرحامكم وكافئوا أرحامكم، وأنا أقول لكم: صلوا من قطعكم، وأعطوا من منعكم، وأحسنوا إلى من أساء إليكم، وسلّموا على من سبَّكم، وأنصفوا من خاصَمكم، وأعفوا عمَّن ظلمكم كما أنَّكم تحبّون أن يُعفى عن إساءتكم...).

يستمرّ عليه السلام ويقول: (بحقّ أقول لكم إنَّ شرّ الناس لرجل عالم آثر دنياه على علمه فأحبّها وطلبها...).

ثمّ يقول عليه السلام: (وماذا يغني عن الأعمى سعة نور الشمس وهو لا يبصرها...).

يستمر عليه السلام ويقول: (بحقّ أقول لكم: إنَّ الحريق ليقع في البيت الواحد فلا يزال ينتقل من بيت إلى بيت حتَّى تحترق بيوت كثيرة، إلاَّ أن يستدرك البيت الأوّل من قواعده فلا تجد فيه النار معملاً. وكذلك الظالم الأوّل...).

ثمّ يقول عليه السلام: (ويلكم يا عبيد السوء من أجل دنيا دنية وشهوةٍ رديئة تفرّطون في ملك الجنّة وتنسون هول يوم القيامة...).

ثمّ يناقش علماء السوء ويقول: (ويلكم يا عبيد الدنيا تحملون السراج في ضوء الشمس وضوؤها كان يكفيكم وتدعون أن تستضيئوا بها في الظلم، كذلك استضأتم بنور العلم لأمر الدنيا...)[١].

هذه هي مناقشات وجدل عيسى عليه السلام الكبير جدّاً باتّجاه الأهداف الخمسة.

مشكلة الأمّة:

لقد كانت مشكلة عيسى عليه السلام هي مشكلة أمّته التي لم تتقبَّل رسالته بشكل جيّد، ولقد سيطر المنافقون على السيرة التصحيحية التي بدأها عيسى عليه السلام.

بعد عيسى عليه السلام كان هناك شخص يُعتبر الآن الخليفة الثاني عند المسيحيين، الخليفة الأوّل بطرس والخليفة الثاني بولص والذي كان منافقاً في زمن عيسى عليه السلام، لكن بعد ثلاثين سنة من مقتل عيسى عليه السلام حسب نظريتهم، ادّعى أنَّه تراءى أو تظاهر له أنَّ عيسى عليه السلام ونوره أخذ عيونه وصار أعمى ثمّ بعد ثلاثة أيّام فتح الله عيونه وبدأ يقرأ لهم الإنجيل، الحركة النفاقية هي التي كتبت الإنجيل الفعلي بعد أن سيطرت على الوضع بعد عيسى عليه السلام.

بولص هو الذي كتب الإنجيل وهو إنسان لم يكن مؤمناً بعيسى عليه السلام حسب ما يذكر التاريخ، لكن أظهر الحالة الإيمانية وسيطر على الموقف بعد عيسى عليه السلام.

هل أسَّس عيسى عليه السلام دولة دينية أم لم يؤسّس؟

---

(١) أنظر: تحف العقول: ٥٠٣ - ٥٠٦؛ بحار الأنوار ١٤: ٣٠٦ - ٣٠٩/ باب ٢١/ ح ١٧.

هل انتصر عيسى عليه السلام أم لم ينتصر؟

الجواب هو أنَّ عيسى عليه السلام لم ينتصر ولم يؤسّس دولة دينية، لقد ذهب اليهود إلى ملك الروم وقالوا له: إنَّ عيسى عليه السلام يريد أن يشنّ ضدّك حرباً، وعيسى عليه السلام كان في فلسطين، فجهَّز ملك الروم جيشاً وأرسله إلى فلسطين وصلب عيسى بن مريم عليه السلام بناءً على نظرية الصلب والقتل، وبعد ثلاثمائة سنة جاء إمبراطور الروم (قسطنطين) وآمن بعيسى وأعلن أنَّ دين الدولة الرسمي هو النصرانية، فالخطّ المنحرف إذن هو الذي سيطر بعد عيسى عليه السلام.

شخصية عيسى والحسين عليهما السلام:

عيسى عليه السلام كان متواضعاً جدّاً ويعلّم الناس التواضع والمحبّة، وكان عنده أصحابه الحواريون ﴿قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصاري إلى اللَّهِ﴾ (الصفّ: ١٤)، فنهض معه اثنا عشر شخصاً وهم الحواريون، وهذه نقطة تشابه بين عيسى والحسين عليهما السلام فعيسى عليه السلام عنده أصحاب نصروه والحسين عليه السلام عنده أصحاب نصروه أيضاً بينما تخاذل باقي أبناء الأمّة.

قال عيسى عليه السلام لهؤلاء الحواريين: يا معشر الحواريين لي إليكم حاجة اقضوها لي.

قالوا: قُضيت حاجتك يا روح الله، فقام فغسل أقدامهم.

فقالوا: كنّا نحن أحقّ بهذا يا روح الله.

فقال: إنَّ أحقّ الناس بالخدمة العالم إنَّما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم[1].

---

(١) الكافي ١: ٣٧/ باب حقّ العالم/ ح ٦.

الحسين عليه السلام كذلك مرَّ في الطريق فوجد مساكين يأكلون خبزاً يابساً، فقالوا: هلمَّ يا بن رسول الله، فثنى وركه فأكل معهم...، ثمّ قال: قد أجبتكم فأجيبوني، قالوا: نعم يا بن رسول الله وتعمى عين، فقاموا معه حتَّى أتى منزله، فقال للرباب: أخرجي ما كنت تدخرين[1]، هذه هي أخلاقية التواضع عند النبيّ وعند الإمام.

وفود عيسى عليه السلام للعالم:

عيسى عليه السلام حمل بدايات الدعوة لدولةٍ عالمية، لأوّل مرَّة نحن نجد أنَّ عيسى عليه السلام أرسل رسلاً وقبل أن يرفعه الله جمع الحواريين وقال: بعد مماتي أريدكم أن تنتشروا في كلّ العالم.

القرآن الكريم كما تذكر بعض الروايات في سورة (يس: ١٤) يقول: ﴿إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ﴾، هؤلاء كانوا وفود عيسى عليه السلام إلى أنطاكية وسُجنوا بعد ذلك في أنطاكية. هذا هو عيسى عليه السلام، يؤسّس دولة عالمية وبعد ذلك الأمّة الإسلاميّة ورثت هذه الدعوة وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشكَّل الدولة الإسلاميّة العالمية، فأرسل رسولاً إلى كسرى الفرس وإلى قيصر الروم، أي إلى القطب الشرقي وإلى القطب الغربي في العالم حيث أرسل لهم يدعوهم إلى الإسلام.

عيسى عليه السلام كان يمثّل بدايات الدعوة للديانة العالمية.

عيسى عليه السلام واللبنات الثلاث:

توجَّه عيسى بن مريم عليه السلام في بعض حوائجه ومعه ثلاثة نفر من

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٥٧/ ح ١٥؛ بحار الأنوار ٤٤: ١٨٩/ باب ٢٦/ ح ١.

أصحابه، فمرَّ بلبنات ثلاث من ذهب على ظهر الطريق، فقال عيسى عليه السلام لأصحابه: إنَّ هذا يقتل الناس، ثمّ مضى.

فقال أحدهم: إنَّ لي حاجة.

قال: فانصرف. ثمّ قال آخر: إنَّ لي حاجة، فانصرف. ثمّ قال الآخر: لي حاجة، فانصرف.

فوافوا عند الذهب ثلاثتهم، فقال اثنان لواحد: اشتر لنا طعاماً.

فذهب ليشتري لهما طعاماً، فجعل فيه سمّاً ليقتلهما كي لا يشاركاه في الذهب.

وقال الاثنان: إذ جاء قتلناه كي لا يشاركنا.

فلمَّا جاء قاما إليه فقتلاه، ثمّ تغدّيا فماتا، فرجع إليهم عيسى عليه السلام وهم موتى حوله، فأحياهم بإذن الله تعالى ذكره، ثمّ قال: ألم أقل لكم: إنَّ هذا يقتل الناس[1]؟

تسمية السيّد المسيح عليه السلام:

هناك عدّة تفاسير لتسمية عيسى عليه السلام بالمسيح:

تفسير يقول: إنَّ جبرئيل مسحه بجناحيه وقت ولادته يعوّذه بذلك من الشيطان[2]، وتحليل آخر يقول: معنى المسيح أنَّه كان يسيح في الأرض ويصوم[3].

خرج عيسى عليه السلام ومعه الحواريون الاثنا عشر _ حيث ابتعد عنه

---

(١) أمالي الصدوق: ٢٤٧ و٢٤٨/ ح (٥/٢٦٧)؛ بحار الأنوار ١٤: ٢٨٤/ باب ٢١/ ح ٥.

(٢) تفسير جوامع الجامع ١: ٢٧٨.

(٣) معاني الأخبار: ٥٠.

بنو إسرائيل ـ وفي الطريق وهم منصرفون للعبادة ولم يكن يوجد طعام ولا زراعة لكن كانوا إذا جاعوا قالوا: يا روح الله جعنا. فيضرب بيده على الأرض، سهلاً كان أو جبلاً، فيُخرج لكلّ إنسان منهم رغيفين يأكلهما. وإذا عطشوا قالوا: يا روح الله عطشنا. فيضرب بيده على الأرض، سهلاً كان أو جبلاً، فيخرج ماء فيشربون.

قالوا: يا روح الله من أفضل منّا، إذا شئنا أطعمتنا، وإذا شئنا سقيتنا، وقد آمنّا بك واتّبعناك؟

فقال لهم عيسى عليه السلام: أفضل منكم من يعمل بيده، ويأكل من كسبه[1].

نقاط تشابه مع الحسين عليه السلام:

هذه إلمامة عن حركة عيسى عليه السلام، وننتقل إلى الحسين عليه السلام، هناك مجموعة نقاط مقارنة بين الحسين وبين عيسى عليهما السلام والحديث على سبيل الاختصار:

مقارنة أولى: عيسى عليه السلام قام بحركة تصحيحية بعد موسى عليه السلام، والحسين عليه السلام قام بحركة تصحيحية ضدّ الانحراف الذي حدث بعد رسول الله، حيث كان الوضع يحتاج إلى حركة تصحيحية وكان الإمام علي والأئمّة عليهم السلام واحداً بعد واحد قد قادوا هذه الحركة التصحيحية.

لقد تسلَّط معاوية بن أبي سفيان على التجربة الإسلاميّة وعمل جاهداً على أن يُسبغ على حكمه ثوب الشرعية والقدسية الدينية، لكن جهود الأئمّة الأطهار عليهم السلام التي كان يقف في طليعتها صلح الحسن وثورة الحسين عليه السلام مزَّقت هذه الشرعية.

---

(١) تفسير مجمع البيان ٢: ٣٠٤.

تصوَّروا أنَّه لولا حركة الحسين عليه السلام ماذا كان يحلُّ بالإسلام والمسلمين؟ وأيّ حكم وحاكم كان يحكم على المسلمين باسم الإسلام وهو عدوّ الإسلام؟

مقارنة ثانية: إنَّ الحركة التصحيحية التي قادها الحسين عليه السلام وهي حركة تصحيحية في داخل جسم الأمّة الإسلاميّة كما كان عيسى عليه السلام يقوم بحركة تصحيحية في داخل أمّة بني إسرائيل أي من الداخل، لكن هناك فرق بين عيسى والحسين عليهما السلام، حيث إنَّ عيسى عليه السلام لم يواجه إمبراطوراً وملكاً، بل كان يواجه حالة داخلية من علماء السوء وناساً جهلاء، ولكن الحسين عليه السلام واجه ملكاً وواجه أمّةً جاهلة.

مقارنة ثالثة: هي أنَّ عيسى عليه السلام انتخب اثني عشر من الحواريين وإنَّما سمّوا حواريين لأنَّ كلمة حور في اللغة تعني أبيض في إشارة إلى بياض قلوبهم أو بياض أبدانهم. هذا أحد التفاسير اللغوية لمعنى الحواريين، أو بمعنى أنَّهم أصحاب أو أنصار وهو معنى آخر لكلمة الحواري في اللغة[1].

الحسين عليه السلام أيضاً في حركته اصطفى مجموعة من الناس، وقال: «من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلَّف عنّي لم يبلغ الفتح»[2]، «فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردَّ عليَّ هذا أصبر»[3]، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصارِي إِلَى اللهِ﴾؟

لقد لبّى نداء الحسين عليه السلام مجموعة قليلة من الأمّة الإسلاميّة

(١) أنظر: لسان العرب ٤: ٢١٩ و٢٢٠.

(٢) دلائل الإمامة: ١٨٨/ ح (١٢/١٠٧).

(٣) كتاب الفتوح ٥: ٢١؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٣٠.

وهنا قال الحسين عليه السلام: «إنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي»(١).

مقارنة رابعة: عيسى عليه السلام مع المساكين، والحسين عليه السلام مع المساكين كما مرَّ سابقاً(٢).

مقارنة خامسة: التضحية، عيسى عليه السلام استعدَّ أن يكون شهيداً مضحّياً. هذه التضحية لعيسى عليه السلام جعلته يعيش في قلوب مليارات من الناس في العالم، وصار عندهم مشهد إعدام عيسى عليه السلام هو الصليب المقدَّس، الحسين عليه السلام كذلك كانت تضحيته في كربلاء هي التي أعطته زخماً روحياً مليونياً لدى المسلمين على طول التاريخ، بل زخماً عالمياً لدى غير المسلمين.

مقارنة سادسة: عيسى عليه السلام وُلد لعمر ستّة أشهر، والحسين عليه السلام أيضاً هو الوليد لستّة أشهر كما تقول الروايات(٣).

مقارنة سابعة: بكاء السماء.

الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام تقول: «لمَّا كان تلك الليلة التي قتل فيها أمير المؤمنين عليه السلام لم يرفع عن وجه الأرض حجر إلاَّ وجد تحته دم عبيط، حتَّى طلع الفجر...، وكذلك كانت الليلة التي رفع فيها عيسى بن مريم إلى السماء...، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها الحسين بن علي عليهما السلام»(٤).

---

(١) الإرشاد ٢: ٩١؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٩٢.

(٢) أنظر (ص ١٠٥) تحت عنوان: شخصية عيسى والحسين عليهما السلام.

(٣) أنظر: الهداية الكبرى: ٢٠٢؛ دلائل الإمامة: ١٧٩؛ مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٠٩.

(٤) أنظر النصّ الكامل للرواية في: كامل الزيارات: ١٥٩/ باب ٢٤/ ح (١/١٩٧).

مقارنة ثامنة: إنَّ أبرز من يخرج مع إمام زماننا اثنان أحدهما عيسى عليه السلام، والثاني الحسين عليه السلام.

قد يقول قائل: كيف ذلك والحسين عليه السلام قد قتل؟

الجواب: لقد ثبت أنَّ عيسى عليه السلام ينزل من السماء، وإذا كان عيسى عليه السلام ينزل من السماء فإنَّ الحسين عليه السلام أيضاً يخرج من الأرض، إذا كانت القضيّة فيها إرادة إلهية فنحن نُسلّم أمام هذه الإرادة الإلهية تسليماً.

الروايات تقول: يخرج عيسى عليه السلام فيصلي خلف المهدي(١)، وأوّل من يخرج مع الإمام المهدي عليه السلام هو الحسين عليه السلام(٢).

هذه بعض وجوه المقارنة بين عيسى والحسين عليهما السلام، والحديث في هذا الشأن طويل.

كلمات ضدّ الحسين عليه السلام:

هنالك بعض الأشخاص ممَّن أخذوا بالهوى وتركوا الهدى وشروا الدنيا بثمن بخس تهجَّموا على سيّد شباب أهل الجنّة، ونذكر نماذج منها:

الأوّل: شيخ الأزهر الأسبق وهو المرجع الديني الأعلى في مصر التي هي أُمّ العالم الإسلامي السُنّي، وهو الشيخ محمّد الخضري يقول: (إنَّ الحسين أخطأ خطأ عظيماً في خروجه، هذا الذي جرَّ على الأمّة وبال الفرقة والاختلاف، وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا)(٣).

أنتم تصوَّروا لولا حركة أهل البيت التصحيحية وحركة الشيعة إلى أين كنّا سنصل مع مثل هذه النماذج؟!

(١) أنظر: الخصال: ٣٢٠/ ح ١.

(٢) مختصر البصائر: ١٨١؛ بحار الأنوار ٥٣: ١٠٣/ ح ١٣٠.

(٣) أنظر: الغدير للأميني ٣: ٢٥٨، عن كتاب: تاريخ الأمم الإسلاميّة للخضري: ١٢٩.

الثـاني: محمّـد الغزالـي، وهـو مفكّـر النخبـة الإسـلاميّة وشـيخ الإخـوان المسـلمين، ومـع ذلـك ينـدّد بنهضـة الحسـين عليه السلام ويقـول: (إنَّهـا مجازفـة ولا أثر فيها لحسن السياسة، وكان المتعيّن عليه أن يبايع يزيد)!

لقـد كـان الإسـلام يتعـرَّض لخطـر كبيـر وهـو خطـر تسـلّط الخـطّ النفـاقي ووقـف أهـل البيـت عليهم السلام فـي مواجهـة هـذا الخطـر النفـاقي إلـى أن اتَّضحت كثير من الحقائق واكتشفت الأمّة عناصر الانحراف.

وأصـبح المفكّـر الكبيـر الأندلسـي ابـن رشـد يقـول: (إنَّ معاويـة أقـام دولـة بنـي أميّـة وسـلطانها الشـديد، ففـتح بـذلك بابـاً للفـتن التـي لا تـزال إلـى الآن قائمة قاعدة حتَّى في بلادنا هذه الأندلس)[1].

والحسـن البصـري وهـو مـن التـابعين أصـبح يقـول: أربـع خصـال كـنَّ في معاوية لو لم يكن فيه منهنَّ إلاَّ واحدة لكانت موبقة:

١ _ انتـزاؤه علـى هـذه الأمّـة بالسـفهاء حتَّـى ابتزّهـا أمرهـا بغيـر مشـورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة.

٢ _ واستخلافه ابنه بعده سكّيراً خمّيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير.

٣ _ وادعـاؤه زيـاداً، وقـد قـال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الولـد للفـراش وللعاهر الحجر».

٤ _ وقتله حجراً، ويلاً له من حجر وأصحاب حجر[2].

لقـد أثبـت التـاريخ هـذه الجـرائم لمعاويـة، لكـن كـلّ ذلـك إنَّمـا كـان ببركة جهود أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) ابن رشد وفلسفته: ٦٠.

(٢) أنظر: تاريخ الطبري ٤: ٢٠٨؛ ينابيع المودّة ٢: ٢٧؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٢٦٢.

الثالث: الكاتب المصري أحمد شبلي لديه كتاب (تاريخ الحضارة الإسلاميّة) ينتقد به حركة الإمام الحسين وأقرأ لكم المقطع الذي يقوله ها الكاتب يقول: (ونجيء إلى الحسين ونقر مع الأسف أنَّ تصرفاته في بعض النواحي غير مقبولة!! فإنَّه لم يقبل نصح الناصحين واستبدَّ برأيه، وكذلك هو يجهل الواقع العراقي ويخرج ومعه أبنائه وأطفاله كأنَّه ذاهب إلى نزهة أو زيارة قريب، ثمّ يقول: بالله قد تكون ولاية يزيد عملاً خاطئاً لكن هل هذا هو الطريق لمحاربة الخطأ الذي خرج به الحسين؟).

وهذا في الحقيقة جهل بموقع أهل البيت وبمن هم بمثابة سفينة نوح من ركبها نجا، فالحسين ليس أقلّ من أُمّ سَلَمة ومن ابن الحنفية أو ابن عبّاس، أي إنَّ الحقيقة إذا كانت واضحة لدى أُمّ سَلَمة ولابن عبّاس فكيف تخفى على الإمام الحسين عليه السلام، فلو كان محلّلاً تاريخياً فلن تضيع عليه الحقيقة، بحيث يأتي هؤلاء ويقولون له: أنت مقتول، ألا يعرف هو ذلك بقطع النظر عن الغيب والإمامة؟

لكن الحسين ينطلق من معلومة غيبية فيقول لأُمّ سَلَمة: «وإن أحببت أريتكِ مصرعي» وفي الرواية أنَّه أراها مصرعه[(١)]، فالحقيقة ليست خافية على الحسين، والعراق الذي أحاطت به الهزّات السياسية يعلم به الحسين.

عندما التقى بجماعة من الكوفة فقال لهم: ما حال الناس بالكوفة؟

قال: قلوبهم معك وسيوفهم عليك[(٢)]، وهذه الحقيقة التي يعرفها الناس ألا يعرفها الحسين عليه السلام؟ ولكن هناك تخطيط أعظم، فالحسين

(١) الهداية الكبرى: ٢٠٣/ باب ٥.

(٢) دلائل الإمامة: ١٨٢/ ح (٤/٩٩).

عليه السلام خرج بنسائه لا لنزهة كما يقول الكاتب أحمد شبلي بل «شاء الله أن يراهنَّ سبايا، شاء الله أن يراني قتيلاً».

فلا يحقّ لنا بنظرة مقطعية جزئية تاريخية أن نحكم على إنسان مثل الحسين ونقول: إنَّه استبدَّ برأيه!! إنَّ من السفاهة أن يتحدَّث إنسان عن الحسين عليه السلام ويقول: كأنَّه خارج بنزهة!!

*   *   *

الدراسة الخامسة:

بين رسول الله ﷺ
والإمام الحسين عليه السلام

- أهداف النبوّة الخاتمة.
- منجزات النبيّ الأكرم ﷺ.
- العالمية الإسلاميّة.
- مشتركات بين النبيّ ﷺ والحسين عليه السلام.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (الفتح: ٢٩).

قال إمامنا الحسين عليه السلام: **«وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنَّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي صلى الله عليه وآله، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردَّ عليَّ هذا أصبر»**(١).

كما تعلمون وُلد النبيّ صلى الله عليه وآله في عام الفيل، وبُعث بعد خمسمائة سنة من ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام(٢)، بينما كانت الفاصلة بين عيسى وموسى عليهما السلام ألف وأربعمائة سنة أو أكثر(٣)، وكان خلالها عشرات أو مئات الأنبياء كما قال تعالى: ﴿أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا﴾ (المؤمنون: ٤٤)، ولكن بنو إسرائيل لم ينجحوا في التجربة مع أنبيائهم ولهذا فإنَّ لدينا روايات تقول: «إنَّ بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبيّاً»(٤).

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩ و٣٣٠.

(٢) أنظر: الكافي ٨: ١٢١/ ح ٩٣.

(٣) أنظر: تفسير القمي ١: ١٦٥.

(٤) مثير الأحزان: ٢٩؛ بحار الأنوار ٣٣: ٣٦٥.

ولا يوجد نبيّ آخر بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين عيسى عليه السلام ولهذا فإنَّ القرآن الكريم كما في الروايات يعبّر عن هذه المدّة الزمنية بعبارة: ﴿عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (المائدة: ١٩)، أي ليس هناك رسل، أي إنَّ هناك انقطاعاً بين السماء والأرض وعملية حجب بين صوت السماء وبين الأرض حتَّى جاءت نبوّة نبيّنا صلى الله عليه وآله(١).

الظرف التاريخي هو تحكّم إمبراطوريتين في العالم وهما إمبراطورية الروم وإمبراطورية الفرس، وفي هذا الظرف بُعث نبيّنا صلى الله عليه وآله ليكون نوراً جديداً في الأرض ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ (النور: ٣٥)، ﴿لِتُخْرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم: ١).

أهداف النبوّة الخاتمة:

لا شكَّ أنَّ حركة نبيّنا صلى الله عليه وآله في الإطار العامّ هي الدعوة إلى دين الله وترسيخ حركة الأديان الإلهية، فالأنبياء أحدهم يُكمّل الآخر، نبيّنا صلى الله عليه وآله كان باتّجاه ترسيخ الديانة التوحيدية على الأرض وعبودية العباد لله تبارك وتعالى ولكن هنالك أمور مستجدّة، وهناك منجزات أخرى لنبيّنا صلى الله عليه وآله.

الدعوة لدين الله وهو الإسلام ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾ (الحجّ: ٨٧)، فالنبيّ صلى الله عليه وآله يقول: لست بدعاً من الرسل ﴿قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٩)، أي إنَّني لست رسولاً منفرداً عن الآخرين، بل جزء من سلسلة النبوّات، فالدين الذي أدعو له هو نفسه الدين الذي دعا له إبراهيم عليه السلام فهو الذي سمّاكم المسلمين من قبل، هذه الدعوة دخل فيها الرسول صلى الله عليه وآله في مواجهتين:

المواجهة الأولى: مع الوثنية وعبادة الأصنام.

---

(١) أنظر: تفسير القمي ١: ١٦٤؛ التبيان ٣: ٤٧٩.

المواجهة الثانية: مع أهل الكتاب أي مع الحركة التحريفية النفاقية التي غلبت الأمم السابقة في خطّ الأنبياء عليهم السلام، أي إنَّ هناك تحريفاً باسم الدين قاده اليهود والنصارى.

كان نبيّنا ﷺ بصدد القيام بحركة تصحيحية فيما هو الموروث الديني، أي إنَّ الدين الصحيح الذي نزل من الله على عيسى وموسى وإبراهيم عليهم السلام قد حُرِّف وجاء نبيّنا ﷺ ليقوم بحركةٍ تصحيحية في الخطّ الديني.

منجزات النبيّ الأكرم ﷺ:

على هذا الأساس فإنَّ نبيّنا ﷺ قد حقَّق أربعة منجزات لم يحقّقها نبيّ من قبل:

١ ـ بناء منظومة فكرية صحيحة وشاملة:

نحن المسلمون نمتلك الآن منظومة فكرية صحيحة شاملة لكلّ مناحي الحياة قادرة على أن تحكم الحياة وتدير البشرية، هذه المنظومة الفكرية هي كتاب الله المشروح بشرح أئمّتنا الأطهار عليهم السلام، فالتوراة والإنجيل قد حُرِّفت، صحف إبراهيم عليه السلام وزبور داود عليه السلام لم يبقَ لهما على الأرض ذكر، لكن القرآن وهو عبارة عن قانون أساسي ومنظومة فكرية في المجال الأخلاقي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي ما زال خالداً.

وهذا هو أعظم مُنجز لنبيّنا ﷺ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، أي إنَّ الله سبحانه وتعالى قد حفظ القرآن من التحريف، التوراة والإنجيل أيضاً من كتب الله، لكن الله لم يحفظهما ربَّما لأنَّ القرآن هو الذي سيقود البشرية وهو المعجزة الثقافية الخالدة.

أولئك ما هي معجزاتهم؟ وأمّتنا ما هي معجزتها؟

عيسى عليه السلام كان يبرئ الأكمه والأبرص لكن هذه قضيّة آنيّة مقطعية، فإذا انتهى عيسى عليه السلام ومات أو رُفع فإنَّ معجزته انتهت أيضاً، ثمّ إنَّها ليست قضيّة ثقافية علمية، أمَّا القرآن فهو معجزة ثقافية وهذا يعني أنَّ أمّة الإسلام جوهرها الفكر والثقافة ولها قدرة ولياقة على ديمومة الحركة الفكرية وبمقدار خلود القرآن فإنَّ الحركة الفكرية خالدة لهذه الأمّة. ولهذا فهم ليسوا بحاجة إلى نبيّ جديد وكتاب جديد.

٢ ـ بناء أمّة قادرة على وراثة الأرض:

استطاع نبيّنا صلى الله عليه وآله أن يخلق أمّة قادرة على وراثة الأرض وديمومة الحياة لها وهذه الأمّة تمتلك الجذور الصالحة للحياة التي لا تموت رغم ما لديها من مشاكل، وما جرى عليها من مشاكل، لكنَّها تستطيع أن تبقى، ولهذا فقد جاء التبشير في التوراة والإنجيل بأنَّ هناك نبيّاً سيأتي في آخر الزمان ولديه أمّة عظيمة ﴿ذِلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾ (الفتح: ٢٩).

قد يقول قائل: إنَّ لدينا تصوّراً سلبياً عن أمّة رسول الله بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، وإنَّ هذه الأمّة قد انحرفت.

وهذا الكلام صحيح في حدّ ذاته لكن بذور الحياة كانت موجودة في هذه الأمّة، واستطاعت أن تولّد جيلاً بعد جيل ولم تمت بسيطرة الظالمين والمنافقين، رغم أنَّ هناك أمواجاً قد غطَّت هذه السفينة لكنَّها لم تغرق، وذلك لوجود شيء وهو الحصانة الذاتية وهو ضمان ديمومتها، أي إنَّ هناك إصلاحاً ديناميكياً أو ذاتياً في داخل هذه الأمّة، «إنّي تارك فيكم الثقلين أما إن تمسَّكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنَّهما لن يفترقا حتَّى يردا عليَّ الحوض»[١]، أي إنَّه بمقدار التمسّك

(١) بصائر الدرجات: ٤٣٣/ باب في قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّي تارك فيكم الثقلين...»/ ح ٣.

بالقرآن وبأهل البيت فهذه الحركة تستمرّ، فهناك تمسّك كامل بهذين الركنين وذلك عند شيعة أهل البيت عليهم السلام، أمَّا باقي المسلمين فإنَّ لديهم تمسّكاً نسبياً بسيطاً بأهل البيت وبالقرآن الكريم، فآثار أهل البيت ونورهم مبسوط على كلّ المسلمين كما هي آثار القرآن ونوره، إذن هناك خيط أو صلة بين قارب النجاة وهو القرآن وأهل البيت وبين الأمّة المسلمة وبمقدار تمسّكهم تكون نجاتهم.

٣ _ ضمانات البقاء:

ليس هنالك نبيّ أعطى ضمانات بقاء، فالأنبياء الماضون قتلوا أو ماتوا بدون ضمانات بقاء لرسالاتهم ولأمّتهم، وذلك حسب استحقاقات الأمّة يومئذٍ وحسب قدرة أولئك الأنبياء على الكشف عن عالم الغيب وعالم السماء، أمَّا نبيّنا ﷺ فقد استطاع أن يعطي لأمّته ضمانات البقاء ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ (المائدة: ٣)، وذلك في يوم عيد الغدير، وفي هذا اليوم لم يأتِ تشريع صلاة وصوم أو زكاة وحجّ، بل هناك شيء اسمه بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، أي إنَّ إكمال الدين هو بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ أي نعمة الارتباط بالدين، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾.

عجباً هل أنَّ الله تبارك وتعالى لم يكن يرضى بالإسلام قبل عيد الغدير؟ فما معنى هذه الآية؟

الجواب: أنَّ الله هو الذي اختار الإسلام منذ بعث النبيّ ﷺ، ورضيه ديناً للمسلمين لكن الإشارة هنا هي أنَّ الله رضي بالإسلام ديناً باقياً على الأرض كواقع وكقضيّة تكوينية وليس مجرَّد تشريع ونظرية، أي إنَّ الدين الذي سيحكم هو دين الإسلام وهذا بحث واسع.

٤ _ تأسيس الدولة:

إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله امتاز عن باقي الأنبياء عليهم السلام بتأسيس الدولة الإسلاميّة، فهو لم يأتِ فقط بقرآن وسُنّة ولم يعطِ ضمانات بقاء فقط، ولم يبن أمّة صالحة فقط، وإنّما أسَّس دولة الأنبياء عليهم السلام، أي إنَّه فعَّل النظرية، وهي النظرية التي طرحها إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وهي نظرية خلافة الصالحين ووراثتهم للأرض ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (القصص: ٥)، وهي نظرية منذ أيّام موسى عليه السلام، لكن من هو الذي استطاع أن يُفعّل هذه النظرية على الأرض؟

نبيّنا صلى الله عليه وآله أسَّس على الأرض دولة إسلاميّة وهذا أعظم منجز لرسول الله صلى الله عليه وآله فلقد اختزل حركة الأديان ولآلاف السنين وترجمها على الأرض فكانت دولة إسلاميّة.

التبشير بدولة الإسلام العالمية:

إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يؤسّس دولة في الجزيرة العربية فقط، لكي يقول قائل: وما قيمة أن تكون دولة في الجزيرة العربية؟ فهي كلّها ليست مثل مدينة من مدن إمبراطورية الروم أو الفرس.

رسول الله صلى الله عليه وآله اعتبر هذه الدولة الإسلاميّة في الجزيرة العربيّة هي بذرة الدولة الإسلاميّة العالمية، ولهذا فقد أرسل وفداً إلى كسرى الفرس وإلى قيصر الروم لكي يدخلوا في الإسلام.

يقول التاريخ: إنَّ رسول الله في معركة الأحزاب (الخندق) حينما وجدوا صخرة لم تعمل المعاول فيها، يقول الراوي: فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ معولاً فضرب ضربة فبرقت برقة فنظرنا فيها إلى قصور الشام، ثمّ ضرب أخرى فبرقت

برقة نظرنا فيها إلى قصور المدائن، ثمّ ضرب أخرى فبرقت برقة أخرى نظرنا فيها إلى قصور اليمن، فقال رسول الله ﷺ: «أمَا إنَّه سيفتح الله عليكم هذه المواطن التي برقت فيها البرق»[1]، كان هذا تبشيراً بدولة عالمية، وبدأ رسول الله ﷺ يُبشّر بدولة عالمية قائلاً: «لا تقوم الساعة حتَّى يملك رجل من ولدي، يوافق اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً»[2].

الأحاديث أيضاً المتَّفق عليها تقول عن رسول الله ﷺ: «لو لم يبقَ من الدنيا إلاَّ يوم واحد لطوَّل الله ذلك اليوم حتَّى يظهر فيه رجلٌ من ولدي يواطئ اسمه اسمي يملأها عدلاً وقسطاً كما مُلئت ظلماً وجوراً»[3]، هذه هي العالمية الإسلاميّة ونحن في زمن التمهيد للعالمية التي دعا إليها الإسلام قبل ألف وأربعمائة عام.

أركان العالميّة الإسلاميّة:

العالمية الإسلاميّة تعتمد على ثلاثة أركان:

الركن الأوّل: الإنسانية العالميّة، وليس القومية أو المناطقيّة، بل الإنسان خليفة الله في الأرض، وكرامة الإنسان وأخوَّته وحقوقه، هو أوّل ركن لتحقيق العالمية الإسلاميّة في مشرق الأرض وغربها، «الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إنَّما الفضل بالتقوى»[4].

الركن الثاني: الارتباط بالله، بمعنى أنَّ الدين الإلهي التوحيدي هو الذي يمثّل جوهر إنسانية الإنسان بهويّته الدينية وليس بقدراته المادية.

---

(١) تفسير القمي ٢: ١٧٨؛ بحار الأنوار ٢٠: ٢١٩/ باب ١٧/ ح ٣.

(٢) دلائل الإمامة: ٤٧٧/ ح (٧١/٤٦٧).

(٣) كنز الفوائد: ١١٣.

(٤) المبسوط للسرخسي ٥: ٢٣.

الركن الثالث: حاكمية الإسلام وخاتميته، «حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة»(١).

هذه أصول العالمية الإسلاميّة.

خلافة الإنسان:

الإسلام يعتقد أنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض كما يقول الله تعالى لملائكته: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠).

الإنسان في نظرية الإسلام هو خطوة للكمال والاقتراب من الله تبارك وتعالى، ليس الإنسان هو مجموعة شهوات وأنانيات كما تمارسه وتطرحه المادية الحديثة التي ابتعدت عن دين الله وعن حضارة الإسلام، وأصبحت تتعامل مع الإنسان إمَّا على أساس أنَّه قرد تحوَّل إلى إنسان، أو أنَّ الإنسان كما في نظرية (فرويد) هو عبارة عن إيحاءات الجنس وتأثيرات الغريزة الجنسية فقط.

الفلسفة النفعية التي ظهرت في الغرب تقول: إنَّ مقياس الحقّ والباطل هو المنفعة فقط، فلا مبادئ، ولا قيَم، وإنَّما هي المنافع، هذه الفلسفة النفعية البرجماتية.

أمَّا الإسلام فيقول: إنَّ الإنسان هو مخلوق مكرَّم وهو خليفة الله في الأرض، وهو يتحرَّك باتّجاه الله ﴿يا أَيُّهَا الإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦)، ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً

(١) بصائر الدرجات: ١٦٨/ باب ١٣/ ح ٧.

مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٧ _ ٣٠)، هذا الإنسان له سير وعروج نحو الله تبارك وتعالى.

أمَّا النظرية الغربية ففيها سير نحو الجنس والهوى والأنانيات بما لا يفرق عن أيّ حيوان من الحيوانات سوى أنَّه أكثر ذكاءً ومكراً.

وإذا رجعنا إلى الفلسفة الماركسية البائدة التي تقول: إنَّ الإنسان ليس عبارة عن قيم وثقافة ودين وأخلاق وأهداف عالمية، وإنَّما الإنسان عبارة عن مركَّب يحرّكه رأس المال والأدوات الصناعية، أي إنَّ رأس المال يحرّك الثقافة والدين والأخلاق، إذن هذا التاريخ العظيم وتاريخ معركة الحقّ والباطل غير موجود في المنظومة الماركسية، فمهما تقدَّم الإنسان وتطوَّر في شكلياته وآلياته فهو عبارة عن صراع من أجل المال وتوزيع المال كما تتصارع الحيوانات على فريسة.

هذا هو الإنسان في النظرية الغربية الحديثة والنظرية الماركسية.

أمَّا في حضارة الإسلام: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾، أيّها الإنسان أنت لست جسماً حيوانياً كسائر الحيوانات تموت وتتلاشى وتنتهي، أنت جوهر نقي وإنسانية تعرج إلى الله فتلتقي به ﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف: ٢٩)، هذه الفكرة تنساق على جميع البشر، فكلّ البشر يمثّلون ذلك الإنسان الذي كرَّمه الله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل: عرباً عجماً أو بيضاً وسوداً، لهذا اتَّخذ رسول الله ﷺ من بلال الحبشي مؤذّناً وهو أسود.

يومئذٍ كانت هناك مجموعات مسحوقة، وكانت قريش وكبراء قريش من أمثال أبي لهب وأبي جهل من الذي يجلدون العبيد وكان بلال من أولئك العبيد السود، فلمَّا جاء الإسلام صار بلال الحبشي مؤذّن رسول الله وحين يؤذّن يأتي كلّ المسلمين للصلاة في المسجد.

كان بلال لديه لثغة في لسانه لأنَّ الأحباش يلفظون حرف الشين (سين) فبدلاً من أن يقول: (أشهد أن لا إله إلاَّ الله)، يقول: (أسهد أن لا إله إلاَّ الله)، فسخر منه بعض الكبراء، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ سين بلال عند الله شين»[1].

إنَّ المهمّ والمقياس ليس هو اللفظ، فقد يكون الشخص لا يعرف اللغة العربية، فيجب أن تزول هذه الفواصل في اللغة والقوميات وما شاكل ذلك.

سلمان الفارسي له موقع عظيم في التاريخ الإسلامي، وكان يلقَّب بـ(لقمان هذه الأمّة)[2]، كان حكيماً وكبير العمر، لكن العصبيات الجاهلية المتطرفة كانت موجودة.

كان سلمان جالساً مع نفر من قريش في المسجد فأقبلوا ينتسبون ويرفعون في أنسابهم حتَّى بلغوا سلمان، فقال له عمر بن الخطّاب: أخبرني من أنت ومن أبوك وما أصلك؟

فقال: أنا سلمان بن عبد الله كنت ضالاً فهداني الله عز وجل بمحمّد صلى الله عليه وآله، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمّد، وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمّد صلى الله عليه وآله، هذا نسبي وهذا حسبي.

فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلمان يكلّمهم، فقال له سلمان: يا رسول الله ما لقيت من هؤلاء...

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا معشر قريش إنَّ حسب الرجل دينه ومروءته خلقه وأصله عقله...».

---

(١) عدّة الداعي: ٢١.

(٢) راجع: الاحتجاج ١: ٣٨٧.

ثمّ قال النبيّ ﷺ لسلمان: «ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلاَّ بتقوى الله عزّ وجلّ وإن كان التقوى لك عليهم فأنت أفضل»[١]، وثبتت هذه الفضيلة لسلمان، هذه هي أسس العالمية الإسلاميّة وليست القومية، الإسلام فوق القوميات. وعالمية الإسلام تشمل كلّ البشر.

مقارنة مع حركة الحسين عليه السلام:

يمكن عرض ثمان نقاط مقارنة بين حركة الحسين عليه السلام وحركة رسول الله ﷺ:

١ _ الهجرة:

فقد هاجر رسول الله ﷺ هجرتين: الأولى إلى الطائف، والثانية إلى المدينة المنوَّرة، والحسين عليه السلام هاجر من المدينة المنوَّرة إلى مكّة، ثمّ من مكّة إلى العراق، هذا هو خطّ الهجرة في سبيل الله. والفرق بين الهجرتين هو أنَّ هجرة النبيّ ﷺ كانت هجرة سرّية وهجرة الحسين عليه السلام كانت علنيّة، والنبيّ في هجرته استخلف علي بن أبي طالب عليه السلام على فراشه والحسين عليه السلام لم يستخلف أحداً في المدينة المنوَّرة، ومن نقاط التشابه بين الهجرتين هي أنَّ هجرة النبيّ ﷺ كانت بتخطيط إلهي وهجرة الحسين عليه السلام أيضاً بتخطيط إلهي.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «لمَّا توفّي أبو طالب نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمّد أخرج من مكّة، فليس لك فيها ناصر»[٢]، الحسين عليه السلام أيضاً هاجر بتخطيط إلهي، فرسول الله ﷺ قد أخبر بقتل

---

(١) أنظر: الكافي ٨: ١٨١ و١٨٢/ ح ٢٠٣.

(٢) الكافي ١: ٤٤٩/ باب بلد النبيّ ﷺ ووفاته/ ح ٣١.

الحسين عليه السلام في كربلاء والأنبياء عليهم السلام قد أخبروا بذلك وعلي عليه السلام أخبر بذلك أيضاً، والحسين عليه السلام يعلم بأنَّ هذا هو تخطيط إلهي، حتَّى أنَّه يقول لأُمّ سَلَمة وهو ما يزال في المدينة المنوَّرة عندما قالت له: إنّي أذكّرك الله تعالى أن تخرج إلى العراق...

قال: «... وإنّي لأعرف اليوم والموضع الذي أُقتل فيه، والساعة التي أُقتل فيها، والحفرة التي أُدفن فيها، كما أعرفك، وأنظر إليها كما أنظر إليك» قالت: قد رأيتها؟! قال: «إن أحببت أن أريك مضجعي ومكاني ومكان أصحابي فعلت»، فقالت: قد شئتها، فما زاد أن تكلَّم بسم الله، فخفضت له الأرض حتَّى أراها مضجعه، ومكانه ومكان أصحابه، وأعطاها من تلك التربة[1].

٢ _ المدينة والعراق:

إنَّ المدينة المنوَّرة كانت مهد الدولة الإسلاميّة لرسول صلى الله عليه وآله، بينما كان العراق مهد الثورة الإسلاميّة للحسين عليه السلام.

رسول الله صلى الله عليه وآله أسَّس دولة في المدينة حين هاجر إليها، أمَّا الحسين عليه السلام فقد هاجر إلى العراق، ليكون منطلق الحركة التصحيحية على يد الحسين وأهل البيت عليهم السلام. العراق هو مهد الحركة التصحيحية للواقع الإسلامي الذي أراد المتآمرون أن يحرّفوه.

في العراق كانت عملية المواجهة مع الخطّ النفاقي الذي تسلَّط على الأمّة الإسلاميّة وقد كان النبيّ صلى الله عليه وآله يخبر بذلك _ كما ثبت في أحاديث الشيعة والسُنّة _ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: «رأيت في

(١) أنظر: الثاقب في المناقب: ٣٣٠ و٣٣١/ باب ٦/ ح (١/٢٧٢).

منامي كأنّ بني الحكم بن أبي العاص ينزون على منبري كما تنزو القردة»[١]، والنبيّ حدَّث المسلمين: «وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين ملّة كلّهم في النار إلاّ ملّة واحدة»[٢]، هذا حديث متواتر يتّفق عليه جميع المسلمين ولم يستطع أحد أن يفسّره إلاّ شيعة أهل البيت عليهم السلام، وليس هناك فرقة ناجية غير الفرقة المرتبطة بأهل البيت عليهم السلام.

قال رسول الله ﷺ: «إنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تخلّف عنها غرق»[٣]، وهذا هو حديث (السفينة) فهل ركب السفينة أولئك الذين نصروا معاوية ويزيد وكتّفوا علياً عليه السلام وقالوا له: بايع وإلاّ نضرب الذي فيه عيناك.

٣ ـ الإصرار والعزم الراسخ:

اجتمعت قريش إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب إنّ ابن أخيك قد سفَّه أحلامنا وسبَّ آلهتنا وأفسد شبابنا وفرَّق جماعتنا فإن كان الذي يحمله على ذلك العدم جمعنا له مالاً حتّى يكون أغنى رجل في قريش ونملّكه علينا، فأخبر أبو طالب رسول الله ﷺ بذلك، فقال:

«لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما أردته [ما تركته]...»[٤]، هذا التصميم الراسخ نجده عند الحسين عليه السلام في كربلاء حين قال: «ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذلّة وهيهاتَ منّا الذلّة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت

(١) بحار الأنوار ٦٢: ٢٤٠؛ كنز العمّال ١١: ١٦٥/ ح ٣١٠٥٤.

(٢) سنن الترمذي ٤: ١٣٥/ باب افتراق هذه الأمّة/ ح ٢٧٧٩.

(٣) بصائر الدرجات: ٣١٧/ باب ١٣/ ح ٤؛ مستدرك الحاكم ٢: ٣٤٣.

(٤) تفسير القمي ٢: ٢٢٨ و٢٢٩.

وطهرت وأنوف حميّة ونفوس أبيّة من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[١].

هذا الإصرار أصبح متوارثاً عند شيعة أهل البيت عليهم السلام والآن بعودة الشعائر الحسينية في العراق يعود الحسين عليه السلام. أمم كاملة وأجيال سابقة وسلاطين أرادوا إبادة هذا النور لكن الحسين عليه السلام قد عاد وهو يتحرَّك بحركة كلّ شخص يؤدّي الشعائر الحسينية، ونور ينير به أرض العراق ويشع على كلّ العالم، هذا معنى محرَّم الحرام ومعنى: «هيهاتَ منّا الذلّة»، وهي صرخة موجودة في عروق كلّ واحدٍ منكم رجالاً ونساءً، شيباً وشباباً.

٤ ـ دور الحراسة:

عندما هاجر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من مكّة إلى المدينة لم يأخذ معه النساء، فقد كان متخفّياً، والذي جاء بالنساء إلى المدينة هو علي عليه السلام بعد عدّة أيّام من أداء الأمانات، فجمع الفواطم وهنَّ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفاطمة بنت أسد وهي أُمّ الإمام علي عليه السلام، وفاطمة بنت الزبير، وقيل: فاطمة بنت حمزة بن عبد المطّلب، وجاء بالفواطم إلى المدينة المنوَّرة، وهناك في مدخل المدينة المنوَّرة كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينتظره، ولمدّة خمسة عشر يوماً يقول: «لا أريم من هذا المكان حتَّى يوافي أخي علي عليه السلام».

قال له أبو بكر: ما أحسب علياً يوافي.

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بلى ما أسرعه إن شاء الله»، ثمّ ذهب وترك النبيّ وحده وهذا بإجماع المؤرّخين، ومكث النبيّ خارج المدينة خمسة عشر يوماً حتَّى جاء علي عليه السلام ودخل معه المدينة[٢].

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٥٩.

(٢) أنظر نصّ الرواية في: إعلام الورى ١: ١٥٢.

حيث تشير الرواية عن الإمام السجّاد عليه السلام أنَّ ذلك كان أوّل حسد بين أبي بكر وعلي عليه السلام[١].

رحلة الحسين عليه السلام من المدينة إلى العراق أيضاً كانت هناك فواطم وزينبيات، من هو الحارس للفواطم والزينبيات؟

هو قمر بني هاشم عليه السلام وهو ابن أمير المؤمنين عليه السلام وهو حارس الفواطم في هذه الرحلة العظيمة.

٥ _ القتال:

حركة رسول الله ﷺ الدينية الإصلاحية هي قتال على التنزيل، وحركة الحسين عليه السلام هي قتال على التأويل، أي إنَّ رسول الله ﷺ قاتل الناس على أصل الإسلام والحسين عليه السلام قاتلهم على جوهر الإسلام، الحسين وعلي والحسن والأئمّة الأطهار عليهم السلام كانت حربهم على تأويل القرآن، وقد قال له رسول الله ﷺ: «إنَّك تقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»[٢]، «تقاتل على التأويل كما قاتلت على التنزيل»[٣]، هكذا كان الحسين عليه السلام، قتاله على التأويل وليس على أصل التنزيل.

٦ _ هبوط الملائكة:

الملائكة في يوم بدر هبطوا على رسول الله ﷺ، وكذا في كربلاء أيضاً هبطوا إلى أرض كربلاء، القرآن الكريم يحدّثنا عن هبوط الملائكة في واقعة بدر، يقول: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩)، أي يتبعهم ألف آخر

---

(١) راجع: الكافي ٨: ٣٤٠/ باب الهجرة إلى المدينة.../ ح ٥٣٥.

(٢) علل الشرائع ١: ٢٢٣.

(٣) كفاية الأثر: ٧٦.

بقدرهم، ثمّ يقول: ﴿وَما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَلِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ﴾ (الأنفال: ١٠ _ ١٢).

لقد كانت في بدر أربعة عوامل للنصر: ١ _ الملائكة، ٢ _ النوم: إذ جعلهم الله ينامون ليلة كاملة وهم أمام عدوّ عدده ثلاثة أضعاف جيش المسلمين، وهذا النعاس لكي يطمئنوا بعد خوفهم ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾، ٣ _ المطر ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾، ٤ _ الرعب، حيث إنَّ الله تعالى تدخّل مباشرة وأنزل الرعب في قلوب الكافرين، ثمّ قال الله تعالى للملائكة: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْناقِ﴾ أي اقطعوا الرؤوس واقطعوا أيديهم وأكفّهم، والراوي يقول: (لقد رأينا يوم بدر أنَّ أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك، فيقع رأسه من جسده قبل أن يصل إليه السيف)[1].

في آية أخرى تشرح نفس الموضوع: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٤ و١٢٥)، ومسوّمين تعني في رواية: «كانت على الملائكة العمائم البيض المرسلة»[2]، معنى الآية هو أنَّ ثلاثة آلاف من الملائكة هبطوا

(١) تفسير مجمع البيان ٤: ٤٤١؛ مستدرك الحاكم ٣: ٤٠٩.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٩٦/ ح ١٣٦.

يقاتلون دفاعاً عن المسلمين، هذا مشهد من مشاهد الحركة التغييرية التي قادها رسول الله ﷺ.

أمّا الإمام الحسين عليه السلام وكما في الرواية التي يرويها الشيخ الصدوق[١] في أماليه عن أبان بن تغلب[٢]، عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ أربعة آلاف ملك هبطوا يريدون القتال مع الحسين بن علي عليهما السلام، فلم

(١) من علمائنا القدماء في عهد الغيبة الصغرى، ولد ببركة دعاء الإمام المهدي عليه السلام لأبيه علي بن الحسين ابن بابويه الملقَّب أيضاً بالصدوق والذي كان معاصراً للنائب الثالث للإمام المنتظر عليه السلام الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح رضي الله عنه حيث كتب إليه أن يسأل الحضرة أن يدعو الله أن يرزقه أولاداً فقهاء، فجاء الجواب: «إنَّك لا ترزق من هذه وستملك جارية ديلمية وترزق منها ولدين فقيهين»، كان واحد من هؤلاء الولدين هو الشيخ الصدوق صاحب كتاب (الأمالي)، كان فقيهاً مباركاً بحيث تعجَّب الناس من شدّة حافظته وكانوا يقولون: ليس بعجب أن تكون لك هذه الرغبة في العلم، وأنت ولدت بدعاء الإمام عليه السلام. وهو أيضاً كان يفتخر بذلك ويقول: أنا ولدتُ بدعوة صاحب الأمر عليه السلام، وهذا الشيخ الصدوق الابن مدفون في طهران والأب مدفون في قم.

(٢) كان من عظماء الشيعة، أدرك الإمام السجاد والباقر والصادق عليهم السلام الذي قال له: «... اجلس في مسجد المدينة وافت الناس، فإنّي أحبّ أن يرى في شيعتي مثلُك»، وله ثلاثون ألف رواية، وعندما توفّي رثاه الإمام الصادق بقوله: «أمَا والله لقد أوجع قلبي موت أبان»، لأنَّه كان إنساناً جليل القدر على مستوى العامّة والخاصّة وكان إذا دخل المسجد أُخليت له حلقات الدرس. كما يذكر آية الله العظمى السيّد الخوئي قدس سره في كتابه (معجم رجال الحديث) عن عبد الرحمن بن الحجّاج، قال: كنّا في مجلس أبان بن تغلب فجاءه فقال: يا أبا سعيد أخبرني كم شهد مع علي بن أبي طالب عليه السلام من أصحاب النبيّ ﷺ؟ قال: فقال له أبان: كأنَّك تريد أن تعرف فضل علي بمن تبعه من أصحاب رسول الله ﷺ. قال: فقال الرجل: هو ذلك. فقال: والله ما عرفنا فضلهم إلاَّ باتّباعهم إيّاه... قال: فقال أبان له: يا أبا البلاد أتدري من هم الشيعة؟ الشيعة الذين إذا اختلف الناس عن رسول الله ﷺ أخذوا بقول علي عليه السلام، وإذا اختلف الناس عن علي عليه السلام أخذوا بقول جعفر بن محمّد عليه السلام. وعندما لامه الناس في روايته عن الإمام الصادق عليه السلام قال: كيف تلومونني في روايتي عن رجل ما سألته عن شيء إلاَّ قال: قال رسول الله ﷺ؟

يؤذن لهم في القتال، فرجعوا في الاستئذان وهبطوا وقد قتل الحسين عليه السلام، فهم عند قبره شعث غبر يبكونه إلى يوم القيامة»[١]، هنا تحليل سياسي ونفسي مهمّ جداً، فلماذا في بدر أذن الله للملائكة أن يهبطوا، وهنا في كربلاء لم يأذن لهم إلاَّ بعد مقتل الحسين عليه السلام؟

الجواب: إنَّ حركة رسول الله صلى الله عليه وآله كانت تنتهي لو قتل أصحابه في بدر.

ورسول الله صلى الله عليه وآله قال في بدر: «اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة لم تُعبد بعدها في الأرض»[٢]، أمَّا حركة الحسين عليه السلام فإنَّها لم تنته بقتل الحسين عليه السلام وأصحابه وإنَّما كانت هناك أمّة تتحرَّك بعد الحسين عليه السلام.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ أربعة آلاف ملك هبطوا يريدون القتال مع الحسين بن علي عليهما السلام، لم يؤذن لهم، فرجعوا في الاستئذان فهبطوا وقد قتل الحسين عليه السلام، فهم عند قبره شعث غبر يبكونه إلى يوم القيامة، رئيسهم ملك يقال له: منصور، فلا يزوره زائر إلاَّ استقبلوه، ولا يودّعه مودّع إلاَّ شيَّعوه، ولا يمرض مريض إلاَّ عادوه، ولا يموت ميّت إلاَّ صلّوا على جنازته، واستغفروا له بعد موته، وكلّ هؤلاء في الأرض ينتظرون قيام القائم عليه السلام إلى وقت خروجه عليه السلام»[٣]، ولدينا في رواية إنَّ الملائكة الذين هبطوا للقتال في بدر لم يصعدوا إلى السماء وإنَّما بقوا في الأرض ينتظرون قيام القائم لكي ينصروه[٤].

٧ _ مواجهة حركة التزييف الإعلامي:

رسول الله صلى الله عليه وآله واجه حركة تزييف إعلامي وكذلك الحسين عليه السلام.

---

(١) أمالي الصدوق: ٧٣٧/ ح (٧/١٠٠٥).

(٢) الخرائج والجرائح ١: ١٥٦/ ح ٢٤٥.

(٣) كامل الزيارات: ٢٣٤ و٢٣٥/ باب ٤٢/ ح (٥/٣٤٨).

(٤) راجع: تفسير العياشي ١: ١٩٧/ ح ١٣٨.

رسول الله ﷺ يدعو إلى دين الله قائلاً: «يا أيّها الناس قولوا: لا إله إلاّ الله، تفلحوا»(١).

قريش قالوا: (سفَّه أحلامنا، وسبَّ آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرَّق جماعتنا)(٢)، أي إنَّ النبيّ كان سبب فرقة. أي إنَّه جاء ليفرّق الأمّة، هذه الإثارة سنجدها على الأبواق الأموية ضدّ شيعة أهل البيت عليهم السلام وهي مستمرّة إلى اليوم، بينما نحن نعتقد أنَّ رسول الله ﷺ هو داعية الوحدة وأهل البيت عليهم السلام وشيعتهم هم دُعاة الوحدة، لكن أعداء الحسين عليه السلام قالوا: إنَّ الحسين داعية للفرقة ولديه فتنة طائفية، هذه لغة التزييف الإعلامي.

أوّل من سجَّل على الحسين عليه السلام تهمة الشقاق هو معاوية، حيث كتب رسالة للحسين عليه السلام يقول: (اتّق شقّك عصا هذه الأمّة وأن يردهم الله على يديك في فتنة)(٣)، فيزيد شارب الخمر تجب طاعته! وإذا خالفه ابن رسول الله ﷺ يقولون: يا بن رسول الله أنت تشقّ عصا الطاعة، هكذا يصنع التآمر.

الحسين عليه السلام واجه تزييفاً إعلامياً، وتهمة بالفتنة الطائفية وتهمة بالشقاق واستمرَّت هذه التهمة.

من الذي وصف العراقيين بأهل الشقاق والنفاق؟ ولديَّ تحقيق في المسألة:

نحن نسمع كثيراً هذه العبارة وهي نتيجة التزييف الإعلامي الصادر من الأمويين، باعتبار أنَّ شيعة العراق هم دائماً من يطالب بتغيير

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٥١.

(٢) أنظر: تفسير القمي ٢: ٢٢٨؛ بحار الأنوار ١٨: ١٨٢/ ١٢.

(٣) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٥٢/ ح ٩٨؛ بحار الأنوار ٤٤: ٢١٢/ ح ٩.

الحكم الأموي، ولذلك سُمّوا من قبل الأمويين بأنَّهم أهل الشقاق والنفاق وأنَّهم دائماً على خطّ المعارضة.

الحجّاج بن يوسف الثقفي هو الذي وسم العراقيين بأنَّهم أهل الشقاق والنفاق[1]، يعني الشقاق والخروج على الحكم الأموي، وهو نقطة امتياز للعراقيين، وهو أنَّهم لا يستسلمون للذلّ والهوان. وهذا من فخر الشيعة بأنَّهم لم يسلّموا تسليماً لمجموعة وعصابات منافقة حكمت العراق عبر ألف وأربعمائة سنة.

٨ ـ شاب يشبه الرسول صلى الله عليه وآله:

في الحركة الإصلاحية النبويّة كان هناك رسول الله صلى الله عليه وآله أمَّا في يوم عاشوراء فلم يكن هناك رسول الله صلى الله عليه وآله لكن كان لدينا شاب يشبه رسول الله خلقاً وخُلُقاً ومنطقاً، وكأنَّه رسول الله يمشي على الأرض وهو علي الأكبر.

الإمام الحسين عليه السلام يقول: «كنّا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيّك نظرنا إليه»، وكانوا إذا أرادوا أن يستمعوا لصوت النبيّ صلى الله عليه وآله فإنَّهم يطلبون من الأكبر بأن يؤذّن، فهو يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله في الشكل والمنطق والحنجرة وفي المشي والأخلاق، ولهذا قال الإمام الحسين عليه السلام: «اللّهمّ اشهد فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خَلقاً وخُلُقاً ومنطقاً برسولك صلى الله عليه وآله وكنّا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيّك نظرنا إليه»[2].

---

(١) أنظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٣٤٤؛ تاريخ مدينة دمشق ١٢: ١٩٣؛ البداية والنهاية ٩: ١١.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ٦٧.

أخلاق النبيّ ﷺ:

رسول الله ﷺ يمثّل عمق الخُلُق الإنساني.

دخل عليه مرَّة شخص وقد هابه فكانت ترعد فرائصه، قال له رسول الله ﷺ: «لا بأس عليك إنَّما أنا ابن أمَة تأكل القديد»(١).

رسول الله ﷺ كان يجلس مع العبيد ويجلس جلسة العبيد ويأكل معهم وهو نبيّ الإسلام والإنسانية.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «أتى رسول الله ﷺ مَلَكٌ فقال: إنَّ الله عزّ وجلّ يُخيّرك أن تكون عبداً رسولاً متواضعاً، أو ملكاً رسولاً»، قال: «فنظر إلى جبرئيل وأومأ بيده أن تواضع، فقال: عبداً متواضعاً رسولاً»(٢).

لقد كان رسول الله ﷺ يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد ويخصف بيده نعله، ويركب الحمار العاري ـ أي بدون سرج وذلك للمزيد من التواضع ـ.

وفي الحديث عن علي عليه السلام: «كان يبكي ﷺ حتَّى يبتلّ مصلاّه خشيةً من الله عزّ وجلّ من غير جرم»(٣)، أي إنَّه ﷺ يبكي من غير ذنب، لكن هذا هو شأن العبيد مع مولاهم، أيضاً كان يبكي حتَّى يغشى عليه، فقيل له: يا رسول الله أليس الله غفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟

قال: «بلى أفلا أكون عبداً شكوراً»(٤).

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤: ٨٤/ ح ٩٠٧؛ تاريخ بغداد ٦: ٢٧٥.

(٢) الكافي ٢: ١٢٢/ باب التواضع/ ح ٥.

(٣) بحار الأنوار ١٠: ٤٥.

(٤) الاحتجاج ١: ٣٢٦؛ الخرائج والجرائح ٢: ٩١٧.

كان صلى الله عليه وآله يستغفر الله في صلاة الوتر سبعين مرَّة[١].

وكان له موالي ومن يخدمه من غير أن يرتفع عليهم في مأكل أو ملبس.

كان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس.

وكان ينظر في المرآة وكان يُرجّل _ أي يمشّط _ شعره ولقد كان يتجمَّل لأصحابه فضلاً عن تجمّله لأهله ويقول: «إنَّ الله يحبّ من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيَّأ لهم ويتجمَّل»[٢].

وكان إذا حدَّث بحديثٍ تبسَّم في حديثه، بل كان عنده مزاح ودعابة، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما من مؤمن إلاَّ وفيه دعابة»[٣]، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يقول إلاَّ حقّاً، حتَّى أنَّه كان يأتيه الأعرابي فيهدي له الهدية ثمّ يقول مكانه: أعطنا ثمن هديتنا فيضحك رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان إذا اغتمَّ يقول: «ما فعل الأعرابي ليته أتانا»[٤].

وكان لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلاَّ أعطاه فأرسلت إليه امرأة ابناً لها فقالت: انطلق إليه فاسأله فإن قال لك: ليس عندنا شيء، فقل: أعطني قميصك.

الرواية تقول: فأخذ قميصه فرمى به إليه، وصل الأمر إلى سؤالهم النبيّ صلى الله عليه وآله أن يعطيهم ملابسه التي هو أيضاً بحاجة ماسّة لها، لكن كرمه هكذا يصنع.

رسول الله صلى الله عليه وآله كان يختضب أي يصبغ شعره ولحيته، ولهذا نرى أنَّ الحسين عليه السلام في كربلاء كان مختضباً. قال الراوي (عبيد الله بن

---

(١) أنظر: من لا يحضره الفقيه ١: ٤٨٩/ ح ١٤٠٦.

(٢) مكارم الأخلاق: ٣٥.

(٣) الكافي ٢: ٦٦٣/ باب الدعاء والضحك/ ح ٢.

(٤) الكافي ٢: ٦٦٣/ باب الدعاء والضحك/ ح ١.

الحرّ): ونظرت إلى لحيته فرأيتها كأنَّها جناح غراب، فقلت له: أسواد أم خضاب؟ قال: «يا ابن الحرّ عجّل إليَّ الشيب»، فعرفت أنَّه خضاب(١).

وكان رسول الله ﷺ يتعطَّر.

الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام تقول: «كان رسول الله ﷺ ينفق في الطيب أكثر ممَّا ينفق في الطعام»(٢).

فلينظر الإنسان إلى جمال الإنسانية وقيم الإنسان.

الرواية تقول: كان رسول الله ﷺ إذا مشى مشى مشياً يُعرف أنَّه ليس بمشي عاجز ولا بكسلان(٣)، أي إنَّه يمشي مستقيم القامة مقتدراً في المشي مهيباً وغير متكبّر.

حقوق الإنسان:

العالمية الإسلاميّة تعتمد على الاهتمام بحقوق الإنسان وخلافته وكرامته.

الحديث النبوي يقول: «الناس مسلَّطون على أموالهم»(٤).

الرواية عن الإمام علي عليه السلام تقول: «مَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ»(٥)، هذه هي حقوق الإنسان في الإسلام.

أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «وَاللَّهِ لأنْ أبيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً أوْ أُجَرَّ فِي الأغْلاَلِ مُصَفَّداً أحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أنْ ألْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْض الْعِبَادِ وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَام وَكَيْفَ أظْلِمُ أحَداً لِنَفْس يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى

---

(١) من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام: ١٨٦.

(٢) الكافي ٦: ٥١٢/ باب كراهية ردّ الطيب/ ح ١٨.

(٣) مكارم الأخلاق: ٢٢.

(٤) عوالي اللئالي ١: ٢٢٢/ ح ٩٩؛ بحار الأنوار ٢: ٢٧٢/ باب ٣٣/ ح ٧.

(٥) نهج البلاغة ٣: ٨٥، كتابه عليه السلام لمالك الأشتر.

قُفُولُهَا وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ غُبْرَ الأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ»[1]، هذه هي حقوق الإنسان عند أهل البيت عليهم السلام.

مشتركات النبيّ صلى الله عليه وآله وسبطه الحسين عليه السلام:

نقاط المقارنة بين النبيّ صلى الله عليه وآله وبين الحسين عليه السلام:

١ _ الدفاع عن خلافة الإنسان الصالح:

رسول الله صلى الله عليه وآله جاء بنظرية خلافة الإنسان الصالح حيث قال القرآن: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، والإمام الحسين عليه السلام في حديثه مع الوليد وهو والي الحكم الأموي في المدينة المنوَّرة، قال له: «أيّها الأمير إنّا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم الله ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحرَّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله. ولكن نُصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أيُّنا أحقُّ بالخلافة والبيعة»[2]، فالخلافة ليست ملكاً دنيوياً، بل هي موقع يجب الدفاع عنه وأن لا يتسلَّط عليه الجبابرة والطغاة، الإمام الحسين عليه السلام كانت معركته لأجل الخلافة الصالحة.

---

(١) نهج البلاغة ٢: ٢١٦ و٢١٧/ ح ٢٢٤.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٧.

٢ ـ الدفاع عن حرّية الإنسان:

رسول الله ﷺ دافع عن حرّية الناس قائلاً عن الوحي: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٢٦)، وقائلاً: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدانِ﴾ (النساء: ٧٥)، والإمام الحسين عليه السلام أيضاً كانت حركته من أجل الحرّية لدى المسلمين على الأقلّ.

الحكم الأموي أراد أن يصادر الحرّية والإمام الحسين عليه السلام أراد أن يحرّر الإنسان، ولهذا فإنَّ الحرّ الرياحي حينما التقى بالحسين عليه السلام في الطريق قام الحسين وصلّى بأصحابه وصلّى الحرّ معه، فلمَّا سلَّم قال: «أيّها الناس معذرة إلى الله وإليكم إنّي لم آتكم حتَّى أتتني كتبكم وقدمت عليَّ رسلكم...»، فقال الحرّ: إنّا والله ما ندري ما هذه الكتب والرسائل التي تذكر.

فدعا الحسين بخُرجين مملوئين كتباً فنثرها، الإمام يطالب بحرّية سياسية للناس، فمجيئه كان بطلب من أهل الكوفة وهذا بحث مهمّ يذكره المؤرّخون.

بعض الروايات تقول: إنَّ الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء طلب الانسحاب، وعدد من الباحثين ينكر ذلك، ويقول: إنَّ الحسين عليه السلام لم يطلب الانسحاب، فلدينا رواية تقول: إنَّ الحسين عليه السلام قال لجيش الحرّ بن يزيد: «فإن تعطوني ما أطمئن عليه من عهودكم أقدم مصركم وإن كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم»[١]، وقد تكرَّر ذلك في كربلاء عندما خاطب الحرّ جيش عمر بن سعد بقوله: أيّها القوم ألا تقبلون من حسين خصلة من هذه الخصال التي عرض عليكم... إلى أن قال: فمنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة حتَّى يأمن ويأمن أهل بيته...

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٤٦.

لكنَّهم رفضوا طلبه وحملوا عليه[(١)].

بعض الباحثين يتصوَّر أنَّ هذا الطلب هو تراجع من الحسين عليه السلام، والواقع ليس كذلك فهذا ليس تراجعاً سياسياً، أو تراجعاً عن خطّ الثورة، إنَّما هذا هو الموقف المبدئي، فالإمام يقيم عليهم الحجّة قبل أن يتورَّطوا بقتله.

قتال الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء إنَّما كان بعد المحاصرة، وكان الحسين عليه السلام يطلب الماء. فهو لم يبدأ بقتال، بل دفعوه إلى كربلاء بعد محاصرته بعد أن كان متَّجهاً إلى الكوفة، إذن أصبح قتاله هو دفاع عن النفس وعن حقوق الإنسان.

٣ ـ الحسين عليه السلام والقرآن والصلاة:

في التاسع من محرَّم الحرام لمَّا اقترب جيش بن سعد من خيام الحسين عليه السلام قال لأبي الفضل عليه السلام: «يا عبّاس اركب بنفسي أنت يا أخي حتَّى تلقاهم وتقول لهم: ما لكم وما بدا لكم؟ وتسألهم عمَّا جاء بهم»، جاء قمر بني هاشم عليه السلام وسألهم ماذا يريدون؟

قالوا: جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو نناجزكم.

رجع العبّاس إلى الحسين عليه السلام وأخبره، فقال له الحسين عليه السلام: «ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى الغدوة وتدفعهم عنّا العشية، لعلَّنا نصلّي لربّنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنّي أحبّ الصلاة له وتلاوة كتابه والدعاء والاستغفار»[(٢)]، هذا هو مستوى علاقة الحسين بالقرآن.

ولهذا فإنَّ رأس الحسين عليه السلام وهو مرفوع على القنا كان ينطق بالقرآن، لا يوجد رأس في الدنيا ينطق بالقرآن وهو مقطوع إلاَّ رأس

(١) أنظر: مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ١٢٢.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٠.

الحسين عليه السلام، رأس مضت عليه أيّام وهم يحملونه على القنا لكنَّه ينطق بالقرآن ويتلو الكتاب. يقول زيد بن أرقم: مُرَّ به ـ أي رأس الحسين عليه السلام ـ وهو على رمح وأنا في غرفة، فلمَّا حاذاني سمعته يقرأ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً﴾ [الكهف: ٩]، فقفّ والله شعري وناديت: رأسك والله ـ يا بن رسول الله ـ أعجب وأعجب(١).

هذه علاقة الحسين عليه السلام مع القرآن والاستغفار، وهكذا كان الرسول ﷺ لا يجلس مجلساً إلاَّ واستغفر الله سبعين مرَّة، وهنا في كربلاء الحسين عليه السلام يطلب مهلة لكي يصلّي ويتلو الكتاب ويستغفر.

٤ ـ الأخوّة الإنسانية:

أليس الإسلام يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، البشر كلّهم إخوة من أُمّ وأب؟ الحرّ الرياحي حينما التقى بالإمام الحسين عليه السلام كان معه ألف فارس فسقاهم الإمام الحسين عليه السلام عن آخرهم ماءً وحتَّى سقى خيولهم(٢)، هذا هو البعد الإنساني عند الحسين عليه السلام.

* * *

(١) الإرشاد ٢: ١١٧.

(٢) أنظر: الإرشاد ٢: ٧٨.

الدراسة السادسة:

بين أمير المؤمنين عليه السلام

والإمام الحسين عليه السلام

- ظاهرة المبدئية القصوى.
- نماذج من الظاهرة لدى الإمام علي عليه السلام.
- نماذج من الظاهرة لدى الإمام الحسين عليه السلام.
- العلاقة بين الغايات والوسائل.
- المرونة في السياسة الإسلاميّة.
- أدوات الثورة الحسينية.
- قوّة الجذب والطرد.

سياسة الإمام علي عليه السلام:

ليس الحديث هنا عن شخصية وسيرة وتاريخ الإمام علي عليه السلام، إنَّما الحديث عن سياسته الإصلاحية كيف كانت؟ أهدافها، مناهجها؟ ثمّ ما هي أوجه التشابه بينها وبين حركة الإمام الحسين عليه السلام؟

سوف لا نتحدَّث عن شخصية الإمام علي عليه السلام من خلال زهده وعبادته وشجاعته وسيرته وأخلاقه، وإنَّما نتحدَّث عن منهج الإمام علي عليه السلام وسياسته الإصلاحية كيف كانت؟ ثمّ نقارن ذلك بالإمام الحسين عليه السلام.

تنوّع التجربة:

أوّل ما نلاحظ في الإمام علي عليه السلام هو تنوع التجربة، فقد خاض عليه السلام تجربة متنوّعة في عدّة أدوار ومراحل، بدءً من أوّل إسلامه في مكّة المكرَّمة يوم كان عمره عشر سنوات، ولحين مبيته على الفراش يوم هجرة النبيّ صلى الله عليه وآله من مكّة المكرَّمة، حيث أصبح عليه السلام هو المؤتمن على الودائع، وإلى أن أصبح هو القائد العسكري في جميع الحروب التي خاضها المسلمون في المدينة المنوَّرة، وحتَّى أصبح أخاً لرسول الله صلى الله عليه وآله يوم المؤاخاة، كلّ ذلك في مرحلة وجود النبيّ صلى الله عليه وآله.

ثمّ تنتقل إلى مرحلة المعترك السياسي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ودور الإمام علي عليه السلام في تلك المرحلة، حتَّى نصل إلى دوره في قيادة الحكم، حينما أصبح عليه السلام حاكماً بعد مقتل عثمان بن عفان، وحيث كانت هناك معارك صفين والجمل والنهروان.

في كلّ تلك المراحل مروراً من مكّة إلى المدينة إلى العراق، ما هي سياسة الإمام علي عليه السلام؟ هذه التجربة المتنوّعة بعدّة أشكال، مرَّةً في المعارضة، ومرَّةً في السلطة، ومرَّة حركة ثقافية، وقبل ذلك حروب وغزوات ومعارك مع المشركين، هذه التجربة الغاية في التنوّع عاشها الإمام علي عليه السلام، ونحن نريد أن نعثر على ما هو الخيط المشترك في سياسة الإمام علي عليه السلام في كلّ تلك المراحل، وما هي السِمة التي اتَّصفت بها سياسته عليه السلام، هناك أهداف نُسمّيها أهدافاً ثابتة، وهناك أهداف نُسمّيها أهدافاً متحرّكة، الإمام علي عليه السلام كان له أهداف ثابتة وأهداف متحرّكة، وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله، وكلّ الأنبياء من قبله، وهكذا كلّ قائد له أهداف ثابتة وأهداف متحرّكة متغيّرة.

الأهداف الثابتة:

الإمام علي عليه السلام في كلّ مسيرته كان له هدفان ثابتان:

الهدف الأوّل: هو المحافظة على الإسلام.

الهدف الثاني: هو المحافظة على الأمّة الإسلاميّة.

هذه أهداف ثابتة لا يتخلَّف عنها الإمام علي عليه السلام ولا في مرَّة واحدة، لكن هناك أهداف متحرّكة تظهر بأساليب متعدّدة على شكل مقاطعة مرَّةً، واحتجاج مرَّةً أخرى، وحروب مرَّةً ثالثة، هذه أهداف متحرّكة متغيّرة تتبعها مواقف وسياسات متغيّرة، إذن هناك أهداف ثابتة وأهداف متحرّكة للإمام علي عليه السلام؟

ظاهرة المبدئية القصوى:

ربَّما تناول المؤرِّخون والباحثون سيرة الإمام علي عليه السلام بشكل مستوعب، لكنَّنا نريد أن نعثر على الصفة المشتركة باعتبارها ظاهرة في

حركة الإمام علي عليه السلام يمكن أن نُسمّيها: (ظاهرة المبدئية القصوى)، أنت تجد هذه الظاهرة في سيرة الإمام علي عليه السلام يوم انتقل بالفواطم إلى المدينة المنوَّرة، كما تجدها في حروبه ومعاركه أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله، وتجدها يوم ذهب قاضياً إلى اليمن حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله، وتجد هذه المبدئية القصوى في أعلى درجاتها حينما عاش مرحلة المعارضة المقاطعة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وهكذا حتَّى نصل إلى معاركه في الجمل وصفين والنهروان، هذه هي ظاهرة المبدئية القصوى.

هناك سياستان:

الأولى: السياسة المبدئية.

الثانية: السياسة النفعية، أو (البرغماتية).

برز الإمام علي عليه السلام بظاهرة المبدئية القصوى، وفي مقابل ذلك برز معاوية بن أبي سفيان بظاهرة (النفعية القصوى)، فكان هناك مبدئية بلا حدود، ومقابلها نفعيّة بلا حدود.

المبدئية تعني الالتزام بالمبادئ وعدم الانحراف عنها في المواقف السياسية.

والنفعية تعني البحث عن المنفعة مهما تقاطعت مع المبادئ.

برز معاوية بظاهرة النفعية القصوى، وهو ما يُصطلح عليه اليوم بـ (الميكافيلية)، ويؤكّد ذاك النصّ الذي ذكره معاوية وبقيَ على طول التأريخ محفوظاً له حين قال مخاطباً أهل العراق: (إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا، ولا لتزكّوا، إنَّكم لتفعلون ذلك، ولكنّي قاتلتكم لأتأمَّر عليكم)[1]، هذا نموذج النفعية المطلقة التي

(١) الإرشاد ٢: ١٤؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٤٦.

حكمت سياسة معاوية. وعلى عكس ذلك أمير المؤمنين عليه السلام، حيث كانت لديه ظاهرة (المبدئية المطلقة).

ماذا قال المعاصرون عن الإمام علي عليه السلام حين سجَّلوا في كلماتهم ظاهرة المبدئية القصوى؟

لقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «علي مع الحقّ، والحقّ مع علي، يدور معه حيثما دار»[١]، وقال: «هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي، خليفتان بصيران لا يفترقان حتَّى يَردا عليَّ الحوض»[٢]، وهو ما لم يقله إلاَّ لعلي، فما معناه؟ معناه أنَّ الحقّ المطلق والمبدئية القصوى بأعلى درجاتها لا يفترقان، هذا العمق في المبدئية حتَّى أنَّ المبادئ تمشي مع علي، فكان هو أصل المبادئ، وهذا تصريح عظيم. ولو أنَّ المؤرِّخ والباحث أراد أن يقوِّم شخصية الإمام علي عليه السلام بقطع النظر عن الاتّجاه المذهبي لاستطاع أن يقول: هذا إنسان قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله: «علي مع الحقّ، والحقّ مع علي»، «علي مع القرآن، والقرآن مع علي»، وهذا لا تكاد توجد فوقه دلالة أقوى على المبدئية المطلقة لدى هذا الإنسان، هذا الإنسان لا ينحرف، ولا تزل قدمه، ولا يعثر لسانه عن الحقّ ولا لحظة واحدة، هذه المبدئية المطلقة القصوى.

الزهراء عليها السلام سجَّلت هذه الظاهرة (المبدئية القصوى) للإمام علي عليه السلام حينما قالت: «وتالله لو مالوا عن المحجَّة اللائحة، وزالوا عن قبول الحجّة الواضحة، لردَّهم إليها، وحمَلَهم عليها، ولسارَ بهم سيراً سجحاً _ هادئاً _ لا يكلَمُ حشاشُه، ولا يكلُّ سائره، ولا يَمِلُّ راكِبه، ولأورَدَهُم

(١) الفصول المختارة: ١٣٥؛ بحار الأنوار ٣٠: ٣٥٢؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨: ٧٢.
(٢) أمالي الطوسي: ٤٧٩/ ح (١٠٤٥/١٤)؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٢٤.

منهلاً نميراً صافياً رويّاً...»، ثمّ تلت قوله تعالى: «﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]...»[١].

الزهراء عليها السلام تسجّل للإمام عليه السلام ظاهرة (الحقّانية المطلقة) في تصرّفاته السياسية، وهذه نُسمّيها: ظاهرة المبدئية القصوى.

ولنستمع إلى تصوّرات الآخرين عن الإمام علي عليه السلام. ماذا يقول عمر بن الخطّاب حينما جعل الخلافة شورى سداسية بين علي عليه السلام، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة، والزبير؟ قال لهؤلاء النفر: اجتمعوا وانتخبوا منكم من يكون خليفةً للمسلمين، والجهة التي فيها عبد الرحمن بن عوف هي الجهة الراجحة، ثمّ جمعهم قبل وفاته بساعات، ثمّ قوَّم كلَّ واحدٍ من هؤلاء الستّة واحداً واحداً، وأمير المؤمنين عليه السلام ساكت[٢].

وبعد أن قيَّمهم قال في الإمام علي عليه السلام: (أمَا والله ــ وهو ملتفت إلى الإمام علي عليه السلام ــ لئن وَلَّيْتَهم لَتحمِلنَّهم على الحقّ الواضح، والمحجَّة البيضاء)، بينما قال في عثمان: (كأنّي بك قد قلَّدتك قريش هذا الأمر لحبّها إيّاك، فحملت بني أميّة وبني أبي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب، فذبحوك على فراشك ذبحاً).

لقد جرح عمر بن الخطّاب كلَّ هؤلاء الخمسة، عدا علياً عليه السلام.

ثمّ ننظر إلى الإمام علي عليه السلام كيف يقيِّم نفسه حين يقول:

«وَاللَّهِ لأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الأَغْلاَلِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْض الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَام، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى

(١) الاحتجاج ١: ١٤٨.

(٢) راجع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٨٦.

الْبِلَى قُفُولُهَا، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا»، ثمّ يَستعرض قِصَّةَ عقيل مع بناته حين أقبلَ يطلبُ صاعاً إضافياً من بيت المال، والقصَّة معروفة[١].

وهذه السياسة اليوم نُسمّيها: (المبدئية القصوى)، منتهى الرسالية يومئذٍ، أو باصطلاح آخر تُسمّى: (الخشونة في ذات الله).

الإمام علي عليه السلام كان خشناً في ذات الله، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله في أكثر من موضع حين كان يسمع بعض الناس يشكو علياً عليه السلام، فيقول صلى الله عليه وآله: «لا تشكوا علياً، فإنَّه والله لأخشن في ذاتِ الله»[٢].

«إنَّه لأخشن في ذات الله»، كان هذا هو سبب امتعاض كثير من الناس، خاصّة أولئك الذين في قلوبهم مرض، هؤلاء الناس أصحاب مطامع وأصحاب أهواء ولا يقبلون سياسة المبدئية القصوى.

هذه هي كلمات المعاصرين للإمام علي عليه السلام.

نماذج تطبيقية للمبدئية القصوى:

النموذج الأوّل: الإمام علي عليه السلام ساوى في العطاء حينما استلم الحكم، وغيَّر آلية توزيع الميزانية التي اتّبعها عمر بن الخطّاب حينما

---

(١) يقول عليه السلام: «وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً، وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ غُبْرَ الأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنّي أَبِيعُهُ دِينِي وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ، مُفَارِقاً طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا. فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ، أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ. أَتَئِنُّ مِنَ الأَذَى وَلاَ أَئِنُّ مِنْ لَظَى؟»، أنظر: نهج البلاغة ٢: ٢١٧/ ح ٢٢٤.

(٢) بحار الأنوار ٢١: ٣٧٤؛ مسند أحمد ٣: ٨٦؛ وفي بعض الروايات: (لأخيشن).

كان خليفة، فقد عمل عمر بسياسة التمييز في العطاء، التمييز بين من هو مِن بني هاشم فيُعطى أكثر، ومن هو من غير بني هاشم فيُعطى أقلّ، التمييز بين المهاجر والأنصاري، والعربي والأعجمي، إذن كان العرب يستحقّون مخصّصات مالية أكثر من مخصّصات من هو غير عربي، ولهذا ترون أنَّ القومية العربية اليوم هي قريبة إلى عمر بن الخطّاب، لقد كان لديه هذه النزعة القومية، لعدّة سنوات عوَّد عمر بن الخطّاب الناس على التمييز العنصري، فلمَّا جاء الإمام علي عليه السلام واستلم الحكم قال: العطاء سواسية، بيت المال للجميع على السواء، كلّهم سواء في العطاء، فأثار بذلك غيضَ الكثيرين، ممَّن تضاعفت ثرواتهم أيّام عمر بن الخطّاب؛ لأنَّ الأموال كانت تُعطى لهم بشكل أكبر، فارتفعت درجة الثراء عند قريش، وحين جاء الإمام علي عليه السلام ساوى في العطاء.

النموذج الثاني: ردُّ جميع القطائع التي قَطَعها عثمان إذ أنَّ عثمان بن عفان لمَّا استولى على الخلافة وزَّع بيت المال لأقربائه وعشيرته من الصحابة وغير الصحابة بلا حدود، هذه كانت تسمّى: قطائِع عثمان، بمعنى عطايا عثمان.

في اليوم الثاني لاستلامه الحكم أعلَنَ الإمام علي عليه السلام بأنَّ جميع قطائِع عثمان بن عفان مَردودة، فلا يوجد ذهب ولا سيف ولا فرس ولا أرض يُعطى إلى أحدٍ من الناس بدون استحقاق.

إنَّ سياسة مكرمة الخليفة أوّل من بدأها عثمان بن عفان، التاريخ يذكر هذا، وتُعرف عند المؤرِّخين بقطائع عثمان بن عفان، بحيث أصبحَ بعض الصحابة يُكسِّر الذهب بالفؤوس من عطايا عثمان(١)، وحين جاء الإمام علي عليه السلام أصدر

(١) راجع: الغدير للأميني ٨: ٢٨٤، نقلاً عن مروج الذهب ١: ٤٣٤.

البيان الثاني حين قال: «وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ»(١).

هذا نموذج للمبدئية القصوى.

لقد خسِرَ الإمام علي عليه السلام ولاء الكثير من الناس، حين استردَّ جميع الأموال من بني أميّة وغير بني أميّة، وتنامت ظغائن في القلوب.

وهكذا نجد أنَّ هذه المبدئية القصوى تتجسَّد في الإمام علي عليه السلام في الكثير من القضايا، حتَّى في السلوكيات الشخصية، بحيث أضحى الإمام علي عليه السلام رمزاً للعدالة عند المسلم وعند المسيحي، عند العرب وعند غير العرب، حتَّى لم يستطع أحد على طول التاريخ أن يسجِّل عليه زلَّةً أو عدواناً أو زيغاً في موقف من المواقف.

ورغم أنَّ مدرسة الخلافة حاولت أن تجعل من عمر بن الخطّاب رمزاً للعدالة فتتحدَّث عن خشونته ودرَّته التي يعلو بها ظهر القريب والبعيد، لكنَّهم مع كلّ ذلك سجَّلوا عليه الكثير من الزلاّت والشطحات هنا وهناك، أمَّا الإمام علي عليه السلام فإنَّه لم يسجِّل المؤرِّخون عليه ولا زلَّة واحدة.

النموذج الثالث: الإمام علي عليه السلام كان رمزاً للعدالة حتَّى في سلوكه الشخصي، وحتَّى مع أعدائه، وفي حروبه. في صفين حين قطع معاوية الماء عن جيش العراق وأصبح جيش العراق يواجهون العطش والهلاك، وقال لهم الإمام علي عليه السلام: «رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ الْمَاءِ، فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ»(٢)، فلمَّا رأى عليه السلام أنَّه الموت لا محالة تقدَّم بأصحابه، وحمل على عسكر

(١) نهج البلاغة ١: ٤٦/ ح ١٥.

(٢) نهج البلاغة ١: ١٠٠/ ح ٥١.

معاوية حملات كثيفة، حتَّى أزالهم عن مراكزهم بعد قتل ذريع، سقطت منه الرؤوس والأيدي، وملكوا عليهم الماء، فقال له أصحابه وشيعته: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك، ولا تسقهم منه قطرة، واقتلهم بسيوف العطش، وخذهم قبضاً بالأيدي، فلا حاجه لك إلى الحرب، فقال عليه السلام: «لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم، افسحوا لهم عن بعض الشريعة، ففي حدِّ السيف ما يغني عن ذلك»[١].

ويمكننا أن نذكر نماذج كثيرة في ظاهرة المبدئية القصوى لدى الإمام علي عليه السلام.

المبدئية القصوى لدى الإمام الحسين عليه السلام:

ننتقل إلى الإمام الحسين عليه السلام، لنعقد المقارنة بينه وبين الإمام علي عليه السلام في هذه الظاهرة. هل كان مبدئياً في درجة قصوى أم لا؟

المبدئية لم تبتعد عن الإمام الحسين عليه السلام في كلّ حركته، حركة الإمام الحسين عليه السلام أيضاً شهدت تنوّعاً في التجربة، رغم أنَّ ثورة كربلاء هي التي أصبحت عنواناً لحركة الإمام الحسين عليه السلام، لكن الإمام الحسين عليه السلام في الحقيقة لديه تنوّع في التجربة، لقد عاش الإمام الحسين عليه السلام في طفولته وصباه مع رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ أيّام حكم أبي بكر، ثمّ أيّام عمر بن الخطّاب وعثمان والإمام علي عليه السلام، ثمّ عهد الإمام الحسن عليه السلام التي استغرقت أيّامه مع معاوية خمسة عشر عاماً، ثمّ بعدها بعشر سنوات نهض الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء.

الإمام الحسين عليه السلام عاش زمن معاوية، ثمّ بعد هلاك معاوية ومجيء يزيد كانت ثورة كربلاء عام (٦١) للهجرة.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٢٣ و٢٤.

في كلّ تلك السنين الطوال، كيف كانت سياسة الإمام الحسين عليه السلام؟ هنا أيضاً نسجّل ظاهرة المبدئية القصوى.

مع الإمام الحسن عليه السلام:

لقد كان الإمام الحسين عليه السلام خاضعاً للإمام الحسن عليه السلام خلال خمسة عشر عاماً، حين كان الإمام الحسن عليه السلام هو الإمام الشرعي، سواء في حربه أو في صلحه مع معاوية؛ لأنَّ المبدئية القصوى كانت تقتضي الخضوع والطاعة. وبعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام، حينما جيء بجنازته واجتمع بنو مروان وبنو أميّة وقالوا وقالت عائشة: (ما لي ولكم تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحبّ)، أرادَ بعضُ بني هاشم أن يدخلوا في معركة، وكان الإمام الحسين عليه السلام موجوداً، واستحقاقات القضيّة أن يدخل في معركة! وهو قادر أن يدخل في معركة، لكنَّه لم يدخل، لماذا؟

بعد الإمام الحسن عليه السلام:

المبدئية القصوى هي التي فرضت عليه السكوت حين قال عليه السلام: «والله لولا عهد الحسن إليَّ بحقن الدماء، وأن لا أهريق في أمره محجمة دم، لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها...»، فانسحب الإمام الحسين وانسحب بنو هاشم[1]. وهكذا نجد الإمام الحسين عليه السلام بعد الإمام الحسن عليه السلام، عشر سنوات عاصر معاوية ولم يُثِر عليه حرباً، لماذا؟

لأنَّ هناك بنود معاهدة الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية التي تنصّ: إنَّ الخلافة بَعدَ معاوية تكون للحسن، ثمّ للحسين عليه السلام، فالإمام الحسين عليه السلام

(١) راجع: الإرشاد ٢: ١٨ و١٩.

محكوم بهذا العهد، أنَّ الحكم بعد معاوية للحسن عليه السلام وإذا مات الحسن عليه السلام فالحكم بعد معاوية للحسين عليه السلام. فصبر الإمام الحسين عليه السلام عشر سنوات، ولَم يَثُر على معاوية، وبقطع النظر عن أيّ تحليل سياسي، بل هو الالتزام الأخلاقي بالعهد الذي قطعه الإمام الحسن عليه السلام؛ لأنَّ هذا العهد ذمّة شرعيّة، فلا يمكن أن يأتي الحاكم الثاني ويمزّق هذه العهود الماضية.

عصر الثورة:

وبعد هلاك معاوية جاءت الثورة الحسينية، وهي أيضاً تعبير عن مبدئية قصوى، حيث كان الإمام الحسين عليه السلام يَعلم بأنَّه يُقتل، وهناك رأي في هذه المسألة، فبعض كتّاب الشيعة، يقولون: إنَّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يعلم بأنَّه يقتل. لكن الرأي الذي يميل له علماء الشيعة ومؤرِّخوهم بشكل واسع جدّاً هو أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان يعلم بمقتله، وأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان قد أخبره بمقتله، وليس الحسين وحده كان يعلم بمقتله، بل حتَّى من كان مع الحسين أيضاً، أُمّ سَلَمَة كانت تعلم بذلك، محمّد بن الحنفية كان يعلم بذلك، ابن عبّاس كان يعلم بذلك، القضيّة كانت مكشوفة وواضحة، لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتحدَّث عن قتل الحسين عليه السلام في كربلاء، لكن المبدئية القصوى هي التي فرضت على الحسين أن يهاجر إلى كربلاء، حتَّى وإن كان في ذلك مقتله، لماذا؟

لأنَّ المبادئ فرضت عليه ذلك، فقال عليه السلام: «لا والله، لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرُّ فرار العبيد»(١)، هذه معركة مبادئ، هذه مبدئية قصوى لدى الإمام الحسين عليه السلام.

(١) الإرشاد ٢: ٩٨.

إنَّ الإمام الحسين عليه السلام وهو في الطريق التقى بشيخ من مشايخ العراق اسمه (عبيد الله بن الحرّ الجعفي)، ويبدو أنَّه من شيوخ الكوفة وأثريائهم، فذهب عليه السلام إليه ودعاه إلى نصرته، فاعتذر وقال: والله يا ابن بنت رسول الله! لو كان لك بالكوفة أعوان يقاتلون معك لكنت أنا أشدّهم على عدوّك، ولكنّي رأيت شيعتك بالكوفة وقد لزموا منازلهم خوفاً من بني أميّة ومن سيوفهم، فأنشدك بالله أن تطلب منّي هذه المنزلة، وأنا اُواسيك بكل ما أقدر عليه، وهذه فرسي ملجمة، والله ما طلبت عليها شيئاً إلاّ أذقته حياض الموت، ولا طُلِبت وأنا عليها فلُحقت، وخذ سيفي هذا، فوَالله ما ضربت به إلاَّ قطعت.

فقال له الحسين عليه السلام: «يا بن الحرّ! ما جئناك لفرسك وسيفك، إنَّما أتيناك لنسألك النصرة، فإن كنت قد بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا في شيء من مالك، ولم أكن بالذي اتّخذ المضلّين عضداً؛ لأنّي قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول: من سمع داعية أهل بيتي ولم ينصرهم على حقّهم إلاَّ أكبَّه الله على وجهه في النار»[1].

كان يمكن للإمام الحسين عليه السلام أن يدخل معه بمشادة كلاميّة، لكنَّه كان مخلصاً لمن والاه، ومخلصاً أيضاً لمن قاطعَهُ.

المبدئية القصوى للإمام الحسين عليه السلام تتجلّى في عدّة مواضع، ومنها اصطحابه للنساء.

لماذا اصطحب النساء؟ رجل يريد أن يقود ثورة، ويدخل في معركة مسلَّحة، وهو لا يدري بحسب المسارات التاريخية هل سينتصر أو لا ينتصر، محمّد بن الحنفية سأله قائلاً: يا أخي، إنَّ أهل الكوفة من قد

---

(١) راجع: كتاب الفتوح ٥: ٧٣ و٧٤.

عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى، فإن رأيت أن تقيم فإنَّك أعزُّ من في الحرم وأمنعه. فقال: «يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم فأكون الذي يُستباح به حرمة هذا البيت»، فقال له ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فصر إلى اليمن أو بعض نواحي البرّ، فإنَّك أمنع الناس به ولا يقدر عليك أحد، فقال: «أنظر فيما قلت». فلمَّا كان السحر ارتحل الحسين عليه السلام، فبلغ ذلك ابن الحنفية فأتاه فأخذ زمام ناقته التي ركبها. فقال له: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟ قال: «بلى»، قال: فما حداك على الخروج عاجلاً؟ فقال: «أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعدما فارقتك، فقال: يا حسين، اُخرج، فإنَّ الله قد شاء أن يراك قتيلاً»، فقال له ابن الحنفية: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟ فقال له: «قد قال لي: إنَّ الله قد شاء أن يراهنَّ سبايا» وسلَّم عليه ومضى[1].

فليست المسألة مسألة تحليل واجتهاد، بل هو تكليف إلهي، فإنَّ زينب عليها السلام كان لها دور كبير في مجلس ابن زياد ومجلس يزيد فيما بعد، كانت هناك أدوار كبيرة قام بها الركب الحسيني بعد شهادته، لكن لم يكن هو منطلق التحرّك بالأصل، إنَّه بالحساب السياسي يُفترض أنَّ النساء إذا أصبحن سبايا فيمكن أن تباع في مجلس ابن زياد وينتهي كلّ شيء، لذا فإنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان يعتمد مبدأ آخر في الحركة، أنَّ المسألة بالنسبة له هي تكليف من أعلى، «شاءَ الله أن يراهُنَّ سبايا».

هنا تتجلّى ظاهرة المبدئية القصوى عند الحسين عليه السلام.

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٣٩ و٤٠.

العلاقة بين الغايات والوسائل:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أَتَأْمُرُونّي أنْ أطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ!؟ وَاللَّهِ لاَ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ[1]، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً، لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ؟ أَلاَ وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الآخِرَةِ»[2].

الظاهرة التي سَيطَرَت على المشروع الحَرَكي والتغييري للإمام علي عليه السلام سواءً في العمل السياسي، أو التربوي، أو الاجتماعي، أو الديني هي ظاهرة المبدئية القصوى، وحديثنا في هذا الموضوع ينقلنا إلى سؤال هو:

ما هي نظرية الإسلام في العلاقة بين الغايات والوسائل؟

النظرية الإسلاميّة:

الإنسان لديه هدفٌ مقدَّس، ولديه غايةٌ مقدَّسةٌ، لكن الوسائل تختلف، فقد تكون وسائل شريفة مقدَّسة، وقد تكون وسائل غير مقدَّسة.

نظريةُ الإسلام ما هي؟

هل يمكن أن نطلب أهدافنا المقدَّسة بوسائل غير مقدَّسة؟

نشتري ضمائر، نعطي أموالاً، نعتدي، نتجاوز على الحقوق الشخصية بحجّة أنَّ الأهداف مقدَّسة، هل يجوز ذلك؟

---

(١) ما أطور به: من طار يطير: حام حول الشيء، أي ما أمر به ولا أُقاربه، مبالغة في الابتعاد عن العمل بما يقولون. وما سَمَرَ سمير: أي مدى الدهر.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٦/ ح ١٢٦.

هـذا بحـث فقهـي فـي النظريـة السياسـية الإسـلاميّة، وهنـا نكتفـي بالإشارة الموجزة للنظرية الإسلاميّة.

هناك نظرية معروفة تقول: (إنَّ الغايات تبرّر الوسائل)، فإذا كانت أهدافك مشروعة سامية فلا مانع أن تصل إليها بأيّة وسيلة، أنتَ تُريد أن تبني مسجداً مثلاً، فما دامت الأهداف جيّدة فلا مانع أن تكون أموالك غير شرعيّة، هذه هي النظرية (الميكافيلية) التي لا تهتم بالوسائل كيفما كانت.

لكـن الإسـلام لديـه نظريـة أخـرى، وهـي: (ضـرورة سـلامة الأهـداف وسـلامة الوسـائل)، أنَّ الهـدف الجيّـد يجـب أن تكـون واسـطته ووسـيلته جيّـدة أيضـاً، فمـثلاً أنـت تـذهب زائـراً للإمـام الحسـين عليه السلام، فيجـب عليـك أن لا تَركـب سـيّارة مغصـوبة، أو تـذهب إلـى الحـجّ، فـلا يجـوز أن تكـون أموالـكَ غيـر مُزكّـاة أو مخمَّسـة بذريعـة أنَّـك ذاهـب لحـجّ بيـت الله الحـرام، هـذه غايـة جيّـدة، لكـن الوسـيلة لا بـدَّ أن تكـون جيّـدة، هـذه النظريـة هـي نظرية (سلامة الأهداف وسلامة الوسائل).

وهنـاك اسـتثناء طبعـاً، وهـو حـالات الضـرورة، حـالات لا يمكـن تحقيـق الهـدف إلاَّ بواسـطة غيـر سـليمة، كـالمريض الـذي يكـون علاجـه متوقّفـاً علـى دواء غيـر طـاهر أو دواء مُسـكر، ويقـول لـه الطبيـب: يجـب أن تستعمل هذا الدواء أو تموت، فحينها يجوز أن يستعمل الدواء.

ونـذكر مثـالاً آخـر، وهـو: أنَّـه حينمـا تشـاهد شخصـاً يغـرق فـي نهـر وأنـت لا تسـتطيع إنقـاذه إلاَّ أن تمـرَّ داخـل بسـتان، لكـن صـاحب البسـتان لا يسمح لك أن تدخل البستان، فما هو تكليفك أنت؟

الفقهـاء يقولـون: اُعبـر الجـدار وادخـل البسـتان، وإنْ لـم يـرضَ صـاحب البسـتان، وذلـك مـن أجـل أن تنقـذ الغريـق، لأنَّ الـنفس المحترمـة أهـمّ مـن حـقّ

صاحب البستان، وهذه الاستثناءات تتحدَّد بقانون الضرورة، وبمبدأ أسموه: (تقديم الأهمّ على المهمّ)، وهذا بحث واسع في المجال الفقهي.

في النصّ الذي قرأناه فإنَّ الإمام علياً عليه السلام أعطى قاعدة حين قال: «أَتَأمُرُونّي أنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ»، تريدون أن أحقّق الأهداف بوسائل غير مشروعة!؟ لا يجوز ذلك.

أنت تريد أن تكسب الأصوات الانتخابية، وأنت إنسان وطني، مخلص، متديِّن، وأولى بالحكم من غيرك، لكن هل يجوز لك أن تصل إلى الحكم بوسائل غير شرعية؟ من قبيل الدعاية الكاذبة، أو شراء ضمائر الناس بالأموال؟

الإسلام يقول: لا يجوز هذا العمل، إذا كانت الأهداف صحيحة، فالوسائل يجب أن تكون صحيحة كذلك.

الإمام علي عليه السلام عُوتب على التسوية في العطاء؛ لأنَّ عثمان عوَّد الناس على بذل الأموال، فأضحى كلّ واحد لديه أموالاً طائلة من بيت المال، ومن قبله عمر بن الخطّاب عوَّد قريشاً على سياسة التفاضل في العطاء، ولكي لا تتأذّى قريش، ولا العرب، ولا المهاجرين فعليه أن يتّبع نفس تلك السياسة.

هذه وقفة بسيطة في مسألة العلاقة بين الأهداف والوسائل، واتّخذنا من سياسة الإمام علي عليه السلام نموذجاً لذلك في ظاهرة (المبدئية القصوى).

لعلَّك تقول: إنَّ في الإسلام سهماً للمؤلّفة قلوبهم وأمثلة أخرى قد تكون شاهداً على أنَّ الإسلام لا يرفض سياسة استخدام المال لتحقيق انتصارات سياسية.

فنقول: هذا صحيح، لكن بحدود ما حدَّده الله تبارك وتعالى، فهناك أولويات رسمها الله تعالى، تلك الأولويات التي نزل بها التشريع

مقبولـة، أمَّـا الأولويـات التـي نرسـمها نحـن علـى أسـاس قـومي، أو عرقـي، أو عشائري، أو جغرافي، أو زمني، فهذا غير مقبول.

هل خسِر الإمام علي عليه السلام؟

لـدينا هنـا سـؤال يـرتبط بالمبدئيـة القصـوى، يقـول: إنَّ هـذه السياسـة المبدئيـة هـي التـي جعلـت الإمـام عليـاً عليه السلام يخسـر التجربـة، ويفشـل فـي مشـروعه السياسـي، فعمـر بـن الخطّـاب جعـل الخلافـة شـورى فـي سـتّة أشخاص، وهـم: علـي، وعثمـان، وطلحـة، والزبيـر، وعبـد الـرحمن بـن عـوف، وسـعد بـن أبـي وقـاص، وأمـر خمسـين أنصـارياً أن يحيطـوا بالبيـت الـذي اجتمعـوا فيـه، وأن لا ينصـرفوا حتَّـى يتَّفـق هـؤلاء السـتّة علـى أحـدهم خليفـةً، وإن لم يتَّفقوا تُضرب أعناقهم جميعاً!

فـاجتمعوا، فكـان أن وهـب طلحـة حقّـه لعثمـان، ووهـب الزبيـر حقّـه لعلي، وأمَّا سعد بن أبي وقاص فقد وهب حقّه لعبد الرحمن بن عوف.

فقـال عبـد الـرحمن: أشـهدكم أنَّنـي قـد أخرجـت نفسـي مـن الخلافـة، علـى أن أختـار أحـدهما، فأمسـكا، فبـدأ بعلـي عليه السلام، وقـال لـه: أبايعـك علـى كتاب الله، وسُنّة رسول الله، وسيرة الشيخين: أبي بكر وعمر.

فقـال: «بـل علـى كتـاب الله وسُـنّة رسـوله واجتهـاد رأيـي»، فعـدل عنـه إلى عثمان، فعرض ذلك عليه.

فقـال: نعـم، فعـاد إلـى علـي عليه السلام، فأعـاد قولـه، فعـل ذلـك عبـد الـرحمن ثلاثـاً، فلمَّـا رأى أنَّ عليـاً غيـر راجـع عمَّـا قالـه، وأنَّ عثمـان يـنعم لـه بالإجابة صفق على يد عثمان وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين(١).

---

(١) راجع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٨٨.

وحينئذٍ نُزعت الخلافةُ من علي عليه السلام وذهبت إلى عثمان.

السؤال يقول: لماذا لم يقم الإمام بعملية مناورة سياسية؟ ربَّما كان عليه أن يقبل البيعة ثمّ يفعل ما يشاء بعد ذلك.

الجواب: أنَّ هذا الموضوع مرتبط بسياسة (الغاية لا تبرّر الوسيلة)، وكذلك ظاهرة (المبدئية القصوى) التي لا تسمح للإمام أن يعتمد سياسة المخادعة.

هناك رأي سياسي يقول: إنَّ الإمام علياً عليه السلام حتَّى لو كان قد قبل الخلافة على أن يعمل بسيرة الشيخين، فإنَّه بمجرَّد أن يقوم بأدنى حركة تغييرية فسوف تنقض عليه قريش قائلين له: إنَّك خالفت سيرة الشيخين، فمهما فَعَلَ علي عليه السلام فإنَّ قريشاً لا ترضى به، فقد قال عُمَر بن الخطّاب لابن عبّاس يوماً: (إنَّ قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة... إنَّهم لينظرون إليكم نظر الثور إلى جازره)[(١)].

لو كان الإمام علي عليه السلام يقبل بسيرة الشيخين فإنَّ قريشاً ستقوم بعملية تمرّد ما أن يخرجوا من الاجتماع، لسبب من الأسباب، أليس قد طالب معاوية بدم عثمان وقاد حركة التمرّد بعد الإجماع على بيعة علي عليه السلام؟ أليس طلحة والزبير بايعوا علياً عليه السلام ثمّ كان التمرّد؟ إذن المسألة غير قابلة للحلّ من خلال مناورة سياسية، والإمام علي عليه السلام أدرك هذه الحقيقة، ولو قد قَبِل بسيرة الشيخين فإنَّ هذا الموقف سيخلّده التأريخ، وسيكون ذلك دليلاً شرعياً على اعتبار سيرة الشيخين مصدراً للتشريع، وهذا ما لا يمكن أن يقبله الإمام علي عليه السلام.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٨٩ و١٩٠.

إنَّ مصادر التشريع لدينا هي القرآن والسُنّة، وأمَّا سيرة الشيخين، أو سيرة الصحابة فهي بالنسبة لنا لا تُمثّل مصدراً تشريعياً، اجتهادهم لا يمثّل حجّة علينا، لذلك فإنَّ الإمام علياً عليه السلام لا يمكن أن يسجّل إمضاءً لتشريع مرفوض، وعلى كلّ الأحوال هذا الأمر ذكرناه في سياق مبدئية الإمام علي عليه السلام القصوى، وأنَّ الغاية لا تبرّر الوسيلة.

والرواية الجميلة هنا: أنَّه لمَّا بايع عبد الرحمن بن عوف عثمان، قال له الإمام علي عليه السلام: «والله ما فعلتها إلاَّ لأنَّك رَجَوتَ منه ما رجا صاحبكما من صاحبه»، يعني أنت لم تبايعه إلاَّ لتصبح الخلافة لك من بعده، ثمّ دعا عليه وقال: «دقَّ الله بينكما عِطرَ مَنْشِم»[1]. (ومنشِم اسم امرأة كانت بمكَّة عطّارة، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيَّبوا من طيبها، وكانوا إذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم، فكان يقال: أشأم من عِطر منشِم، فصار مثلاً)[2].

وبالفعل ما أن تمَّت هذه العملية حتَّى كانت القطيعة بين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، ومات بغير صلةٍ بينهما.

عُمَر والتشيّع:

الكاتب حسن العلوي له كتاب اسمه (عُمَر والتشيّع)، في هذا الكتاب يحاول أن يصل إلى نتيجتين:

النتيجة الأولى: أن يؤكّد العلاقة الايجابية بين عمر وعلي.

النتيجة الثانية: أنَّ العراق يجب أن يكون عُمَرياً، وأنَّ حُبَّ عُمَر مِن حُبِّ العراق؛ لأنَّ عمر بن الخطّاب هو الذي فَتَحَ العراق، وحرَّر

(١) المصدر السابق.

(٢) الصحاح/ الجوهري ٥: ٢٠٤١.

العراق من الإمبراطورية الفارسية، إذن العراقيون مدينون لعُمر بن الخطّاب، ويجب أن يفوا لعمر حتَّى يصبحوا عمريين.

من ناحية أقول بأنَّ هذا الكاتب لا ينطلق من منطلق مذهبي كما عبَّر هو عن ذلك، ومن ناحية أخرى ـ وذلك من حُسن الظنّ ـ ربَّما يهدف إلى أن يجعل تقارباً بين السُنّة والشيعة في العراق. لكن الحقيقة أنَّ هذه الأفكار هي أفكار خاطئة، ولا أريد مناقشتها من بُعد مذهبي، وإنَّما أنا بصدد المناقشة التاريخية.

أوّلاً: كيف نقرأ العلاقة بين علي وعمر بن الخطّاب؟

ثانياً: كيف نقرأ العلاقة بين العراقيين وعمر بن الخطّاب؟

وهذه كلّها في سياق تأكيد ما هو واضح في تجربتنا السياسية وشعارنا الوطني، أنَّ العراق كان علوياً أو كان غير علوي، لكن الشيعة يحتضنون المذاهب الأخرى وأبناء المذاهب الأخرى، وأنَّ التقارب هو الذي رفع الشيعة لواءه ورايته، ولا حاجة لأن نحرِّف التأريخ من أجل تقارب، الحقائق التاريخية يجب أن تبقى، فما هو الخطأ الذي ارتكبه هذا الأستاذ؟

الخطأ الأوّل: خطأ تأريخي، حيث إنَّه اعتمد على أدبيّات السُلطة، ونسيَ أدبيات المعارضة، هذا الكاتب اعتمد على أدبيات السلطة، المجد والثناء والإشادة بشخصية عمر بن الخطّاب، بعيداً عمَّا تقوله المعارضة وما يقوله الرأي الآخر الذي كان موجوداً، لكنَّه كان مُحارباً ومُطارداً سياسياً. لو أراد كاتب في عصرنا هذا أن يعتمد على أدبيات الحكومة السابقة لمعرفة وتقييم شخصية صدام ماذا سيجد؟ يجد المجد، والمكرمات، والحِكمة، والبطولة، والعروبة، والشجاعة، والصلاة، والقرآن، ويجد أمامه أسطولاً من المكارم، هذه هي أدبيات السلطة، لكن الباحث التاريخي لا يمكن أن يعتمد على أدبيات السلطة فقط، بل يجب أن

يراجع أدبيات المعارضة أيضاً، لقد كان الشيعة والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام يمثّلون المعارضة، فتعالَ أيّها الكاتب وانظر إلى أدبيات السُلطة يومئذٍ ماذا قالت؟ وإلى أدبيات المعارَضة ماذا قالت؟ وحينئذٍ سوف تجد أنَّ العلاقة بين علي وعمر هي علاقة على غير ما رسمته.

الخطأ الثاني: قوله: إنَّ الاستحقاق التاريخي للعراق أن يكون عُمَرياً، وأنَّ حبّ العراق من حبِّ عمر، وحبُّ عُمر مِن حُبِّ العراق، نحن نعتقد أنَّ هذه القضيّة خاطئة سياسياً، كما هي خاطئة موضوعياً، إنَّ عمر بن الخطّاب هو الذي فتح العراق، وفتح بلاد الشام، وفتح فلسطين، ثمّ استمرَّت الفتوحات على العهد الأموي، واستمرَّت على العهد العبّاسي، حتَّى وصل العالم الإسلامي إلى بلاد الصين، ومشارف أوربا، ودخلت اسبانيا في الفتوحات، فهل تفرض هذه الفتوحات أن يكون المسلمون فيها مدينين لمثل هارون الرشيد والمأمون ومروان وأمثالهم؟ هل القضيّة تُقاس بمثل هذه الأمور؟ في حكومة عمر فُتِحَ العراق نعم، وفُتحت بلاد فارس، وفتحت بلاد أخرى، لكن يبقى سؤال تاريخي: لماذا العراق كان وإلى اليوم عراقاً علوياً؟ فأكثرية العراق هم شيعة أهل البيت عليهم السلام، رغم كلّ ما جرى عليه، لماذا؟ ولماذا أهل البيت عليهم السلام كان لديهم حنين خاصّ نحو العراق؟ لماذا الإمام علي عليه السلام تَرَكَ المدينة وجاء للعراق وكان منطلقه من العراق؟ ما هذا الولاء بين الشعب العراقي والأئمّة الأطهار عليهم السلام؟ العراق علوي تأريخياً، وهو اليوم علوي وسيبقى علوياً.

هذا يحتاج إلى تحليل، ولا نريد أن نتناول هذا الموضوع من منظور سياسي وإنَّما من منظور تاريخي، وحتَّى معركة الجمل، فقد جاء طلحة والزبير مع ستّمائة رجل من المدينة المنوَّرة واحتلّوا البَصرة وغلبوا أهلها، ولم يكن أهل البصرة ضدّ الإمام علي عليه السلام.

قراءتان للهويّة العراقية:

الحقيقة أنَّ هناك قراءتين للعراق:

١ ـ القراءة الأموية للعراق.

٢ ـ القراءة العلوية للعراق.

القـراءة الأمويـة هـي الـذمّ والنقـد للعـراقيين، واعتبـارهم أهـل غـدر وأهل شقاق ونفاق.

والقراءة العلوية هي أنَّ شعب العراق هو محبوب أهل البيت عليهم السلام، وهو رصيدهم، وقد ورد النهي عن ذمّ أهل العراق، وهذا بحث في غاية السعة، ونحن عشنا ألفاً وأربعمائة سنة في ظلّ أدبيات السلطة الأموية والعبّاسية والعثمانية المعادية للعراق والعراقيين، وحتَّى وصلنا إلى عهد صدام الذي اعتبر الشيعة قادمين من بلاد الهند!! ولهذا فقد أصبحت الصورة مشوَّهة، ولكن إذا نظرنا إلى القراءة العلوية لشيعة العراق فسوف نجد (السيّد ابن طاووس) وهو مُعتمد أهل الحديث، في كتابه (مُهَج الدعوات) يقول: (ومِن صفات الداعي أن لا يدعو على أهل العراق، فإنّي رَوَيت في الجزء الأوّل من كتاب (التجمل) من ترجمة محمّد بن حاتم أنَّ الله تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أن لا يدعو على أهل العراق)[1]، وهذه الرواية فقط تكفينا للتمييز بين القراءة الأموية للعراق والقراءة العلوية، نعرف من ذلك ما يأتي من ذَمّ ضدّ العراق والعراقيين أنَّ له أصابع سلطوية، ويجب أن نبحث المسألة بحثاً موضوعياً عميقاً.

سياسة الحسين عليه السلام:

لنعد إلى أصل موضوع البحث، وهو ظاهرة (المبدئية القصوى)، سنجد

(١) أنظر: بحار الأنوار ٩٠: ٣٥٢ و٣٥٣ عن مهج الدعوات.

هذه الظاهرة بارزة لدى الإمام الحسين عليه السلام، لا وجود لمبدأ (الغاية تبرِّر الوسائل)، كما كان يفعل الآخرون، هناك مبدئية قصوى استخدمها الإمام في كلّ مراحل حياته، وبهذا الصدد نعجب لكاتب كبير وهو الشيخ (محمّد الخضري) المصري في كتابه (محاضرات في تاريخ الأمم الإسلاميّة) كيف يقيّم حركة الإمام علي عليه السلام، وكيف يقيم حركة الحسين عليه السلام؟ يقول عن حركة الإمام علي أنَّها حركة بدوافع شخصية، ونزاع على السلطة بين علي ومعاوية، وحينما يصل إلى الإمام الحسين عليه السلام يقول: (وعلى الجملة فإنَّ الحسين أخطأ خطأ في خروجه هذا الذي جرَّ على الأمّة وبال الفرقة والاختلاف، وزعزع عماد أُلفتها إلى يومنا هذا)، وهذا الكتاب ـ مع الأسف ـ يُدرَّس لأولادنا في المدارس والمناهج العلمية، هذا كاتب إسلامي يُفترض أنَّه يؤرِّخ لتاريخ الأمم الإسلاميّة، ويضيف: (وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة ـ حادثة كربلاء ـ لا يريدون بذلك إلاَّ أن تشتعل النيران في القلوب فيشتدّ تباعدها، غاية ما في الأمر أنَّ الرجل ـ يعني الحسين عليه السلام ـ طلب أمراً لم يُهيَّأ له، ولم يَعدّ عُدَّته، فحيل بينه وبين ما يشتهي، وقُتِل دونه، وقبل ذلك قُتل أبوه... فإنَّه خالف يزيد وقد بايعه الناس، ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العُسف)[1]!!

بحمد الله تعالى وبجهود علماء الشيعة فقد بقيت مدرسة أهل البيت عليهم السلام ونورهم مشعّاً، ولو أتيح لأمثال هؤلاء الكتّاب أن يبيدوا هذه المجالس الحسينية والكتب الشيعيّة لفعلوا؛ لأنَّ هذه القضيّة ـ بحسب زعمهم ـ تُثير الفتن، أمَّا قَتل الحسين عليه السلام وهو سيّد شباب أهل الجنّة فإنَّه لا يثير الفِتن!! وهدم الكعبة من قِبَل يزيد هذه ليست فتنة!! هذا هو التفكير الظُلامي، وإلى اليوم نشهد هذه الأفكار

(١) أنظر: الغدير ٣: ٢٥٨ و٢٥٩.

الظُلامية ضدّ الحسين عليه السلام وشيعة الحسين، ولم تكن أهداف الحسين عليه السلام شيعية ولا أهدافاً سُنّية، بل كانت أهدافاً إسلاميّة، بل وحتّى أوسع من الأهداف الإسلاميّة، فهي كانت أهدافاً إنسانية.

يقول الإمام الحسين عليه السلام: «إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي صلى الله عليه وآله، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردَّ عليَّ هذا أصبر حتَّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ وهو خير الحاكمين»[1]، هذه هي أهداف الحسين عليه السلام.

المرونة في السياسة الإسلاميّة:

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«وَاللَّـهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاكِهَا عَلَى أنْ أعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَم جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا، مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيم يَفْنَى وَلَذَّةٍ لا تَبْقَى، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْل وَقُبْح الزَّلَل، وَبِهِ نَسْتَعِينُ»[2].

هناك سؤال: ما هو موقع المرونة السياسية في الإسلام؟

هل أنَّ الإسلام يقبل بشيء اسمه المرونة السياسية؟

حينما نتحدَّث عن مبدئية قصوى، فهل يعني ذلك أنَّ الإنسان يكون متصلّباً إلى درجةٍ بحيث لا يَقبل أيّة مرونة، وقد يؤدّي هذا

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩ و٣٣٠.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٢١٨/ ح ٢٢٤.

التصلّب إلى فشل الموقف؟ السياسة الإسلاميّة التي يرسمها الإمام علي عليه السلام في كلّ الحقول هل هي سياسة متصلّبة؟ أم فيها مرونة؟

وهذا بحث عن موقع المرونة في السياسة الإسلاميّة.

هذا المقطع الذي قرأته عليكم من كتاب الإمام علي عليه السلام متى كان؟ ومع من؟ كان مع شخص جاء للإمام علي عليه السلام بهديةٍ، لكن الإمام عليه السلام فَهِمَ الأمر على أنَّه ليس هدية، وإنَّما هو رشوة يريد أن يستدرج بها الإمام علياً عليه السلام لمصالح وغايات سياسية، فلو كانت الهدية من صديق فلا مشكلة في قبولها، لكن الهدية حين يَشِمُّ الإمام منها رائحة الرشوة، إذن يجب أن يحذر منها؛ لأنَّ من ورائها حكماً بالباطل.

يقول الإمام عليه السلام: «وأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا.

فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ؟

فَقَالَ: لاَ ذَا وَلاَ ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ.

فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ، أَعَنْ دِينِ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي، أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ، أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟! وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ...»[(١)].

هذه هي ظاهرة المبدئية القصوى.

وسؤالنا اليوم عن السياسة الإسلاميّة، سواءً في البيت، أو في المحل، أو مع جيرانك، وما شاكل ذلك: هل هناك مرونة أم لا؟

ومن ناحية ثانية: هل تقبل مناورة أم لا؟

ما هو موقع المناورة في السياسة الإسلاميّة؟

---

(١) المصدر السابق.

المرونة أم المناورة؟

يجب أن نميِّز بين ما هو مناورة ومرونة.

لا شكَّ أنَّ المناورة أمر مقبول بشرط أن لا يتحوَّل إلى دجل أو خداع، أو إلى سياسة نفعية.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام بالنصّ المعروف:

«وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْ لاَ كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أدْهَى النَّاس، وَلَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ، وَلِكُلّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلاَ أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ»[(١)]، أي إنَّني لا تضيع عليَّ المكائد، ولكن لا أستطيع أن أقابلها بالمثل.

هذا هو معنى المبدئية القصوى.

والسؤال حينئذٍ: ماذا يقول الفقه عن المناورة والمرونة؟

أذكر هنا عدّة قضايا بهدف استكشاف النظرية الإسلاميّة:

القضيّة الأولى: وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق، فالمناورة لا يجوز أن تكون على حساب ذلك.

القضيّة الثانية: وجوب الصدق والابتعاد عن الكذب في المناورة.

القضيّة الثالثة: وجوب احترام حقوق الآخرين، فلا تجاوز على حقوق الأبرياء، فالتجاوز ليس مناورة، وإنَّما هذا خداع وعدوان لا يرضى به الإسلام.

---

(١) نهج البلاغة ٢: ١٨٠/ ح ٢٠٠.

القضيّة الرابعة: في حال الحرب يجوز الكذب والخداع العسكري، لأنَّ «الحرب خدعة»[١].

لماذا لم يَقتل ابن ملجم؟

هناك سؤال مطروح: لماذا لم يقتل الإمام علي عليه السلام في سياسته المبدئية القصوى ابن ملجم وهو يعلم أنَّه قد نوى له شرّاً وتأبَطَ سيفاً يريد أن يقتله به؟

لماذا لم يعتقله على الأقلّ؟

فهل المبدئية القصوى لم تسمح للإمام علي عليه السلام أن يقتل (ابن ملجم)؟

والقصَّة معروفة أنَّ الإمام علياً عليه السلام حينما دخل المسجد ليلة شهادته رأى ابن ملجم قد نام على بطنه وتحته سيف، وقد عَلِم الإمام علي عليه السلام ذلك، وقال له: «لقد هممت بشيء تكاد السماوات يتفطَّرن منه، وتنشقُّ الأرض، وتخرُّ الجبال هدّاً، ولو شئت لأنبأتك بما تحت ثيابك»[٢].

هناك عدّة تصوّرات في الجواب على هذا السؤال:

التصوّر الأوّل: أنَّ الإمام علياً عليه السلام لا يعلم الغيب، ولا يعلم أنَّ ابن ملجم يحمل سيفاً يريد أن يقتله به.

ولكن هذا التصوّر غير صحيح؛ لأنَّ الثابت عندنا في التأريخ أنَّ الإمام علياً عليه السلام كان يعلم الحقيقة، يعلم أنَّ هذه الليلة هي ليلة شهادته، ويعلم أنَّه سيستشهد على يد هذا الرجل كما أخبره بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) عن إسحاق بن عمّار عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام: «أنَّ علياً عليه السلام كان يقول: لئن تخطفني الطير أحبُّ إليَّ من أن أقول على رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يقل، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في يوم الخندق: الحرب خدعة. يقول: تكلّموا بما أردتم». (تهذيب الأحكام ٦: ١٦٣/ باب أنَّ الحرب خدعة/ ح ١).

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٢٨١.

إذن القول بأنّ الإمام علياً عليه السلام كان غافلاً وجاهلاً هو قول غير صحيح.

التصوّر الثاني: أنّ الإمام علياً عليه السلام ما كان يحتاط لنفسه أمنياً، ولا يحذر من مكر العدوّ رغم شجاعته الفائقة، ولو كان يحذر لما خرج إلى المسجد تلك الليلة، بل كان عليه أن يعتقل (ابن ملجم)، أو يبعث قبله حرساً يفتّشون المسجد ويفتّشون النائمين فيه، ولكنَّه لم يبال بذلك كلّه.

وهذا التصوّر أيضاً غير صحيح؛ لأنّ الاحتياطات الأمنية هي واجبة شرعاً، كما أنَّها جزء من حنكة القائد العسكري والسياسي. فكيف لا يحتاط علي عليه السلام في مثل تلك الظروف الخطرة والتي كان يتحدَّث عنها الإمامُ عليه السلام عندما سهر في تلك الليلة وأكثر الخروج والنظر إلى السماء بقوله: «والله ما كَذِبت ولا كُذّبت، وإنَّها الليلة التي وعدت بها»[1]، فهو يعرف أنّ الظروف خطرة، فكيف نفترض أنّ الإمام علياً عليه السلام في هذه الظروف لا يستخدم الحكمة ولا يحتاط في قضيّة عسكرية مهمّة، والحقيقة أنّ الإمام كان معروفاً بشدّة الحذر في المعارك، ففي معركة أُحُد حينما طلبت هند من وحشي أن يقتل أحد الثلاثة: (محمّد صلى الله عليه وآله، أو علي، أو حمزة) فقال وحشي:

(أمّا محمّد فلا حيلة لي فيه؛ لأنّ أصحابه يطيفون به، وأمَّا علي فإنَّه إذا قاتل كان أحذر من الذئب، وأمّا حمزة فإنّي أطمع فيه؛ لأنَّه إذا غضب لم يبصر بين يديه)[2]؛ حمزة كان بطلاً عملاقاً، لكن احتياطه العسكري ضعيف، لا ينتبه لجوانب الغدر، وبالفعل قَتَلَ وحشي حمزة.

إذن هذا التصوّر غير صحيح أيضاً.

(١) الإرشاد ١: ١٦.

(٢) الإرشاد ١: ٨٣.

ويبقى السؤال: ما هو السبب في أنَّ الإمام علياً عليه السلام أقدم تلك الليلة على الحضور إلى المسجد ولم يقتل ابن ملجم؟

هناك جواب عريض يذكره علماؤنا، ليس في هذا الموقع فحسب، بل في أكثر من موقع، مثل قصَّة الإمام الرضا عليه السلام حينما أكَلَ العنب المسموم الذي قدَّمه المأمون، وهو يعلم بأنَّ العنب مسموم، وهنا يمكن الإجابة على ذلك بأنَّه: (الخضوع للتقدير الإلهي).

الحسين عليه السلام كان يعلم أنَّه سيقتل في كربلاء، لكن هذا التقدير الإلهي مُخبَر به عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فلا بدَّ أن يخضع للتقدير الإلهي.

والإمام علي عليه السلام كان يعلم أنَّ هذا تقدير إلهي أن يُضرَب فجر يوم التاسع عشر من شهر رمضان، وأن يكون مقتله على يد ابن ملجم، وهذا هو ما نسمّيه: (الخضوع للتقدير الإلهي)، وهذا هو تكليفه، وهكذا فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لديه القدرة على أن يستفيد من الملائكة في النصر لكنَّه كان يعتمد على القدرات البشرية.

وهكذا الإمام الحسين عليه السلام حيث تقول الرواية: إنَّه هبطت ملائكة من السماء لنصرته، فأبى عليه السلام أن يستفيد منهم لنصرته[1]، فالقضيّة يجب

---

(١) في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لمَّا سار أبو عبد الله الحسين بن علي عليهما السلام من مكّة ليدخل المدينة لقيه أفواج من الملائكة المسوّمين والمردفين في أيديهم الحراب على نجب من نجب الجنّة، فسلَّموا عليه وقالوا: يا حجّة الله على خلقه بعد جدّه وأبيه وأخيه، إنَّ الله عزَّ وجلَّ أمدَّ جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله بنا في مواطن كثيرة، وإنَّ الله أمدَّك بنا. فقال لهم: الموعد حفرتي وبقعتي التي أستشهد فيها وهي كربلاء، فإذا وردتها فأتوني، فقالوا: يا حجّة الله، إنَّ الله أمرنا أن نسمع لك ونطيع، فهل تخشى من عدوّ يلقاك فنكون معك، فقال: لا سبيل لهم عليَّ ولا يلقوني بكريهة أواصل إلى بقعتي» اللهوف في قتلى الطفوف: ٤١.

أن تخضع للتقديرات الإلهية، ووفقاً للسياقات الطبيعية، وبعيداً عن استخدام الغيب. ولهذا كان الإمام علي عليه السلام يسلّم تسليماً، والأئمّة عليهم السلام كلّهم كانوا يسلّمون تسليماً، فهذا هو الخضوع للتقدير الإلهي.

موقفه من طلحة والزبير:

سؤالٌ آخر حول المبدئية القصوى التي استخدمها الإمام علي عليه السلام حول موقفه من طلحة والزبير؟

لقد جاءه طلحة والزبير يريدان منه الإذن للذهاب للعمرة، فقال عليه السلام لهما: «ما العمرة تريدان، وإنَّما تريدان الغدرة»[١].

لكن من حقّنا أن نسأل: لماذا لَم يعتقلهما؟ لماذا أذن لهما؟ لقد ذهبا إلى مكّة وفيها التحقا بعائشة فعبّئوا القوّات وجاءوا لحرب الإمام، وسالت دماء ودماء إلى أن انتصر عليهم الإمام، وهنا يسأل سائل: أيّ انفتاح وأيّة سياسة يتعامل بها الإمام علي عليه السلام مع خصومه بهذا الشكل من الحرّية؟ لماذا لم يلق عليهم القبض؟ فهل المبدئية القصوى أن يتعامل معهم بكلّ هذه الحرّية؟

هناك عدّة أجوبة افتراضية:

الجواب الأوّل: جهل الإمام:

أنَّ الإمام عليه السلام ما كان يعلم بمكيدة طلحة والزبير.

وهذا الجواب خطأ؛ لأنَّ النصوص الثابتة تاريخياً أنَّ الإمام كان يعلم، بل

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ٢٣٢.

كان رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بذلك[1]، وبقطع النظر عن ذلك فإنَّ القضيّة كانت مكشوفة للمراقب السياسي، ومن طيّات كلامهم، ومن خطّهم الواضح أنَّهم ذاهبون إلى مؤامرة، فلا نستطيع أن نقول: إنَّ الإمام لم يكن يعلم.

الجواب الثاني: الحرّية السياسية:

أنَّ الحرّية السياسية في الإسلام لا تقبل اعتقال هؤلاء ولا منعهم من السفر.

وهذا الجواب أيضاً غير صحيح؛ لأنَّ الحرّية السياسية في الإسلام لا تقبل الخروج على القانون، ولا تهديد مصالح الأمّة. ونظام الحكم في الإسلام يسمح لك، بل يفرض عليك في مواضع التهمة أن تتَّخذ إجراءات احترازية. فلا توجد حرّيات مطلقة في الإسلام، العالم اليوم ينادي بالحرّيات المطلقة، لكن مع ذلك هناك احتياطات أمنية واحتياطات عسكرية، فمنعهم من السفر من باب الاحتياط الأمني لكنَّه عليه السلام لم يفعل ذلك.

الجواب الثالث: الخيارات الواقعية:

أنَّ المسألة ليس في مدى الحرّية في الإسلام، بل هي مسألة (الخيارات الواقعية). أنَّ الإمام علياً عليه السلام يحلّل المواقف سياسياً وخارجياً، أنَّه لو منعهم من السفر ماذا كان سيحدث، فالحدود مفتوحة، ورحيلهم وهربهم بسيط، فهناك واقعيّات، الإمام علي عليه السلام خيَّر نفسه بأن

(١) روي أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قال في أثناء خطبة خطبها بعد فتح البصرة بأيّام حاكياً عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «يا علي، إنَّك باقٍ بعدي، ومبتلى بأمّتي، ومخاصم بين يدي الله، فأعدد للخصومة جواباً، فقلت: بأبي وأُمّي أنت، بيِّن لي ما هذه الفتنة التي ابتلى بها؟ وعلى ما أجاهد بعدك؟ فقال لي: إنَّك ستقاتل بعدي الناكثة، والقاسطة، والمارقة، وحلاهم وسمّاهم رجلاً رجلاً» الاحتجاج ١: ٢٨٩ و٢٩٠.

يمنعهم لكن بدون جدوى، يعتقلهم ويكون هو سبباً في إثارة مشكلة، وستكون دعاية إعلامية بأنَّه عليه السلام اعتقل صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله. فلا يمكن أن يعتقلهم، ولا يمكن أن يمنعهم، والقضيّة الطبيعية أن يتركهم لشأنهم، وهذه نسمّيها: الخيارات الواقعية.

إذن هناك مبدئية قصوى، وهناك مناورة ممكنة في الإسلام، شريطة أن لا تبلغ حدَّ الخداع والكذب والتجاوز على الحقوق كما يمارسه الساسة البعيدون عن الإسلام.

لماذا فشلت التجربة الشيعيّة؟

وسؤال ثالث قد يطرح وهو: لماذا فشلت التجربة العلوية؟

لقد حكم الإمام علي عليه السلام خمس سنوات مليئة بالحروب، ثمّ انتهت بمقتله وتسلَّط معاوية على الشام والبصرة ومصر، الأمر الذي يسمح بالقول: إنَّ التجربة العلوية فشلت.

ثمّ يتطوَّر هذا السؤال: لماذا فشلت التجربة الشيعية على طول التاريخ؟ فهل المقدَّر للشيعة وأهل البيت عليهم السلام أن لا ينجحوا؟

الجواب فيه عدّة تصوّرات افتراضية:

الجواب الأوّل: إشكالية في الفكر الشيعي:

أنَّ هناك إشكالية في الفكر الشيعي، وهي أنَّه فكر مثالي لا يمكن أن ينجح على الأرض، الفكر الذي يبحث عن الحاكم العامل بكتاب الله، القائم بالقسط، وهذا غير موجود على الأرض، فهذه نظرية مثالية نتيجتها الفشل، وهكذا النظرية الشيعية في الممارسة السياسية التي تفرض الابتعاد عن الكذب، والخداع، والمنسوبيات، والإغراء بالمال، والدعاية

الكاذبة، وما شاكل ذلك، مما تفرضه السياسة الواقعية، هذا شيء مثالي لا يمكن السير فيه.

نحن نعتقد أنَّ هذا الجواب غير صحيح، ولو كان هذا الكلام صحيحاً لما انتصر رسول الله صلى الله عليه وآله وأسَّس الدولة الإسلاميّة، ولما انتصر الإمام علي عليه السلام وحكم خمس سنوات، نحن نعتقد أنَّ الفكر الشيعي هو فكر واقعي وليس مثالياً.

الجواب الثاني: إشكالية في الخطاب الشيعي:

أنَّ هناك إشكالاً في الخطاب الشيعي، بأنَّه خطاب يتَّصف بقوّة الطرد، ولا يتمتَّع بقوّة الجذب، والناس يريدون خطيباً، أو شاعراً، أو قائداً يجذب الناس، فإذا فشل الخطاب الإعلامي فإنَّ هذا القائد سيفشل حتماً.

مثلاً: عندما جاء ابن زياد إلى الكوفة، ماذا قال للناس؟

جمع ابن زياد الناس في جامع الكوفة، ثمّ خرج فصعد المنبر، ثمّ قال: أيّها الناس، إنَّكم بلوتم آل أبي سفيان فوجدتموهم كما تحبّون، وهذا أمير المؤمنين يزيد قد عرفتموه حسن السيرة، محمود الطريقة، محسناً إلى الرعية، ... وقد زادكم في أرزاقكم مائة مائة، وأمرني أن أوفّرها عليكم وأخرجكم إلى حرب عدوّه الحسين، فاسمعوا له وأطيعوا.

ثمّ نزل عن المنبر ووفَّر الناس العطاء، وأمرهم أن يخرجوا إلى حرب الحسين عليه السلام، ويكونوا عوناً لابن سعد على حربه[1].

فاطمئنَّ الناس إلى ذلك وفرحوا به، فهو بذلك قد اشترى عواطفهم وضمائرهم.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٥ و٣٨٦.

لكن الحسين عليه السلام ماذا قال؟

قال: «من لحق بي استشهد، ومن تخلَّف عنّي لم يبلغ الفتح»(١).

وقال: «ألا ترون أنَّ الحقّ لا يُعمَلُ به، وأنَّ الباطل لا يُتناهى عَنه، لِيرغَبَ المؤمن في لقاء الله محقّاً، فإنّي لا أرى الموتَ إلاَّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاَّ بَرَماً»(٢).

الإمام الحسين في أوّل خطابه يكشف الحقيقة للناس، أنَّه سوف لن ينتصر عسكرياً، وإنَّما هو ذاهب إلى الشهادة، ومن الطبيعي أنَّ هذا النمط من الخطاب لا يقبله إلاَّ القليلون. وهذه هي إشكالية الخطاب الشيعي بحسب هذا الجواب الثاني.

ولكن هذا الجواب أيضاً غير صحيح، فليست المشكلة عندنا وعلى طول التاريخ هي أزمة الخطاب الإعلامي، وأنَّه خطاب غير قادر على الجذب، فالإمام الحسين عليه السلام ـ إذا تحدَّثنا بشكل واقعي ـ استطاع أن يعبّئ الآلاف المؤلَّفة ضدّ الحكم الأموي، ولا يزال الخطاب الإعلامي للحسين عليه السلام وإلى اليوم خطاباً مؤثّراً وقويّاً وفاعلاً، رغم أنَّ الحسين خَسِرَ المعركة العسكرية؛ لأنَّ الحسين عليه السلام لم يكن يخطّط لتحقيق كسب عسكري، وأمير المؤمنين عليه السلام كان أكثر إنسان براعةً في الخطاب الإعلامي، حيث لا يوجد وباتّفاق كلّ العرب من هو أقدر على الخطاب الإعلامي من أمير المؤمنين عليه السلام، وهذا (نهج البلاغة) يقرؤه السياسيون والأدباء والشعراء، فيشهدون أنَّه أروع خطاب إعلامي، فالمشكلة إذن ليس في طاردية الخطاب الشيعي وعدم جاذبيته وإنَّما هناك جواب ثالث هو الذي نعتقد به.

---

(١) دلائل الإمامة: ١٨٨/ ح (١٢/١٠٧).

(٢) تحف العقول: ٢٤٥.

الجواب الثالث: إشكالية الطبيعة البشرية:

أنَّ الإشكال في الطبيعة البشرية التي يتحدَّث عنها القرآن الكريم قائلاً: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة: ١٣)، فهي أقرب إلى اتّباع الهوى من اتّباع العلم، فالدين مِثل العلم، والناس في المعظم لا يريدون العلم. أكثر الناس ليس من همومهم الدراسة والعلم ومعرفة الحقيقة، العلماء قليلون، سواءً في مجال الدين أو في كلّ المجالات، وهكذا الفنّ، فلا نتصوَّر أنَّ الناس كلّهم أصحاب فنّ، فأصحاب الفنّ قلائل، وأكثر الناس متفرّجون. في كرة القدم الفريق أحد عشر شخصاً، لكن المتفرّجين عشرات الآلاف، فهؤلاء العشرة آلاف ليس لديهم قدرة فنّية، وليس عندهم قدرة رياضية، أهل الفنّ قليل، لكن المتفرّج على الفنّ كثير، أهل العلم قليل، والمتفرّجون على العلم كثير، كذلك الدين هو ضرورة بشرية، لكن كثيراً من الناس لا يخضعون لتعاليم الدين.

هذا التحليل في تفسير قِلّة أصحاب الحقّ وكثرة أهل الباطل هو الذي ذكره الإمام الحسين عليه السلام حينما خطبَ أصحابه ليلة عاشوراء قائلاً:

«إنَّ الناس عبيد الدنيا، والدين لَعِقٌ على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا مُحّصوا بالبلاء قلَّ الديّانون»[1]، يعني أنَّ المشكلة ليست هي مشكلتي أنا الحسين، وإنَّما المشكلة هي مشكلة الطبيعة البشرية، ﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة: ١٣)، هذه هي مشكلة الطبيعة البشرية، ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾ (المعارج: ١٩ و٢٠)،

(١) تحف العقول: ٢٤٥.

ومع ذلك فهل نجعل مشروع الدين فاشلاً؟ هذا بحث نؤجّله، وننتقل إلى الإمام الحسين عليه السلام.

الشيعة ثلاثة أصناف:

١ ـ أصحاب الحسين عليه السلام.

٢ ـ أتباع الحسين عليه السلام.

٣ ـ أحباب الحسين عليه السلام.

أصحاب الحسين عليه السلام هم قِلَّة، وأتباعُ الحسين عليه السلام أكثر منهم بقليل، ولكن أحباب الحسين كثيرون، هذه مراتب ومستويات. وكلّهم شيعة، فالذين هم بمستوى أصحاب الحسين عليه السلام هم أولئك المخلصون الأتقياء الورعون، وأمَّا أتباع الحسين فهم بنفس الطريق، لكن لا يصِلون إلى مستوى الأصحاب، وأمَّا المحبّون فهم الذين يحبّون الحسين عليه السلام دون أن يلتزموا بتفاصيل المواقف الشرعية التي يريدها الحسين عليه السلام، وهؤلاء هم أكثر الناس.

الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إنَّ اللهَ يحبُّ من عباده المُفتَن التوّاب»[1]، فهو من أهل الإيمان لكنَّه مرتكب للمعصية، والدين في الحقيقة ينفتح على هؤلاء ويقبلهم ولا يرفضهم إذ يهمّه أن يحقّق ما نُسمّيه بـ(الأهداف الوسطية)، لأنَّه يريد أن يرقى بالمجتمعات إلى مستوى أخلاقي مناسب، وإن لم يصل إلى المستوى المثالي، هذا هو طموح الدين، وهذا هو عمل الأنبياء، ولولا هذا العمل لما بقيَ شيء من القِيَم.

العالم اليوم ينادي بحقوق الإنسان، وهذه قيمة مهمّة، وإذا عُدنا

(١) الكافي ٢: ٤٣٢/ باب التوبة/ ح ٤.

إلى العراق فقد عمل الخطّ الديني حتَّى فَرض على صدام أن يُعلن الحَملة الإيمانية، ونحن نعرف أنَّ صدام أبعد ما يكون عن الدين.

إذن فقد حقَّق الدين وحقَّق الخطاب الديني ـ والشيعي بالخصوص ـ هدفاً كبيراً، لقد بقيَ الدين في العراق مستحكماً، وإنَّ من يدخل العراق اليوم يقول: إنَّ العراق شعبٌ ملتزم، وبقيَ المسلمون إلى حدٍّ كبير لديهم التزام ديني، رغم أنَّ هناك أخطاء وانحرافات.

الدنمارك حينما رَسَمَت كاريكاتوريات ساخرة لرسول الله صلى الله عليه وآله فإنَّ العالم الإسلامي كلّه تحرَّك غيرةً ودفاعاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهؤلاء المسلمون ليس بالضرورة أنَّهم يصلّون صلاة الليل، ولعلَّ لديهم الكثير من المشاكل الدينية، لكن بَقيَ جذر الارتباط بالقِيَم وبالنبيّ صلى الله عليه وآله محفوظاً، وهذا كلّه فيما نتصوَّر جواباً على سؤال: لماذا فشلت التجربة العلوية؟

إنَّ التجربة العلوية والحسينية والشيعية لم تفشل، بل هي التي حفظت هذا الجذر الديني لدى الناس.

إنَّ تجربة الحسين عليه السلام لم تفشل، أنظروا إلى معاوية ماذا صنع؟ ثمّ قدِّروا الموقف، لولا حركة الإمام الحسين عليه السلام هل كان يبقى الدين والإسلام والتشيّع إلى اليوم؟

خطط معاوية:

معاوية استخدم بعد التحكيم:

أوّلاً: الحصار الإعلامي ضدّ أهل البيت عليهم السلام.

ثانياً: القتل الجمعي للشيعة.

ثالثاً: ملاحقة قادة الشيعة.

رابعاً: اعتقال نساء الشيعة.

خامساً: هدم دور الشيعة.

سادساً: سياسة التجويع بإسقاط العطاء عن الشيعة.

سابعاً: التهجير القسري لشيعة علي عليه السلام.

هذه سبع خطوات استخدمها معاوية.

أوّلاً: الحصار الإعلامي:

يذكر ابن أبي الحديد المعتزلي في كتابه (شرح نهج البلاغة)[1]: (أنَّ معاوية كتب نسخة واحدة إلى عمّاله: أن برئت الذمّة ممَّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كلّ كورة وعلى كلّ منبر يلعنون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سميّة، وضمَّ إليه البصرة، فكان يتتبَّع الشيعة وهو بهم عارف؛ لأنَّه كان منهم أيّام علي عليه السلام، فقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسَمَل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وشرَّدهم عن العراق.

وكتب معاوية أيضاً إلى عمّاله في جميع الآفاق ألاَّ يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم أن أُنظروا من قِبَلِكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم، وقرِّبوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكلّ ما يروي كلّ رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ففعلوا ذلك حتَّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لِما كان يبعثه إليهم معاوية من الصِلات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١: ٤٤ - ٤٦.

منهم والموالي، فكثر ذلك في كلّ مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلاَّ كتب اسمه وقرَّبه وشفَّعه، فلبثوا بذلك حيناً.

ثمّ كتب إلى عمّاله: أنَّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كلّ مصر وفي كلّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاَّ وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإنَّ هذا أحبُّ إليَّ وأقرُّ لعيني، وأدحض لحجّة أبي تراب وشيعته، وأشدُّ عليهم من مناقب عثمان وفضله.

فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدَّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتَّى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلّمي الكتاتيب فعلَّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع، حتَّى رووه وتعلَّموه كما يتعلَّمون القرآن، وحتَّى علَّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق ولاسيّما بالكوفة، حتَّى إنَّ الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقي إليه سرّه ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدّثه حتَّى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنَّ عليه، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القرّاء المراءون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك، فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتَّى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديّانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان. فقبلوها ورووها وهم يظنّون أنَّها حقّ. ولو علموا أنَّها باطلة لما رووها ولا تديَّنوا بها).

ثانياً: القتل الجمعي:

بِسر بن أرطاة قائد واحد في جيش معاوية قتل ثلاثين ألفاً من شيعة العراق، وحرَّق قوماً بالنار[١].

والآخر هو سَمَرَة بن جندب قتل ثمانية آلاف من أهل البصرة كلّهم من شيعة علي[٢].

وهذه روايات لم يروها كتّابنا وتاريخنا فقط، وإنَّما يرويها كتّابهم ومؤرِّخوهم.

ثالثاً: ملاحقة القادة واعتقالهم وقتلهم:

مثل حجر بن عدي، ورشيد الهجري، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وغيرهم.

رابعاً: ملاحقة واعتقال النساء:

معاوية أوّل من بدأ بهذه السُنّة، كما فعل مثلاً بآمنة بنت الشريد زوجة عمرو بن الحمق الخزاعي[٣]، وغيرها.

---

(١) راجع: الغارات ٢: ٦٣٩؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ١٧.

(٢) ذكر الطبري في تاريخه (ج ٤/ ص ١٧٦): أنَّ محمّد بن سليم قال: سألت أنس بن سيرين: هل كان سمرة قتل أحداً؟ قال: وهل يُحصى من قتل سمرة بن جندب! استخلفه زياد على البصرة وأتى الكوفة، فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس، فقال له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟ قال: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت.

(٣) ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق (ج ٦٩/ ص ٤٠)، وقال: كانت تحت عمرو بن الحمق آمنة بنت الشريد، فحبسها معاوية في سجن دمشق زماناً، حتَّى وجَّه إليها برأس عمرو بن الحمق، فألقي في حجرها، فارتاعت لذلك، ثمّ وضعته في حجرها ووضعت كفّها على جبينه ثمّ لثمت فاه، ثمّ قالت: غيَّبتموه عنّي طويلاً ثمّ أهديتموه إليَّ قتيلاً، فأهلاً بها من هدية غير قالية ومقلية.

خامساً: هدم دور الشيعة:

ويذكر المعتزلي أيضاً في (شرح نهج البلاغة)(١) يقول: (ثمَّ كتب معاوية إلى عمّاله نسخة واحدة: من اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به، واهدموا داره).

والشيعة ليسوا في الكوفة فقط، بل في العراق ومصر، وتصوَّروا بعدئذٍ كيف استطاع الشيعة أن يحافظوا على أنفسهم إلى اليوم.

سادساً: سياسة التجويع:

وكتب معاوية نسخة أخرى إلى جميع عمّاله: (اُنظروا إلى من قامت عليه البيّنة أنَّه يحبُّ علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان واسقطوا عطاءه ورزقه)(٢).

سابعاً: سياسة التهجير:

قبل (١٤٠٠) عاماً استخدم معاوية سياسة التهجير.

الباحث المستشرق (كارل بروكلمان) في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلاميّة) يذكر هذا الخبر، أنَّ زياد بن أبيه وكان والي معاوية على الكوفة هجَّر وأجلى خمسين ألفاً إلى خراسان.

وهم الشيعة في الكوفة، وطبعاً فقد جاء مكانَهم آخرون، هذه هي سياسة التهجير لمجرَّد حبِّهم لعلي عليه السلام.

أمام مثل هذا الضغط العجيب، الحصار الإعلامي، التهجير، قطع العطاء، الإعلام المضاد، ملاحقة القادة، القتل الجمعي، ملاحقة النساء، أمام مثل هكذا وضع كيف استطاع التشيّع أن يبقى إلى اليوم في العراق؟

كان ذلك معجزة، وهذا شيء يدلّل على نجاح الخطاب الشيعي

---

(١) راجع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١: ٤٥.

(٢) المصدر السابق.

والفكر الشيعي، ونجاح أئمّتنا عليهم السلام ونجاح سياستهم، ولولا تلك السياسات ما كان يمكن أن يبقى التشيّع في العراق، فهو لم يبقَ في بلاد الشام، ولا بلاد الأندلس، ولا مصر، بل بقي في العراق.

واليوم هناك امتداد حقيقي لمذهب أهل البيت عليهم السلام في العالم العربي والإسلامي. وهذا الامتداد في الحقيقة لم يكن فارسياً، ونحن ندري بأنَّ إيران بلغتها الفارسية غير قادرة على تحقيق هذا الانتشار، فهم مفروض عليهم حصار لغوي لا يمكّنهم الامتداد إلى تونس، والمغرب، والجزائر، وليبيا، وغيرها.

العالم العربي اليوم يقرأ كتب التيجاني. وكتب عبد الحسين شرف الدين. وكتب السيّد محمّد باقر الصدر، لكن أعداء التشيّع لا يستطيعون أن يقولوا: إنَّ هذا هو مدّ أهل البيت عليهم السلام، بل يقولون: إنَّ هذا مدٌّ فارسي، أو صَفوي، وما شاكل ذلك.

فبرغم كلّ الإعلام المضاد فإنَّ هذا الفكر يتقدَّم في العالم الإسلامي، بحيث إنَّ مثل الشيخ القرضاوي رئيس الاتّحاد العالمي لعلماء الإسلام وفي مؤتمر دولي يقول: إنَّ المدَّ الفارسي ـ وهو يقصد المدَّ الشيعي ـ يغزو الدول العربية!!، الحقيقة أنَّ هذه ليست قدرة أموال، هذه قدرة خطاب، فنحن الشيعة ليس لدينا سياسة معاوية ولا أموال معاوية، هذا الفكر وهذا الخطاب هو الذي أبقى التشيّع حيّاً إلى اليوم، وأبقى هذه التجربة ناضجة وأصبحت تفرض نفسها على العالم.

لماذا ثار الحسين عليه السلام؟

هنا سؤال يقول: إنَّ الإمام علياً عليه السلام قد أحجم عن رفع السلاح عندما غُصبت الخلافة منه، فما هو سبب إقدام الحسين عليه السلام على رفع السلاح ضدّ الحكم الأموي؟

هذا بحث يحتاج إلى توسّع، فالحقيقة أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كانت ثورته بالأصل سلميّة وليست ثورة مسلّحة، فالإمام الحسين عليه السلام لم يرفع السلاح إلاَّ حين عرَّضوه للقتل. فالإمام الحسين عليه السلام في آخر لحظة وحينما جاء إليه أبو الفضل العبّاس عليه السلام وقال له: يا أخي، هل من رخصة _ بالقتال _، فقد ضاق صدري وسئمت الحياة، وأريد أن أطلب ثأري من هؤلاء المنافقين.

فبكى الحسين عليه السلام بكاءً شديداً، ثمّ قال: «يا أخي، أنت صاحب لوائي، وإذا مضيت تفرَّق عسكري، فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء»[1].

فإصرار الإمام الحسين عليه السلام على أن لا يشهر السلاح، ولا يبدأ بقتال، وإذا كان ولا بدَّ فليكن الهدف هو طلب الماء، وحينما يتعرَّض إلى قتال سيكون الدور هو دور دفاعي، الأمر الذي يؤكّد أنَّ حركة الحسين عليه السلام كانت بالأصل حركة تغيير سلمي يعتمد على تحشيد القوى الجماهيرية ورفضها للحكم الجائر.

أدوات الثورة الحسينية:

قال الإمام الحسين عليه السلام عند نزوله أرض كربلاء في الثاني من محرَّم الحرام:

«ألا ترون أنَّ الحقّ لا يُعمل به، وأنَّ الباطل لا يُتناهى عُنه، لِيَرَغَبَ المؤمنُ فِي لِقاء اللهِ، فإنّي لا أرى الموتَ إلاَّ سعادة، والحياَة مع الظالمين إلاَّ بَرَماً. إنَّ الناس عبيدُ الدنيا، والدينُ لَعِقٌ على ألسِنَتِهِم، يَحوطُونَه ما درَّت بِهِ مَعايشُهُم، فإذا مُحِّصُوا بالبلاء قَلَّ الديّانون»[2].

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤١.

(٢) تحف العقول: ٢٤٥.

الحديث عن التقابل بين اتّجاهين: اتّجاه اصطلحنا عليه بـ(المبدئية القصوى)، واتّجاه اصطلحنا عليه بـ(الانتفاعية القصوى).

كان أهل البيت عليهم السلام يمثّلون (المبدئية القُصوى)، والاتّجاه المقابل الذي هو الاتّجاه الأموي كان يُمثّل (الانتفاعية القُصوى)، ونجد هذين الاتّجاهين على طول التاريخ.

أدوات الخطّ الحسيني:

لكن ما هي أدوات الإمام الحسين عليه السلام؟ وما هي آليات وأجندة الخطّ الحسيني؟، الإمام الحسين عليه السلام كقائد لا بدَّ أن يعبيّ الناس، وهو في هذا السبيل قد استخدم ثلاث أدوات:

الأداة الأولى: كشف الحقيقة:

يومئذٍ لا توجد فضائيات ولا راديو أو جريدة، فالإمام الحسين عليه السلام حاول أن يعبيّ الناس ويستخدم كلّ الفرص التي كانت بالإمكان، فمن جملة الفرص كان حجّ بيت الله الحرام، فالتاريخ يحدّثنا أنَّ الإمام الحسين عليه السلام عقد أضخم مؤتمر في مكّة المكرّمة[1].

هذا الموقف هو ما نُسمّيه بكشف الحقيقة من أجل أن لا تضيع ولا تُطمس؛ لأنَّ الحرب يومئذٍ هي حرب إعلامية، كانت هذه هي الأدوات الإعلامية التي استخدمها الإمام الحسين عليه السلام في واحد من نماذجها.

الأداة الثانية: التوعية السياسية:

قام الإمام الحسين عليه السلام باستقطاب الأنصار من خلال التوعية السياسية، وذلك ببعث الرسائل إلى الكوفة والبصرة وغيرهما من

(١) أنظر (ص ٩٤) تحت عنوان: مؤتمر مكّة.

الأمصار، فكتب عليه السلام مع مولىً لهم يقال له: سليمان، وكتب بنسخة إلى رؤوس الأخماس بالبصرة وإلى الأشراف، فكتب إلى مالك بن مسمع البكري، وإلى الأحنف بن قيس، وإلى المنذر بن الجارود، وإلى مسعود بن عمرو، وإلى قيس بن الهيثم، وإلى عمرو بن عبيد الله بن معمر، فجاءت منه نسخة واحدة إلى جميع أشرافها:

«أمَّا بعد: فإنَّ الله اصطفى محمّداً صلى الله عليه وآله على خلقه، وأكرمه بنبوّته، واختاره لرسالته، ثمّ قبضه الله إليه، وقد نصح لعباده، وبلَّغ ما أرسل به صلى الله عليه وآله، وكنّا أهله وأوليائه وأوصياءه وورثته وأحقّ الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنّا أحقُّ بذلك الحقّ المستحقّ علينا ممَّن تولاّه، وقد أحسنوا وأصلحوا وتحروا الحقّ، فرحمهم الله وغفر لنا ولهم، وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وآله، فإنَّ السُنّة قد أميتت، وإنَّ البدعة قد أحييت، وأن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله»[1].

وقد استجاب له بعض رؤساء العشائر، ومن هؤلاء الذين استجابوا له يزيد بن مسعود النهشلي، فجمع عشيرته والعشائر الأخرى وهيّأهم، واجتمع عنده بنو تميم وبنو حنظلة وبنو سعد. فقال لهم: (... وهذا الحسين بن علي ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ذو الشرف الأصيل والعلم والسابقة والسنّ والقرابة يعطف على الصغير ويحنو على الكبير فأكرم به راعي رعيَّته وإمام قوم وجبت لله به المحجّة وبلغت به الموعظة فلا تعشوا عن نور الحقّ ولا تسكعوا في وهد الباطل فقد كان صخر

(١) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٢٤ - ٢٦.

ابن قيس انخذل بكم يوم الجمل فاغسلوها مع ابن رسول الله ونصرته ولا يقصّر أحدكم عنها إلاَّ أورثه الله الذلّ في ولده، والقلّة في عشيرته...)، ثمّ كتب إلى الحسين عليه السلام:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أمَّا بعد: فقد وصل إليَّ كتابك، وفهمت ما ندبتني إليه ودعوتني له من طاعتك وبنصيبي من نصرتك، وإنَّ الله لم يخل الأرض قطّ من عامل عليها بخير أو دليل على سبيل نجاة، وأنتم حجّة الله على خلقه، ووديعته في أرضه، تفرَّعتم من ديونية أحمدية، هو أصلها وأنتم فرعها، فأقدم سعدت بأسعد طائر، فقد ذلَّلت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشدّ تتابعاً في طاعتك من الإبل الظماء لورود الماء يوم خامسها، وقد ذلَّلت لك رقاب بني سعد، وغسلت درن صدورها بماء سحابة مزن حين استحل برقها فلمع).

لكن المؤرِّخين يقولون: إنَّ هذه الرسالة وَصَلَت إلى الإمام الحسين وهو في كربلاء، ولم يدركه، فقال الحسين عليه السلام بعد أن وصلته الرسالة: «ما لَك؟ آمنك الله يوم الخوف وأعزَّك وأرواك يوم العطش الأكبر».

تقول الرواية: فلمَّا تجهَّز للخروج إلى الحسين عليه السلام بلغه قتله قبل أن يسير، فجزع لذلك جزعاً عظيماً لما فاته من نصرته[1].

الأداة الثالثة: السَبق أو المبادئة:

قام الإمام الحسين عليه السلام باختيار الأرض، واختيار الشعب، واختيار الأسلوب، ولو بقيت المسألة على يزيد ربَّما كان يقتل الحسين عليه السلام وهو في مكّة، أو أن يبعث له سمّاً وهو في المدينة، لكن الإمام الحسين عليه السلام هو الذي

---

(١) أنظر: مثير الأحزان: ١٧ – ١٩.

قام بعملية السَبق في طريقة اختيار المواجهة، فقد أرادها مواجهة مكشوفة، مواجهة معلنة مشهودة، مواجهة فيها حوار مفتوح، مواجهة مظلوم مع ظالم، مواجهة في العراق، وفي كربلاء، وكان هذا هو تخطيط الحسين عليه السلام.

لماذا اختار هذه الأرض؟ واختار هذا الشعب؟ وهذا الأسلوب؟

لماذا لم يختر حرب العصابات؟

لماذا لم يختر عملية لجوء سياسي إلى اليمن أو إلى مصر؟

كانت كلّها بدائل موجودة، لكن الإمام الحسين عليه السلام هو الذي اختار هذا الطريق بدل أن يُقتل بالسّم أو يُقتل غيلةً، هذه هي الأداة الثالثة التي استخدمها الإمام الحسين عليه السلام.

أدوات الخطّ الأموي:

الخطّ الأموي استخدم ثلاث أدوات:

الأداة الأولى: نظرية الموت:

الاتّجاه الأموي استخدم نظرية القمع بلا حدود، حتَّى وصل مستوى القمع إلى درجة أن نادى منادي ابن زياد في الكوفة: ألا برئت الذمّة ممَّن وُجِد في الكوفة لم يخرج لحرب الحسين. فرُئي رجل غريب، فأُحضر عند ابن زياد، فسأله، فقال: إنّي رجل من أهل الشام جئت لدين لي في ذمّة رجل من أهل العراق. فقال ابن زياد: اقتلوه، ففي قتله تأديب لمن لم يخرج بعد!، فقتل[1]. فأصبح الناس يتحدّثون أنَّ هذا الرجل الغريب قد قُتل بتهمة عدم خروجه لحرب الحسين عليه السلام.

كانت هذه سياسة ابن زياد، سياسة القمع بلا حدود.

(١) إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام للسماوي: ٣٠.

الأداة الثانية: شراء الضمائر:

يحدّثنا عن ذلك الوفد الذي التقاه الإمام الحسين عليه السلام حين سألهم عن وضع الناس، فقالوا:

(أمّا أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، ومُلِئت غرائرهم، يُستمال ودّهم، ويُستخلص نصيحتهم، فهم ألبٌ واحدٌ عليك)(١).

الأداة الثالثة: الحرب النفسية:

سياسة التخويف والترويع، فقد خطب ابن زياد أهل الكوفة وقد بايعوا مسلماً بقوله: (أيّها الناس، الحقوا بأهاليكم ولا تعجلوا الشرّ، ولا تعرّضوا أنفسكم للقتل، فإنَّ هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الله الأمير عهداً: لئن تمّمتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيّتكم أن يحرم ذرّيتكم العطاء، ويفرّق مقاتلتكم في مغازي الشام، وأن يأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتّى لا تبقى له بقيّة من أهل المعصية إلاَّ أذاقها وبال ما جنت أيديها)(٢)، فهو يهدّد الناس بجيش الشام، وأن يأخذ البريء بالسقيم، والغائب بالشاهد. وسرت الأحاديث من قِبَل أجهزة السلطة ليقول الناس: (ما لنا والدخول بين السلاطين)، وها هو جيش الشام على الأبواب. هذه حرب نفسية أدَّت إلى هزيمة العراقيين.

لماذا أعرضوا عن أهل البيت عليهم السلام؟

قد يسأل سائل فيقول: قد كانت هذه أدوات الإمام الحسين عليه السلام، وتلك أدوات الخطّ الأموي، وكانت كلّ تلك الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله في منزلة أهل البيت عليهم السلام، كقوله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة،

(١) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٨٨؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٠٦.

(٢) الإرشاد ٢: ٥٣ و٥٤.

وأبوهما خير منهما»[١]، وقوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[٢]، وهذه كلّها معروفة لدى الناس، فلماذا أعرض الناس عن أهل البيت عليهم السلام؟

الجواب:

أوّلاً: أنَّ هذه الحقيقة فقدت نصاعتها لدى الكثير من المسلمين، فكان هناك عملية تضييع وتحريف قام بها إعلام معاوية وما قبله _ وكما هو اليوم أيضاً _ يعني ضُيِّعت، فالحقائق المعروفة لدينا اليوم لا يعرفها كلّ المسلمين، ربَّما يعرفها العلماء، المحقّقون، الباحثون، لكن جيل الشباب في مصر، والسودان، وتونس، والجزائر، وأفريقيا، وأوربا لا يملك ما نملكه نحن شيعة أهل البيت من الوضوح في منزلة أهل البيت عليهم السلام، فالحقيقة تحتاج إلى تمحيص وبحث.

نعم، كلّ المسلمين يعرفون أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى»[٣]، يعرفون ذلك، لكن فسَّره علماؤهم بتفسير آخر أفقده مدلوله الحقيقي.

رسول الله صلى الله عليه وآله حينما قال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»[٤]، جاء علماؤهم وأوّلوا الحديث، وقالوا: إنَّ المولى يأتي بمعنى الناصر أو المُحِبّ، فيكون معنى الحديث من كان يحبّني فليحبّ علياً[٥]. وهكذا ضاعت الحقيقة التي أرادها رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٦/ ح ٥٦؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٦٧.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٧٢/ ح ٢٩٨؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٢٦.

(٣) الكافي ٨: ١٠٧/ باب إذا بلغ المؤمن أربعين سنة/ ح ٨٠؛ صحيح مسلم ٧: ١٢٠.

(٤) أمالي الصدوق: ١٨٤/ ح (١/١٩٠)؛ مسند أحمد ١: ٨٤؛ سنن ابن ماجة ١: / ح ١٢١٤٥.

(٥) راجع: تفسير الرازي ١٢: ٢٨.

ثانياً: ضعف الخضوع للحقيقة، وهذا شيء آخر غير المعرفة، فإنَّ كثيراً من الناس يعرفون الحقيقة لكنَّهم لا يخضعون لها، مثلاً تذهب إلى الهند فترى أطبّاء، فلاسفة، ومهندسين، وأصحاب شهادات عليا، لكنَّهم يعبدون البقر، وتذهب إلى اليونان فتجد ملايين من الكتّاب والمفكّرين يعبدون (بوذا)!؟ عجيب!! نحن اليوم نتحدَّث عن قريش والجاهلية والأصنام التي كانت على الكعبة، لكن في هذا الزمان يوجد من يعبد البقر ويعبد (بوذا)، وهذا تجده حتَّى في أوربا!! هذا هو ضعف الخضوع للحقيقة العلمية، فليس كلّ الناس يخضعون للحقيقة.

القرآن الكريم يقول: هناك أناس في قلوبهم مرض، وهم يعرفون الحقيقة، فعمر بن سعد كان يعرف الحقيقة، ويزيد كان يعرف الحقيقة، لكن معرفة الحقيقة شيء والخضوع لها شيء آخر.

قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ (النمل: ١٤).

ولهذا فإنَّ الإمام الحسين والأئمّة الأطهار عليهم السلام أبلوا بلاءً حَسناً، وبذلوا غاية المجهود في كشف الحقيقة، وفي تربية الناس على الالتزام بها والخضوع إليها.

كيف نفسّر دعاء الحسين عليه السلام على أهل الكوفة؟

هناك سؤال آخر يأتي بنفس السياق _ وحديثنا عن أجندة الإمام الحسين عليه السلام وأدواته وأدوات الخطّ الأموي _ والسؤال هو:

كيف نفسِّر دعاء الإمام الحسين عليه السلام على أهل الكوفة؟

لقد مرَّ وحسب الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام كما روى ذلك المؤرِّخ والمحدِّث الكبير ابن طاووس: أنَّه قد ورد النهي عن ذمّ

أهل العراق والدعاء عليهم[١]. فإذا كان الأمر كذلك فكيف نرى الإمام الحسين عليه السلام قد دعا على أهل العراق؟ فإنَّه لمَّا برز علي الأكبر إلى المعركة قال الإمام الحسين عليه السلام: «اللّهمّ اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خَلقاً وخُلُقاً بنبيك رسول الله صلى الله عليه وآله، وكنّا إذا اشتقنا إلى نبيّك نظرنا إلى وجهه، اللّهمّ امنع عنهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً، ومزّقهم تمزيقاً، ولا ترض الولاة عنهم أبداً»[٢].

كيف نُفسِّر ذلك؟

لنبتعد عن الحديث النفسي، ولندخل في حديث علمي وموضوعي، فنسأل: هل أنَّ الثناء أو الذمّ لشعب من الشعوب له امتداد تاريخي، وله إطلاق زماني، وهو ممتدّ أبد الآبدين؟ أم هو مختصّ بظرفه وزمانه؟

مثلاً القرآن الكريم حينما يتحدَّث: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (الفجر: ٦ _ ٨)، هو يتحدَّث عن أمّة معيّنة، فهل هذا الكلام يمتدُّ إلى أبد الآبدين، أم هو يتحدَّث عن فترة معاصرة؟

القرآن الكريم يقول: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (الروم: ٢ و٣)، يتحدَّث عن الروم في مقطع تأريخي معيَّن عاصره، ورسول الله صلى الله عليه وآله كذلك، ففي موقع من المواقع يتحدَّث حديث الذمّ، وفي موقع آخر يتحدَّث حديث المَدح، يأتي ذلك في سياق الموقف الخارجي الخاصّ وليس مطلقاً، ولهذا فإنَّ الإمام علياً عليه السلام مرّةً كان يشحذ الهمم ويبارك للعراقيين بطولاتهم، ومرَّة يذمّهم حينما تثاقلوا عن جهاد العدوّ.

---

(١) أنظر (ص ١٦٨) تحت عنوان: قراءتان للهوية العراقية.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ٤٣.

الإمام الحسين عليه السلام كذلك، هل كان يتحدَّث حديثاً أبدياً، أم هو يتحدَّث عن أمّة عاصرها ولا عموم ولا إطلاق لكلامه على مدى التاريخ؟

الظاهر من هذه العبارات التي نقرؤها أنَّه يتحدَّث عن أمّة عاصرها، يقول: «فقد برز إليهم غلام أشبَهُ الناس خَلقاً وخُلُقاً بنبيّك محمّد صلى الله عليه وآله»، حينئذٍ الإمام الحسين عليه السلام يدعو على هؤلاء الذين قتلوا علياً الأكبر، هذه المجموعة التي قتلت علي بن الحسين عليه السلام لا يستحقّون رضىً من الولاة، ولهذا فإنَّ ابن زياد أصبح يلاحقهم، وكذلك يزيد بن معاوية.

قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد بعد قتله الحسين عليه السلام: يا عمر أين الكتاب الذي كتبت به إليك في قتل الحسين، قال: مضيت لأمرك وضاع الكتاب، قال: لتجيئنَّ به، قال: ضاع، قال: والله لتجيئنَّ به، قال: تُرك والله يقرأ على عجائز قريش اعتذاراً إليهنَّ بالمدينة، أمَا والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص كنت قد أدَّيت حقّه. قال عثمان بن زياد أخو عبيد الله: صدق والله، لوددت أنَّه ليس من بني زياد رجل إلاَّ وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة وأنَّ حسيناً لم يُقتل، قال: فوَالله ما أنكر ذلك عليه عبيد الله[(١)].

وذلك الذي يحمل رأس الحسين عليه السلام إلى الشام يقول ليزيد بن معاوية:

امـلأ ركـابي فضَّـةً أو ذهبـا ... إنّـي قتلـت الملـك المحجّبـا
قتلـت خيـر النـاس أُمّـاً وأبـا ... ضـربته بالسـيف حتَّـى انقلبـا

(١) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٢٢٨.

فأمر يزيد بقتله وقال: حين علمت أنَّه خير الناس أُمّاً وأباً، لِمَ قتلته[١]؟

هناك اتّجاه آخر يقول: إنَّ الذين قتلوا الحسين عليه السلام ليسوا من أهل الكوفة؛ لأنَّ هناك أدلّة تاريخية على أنَّ الكوفة بعد أن فُتحت على يد سعد بن أبي وقاص جاءت قبائل العرب من الجزيرة واليمن ليسكنوا الكوفة، فسكنها (٧٠) بدرياً، وأصحاب بدر ليسوا عراقيين، وسكنها (٣٠٠) من أصحاب بيعة الشجرة، و(١٢) ألف من أهل اليمن، وهذا كلّه قبل واقعة كربلاء، وهم من قضاعة، وغسّان، وبجير، وخثعم، وكندة، وحضرموت، والأزد، ومذحج، وحمير، وهمدان، وهذه الأسماء مرَّت علينا من ضمن الأسماء الذين شاركوا في قتل الحسين عليه السلام، وهم بالأصل من خارج العراق.

كما وجاءت قبائل عدنانية من مكّة والمدينة من قبيلة تميم، وبني بكر، وهم عبارة عن بني أسد، وغطفان، ومحارق، وغيرهم.

إذن أصبح لدينا عشرات الآلاف في الكوفة هم من أبناء الجزيرة وليسوا من أبناء الكوفة. والحديث التاريخي عن مكوّنات الكوفة يومئذٍ يقول: إنَّ من جملة الجاليات التي سكنت الكوفة وبعشرات الآلاف من غير اليمانيين وغير العدنانيين هم الفرس، يقول المؤرِّخون إنَّ (٤) آلاف جندي من الفرس لمَّا قُتل رُستم في معركة القادسية كما يَذكر (فلهاوزن) في كتاب (الدولة العربية) سكنوا الكوفة والتحقوا بعشيرة معيَّنة وأصبحوا بحماية تلك العشيرة، وهذا يعني أنَّ الجاليات غير العراقية أصبحت من المكوّنات الكبيرة، فأضحى لدينا في الكوفة الحجازي، واليماني، والفارسي، ومن الأنباط، ومن السريانية.

---

(١) الخرائج والجرائح ٢: ٥٨٠.

على هذا الأساس يقول هذا القائل: إنَّ الذي قتل الإمام الحسين عليه السلام هم خليط من الجاليات، فيهم من أهل الكوفة، وفيهم من غيرها.

ولكن الحقيقة أنَّ هذا الدفاع غير مجدٍ؛ لأنَّ القضيّة ليست قضيّة مصطلحات، فنحن لا نتحدَّث عن شجرة الأنساب وجذر هؤلاء الناس، بل نتحدَّث عن المنطقة الجغرافية وأهل تلك المنطقة، فنقول: إنَّ الكوفة خرج أهلها ضدّ الحسين عليه السلام بعد أن كانوا مع الحسين عليه السلام، أمَّا أصولهم القبلية والعرقية فهي في معظم الحالات قد اختلطت، ولكنَّهم على كلّ الأحوال يُعتبرون عشائر كوفية، وهكذا الذين نصروا الإمام علياً عليه السلام في حروبه صفين والجمل والنهروان هم أيضاً من أهل الكوفة، رغم أنَّ أصولهم القبلية والجغرافية ليست من الكوفة.

لقد قُتل الحسين عليه السلام في كربلاء، والذين خرجوا على الإمام الحسين عليه السلام هم هؤلاء المجموعة الذين أُصيبوا بهزيمة نفسية رغم مودَّتهم، ونحن تقييمنا لأهل العراق يومئذٍ أنَّهم أُصيبوا بهزيمة نفسية نتيجة الضربات الموجعة التي تعرَّضوا لها، القمع اللامحدود، ولكنَّهم حافظوا على درجة عالية من الولاء لأهل البيت عليهم السلام، في الوقت الذي تخلَّت عنهم شعوب أخرى، وهذه هي نقطة قوّة يجب أن نُسجِّلها للشعب العراقي.

الجذب والطرد في شخصية الإمام علي عليه السلام:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي، إنَّ فيك شبهاً من عيسى بن مريم، أحبّتهُ النصارى حتَّى أنزلوه بمنزلة ليس بها، وأبغضتهُ اليهود حتَّى بهتوا أُمّه»[1].

---

(١) أمالي الصدوق: ٢٥٦/ ح (٤٦٢/٥٤)؛ ونحوه في: مسند أحمد ١: ١٦٠؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٢٣.

وقال صلى الله عليه وآله: «أبشِر يا علي، فإنَّ الله عزّ وجلّ قد عَهِد إليَّ أنَّه لا يحبّك إلاَّ مؤمن، ولا يَبغضك إلاَّ منافق»(١).

نتحدَّث تحت هذا العنوان عن قضيّة أخرى ليست بعيدة عن ظاهرة المبدئية القصوى، وهي (قوّة الجذب وقوّة الطرد في شخصية الإمام علي عليه السلام وفي سياسته)، فالإمام عليه السلام كقائد وإمام وهادي أين هي قوّة الجذب عنده، وما هو مقدارها؟

وهكذا قوّة الطرد، وما هو مقدارها؟

قوّة الجذب لدى الإمام علي عليه السلام:

هنا سنجد _ وبنظرة موضوعية فاحصة _ أنَّ الإمام علياً عليه السلام تمتَّع بقوّة جذب عالية جداًّ، كما تمتَّع بقوّة طرد عالية أيضاً، بحيث أصبح مقياساً في جذبه وفي طرده، فالذي ينجذب إلى الإمام علي عليه السلام فهو مؤمن، والذي يُطرد من الإمام علي عليه السلام فهو منافق، وهذا هو ما امتاز به الإمام علي عليه السلام دون الآخرين، وفيما هو ثابت تاريخياً.

لنبدأ **أوّلاً** فيما قال رسول الله صلى الله عليه وآله في شخصية الإمام علي عليه السلام.

وأنتم تعرفون أنَّ القائد يجب أن يمتلك قدرة جذب كبيرة، ولهذا فإنَّ القرآن يقول عن النبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله عن الإمام علي عليه السلام؟

أبو سعيد الخدري يقول في الإمام علي عليه السلام أنَّه أصبح مقياس

(١) أمالي الصدوق: ١٩٧/ ح ٢٠٨/ ٢؛ وفي مسند أحمد ١: ١٢٨؛ وسنن الترمذي ٥: ٣٠٦: عن علي عليه السلام قال: «لقد عهد إليَّ النبيّ صلى الله عليه وآله أنَّه لا يحبّك إلاَّ مؤمن، ولا يبغضك إلاَّ منافق».

الإيمان والنفاق، يقول: (ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلاَّ ببغضهم علياً)[١].

كما هو قسيم الجنّة والنار، فقد ثبت في الخبر عن جابر بن عبد الله الأنصاري، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «علي قسيم الجنّة والنار»[٢].

كما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «حبُّ علي إيمان، وبُغضُه نفاق»[٣].

ويقول أبو ذر: (ما كنّا نعرف المنافقين إلاَّ بثلاث: بتكذيبهم الله ورسوله، والتخلّف عن الصلوات، والبغض لعلي بن أبي طالب عليه السلام)[٤].

فلا يمكن للمنافقين الاقتراب من علي عليه السلام؛ لأنَّ هناك فاصلة تُسمّى قوّة طرد بين المنافقين وبين الإمام علي عليه السلام، ولم تكن هذه الظاهرة هي مجرَّد حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله، بل كان لها على أرض الواقع مصداقية، وهذه الرواية مذكورة في أُمّهات مصادر أهل السُنّة، ويقول عنها الحاكم في المستدرك أنَّها حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرّجاه.

ورواه أيضاً أحمد بن حنبل[٥]، والترمذي[٦]، والنسائي[٧]، والبغدادي[٨]، وآخرون أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال في علي عليه السلام: «لا يحبُّك إلاَّ مؤمن ولا يبغضك إلاَّ منافق».

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٠؛ تاريخ دمشق ٤٢: ٢٨٤.

(٢) أمالي الصدوق: ١٤٩/ ح (١/١٤٦)؛ ينابيع المودّة ١: ١٧٣/ ح ٢٢.

(٣) أمالي الصدوق: ٥٢٥/ ح (٢/٧٠٩)؛ مناقب الخوارزمي: ٢٩٣.

(٤) مستدرك الحاكم ٣: ١٢٩؛ كنز العمّال ١٣: ١٠٦/ ح ٣٦٣٤٦.

(٥) مسند أحمد ١: ١٢٨.

(٦) سنن الترمذي ٥: ٣٠٦.

(٧) سنن النسائي ٨: ١١٦.

(٨) تاريخ بغداد ٨: ٤١٦.

لقد كان الإمام علي مقياس الإيمان ومقياس النفاق، في الوقت الذي لا نستطيع فيه أن نقول: إنَّ القرآن هو مقياس النفاق والإيمان؛ لأنَّ المنافقين هم أيضاً يتلون القرآن، والذين قاتلوا الإمام علياً عليه السلام كانوا يقرؤون القرآن، والذين قتلوا الإمام الحسين عليه السلام كانوا يقرؤون القرآن، إذاً نحن لا نستطيع أن نجعل الارتباط بالقرآن مقياساً، ولكن الإمام علياً عليه السلام كان مقياساً (بارومتر) عجيباً في معرفة المنافقين ومعرفة المؤمنين.

ثانياً: حبّ النبيّ للإمام علي عليه السلام، فلننظر قوّة الجذب عند الإمام علي عليه السلام، والحديث موجود في مصادر أبناء العامّة كسنن النسائي، فقد روى عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «كانت لي منزلة من رسول الله صلى الله عليه وآله لم تكن لأحد من الخلائق، فكنت آتيه في كلّ سَحَر، فأقول: السلام عليك يا رسول الله، فإن تنحنح انصرفت إلى أهلي، وإلاَّ دخلت عليه»(١).

ثالثاً: حبُّ الله تعالى للإمام علي عليه السلام، ففي الحديث المعروف: «لأُعطينَّ الرايةَ غداً إلى رجل يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله»(٢)، فهذه القضيّة يجب أن ندخلها في دراسة شخصية هذا الإنسان الذي يُحبّه الله، ويُحبّه رسوله والمؤمنون، إذن ما هي قدرة هذه الشخصية وقوّة الجذب لديها؟

رابعاً: حبّ أهل السماء للإمام علي عليه السلام، كم هي قدرة الإمام علي عليه السلام على جذبهم له؟

الرواية عن ابن عبّاس في مصادر أبناء العامّة، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة أُسري به إلى المعراج قال:

«ما مررتُ بسماءٍ إلاَّ وأهلها يشتاقون إلى علي بن أبي طالب عليه السلام،

(١) سنن النسائي ٣: ١٢؛ مطالب السؤول: ١٠٧؛ ينابيع المودّة ١: ٢٦٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣١٨؛ صحيح البخاري ٤: ٢٠.

وما في الجنّة نبيّ إلاَّ وهو يشتاق إلى علي»[١]، هل هو لمجرَّد أنَّه صهر رسول الله؟ لا، بل هناك قوّة جذب في هذه الشخصية.

خامساً: روى المحدِّثون في الصحاح أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يا علي، إنَّ فيك شبهاً من عيسى بن مريم، أحبّتهُ النصارى حتَّى أنزلوه بمنزلة ليس بها، وأبغضتهُ اليهود حتَّى بهتوا أُمّه»[٢]، هكذا علي عليه السلام أعداؤه بهتوا أبا طالب بغضاً للإمام علي عليه السلام، وهم يتحدَّثون عن كفر أبي طالب ولا يتحدَّثون عن كفر أبي سفيان، وهذا نكاية بالإمام علي عليه السلام، وفي مقابل هذا البغض أحبّه آخرون أكثر من استحقاقه فعبدوه[٣]، وهذه الظاهرة لم توجد في نبيّ من الأنبياء غير عيسى عليه السلام، رسول الله صلى الله عليه وآله أعطى الإمام علياً هذه الميزة في قوّة جذب وقوّة الطرد.

سادساً: ماذا أعطته السماء؟ جبرئيل في معركة أُحُد _ كما هو ثابت في روايات المؤرِّخين _ نادى في السماء: «لا سيف إلاَّ ذو الفقار، ولا فتى إلاَّ علي»[٤]، هذه ليست قضايا فقهية، هذه قوّة جذب، وهذا تاريخ، ولكن يحتاج إلى تحليل.

في معركة بدر أيضاً، انتدب رسول الله صلى الله عليه وآله الناس ليلة بدر إلى

---

(١) ذخائر العقبى: ٩٥؛ ينابيع المودّة ٢: ١٨٥/ ح ٥٣٨.

(٢) أمالي الصدوق: ٢٥٦/ ح (٥٤/٤٦٢)؛ ونحوه في: مسند أحمد ١: ١٦٠؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٢٣.

(٣) في الرواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «أتى قوم أمير المؤمنين عليه السلام فقالوا: السلام عليك يا ربّنا! فاستتابهم فلم يتوبوا، فحفر لهم حفيرة، فأوقد فيها ناراً، وحفر حفيرة أخرى إلى جانبها وأفضى ما بينهما، فلمَّا لم يتوبوا ألقاهم في الحفيرة، وأوقد في الحفيرة الأخرى حتَّى ماتوا» أمالي الطوسي: ٦٦٢/ ح (٢١/١٣٧٧).

(٤) معاني الأخبار: ١١٩/ باب معنى قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «أنا الفتى، ابن الفتى، أخو الفتى»/ ح ١؛ تاريخ الطبري ٢: ١٩٧؛ البداية والنهاية ٦: ٦.

الماء، فخرج علي عليه السلام وكانت ليلة باردة ذات ريح وظلمة، فخرج بقربته، فلمَّا كان إلى القليب (البئر) لم يجد دلواً، فنزل في الجُبّ تلك الساعة فملأ قربته ثمّ أقبل، فاستقبلته ريح شديدة فجلس حتَّى مضت ثمّ قام، ثمّ مرَّت به أخرى فجلس حتَّى مضت ثمّ قام، ثمّ مرَّت به أخرى فجلس حتَّى مضت ثمّ قام. فلمَّا جاء قال له النبيّ صلى الله عليه وآله: «ما حبسك يا أبا الحسن؟»، فقال: لقيت ريحاً ثمّ ريحاً ثمّ ريحاً شديدة، فأصابتني قشعريرة. فقال: «أتدري ما كان ذلك، يا علي؟» فقال: لا، فقال صلى الله عليه وآله: «ذلك جبرئيل في ألف من الملائكة وقد سلَّم عليك وسلَّموا، ثمّ مرَّ ميكائيل في ألف من الملائكة فسلَّم عليك وسلَّموا، ثمّ مرَّ إسرافيل في ألف من الملائكة فسلَّم عليك وسلَّموا»[1].

وقد نظم شاعر أهل البيت السيّد الحميري هذه القصيدة يقول:

أقسِمُ بالله وآلائِهِ ... والمرءُ عمَّا قال مسؤولُ
إنَّ علي بن أبي طالبٍ ... على التُقى والبِّر مجبولُ
ذاك الذي سلَّم في ليلةٍ ... عليه ميكالٌ وجبريلُ
جبريلُ في ألفٍ وميكالُ في ... ألفٍ ويتلوهُم سرافيلُ
ليلةُ بدرٍ مددٌ أُنزلوا ... كأنَّهم طيرٌ أبابيلُ[2]

فسلام ثلاثة آلاف من الملائكة على إنسان في ليلة واحدة معناه أنَّ لديه قدرة جذب عالية لأهل السماء.

سابعاً: قدرة جذب الإمام علي عليه السلام على مستوى المناورة

(١) قرب الإسناد : ١١١/ ح ٣٨٧.
(٢) أمالي الطوسي: ١٩٨/ ح (٤١/٣٣٩).

السياسية، لقد كان المنافس السياسي الشديد للإمام علي عليه السلام هو عمر بن الخطّاب، فبغضّ النظر عن الجانب المذهبي للمسألة، ولنترك الجانب المذهبي ولنتحدَّث عن التاريخ السياسي، فإنَّ هناك تنافساً بين الرجلين، لكن سياسة الإمام علي عليه السلام وقوّة الجذب عنده فرضت على المسلمين موقعاً كبيراً له عليه السلام، وفرضت على خليفة المسلمين يومئذٍ وهو عمر بن الخطّاب أن يقوم ويقعد وهو يقول: (لا أبقاني الله لمعضلةٍ ليس لها أبو الحسن)[1]، وهكذا حتَّى استطاع أن يفرض شخصيته على الواقع الاجتماعي، بحيث أصبح المسلمون يتحدَّثون عن بيعة علي بعد عمر، ممَّا اضطرَّ عمر بن الخطّاب إلى أن يجعله أحد الشورى، ويهدّد من قال: (لو قد مات عمر بايعنا علياً)[2]، هذا يدلّل على قوّة الجذب، وأنَّ كلّ المحاولات المضادة لم تنجح في عزل الإمام علي عليه السلام وخروجه من الساحة السياسية، الإنسان إذا سقط سياسياً يصبح جليس الدار، لكن الإمام علياً عليه السلام كانت لديه قوّة الشخصية، ومع مواقفه السياسية كان هو الرجل الأوّل في العالم الإسلامي، ورغم كلّ التحدّيات والمناورات والانقلابات التي حدثت، كان مع ذلك هو الرجل الأوّل.

ثامناً: قوّة الجذب عند هذه الشخصية جعلته الخليفة الوحيد الذي

---

(١) دلائل الإمامة: ٢٢؛ أنساب الأشراف: ١٠٠.

(٢) في المصادر: (فلاناً) بدل (علياً)، وهذا دأبهم يضعون كلمة (فلاناً) مكان الأسماء الصريحة. راجع: مسند أحمد ١:٥٥؛ صحيح البخاري ٨: ٢٥.

قال ابن أبي الحديد المعتزلي في كتابه شرح نهج البلاغة (ج ٢/ ص ٢٥): وقال شيخنا أبو القاسم البلخي: قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ: إنَّ الرجل الذي قال: لو قد مات عمر لبايعت فلاناً، هو عمّار بن ياسر، قال: لو قد مات عمر لبايعت علياً عليه السلام، فهذا القول هو الذي هاج عمر أن خطب بما خطب به.

بويع بإجماع المسلمين، فبيعة أبي بكر لم تكن بالانتخابات الحرّة، بل كانت عبر سجال ومعركة السقيفة، وحكومة عمر بن الخطّاب أيضاً كانت عَبرَ وصية أبي بكر، وحكومة عثمان بن عفان كانت عبر شورى سداسية مفبركة، فلم تكن هناك انتخابات حرّة، الإمام علي عليه السلام هو الخليفة الوحيد الذي تمتَّع بقوة جذب، حيث فرض شخصيته وبايعه المسلمون، وتدكدكوا على باب بيته يطالبونه بقبول البيعة[1]، رغم مضي (٢٥) سنة من التنحية السياسية ومحاولات العزل، لكن بقي علي عليه السلام نجماً لامعاً يمتلك قوّة جذب عالية، فليس من السهل أن يناور الإنسان (٢٥) سنة مع انقلابات عسكرية واحدة بعد الأخرى.

هل كانت بيعة الإمام علي عليه السلام انتخابية؟

وهناك سؤال: هل أنَّ بيعة الإمام علي عليه السلام كانت انتخابية؟

الجواب: نعم، فقد بويع بالأكثرية الساحقة أو المطلقة.

ففي كلّ المعارك العسكرية والسياسية والإعلامية والاقتصادية كان الإمام علي عليه السلام يتألّق في المحافظة على المبادئ وقمع الهوى. وفي أيّام حكمه كانت حروب صفين والجمل والنهروان، ثلاثة حروب طاحنة لم يستخدم الإمام علي عليه السلام فيها دكتاتورية، ولا فرض على أحدٍ قتالاً، وإنَّما باعتماد النصيحة استطاع بقوّة شخصيته وقوّة جاذبيته أن ينتصر في معارك الجمل ويسحق قوّات الطرف الآخر، واستطاع أن ينتصر في معاركة صفين وأن يسحق المقابل. نعم، حدثت فتنة

(١) وهو ما أفصح عنه أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة بـ(الشقشقية)، أنظر: نهج البلاغة ١: ٣٠/ الخطبة ٣.

المصاحف، لكن الحرب انتهت وحُسمت هي الأخرى لصالح الإمام علي عليه السلام، وحتَّى وصلنا إلى حرب النهروان، حيث اشترك اثنا عشر ألف من الخوارج ضدّ الإمام علي عليه السلام، ولكنَّه سعى أن يعيد أكثرهم إليه، فيما سحق الباقين في هذه المعركة.

أيّة قوّة جذب كانت لدى الإمام علي، بحيث تجعل من شعب الكوفة يستقبله ويخوض معه حروباً دامية كلَّفتهم ستّين ألف قتيل! وتصوَّروا أنَّ أمَّة يدخلها قائد قادم من المدينة المنوَّرة، لكن قوّة الجذب عند هذا الإنسان بدرجة أن يعبئهم لثلاثة حروب متتالية، مرَّة يقاتلون عائشة، ومرَّة معاوية، ومرَّة يقاتلون أناساً آخرين متمرّدين هم أصحاب الجباه السود. ولقد كان جيش الإمام علي عليه السلام يستبسل في القتال على بيّنة وبصيرة.

نذكر هذا الأمر لبيان ما كان يتمتَّع به الإمام علي عليه السلام في اعتماد منهج (المبدئية القصوى). كما كان يتمتَّع بـ(جاذبية قصوى)، بعض الناس ربَّما لا يعرفون الإمام علي إلاَّ بقوّة الطرد التي تدعو للانشقاق عليه، بينما الواقع ليس كذلك، فالإمام علي عليه السلام استطاع في كلّ المؤامرات المضادّة أن يكوِّن قوّة كبيرة جدّاً تقضي على هذه التناقضات، ولم يستخدم السيف، ولكنَّه عبَّأ الناس عن طريق الإقناع وقوّة الجذب، وهذا ما تفرَّد به الإمام علي عليه السلام.

أُسس الجذب:

ما هي أُسس الجذب عند الإمام علي عليه السلام؟ بالتأكيد لم يكن الإغراء المادي، ولا الوعود الدنيوية، ولا التخويف والإرهاب، وإنَّما يمكن الإشارة إلى الأسس التالية:

أوّلاً: قوّة الشخصية.

ثانياً: المبادئ الرسالية.

ثالثاً: المواقف البطولية.

نستطيع أن نقرأ تأثيرات الإمام علي عليه السلام على طول التأريخ؛ لأنَّ الإمام علياً عليه السلام لم ينته بنهاية عمره الشريف، بل كانت وما تزال شخصيته ومواقفه ترسم المنهج للأحرار، فالإمام فرض نفسه على مرِّ التأريخ على الأحزاب والحكومات والقادة، وحتَّى وثائق الأمم المتّحدة، حتَّى أنَّ (جورج جرداق) الكاتب المسيحي كتب عن الإمام علي عليه السلام أروع موسوعة وهي كتاب (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية)، وهكذا الكاتب المصري (عبد الفتّاح عبد المقصود) في (المجموعة الكاملة في حياة الإمام علي عليه السلام)، وهو كاتب من أبناء العامّة وليس من الشيعة، لكنَّه كتب شيئاً عظيماً عن الإمام علي عليه السلام لم يكتبه ولا غيره عن الآخرين.

ما هي فلسفة الحروب؟

وهنا سؤال: إذا كانت الهداية والضلال من الله تبارك وتعالى، فلماذا الحرب وإراقة الدماء؟ وهذا السائل يستشهد بقوله تعالى: ﴿وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ (هود: ٣٤)، فإذا كان النصح لا يفيد، فلماذا القتال؟ وإذا كانت هذه الجماعة ضالّة في علم الله تعالى، فلماذا الحروب والمواعظ؟!

القرآن الكريم يجيب على هذا التساؤل، فيقول: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢)، لا بدَّ من إقامة الحجَّة، والذي يَضِلّ يجب أن تكون هناك حُجَّة قد أقيمت عليه من الله، كي لا يقول: إلهي لم أكن أعلم. والذي يهتدي أيضاً لا بدَّ أن يهتدي عَن بَيِّنةٍ، وليست القضيّة قضيّة وراثية.

والقرآن الكريم قال أيضاً: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٤)، وهذا بحث فلسفي في سُنّةِ الامتحان وسُنّةِ الابتلاء، فالناس ينجحون عبرَ الامتحان وعبرَ الابتلاء، وبدون الامتحان لا تتميَّز شخصية الإنسان، ﴿فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾ (الأعراف: ٣٠).

هذا هو الإمام علي عليه السلام في قوّة الجذب، وفي قوّة الطرد، وفي ظاهرة المبدئية القصوى.

قوّة الجذب لدى الحسين عليه السلام:

كان الإمام الحسين عليه السلام يتمتَّع بقوّة جذب عجيبة، ولولا أنَّنا نعرف عظمة الإمام علي عليه السلام لقال قائل: إنَّ قوّة الجذب التي يتمتَّع بها الإمام الحسين عليه السلام هي أكثر منها لدى الإمام علي عليه السلام.

ماذا نجد في الإمام الحسين عليه السلام؟

أوّلاً: حبّ الله تعالى له:

الروايات المتَّفق عليها في مصادر السُنّة ومصادر الشيعة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «حسينٌ منّي وأنا من حسين، أحبَّ اللهُ مَن أحبَّ حسيناً»[1]، هناك علاقة بين الحسين عليه السلام وبين الله تبارك وتعالى، ومن خلال حبّ الحسين عليه السلام فإنَّ الله تعالى يحبّ الكثيرين ممَّن يحبّون الحسين عليه السلام.

نستمرّ في هذا الموضوع، ونصعد إلى السماء، حيث الرواية تقول عن إسماعيل بن رجاء، عن أبيه، قال: كنت في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله في حلقة فيها

(١) راجع: مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦٦؛ ذخائر العقبى: ١٣٣؛ مسند أحمد ٤: ١٧٢؛ سنن ابن ماجة ١: ٥١؛ سنن الترمذي ٥: ٣٢٤؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٧٧.

أبو سعيد الخدري وعبد الله بن عمرو فمرَّ بنا الحسين بن علي فسلَّم فردَّ عليه القوم، فقال عبد الله بن عمرو: (ألا أخبركم بأحبِّ أهل الأرض إلى أهل السماء؟ قالوا: بلى، قال: هو هذا الماشي)[١]، هذه هي قوّة الجذب، وعبد الله بن عمرو لم يتحدَّث مِن عند نفسه، إنَّما ذلك هو حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أحبَّ أن ينظر إلى أحبِّ أهل الأرض إلى أهل السماء، فلينظر إلى الحسين»[٢]، إذن قوّة جذب استوعبت أهل السماوات وأهل الأرض، ومن الثابت في التأريخ أنَّه لا يُعرف أحدٌ بكى عليه الأنبياء مثلما بكوا على الحسين عليه السلام، فنحن الشيعة لا عجب أن نبكي عليه؛ لأنَّ الأنبياء قَبل الحسين عليه السلام بآلاف السنين كانوا يبكون على الحسين عليه السلام[٣]!!

موقع الحسين عليه السلام وشخصيته العظيمة هي مثل النور الذي يصعد فيضيء التأريخ، الحسين عليه السلام شعلة من النور في سماء البشرية كلّها، ولهذا كان الأنبياء يبكون على الحسين عليه السلام، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يبكي عليه حتَّى يعرف ذلك في وجهه[٤]. فهناك مغناطيسية قويّة للحسين عليه السلام هي التي أبكَت الأنبياء،

(١) كنز العمّال ١١: ٣٤٣/ ح ٣١٦٩٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٨.

(٣) راجع: إرشاد القلوب للديلمي: ٤٢١؛ فرائد السمطين ٢: ١٧١؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٠٨.

(٤) في الرواية عن أُمّ سَلَمَة قالت: كان النبيّ صلى الله عليه وآله نائماً في بيتي، فجاء حسين يدرج، قالت: فقعدت على الباب فسبقته مخافة أن يدخل فيوقظه، قالت: ثمّ غفلت في شيء، فدبَّ فدخل فقعد على بطنه، قالت: فسمعت نحيب رسول الله صلى الله عليه وآله، فجئت فقلت: يا رسول الله، والله ما علمت به؟ فقال: «إنَّما جاءني جبريل عليه السلام وهو على بطني قاعد، فقال لي: أتحبّه؟ فقلت: نعم، قال: إنَّ أمّتك ستقتله! ألا أريك التربة التي يقتل بها؟»، قال: «فقلت: بلى، قال: فضرب بجناحه فأتى بهذه التربة». قالت: فإذا في يده تربة حمراء، وهو يبكي ويقول: «يا ليت شعري من يقتلك بعدي؟». راجع: ترجمة الإمام الحسين عليه السلام لابن عساكر: ٢٥٩.

الشخصية العظيمة للحسين عليه السلام هي التي مغنَطت وكهربَت الأنبياء فكانوا يبكون على الحسين عليه السلام، حتَّى نصل إلى الزمن المعاصر للحسين عليه السلام، فرغم أنَّ الذين نصروا الحسين عليه السلام سبعون شخصاً ونيف، لكن الذين اقتنعوا بحركة الإمام الحسين عليه السلام هم آلاف مؤلَّفة، مكّة والمدينة بكت على الحسين عليه السلام رغم أنَّهم لم ينصروه، وهكذا الآلاف من الذين بايعوا الحسين عليه السلام من العراق والكوفة والبصرة.

المسلمون يومئذٍ يتطلَّعون للحسين عليه السلام، ماذا يفعل الحسين عليه السلام؟ ولهذا تجدون أنَّ أصحابه أبدوا من البسالة والبطولة والعشق ما لا يمكن وصفه إلاَّ من خلال مشاعر العشق والعاشقين، مع أنَّه عليه السلام أجازهم ورخَّصهم، ولكن يقوم إليه مسلم بن عوسجة، فيقول: أنحن نخلي عنك، وبما نعتذر إلى الله في أداء حقّك؟ لا والله حتَّى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، والله لا نخلّيك حتَّى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسول الله فيك، أمَا والله لو علمت أنّي أُقتل ثمّ أحيى ثمّ أُحرق ثمّ أحيى ثمّ أذرى، يفعل ذلك بي سبعين مرَّة ما فارقتك حتَّى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنَّما هي قتلة واحدة، ثمّ هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.

وقام زهير بن القين فقال: والله لوددت أنّي قتلت ثمّ نشرت ثمّ قتلت حتَّى أُقتل هكذا ألف مرَّة، وأنَّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك.

وتكلَّم جماعة من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فجزاهم الحسين عليه السلام خيراً[1].

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٢ و٩٣؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٩٣.

الاستعداد للتضحية بشكل لا يمكن تفسيره إلاَّ بعملية العشق والذوبان في الشخصية، لقد وصل مستوى الجذب لدى هؤلاء إلى حالة الاندكاك، بحيث أنَّ شخصيتهم ذابت في الحسين عليه السلام، حين رفعوا رؤوسهم إلى السماء أصبحوا يرون الجنّة وما فيها(١).

وقد أغلق ابن زياد الكوفة ووضع المسالح على أطرافها فلا يدخلها أو يخرج منها أحد، كي لا يلتحقوا بالحسين عليه السلام، وكلُّ من يُلقى عليه القَبض في نقاط (السيطرة) يُقتلُ فوراً، ومع كلّ هذا كانت هناك استعدادات كبيرة لنصرة الحسين عليه السلام، لقد كانت قلوب الناس مع الحسين عليه السلام، من البصرة التحقوا بالحسين عليه السلام، ومن جيش عمر بن سعد أيضاً مجموعة التحقت بالحسين عليه السلام، كما تقول الرواية أنَّ ثلاثين شخصاً التحقوا بالحسين يوم عاشوراء(٢)، وكان من جملتهم الحرّ بن يزيد الرياحي في القصَّة المعروفة وهو من زعماء الكوفة ومشايخها، فماذا عند الحسين عليه السلام حتَّى يجذب الحرّ بن يزيد الرياحي؟!

---

(١) روى جعفر بن محمّد بن عمارة عن أبيه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن أصحاب الحسين عليه السلام وإقدامهم على الموت؟! فقال: «إنَّهم كُشف لهم الغطاء حتَّى رأوا منازلهم من الجنّة، فكان الرجل منهم يقدم على القتل ليبادر إلى حوراء يعانقها، وإلى مكانه من الجنّة» راجع: علل الشرائع ١: ٢٢٩/ باب ١٦٣/ ح ١.

وروي أنَّ برير بن خضير الهمداني جعل يضاحك عبد الرحمن بن عبد ربّه الأنصاري، فقال له عبد الرحمن: يا برير أتضحك؟ ما هذه ساعة باطل، فقال برير: لقد علم قومي أنَّني ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، وإنَّما أفعل ذلك استبشاراً بما نصير إليه، فوَالله ما هو إلاَّ أن نلقى هؤلاء القوم بأسيافنا نعالجهم ساعة ثمّ نعانق الحور العين. (راجع: اللهوف في قتلى الطفوف: ٥٨).

(٢) البداية والنهاية ٨: ١٨٤.

ثمّ نصل إلى قوّة الجذب بعد شهادته، إلى يومنا هذا، تأثيرات الحركة الحسينية على العالم الإسلامي لا يمكن أن تُسجَّل مثلها لغير الحسين عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وبعد الخطوط العريضة التي رسمها الإمام علي عليه السلام والدور العظيم للإمام الحسن عليه السلام، فالحسين نجم متألّق يجذب القلوب على مرِّ التأريخ إلى يومنا هذا، الذي يقول فيه الشاعر:

كَـذبَ المـوتُ فالحسـينُ مُخلَّـدْ　　　كلَّمـا أخلـقَ الزمـانُ تَجَـدَّدْ

وننتقل إلى المشهد الذي نراه في زماننا، وهو مشهد زوّار الحسين عليه السلام، أيّ إنسان في العالم يتمتَّع بكسب الزائرين وجذبهم مثل الحسين عليه السلام!؟ نحن نقول: إنَّنا لا نجد هذا عبر التاريخ لأحد كما نجده للإمام الحسين عليه السلام، نحن لا نبالغ في ذلك، رسول الله صلى الله عليه وآله يزوره الملايين سنوياً، لكن هناك لا يوجد قطع أيدي ولا مطاردة ولا ملاحقة ولا سجن مؤبَّد ولا إعدام، بينما الإمام الحسين عليه السلام يزوره عشرات الملايين إن لم نقل مئات الملايين سنوياً ومن كلّ العالم، لكن في ظلّ ظروف الإرهاب وانعدام الخدمات والسلطات المضادة على طول التأريخ، ومع ذلك فها هو الإمام الحسين عليه السلام بهذا المقدار يجذب الناس.

حقائق في مشهد الزيارة:

أوّلاً: الزيارة المليونية:

فبالرغم من أنَّ العراق لا يزيد تعداد سكّانه على ثمانية وعشرين مليوناً، لكن الزوّار الذين يزورونه الآن وحتَّى في عصر الطاغية صدام حينما فُرض عليه أن يرفع الحصار كان عدد الزوّار يصل إلى أربعة أو خمسة ملايين إنسان، وفي تلك الظروف الصعبة جدّاً.

ثانياً: يُزار مشياً على الأقدام:

فالناس يذهبون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالطائرات والحافلات وأحدث السيارات، وأيضاً يجتمع في مناسبة شهادة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في خراسان في أقصى التقادير أربعة ملايين زائر من مجموع سكّان إيران الذي يزيدون على سبعين مليون، ولا يوجد هناك ممانعة ولا سلطات مضادّة، لكن الإمام الحسين عليه السلام يمتلك هذه القدرة من الجذب بحيث يُزار في تلك الظروف ومشياً على الأقدام لمئات الكيلومترات، وهذه الظاهرة تتجدَّد سنوياً، وليس الآن فقط، بل كان هذا على مرِّ التاريخ.

ثالثاً: البذل والعطاء من قِبَل الناس:

وهذه الظاهرة لا تجدها في أيّ موضع آخر، البذل لزائري الإمام الحسين عليه السلام، ويفتخر الناس بذلك ويتسابقون إليه، وهذه قوّة جذب عجيبة تصل إلى مستوى التنافس على غسل أقدام الزائرين.

رابعاً: ظاهرة البكاء:

حيث لا يعرف التاريخ وإلى يوم القيامة أحد سالت عليه الدموع بمقدار ما سالت على الإمام الحسين عليه السلام، ولا نستطيع أن نفسِّر هذا إلاَّ بمقدار الجذب. عيسى بن مريم صُلِبَ من وجهة نظر النصارى، لكن لم يكن هناك بكاء ولطم ودموع مثل ما يوجد في قضيّة الحسين عليه السلام، هذه من مميّزات شخصية الإمام الحسين عليه السلام.

خامساً: استقبال الملائكة للزوار:

فقد ثبت في الخبر أنَّ أربعة آلاف مَلَك هبطوا يومَ عاشوراء ولم يُدركوا الإمام الحسين عليه السلام إلاَّ بعد مقتله، كما تقول الرواية عن الإمام

الباقر عليه السلام: «أربعة آلاف ملك شعث غبر يبكون الحسين إلى يوم القيامة، فلا يأتيه أحد إلاَّ استقبلوه، ولا يمرض أحد إلاَّ عادوه، ولا يموت أحد إلاَّ شهدوه»[1].

نحن نعلم أنَّ مقام النبيّ أعظم، ومقام الإمام علي أعظم، لكن هذه القضيّة هي من اختصاصات الإمام الحسين عليه السلام. أربعة آلاف ملك يمثّلون لجنة استقبال الزوّار. وهذا قد نفسِّره على أنَّه عملية ثواب، وأنَّ الله تبارك وتعالى يريد أن يتفضَّل على الحسين عليه السلام وعلى شيعة الحسين، وهو صحيح طبعاً، ولكن هناك بُعدٌ أعمق هو قوّة الجذب لدى الإمام الحسين عليه السلام التي تفاعلت إلى أن ارتفعت إلى السماء، فأنزلت الملائكة يستغفرون إلى زوّاره.

نحن نعتقد أنَّ الإمام الحسين غيَّر التاريخ ونجح في ثورته عبَر قوّة الجذب وعبر الأساليب التي استخدمها، وهو لا يملك سلطاناً ولا سلاحاً ولا أموالاً.

يا ميّتاً ترك الألباب حائرة   وفي العراق ثلاثاً جسمُهُ تُركا

* * *

(١) كامل الزيارات: ١٧٤/ باب بكاء الملائكة على الحسين عليه السلام/ ح (١١/٢٣١).

الدراسة السابعة:

بين فاطمة الزهراء عليها السلام
والإمام الحسين عليه السلام

- نقاط في حركة الزهراء عليها السلام.
- أدوات الخطّ الآخر.
- بين الزهراء وعلي عليه السلام.
- كيف نقبل انحراف الأكثرية؟
- نتائج حركة الزهراء والحسين عليهما السلام.

قد يوجد جدل في الفكر الإسلامي فيمن هو الأفضل، علي عليه السلام أم غيره من الصحابة، وهكذا في الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام. قد يوجد جدل حول موقعهم العلمي، لكن في شخص الزهراء عليها السلام ليس هناك جدل عند كلّ المسلمين بأنَّ الزهراء عليها السلام هي سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين، وهذه من الملاحظات المهمّة، فإنَّه لا يوجد بين اثنين من المسلمين جدل في عظمة شخصية الزهراء عليها السلام وأهمّية منزلتها. ولهذا كان انتساب الأئمّة عليهم السلام للزهراء يعطيهم موقعاً متميّزاً، فيقال: (هذا ابن فاطمة)، يعني أنَّكم ليس لديكم مشكلة مع فاطمة، ربَّما لديكم مشكلة مع علي عليه السلام، لكن (هذا ابن فاطمة)؛ لأنَّ فاطمة عليها السلام لا يتنازع فيها اثنان من المسلمين، ولهذا فهي تحتلّ قدسية كبيرة جدَّاً.

قال عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فاطمة سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين»[1].

وقال: «إنَّ فاطمة بضعة منّي، وهي نور عيني، وثمرة فؤادي»، ولم يكن ذلك لمجرَّد بيان المودّة والمحبّة، بل أضاف إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «يسوءني ما ساءها، ويسرّني ما سرَّها»[2]، «إنَّ الله تعالى يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها»[3]، هذه قضيّة عميقة جدَّاً.

---

(١) روضة الواعظين: ١٤٩؛ مناقب آل أبي طالب ٣: ١٣٥.

(٢) أمالي الصدوق: ٥٧٥/ ح (١٨/٧٨٧).

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥١/ ح ١٧٦؛ ينابيع المودّة ٢: ٥٦/ ح ٣٢.

نقاط في حركة الزهراء عليها السلام:

وهناك عدّة نقاط يجدر أن نقف عندها:

النقطة الأولى: أنَّ الزهراء عليها السلام قامت بحركة تغييرية:

لم تكن الزهراء منعزلة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا قامت بعمل ثقافي محض، من قبيل جمع القرآن أو تدريس القرآن أو شرح القرآن، وإنَّما قامت بدور اجتماعي نُسمّيه دوراً تغييرياً، وهي قادت حركة تغييرية في الواقع السياسي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

هناك نوعان من التحرّك:

الحركة الأولى: حركة تصحيحية.

الحركة الثانية: حركة تغييرية.

فمرَّةً تكون المسألة مسألة اختلاف آراء سياسية، وهناك حاجة إلى تعديل وتوجيه وتصحيح، لكن الإمام علياً والزهراء عليهما السلام ما قاما بدور تصحيح أخطاء، فالقضيّة أعمق من أن تكون مجرَّد أخطاء، والقضيّة أيضاً لم تكن عبارة عن اجتهادات مختلفة، اجتهاد يقول: إنَّ الوضع الإسلامي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يجب أن يكون بهذا الشكل، والثاني يقول: لا، بل يجب أن يكون بهذا الشكل، وبالتالي كلّهم مجتهدون، و«مَنْ أصابَ فلَهُ أجران، وإذا أخطَأ فلَهُ أجر واحد»[1]، بل القضيّة كانت عبارة عن انحراف خطير يحتاج إلى حركة تغييرية، يعني أنَّ البناء يجب أن يتغيَّر، وليس مجرَّد تصحيح أخطاء.

خطوات الزهراء عليها السلام:

ما هي خطوات الزهراء عليها السلام في هذا الدور؟

---

(١) هو ما اشتهر عند العامّة، راجع: مسند أحمد ٤: ١٩٨؛ صحيح البخاري ٨: ١٥٧.

أوّلاً: خطابها في المسجد النبوي:

لقد كان خطاباً مفصَّلاً، كما في الروايات الثابتة أنَّه: «لمَّا أجمع أبو بكر وعمر على منع فاطمة عليها السلام فدكاً، وبلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمّة من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله، حتَّى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، فجلست، ثمّ أنَّت أنّة أجهش القوم لها بالبكاء، فارتجّ المجلس، ثمّ أمهلت هنيئة حتَّى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسوله، فعاد القوم في بكائهم، فلمَّا أمسكوا عادت في كلامها، فقالت عليها السلام: «الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدَّم، من عموم نعم ابتدأها...»، إلى أن قالت: «أيّها الناس اعلموا أنّي فاطمة، وأبي محمّد صلى الله عليه وآله، أقول عوداً وبدواً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً...»[1]، إلى آخر خطابها الذي كان يهدف تقويض الواقع الذي انتهت إليه حادثة السقيفة.

ثانياً: حركتها على الأنصار:

تحرَّكت على الأنصار، والإمام علي عليه السلام يحملها على دابة ليلاً في مجالس الأنصار تسألهم النصرة، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أنَّ زوجك وابن عمّك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به! فيقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وآله في بيته لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟»، فقالت فاطمة: «ما صنع أبو الحسن إلاَّ ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم»[2].

---

(١) دلائل الإمامة: ١١٤؛ الاحتجاج ١: ١٣١.

(٢) الإمامة والسياسة ١: ١٩.

إذن المسألة هي حركة تغييرية لكسب الأصوات وتغيير هذا الواقع القائم.

ثالثاً: الحركة الإصلاحية في الخطّ النسوي:

لمَّا اجتمعت عندها نساء المهاجرين والأنصار، حوَّلت المسألة من مأتم ومجلس عزاء إلى حديث سياسي ناقشت فيه نساء المهاجرين والأنصار بقولها: «أصبحتُ والله عائفةً لدنياكُنَّ، قاليةً لرجالكُنَّ»(١)، وهذه خطوة مهمّة في الدور التغييري، إنَّ المرأة التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها هي ساخطة على القوم، وهي تعني ما تقول.

رابعاً: استنهاض الإمام علي عليه السلام:

فلقد جاءت إليه تستنهضه قائلةً: «يا بن أبي طالب، اشتملت شملةَ الجَنين، وَقعَدت حجرة الظّنين، نقضْتَ قادِمَة الأجدل، فخانكَ ريشُ الأعزل»(٢).

خامساً: دور المقاطعة:

جاءت بعد كلّ هذه الخطوات إلى دَور المقاطعة، إلى أن تُوفيَت عليها السلام، وهو ما نُسمّيه: (الموقف السلبي)، وكان لهذا الموقف دور كبير، حتَّى وَصَلَ الأمر إلى أنَّهم طلبوا الإذن للدخول عليها والاعتذار منها، فكانت ترفض، إلى أن لجئا إلى الإمام علي عليه السلام في ذلك، فدخل علي على فاطمة عليها السلام، فقال: «يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، قد كان من هذين الرجلين ما قد رأيتِ، وقد تردَّدا مراراً كثيرة ورددتهما ولم تأذني لهما، وقد سألاني أن أستأذن لهما عليك»، فقالت: «والله لا آذن لهما ولا أكلّمهما كلمة من رأسي حتَّى ألقى أبي فأشكوهما إليه بما صنعاه

---

(١) أمالي الطوسي: ٣٧٤/ ح (٨٠٤/٥٥).

(٢) الاحتجاج ١: ١٤٥.

وارتكباه منّي». فقال علي عليه السلام: «فإنّي ضمنت لهما ذلك»، قالت: «إن كنت قد ضمنت لهما شيئاً فالبيت بيتك، والنساء تتبع الرجال، لا أخالف عليك بشيء، فائذن لمن أحببت»، فخرج علي عليه السلام فأذن لهما، فلمَّا وقع بصرهما على فاطمة عليها السلام سلَّما عليها، فلم ترد عليهما وحوَّلت وجهها عنهما، فتحوّلا واستقبلا وجهها حتَّى فعلت مراراً، وقالت: «يا علي جاف الثوب»، وقالت لنسوة حولها: «حوّلن وجهي»، فلمَّا حوَّلن وجهها، حوَّلا إليها، فقال أبو بكر: يا بنت رسول الله، إنَّما أتيناك ابتغاء مرضاتك، واجتناب سخطك، نسألك أن تغفري لنا وتصفحي عمَّا كان منّا إليك، قالت: «لا أكلّمكما من رأسي كلمة واحدة أبداً حتَّى ألقى أبي وأشكوكما إليه، وأشكو صنيعكما وفعالكما وما ارتكبتما منّي».

قالا: إنّا جئنا معتذرين مبتغين مرضاتك، فاغفري واصفحي عنّا ولا تؤاخذينا بما كان منّا. فالتفتت إلى علي عليه السلام وقالت: «إنّي لا أكلّمهما من رأسي كلمة حتَّى أسألهما عن شيء سمعاه من رسول الله صلى الله عليه وآله، فإن صدّقاني رأيت رأيي».

قالا: اللّهمّ ذلك لها، وإنّا لا نقول إلاَّ حقّاً، ولا نشهد إلاَّ صدقاً.

فقالت: «أنشدكما الله، أتذكران أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله استخرجكما في جوف الليل لشيء كان حدث من أمر علي؟»، فقالا: اللّهمّ نعم، فقالت: «أنشدكما بالله هل سمعتما النبيّ صلى الله عليه وآله يقول: فاطمة بضعة منّي وأنا منها، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذاها بعد موتي فكان كمن آذاها في حياتي، ومن آذاها في حياتي كان كمن آذاها بعد موتي؟»، قالا: اللّهمّ نعم. فقالت: «الحمد لله». ثمّ قالت: «اللّهمّ إنّي أُشهدك فاشهدوا يا من حضرني أنَّهما قد آذياني في حياتي وعند

موتي، والله لا أكلّمكما من رأسي كلمة حتَّى ألقى ربّي فأشكوكما بما صنعتما به وبي وارتكبتما منّي»، فدعا أبو بكر بالويل والثبور...[(١)].

لماذا التأكيد على جوانب السلب؟

هنا يأتي من يقول: أنتم شيعة أهل البيت عليهم السلام تؤكّدون على نقاط السلب والتأزّم في التاريخ، لكن عليكم أن تتركوا نقاط التأزّم ونقاط السلب وتتحدَّثوا عن النقاط البيضاء، نقاط المصالحة والمحبّة!

هذا سؤال سوف أؤجّل الجواب عليه، لكنَّنا يجب أن نميِّز ما بين الموقف المذهبي والموقف السياسي.

نحن نعرف أنَّ الإمام علياً عليه السلام والأئمّة الأطهار عليهم السلام كانت لديهم مواقف سياسية يمكن اعتبارها إيجابية على أرض الواقع، على خلاف ما هو الموقف العقائدي والمذهبي. يمكن أن نذكر نماذج كثيرة منها، فالإمام علي عليه السلام مثلاً أرسل الحسن والحسين عليه السلام يدافعان عن عثمان بن عفان أيام الثورة عليه. وهكذا الإمام علي عليه السلام كان يقدّم النصيحة للخليفة الأوّل والثاني، بحيث تستطيع أن تقول: إنَّها كانت علاقات تعايش إيجابيّة، لكن هذا شيء، والرؤية العقائدية شيء أخر، نحن يمكن أن نسجّل في القائمة السياسية مواقف كثيرة، لكن دون أن تكون ذات مدلول مذهبي.

إنَّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام لا تريد أن تسلّط الضوء على نقاط التأزّم والتوتّر، وإنَّما تريد أن تكشف الرؤية العقائدية.

سادساً: الدور الحضاري في الحركة:

استخدمت الزهراء عليها السلام في الحركة التغييرية أدواراً يمكن أن

(١) علل الشرائع ١: ١٨٦ و١٨٧/ باب ١٤٩/ ح ٢؛ بحار الأنوار ٤٣: ٢٠٣ و٢٠٤.

نُسمّيها بلغتنا المعاصرة: (أدواراً مدنيّة حضارية)، وربَّما تُسمّى أيضاً: (أساليب ديمقراطية)، وهي عبارة عن حوار ومقاطعة سلبية ومشهد إعلامي فنّي، حتَّى أنَّها عليها السلام استخدمت المراجعة القضائية في قصَّة فدك، فأحضرت شهوداً هم علي عليه السلام وأُمّ أيمن والحسن والحسين، والخليفة الأوّل يومئذٍ أيَّد هؤلاء الشهود وأعطاها حقّاً بإرجاع فدك إليها، لكنَّهم بعد ذلك نقضوا ما كتبوا في قصَّة مفصّلة(١).

كما أنَّ الزهراء عليها السلام كانت تخرج خارج المدينة تبكي على أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت تستظل إلى شجرة، فجاءوا إلى تلك الشجرة وقطعوها، وقبل هذا كانت تبكي في البيت فمنعوها من البكاء(٢)، كان هذا في الحقيقة مشهداً إعلامياً واستخداماً جيّداً رغم ألَم المصاب.

(١) في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لمَّا بويع أبو بكر واستقام له الأمر على جميع المهاجرين والأنصار بعث إلى فدك من أخرج وكيل فاطمة عليها السلام بنت رسول الله منها، فجاءت فاطمة الزهراء عليها السلام إلى أبي بكر، ثمّ قالت: «لِمَ تمنعني ميراثي من أبي رسول الله صلى الله عليه وآله وأخرجت وكيلي من فدك وقد جعلها لي رسول الله صلى الله عليه وآله بأمر الله تعالى؟». فقال: هاتي على ذلك بشهود! فجاءت بأُمّ أيمن، فقالت له أُمّ أيمن: لا أشهد يا أبا بكر حتَّى احتجّ عليك بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله، أنشدك بالله ألست تعلم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أُمّ أيمن امرأة من أهل الجنّة؟»، فقال: بلى. قالت: فأشهد أنَّ الله عز وجل أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾، فجعل فدكاً لها طعمة بأمر الله. فجاء علي عليه السلام فشهد بمثل ذلك. فكتب لها كتاباً ودفعه إليها، فدخل عمر فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال: إنَّ فاطمة ادّعت في فدك، وشهدت لها أُمّ أيمن وعلي عليه السلام، فكتبته لها، فأخذ عمر الكتاب من فاطمة فتفل فيه ومزَّقه، فخرجت فاطمة عليها السلام تبكي...» الخ. (راجع: الاحتجاج ١: ١٢٢).

(٢) راجع: بحار الأنوار ٤٣: ١٧٧.

أدوات الخطّ الآخر:

أمَّا أدوات الاتّجاه الآخر فهي ما نصطلح عليه اليوم بأساليب الإرهاب، من الضرب، إلى الإحراق، إلى التهديد بالقتل، إلى المنع من البكاء، إلى المحاصرة، وإلى الاعتقال، وحتَّى المنع من الحرّيات الشخصية!!

هل هناك أحد ليس له حقّ البكاء على ميّته؟ يومئذٍ مُنِعَت الزهراء من البكاء على أبيها، وكان ذريعتهم أنَّ هذا البكاء يؤذينا!! فخرجت خارج المدينة، وكانت تستظلّ بشجرة، فجاؤوا إلى الشجرة وقطعوها، هذا هو أسلوب المنع من الحرّيات الشخصية، وحتَّى وصلنا إلى مصادرة الممتلكات، (فدك) هي أرض كانت ملكاً للزهراء عليها السلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، تمَّ مصادرتها، هذه هي أدوات الخطّ الآخر.

بين الزهراء وعلي عليهما السلام:

بهذا الخصوص سنواجه مجموعة أسئلة:

هل كان بين الزهراء عليها السلام وبين الإمام علي عليه السلام في خطّ الحركة التغييرية اختلاف في التوجّهات وأسلوب الحركة السياسية؟

وقد تُذكر لذلك أمثلة منها:

أنَّ الزهراء عليها السلام وجَّهت عتباً للإمام علي عليه السلام، وقد نقول: إنَّه كان عتباً شديداً، فما معنى هذا العتب؟

وربَّما يقول البعض: إنَّ الإمام علياً عليه السلام لم ينهض للتغيير، وإنَّما الزهراء عليها السلام هي التي بادرت في سير العملية، وعادت إلى الإمام تخاطبه معاتبةً، وتقول: «يا بن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين[1]،

---

(١) أي: اختفيت عن الناس كالجنين في بطن أُمّه.

وقعدت حجرة الظنين[١]، نقضت قادمة الأجدل[٢]، فخانك ريش الأعزل[٣]، هذا ابن أبي قحافة يبتزّني نحلة أبي وبلغة[٤] ابنَي، لقد أجهد في خصامي، وألفيته ألدّ في كلامي، حتَّى حبستني قيلة[٥] نصرها، والمهاجرة وصلها، وغضَّت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع، خَرجتُ كاظمة وَعُدتُ راغمة، أضرعت خدّك يوم أضعت حدّك، افترست الذئاب وافترشت التراب، ما كففت قائلاً، ولا أغنيت طائلاً، ولا خيار لي، ليتني متُّ قبلَ هنيئتي، وَدون ذِلّتي، عذيري الله منه عادياً[٦] ومنك حامياً، ويلاي في كلّ شارق، ويلاي في كلّ غارب، ماتَ العَمد، وَوَهن العضُد، شكواي إلى أبي، وعدواي إلى ربّي، اللّهمّ إنَّك أشدُّ منهم قوَّةً وحولاً، وأشدُّ بأساً وتنكيلاً».

ها هي عليها السلام تستنهض الإمام علياً عليه السلام للدفاع عنها ومواجهة الخليفة!! هذا الأمر يسجّله الباحثون كعلامة استفهام، يقولون: هل كان بين الإمام علي وبين الزهراء عليها السلام خلاف في تحديد الموقف

(١) أي: قعدت عن طلب الحقّ، ونزلت منزلة الخائف المتّهم.

(٢) قيل: لعلَّها عليها السلام شبَّهت الصقر الذي نُقِضت قوادمه بمن لا سلاح له، والمعنى: تركت طلب الخلافة في أوّل الأمر قبل أن يتمكّنوا منها، وظننت أنَّ الناس لا يرون غيرك أهلاً للخلافة، ولا يقدّمون عليك أحد، فكنت كمن يتوقَّع الطيران من صقر منقوض القوادم. وقيل: المراد: أنَّك نازلت الأبطال، وخضت الأهوال، ولم تبال بكثرة الرجال، حتَّى نقضت شوكتهم، واليوم غُلِبت من هؤلاء الضعفاء والأراذل، وسلَّمت لهم الأمر ولا تنازعهم.

(٣) الأعزل: الذي لا سلاح معه.

(٤) البلغة: ما يتبلغ به من العيش، ويكتفي به.

(٥) قيلة: بنو قيلة: اسم أُمّ قديمة لقبيلتي الأنصار.

(٦) العذير بمعنى العاذر، أي: الله قابل عذري، وعادياً: متجاوزاً.

السياسي؟

هل كان الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يؤمن بالحركة، والزهراء تؤمن بها؟

وإذا كان الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يؤمن بالحركة، فما معنى أن تقول له الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ وهي المرأة المطيعة وعلي هو الإمام الشرعي للزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ: «يا بن أبي طالب! اشتملت شملة الجنين...»؟، يعني جلست كالجنين في بطن أُمّه، «... فلا دافع ولا مانع...»! ، هذه لغة استنهاض! فما هو الموقف الصحيح؟ موقف الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، أم موقف الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ؟

البعض يطرح علامة استفهام، ويسأل: هل كان هناك اختلاف في الموقف السياسي؟

لقد قال لها: «لا ويلَ لك، بل الويل لشانئك، ثمّ نهنهي عن وجدك يا ابنة الصفوة، وبقيّة النبوّة، فما ونيتُ عن ديني، ولا أخطأتُ مقدوري، فإن كنتِ تريدينَ البُلغة فرزقك مضمون وكفيلُك مأمون، وما أُعد لك أضلُّ ممَّا قُطِع عنك، فاحتسبي الله»، فقالت: «حسبي الله»، وأمسكت[1].

فالإمام أعطاها شحنة إيمانية أخرى باتّجاه معاكس، أن احتسبي يا بنت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، هذا هو موقع الاحتساب وموقع الصبر، أنا أؤيّد ما تقولين يا بنت رسول الله، لكن احتسبي، فالموقف هو الصبر والاحتساب، فقالت: أحتسب، وأمسكت.

نعود إلى السؤال:

هل كانت الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ تفهم الموقف بشكل، والإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بشكل آخر؟ أليسا هما معصومَين، وأصحاب رؤية واحدة، فكيف نفسّر

(١) الاحتجاج ١: ١٤٥ و١٤٦.

هذا التصوّر؟

اختلاف المواقع:

ملخَّص الجواب بما يلي:

هناك اختلاف مواقف باختلاف المواقع، لكن الإستراتيجية هي نفس الإستراتيجية، والخطّ هو نفس الخطّ، إلاَّ أنَّ كلاً يعمل من موقعه؛ لأنَّ الموقع قد يفرض على الإنسان شكلاً آخر في المواقف، الرجل له موقف، المرأة لها موقف، الصغير له موقف، والكبير له موقف، الحدث التاريخي له موقف بحسب استحقاقه، فهذا ما نُسمّيه: (اختلاف المواقف باختلاف المواقع)، وليس اختلاف إستراتيجية.

الزهراء عليها السلام هي مالكة فدك، والإمام علي عليه السلام يشخّص لها الموقف، أنَّه أنتِ مِن حقّكِ أن تطالبي، لكن تشخيصي للموقف هو أنَّ المرحلة من قبلي تحتاج إلى تأجيل، كِلا الموقفين صحيح حسب اختلاف المواقع، رسول الله صلى الله عليه وآله يكون له موقف صحيح، والإمام علي عليه السلام له موقف صحيح آخر، لماذا؟ لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله له موقع والإمام علي عليه السلام له موقع آخر، وليس من الصحيح افتراض أنَّ القضايا هي استنساخ دائماً.

مثلاً الإمام زين العابدين عليه السلام في مواجهة الهجمة الأخلاقية كان لا يخوض مواجهة بغير الدعاء، والإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام في مواجهة الهجمة الثقافية كان لهما دور الدخول في المواجهة الثقافية. هذا الاختلاف في المواقف ينشأ من اختلاف المواقع، وإلاَّ فالأهداف واحدة، والإستراتيجية أيضاً واحدة، بدليل أنَّ القرآن الكريم يحدّثنا عن اثنين من الأنبياء وهما إخوة وفي زمن واحد، كان لهما اختلاف مواقف، لكن حسب اختلاف المواقع، وهذا لا يتنافى مع العصمة، ولا يتنافى مع

وحدة القيادة.

موسى وهارون عليهما السلام نبيّان معصومان في زمان واحد، موسى لمَّا ذهب إلى ربّه لتلقّي التشريعات الإلهية، ﴿وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ﴾ (الأعراف: ١٤٢)، حَدَثَ شقاق وخلاف في بني إسرائيل فيمن هو النائب عن موسى، هارون حاول أن يهدّئ الوضع بشكل وآخر، حاول أن يؤجّل المعركة الداخلية إذ لم يستطع أن ينهيها، فلمَّا جاء موسى عَتَبَ عليه: ﴿قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ (الأعراف: ١٥٠)، موسى أصبح يعاتب هارون، لماذا تركت هؤلاء حين ﴿قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٥٠)؟ كان موقف هارون هو امتصاص الفتنة وتأجيل المعركة، فلمَّا جاء موسى ﴿قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (طه: ٩٢ و٩٣)، هارون قدَّم الرؤيا الأخرى: ﴿قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه: ٩٤)، لقد كان تشخيصي في هذا المعترك السياسي أن أمتصّ الفتنة واحتوي الحالة إلى أن تأتي، ولا أدخل معهم في المعركة؛ لأنَّ نتائج المعركة قد تكون أكثر سلبية، وحينما ترجع سوف تسجّل عليَّ عتباً آخر، فتقول: لماذا فرَّقتَ بين بني إسرائيل، هذا نُسمّيه اختلاف مواقف باختلاف المواقع، موقع هارون أقلّ من موقع موسى، موقع هارون فرض عليه أن يستخدم (تكتيك) مع بني إسرائيل.

هكذا الحال ما بين الزهراء وعلي عليه السلام، وهذا العتب الذي سجَّلته الزهراء عليها السلام لم يكن اختلافاً إستراتيجياً في الرؤية؛ لأنَّ الرؤية هي نفس الرؤية، الرؤية التغييرية، لا بدَّ من تصحيح ذلك الواقع.

الزهراء عليها السلام نهضت وخطبت بالمسجد خطاباً عظيماً، ولكن

الإمام علي عليه السلام لم تسمح له ظروفه بالقيام بهذا الدور، لماذا؟

ذلك لأنَّ موقع الزهراء عليها السلام كبنت لرسول الله صلى الله عليه وآله أبعد عن الشبهة، وأبعد عن الخطر من الإمام علي عليه السلام إذا هو تصدّى بالمباشرة، ولذا فقد ترك الزهراء عليها السلام تتصدّى، لكن هو معها في الموقف وليس ضدّها، فهذا (تكتيك) بالمصطلح المعاصر، يعني تغيير المواقف حسب المواقع، ولا يوجد اختلاف سياسي بين الزهراء عليها السلام وبين علي عليه السلام.

كما نجد بعض الروايات تتحدَّث عن اختلاف عائلي في داخل البيت بين الزهراء وعلي عليه السلام، فهل هذا صحيح؟

عن عبد الله بن الزبير في خبر عن معاوية بن أبي سفيان، قال: دخل الحسن بن علي على جدّه صلى الله عليه وآله وهو يتعثَّر بذيله، فأسرَّ إلى النبيّ سرّاً، فرأيته وقد تغيَّر لونه، ثمّ قام النبيّ حتَّى أتى فاطمة، فأخذ بيدها فهزَّها إليه هزّاً قويّاً، ثمّ قال: «يا فاطمة، إيّاك وغضب علي، فإنَّ الله يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه». ثمّ جاء علي فأخذ النبيّ بيده ثمّ هزَّها إليها هزّاً خفيفاً، قال: «يا أبا الحسن، إيّاك وغضب فاطمة، فإنَّ الملائكة تغضب لغضبها، وترضى لرضاها». فقلت: يا رسول الله، مضيت مذعوراً، وقد رجعت مسروراً، فقال: «يا معاوية، كيف لا أسر وقد أصلحت بين اثنين هما أكرم الخلق»[(١)].

هذه رواية موجودة في مصادرنا التاريخية، هل نقبلها أم لا؟

هذه الروايات يقول عنها بعض علمائنا: إنَّها مفتعلة، وغير معتمدة[(٢)].

وإنَّ أهمّ ما يمكن إيراده على تلك الرواية أنَّها رواية معاوية بن

---

(١) راجع: مناقب آل أبي طالب ٣: ١١٤، نقلاً عن (العقد الفريد) لابن عبد ربّه الأندلسي.

(٢) قال ابن بابويه: هذا غير معتمد، لأنَّهما منزّهان عن أن يحتاجا أن يصلح بينهما رسول الله صلى الله عليه وآله. أنظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ١١٤؛ بحار الأنوار ٤٣: ٤٢.

أبي سفيان، ومثلها رواها أبو هريرة المشهود عليه بالكذب، فهذه الروايات لا يمكن اعتمادها. كما أنَّ السيرة التي عرفناها عن الإمام علي عليه السلام والزهراء عليها السلام لا تسمح ولا تساعد على قبول فرضية أنَّهما يتشاجران، حتَّى يكون رسول الله صلى الله عليه وآله هو المصلح بينهما. هذه سيّدة نساء العالمين، وهذا أمير المؤمنين، وهو باب مدينة العلم، فكيف يعجزان عن تسوية وضعهما الداخلي؟

هذه رواية غير مقبولة وفق مفهومنا عن الإمام علي عليه السلام وعن الزهراء عليها السلام، كما أنَّ هذه الروايات ساقطة من ناحية سندية، فرواتها معروفون بالكذب.

هناك روايات كثيرة في مصادر التاريخ لا يمكن قبولها.

علي عليه السلام يقول عن الزهراء عليها السلام: «فوَالله ما أغضبتها، ولا أكرهتها على أمر حتَّى قَبَضها الله عزّ وجلّ، ولا أغضبتني ولا عَصَت لي أمراً، ولقد كنت أنظر إليها فتنكشف عنّي الهموم والأحزان»(١)، هذه هي الزهراء في نظر علي عليه السلام.

كما أنَّ الزهراء تقول عن علي عليه السلام: «يا بن عمّ، ما عَهدتني كاذبة، ولا خائنة، ولا خالفتُك مُنذُ عاشرتني»، فيقول الإمام علي عليه السلام في جواب الزهراء عليها السلام: «معاذ الله، أنتِ أعلم وأبرُّ وأتقى وأكرمُ وأشدُّ خوفاً لله من أن أُوَبِّخَك بمخالفتي»(٢).

هذا هو تقييم الطرفين للآخر، إذن فالحديث عن وجود خلاف

(١) كشف الغمّة ١: ٣٧٣.

(٢) روضة الواعظين: ١٥١؛ بحار الأنوار ٤٣: ١٩١.

أُسَري كما في بعض المصادر التاريخية هو حديث غير مقبول.

كيف نقبل انحراف الأكثرية؟

كيف نقبل تاريخياً ودينياً افتراض أنَّ الأكثرية انحرفت عن علي عليه السلام، وانحرفت عن الزهراء عليها السلام، وخالفت بذلك نصوص النبيّ ووصاياه؟ فهل من الممكن القول بأنَّ مجموعة قليلة فقط هي التي عرفت الحقيقة، بينما الباقون كلّهم قد انحرفوا؟

ولعلَّ غرابة هذه الفرضية هي التي جعلت أبناء السُنّة والجماعة يصحّحون مواقف الصحابة باعتبارهم يشكّلون الأكثرية.

ولننقل السؤال إلى أنفسنا:

كيف نقبل مقولة انحراف الأكثرية!؟

وإذا كانت الأكثرية قد انحرفت والقلَّة هم الذين اهتدوا أليس ذلك فشلاً في تجربة النبيّ صلى الله عليه وآله؟

نقول: نرجع بجواب هذا السؤال للتاريخ، وإلى نصوص النبيّ صلى الله عليه وآله، ثمّ ندرس الواقع من وجهة نظر النبيّ صلى الله عليه وآله فيما هو الثابت تاريخياً، وقبل أن نضع أنفسنا في موضع القاضي:

رسولُ الله صلى الله عليه وآله كيف قيَّم الموقف وفقاً للمصادر المُجمع عليها؟

رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وباتّفاق كلّ المسلمين ـ كان يقيّم الموقف برؤية سلبية وليس برؤية إيجابية، فقد كان يقول في الحديث المتَّفق عليه: «ستفترق أمّتي على اثنين وسبعين فرقة كلّها في النار إلاَّ واحدة»[1]،

(١) رواه الخاصّة والعامّة بألفاظ متفاوتة، ومعناها واحد، راجع: الكافي ٨: ٢٢٤/ ح ٢٨٣؛ كمال الدين: ٦٦٢؛ مسند أحمد ٢: ٣٣٢؛ سنن ابن ماجة ٢: ١٣٢١/ باب افتراق الأمم؛ سنن أبي داود ٢:

هـذه ليسـت رؤيتنـا، بـل هـي رؤيـة رسـول الله صلى الله عليه وآله، أنّـه سـيحدث بعـده انحـراف فـي الأكثريـة السـاحقة، ذلـك معنـى: «كلّهـا فـي النـار إلاّ واحـدة»، فإن كان هناك ثَمة اعتراض واستغراب فهو رؤية النبيّ صلى الله عليه وآله.

رسـول الله صلى الله عليه وآله _ وبحسـب الروايـة المتَّفـق عليهـا _ كـان يقـول: «لتتبعنَّ سُنَنَ مَن قبلكم، ذراعاً بذراع، وشبراً بشبر، وباعاً بباع، حتَّى لَو دخلوا جُحر ضَبٍّ لَدَخلتموه»[1].

ومعناه أنَّكم ستكونون كالأمم التي سبقتكم من بني إسرائيل حين اختلفوا وانحرفوا، فأنتم ستُبتلون بذلك الانحراف، والقرآن الكريم يقول: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ٧٨)، فهل نعترض على عيسى وموسى عليهما السلام حين انحرفت أمّتهما ولُعِنت بنصّ القرآن الكريم؟!

إذن هـذه هـي رؤيـة رسـول الله صلى الله عليه وآله فـي مسـتقبل أمّتـه، لكـن هنـاك جـادّة صـواب، وقـارب نجـاة، وهنـاك الـوادي الـذي يسـلكه علـي عليه السلام، والذي أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه أن يسلكوه.

تعلمـون تاريخيـاً أنَّ عيسـى بـن مـريم عليه السلام عـاش مرحلـة تبليغيـة، هـي عبـارة عـن ثـلاث سـنوات فقـط، ثـمّ صُـلب، أو قُتـل، أو بحسـب النظـرة القرآنيـة أنّـه: ﴿ما قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ (النساء: ١٥٧ و١٥٨)، وبعـد ثلاثمائـة عـام تأسَّسـت الدولـة المسـيحية، ممَّـا يعنـي أنَّ عيسـى وأتباعـه إلـى عـدّة أجيال لـم يشـهدوا قيـام الدولـة العيسـوية، وإنَّمـا قامـت بعـد ثلاثـة قـرون، كمـا هـو فـي قصَّـة أصـحاب الكهـف، حـين خرجـوا مـن الكهـف شـاهدوا

٣٩٠/ ح ٤٥٩٦؛ سنن الترمذي ٤: ١٣٤/ ح ٢٧٧٨؛ مستدرك الحاكم ١: ٦.

(١) أمالي الطوسي: ٢٦٦/ ح (٤٩٢/٣٠)؛ مسند أحمد ٢: ٣٢٧؛ مستدرك الحاكم ١: ٣٧.

دولـة تـؤمن بالمسـيح، بينمـا كـان الحكـم كـافراً حينمـا لجئـوا إلـى الكهـف وبقوا فيه ﴿ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ (الكهف: ٢٥).

هـذه هـي قصَّـة عيسـى وتمـزُّق أصـحابه مـن بعـده، ورسـول الله صلى الله عليه وآله يقـول: إنَّـه سـتحدث اختلافـات وافتراقـات فـي هـذه الأمّـة كمـا حـدثت فـي الأمـم السـابقة، هـذه هـي رؤيـة النبـيّ صلى الله عليه وآله لمسـتقبل أمّتـه، فالمسـألة إذن هـي حقيقة تاريخية أنبأ بها النبيّ صلى الله عليه وآله، فلا داعي للتخلّص منها.

هل ضاعت جهود النبيّ صلى الله عليه وآله؟

لكـن سـوف تسـأل: أيـن جهـود النبـيّ صلى الله عليه وآله؟ هـل ضـاعت؟ إنَّ انحراف الأمّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يعني أنَّ جهوده العظيمة قد أخفقت!!

الجـواب: لـم تضـع الجهـود، بـل المسـيرة مسـتمرّة، والأمّـة موجـودة، والتجربـة قائمـة، ونحـن الآن بعـد أربعـة عشـر قرنـاً نشـهد أنَّ التجربـة الإسـلاميّة لـم تنهـار، والأمّـة الإسـلاميّة مـا تـزال حيّـة، رغـم أنَّ سـبيل الحـقّ الكامـل لا يعرفـه إلاَّ أقلّيـة، لكـن ذلـك لا يعنـي أنَّ الأكثريـة قـد تجـرَّدوا عـن ثـوب الإسـلام، بـل بقـي الإسـلام موجـوداً فـي الشـارع الإسـلامي بمسـتويات مختلفـة؛ لأنَّ الإيمـان على عشـر مراتـب[1]، لقـد بقـي الإسـلام حيّـاً إلـى اليـوم، وهـو يحـرِّك الشـارع الجماهيري الكبيـر ويـؤثّر فيـه، لقـد كانـت تجربـة رسـول الله صلى الله عليه وآله تجربة ناجحة، وليست تجربة فاشلة.

---

(١) فـي الروايـة عـن الإمـام الصـادق عليه السلام قـال: «إنَّ الإيمـان عشـر درجـات بمنزلـة السـلّم يصـعد منـه مرقـاة بعـد مرقـاة، فـلا يقـولنَّ صـاحب الاثنـين لصـاحب الواحـد: لسـت علـى شـيء حتَّـى ينتهـي إلـى العاشـر، فـلا تسـقط مـن هـو دونـك فيسـقطك مـن هـو فوقـك، وإذا رأيـت مـن هـو أسـفل منـك بدرجـة فارفعـه إليـك برفـق، ولا تحملـنَّ عليـه مـا لا يطيـق فتكسـره، فـإنَّ مـن كسر مؤمناً فعليه جبره» الكافي ٢: ٤٤/ باب درجات الإيمان/ ح ٢.

على كلّ حال، فهذه القضيّة وهي قضيّة امتحان الأمّة واختلافها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هي إرادة الله وحكمته، ولا اعتراض على بلائه وقضائه.

نوح عليه السلام عمل في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً، فماذا كانت النتيجة؟ فهل نعترض على نوح؟ هذه هي سُنَّةُ الله تبارك وتعالى، وفي تجربة لوط يقول القرآن الكريم: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات: ٣٦)، ولا اعتراض إذا لم يتحقَّق شيء من النجاح في تلك التجربة؛ لأنَّ هناك مقاسات إلهية هي غير المقاسات البشرية.

نعود إلى السؤال: هل حقَّق رسول الله صلى الله عليه وآله نجاحاً في تجربته، أم لم يُحقّق نجاحاً؟

الصحيح أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله حقَّق نجاحاً على مستوى التجربة، لكن الناس على مستويات في فهم التجربة، مستوى بدرجة عالية وهم شيعة أهل البيت عليهم السلام، ثمّ أقلّ، ثمّ أقلّ، وهكذا. وهذا نجاحٌ كبير للتجربة المحمّدية قياساً لباقي الأنبياء، وحتَّى أولئك الأنبياء الذين حكموا، مثل سليمان وداود عليهما السلام، فإنَّه بمجرَّد أن ماتوا انتهت تجربتهم، رغم أنَّ الله تعالى سخَّر لهم الجبال والرياح والطير والجنّ والشياطين، لكن حكومتهم قد انتهت، أمَّا تجربة نبيّنا صلى الله عليه وآله فهي تجربة ناضجة إلى اليوم.

المقارنة مع الحسين عليه السلام:

ننتقل إلى الإمام الحسين عليه السلام في مقارنة بين حركته وأدواته، وبين حركة الزهراء وأدواتها:

أوّلاً: قاد الإمام الحسين عليه السلام حركة تغييرية، ولم تكن حركة تصحيح لأخطاء.

فالحسين عليه السلام لم يقم بتقديم نصح إلى يزيد، كما كان يفعل أئمّة المذاهب الأخرى الذين قاموا بتقديم نصائح؛ لأنَّهم جميعاً لم يكونوا راضين، ولذا فقد كانوا يقدّمون النصيحة لهم ويتعايشون معهم، لكن أئمّتنا عليهم السلام كان دورهم دوراً تغييرياً وليس تصحيحاً.

لقد قام الإمام الحسين عليه السلام بحركة تغييرية للواقع القائم قائلاً: «على الإسلام السلام إذ قد ابتُلِيَتِ الأمّةُ براع مثل يزيد»[1]، وهذه الكلمة كان الإمام عليه السلام أوّل من استخدمها في التاريخ.

ثانياً: الإمام الحسين عليه السلام حَسَمَ الموقف والرؤية تجاه حضور المرأة في الساحة السياسية، الإمام الحسين اصطحب معه النساء والعيال من مكّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة إلى العراق، ليس لتضخيم المصيبة فقط، وإنَّما ليكشف ما هي الرؤية الإسلاميّة تجاه حضور المرأة، وأنَّ المرأة يجب أن يكون لها دور في العملية التغييرية.

ثالثاً: الأدوات المدنية التي استخدمها الحسين عليه السلام، فهو لم يستخدم أدوات مسلّحة أو إرهابية أو دموية، وإنَّما أدوات سلميَّة مدَنية حضارية. نعم، عندما أصبح في موقف مواجهة دافع عن نفسه، لكن أصل الأدوات التي استخدمها كانت عبارة عن حوار ورسائل وكُتب يبعثها، ومفاوضات حتَّى مع الأعداء حينما كان يحدّثهم قائلاً: «انسبوني فانظروا من أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها، فانظروا هل يَحلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم، وابن وصيّه...»[2]، هذا حوار وجدل، وهذه أدوات مدنية، وكانوا بالمقابل يرمونه بالسهام.

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ١١٧؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٢٢.

زهير بن القين أحد أبرز أصحاب الحسين عليه السلام كان عثمانياً، ولكن الإمام حاوره حواراً جميلاً في قصَّة طويلة، قال له: «تذكر يوم غزوتم بَلنجر _ ويبدو أنَّها من مناطق بلاد فارس _ وظفرتم بغنائم، وكان معكم سلمان الفارسي، فلمَّا وجدكم فرحتم قالَ لكم: أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من الغنائم؟ فقلتم: نعم، فقال: إذا أدركتم شباب آل محمّد فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معهم ممَّا أصبتم اليوم من الغنائم»(١). فلمَّا ذكَّره بذلك أمر زهير بأن تُنقل عياله ورحله إلى الحسين عليه السلام.

الإمام الحسين عليه السلام كان له مشهد إعلامي رائع في كربلاء، فهو مرَّةً يبرز إليهم وقد نَشَرَ القرآن على رأسه، وقد ركب فرس رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ يقول لهم: «ويحكم، أتطلبوني بقتيل لكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة؟!»(٢).

هذا مشهد إعلامي رائع، ومثله مشهد الطفل الرضيع حين عرضه على القوم ليسقوه(٣).

رابعاً: مقاومته عليه السلام كانت مقاومة سلميّة، فالحسين عليه السلام طلب الماء وتحرَّك للمشرعة، وهو لم يبدأ بقتال، بل كان يطلب الماء فيقاتلوه،

---

(١) روضة الواعظين: ١٧٨.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٨.

(٣) روى المؤرِّخون: أنَّ أُمّ كلثوم خاطبت أخيها الحسين عليه السلام فقالت: يا أخي إنَّ ولدك عبد الله ما ذاق الماء منذ ثلاثة أيّام، فاطلب له من القوم شربة تسقيه. فأخذه ومضى به إلى القوم وقال: «يا قوم، لقد قتلتم أصحابي وبني عمّي وإخوتي وولدي، وقد بقي هذا الطفل، وهو ابن ستّة أشهر، يشتكي من الظمأ، فاسقوه شربة من الماء»، فبينا هو يخاطبهم إذ أتاه سهم فوقع في نحر الطفل فقتله. (راجع: ينابيع المودّة ٣: ٧٨).

وهكذا عندما خرج العبّاس عليه السلام، قال له الحسين عليه السلام: «أُطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء»[(١)]، فهو لم يقل له: اذهب وقاتل.

أدوات المعسكر الآخر:

لقد كانت أدواته دمويّة، وبعيدة عن أصول الحرب والإنسانيّة، فكان منها:

١ ـ قطع الماء وهو مصدر الحياة.

٢ ـ الإحراق بالنار، حين أحرقوا خيام الحسين عليه السلام، والموجود في الخيام هم نساء وأطفال!

٣ ـ قتل الأطفال: كقتل الطفل الرضيع، وآخرين من أبناء (٩) سنين و(١١) سنة، يُقتلون وهم غير قادرين على القتال، فهذه هي أدوات الخطّ الآخر، قتل الأطفال، والتمثيل بالأجساد[(٢)]. وهكذا سبي النساء وترويع الأطفال.

يروي الشيخ الصدوق في أماليه[(٣)]:

أنَّ طفلين لمسلم بن عقيل أُسرا في معسكر ابن زياد ـ وربَّما كانت عملية اختطاف لهما على الأرجح ـ، ولكنَّهما استطاعا الهرب في منتصف الليل، وبعد أن وجدهما شخص، أحضرَهما إلى النهر وأمر غلامه ليذبحهم، فلم يفعل، ثمّ دعا ابنه، فلم يفعل، فجاء بنفسه ليذبحهما

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤١.

(٢) لمَّا قتل الحسين عليه السلام، نادى عمر بن سعد بأصحابه: من ينتدب للحسين فيوطئه فرسه؟ فانتدب عشرة منهم فداسوا الحسين عليه السلام بخيولهم حتَّى رضّوا ظهره وصدره. (الإرشاد ٢: ١١٣؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٤٧).

(٣) راجع نصّ الرواية بتفصيلها في: أمالي الصدوق: ١٤٣ - ١٤٨/ ح (٢/١٤٥).

على الفرات.

الرواية تقول: قالا له: يا شيخ، انطلق بنا إلى السوق واستمتع بأثماننا، ولا ترد أن يكون محمّد خصمك في القيامة غداً.

فقال: لا، ولكن أقتلكما وأذهب برأسيكما إلى عبيد الله بن زياد، وآخذ جائزة ألفي درهم.

فقالا له: يا شيخ، أمَا تحفظ قرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وآله؟

فقال: ما لكما من رسول الله قرابة.

قالا له: يا شيخ، فائت بنا إلى عبيد الله بن زياد حتَّى يحكم فينا بأمره.

قال: ما إلى ذلك سبيل إلاَّ التقرّب إليه بدمكما.

قالا له: يا شيخ، أمَا ترحم صغر سننا؟

قال: ما جعل الله لكما في قلبي من الرحمة شيئاً.

قالا: يا شيخ إن كان ولا بدَّ، فدعنا نصلّي ركعات.

قال: فصلّيا ما شئتما إن نفعتكما الصلاة.

فصلّى الغلامان أربع ركعات، ثمّ رفعا طرفيهما إلى السماء فناديا: يا حيّ يا حليم يا أحكم الحاكمين، أحكم بيننا وبينه بالحقّ.

فقام إلى الأكبر فضرب عنقه، وأخذ برأسه ووضعه في المخلاة، وأقبل الغلام الصغير يتمرَّغ في دم أخيه، وهو يقول: حتَّى ألقى رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا مختضب بدم أخي.

فقال: لا عليك سوف ألحقك بأخيك، ثمّ قام إلى الغلام الصغير فضرب عنقه، وأخذ رأسه ووضعه في المخلاة، ورمى ببدنيهما في الماء، وهما يقطران دماً؛ هذه هي أدوات الخطّ الآخر.

أهداف الحركة الحسينيّة:

الإمام الحسين عليه السلام على مستوى الأهداف كانت أهدافه تغييرية، كما كانت حركة الزهراء عليها السلام تغييرية، والزهراء لم يكن هدفها المطالبة بفدك، وإنَّما كان تغيير الواقع القائم حين قالت: «ويحهم! أنّى زحزحوها عن رواسي الرسالة»[١]، المسألة هي مسألة حكم وليس مسألة فدك وقطعة أرض فقط. إذن كان الهدف هدفاً تغييرياً، وهكذا كان هدف الحسين عليه السلام.

الإمام الحسين كان هدفه تغيير الحكم الأموي، وإسقاط حكومة يزيد، حين قال عليه السلام: «مثلي لا يبايع مثله»[٢]، وقال: «على الإسلام السلام إذ قد ابتُلِيَتِ الأمّةُ براع مثل يزيد»[٣].

كما أنَّ المناهج والأدوات التي استخدمها الحسين عليه السلام هي نفس الأدوات والمناهج التي استخدمتها الزهراء عليها السلام، وقد أشرنا إليها، الخطاب الإعلامي، الحوار، التحرّك لكسب الموقف، نجد أنَّ الإمام الحسين عليه السلام استخدم ذات المناهج، فلم يستخدم حرب العصابات، ولا دخل في حرب مسلّحة، وإنَّما فُرض عليه أن يدافع عن نفسه، وأن يطلب الماء، وإلاَّ فإنَّه لم يكن مجهّزاً لمعركة عسكرية، وإلاَّ لكان عليه أن يستخدم طريقاً آخراً ومناهج أخرى.

لقد قال عليه السلام: «إنّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنَّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي صلى الله عليه وآله»[٤].

---

(١) معاني الأخبار: ٣٥٥/ باب معاني قول فاطمة عليها السلام لنساء المهاجرين والأنصار في علّتها/ ح ١.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٧.

(٣) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨.

(٤) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

نتائج حركة الزهراء عليها السلام:

أمَّا النتائج فهي على مستويين: المديات القصيرة، والمديات البعيدة.

النتائج على المديات البعيدة لحركة الزهراء عليها السلام أنَّها استطاعت أن تغيِّر الواقع، وبعد خمس وعشرين سنة استطاع حكم الإمام علي عليه السلام أن ينجح في قيادة التجربة واستلام الحكم، لقد استطاعت الزهراء عليها السلام وإلى اليوم أن ترسم الجادة الصحيحة لمسيرة الإسلام، وهي التي ينتمي إليها أتباع أهل البيت عليهم السلام، العبّاسيون تجربتهم انتهت، الشيوعية في الاتّحاد السوفيتي انتهت، حزب البعث الذي حكم العراق خمس وثلاثين سنة انتهى، لكن تجربة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم لم تنته، فهم أمّة ذات جذر تاريخي لا تنتهي، رغم أنَّها لم تحكم، وليس لديها إمكانات مادية كبيرة، وهذا شيء عجيب.

في الحقيقة نستطيع أن نقول: إنَّ الزهراء عليها السلام نجحت على مستوى المديات البعيدة، وكذلك الحسين عليه السلام، فقد استطاع أن يُسقط الحكم الأموي عبر تداعيات الثورة الحسينية، فقد أصبحت الثورات بعد الحسين عليه السلام متتالية، لقد كانت أوّل ثورة بعد الحسين عليه السلام هي ثورة سليمان بن صِرَد الخزاعي، وبعدها كانت ثورة المختار، وبعدها كانت حركة عبد الله بن الزبير ومصعب بن زبير، ثمّ ثورة زيد بن علي عليه السلام، وهكذا توالت الثورات إلى أن سقط الحكم الأموي، وليس المهمّ أن يسقط الحكم الأموي أو لا يسقط بمقدار أنَّ المهمّ هو أنَّ الشارع بقيَ محافظاً على القيم الإسلاميّة الأصيلة بدرجة كبيرة، والعالم اليوم يهتزّ لحضارتنا ولأمّتنا الحيّة المتقدّمة، من هنا، من الشرق، من العراق، من هذه المنطقة منطقة أتباع أهل البيت عليهم السلام.

أمَّا على مستوى المديات القصيرة، فإنَّ الزهراء عليها السلام لم تكسب من حركتها إلاَّ الألم والظُلامات، وهكذا كان الحسين عليه السلام على مستوى المديات القصيرة، الزهراء تحمّلت ضرباً، وكسراً لضلعها، وإسقاطاً لجنينها، ومنعاً من البكاء، ومصادرة أموال، حتَّى ماتت وهي شهيدة، «السلام عليك أيّتها الصدّيقة الشهيدة»[1]، هذه هي النتيجة على مستوى المديات القصيرة، حتَّى دُفنت ليلاً ولم يحضر تشييعها إلاَّ نفر يسير.

نتائج حركة الحسين عليه السلام:

ما هي نتائج حركة الإمام الحسين عليه السلام على مستوى المديات القصيرة؟

هناك تطابق وتشابه ضمن مجموعة نقاط، والشعراء ينظمون هذا التشابه في أدبياتهم، الظُلامات التي شهدتها كربلاء هي صورة مكبَّرة ومضخَّمة للنتائج والظُلامات التي شهدتها الزهراء عليها السلام، ولهذا الشاعر يقول:

وبكسر ذاك الضلع رُضَّت أضلعٌ   في طيّها سر الإلهِ مصون

الزهراء عليها السلام شهدت ظُلامة التهديد بإحراق الدار[2]، وفي كربلاء كان إحراق الخيام.

الزهراء عليها السلام شهدت الضَرب، حيث ضربوا عينها وكتفها، ومشهد الضرب كان أيضاً في عرصات كربلاء كما حدث للسبايا.

مشهد كسر ضلع الزهراء عليها السلام، وهنا كسر أضلع الحسين عليه السلام، حينما نادى عمر بن سعد بأصحابه: من ينتدب للحسين فيوطئه فرسه؟ فانتدب عشرة

---

(١) إقبال الأعمال ٣: ١٦٤.

(٢) راجع: السقيفة وفدك للجوهري: ٥٣؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٥٦.

منهم فداسوا الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بخيولهم حتَّى رضّوا ظهره وصدره(١).

هذه نفس تلك الظلامات، لكن بشكل مضاعف.

هناك قادوا علياً أسيراً، وفي كربلاء لدينا أسير آخر هو علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأسر النساء، كان ذاك المشهد فردياً، لكن المشهد في كربلاء صار مشهداً جمعياً.

مشهد الخطاب، هو الآخر من مشاهد التشابه، لقد كنت أقارن بين خطابين، أجد التطابق بينهما، هناك الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ تخطب وتقول: «أيّها الناس اعلموا أنّي فاطمة، وأبي محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ...»(٢)، الإمام الحسين في كربلاء كان يقول: «انسبوني فانظروا من أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها، فانظروا هل يَحلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم، وابن وصيّه...»(٣)، هناك وهنا هذا المشهد يتكرَّر، الشكوى إلى رسول الله مشهد تكرَّر، الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ ذهبت إلى قبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شاكيةً قائلةً:

صبَّت عليَّ مصائبٌ لو أنَّها ... صُبَّت على الأيّام صرن لياليا(٤)

الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضاً شكى إلى رسول الله، ونساء الحسين زينب وأخوات زينب أيضاً شكون إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ منذُ ساعات حركته الأولى بدأ بالشكوى إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في المدينة المنوَّرة، حينما جاء إلى قبر النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يودّعه، وجعل يبكي عنده، فأغفى على القبر الشريف، فرأى في المنام

(١) الإرشاد ٢: ١١٣؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٤٧.

(٢) دلائل الإمامة: ١١٤؛ الاحتجاج ١: ١٣١.

(٣) مقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبي مخنف: ١١٧؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٢٢.

(٤) روضة الواعظين: ٧٥.

رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «يا بني، إنَّك قادم على أبيك وأُمّك وأخيك، وهم مشتاقون إليك، وإنَّ لك درجات في الجنّة لا تنالها إلاَّ بالشهادة»[1].

* * *

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣١٣ و٣٢٨.

الدراسة الثامنة:

بين الإمام الحسن عليه السلام
والإمام الحسين عليه السلام

- كيف ننظر لأهل البيت عليهم السلام.
- سياسات الإمام الحسن عليه السلام.
- الشعار الحسيني وموقف الإمام الحسن عليه السلام.
- مهمّات الحسن عليه السلام بعد الصلح.

قال رسول الله ﷺ: «من سرَّه أن يَنظُر إلى سيّد شباب أهل الجنّة فلينظر إلى الحَسن عليه السلام»[1].

وقال ﷺ: «إنَّ ابني هذا سَيِّد ولَعلَّ اللهَ عزّ وجلّ يُصلحُ بِهِ بَينَ فِئتين عظيمتين من المسلمين»[2].

وقال ﷺ: «من آذى هذا ـ يعني الحسن عليه السلام ـ فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»[3].

الحديث عن حركة الإمام الحسن عليه السلام، وما هي نقاط التشابه بينها وبين حركة الإمام الحسين عليه السلام، رغم أنَّ البارز في حركة الإمام الحسن عليه السلام هو الصلح، والبارز في حركة الإمام الحسين عليه السلام هو الثورة، ولكن نحن بحاجة إلى أن نعقد مقارنة بين حركتين على مستوى الأحداث، وعلى مستوى المناهج، وعلى مستوى النتائج.

بالأصل إنَّ رسول الله ﷺ أكَّدَ على رمزية الحسن والحسين عليهما السلام معاً، وأنَّهما يُمثّلان رمزاً مقدَّساً للمسلمين، وهنا تأتي مقولة رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[4]، وهي تأكيد على أنَّ رمزيتهما ليست مربوطة بشكل الحركة، فالإمام الحسن عليه السلام إمام، والإمام الحسين عليه السلام إمام، تحرَّك بهذا الشكل أو تحرَّك بذاك الشكل،

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٨٥؛ البداية والنهاية ٨: ٣٩؛ كنز العمّال ١٢: ١١٦/ ح ٣٤٢٦٩.

(٢) عمدة الطالب: ٦٥؛ مسند أحمد ٥: ٤٩؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٧٥.

(٣) المعجم الكبير ٣: ٤٢/ ح ٢٦٢٧؛ كنز العمّال ١٢: ١٢٥/ ح ٣٤٣١٠.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٣؛ إعلام الورى ١: ٤٠٧.

هـذه القضـيّة كانـت التأكيـدات مـن رسـول الله صلى الله عليه وآله واضـحة عليهـا، لـئلاَّ يقول قائل يوماً ما: لماذا اختلفت حركة الأئمّة ومناهجهم؟

كيف ننظر لأهل البيت عليهم السلام؟

هناك رؤيتان للأئمّة عليهم السلام:

الرؤية الأولى: الرؤية المقدَّسة المطلقة:

وهي الرؤية التي يتبنّاها شيعة أهل البيت عليهم السلام، فنحن نقبل الإمام علي عليه السلام في كلّ أحواله، ونقبل الزهراء عليها السلام في كلّ أحوالها، والحسن عليه السلام في كلّ أحواله، والحسين عليه السلام في كلّ أحواله كإمام معصوم مقدَّس عندنا، ونفسِّر كلّ المواقف على أساس أنَّها مواقف نابعة من موقع ميراث النبوّة، وبيت العصمة والطهارة عليهم السلام، لا نقبل تشكيكاً وجدلاً، وقد نقدِّم لتلك المواقف تحليلاً، لكنَّها تبقى هي المقياس وليس نحن، هذه الرؤية نُسمّيها: الرؤية المقدّسة للأئمّة الأطهار عليهم السلام، وهذه هي عقيدة شيعة أهل البيت، وأنَّ كلّ فعل يصدر من المعصوم فهو فعل صحيح ومقدَّس.

الرؤية الثانية: الرؤية الاجتهادية:

التي لا تنظر إلى أهل البيت كمواقع معصومة مقدَّسة، وإنَّما تحاول تلك الرؤية أن تُفسِّر مواقف الأئمّة عليهم السلام بتحليلات تقبلها مرَّة، ولا تقبلها مرَّة أخرى، كما ينظرون إلى أيّ رجل بالتاريخ، هذه رؤية اجتهادية، رؤية لا تحمل عقيدة العصمة والقداسة لأهل البيت عليهم السلام، ولهذا نجد أنَّ بعض الكتّاب يخطّئون الأئمّة عليهم السلام، بينما شيعة أهل البيت يعتقدون بعصمتهم.

إنَّ كتابات (طه حسين) و(عبّاس محمود العقّاد) وأمثال هؤلاء تؤكّد هذه الرؤية الثانية، فهم ينظرون إلى الأئمّة مثل أيّ بشر يخطأ ويصيب.

وعلى كلّ الأحوال رؤيتنا نُسمّيها الرؤية المقدَّسة لأهل البيت عليهم السلام، فكلّ ما يصدر منهم قد نخضعه للتحليل، لكنَّه في الأصل عندنا هو الصحيح، وذلك اعتماداً على قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «إمامان قاما أو قعدا»، والذي يعني أنَّ الإمام هو الذي يشخّص التحليل الصحيح والموقف الصحيح، ومثل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا عمّار، إن سلك الناس كلّهم وادياً، وسلك عليٌّ وادياً، فاسلك وادي علي، وخلّ عن الناس، إنَّ علياً لا يردّك عن هدىً، ولا يدلّك على ردى»[1].

هل مواقف أهل البيت عليهم السلام مزاجية؟

لدينا في البحث عن الإمام الحسن عليه السلام مجموعة نقاط:

النقطة الأولى: هل كانت مواقف أهل البيت عليهم السلام متأثّرة بالتركيبة النفسية لكلّ واحد منهم؟ هناك من يقول: إنَّ حمزة سيّد الشهداء مثلاً كان لديه شخصية قويّة وعصبية جعلته ينتصر لرسول الله صلى الله عليه وآله، وأبو الفضل العبّاس شخصيته الغيورة هي التي جعلت منه بطل كربلاء، بينما كان الحسن عليه السلام يتمتّع بشخصية أليفة وديعة هي التي جعلته يؤثِر الصلح، بينما الحسين عليه السلام كان يتمتَّع بشخصية قتالية، والإمام الباقر كان يتمتَّع بشخصية علمية، بينما الإمام زين العابدين كان يتمتَّع بشخصية حزينة جعلته يؤثِر الدعاء والبكاء. في ضوء هذه الرؤية فإنَّ مواقف أهل البيت عليهم السلام كانت تخضع لتركيبهم النفسي، وليس عبر استحقاقات الواقع الخارجي!

هذه الرؤية تقول: إنَّ الإمام الحسن عليه السلام وبحسب تركيبته النفسية قد جُهّز بأصل الخِلقة ليكون إصلاحياً يجمع بين فئتين، بينما الإمام

(١) بحار الأنوار ٣٣: ١٧؛ مناقب الخوارزمي: ١٩٤.

الحسين عليه السلام كانت تركيبته المزاجيّة حادّة تميل إلى المواجهة!، في زماننا يصطلحون في المجال السياسي على نمط من الناس بأنَّهم صقور، ونمط آخر أنَّهم حمائم.

هذا التفكير يقول أيضاً: إنَّ نمط شخصيّة الإمام الحسن عليه السلام هو من نمط الحمائم، ونمط شخصيّة الإمام الحسين عليه السلام هو من نمط الصقور، إذن فاختيار الموقف السياسي جاء من مكوّنات نفسية، الحسن هو حمائمي الطبع، والحسين هو صقري الطبع!

نحن نعتقد أنَّ هذا تفكيرٌ خاطئ، رغم اعتقادنا بأنَّ شخصيات الناس، والأئمّة والأنبياء عليهم السلام هي ليست من نمط واحد تماماً، لكن أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، والذين يتطابقون مع الحقّ دائماً، «علي مع الحقّ، والحقّ مع علي، يدور معه حيثما دار»[(١)]، لا يمكن أن نقبل فيهم فرضية الخضوع للتركيب النفسي، وإنَّما هو استحقاق الواقع، وهو الذي يحسم الموقف. ولهذا أنت لا تستطيع أن تقول: علي من الصقور، أو من الحمائم، هذا كلام خاطئ، فعلي عليه السلام مرَّة نجده من الصقور، ومرَّة نجده وديعاً من الحمائم، وهو نفسه علي.

مرَّةً نرى علياً جالساً في زاوية الدار، بحيث أنَّ الزهراء عليها السلام تعاتبه وتقول له: «اشتملتَ شملَةَ الجَنين، وقعدت حجرة الظنين»[(٢)]، لكن نجد علياً عليه السلام نفسه هو بطل الأبطال في معركة بدر وأُحُد وصفين والجمل والنهروان ومواقف أخرى، إذن القضيّة هي ما تفرضه طبيعة الواقع والمصلحة، وليست هي التركيبة النفسية.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٦٠؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨: ٧٢.

(٢) الاحتجاج ١: ١٤٥.

الإمام الحسن عليه السلام قاد المعركة بعد الإمام علي عليه السلام، وجهَّز جيشاً كانت مقدّمته في المدائن، وكان على رأس الجيش عبيد الله بن العبّاس، واختلفت الروايات حول القوّة العسكرية التي جهَّزها الإمام الحسن عليه السلام، ثلاثون أو ستّون ألفاً. لقد دخل الإمام الحسن في مواجهة حين رأى أنَّ الموقف الشرعي يفرض عليه ذلك، ولا يمكن القبول بمعاوية إلاَّ إذا أصبحت المصالح الدينية تفرض على الإمام الحسن أن يقبل الصلح.

الإمام الحسين عليه السلام مهما قلنا في شخصيته، لكنَّه ولمدّة عشر سنوات أيّام معاوية وبعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام كان من نمط الحمائم _ كما يُصطلح عليه اليوم _، وقد طلب منه أهل العراق أيّام معاوية أن ينهض، لكنَّه رفض ذلك.

إذن، تشخيص الإمام الحسين عليه السلام هو نفس تشخيص الإمام الحسن عليه السلام حينما كانت الظروف واحدة. ولم ترتبط القضيّة بالتركيبة النفسية.

هناك رواية تقول: إنَّ الزهراء عليها السلام جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ومعها الحسن والحسين، فقالت له: «يا أبتاه، هذان ابناك فورّثهما شيئاً»، فقال: «أمَّا الحسن فله هَيبَتي وسؤدَدي، وأمَّا الحسين فله جودي وشجاعتي _ وفي رواية: جودي وجرأتي _»[(١)].

ومن هنا قد يبدو أنَّ القضيّة هي قضيّة وراثية، وأنَّ الحسن عليه السلام هو بالطبع إنسان حكيم ومناور وليس من النمط القتالي، وأمَّا الإمام الحسين عليه السلام فهو أهل قتال ومبارزة بحسب الطبيعة الوراثية.

هذا تفكير غير مقبول، رغم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يشير إلى أنَّ

(١) إعلام الورى ١: ٤١٢؛ كنز العمّال ٧: ٢٦٨/ ح ١٨٨٣٩.

الحسن سينجز صلحاً، حين قال عنه: «إنَّ ابني هذا سَيِّد ولَعلَّ اللهَ عزّ وجلّ يُصلحُ بِهِ بَينَ فِئتين عظيمتين من المسلمين»[(١)]، وهذه الرواية واردة في كتب الحديث، ممَّا يعني أنَّ هناك ـ وبحسب علم الغيب، وبحسب اتّصال رسول الله صلى الله عليه وآله بالغيب ـ تخطيطاً مسبقاً أنَّ الحسن سوف يصالح، والحسين سوف ينهض ويقاتل، لكن هذا لم يكن لطبيعة التأثيرات الوراثية، بل كان تابعاً لاستحقاقات الواقع الخارجي.

الصلح والثورة مواقف متحرّكة:

النقطة الثانية: أنَّ الصلح والثورة هما من المواقف المتحرّكة وليسا من المواقف الثابتة، بمعنى أنَّهما من وجهة نظر الإسلام يخضعان لاستحقاقات الواقع الخارجي، وليسا من المبادئ الثابتة.

إنَّ مذهب الزيدية ـ وهم أتباع زيد بن علي عليه السلام الموجودين في اليمن اليوم ـ هؤلاء تصوّروا أنَّ الجهاد والثورة وحمل السلاح هو موقف ثابت لا يتغيَّر، فالإمام الذي لا يحمل السيف والسلاح ليس بإمام، واعتبروا الجهاد المسلَّح من الثوابت، بينما في رؤية أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم الشيعة الإمامية أنَّ العمل المسلَّح ليس من الثوابت، بل مرَّةً يكون الموقف هو الحرب المسلّحة، مثل حروب النبيّ صلى الله عليه وآله في المدينة المنوَّرة، ومرَّةً يكون الموقف هو الحوار أو الصلح أو الهدنة، أو غير ذلك، مثل موقف النبيّ صلى الله عليه وآله في مكّة المكرَّمة خلال ثلاثة عشر سنة، فإنَّه لم يخض حرباً مسلَّحة.

إذن العمل المسلَّح والعمل غير المسلَّح هما من المواقف المتحرّكة، وليسا من المواقف الثابتة، ولهذا نجد أئمّتنا عليهم السلام اختلفوا في

(١) عمدة الطالب: ٦٥؛ مسند أحمد ٥: ٤٩؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٧٥.

تشخيص الموقف بحسب اختلاف الظروف، مرَّةً يكون عملاً جهادياً، ومرَّةً عملاً علمياً، ومرَّةً أخلاقياً، ومرَّة مناورةً سياسية، وهكذا.

الإمام الحسن عليه السلام خطب الناس في الليلة التي استشهد الإمام علي عليه السلام في صبيحتها، وقال: «أيّها الناس، مَن عرفني فقد عَرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن الوصيّ، وأنا ابن البشير، وأنا ابن النذير، وأنا الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، وأنا من أهل البيت الذي كان جبرئيل ينزل إلينا ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيراً، وأنا من أهل البيت الذي افترض الله مودَّتهم على كلّ مسلم»[١]، واستمرّ لشحذ الهمم لبيان أنَّ الإمامة هيَ حقُّه.

ثمّ قام ابن عبّاس وقال:

(معاشر الناس هذا ابن نبيّكم، ووصيّ إمامكم، فبايعوه)، فاستجاب له الناس، وقالوا: ما أحبّه إلينا، وأوجب حقّه علينا[٢].

هذه النقطة المهمّة، أنَّ قيس بن سعد بن عبادة الذي كان من الأبطال، ومن أصحاب أمير المؤمنين الخلَّص، وكان قد جعله الإمام والياً في مصر ثمَّ سحبه، وأبوه سعد بن عبادة الأنصاري الذي لم يبايع في السقيفة، وهاجر إلى الشام، وهناك دُبّرت له عملية اغتيال فقتل، وهي أوّل عملية اغتيال سياسي في التاريخ الإسلامي، قيس بن سعد بن عبادة كان من الأبطال في معارك الإمام علي عليه السلام، ولمَّا صارت الخلافة إلى الحسن عليه السلام جاء وقال:

(أُبسط يدك أبايعك على كتاب الله عزّ وجلّ، وسُنّة نبيّه، وقتال المُحلّين)،

(١) كشف الغمّة ٢: ١٦٩؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٧٢.

(٢) الإرشاد ٢: ٨؛ إعلام الورى ١: ٤٠٧.

ويقصد بالمُحلّين: الخارجين على الإمامة. لكن الإمام الحسن عليه السلام قال: «على كتاب الله، وسُنّة رسوله، فإنَّهما يأتيان على كلِّ شرط»(١).

لماذا نضيف شرطاً آخر فوق الكتاب والسُنّة؟ أنت تضيف شرطاً متحرّكاً إلى الثوابت في الإسلام.

هذه هي ثقافة أهل البيت عليهم السلام.

الإمام علي عليه السلام في الشورى السداسية التي رسمها عمر بن الخطّاب، لمَّا قال له عبد الرحمن بن عوف: (أُبسط يدك أبايعك على كتاب الله، وسُنّة رسوله، وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر)، فقال: «بل على كتاب الله، وسُنّة رسوله، واجتهاد رأيي»، فعدل عنه إلى عثمان(٢).

كان الإمام علي مستعداً لأن يخسر الحكم بأكمله من أجل أن يؤكّد لنا أن لا تكون اجتهاداتنا الشخصية ثوابت ومقدَّسات.

لقد كان تشخيص الإمام الحسن عليه السلام يومئذٍ أنَّ الإرادة العراقية غير قادرة يومئذٍ على مواصلة القتال، لكن لأجل أن يقيم الحجّة عليهم قام بتعزيز القوّات وحشدها إلى أن فُرض عليه الصلح، ورأى الإمام المعصوم أنَّ الصلح هو الأولى للحفاظ على البقيّة المتبقّية.

سياسات الإمام الحسن عليه السلام:

نحاول أن نجيب على مجموعة أسئلة تخصّ الإمام الحسن عليه السلام.

نحن نعلم أنَّ الحسن عليه السلام لُقّب بكريم أهل البيت عليهم السلام، وتولّى الإمامة الشرعية بعد أمير المؤمنين عليه السلام من سنة (٤٠ هـ) إلى سنة (٥٠هـ)،

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ١٢١؛ الكامل في التاريخ ٣: ٤٠٢.

(٢) راجع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٨٨.

وكانت شهادة أمير المؤمنين سنة (٤٠ هـ) في شهر رمضان، فالإمام الحسن عليه السلام من يومئذٍ أصبح هو الإمام الشرعي، واستمرَّ إلى سنة (٥٠) للهجرة، ومن سنة (٥٠) للهجرة إلى سنة (٦١) للهجرة كانت إمامة الإمام الحسين عليه السلام، وفي هذه العشر سنوات برز الإمام الحسن عليه السلام بخطّ العلاقات الاجتماعية الواسعة، هادفاً من ذلك إلى الحفاظ على الإطار الإسلامي العامّ، وعلى كتلة شيعة أهل البيت، وفي الأشهر الأولى جرى الصلح بين الإمام الحسن عليه السلام وبين معاوية.

هناك خمسة أسئلة نستعرضها بشكل موجز:

السؤال الأوّل: لماذا لم يُؤثِر الإمام الحسن عليه السلام الشهادة، ولم يمارس الدور الاستشهادي كالحسين عليه السلام؟

السؤال الثاني: إذا كان الإمام الحسن عليه السلام لم يمارس الدور الاستشهادي، فلماذا لم يمارس الدور العبادي مثل الإمام زين العابدين عليه السلام، ويؤدّي دوره في الأمّة من خلال العبادة؟

السؤال الثالث: لماذا لم يمارس الإمام الحسن عليه السلام الدور العلمي، ولم يؤثِر دور العلم وبناء الحوزة العلمية، كما صنع الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام؟

السؤال الرابع: لماذا صالح الإمام الحسن عليه السلام معاوية؟

السؤال الخامس: ما هو الدور الذي مارسه الإمام الحسن عليه السلام؟ وكيف حفظ لنا هذه الرسالة؟

وفي الإجابة على هذه الأسئلة الخمسة نقول: إنَّ الإمام الحسن عليه السلام مارس دور بناء العلاقات الاجتماعية، والحفاظ على الكتلة الصالحة وهم شيعة أهل البيت من خلال ممارسته لخطّ العلاقات

الاجتماعيـة ومداهنـة السـلطة؛ لأجـل أن لا تـتمّ عمليـة التصـفية الكاملـة لشـيعة أهـل البيـت عليهم السلام؛ ولأجـل أن تبقـى الشـعارات الإسـلاميّة، ويبقـى الإسـلام محفوظـاً ولـو علـى مسـتوى الشـكل، بعـد أن كـان الحكـم الأمـوي عازمـاً علـى حـذف الإسـلام شـكلاً ومضـموناً. لأنَّ السياسـة الأمويـة كانـت بالضـدّ مـن جـوهر الإسـلام، والإمـام عمـل علـى أن يبقـى الإسـلام ولـو علـى مسـتوى الشـكل، وأن لا تتجـرَّأ السـلطة علـى مواجهـة علانيـة مـع الإسـلام فيعلنــون الكفــر، ولهــذا فقــد حافظــت الســلطات الأمويــة علــى الشــكل الإسلامي، وكذلك العبّاسيون، ولم يتمرَّدوا على الإسلام بشكل مُعلن.

هذا هو دور الإمام الحسن عليه السلام، ونحن نحاول الإجابة على هذه الأسئلة.

لماذا لم يؤثر الشهادة؟

لماذا لم يستشهد الإمام الحسن عليه السلام في القتال ضدّ الباطل؟

يـأتي بعـض المستشـرقين وكتّـاب الغـرب مثـل (رونالدسـن) و(فيليـب) ليقولـوا: إنَّ الإمـام الحسـن عليه السلام إنَّمـا لـم يُـؤثِر الـدور الاستشـهادي لمشـكلة فـي لياقتـه النفسـية؛ حيـث لـم يكـن يتمتَّـع باللياقـات القياديـة، وبالتـالي انسحب عن خطّ القتال ولم يمارس دور الشهادة!

والجـواب: أنَّ هـذا تصـوّر خـاطئ، فالإمـام علـي عليه السلام بعـد الصـلح رجـع إلـى الكوفـة، والمعركـة كانـت فـي صـفين، وبقـي ينتظـر فـي الكوفـة حتَّـى يـأتي أشـقاها، فـلا توجـد حـرب، ولكـن كانـت اغتيـالات، ولـم يـدخل معركـة استشـهادية، بـل أصـبحت مثـل هـذه المعركـة خاسـرة لـو كـان الإمـام علـي عليه السلام يريـد خوضـها، لـو كـان الإمـام علـي عليه السلام بعـد أحـداث صـفين والخـوارج يصـرُّ علـى الـدخول فـي معركـة بأصـحابه ويستشـهدون مثـل

الحسين عليه السلام كان سيقال: إنَّ هذا العمل تهوّر وخلاف التحكيم الذي حدث بين عمرو بن العاص ومن يمثّل طرف الإمام علي عليه السلام وهو أبو موسى الأشعري.

ولهذا فإنَّ الإمام علياً عليه السلام _ وهو رمز البطولة _ كان ينتظر من يأتي ويقتله.

الإمام الحسين عليه السلام كذلك، فمنذ سنة (٥٠) للهجرة _ أي بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام مسموماً على يد جعدة بنت الأشعث _ إلى سنة (٦١) للهجرة، لم يمارس دوراً استشهادياً، بل كان يقول: ما دام معاوية حيّاً فإنّي لا أنهض ولا أثور، لأنَّ الظروف غير مواتية.

ومن هنا كانت تأتي شبهة (طه حسين) في أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان يختلف مع أخيه الحسن عليه السلام في الرأي، فهو يذكر في كتابه (علي وبنوه _ الفتنة الكبرى) أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان يختلف مع أخيه الحسن عليه السلام في صلحه مع معاوية، وهذا خطأ؛ بدليل أنَّ الحسين عليه السلام لو كان له رأي آخر، لبرز هذا في الموقف، وجسَّده الإمام الحسين عليه السلام حينما كان إماماً؛ لأنَّنا وجدناه يمارس نفس الخطّ إلى أن هلك معاوية.

وبالفعل جاءت وفود إلى الإمام الحسين عليه السلام يطلبون منه البيعة، يا أبا عبد الله، أخوك الحسن عليه السلام لم ينهض، انهض أنت.

قال عليه السلام: «ليكن كلّ رجل منكم حِلساً من أحلاس بيته، ما دام معاوية حيّاً، فإنَّها بيعة كنت والله لها كارهاً، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم، ورأينا ورأيتم»[1].

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٤٢.

يبدو أنَّ المعركة الاستشهادية أيّام معاوية بتقدير الإمامين عليهما السلام تعتبر عملاً خاسراً ربَّما للسياسات الدعائية والنفاقية الكبيرة التي كان يمارسها معاوية[1]، بحيث إنَّه كان قادراً على تغطية الموقف، فيما يُظهر الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام وكأنَّهم هم المتمرّدون والمخالفون للصلح ولرضى الجمهور.

---

(١) من سياساته الدعائية النفاقية أنَّه لمَّا قرأ كتاب قيس بن سعد عامل أمير المؤمنين عليه السلام على مصر جواباً على كتابه له يُمنّيه ويهدّده فيه، وعلم أنَّه لا يقبل منه المدافعة والمطاولة، بقوله: أمَّا بعد، فالعجب من استسقاطك رأيي، والطمع في أن تسومني - لا أباً لغيرك - الخروج من طاعة أولى الناس بالأمر، وأقولهم بالحقّ وأهداهم سبيلاً، وأقربهم من رسول الله وسيلة، وتأمرني بالدخول في طاعتك وطاعة أبعد الناس من هذا الأمر... الخ.

يقول ابن أبي الحديد: فلمَّا أتى معاوية كتاب قيس، أيس وثقل مكانه عليه، وكان أن يكون مكانه غيره أحبّ إليه، لما يعلم من قوّته وتأبيه ونجدته، واشتداد أمره على معاوية، فأظهر للناس أنَّ قيساً قد بايعكم، فادعوا الله له. وقرأ عليهم كتابه الذي لان فيه وقاربه، واختلق كتاباً نسبه إلى قيس فقرأه على أهل الشام: للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد. أمَّا بعد، إنَّ قتل عثمان كان حدثاً في الإسلام عظيماً، وقد نظرت لنفسي وديني، فلم أرَ يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرماً برّاً تقياً، فنستغفر الله سبحانه لذنوبنا، ونسأله العصمة لديننا. ألا وإنّي قد ألقيت إليكم بالسلام، وأجبتك إلى قتال قتلة إمام الهدى المظلوم، فاطلب منّي ما أحببت من الأموال والرجال أعجّله إليك إن شاء الله، والسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته.

قال: فشاع في الشام كلّها أنَّ قيساً صالح معاوية، وأتت عيون علي بن أبي طالب إليه بذلك، فأعظمه وأكبره وتعجَّب له، ودعا ابنيه حسناً وحسيناً وابنه محمّداً وعبد الله بن جعفر، فأعلمهم بذلك، وقال: ما رأيكم؟ فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، اعزل قيساً عن مصر. قال علي عليه السلام: والله إنّي غير مصدِّق بهذا على قيس... الخ. (راجع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٦٣).

لماذا لم يمارس دور الدعاء؟

أمَّا لماذا لم يمارس دور الدعاء والبكاء مثل الإمام زين العابدين عليه السلام؟

فالجواب على ذلك أنَّ الاستحقاقات الاجتماعية والثقافية يومئذٍ كانت تختلف عن الاستحقاقات في زمن الإمام زين العابدين عليه السلام.

الإمام زين العابدين عليه السلام واجه أمّة منكوبة بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام، والكلّ كان يعرف أنَّ هذه نكبة حقيقية للأمّة، مقتل الحسين عليه السلام، ورمي الكعبة بالمنجنيق، وإباحة المدينة المنوَّرة.

لا يوجد أحد إلاَّ وكان مفجوعاً تحت موجة الطغيان اليزيدي، والشعور العامّ بوجود نكبة حقيقية عند المسلمين، ولهذا فإنَّ جميع المسلمين شاطروا الإمام الحسين عليه السلام في شرعية حركته؛ لمعرفتهم أنَّ حركة الحسين عليه السلام مقدَّسة، ومعركة يزيد غير مقدَّسة، بينما كان الوضع يختلف أيّام الإمام الحسن عليه السلام، فالناس هنّئوا بالصلح مع معاوية، ولهذا فإنَّ موجة الأسى والحزن في العالم مكَّنت الإمام زين العابدين عليه السلام أن يبرز بدور الدعاء والبكاء.

لماذا لم يتفرَّغ للدور العلمي؟

وذلك لأنَّ الحرّيات الثقافية كانت معدومة مائة بالمائة في زمن معاوية بن أبي سفيان، فمعاوية منع تفسير القرآن الكريم، ومنع تدوين الحديث، ومنع كلّ العالم الإسلامي أن يجلس واحد من الصحابة ويقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله، حتَّى أمثال ابن عبّاس، مصادرة الحرّية الثقافية بشكل واسع، الإمام الحسن لم يكن قادراً على عقد حلقة دراسية، والحديث واسع جدّاً عن هذه الأمور.

لماذا صالح الإمام الحسن عليه السلام؟

فيقول عليه السلام: صالحتُ حفاظاً على أتباع أهل البيت عليهم السلام، وحفاظاً على هذه الكتلة، فقد كان لديه وضوح أنَّ الحرب تكون نتيجتها التصفية الكاملة بدون وعي جماهيري، حتَّى لا يبقى أحد ينعى الإمام الحسن عليه السلام بينما لمَّا قُتل الإمام الحسين عليه السلام عُقدت له مجالس العزاء في العالم وإلى يومنا هذا، ولكن الإمام الحسن عليه السلام يقول: لو كنت أواصل هذا الخطّ لا يبقى للإسلام ناعي؛ لأنَّ الصورة ستكون كخارجي خرج على حكم معاوية، بينما يلبس معاوية الثوب الديني ويَقتل الإمام الحسن عليه السلام، ويلعن الناس الإمام الحسن عليه السلام!!، وهناك نصوص للإمام في هذا الشأن(١).

والخطّ الذي مارسهُ هو خطّ العلاقات الاجتماعية الواسع، والحفاظ على كتلة أهل البيت عليهم السلام من المطاردة والاستئصال، ويبقى خطّ معارضة يضغط على الحكم باتّجاه المحافظة على الإسلام بأيّ

(١) **منها:** ما روي أنَّ المسيب بن نجبة قال للحسن عليه السلام: ما ينقضي عجبي منك! بايعت معاوية ومعك أربعون ألفاً، ... قال: «فما ترى؟»، قال: أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه، فقد نقض ما كان بينه وبينك. فقال: «يا مسيب، إنّي لو أردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء، ولا أثبت عند الحرب منّي، ولكنّي أردت صلاحكم، وكفّ بعضكم عن بعض، فارضوا بقدر الله وقضائه، حتَّى يستريح برّ، أو يستراح من فاجر».

ومنها: أنَّه دخل عليه سفيان بن أبي ليلى النهدي، فقال له: السلام عليك يا مذلّ المؤمنين! فقال الحسن: «أجلس يرحمك الله، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله رفع له ملك بني أميّة، فنظر إليهم يعلون منبره واحداً فواحداً، فشقَّ ذلك عليه، فأنزل الله تعالى في ذلك قرآناً قال له: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾. وسمعت علياً أبي عليه السلام يقول: سيلي أمر هذه الأمّة رجل واسع البلعوم، كبير البطن. فسألته: من هو؟ فقال: معاوية. وقال لي: إنَّ القرآن قد نطق بملك بني أميّة ومدّتهم، قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، قال أبي: هذه ملك بني أميّة». (راجع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ١٦).

مستوى من المستويات، هذا هو الخطّ الذي مارسه الإمام الحسن عليه السلام، ولهذا فقد لُقّب بكريم أهل البيت عليهم السلام، رغم أنَّهم كلّهم كرماء، لكن سلسلة علاقاته الاجتماعية وحرصه على البقاء في عمق الجمهور هو الذي جعله يُعرف بهذا اللقب. وبودّنا أن نشير إلى مجموعة قصص:

منها: أنَّ شامياً رآه راكباً، فجعل يلعنه والحسن عليه السلام لا يرد، فلمَّا فرغ أقبل الحسن عليه وضحك وقال: «أيّها الشيخ، أظنّك غريباً، ولعلَّك شَبَّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حرَّكت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأنَّ لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كبيراً».

فلمَّا سمع الرجل كلامَه بكى، ثمّ قال: أشهد أنَّك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالاته، وكنتَ أنت وأبوك أبغضَ خَلق الله إليَّ، والآن أنت أحبُّ خلق الله إليَّ، وحوَّل رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبّتهم [1].

ومنها أنَّه لمَّا توفّى الإمام الحسن عليه السلام بكى مروان بن الحكم في جنازته.

فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه!».

فقال مروان: إنّي كنت أفعل ذلك إلى أحلم من هذا ـ وأشار بيده إلى الجبل ـ [2].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٨٤، حكاه عن المبرّد.

(٢) تاريخ دمشق ١٣: ٢٥٢؛ السيرة الحلبية ٣: ٣٦٠.

لقد كان الإمام عليه السلام يفرض شخصيته حتَّى على معاوية، لأنَّهم يعرفون أنَّ الأئمّة مكمن ثورة.

بعض المؤرِّخين كابن أثير في (الكامل في التاريخ) يروي: أنَّ مروان بن الحكم قال يوماً: إنّي مشغوف ببغلة الحسن بن علي، فقال له ابن أبي عتيق: إن دفعتها إليك تقضي لي ثلاثين حاجة؟

قال: نعم.

قال: إذا اجتمع الناس فإنّي آخذ في مآثر قريش وأُمسك عن مآثر الحسن، فَلُمني على ذلك.

فلمَّا حضر القوم أخَذ في أوّلية قريش، فقال مروان: ألا تذكر أوّلية أبي محمّد وله في هذا ما ليس لأحد؟!

قال: إنَّما كنّا في ذكر الأشراف، ولو كنّا في ذكر الأنبياء لقدَّمنا ذكره.

فلمَّا خرج الحسن عليه السلام ليركب تبعه ابن أبي عتيق، فقال له الحسن ـ وتبسَّم ـ: «ألك حاجة؟».

قال: نعم، ركوب البغلة.

فنزل الحسن عليه السلام ودفعها إليه. (إنَّ الكريم إذا خادعته انخدعا)[1].

الحديث عن كرم الإمام عجيب، ولهذا سُمّي بكريم أهل البيت عليهم السلام.

ما هو دور الإمام الحسن عليه السلام؟

سبق أن وضَّحنا أنَّ دور الإمام علياً عليه السلام كان سلب الشرعية من الحكم المنحرف، فهو يعرف أنَّه يخسر المعركة المسلَّحة؛ ولكن يجب أن يسلب الشرعية من حكومة معاوية حتَّى لا يقال: إنَّ معاوية هو الخليفة الخامس.

---

(١) راجع: مناقب آل أبي طالب ٣: ١٨٤، عن الكامل في التاريخ ١: ٣٧٩/ ط: القاهرة.

أمَّا دور الإمام الحسن عليه السلام هو دور كشف الهوية المعادية للإسلام، وفساد الحكم الأموي، وسرعان ما انكشفت هذه الهوية وإلى اليوم، وأنَّه حكم قومي يقوم على أساس طلب الرئاسة وليس الدين، ولا يوجد كاتب وإلى اليوم يقول: إنَّ معاوية كان يطلب الحكم قربة إلى الله.

أمَّا الإمام الحسين عليه السلام فقد كان دوره هو بثّ الروح الثورية.

سفر الإمام الحسن عليه السلام إلى الشام:

الإمام الحسن عليه السلام سافر من المدينة إلى دمشق الشام، وذلك أنَّ الإمام الحسن عليه السلام بعد شهادة الإمام علي عليه السلام كان في الكوفة، وتولّى الإمامة وهو في الكوفة، وجهَّز جيشاً لخوض الحرب مع جيش الشام فيها أيضاً، لكن بعد الصلح بين الإمام الحسن عليه السلام وبين معاوية آثر الإمام عليه السلام الانتقال إلى المدينة المنوَّرة، أي إنَّ السلطة الرسمية أصبحت لمعاوية، والإمام الحسن عليه السلام في العراق لا يمارس سلطة سياسية، فآثر عليه السلام الانسحاب إلى المدينة المنوَّرة، وبالفعل انسحب عليه السلام إليها.

لكن التاريخ يحدّثنا عن مجموعة سجالات ومعارك إعلامية بين الإمام الحسن عليه السلام وبين معاوية في محافل جماهيرية في الشام، ممَّا يعني أنَّ الإمام عليه السلام سافر إلى دمشق، ربَّما مرَّة واحدة، أو أكثر، وكان لحضوره في الشام جدل شديد في البلاط الأموي مع معاوية.

لماذا سافر الإمام الحسن عليه السلام؟

هناك ثلاثة آراء في هذا السفر، ولقد كان فرصة مفتوحة للإمام الحسن عليه السلام لتسجيل رؤاه في معاوية وحكمه وبشكل علني، ولدينا

عشرات النصوص في الجدل الذي كان بين معاوية والإمام الحسن عليه السلام، ومن جملتها في القصر الأموي[١].

الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية جالسان.

فقال معاوية: أنا أخير منك يا حسن.

قال: «وكيف ذاك يا ابن هند؟».

قال: لأنَّ الناس قد أجمعوا عليَّ ولم يجمعوا عليك.

قال: «هيهاتَ، هيهاتَ، لشرَّ ما علوتَ يا ابن آكلة الأكباد، المجتمعون عليك رجلان بين مطيع ومكره، فالطائع لك عاص لله، والمكره معذور بكتاب الله، وحاشا لله أن أقول: أنا خير منك، فلا خير فيك، ولكن الله برَّأني من الرذائل كما برَّأك من الفضائل»[٢].

وهذه السجالات تطوَّرت في البلاط الأموي على أكثر من صعيد، حتَّى أنَّه اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعتبة بن أبي سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة، فقالوا لمعاوية: إنَّ الحسن قد أحيا أباه وذكره، وقال فصُدِّق، وأمَر فأطيع، وخَفقت له النعال، وإنَّ ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوءنا[٣].

ولنعُد إلى السؤال عن سبب سفر الإمام إلى الشام، فقد قلنا هناك ثلاثة تفاسير:

التفسير الأوّل: أنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان يذهب إلى دمشق كي

---

(١) راجع احتجاجه عليه السلام على جماعة من المنكرين لفضله وفضل أبيه عليه السلام بحضرة معاوية في كتاب الاحتجاج ١: ٤٠١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٨٦.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦: ٢٨٥.

يأخذ عطايا معاوية، كما ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخه، لكن هذا التفسير لا يملك ما يؤيّده، لأنَّ الإمام الحسن عليه السلام لم يكن محتاجاً، وإذا كان معاوية يريد إعطاءه عطاءً فإنَّه كان يبعث به إلى المدينة؛ ولم يكن من شأن الإمام عليه السلام الذهاب إلى الشام لأخذ عطاء، وهذه الرواية ينفرد بها ابن عساكر(١)، ولا يمكن الاعتماد عليه تاريخياً.

التفسير الثاني: وهو الذي يميل له طه حسين، يقول: (إنَّ الإمام الحسن عليه السلام أسَّس حزباً هو الحزب الشيعي، أراد أن يُعلن عنه ويدعو له في الشام)، لو كنّا نعتقد أنَّ طه حسين قد تأثَّر بالأجواء الحزبية في مصر والبلاد العربية، وافترض أنَّ التشيّع عبارة عن حزب سياسي.

ولكن هذه أغلوطة كبيرة، فالحزب له سياساته، والدين والمذهب له سياساته الأخرى، والتشيّع ليس حزباً، بل هو رؤية إسلاميّة شاملة. وعلى كلّ الأحوال فإنَّ هذا التفسير يعتمد على رؤية تقول: إنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان في الحجّ وجاءه جمع من العراقيين وطلبوا منه البيعة، فشكَّل معهم الإمام عليه السلام حزباً، وكتب لهم وصايا، وكان يأتي إلى الشام لغرض الدعاية الحزبية.

ولا بدَّ أن نؤكّد هنا أنَّ تاريخ التشيّع يرجع إلى ما قبل عهد الإمام الحسن عليه السلام إلى الإمام علي عليه السلام وعهد رسول الله صلى الله عليه وآله، وحيث كان التشيّع يمثّل الإسلام الحقيقي، فكان علي عليه السلام وأصحابه يُشار إليهم بالبنان، وكان الإمام عليه السلام في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله ميزاناً لمعرفة المنافقين والمخلصين، ولكن طه حسين يفهم أنَّ الإمام الحسن كان لديه حركة

---

(١) راجع: تاريخ دمشق ١٣: ١٦٦.

سياسية، وحركته السياسية هي عبارة عن تشكيل حزب اسمه: (حزب الشيعة)، وكان يسافر إلى دمشق ليدعو إلى حزبه.

التفسير الثالث: يذكره سماحة الشيخ باقر شريف القرشي في كتابه (حياة الإمام الحسن عليه السلام)، يقول: إنَّ الحسن عليه السلام كان يذهب إلى الشام للدفاع عن رؤاه الصحيحة وللإعلام عن حقّانيته في الخلافة، وكان الإمام ينفتح على هذا الفضاء الإعلامي في الشام لكي يتحدَّث عن المذهب.

التفسير الرابع: وهناك رأي يقول: إنَّ المسألة ربَّما تكون بدعوة من معاوية؛ كي يكون الإمام تحت السيطرة والرقابة المستمرّة، وهذا رأي معقول رغم عدم وجود ما يدلُّ عليه من النصوص التاريخيّة، ولكنَّه ليس بعيداً من سياسة معاوية وأساليبه.

تلك كانت مجموعة تفاسير لسفر الإمام الحسن عليه السلام إلى الشام، فكان الإمام الحسن عليه السلام يقوم فيها فضح الموقف الأموي وبيان حقّانية أهل البيت عليهم السلام.

الشعار الحسيني وموقف الإمام الحسن عليه السلام:

نلاحظ أنَّ الإمام الحسين عليه السلام رفعَ شعار: «هيهاتَ منّا الذلّة»، وانطلق من مفهوم: «يأبى اللهُ لَنا ذلكَ ورَسُولُه والمؤمِنون، وحُجور طابَت وَطَهُرت، وأنوفُ حَميَّة، ونُفوسٌ أبِيَّة مِنْ أن نؤثِرَ طاعَةَ اللِئام على مصارِعِ الكرام»، بما يعني أنَّ الله تبارك وتعالى لا يقبل أن يكون أئمّة الحقّ أذلاّء بيد الأعداء، ويجب عليهم أن يقاتلوا حتَّى يُصرعوا ولا يخضعوا للذلّ، لكن من الحقّ أن نتساءل:

كيف يقول الإمام الحسين عليه السلام ذلك؟ في الوقت الذي نرى فيه أنَّ الإمام الحسن عليه السلام قد رضي بالخضوع لحكم منحرف هو حكم

معاوية بن أبي سفيان. وهو ذلّ بلا شكّ، فكيف قبل إمامنا الحسن ذلك؟ يا تُرى هل هي سياسة أخرى؟

ثمّ تتطوَّر المسألة أكثر، إلى الإمام علي عليه السلام، أليس هو عليه السلام قد خضع للمصالح التي فرضت عليه أن يتماشى مع الحكم القائم على عهد الخلفاء الثلاثة؟ فأين هذا من منطلق الإمام الحسين عليه السلام الذي رفض أن يؤثِر طاعة اللئام على مصارع الكرام، فالإمام علي عليه السلام لم يَدخل في عمل مسلَّح ضدّ الانحراف، والإمام الحسن عليه السلام كذلك، في الوقت الذي نجد أنَّ الإمام الحسين عليه السلام قد طرح مفهوماً ثابتاً واعتبره من ثوابت الإسلام حين قال: «يأبى اللهُ لَنا ذلكَ ورَسُولُه والمؤمِنون»، فكيف قبل الإمام علي عليه السلام بالتحكيم المفروض عليه مع معاوية، وكيف بايع الخلفاء من قبله؟

والإمام الحسن عليه السلام كذلك، كيف قَبل بالصلح المفروض عليه؟

هذه أسئلة في غاية الأهمّية.

اختلاف في نمط المعركة:

تختلف المعارك وأنماطها فهناك معركة تُسمّى: معركة الاستئصال، وهناك معركة تُسمّى: معركة الإذلال، معاوية ابن أبي سفيان كانت سياسته وهدفه هو الاستئصال لأهل البيت عليهم السلام وجذورهم، وهنا كان يتعيَّن على الأمام الحسن عليه السلام أن يدخل معهُ معركة الحياة والموت، فيجب أن يحافظ على الكتلة الصالحة، ويحافظ على الإسلام أن لا ينتهي. ونفس هذا الدور قام به الإمام علي عليه السلام، حيث كان يواجه معركة استئصال من الجذور، وبالتالي يجب أن يحافظ على الكتلة الصالحة.

لكن الإمام الحسين عليه السلام واجه معركة أخرى من قِبَل يزيد بن معاوية،

وهي ليست معركة استئصال، وإنَّما هي معركة إذلال، حيث أراد أن يبايعه المسلمون على الرقّ والعبودية، يزيد كان أحمقاً ولم يكن داهية، بخلاف معاوية، معاوية كان لديه دهاء سياسي، وكان يخطّط لاستئصال أهل البيت عليهم السلام واستئصال الإسلام الحقيقي، وبالتالي فإنَّ المعركة قد اختلفت.

الإمام الحسن عليه السلام كان يتحمَّل مسؤولية المحافظة على حياة الإسلام والمسلمين، بينما الإمام الحسين عليه السلام كان يتحمَّل مسؤولية إعطاء الكرامة والعزّة في مقابل معركة الإذلال، هنا معركة استئصال، وهناك معركة إذلال، ولهذا نجد أنَّ الإمام الحسن عليه السلام طرح شعاراً آخر، فقال: «والله لأن تذلّوا وتُعافوا أحبُّ إليَّ مِن أن تعزّوا وتُقتلوا»(١)، ويعني بذلك: أن تبقوا أحياءً بعيداً عن الاستئصال رغم الذلّ أحبُّ إليَّ من أن تكونوا أعزّاءَ ولكن لا يبقى منكم أحد، وينتهي بنهايتكم جذر الإسلام وجذر التشيّع.

إذن، هذان شعاران مختلفان حسب استحقاقات وطبيعة المعركة.

حديثنا اليوم عمَّا هي المناهج التي اتَّبعها الإمام الحسن عليه السلام في معركته السياسية، بعد أن اعتبر مسألة الصلح حقيقة مفروضة، مثل التحكيم عند الإمام علي عليه السلام، فرغم أنَّ أحداً لا يشكُّ في قداسة وبطولة وخبرة الإمام علي عليه السلام، لكن التحكيم كان أمراً مفروضاً عليه. وكذلك الصلح مع معاوية بعد أن أصبحت قضيّة الصلح قضيّة فرضت نفسها على الأرض، حين وجد الإمام الحسن أنَّ الجيش الذي قاتل خمس سنوات أصبح جيشاً منهاراً، حتَّى أنَّ الإمام علياً عليه السلام في الأيّام الأخيرة كان يستغيث ويصرخ بهم ولا أحد يستجيب له، فماذا يصنع الإمام الحسن

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٤٢.

عليه السلام؟ فإذا لم يتطوَّع الناس فالإمام علي عليه السلام غير قادر على القتال، ولا الإمام الحسن عليه السلام قادر على القتال، إلاَّ أن يخوض عملية استشهادية مثلما كان موقف الإمام الحسين عليه السلام.

لماذا لم يتقدَّم الحسن عليه السلام نحو الشهادة؟

وقد يسأل سائل: لماذا لم يتقدَّم الإمام الحسن عليه السلام لخوض معركة استشهادية مثل الحسين عليه السلام؟

الجواب: أنَّ الإمام الحسن عليه السلام كان يواجه عدّة خيارات:

الأوّل: خيار الاغتيال، مثلما فعل معاوية مع مالك الأشتر حين أرسله الإمام علي إلى مصر والياً، ولكنَّه قَبْلَ أن يَصِلَ إلى مصر اغتاله معاوية بسُمٍّ دسَّه له في العسل، وقال مقولته الشهيرة: (إنَّ لله جنوداً من عسل)[1]. وتصوَّروا أنَّ الإمام الحسن عليه السلام لو كان يُقتل غيلة، ثمّ يقال: إنَّ جماعته هم الذين قتلوه.

الثاني: أن يؤخذ أسيراً إلى معاوية، فإنَّه سوف لن يتحقَّق مشروع الشهادة الذي حقَّقه الإمام الحسين عليه السلام.

وأمام هذه الخيارات كان الإمام الحسن عليه السلام يقول: «والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتَّى يدفعوني إليه سلماً، والله لئن أُسالمه وأنا عزيزٌ خيرٌ من أن يقتلني وأنا أسيره، أو يمُنُّ عليَّ فتكون سبَّة على بني هاشم آخر الدهر، ومعاوية لا يزال يمُنُّ بها وعقبه على الحيّ منّا والميّت»[2].

---

(١) راجع: تاريخ دمشق ٥٦: ٣٩١.

(٢) الاحتجاج ٢: ١٠؛ بحار الأنوار ٤٤: ٢٠.

مهمّات الحسن عليه السلام بعد الصلح:

المهمّة الأولى: التثقيف السياسي وكشف هوية الحكم الأموي:

فمنذ أوّل يوم من عقد المصالحة مع معاوية بدأ الإمام الحسن عليه السلام يقدِّم خطاباً سياسياً من نمط خاصّ، يؤكّد فيه أنَّ هذا الحكم حكم منحرف غير شرعي، وتأتي كلمات الإمام الحسن عليه السلام واحدة بعد أخرى، يقول فيها: «إنَّ معاوية نازعني حقّاً هو لي، فتركته لصلاح الأمّة وحقن دمائها»[١]، «إنَّ معاوية زعم أنّي رأيته للخلافة أهلاً ولم أرَ نفسي لها أهلاً! كذب معاوية، نحن أولى الناس بالناس في كتاب الله وعلى لسان نبيّ الله، فأقسم بالله لو أنَّ الناس بايعوني وأطاعوني ونصروني، لأعطتهم السماء قطرها، والأرض بركتها، ولما طمعت فيها يا معاوية، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما ولَّت أمّةٌ أمرَها رجلاً قطّ وفيهم من هو أعلم منه إلاَّ لم يَزل أمرُهم يذهب سفالاً حتَّى يرجعوا إلى مِلّة عَبَدَة العجل»[٢].

الإمام الحسن عليه السلام كان يجتمع بأهل العراق بعد الصلح، وعندما كانوا يطلبون منه الرجوع عمَّا تمَّ من الصلح والعودة إلى القتال كان عليه السلام يقول لهم: «ليكن كلّ رجل منكم حِلساً[٣] من أحلاس بيته، ما دام معاوية حيّاً، فإن يهلك ونحن وأنتم أحياء، سألنا الله العزيمة على رشدنا، والمعونة على أمرنا، وأن لا يكِلَنا إلى أنفسنا، فإنَّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون». فدخلوا على الحسين عليه السلام، فعرضوا عليه ما عرضوا على الحسن عليه السلام، وأخبروه بما ردَّ عليهم، فقال الحسين عليه السلام: ليكن كلّ رجل منكم حِلساً من أحلاس بيته، ما دام معاوية حيّاً، فإنّها

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٩٦.

(٢) الاحتجاج ٢: ٨.

(٣) الحِلس: هو ما يلي الظهر من الدّابة تحت البرذعة، والمعنى: الزموا بيوتكم ولا تبرحوها.

بيعة كنت والله لها كارهاً، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم، ورأينا ورأيتم»[(١)].

الرؤية التي لدى الإمام الحسين عليه السلام هي نفس الرؤية التي لدى الإمام الحسن عليه السلام.

كان هذا هو التثقيف السياسي الذي قام به الإمام الحسن عليه السلام.

المهمّة الثانية: مواجهة حرب الاستئصال:

هنا نصوص تأريخية تقول: إنَّ سياسة معاوية كانت عبارة عن العمل على استئصال شيعة علي، وبعد ذلك استئصال جذر الإسلام الحقيقي، وتحويل الدولة إلى إمبراطورية قيصرية، ولو راجعنا نصوص الإمام الحسن عليه السلام لوجدنا ذلك واضحاً، حيث يقول عليه السلام لمالك بن ضمرة وقد عاتبه بقساوة على الصلح: «إنّي خشيت أن تجتثّوا عن وجه الأرض، فأردت أن يكون للدين في الأرض ناعي»[(٢)]، يعني لا يمكن أن أقبل باجتثاث الإسلام. ثمّ قال عليه السلام: «والله لأن تذلّوا وتُعافوا أحبُّ إليَّ مِن أن تعزّوا وتُقتلوا»[(٣)]، فإنَّه سوف لا يبقى من التشيُّع شيء.

ومن ناحية أخرى فإنَّ حركة الإمام الحسن عليه السلام كانت بانتظار توفير الفرصة المناسبة بهلاك معاوية، كان ذلك هو موقف الإمام الحسن عليه السلام وموقف الإمام الحسين عليه السلام أيضاً.

يذكر المؤرِّخون: أنَّ أوّل من لقي الحسن بن علي عليه السلام، فكلَّمه في ذلك، ودعاه إلى خوض الحرب هو حجر بن عدي، فقال له: (يا بن

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٤٢.

(٢) تاريخ دمشق ١٣: ٢٨٠.

(٣) الإمامة والسياسة ١: ١٤٢.

رسول الله، لوددت أنّي مِتُّ قبل ما رأيت، أخرجتنا من العدل إلى الجور، فتركنا الحقّ الذي كنّا عليه، ودخلنا في الباطل الذي كنّا نهرب منه، وأعطينا الدنية من أنفسنا، وقبلنا الخسيسة التي لم تلق بنا).

فاشتدَّ على الحسن عليه السلام كلام حجر، فقال له: «إنّي رأيت هوى عظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب، فلم أحبّ أن أحملهم على ما يكرهون، فصالحت بقياً على شيعتنا خاصّة من القتل، فرأيت دفع هذه الحروب إلى يوم ما، فإنَّ الله كلّ يوم هو في شأن».

قال: فخرج من عنده، ودخل على الحسين عليه السلام مع عبيدة بن عمرو، فقالا: (أبا عبد الله، شريتم الذلّ بالعزّ، وقبلتم القليل، وتركتم الكثير، أطعنا اليوم، واعصنا الدهر، دع الحسن وما رأى من هذا الصلح، واجمع إليك شيعتك من أهل الكوفة وغيرها، وولّني وصاحبي هذه المقدمة، فلا يشعر ابن هند إلاَّ ونحن نقارعه بالسيوف). فقال الحسين عليه السلام: «إنّا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل إلى نقض بيعتنا»[١].

من المفيد أن نشير إلى أنَّ هذه الأرقام تؤكّد ارتباط العراقيين بأهل البيت عليهم السلام.

ثمّ أرسلوا بعد وفاة الحسن عليه السلام رسائل ووفوداً للإمام الحسين عليه السلام يطلبون منه الثورة، فقال عليه السلام:

«قد كان صلح، وكانت بيعة كنت لها كارهاً، فانتظروا ما دام هذا الرجل _ معاوية _ حيّاً، فإن يهلك نظرنا ونظرتم...»[٢].

(١) الأخبار الطوال: ٢٢٠.

(٢) أنساب الأشراف ٣: ١٥٠/ ح ١٠.

إذن، لا بدَّ من انتظار الفرصة المناسبة للثورة، وهي هلاك معاوية، هذه هي سياسة الإمام الحسن عليه السلام، وهي نفسها نجدها في سياسات الإمام الحسين عليه السلام.

المهمّة الثالثة: الامتداد في جسم الأمّة:

فالإمام الحسن عليه السلام لم ينعزل في البيت، ولم يؤثِر الابتعاد عن هموم الناس، ولهذا فهو يُسمّى كريم أهل البيت عليهم السلام. ولأنَّ لديه مثل هذا الامتداد، فقد شنّوا عليه حرباً معنويةً لتحجيم وجوده في الأمّة.

سياسات الإمام الحسين عليه السلام:

ننتقل للحسين عليه السلام سوف نجده بنفس السياسات طوال عهد معاوية، وعندما تغيَّر الحكم اقتضت المرحلة موقفاً آخر، وتمثَّلت سياسة الإمام الحسين عليه السلام بما يلي:

١ ـ تأجيل المواجهة لحين هلاك معاوية.

٢ ـ الإعلان عن عدم شرعية حكم معاوية.

٣ ـ تأكيد الشرعية لأهل البيت عليهم السلام.

وبعد هلاك معاوية نهض الإمام الحسين عليه السلام لتعبئة الرأي العامّ وإسقاط حكم يزيد.

وهنا أيضاً رأي يقول: إنَّ الإمام الحسين عليه السلام ما كان يريد أن يخوض حرباً مسلَّحة، بل إنَّه جاء عبر عملية انتخابية، لكنَّه حينما حوصر وقُطع عنه الماء أصبحت القضيّة قضيّة طلب ماء وقضيّة المحافظة على الحياة.

إذن، نستطيع أن نقول: إنَّ المواجهة العسكرية فُرِضَتْ على الإمام الحسين عليه السلام فرضاً.

عندنا رواية تقول: إنَّ الإمام الحسين عليه السلام خاطب جيش ابن سعد بقوله: «أخبروني، أتطلبوني بقتيل منكم قتلته! أو مال لكم استهلكته؟ أو بقصاص من جراحة؟».

قال الراوي: فأخذوا لا يكلّمونه، فنادى: «يا شَبَث بن ربعي، ويا حجّار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليَّ أن قد أينعت الثمار، واخْضَرَّ الجناب، وطمت الجمام، وإنَّما تقدم على جندٍ لك مجنَّد، فأقبل؟»، فقالوا له: لم نفعل، فقال: «سبحان الله، بلى والله لقد فعلتم». ثمّ قال: «أيّها الناس، إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض»، فقال له قيس بن الأشعث: أوَلا تنزل على حكم بني عمّك؟ فإنَّهم لن يروك إلاَّ ما تُحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه، فقال له الحسين: «أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله، لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرُّ إقرار العبيد. عباد الله، إنّي عذتُ بربّي وربّكم أن ترجمون، أعوذ بربّي وربّكم من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب»[1].

* * *

(١) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ١١٨؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣.

الدراسة التاسعة:

بين الإمام الحسين عليه السلام
والإمام السجّاد عليه السلام

- الواقع التاريخي بعد الحسين عليه السلام.
- الإمام السجّاد عليه السلام في مواجهة المخاطر الخارجيّة والداخلية.
- شروط الحاكم الشرعي.
- نظرية الحكم في الإسلام.
- موقف السجّاد عليه السلام مع منافسيه.

قال إمامنا الحسين عليه السلام: «الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درَّت به معايشهم، فإذا مُحّصُوا بالبلاء قلَّ الديّانون»[1].

وقال إمامنا زين العابدين عليه السلام: «ما ندري كيف نصنع بالناس! إن حدَّثناهم بما سمعنا من رسول الله ضحكوا، وإن سكتنا لم يسعنا السكوت»[2].

كِلا هذين النصّين يرتبطان بتحليل الإمام الحسين عليه السلام والسجّاد عليه السلام لواقع المجتمع يومئذٍ.

الإمام الحسين عليه السلام يعطي تقييمه قائلاً: «الناس عبيد الدنيا...»، والإمام السجّاد عليه السلام يعطي تقييمه قائلاً: «لا ندري كيف نصنع بالناس...». الإمام الحسين عليه السلام والإمام زين العابدين عليه السلام أعطيا رؤية عن المجتمع الإسلامي يومئذٍ.

الحسين والسجّاد عليهما السلام:

الحسين عليه السلام قاد حركة إصلاحية، والسجّاد عليه السلام أيضاً قاد حركة إصلاحية استغرقت أربعاً وثلاثين عاماً بعد الحسين عليه السلام؛ لأنَّه عاش مع الإمام علي عليه السلام سنتين، ومع الإمام الحسن عليه السلام بعد الإمام علي عليه السلام عشر سنوات، وبعد الإمام الحسن عليه السلام عاش مع أبيه الحسين عليه السلام عشر سنوات، ثمّ عاش بعد الحسين عليه السلام أربعاً وثلاثين عاماً يقود الحركة الإصلاحية في المجتمع الإسلامي يومئذٍ، لقد كان عمر الإمام

(١) تحف العقول: ٢٤٥؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٣.

(٢) الكافي ٣: ٢٣٤/ باب أنَّ الميّت يمثّل له ماله وولده وعمله قبل موته/ ح (٤/٤٧١٢).

السجّاد عليه السلام عند وفاته ستّاً وخمسين أو سبعاً وخمسين عاماً، اثنان وعشرون منها مع الإمام علي والحسن والحسين عليهم السلام وأربع وثلاثون سنة كانت الزعامة الدينية له، لننظر ماذا صنع الإمام زين العابدين عليه السلام قياساً بحركة الإمام الحسين عليه السلام، هل هناك تشابه في الأهداف والنتائج والمناهج؟

وهذا الحديث ليس حديثاً عن سيرة الإمام السجّاد عليه السلام، ولهذا لا نريد أن ننفتح للحديث عن عبادة الإمام السجّاد عليه السلام وعلمه وأصحابه وأخلاقه وسيرته مع أهله وجيرانه، فهذا حديث آخر عن سيرته عليه السلام، وحديثنا هو عن الحركة الإصلاحية التي قادها الإمام زين العابدين عليه السلام، ونقاط التشابه والتمايز بينها وبين حركة الإمام الحسين عليه السلام.

لقب زين العابدين:

الإمام زين العابدين، وقد لقَّبه بهذا اللقب _ كما تقول الرواية _ رسول الله صلى الله عليه وآله، كما أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي لقَّب الإمام الباقر عليه السلام بالباقر، وهذا ما يحدّثنا به الزهري وهو من زعماء الدين المرتبطين بالسلطة يومئذٍ، وكان قاضياً ووالياً في محكمة لا شرعية للسلطان الأموي، ولديه لقاءات متعدّدة مع الإمام زين العابدين عليه السلام، وكان الزهري إذا حدَّث عن الإمام زين العابدين عليه السلام يقول: حدَّثني زين العابدين، فقيل له في ذلك: لماذا تقول زين العابدين؟ وكان السائل هو سفيان بن عيينة.

فقال الزهري: لأنّي سمعت سعيد بن المسيّب يحدّث عن ابن عبّاس أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إذا كان يوم القيامة ينادي منادٍ: أين زين

العابدين؟ فكأنّي أنظر إلى ولدي علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يخطو ـ وفي رواية: يخطر ـ بين الصفوف»[1].

الإمام السجّاد عليه السلام عاش بعد الإمام الحسين عليه السلام ما بقي من حكم يزيد بن معاوية، ثمّ مروان بن الحكم، ثمّ عبد الملك بن مروان، ثمّ الوليد بن عبد الملك بن مروان، هؤلاء مجموعة حكّام بني أميّة الذين عاصرهم الإمام عليه السلام، وكان له معهم مواقف.

وهناك رواية أخرى في لقبه عليه السلام، وهي أنَّه كان ليلة في محرابه قائماً في تهجّده، فتمثَّل له الشيطان في صورة ثعبان ليشغله عن عبادته، فلم يلتفت إليه، فجاء إلى إبهام رجله فالتقمها، فلم يلتفت إليه فألمه فلم يقطع صلاته، فلمَّا فرغ منها وقد كشف الله له فعلم أنَّه شيطان فسبَّه ولطمه قال له: «اخسأ يا ملعون»، فذهب وقام إلى إتمام ورده، فسمع صوت لا يرى قائله وهو يقول: (أنت زين العابدين حقّاً) ثلاثاً، فظهرت هذه الكلمة واشتهرت لقباً له عليه السلام[2].

وهذه فكرة إجمالية عن إطار حياة الإمام السجّاد عليه السلام، والمعروف أنَّ الإمام عليه السلام كان أعبد أهل زمانه، وكان سيّد الساجدين، وزين العابدين، وكان له الصحيفة السجّادية، وهي من أروع الأدعية التي تركها لنا أهل البيت عليهم السلام، ولكن هل كان دور الإمام زين العابدين عليه السلام هو الدعاء فقط كراهب في صومعته رغم أنَّها أدعية عظيمة ومقدَّسة، ولكن ما هو دور الإمام في عمق المعركة مع السلطان الأموي وثورات الحسينيين والتوّابين، والمختار، وعبد الله بن الزبير؟ فأين كان الإمام زين العابدين عليه السلام؟

---

(١) علل الشرائع ١: ٢٣٠/ باب ٦٥/ ح ١.

(٢) كشف الغمّة ٢: ٢٨٦؛ مطالب السؤول: ٤٠٩.

رؤية الإمام السجّاد عليه السلام:

كان للإمام عليه السلام أهداف ومناهج ونتائج.

فالإمام الحسين عليه السلام كانت أهدافه تغيير الحكم الجائر وإقامة حكم عادل، وكانت مناهجه عبارة عن توعية الأمّة واستنهاض إرادتها.

واعتماداً على نظرية تنوّع الأدوار، نسأل: ماذا صنع الإمام السجّاد عليه السلام؟

سنجد أنَّه سار بنفس الأهداف ونفس المناهج، الأهداف هي التغيير، والمناهج هي توعية الأمّة واستنهاض إرادتها، ولهذا كان الإمام يقول: «لا ندري كيف نصنع بالناس»، هناك تحلّل وانفلات يومئذٍ، «فإن حدَّثناهم بما سمعنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله ضحكوا، وإن سكتنا لم يسعنا السكوت»، مثلما كان الإمام الحسين عليه السلام يقول: «الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم»، فالمشكلة هي الناس قبل أن تكون المشكلة هي يزيد وما قبل يزيد.

لهذا هناك رواية جميلة للإمام السجّاد عليه السلام في خطاب له في قصر يزيد بن معاوية في الشام، أي بعد حادثة كربلاء بعشرين يوماً، وفي أوّل وصولهم إلى دمشق خطب الإمام زين العابدين في مجلس يزيد، وقدَّم التفاتات رائعة ودون أيّ حالة إحباط أو انهيار أمام مأساة كربلاء، لقد أعطى رؤية على مدى التاريخ تبقى محفوظة قال:

«أُعطِينا ستّاً وفُضّلنا بسبع، أُعطينا العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبّة في قلوب المؤمنين»، فماذا يعني التركيز على المحبّة في قلوب المؤمنين؟ أي هناك خيط صلة فطري بينهم وبين المؤمنين منذ خلق الله الخلق، هذا الخيط لا يمكن أن يقطعه سلطان جائر ولا تمادي الدهر، هذه منزلة أعطاها الله تعالى لأهل البيت عليهم السلام في

قلوب المؤمنين، وهذا الربط الغيبي الموجود بينهم وبين المؤمنين، وهذا الانشداد الخاصّ هو علامة الإيمان.

ثمّ قال عليه السلام: «وفضّلنا بأنّ منّا النبيّ المختار محمّداً، ومنّا الصدّيق، ومنّا الطيّار، ومنّا أسد الله وأسد رسوله، ومنّا سيّدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنّا سبطا هذه الأمّة وسيّدا شباب أهل الجنّة ـ وفي رواية: ومنّا مهدي هذه الأمّة...»(١).

وهذا الحديث أثبته الإمام عليه السلام ليبقى على مدى التاريخ مؤكّداً لدينا أنّ موقعاً خاصّاً لأهل البيت عليهم السلام في قلوب المؤمنين سيحفظه الدهر على مدى الأيّام، ولهذا فقد كانت من مهمّات الإمام زين العابدين عليه السلام فضلاً عن حماية الأمّة الإسلاميّة وحفظ كيان التجربة الإسلاميّة هو بناء الجماعة المؤمنة من شيعة أهل البيت عليهم السلام.

نوعان من الحركة التغييرية:

حينما نريد أن نقوّم حركة الإمام زين العابدين عليه السلام سنجد أنّ هناك نوعين من الحركات التغييرية في المجتمع:

الأولى: حركات انفعالية.

الثانية: حركات فاعلية.

الأولى: عبارة عن ردّة فعل، مرَّة تكون جيّدة، ومرَّة غير جيّدة، وهي حركة مرتجلة وليست حركة ضاربة في العمق وذات أهداف عميقة، مثال ذلك حركة التوّابين بعد مقتل الحسين عليه السلام، فهؤلاء

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٦٩؛ بحار الأنوار ٤٥: ١٣٨.

مجموعة صالحة جدّاً وقاتلوا حتَّى استشهدوا جميعاً ثأراً للحسين عليه السلام وطلباً للموت كفّارة عن تخلّفهم عن نصرة الحسين عليه السلام، وقد قاد هذه الحركة سليمان بن صرد الخزاعي في الكوفة، وكانت هي الثورة الأولى بعد الحسين عليه السلام، وهذه الحركة رغم أنَّها حركة مقبولة وشريفة لكنَّها حركة انفعالية، وذلك أنَّ هؤلاء قد أنَّبهم ضميرهم على خذلانهم للحسين عليه السلام، ثمّ جاءت حركة المختار، وهي أيضاً حركة انفعالية وليست حركة رائدة قيادية فاعلية، وإنَّما حركة انفعالية، ولدينا حركة عبد الله بن الزبير الذي ثار في المدينة المنوّرة على يزيد بعد مقتل الحسين عليه السلام، لكنَّها أيضاً حركة انفعالية، وهكذا مصعب بن الزبير حين جاء إلى البصرة وحكم البصرة، فقد كانت حركة انفعالية، وحتَّى حركة زيد بن علي بن الحسين عليه السلام هذا الإنسان العظيم الذي «يتخطّى رقاب الناس يوم القيامة»[1]، وهناك أحاديث جليلة في شأن هذا الإنسان، ولكن مع ذلك فإنَّ حركة زيد بن علي لم تكن مثل حركة الإمام زين العابدين عليه السلام، ولا مثل حركة الحسين عليه السلام، ولا مثل حركة باقي أئمّتنا الأطهار عليهم السلام، بل تستطيع أن تقول: إنَّها حركة انفعالية، أي هي ردّة فعل، ولهذا فإنَّ الإمام الباقر عليه السلام لم يشارك فيها، ولا الإمام الصادق عليه السلام، رغم تأييدهم لها، وهم عليهم السلام يترحَّمون على زيد عليه السلام، ولكن لا يقولون: إنَّ حركته كانت حركة إستراتيجية، بل كانت حركة جانبية وحركة مؤقّتة وانفعالية.

لقد دخل زيد بن علي عليه السلام على هشام بن عبد الملك بن مروان، فسمع

---

(١) كما جاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «إنَّ زيد بن علي وأصحابه يتخطّون رقاب الناس يوم القيامة، ويدخلون الجنّة بغير حساب». (عن تفسير أبي حمزة الثمالي: ٧٣).

من يسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله في مجلسه، فخرج من المجلس منفعلاً، وقال: (والله إن لم يكن إلاَّ أنا ويحيى ابني لخرجت عليه وجاهدته)(١)، أي يجب أن أخرج على هذا السلطان الذي يُسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله في مجلسه، لقد كان موقفه بالنهوض موقفاً شريفاً، لكنَّه كان حركة انفعالية، أمَّا حركة الحسين عليه السلام فقد كانت حركة إستراتيجية ضاربة في المدى البعيد، وهكذا كانت حركة الإمام علي والإمام الحسن عليه السلام والإمام زين العابدين عليهما السلام، هذا النمط من الحركات نُسمّيها حركات فاعلية، وتخطيطية وإستراتيجية ذات أهداف مرسومة ومخطَّط لها، وذات رؤية للمصالح الإسلاميّة الكبرى، وليس المهمّ فيها أن تثور أنت وتُرضي نفسك، بل أنظر إلى المصلحة الإسلاميّة الكبرى ما هي في أن تثور أو تسكت؟ هذه هي الحركات التخطيطية الكبرى ذات الأهداف الإستراتيجية.

الإمام يرفض الحركة الانفعالية:

الإمام زين العابدين عليه السلام كانت حركته من هذا النمط، فهو عليه السلام ولمدّة أربع وثلاثين عاماً لم يشهر سيفاً ضدّ السلطان، ولقد أراد أهل الكوفة أن يحرّضوه على الثورة في حركة انفعالية وردّة فعل غير

---

(١) روي عن جابر الجعفي أنَّه قال: قال لي محمّد بن علي الباقر عليه السلام: «إنَّ أخي زيد بن علي خارج مقتول وهو على الحقّ، فالويل لمن خذله، والويل لمن حاربه، والويل لمن يقتله»، قال جابر: فلمَّا أزمع زيد بن علي على الخروج قلت له: إنّي سمعت أخاك يقول كذا وكذا، فقال لي: (يا جابر، لا يسعني أن أسكت وقد خولف كتاب الله وتحوكم إلى الجبت والطاغوت، وذلك إنّي شهدت هشاماً ورجل عنده يسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلت للسابّ: ويلك يا كافر، أما إنّي لو تمكَّنت منك لاختطفت روحك وعجَّلتك إلى النار. فقال لي هشام: مَهْ عن جليسنا يا زيد. فوَالله إن لم يكن إلاَّ أنا ويحيى ابني لخرجت عليه وجاهدته حتَّى أفنى). (تيسير المطالب: ١٠٨).

مدروسة، لكن الإمام كان بعيد المدى، ثاقب الرؤية، فهو الذي يرسم الخطّ ولا يتأثّر بهذا وذاك.

وجاءه يوماً عبّاد البصري ــ وهو شخصية معروفة وجليلة يومئذٍ ــ فقال له: يا علي بن الحسين، تركت الجهاد وصعوبته، وأقبلت على الحجّ ولينه، وإنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ...﴾، إلى قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١١١ و١١٢).

فقال له الإمام عليه السلام: «إذا رأينا هؤلاء الذي هكذا صفاتهم كان الجهاد معهم أفضل من الحجّ»[١]، فهل تريدني أن أجاهد تحت راية يزيد بن معاوية؟!

الإمام يقول: أنا لا أشارك في جهاد تحت راية معاوية أو يزيد أو عبد الملك، بل يقول القرآن الكريم: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾، هكذا أناس ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، فالجهاد مع هؤلاء أفضل من الحجّ.

وهذه التجربة نحن مررنا بها في أيّام معارك صدام ضدّ الغزو الأمريكي. فقد كان يقال لنا: لماذا لا تقاتلون مع صدام؟ فهو حامل الراية، وكلّ الدول العربية كانت معه، تعالوا كلّكم بعمائمكم ومساجدكم كونوا في صف يقوده صدام حسين!! كنّا نعتقد أنَّ هذا جهل، فأئمّتنا لم يكونوا مستعدّين ليكونوا أتباعاً ويعطون الشرعية لحكّام ظلمة مثل يزيد بحجّة أنَّ يزيد عنده فتوحات إسلاميّة!!

---

(١) الاحتجاج ٢: ٤٤.

لقد كانت هناك حركات انفعالية من نمط آخر بعد مأساة الحسين عليه السلام، كانوا يتوجَّهون للعبادة والزهد، مثل الزهري الذي كان قاضياً أيّام الحكم الأموي، وفي أثناء العقوبة التي أصدرها على أحد المحكومين مات ذلك الرجل، الأمر الذي ولَّد عند الزهري ردّة فعل عنيفة، فخرج من المدينة وتوحَّش وأصبح انعزالياً كئيباً منعزلاً في صومعة، لا يأتي إلى المدينة، ولا يدخل إلى أهله أو أقربائه ولا إلى مسجد ولا إلى سوق.

فقيل للإمام زين العابدين عليه السلام: يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، هل لك في الزهري؟ فاستجاب الإمام عليه السلام والتقى به وأعطاه توجيهاً وأنقذه من أزمته، وقال له: «إنّي أخاف من قنوطك ما لا أخاف عليك من ذنبك _ أي أنَّك أصبحت يائساً من رحمة الله تعالى، وصحيح أنَّك ارتكبت جريمة، وبسببك قتل ذلك الإنسان المظلوم، لكن هناك باب التوبة، وباب الدية _ فابعث بدية مسلّمة إلى أهله، واخرج إلى أهلك ومعالم دينك»، فقال الزهري: فرَّجت عنّي يا سيّدي، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

وكان الزهري يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك: «ينادي منادٍ يوم القيامة: ليقم سيّد العابدين في زمانه، فيقوم علي بن الحسين عليه السلام»[1].

هذه حركات انفعالية، هناك أناس يصبحون عبّاداً، لكن نتيجةً لأزمةٍ نفسية، وهناك أناس يصبحون بكّائين، لكن ذلك نتيجة أزمة نفسية وليس عملاً مدروساً ومخطَّطاً له. وسنجد أنَّ الإمام علي بن الحسين عليه السلام قام بحركة مخطَّط لها ومدروسة.

---

(١) كشف الغمّة ٢: ٣١٧.

الواقع بعد الحسين عليه السلام:

ما هو الواقع الإسلامي في العراق والمدينة والشام ومكّة ومصر بعد الحسين عليه السلام؟

كي نرى ماذا فعل الإمام زين العابدين عليه السلام في ذلك الواقع؟

مخاطر ما بعد الحسين عليه السلام:

الحقيقة أنَّ الواقع بعد الإمام الحسين عليه السلام تعرَّض إلى نوعين من المخاطر:

١ _ مخاطر تهدّد كلّ الأمّة الإسلاميّة وكيانها من الخارج، (الروم) الذين كانوا يتأهَّبون للهجوم وإسقاط الواقع الإسلامي، ومن ثَمَّ استعباد الناس وإنهاء التجربة الإسلاميّة.

٢ _ والخطر الثاني ناشئ من الداخل (داخل الأمّة الإسلاميّة).

المخاطر الخارجية:

أمَّا المخاطر الخارجية فقد كان الحاكم عبد الملك بن مروان قد كتب له ملك الروم رسالة قال فيها: (لآتينَّك بجند مائة ألف، ومائة ألف، ومائة ألف، أو تستسلم)، هذا موقف خطر يهدّد الوضع الإسلامي بأكمله، فجمع عبد الملك بن مروان أصحابه وقال: هذا خطر يداهمنا، فماذا نصنع؟ فلم يجد عندهم حلاً.

فكتب عبد الملك إلى الحجّاج أن يبعث إلى زين العابدين عليه السلام ويكتب إليه ما يقوله، ففعل، فقال الإمام زين العابدين إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، إنَّ لله لوحاً محفوظاً يلحظه كلّ يوم ثلاثمائة لحظة، ليس منها لحظة إلاَّ يحيي فيها ويميت ويعزّ ويذلّ ويفعل ما يشاء، وإنّي أرجو أن يكفيك منها لحظة واحدة».

هذا الكلام لا يفهمه طبعاً عبد الملك بن مروان، لكنَّه رفع نفس الرسالة إلى ملك الروم، فلمَّا قرأها ملك الروم قال: (ما خرج هذا إلاَّ من كلام النبوّة)(١)، وغيَّر قراره في غزو العالم الإسلامي، الحقّ أنَّ هذا كلام عظيم وموقف سياسي كبير أنقذ فيه الإمام زين العابدين عليه السلام كلّ الأمّة الإسلاميّة.

المخاطر الداخلية:

وكان المسلمون أيضاً يواجهون خطراً من الداخل متمثّلاً بما يلي:

أوّلاً: ظهور زعامات مصلحيّة:

ظهرت زعامات مصلحيّة تنافس الزعامات الحقيقية، مثل عبد الله بن الزبير، ومصعب بن الزبير، فهؤلاء طلاّب مصالح، والإمام رأى أنَّ هؤلاء قد يشكّلون تيّاراً جارفاً يخدع الناس البسطاء. وكان دور الزعامة الدينية الحقيقية مواجهة مثل هذه الزعامات الكاذبة.

الإمام زين العابدين عليه السلام كان يواجه زعامات مصلحيّة، كما كان يواجه زعامات دينية تابعة للسلطة _ سلطوية _ مثل (الحسن البصري)، روي أنَّ زين العابدين عليه السلام مرَّ بالحسن البصري وهو يعِظ الناس بمنى فوقف عليه السلام عليه ثمّ قال: «امسك أسألك عن الحال التي أنت عليها مقيم، أترضاها لنفسك فيما بينك وبين الله إذا نزل بك غداً؟»، قال: لا. قال: «أفتحدّث نفسك بالتحوّل والانتقال عن الحال التي لا ترضاها لنفسك إلى الحال التي ترضاها؟»، قال: فأطرق مليَّاً، ثمّ قال: إنّي أقول ذلك بلا حقيقة. قال: «أفترجو نبيّاً بعد محمّد صلى الله عليه وآله يكون لك معه سابقة؟»، قال: لا. قال: «أفترجو داراً غير الدار التي أنت فيها ترد إليها فتعمل فيها؟»، قال:

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٩.

لا. قال: «أفرأيت أحداً به مسكة عقل رضي لنفسه من نفسه بهذا؟ إنَّك على حال لا ترضاها ولا تحدّث نفسك بالانتقال إلى حال ترضاها على حقيقة، ولا ترجو نبيّاً بعد محمّد، ولا دار غير الدار التي أنت فيها فترد إليها فتعمل فيها، وأنت تعِظ الناس»، قال: فلمَّا ولّى عليه السلام قال الحسن البصري: من هذا؟ قالوا: علي بن الحسين. قال: أهل بيت علم. فما رأي الحسن البصري بعد ذلك يعِظ الناس[1].

لقد كانت إحدى مهام الإمام هي مواجهة الزعامات الدينية المنحرفة، وهذه صورة واحدة من الواقع الذي كان بعد الإمام الحسين عليه السلام.

ثانياً: الانحراف عن أهل البيت عليهم السلام:

ومن جملة المظاهر التي حدثت بعد الحسين عليه السلام هي ارتداد الناس عن أهل البيت عليهم السلام، ولذا فقد كان أحد اهتمامات الإمام زين العابدين عليه السلام هو تحويل قضيّة الحسين عليه السلام من حادثة عابرة إلى قضيّة تاريخية خالدة وظاهرة إنسانية متحرّكة، لقد قتل الإمام الحسين عليه السلام في عام (٦١ للهجرة)، وهذه الواقعة قد تذهب وتُنسى بمرور الأيّام، فكيف نحوّل هذه الواقعة إلى مظهر متحرّك على طول التاريخ، هذا هو ما فعله الإمام زين العابدين عليه السلام، وهذا ما سجَّله التاريخ القديم والمعاصر، فلقد تحوَّلت قضيّة الحسين عليه السلام إلى قضيّة فاعلة مؤثّرة في الأجيال.

ماذا كتب أرنست كيلنر؟

ذكر الكاتب الأوربي _ من فلاسفة الفكر الحديث في أوربا _ (أرنست كيلنر)، في كتابه (ما بعد الحداثة والعقل الديني): (يتمركز

(١) الاحتجاج ٢: ٤٣.

المـذهب الشـيعي تمركـزاً شـديداً حـول تـوقير وتبجيـل الشخصيات الدينيـة المقدَّسـة، وقبـل كـلّ شـيء شـهداء الشـيعة، ويـتمّ المحافظـة علـى ذكـرى استشـهاد هـؤلاء حيّـة ناشـطة فـي ذاكـرة الشـعب بواسـطة الاستعراضـات المسـرحية العاطفيـة فـي كـلّ سـنة، والتشـيّع لا يحمـل سـمات معيَّنـة تجعلـه مشـابهاً للإسـلام السُنّي فقـط، بـل يحمـل سـمات مشـابهة للمسيحية أيضـاً إلـى عيسـى والقضـيّة العيسـوية، فمركزيـة فكـرة الشـهادة والشـهداء تعنـي أنَّ علمـاء الشـيعة ليسـوا قـانونيين لاهـوتيين فقـط، ولكـنَّهم أيضـاً خبـراء عـارفين بالسيرة الذاتيـة للشـهيد ذي المكانـة الحاسـمة فـي أهمّيتهـا، الأمـر الـذي يعنـي أنَّهــم أفضــل اســتعداداً وعــدَّة للاتّصــال بالجمــاهير فــي حالــة الاضــطراب والقلق السياسي مقارنة بأقرانهم السُنّة)[1].

هـذه هـي الحقيقـة، فالتـاريخ هـو الـذي أبقانـا أحيـاء إلـى الآن بتمجيـدنا وارتباطنـا بهـذا التـاريخ، بينمـا غيرنـا نسـوا التـاريخ ولـم يسـتطيعوا أن يحـافظوا على نقاط القوّة فيه.

وهـذا الطـرز مـن التفكيـر وهـذه المنهجيـة فـي التعامـل مـع التـاريخ هـو الـذي أسـس لـه الأنبيـاء عليهم السلام ورسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيـث خلَّـدوا ذكـرى شـهادة الحسـين عليه السلام، فـإنَّ أوّل مـن أسَّـس لتحويـل واقعـة الحسـين عليه السلام إلـى قضـيّة تاريخيـة مـؤثّرة وواقـع متحـرّك علـى الأرض، وتأسـيس مـا يمكـن أن نسـمّيه بـ (الظاهرة الحسينية) هو إمامنا زين العابدين عليه السلام.

يقـول الإمـام الصـادق عليه السلام: «بكـى علـي بـن الحسـين عليهما السلام عشـرين سـنة»، وهـذا لـيس انفعـالاً، ولا مجـرَّد عاطفـة، بـل هـو تأسـيس مشـروع وكتابـة

(١) أنظر: (ما بعد الحداثة والعقل الديني) لكاتبه أرنست كيلنر.

برنـامج عمـل للتـاريخ، أنَّ قضـيّة الحسـين عليه السلام يجـب أن تكـون ظـاهرة ملحمية تاريخية وليست مجرَّد واقعة مأساوية قد انتهت.

ثمّ يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«وما وضع بـين يديـه طعـام إلاَّ بكـى، حتَّـى قـال لـه مـولىً لـه: جُعلـت فـداك يـا بـن رسـول الله، إنّـي أخـاف عليـك أن تكـون مـن الهـالكين. فقـال عليه السلام: إنَّمـا أشـكو بثّـي وحزنـي إلـى الله، وأعلـم مـن الله مـا لا تعلمـون، إنّـي لم أذكر مصرع بني فاطمة إلاَّ وخنقتني لذلك عبرة»[١].

وهـذا الموضـوع سـنجده عنـد الأئمّـة الأطهـار عليهم السلام واحـداً بعـد واحـد. ألا وهو التأسيس للمجالس والمآتم والمراسم الحسينية.

شروط الحاكم الشرعي:

قـال الإمـام الحسـين عليه السلام: «لعمـري مـا الإمـام إلاَّ العامـل بالكتـاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحقّ، والحابس نفسه في ذات الله»[٢].

وقال: «ألا وإنَّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السِلَة والذلّة، وهيهاتَ منّا الذلّة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيّة، من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[٣].

فهنـا يرسـم الإمـام الحسـين عليه السلام النظريـة الإسـلاميّة بشـأن الحـاكم، وفـي ضـوء تلـك الشـروط يتَّخـذ الإمـام موقفـاً، هـل يعطـي الشـرعية لـذلك السلطان أم لا يعطي؟ هل يبايع أم لا يبايع؟ وإذا بايع فمختاراً أو مكرهاً؟

---

(١) أمالي الصدوق: ٢٠٤/ ح (٥/٢٢١).

(٢) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ١٧؛ تاريخ الطبري ٤: ٢٦٢.

(٣) اللهوف في قتلى الطفوف: ٥٩.

في ضوء هذا النصّ نعرف أنَّ الحاكم الشرعي يجب أن تتوفَّر فيه أربعة شروط:

الشرط الأوّل: العمل بكتاب الله، «العامل بالكتاب».

الشرط الثاني: العمل بالعدل، «الآخذ بالقسط».

الشرط الثالث: أن يكون ملتزماً بعقائد صحيحة، «الدائن بالحقّ».

الشرط الرابع: التقوى، «الحابس نفسه في ذات الله».

والإنسان الذي يمتلك هذه المواصفات، يمكن أن يصبح إماماً للمسلمين، أمَّا إذا لم توجد فيه هذه المواصفات فلا، ولا شرعية لحكمه، حتَّى لو غلب بالجور والإكراه.

طبعاً هناك نظرية إسلاميّة أخرى، نَظَّر لها مجموعة من فقهاء البلاط، تقول: إنَّ الحاكم الشرعي هو من غلب، وإن كان فاسقاً جائراً!!

الموقف تجاه السلطة:

السؤال اليوم: ما هو الموقف تجاه السلطة الجائرة؟ هذا ما سنعقد دراستنا له كمقارنة بين الإمام الحسين عليه السلام وبين السجّاد عليه السلام.

الإمام الحسين عليه السلام ثار على يزيد، لكن ليس بمعنى أنَّ الثورة هي المنهج الوحيد الذي لا يتغيَّر! بل هي لمصلحة الدين والأمّة، والتي اقتضت الثورة حسب الظروف، والإمام الحسين عليه السلام كان يقول: «والله، لا يَدَعوني حتَّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي»[1]، بمعنى أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان يعرف أنَّه مقتول لا محالة، ولهذا فقد خيَّر نفسه بين أن يقتل في بيت الله الحرام، وبين أن يستجيب لطلب أهل الكوفة حين

(١) الإرشاد ٢: ٧٦.

طلبوا منه القدوم إليهم لبيعته، وحينئذٍ ستُرسم هناك وعلى طول التاريخ مشاهد الثورة، والملحمة، والإباء، والبطولة.

لقد فضَّل الإمام عليه السلام هذا الخيار، وقد يقول بعض الناس: إنَّ حركة الإمام الحسين عليه السلام خضعت لضرورات سياسية. بمعنى أنَّها كانت الخيار الوحيد المفروض على الحسين عليه السلام، ولو كان يستطيع أن يتخلَّص بطريق آخر لكان قد اختاره!! لكن الحقيقة هي غير ذلك، فقد شاوره ابن الحنفية، وابن الزبير، وأُمّ سَلَمة، وطرحوا عليه خيارات وبدائل أخرى، لكن الحسين عليه السلام هو الذي صمَّم على خيار القدوم إلى العراق (إعلان الثورة، وسحب الشرعية من حكومة يزيد).

وقد يطرح بعض الناس نظرية أخرى تقول: إنَّ هذا القرار هو أمر إلهي، وإنَّ الحسين عليه السلام قد خضع لموقف تعبّدي، فليس هو الرأي الشخصي للحسين عليه السلام، وإنَّما هو قرار من الله تعالى، قد أخبره به رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو قرار مرسوم من أعلى، ولم يكن أمام الحسين عليه السلام خيارات أخرى!

نحن نعتقد أنَّ الإمام الحسين عليه السلام هو الذي خطَّط للثورة، وفقاً لتلك الظروف، ووفقاً لتلك الرؤية، وبما هو التخطيط الإلهي أيضاً، فهو إذن قرار شخصي وفق رؤية غيبية إلهية لا تفقد الحسين عليه السلام إرادته في التحرّك بين مجموعة خيارات، فليست هي عملية إكراه، ولا أنَّ الحسين عليه السلام لا يعرف ماذا يفعل، ولا أنَّ القضيّة يتعبَّد بها تعبّداً، ولا أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله أمره أمراً تكليفيّاً لا مجال للمناقشة فيه، ليس كذلك، وإنَّما هو إرادة إلهية، ونبوءات نبوية، وخيار إنساني اختاره الحسين عليه السلام بإرادته، وكلّها أمور صحيحة مجتمعة في وقت واحد.

وعلى كلّ حال، فإنَّ الإمام الحسين عليه السلام بايع معاوية، لكنَّه لم يبايع يزيداً، ممَّا يؤيّد فكرة أنَّ الموقف الشكلي من السلطان هو موقف متحرّك، وسوف نخرج بنظرية في هذا المجال هي نظرية (الموقف

الشرعي الثابت، والموقف الشكلي المتحرّك) الموقف الشرعي الثابت هو موقف رفض السلطان الجائر الذي لا شرعية له، لكن الموقف الشكلي قد يتغيَّر، مرّة يبايع، ومرّة لا يبايع، فالإمام علي عليه السلام _ مثلاً _ لم يبايع لفترة طويلة، حتَّى أخذوه مقيَّداً وقالوا: يا علي بايع. قال لهم عليه السلام: «إن أنا لم أفعل فمَه؟»، قالوا: إذاً نضرب عنقك!

فقال: «إذاً تقتلون عبد الله وأخا رسوله»، قال عمر: أمَّا عبد الله فنعم، وأمَّا أخو رسوله فلا، وأبو بكر ساكت لا يتكلَّم، فقال له عمر: ألا تأمر فيه بأمرك؟ فقال: لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه، فلحق علي بقبر رسول الله صلى الله عليه وآله يصيح ويبكي، وينادي: «يا بن أُمّ، إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني»[1].

هذا موقف شكلي لا يعبّر عن شرعيّة. والناس ينظرون إلى ذلك كعملية إكراه، ونحن نميّز بين ما هو الموقف الواقعي من السلطة، وبين ما هو الموقف الشكلي، وأنَّ السلطة الشرعية إنَّما هي «للعامل بالكتاب، الدائن بالحقّ، الآخذ بالقسط، الحابس نفسه في ذات الله»، وهذا هو الموقف الثابت الذي لا يتغيَّر، وأمَّا التغيير فإنَّه يكون في الموقف الشكلي.

موقف الإمام السجّاد عليه السلام:

بقيت السلطة بيد يزيد ثلاث سنوات، وبعد يزيد مروان، وبعد مروان عبد الملك، وبعد عبد الملك الوليد بن عبد الملك، الذي تذكر بعض الروايات أنَّه هو الذي قتل الإمام السجّاد عليه السلام بالسُمّ[2].

(١) الإمامة والسياسة ١: ٢٠.

(٢) دلائل الإمامة: ١٩٢.

الإمام في طول هذه الفترة عمل على عدّة خطوط:

الخطّ الأوّل: التأكيد على (لا شرعية) السلطة الأموية، وإذا كان قد بايع فإنَّها مبايعة شكلية متحرّكة حسب استحقاقات الظرف السياسي.

أخذ يزيد البيعة من الناس على الرقّ والعبودية له، الرواية تقول: عن بريد بن معاوية قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنَّ يزيد بن معاوية دخل المدينة وهو يريد الحجّ، فبعث إلى رجل من قريش، فأتاه، فقال له يزيد: أتقرّ لي أنَّك عبدٌ لي، إن شئت بعتُك وإن شئت استرقيتك؟

فقال له الرجل: والله يا يزيد، ما أنت بأكرم منّي في قريش حسباً، ولا كان أبوك أفضل من أبي في الجاهلية والإسلام، وما أنت بأفضل منّي في الدين، ولا بخير منّي، فكيف أقرّ لك بما سألت؟

فقال له يزيد: إن لم تقرّ لي والله قتلتك، فقال له الرجل: ليس قتلك إيّاي بأعظم من قتلك الحسين بن علي عليهما السلام ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، فأمر به فقتل.

ثمّ أرسل إلى علي بن الحسين عليهما السلام فقال له مثل مقالته للقرشي، فقال له علي بن الحسين عليهما السلام: أرأيت إن لم أقرّ لك أليس تقتلني كما قتلت الرجل بالأمس؟

فقال له يزيد لعنه الله: بلى.

فقال له علي بن الحسين عليهما السلام: قد أقررت لك بما سألت، أنا عبد مكره، فإن شئت فأمسك، وإن شئت فبع.

فقال له يزيد لعنه الله: أولى لك، حقنت دمك، ولم ينقصك ذلك من شرفك[(١)].

---

(١) أنظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣: ٢٥٩.

ويأتي هذا في مهمّة محافظة الإمام زين العابدين عليه السلام على موقع الإمامة، فقد كان من أهمّ المهمّات لدى الإمام زين العابدين عليه السلام أن لا يبقى موقع الإمامة خالياً، والإمام زين العابدين مسؤول عن هذا الموقع، وهذه التصفيات شملت الآلاف، واستبيحت المدينة وأهل المدينة ونساء المدينة.

وتقول الروايات كما في (منهاج الكرامة)[1]: إنَّ الدماء دخلت إلى الروضة ـ أي إلى جوار قبر النبيّ صلى الله عليه وآله ـ، لمَّا داهموا المدينة، وكانت قيادة الجيش يومئذٍ بيد مسلم بن عقبة الذي أمره يزيد بمداهمة المدينة والقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير الذي فرَّ إلى مكّة المكرَّمة، حيث استبيحت المدينة ثلاثة أيّام بأمر من يزيد فكانت أموالها وأعراضها حلالاً لجيش الشام، حتَّى وصلت الدماء إلى الروضة، التي جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنّة»[2].

والفكرة التي نريد تأكيدها هي أنَّ الإمام زين العابدين عليه السلام مارس موقفاً لا يعطي فيه الشرعية للسلطان.

الخطّ الثاني: العمل على النجاة من كيد هذا السلطان الجائر، والإبقاء على شخص الإمام سالماً.

أزمة الإمامة:

وهذا الخطّ عمل عليه الإمام زين العابدين عليه السلام، فهو لا يعطي شرعية لهذا السلطان، وفي نفس الوقت يحاول المحافظة على الإمامة،

---

(١) منهاج الكرامة: ٨٣.

(٢) معاني الأخبار: ٢٦٧.

كي لا يترك فراغاً في هذا المجال، فقد كانت هناك (أزمة إمامة) بعد الحسين عليه السلام، وقد استغرقت هذه الأزمة ثلاثين عاماً بعد الحسين عليه السلام، والناس لا يدرون ما يفعلون؟!

لقد كان الإمام الحسين عليه السلام معروفاً لدى عامّة المسلمين أنّه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وابن فاطمة، وابن علي عليهما السلام، وهو سيّد شباب الجنّة، وكلّ الصحابة الموجودين والتابعين يعرفون هذه الحقيقة، ولا يستطيعون مناقشة موقعية الإمام الحسين عليه السلام. لا يزيد ولا حتّى معاوية يستطيع أن يناقش ذلك، أي أنَّ القضيّة كانت تأخذ مساحة كبيرة من قناعة الأمّة، أنَّ الإمام الحسين عليه السلام هو سيّد شباب أهل الجنّة، وليس بحاجة إلى أن يقال له: أعطني دليلك بأنَّك الإمام، لكن بعد مقتل الحسين عليه السلام (تقول الرواية): «ارتدَّ الناس إلاَّ ثلاثة نفر...»[١]، أي ارتدّوا عن أهل البيت عليهم السلام، وليس الارتداد عن الله ورسوله، حتّى قال الإمام السجّاد عليه السلام: «ما بمكّة والمدينة عشرون رجلاً يحبّنا أهل البيت»[٢]، فنتيجة الضغط الأموي والأحقاد وصل الأمر إلى أنَّ مكّة والمدينة ما فيها عشرون رجلاً (يحبّ أهل البيت)، وبرزت شخصيات أخرى منافسة قد تبدو في الأفق أقوى من زين العابدين عليه السلام، فقد كان عمر الإمام السجّاد عليه السلام في يوم مقتل الحسين عليه السلام اثنين وعشرين عاماً، أي أنَّه كان شابّاً يافعاً، ولكن بالمقابل هناك شخصيات من التابعين، وبعضهم عاصر رسول الله صلى الله عليه وآله، وهؤلاء يعتبرون أنفسهم منافسين سياسيين من الدرجة الأولى، مثل عبد الله بن الزبير، وكذلك عبد الله بن عمر أيضاً هو شخصية منافسة قويّة للإمام زين العابدين. كذلك أولاد الحسن عليه السلام مثل الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، هؤلاء أيضاً كان لديهم بروز

---

(١) الاختصاص: ٦.

(٢) بحار الأنوار ٣٤: ٢٩٧.

وموقع، وشخصيات أخرى، حتَّى مثل محمّد بن الحنفية في موقعه الاجتماعي يومئذٍ يُعتبر أكبر من الإمام علي بن الحسين عليه السلام؛ لأنَّه عمّ الإمام السجّاد عليه السلام، وعاصر الإمام علياً عليه السلام، وخاض حروباً، وله شخصية نافذة، وقد نقول: إنَّه عميد الأسرة في بني هاشم، إذن هو أكبر من حيث العمر والموقف الأسري من الإمام السجّاد عليه السلام، ولهذا فإنَّ الإمام السجّاد عليه السلام عاش في أزمة إثبات إمامة، ولمن هي؟ فإنَّ كلّ هؤلاء يدَّعونها أو ادُّعيت لهم، فعمل أربعة وثلاثين عاماً بعد الحسين عليه السلام إلى أن ثبَّت موقعية الإمامة له ولأهل البيت عليهم السلام من أولاد الحسين عليه السلام، وبعدئذٍ أصبحت القضيّة واضحة، وانتهت التنافسات، وأصبح الكلّ أمثال الزهري، وحتَّى بعض أعدى أعدائه[1]، يقولون حين يرون الإمام السجّاد عليه السلام: (الله أعلم حيث يجعل رسالته)، وبعد ثلاثة عقود من العمل المتواصل أصبحنا نشهد هناك قفزة بجهود الإمام السجّاد عليه السلام في الواقع الاجتماعي تجاه أهل البيت عليهم السلام، من مستوى: «ليس في مكّة والمدينة عشرون رجلاً يحبّنا أهل البيت»، إلى أن أصبح الزهري يروي فيقول: (كان القوم لا يخرجون من مكّة حتَّى يخرج الإمام زين العابدين عليه السلام)[2]. أي أصبحت المرجعية الدينية للإمام السجّاد عليه السلام، فأين هذا من المنافسات القويّة يوم أمس، من ابن الزبير، وابن عمر، لكن الإمام عمل بسياسة وجهد مع السلطة بشكل، ومع الناس بشكل آخر، كي يثبت موقعيّة الإمامة التي كانت مهدّدة بالخطر، خطر

(١) يذكر أنَّ هشام بن إسماعيل الذي كان أميراً على مدينة الرسول صلى الله عليه وآله، للأمويين، فعزلوه، وقد كان منه أو بعض أهله شيء يكره تجاه الإمام زين العابدين عليه السلام أيّام كان أميراً، فلمَّا عُزل أوقف للناس، فكان لا يخاف إلاَّ من الإمام أن يؤاخذه على ما كان منه. فمرَّ به الإمام، وأرسل إليه: «استعن بنا على ما شئت». فقال هشام: الله أعلم حيث يجعل رسالته. (مختصر تاريخ دمشق ٤١: ٣٤٩).

(٢) الثاقب في المناقب: ١٦٥/ ح (٢/١٥٤).

التصفية، وخطر المنافسين السياسيين، وخطر الزعامات الدينية المنافسة فاستطاع أن يتغلَّب عليها جميعاً.

خطر التصفية:

لقد كانت هناك ملاحقات وتصفيات جسدية وحرب طائفية، فقد أُرسل ذات مرّة إلى عبد الملك بن مروان مغلولاً، لكنّه رجع معزّزاً مكرَّماً بعد كرامة باهرة له عليه السلام(١).

وفي مرَّة أخرى زار عبد الملك بن مروان البيت الحرام حاجّاً، وفيما كان عبد الملك والناس يطوفون، وعلي بن الحسين عليهما السلام يطوف بين يديه ولا يلتفت إليه؟

فقال: من هذا الذي يطوف بين يدينا ولا يلتفت إلينا؟

فقيل له: هذا علي بن الحسين، فجلس مكانه.

(١) عن ابن شهاب الزهري، قال: شهدت علي بن الحسين يوم حمله عبد الملك بن مروان من المدينة إلى الشام، فأثقله حديداً، ووكَّل به حفّاظاً في عدّة وجمع، فاستأذنتهم في التسليم عليه والتوديع له فأذنوا، فدخلت عليه والأقياد في رجليه والغل في يديه، فبكيت وقلت: وددت أنّي مكانك وأنت سالم، فقال : «يا زهري، أوَتظنّ هذا بما ترى علي وفي عنقي يكربني؟ أمَّا لو شئت ما كان، فإنَّه وإن بلغ بك ومن أمثالك ليذكرني عذاب الله»، ثمّ أخرج يديه من الغل ورجليه من القيد، ثمّ قال: «يا زهري لا جزت معهم على ذا منزلتين من المدينة»، فما لبثنا إلاَّ أربع ليال حتَّى قدم الموكّلون به يطلبونه بالمدينة، فما وجدوه، فكنت فيمن سألهم عنه، فقال لي بعضهم: إنّا نراه متبوعاً، إنَّه لنازل، ونحن حوله لا ننام نرصده، إذ أصبحنا فما وجدنا بين محمله إلاَّ حديده، فقدمت بعد ذلك على عبد الملك فسألني عن علي بن الحسين؟ فأخبرته، فقال: إنَّه قد جاءني في يوم فقده الأعوان، فدخل عليَّ فقال: «ما أنا وأنت؟»، فقلت: أقم عندي، فقال: «لا أحبّ»، ثمّ خرج، فوَالله لقد امتلأ ثوبي منه خيفة. قال الزهري: فقلت: ليس علي بن الحسين حيث تظنّ، إنَّه مشغول بنفسه، فقال: حبّذا شغل مثله، فنعم ما شغل به. (مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٦).

فقال: ردّوه إليَّ، فردّوه.

فقال له: يا علي بن الحسين إنّي لست قاتل أبيك، فما يمنعك من المصير إليَّ؟

فقال علي بن الحسين صلوات الله عليهما: «إنَّ قاتل أبي أفسد على نفسه بما فعله دنياه عليه، وأفسد أبي عليه بذلك آخرته، فإن أحببت أن تكون كهو فكن»[1]. فأعرض عنه عبد الملك بن مروان وتحاشى أن يدخل مع الإمام عليه السلام في مواجهة.

وهكذا كتب الحجّاج إلى عبد الملك بن مروان يقول له: إن أردت أن يثبت ملكك فاقتل علي بن الحسين، فكتب إليه عبد الملك: أمَّا بعد، فجنّبني دماء بني هاشم وأحقنها، فإنّي رأيت آل أبي سفيان لمَّا أولغوا فيها لم يلبثوا أن أزال الله المُلك عنهم، وبعث بالكتاب سرّاً إلى الحجّاج، ونسخة أرسلها إلى الإمام زين العابدين عليه السلام، فكأنَّه يريد أن يقول للإمام عليه السلام هذا هو كتابي إلى الحجّاج، وهذا هو موقفي تجاهكم.

وقبل أن يبعث مروان الكتاب، علم الإمام به عن طريق رؤيا رأى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله، فكتب لعبد الملك بن مروان يشكره على موقفه وكتابه إلى الحجّاج.

ففرح بذلك عبد الملك بن مروان وأرسل له مجموعة دراهم ودنانير، وسأله أن يكتب إليه في حوائجه[2].

لقد كان المهمّ لدى الإمام هو الخلاص من عملية التصفية، ودونما إعطاء شرعية أو تبعية للحاكم.

---

(١) الثاقب في المناقب: ٣٦٥/ ح (١/٣٠٣).

(٢) أنظر: الخرائج والجرائح ١: ٢٥٦.

وتطوَّر الأمر بفعل هذه السياسة الحكيمة إلى أنَّ عبد الملك بن مروان بن الحكم يقول للحجّاج: (جنّبني دماء بني هاشم)، وبعدئذٍ أعاد صدقات الإمام علي عليه السلام إلى زين العابدين بعد أن كانت مصادرة، وكان ذلك بداية التحوّل السياسي نحو أهل البيت عليهم السلام.

إذن، سوف نرى كيف امتدَّ الإمام زين العابدين عليه السلام في الأمّة، وماذا فعل في هذا المجال؟

فقد كان يحمل الجراب على ظهره ويتجوَّل في الليل ويطرق أبواب الفقراء، فإذا فتحت الباب يسلّم لهم الجراب، وكان يغطّي وجهه؛ لكي لا يعرفه صاحب الدار[1]. فلم يكن الإمام يفعل هذا الأمر من منطلقات سياسية، بل هي تربية ذاتية.

امتداد التشيّع في العراق:

وعلى كلّ حال فقد استمرَّ الإمام في علاقته مع الناس، والعجيب أنَّ صدقات الإمام كانت توزَّع في المدينة، لكن آثارها المذهبية تظهر في العراق، فإنَّ صدقة السرّ لا تضيع عند الله، بل تراها أنت وأولادك، الإمام زين العابدين عليه السلام كانت حركته مع التابعين في المدينة، لكن آثارها كانت تظهر في العراق، حيث امتداد التشيّع لأهل البيت عليهم السلام.

---

(١) روي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «... وكان عليه السلام ليخرج في الليلة الظلماء فيحمل الجراب على ظهره وفيه الصرر من الدنانير والدراهم، وربَّما حمل على ظهره الطعام أو الحطب حتَّى يأتي باباً باباً فيقرعه ثمّ يناول من يخرج إليه، وكان يغطّي وجهه إذا ناول فقيراً لئلاَّ يعرفه، فلمَّا توفّي عليه السلام فقدوا ذلك، فعلموا أنَّه كان علي بن الحسين عليهما السلام، ولمَّا وضع عليه السلام على المغتسل نظروا إلى ظهره وعليه مثل ركب الإبل ممَّا كان يحمل على ظهره إلى منازل الفقراء والمساكين...» (الخصال: ٥١٧/ أبواب العشرين فما فوق/ ح ٤).

حنان بن سدير في رواية صحيحة السند يقول: دخلت أنا وأبي وجدّي وعمّي إلى حمّام في المدينة المنوّرة، وإذا رجل في بيت المسلخ، فقال: «من القوم؟».

قلنا: من أهل العراق.

فقال الرجل: «وأيّ العراق؟».

قلنا: كوفيون.

قال: «مرحباً بكم يا أهل الكوفة، أنتم الشعار دون الدثار»[1]. بعدئذٍ سألوا عنه فقيل لهم: هو علي بن الحسين، والشعار هو الملبس اللاصق بالجسد، أي الملابس الداخلية التي تدفئ الإنسان، والدثار هو الملابس الخارجية المهلهلة الشكلية، ومعناها أنتم الخاصّة من الناس، وما عداكم هم أُطر عامّة وأشكال ظاهرية. وهذه حقيقة بقيت في التاريخ، وهي نفوذ أهل البيت عليهم السلام في العراق، حتَّى تطوَّر الموقف إلى أن وصل حبّ أهل البيت إلى مستوى أنَّ الإمام زين العابدين عليه السلام يدعو للتخفيف من حدّة الحبّ، ويقول: «أحبّونا حبّ الإسلام»، حيث كانت بدايات ظاهرة الغلو، ونتيجة الكبت الأموي والبعد عن التواصل عن مركز الفكر الديني وهو الإمام، أصبحنا نشهد حالات غلو، وكانت هذه الحالات قد نمت في زمن الإمام الصادق عليه السلام والباقر عليه السلام.

يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «أحبّونا حبّ الإسلام، فما زال حبّكم لنا حتَّى صار شيناً علينا»[2]، وهذا هو الكسب الديني والسياسي، والإمام زين العابدين نجح فيه نجاحاً كبيراً خلال أربع وثلاثين سنة.

---

(١) الكافي ٦: ٤٩٧/ باب الحمّام/ ح ٨.

(٢) الإرشاد ٢: ١٤١.

لقد كنّا نواجه قبل ذلك ظاهرة عجيبة، وهي شتم الإمام السجّاد عليه السلام بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام، ولكن الإمام من خلال المداراة والتواصل وبالسلوك الأخلاقي العظيم يحاول أن يمتصّ الغيظ من هؤلاء، فقد سبَّه شخص، فقال له الإمام عليه السلام: «إن كان الذي قلته كما قلت فإنّي أسأل الله أن يغفر لي، وإن لم يكن ذلك كما قلت فإنّي أسأل الله أن يغفر لك»[1]، ونجد مثل ذلك في عشرات الحالات.

وهناك سؤال عن تفسير هذه الظاهرة، ظاهرة سبّ وشتم الإمام زين العابدين عليه السلام؟

الحقيقة أنَّ ذلك يؤكّد ما ذكرناه من أنَّ هناك أزمة إمامة، وأنَّ الإمام السجّاد يقف أمامه منافسون آخرون، وزعامات دينية وزعامات سياسية، فهو يحتاج إلى جهد حتَّى يثبت موقعه.

ولقد نجح الإمام السجّاد عليه السلام في الخطّ الأوّل، وكانت مواقفه نفس المواقف التي التزمها الإمام الحسين عليه السلام، من عدم إعطاء شرعية للسلطة، ولكن مع تغيّر في الموقف الشكلي، فمرّة بيعة للسلطان، ومرّة رفض للبيعة.

كما نجح الإمام في الخطّ الثاني أيضاً، وهو نشر موقع الإمامة والزعامة الدينية، ومن خلال مجموعة أساليب، وكان من جملة تلك الأساليب أنَّ الإمام الحسين عليه السلام أوصى بالإمامة في الظاهر إلى زينب، وهذا تخفّياً وتستّراً على الإمام السجّاد عليه السلام، فكانت هي تجيب الناس، ولهذا فإنَّ الحكم الأموي غفل عن الحقيقة، وحسبوا أنَّ هذا الشاب لا يمكن أن ينافسهم في الزعامة، بل هناك زعامات أخرى، ولهذا بقي

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٢٥٧.

الإمام وامتدَّ به العمر من (٢٢) سنة يوم شهادة أبيه الحسين عليه السلام إلى أن بلغ به العمر سبعاً وخمسين سنة، حتَّى كانت شهادته على يد الوليد، بهذه الفترة عمل الإمام على بناء الكتلة الصالحة، ونجح الإمام في ذلك، وسنرى كيف ورث الإمام الباقر عليه السلام جماعة انتشرت انتشاراً كبيراً في ذلك الزمن، وأوّل مرّة نجد أنَّ إماماً معصوماً تكون وصيّته في الظاهر إلى امرأة، لنفس المخطَّط، وهو المحافظة على الإمام عليه السلام.

نظرية الحكم في الإسلام:

قال الإمام السجّاد عليه السلام في رسالته المعروفة بـ(رسالة الحقوق):

«أمَّا حقّ سائسك بالسلطان، فأن تعلم أنَّك جُعلت له فتنة، وأنَّه مبتلى فيك بما جعله الله له عليك من السلطان، وأن تخلص له في النصيحة، وأن لا تماحكه[1]، وقد بسطت يده عليك فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه، وتذلّل وتلطّف لإعطائه من الرضا ما يكفّه عنك، ولا يضرّ بدينك».

هذا نصّ دستوري قانوني مهمّ، للإمام زين العابدين عليه السلام في رسالته الحقوقية، الدستورية، القانونية، الخالدة، المعروفة برسالة الحقوق، وهي أروع بكثير من وثيقة حقوق الإنسان التي ثبَّتتها الأمم المتّحدة في عصرنا هذا، وهذه الرسالة هي قمّة في البعد القانوني، والحقوقي، والإنساني، ولست بصدد الحديث عن رسالة الحقوق، فله شأن آخر، الإمام في واحد من تلك الحقوق وهي خمسون حقّاً، يذكر العلاقة بين الإنسان الفرد، وبين الحاكم (السلطان)، خاصّة حينما يكون ذاك السلطان غير شرعي، فكيف تتعامل مع سلطان غير شرعي؟

(١) لا تماحكه: أي لا تخاصمه ولا تنازعه.

الإمام عليه السلام يعطيك دستور العمل في العلاقة بين الفرد في المجتمع، وبين السلطان غير الشرعي.

ولكي نستخلص النتائج التي وصل إليها الإمام الحسين عليه السلام، والنتائج التي وصل إليها الإمام زين العابدين عليه السلام، وقد ثبت لدينا فيما سبق، أنَّ الأهداف واحدة، والمناهج واحدة، رغم وجود مواقف متحرّكة حسب الظروف، فقد ثبت لدينا أنَّ المنهج العامّ هو استنهاض الأمّة، والانفتاح على الجمهور، وهذا المنهج وجدناه في الحسين عليه السلام، وفي زين العابدين عليه السلام، وسنجده في الأئمّة الآخرين، وبقي الحديث عن نتائج سياسات الإمام الحسين عليه السلام، وماذا حقَّقت؟ والإمام زين العابدين عليه السلام سياساته ماذا حقَّقت في ضوء الأهداف والنظرية.

هل يُعنى الإسلام بالحكم؟

هناك كلام، وما زال مطروحاً، أنَّ الإسلام هل يريد أن يحكم في البلاد، أم شأنه فقط معالجة الحياة الفردية للإنسان، أمَّا الحكم فهو لغير الإسلام؟

ففي النصف الثاني من القرن الماضي، كان هذا البحث ساخناً، وكان هناك كتابات وبحوث، على رأس تلك البحوث بحث لكاتب مصري اسمه (علي عبد الرازق)، كتب كتاباً اسمه (الإسلام وأصول الحكم)، وجاءت مجموعة كتابات لطه حسين والعقّاد وكتّاب مصريين باتجاه هذه النظرية العلمانية، أنَّ الإسلام ينظّم علاقات الفرد، أمَّا الحكم والسلطة فلا علاقة له بها. وحتَّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حينما حكم في المدينة كما يقول هؤلاء الباحثون أصحاب هذه النظرية ما كان يريد أن يحكم ويكون القائد الأعلى، وإنَّما الظروف هي التي ساقته إلى ذلك، فلو كان

هنــاك قائــد غيــر النبــيّ صلى الله عليه وآله، فــالنبيّ صلى الله عليه وآله كــان يبقــى علــى المســجد والموعظـة ويتـرك إمـرة المسـلمين فـي المدينـة المنـوّرة، الإسـلام لا يريـد تشــكيل دولــة، ولا يتــولّى الســلطة وفــق هــذه النظريــة، وإنَّمــا الأقــدار والظروف هي التي ساقت النبيّ صلى الله عليه وآله ليكون هو الحاكم.

اليوم هناك ثقافة تقول: أيّها المسلمون، اتركوا الحكم لمن لا دين له، فإنَّ السياسة لا يمكن أن يتولاّها المؤمنون؛ لأنَّها قائمة على المناورة المصلحية.

وهذه النظرية مطروحة اليوم، ويُروَّج لها بأشكال عديدة وأسماء عديدة وعناوين عديدة، ونحن الآن لسنا بصدد مناقشتها، لكن لننظر الإمام الحسين عليه السلام كيف كان يقيّم الموقف؟ والسجّاد عليه السلام كيف كان يقيّم الموقف؟

أهل الكوفة في رؤية أهل البيت عليهم السلام:

إنَّ الإمام علياً عليه السلام تحرَّك من المدينة المنوَّرة باتّجاه العراق نحو الكوفة، وكان قد وصل إلى ذي قار، ثمّ عزم على الاتجاه من ذي قار إلى البصرة لمواجهة تمرّد طلحة والزبير، وهنا في ذي قار استقبله جمع من شيعته من أهل الكوفة الذين بلغهم حركته نحوهم، مئات تحرَّكوا من الكوفة وذهبوا إلى ذي قار لاستقبال الإمام عليه السلام لأجل أن يكونوا معه مقاتلين، فلمَّا التقى الإمام بأهل الكوفة في ذي قار رحَّبوا به، وقالوا له: الحمد لله الذي خصَّنا بجوارك، وأكرمنا بنصرك، ولعلَّ كثيراً من هؤلاء لم يكونوا قد رأوا الإمام علياً عليه السلام، فالإمام ولادته في المدينة المنوّرة، وانتخابه خليفةً في المدينة، لكن هؤلاء شيعة الإمام علي عليه السلام في الكوفة.

فقـال عليه السلام: «يـا أهـل الكوفـة، إنَّكـم مـن أكـرم المسـلمين، وأقصـدهم تقويماً، وأعـدلهم سُنّة، وأفضـلهم سـهماً فـي الإسـلام، وأجـودهم فـي العـرب

مركباً ونصاباً، أنتم أشدّ العرب ودّاً للنبيّ ولأهل بيته، وإنَّما جئتكم ثقة بعد الله بكم ــ وثقة الإمام عليه السلام ثقة علم وليس ثقة جهل ــ للذي بذلتم من أنفسكم عند نقض طلحة والزبير».

فقالوا: نحن أنصارك وأعوانك على عدوّك، ولو دعوتنا إلى أضعافهم من الناس احتسبنا في ذلك الخير ورجوناه. فدعا لهم أمير المؤمنين عليه السلام[(١)].

كنت أقرأ هذه الرواية وأستذكر الرؤية السلطانية الأموية لأهل العراق، واتّهامهم بالنفاق والشقاق. ولكن هؤلاء لا يسلّطون الضوء على نصوص أهل البيت عليهم السلام في مدح أهل العراق والثناء عليهم، بل كانت سياسة السلطان الأموي هي ذمّ أهل العراق؛ لأنَّ لديهم ولاءً لأهل البيت عليهم السلام، ولا يذمّونهم بهذا العنوان، بل بعناوين أخرى، ولكن واقع القضيّة هو أنَّ أهل العراق غير خاضعين للسلطان الجائر.

الإمام علي عليه السلام في سجل هذه الحروب والمعارك يطرح النظرية ويقول: «إنَّ الرعيّة الصالحة تنجو بالإمام الصالح، وإنَّ الرعيّة الفاجرة تهلك بالإمام الفاجر»[(٢)]، بما يعني ضرورة البحث عن الإمام الجيّد، وليس مجرَّد الشعب الجيّد. لا تقولوا: إنَّ علينا أن نبني مجتمعاً صالحاً ونترك السلطة للآخرين، فهذا خطأ. بل لا يكون المجتمع صالحاً إلاَّ من خلال حكومة صالحة. الإمام يقول: إنَّ الإسلام يهتمّ بشيئين:

١ ــ المجتمع الصالح.

٢ ــ الإمام الصالح.

---

(١) الإرشاد ١: ٢٤٩.

(٢) الاحتجاج ١: ٢٥١.

فالرعيّة الصالحة ستنجو إذا كان لديها قائد سفينة صالح، أمَّا إذا كان قائد السفينة غير صالح فستغرق هذه السفينة.

حضور الإمام السجّاد عليه السلام:

ولننتقل لعرض بعض الجوانب الأخلاقية لدى الإمام السجّاد عليه السلام بعد أن ذكرنا أنَّ الحسين عليه السلام والسجّاد عليه السلام، وكلّ الأئمّة عليهم السلام كان منهجهم الانفتاح على الجمهور، وعدم الانعزال.

ملك الروم بعث وفداً علمياً إلى يزيد في الشام، ووفداً بعثه إلى الحسين عليه السلام في المدينة، فهو يعرف أنَّ هناك زعامة سياسية، وزعامة دينية، بعث الوفد بمسائل، هذه المسائل ذهبت إلى يزيد ولم تتحدَّث الرواية عن الجواب، ولكن نفس الأسئلة رفعها إلى الإمام الحسين عليه السلام، وكان أحد تلك الأسئلة _ كما قال له المبعوث الرومي _: ما سبعة أشياء حيّة خلقها الله في غير رَحِم؟

فضحك الإمام الحسين عليه السلام، فقال له المبعوث: لماذا تضحك؟

قال: «لأنَّك سألتني عن أشياء ما هي من منتهى العلم!، أمَّا السبعة أشياء التي خلقها الله تعالى في غير رحم فأوّلها آدم، ثمّ حواء، والغراب _ الذي علَّم قابيل كيف يدفن أخاه هابيل _، وكبش إبراهيم _ الذي أنزله الله فداء لإسماعيل _ وناقة الله، وعصا موسى _ التي تحوَّلت إلى ثعبان فأكلت جميع ما صنعه السحرة _ والطير الذي خلقه عيسى بن مريم»(١)، فقد أخذ عيسى عليه السلام تراباً فنفخ فيه فطار بإذن الله، وهذا هو معتقدنا القرآني وهو موجود في التوراة والإنجيل، وهذه سبعة أمور خلقها الله من غير رحم.

---

(١) بحار الأنوار ١٠: ١٣٨.

إنَّ هدفنا من عرض هذه القصَّة هو بيان أنَّ الأئمّة لم ينعزلوا عن المجتمع، وإنَّما بقوا يدافعون عن المجتمع وعن الإسلام والمسلمين وكيان التجربة الإسلاميّة كي لا تنهار، فقد كان يزيد غير قادر على الجواب، وكان المجيب هي المرجعية الدينية والإمامة الشرعية المتمثّلة بالإمام المعصوم عليه السلام.

كما ذكرنا موقف الإمام السجّاد عليه السلام في الدفاع عن كيان التجربة الإسلاميّة أيضاً في المعركة السياسية مع الروم، وكيف أنَّ ملك الروم هدَّد المسلمين مرّة بقطع السكة، ومرّة بجيش، وكان حلاّل المشاكل هو الإمام زين العابدين، إذن هم لم ينفصلوا عن الأمّة أبداً. فهناك تشابه بين الحسين عليه السلام والسجّاد عليه السلام، وهناك تمايز حسب اختلاف المرحلة، وسوف نستعرض بعض نقاط التشابه فيما يتعلَّق بالموقف تجاه السلطة غير الشرعية، وما يتعلَّق بسياسة ومنهجية اعتماد الجمهور والانفتاح على الناس.

انفتاح الإمام السجّاد عليه السلام على الجمهور:

تقول عائشة[1]: سمعت أهل المدينة يقولون: (ما فقدنا صدقة السرّ حتَّى مات علي بن الحسين عليه السلام)[2]. أي أنَّ الإمام أسَّس ظاهرة في المجتمع وهي ظاهرة المؤسسة الخيرية التي تعمل بطريق التبرّع السرّي وبدون دعاية أو منافع تجارية، وإنَّما هي مؤسسة خيرية خالصة لوجه الله تبارك وتعالى، والإسلام كان قد شرَّع صدقة السرّ، لكن من الذي يطبّقها على الأرض؟ لماذا القرآن الكريم نزل في أهل البيت قائلاً: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ (الإنسان: ٨)؟ لأنَّ هؤلاء هم الذين طبَّقوها.

---

(١) في بعض المصادر: (عن ابن عائشة، عن أبيه، قال: سمعت...)، وهو الصحيح.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٣.

حتَّـى أنَّ الإمـام كـان يحمـل الجـراب ويطـوف علـى بيـوت الفقـراء والمحتاجين، لكن الجميل والغريب أنَّه كان إذا جاء زين العابدين من بعيد يقول الناس: جاء صاحب الجراب، وهم لا يعرفونه لأنَّه كان يغطّي وجهه!! وهذا الانفتاح والتواصل مع الجمهور في قضايا إنسانية بحيث إنَّه حوَّلها إلى مؤسسة وظاهرة، هذا الامتداد على وسط الجمهور حقَّق نتائج عظيمة.

فـي روايـة عـن الإمـام البـاقر عليه السلام يقـول: «خـرج علـي بـن الحسـين عليهما السلام إلـى مكّـة حاجّـاً، حتَّـى انتهـى إلـى وادٍ بـين مكّـة والمدينـة، فـإذا هـو برجل يقطع الطريق. فقال لعلي عليه السلام: انزل.

قال عليه السلام: تريد ماذا؟

قال: أريد أن أقتلك، وآخذ ما معك.

قال عليه السلام: فأنا أقاسمك ما معي وأحلّلك.

فقال اللصّ: لا.

فقال عليه السلام: دع معي ما أتبلَّغ به، فأبى عليه.

قال عليه السلام: فأين ربّك؟

قال: نائم».

قـال الإمـام البـاقر عليه السلام: «فـإذا أسـدان مقـبلان بـين يديـه، فأخـذ هـذا برأسه، وهذا برجليه.

فقال عليه السلام: زعمت أنَّ ربّك عنك نائم»[(١)].

المعـاجز كانـت كثيـرة، لكـن حركـة أهـل البيـت عليهم السلام لـم تكـن عبـر معـاجز، رغـم وجودهـا، بـل عبـر سـلوك اجتمـاعي رائـع جـدّاً جعـل الأمّـة تذعن لهم، وجعلهم الرمز الديني.

(١) أمالي الطوسي: ٦٧٣/ ح (١٤٢١/٢٨).

الحجّاج بن يوسف الثقفي هدم الكعبة، لأنَّه بعد مقتل الحسين عليه السلام حدثت ثورة أخرى في المدينة قائدها عبد الله بن الزبير، فجهَّز له يزيد بن معاوية جيشاً، فوصل الجيش إلى المدينة فحاصرها وفتحها واستباحها. فهرب عبد الله بن الزبير إلى مكّة وتحصَّن في المسجد الحرام، وجاءت جيوش الشام وأحاطت بمكّة، فرُمي المسجد الحرام بالمنجنيق، وهُدّمت الكعبة، بينما الإمام الحسين عليه السلام هاجر من مكّة حفظاً لحرمة بيت الله الحرام، فلا يجوز أن يكون بيت الله ثكنة عسكرية.

يقول أبان بن تغلب: لمَّا هدم الحجّاج الكعبة فرَّق الناس ترابها، فلمَّا جاؤوا إلى بنائها وأرادوا أن يبنوها خرجت عليهم حيّة فمنعت الناس البناء حتَّى انهزموا، فأتوا الحجّاج فأخبروه، فخاف أن يكون قد مُنع من بنائها، فصعد المنبر وقال: أنشد الله عبداً عنده خبر ما ابتلينا به لما أخبرنا به.

قال: فقام شيخ فقال: إن يكن عند أحد علم فعند رجل رأيته جاء إلى الكعبة وأخذ مقدارها ثمّ مضى، فقال الحجّاج: من هو؟ قال: هو علي بن الحسين.

قال: معدن ذلك، فبعث إلى علي بن الحسين، فأتاه، فأخبره بما كان من منع الله إيّاه البناء، فقال له علي بن الحسين: «يا حجّاج، عمدت إلى بناء إبراهيم وإسماعيل وألقيته في الطريق وانتهبه الناس كأنَّك ترى أنَّه تراث لك، اصعد المنبر فأنشد الناس أن لا يبقى أحد منهم أخذ منه شيئاً إلاَّ ردَّه».

قال: ففعل فردّوه، فلمَّا رأى جميع التراب أتى علي بن الحسين فوضع الأساس وأمرهم أن يحفروا، قال: فتغيَّبت عنهم الحيّة، وحفروا حتَّى انتهى إلى موضع القواعد، فقال لهم علي بن الحسين: تنحّوا، فتنحّوا، فدنا منها فغطّاها بثوبه، ثمّ بكى، ثمّ غطّاها بالتراب، ثمّ دعا الفعلة

(العمّال) فقال: ضعوا بناءكم، فوضعوا البناء، فلمَّا ارتفعت حيطانه أمر بالتراب فألقى في جوفه، فلذلك صار البيت مرتفعاً يصعد إليه بالدرج(١).

هذا نموذج حضور الإمام في الساحة، في المعركة السياسية. وكذلك في المعركة الثقافية، هذا الأمر جعل نجم الإمام يلمع، حتَّى أنَّ الحجّاج يضطرّ إلى أن يأتي إلى الإمام زين العابدين.

مع شخصيات منافسة:

بعض الروايات التاريخية تقول: إنَّ محمّد بن الحنفية كان يفكّر بالإمامة، فدخل السجّاد عليه السلام معه في محاججة بهدف إقناعه أنَّ الإمامة ليست له، وما نريد الإشارة إليه في هذه القصَّة هو أنَّ محمّد بن الحنفية لم يكن ينافس الحسين عليه السلام، ولهذا فقد كان الإمام الحسين عليه السلام بلا منافس على مستوى ثقة الجمهور، لكن زين العابدين عليه السلام كان لديه منافسون أقوياء حتَّى من داخل البيت العلوي.

تذكر بعض الروايات أنَّه حدثت مشادّة كلامية بين الحسين عليه السلام ومحمّد بن الحنفية، فكتب رسالة إلى الحسين عليه السلام يقول فيها: «أمَّا بعد، فإنَّ لك شرفاً لا أبلغه، وفضلاً لا أدركه، أبونا علي، لا أفضلك فيه ولا تفضلني، لكن أُمّي من بني حنيفة وأُمّك بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، ولو كان ملء الأرض نساء ما وفين بأُمّك الزهراء، فإذا قرأت رقعتي هذه فالبس رداءك ونعليك وتعال فترضيني، وإيّاك أن أكون أسبق منك إلى الفضل الذي أنت أولى به منّي»، فلمَّا وصلت الرسالة إلى الحسين وقرأ الرقعة سارع إلى أخيه وترضّاه(٢).

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨١.

(٢) نهاية الإرب ٣: ٢٦٠.

ومحل الشاهد في القصَّة أنَّ محمّد بن الحنفية لم يكن يرى نفسه منافساً للحسين عليه السلام، فالإمام زعيم ديني بدون منافس، لكن زين العابدين كان منافسوه موجودين، وعليه أن يثبت الإمامة له، فهو يحتاج إلى سنوات طويلة من أجل إثبات ذلك.

هناك أيضاً عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام، خاصم الإمام زين العابدين عليه السلام إلى عبد الملك بن مروان في صدقات النبيّ وأمير المؤمنين، وقال: أنا ابن المتصدّق، وهذا ابن ابن، فأنا أولى بها منه.

تقول الرواية: أنَّ عبد الملك _ وقد كان عارفاً بالحقيقة _ حكم لزين العابدين عليه السلام على عمر بن علي، فقاما، فلمَّا خرجا تناوله عمر وآذاه، فسكت عنه ولم يرد عليه شيئاً، فلمَّا كان بعد ذلك جاء محمّد بن عمر واعتذر من زين العابدين عليه السلام، فقال له الإمام عليه السلام: «يا ابن عمّ، لا تمنعني قطيعة أبيك أن أصِل رحمك، فقد زوَّجتك ابنتي خديجة بنت علي»[(١)].

والإمام زين العابدين عليه السلام كانت له مثل هذه الحالات، تقول الرواية: أنَّ رجلاً من الأنصار جاء للحسين عليه السلام يريد أن يسأله، قال الحسين عليه السلام: «يا أخا الأنصار، صن وجهك عن بذلة المسألة، وارفع حاجتك في رقعة، فإنّي آتٍ فيها ما سارّك إن شاء الله».

فكتب: يا أبا عبد الله، إنَّ لفلان عليَّ خمسمائة دينار، وقد ألحَّ بي، فكلّمه ينظرني إلى ميسرة. فلمَّا قرأ عليه السلام الرقعة دخل إلى منزله، وأخرج صرّة فيها ألف دينار، وقال عليه السلام له: «أمَّا خمسمائة فاقض بها دينك، وأمَّا خمسمائة فاستعن بها على دهرك، ولا ترفع حاجتك إلاَّ إلى أحد ثلاثة: إلى ذي دِين، أو مروّة، أو

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٨.

حَسَب، فأمَّا ذو الدين فيصون دِينَه، وأمَّا ذو المروة فإنَّه يستحيي لمروَّته، وأمَّا ذو الحَسَب فيعلم أنَّك لم تكرم وجهك أن تبذله له في حاجتك، فهو يصون وجهك أن يردّك بغير قضاء حاجتك»[1].

هذا نموذج لحضور أهل البيت عليهم السلام الجماهيري، فأهل البيت لم ينقطعوا عن المجتمع، ولهذا كانوا القمّة في الشجاعة، والعلم، والكرم، والشرف، والزهد، والعبادة، ومن هنا كان لديهم قدرة على التأثير، واستطاعوا أن يتغلغلوا في داخل البلاط.

هل ابتعد الإمام السجّاد عليه السلام عن الخطّ الثوري؟

هناك سؤال يقول: هل ابتعد الإمام زين العابدين عليه السلام عن الخطّ الثوري التغييري للإمام الحسين عليه السلام، بحيث سلك خطّاً آخر؟

قد يستشهد له ببعض النصوص التاريخية؟

هناك نصّ تاريخي عجيب يقول: إنَّ الإمام السجّاد عليه السلام حينما رجع إلى المدينة المنوّرة كان ينصب له بيتاً خارج المدينة من شَعَر لعدّة سنوات كراهية لمخالطة الناس وملاقاتهم، وكان من البادية يتحرَّك إلى العراق زائراً لأبيه وجدّه، ولا يشعر بذلك من فعله[2].

وهذه الحالة نستطيع أن نُسمّيها حالة العزلة عن الناس، هذه

(١) تحف العقول: ٢٤٧.

(٢) ينقل السيّد ابن طاووس في (فرحة الغري: ٧٢/ ح ١٨): بسنده عن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر محمّد بن علي عليه السلام، قال: «كان أبي علي بن الحسين عليه السلام قد اتَّخذ منزله من بعد قتل أبيه الحسين بن علي عليه السلام بيتاً من الشعر، وأقام بالبادية، فلبث بها عدّة سنين كراهية الناس وملابستهم، وكان يصير من البادية بمقامه بها إلى العراق زائراً لأبيه وجدّه ولا يشعر بذلك من فعله».

الظاهرة التي استمرَّت عدّة سنوات هل تدلّل على أنَّ الإمام السجّاد عليه السلام كان إنساناً منطوياً على نفسه، واعتزل الناس كما تشير هذه الرواية؟

وهل أنَّ عمق الفاجعة غيَّر الحالة النفسية للإمام السجّاد عليه السلام بحيث جعله قريباً من حالات المتصوّفة باكياً نادباً؟

وهناك رواية أيضاً عن إبراهيم بن أدهم، قال: كنت أسيح في البادية مع القافلة، فعرضت لي حاجة، فتنحَّيت عن القافلة، فإذا أنا بصبي يمشي، فقلت: سبحان الله، بادية بيداء وصبي يمشي! فدنوت منه وسلَّمت عليه، فردَّ عليَّ السلام.

فقلت له: إلى أين؟

قال: «أريد بيت ربّي».

فقلت: حبيبي، إنَّك صغير ليس عليك فرض ولا سُنّة.

فقال: «يا شيخ، ما رأيت من هو أصغر سنّاً منّي مات؟».

فقلت: أين الزاد والراحلة؟

فقال: «زادي تقواي، وراحلتي رجلاي، وقصدي مولاي».

فقلت: ما أرى شيئاً من الطعام معك!

فقال: «يا شيخ، هل يستحسن أن يدعوك إنسان إلى دعوة فتحمل من بيتك الطعام؟».

قلت : لا.

قال: «الذي دعاني إلى بيته هو يطعمني ويسقيني».

فقلت: ارفع رجلك حتَّى تدرك، (بمعنى اركب معي على الدابّة).

فقال: «عليَّ الجهاد وعليه الإبلاغ، أمَا سمعت قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]؟».

قال: فبينا نحن كذلك إذ أقبل شاب حسن الوجه عليه ثياب بيض حسنة، فعانق الصبي وسلَّم عليه، فأقبلت على الشاب وقلت له: أسألك بالذي حسَّن خلقك، من هذا الصبي؟

فقال: أما تعرفه! هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فتركت الشاب وأقبلت على الصبي، فقلت: أسألك بآبائك من هذا الشاب؟

فقال : «أما تعرفه؟ هذا أخي الخضر، يأتينا كلّ يوم فيسلّم علينا».

فقلت: أسألك بحقّ آبائك لما أخبرتني بما تجوز المفاوز بلا زاد؟

ـ وهنا النصّ العرفاني العظيم الذي يجب أن نقف مع علماء الدين ورجال الحوزة العلمية في تحليل هذا النصّ ـ.

قال: «بل أجوز بزاد، وزادي فيها أربعة أشياء».

قلت: وما هي؟

قال: «أرى الدنيا كلّها بحذافيرها مملكة الله، وأرى الخلق كلّهم عبيد الله وإماءه وعياله، وأرى الأسباب والأرزاق بيد الله، وأرى قضاء الله نافذاً في كلّ أرض الله».

فقلت: نعم الزاد زادك يا زين العابدين، وأنت تجوز بها مفاوز الآخرة، فكيف مفاوز الدنيا(١).

وهذه الأربعة أمور يُسمّيها العرفاء: التوحيد الأفعالي، والتوحيد الذاتي، والتوحيد الصفاتي، وهي عمق التوحيد.

لنعد إلى السؤال:

هل كان الإمام السجّاد عليه السلام يؤثر حالة العزلة، مرّة ينصب بيتاً من الشعر، ومرّة يمشي في البيداء بعيداً ومعزولاً عن الناس؟

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٠؛ بحار الأنوار ٤٦: ٣٨.

هل تغيَّر منهج الإمام السجّاد عليه السلام عن منهج الإمام الحسين عليه السلام؟

هل كان الإمام السجّاد عليه السلام منزوياً؟ ثمّ ما هو موقفه من الثورات التي حدثت؟ ونحن لا نمانع أن يكون السجّاد عليه السلام قد شهد مرحلة بعد شهادة الحسين عليه السلام هي مرحلة خاصّة واستثنائية آثر الإمام السجّاد فيها العزلة وأن لا يسلّط عليه الأضواء، إمَّا لسبب سياسي، أو للتفاعل مع قضيّة الحسين عليه السلام، فآثارها فوق مستوى الوصف. فإذا قيل: إنَّ أُمّ البنين تنصب لها بيتاً من شعر أو طين، أو تنصب قبوراً أربعة وتبكي، حتَّى أنَّ مروان بن الحكم كان يمرّ عليها ويبكي لبكائها[1]، لا نستغرب من ذلك؛ لأنَّ وقع الشهادة الحسينية له مردودات

---

(١) وقد كانت تخرج إلى البقيع كلّ يوم ترثيه (العبّاس عليه السلام) وتحمل ولده عبيد الله، فيجتمع لسماع رثائها أهل المدينة، وفيهم مروان بن الحكم، فيبكون لشجي الندبة.

قولها رضي الله عنها:

يا من رأى العبّاس كَرَّ ... على جماهير النَقَدْ

ووراه من أبناءِ حيدر ... كلّ ليث ذي لَبَدْ

أنبئت أنَّ ابني أصيب ... برأسه مقطوع يَدْ

ويلي على شبلي أمال ... برأسه ضرب العمدْ

لو كان سيفك في يد ... يك لما دنا منه أحدْ

وقولها:

لا تدعوني ويك أُمّ البنين ... تذكريني بليوث العرين

كانت بنون لي أُدعى بهم ... واليوم أصبحت ولا من بنين

أربعة مثل نسور الربى ... قد واصلوا الموت بقطع الوتين

تنازع الخرصان أشلائهم ... فكلّهم أمسى صريعاً طعين

يا ليت شعري أكما أخبروا ... بأنَّ عبّاساً قطيع اليمين

(مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ١٨١).

عجيبة، بعضها متعارفة، وبعضها غير متعارفة. لقد رأينا آلافاً من الناس بعد الحسين يريدون الموت لأجل أن يتوب الله عليهم، لأنَّهم تخلَّفوا عن نصرة الحسين عليه السلام، وبالفعل قُتلوا جميعاً في ثورة التوّابين.

هذه تداعيات لدم الحسين عليه السلام الزكي النقي.

رسول ملك الروم في قصر يزيد تفاعل بشكل آخر، أسقف النصارى تفاعل بشكل ثالث. ومثله عبد الله بن عفيف، وهكذا في الشام والكوفة، فمن الطبيعي أن يكون لهذا الدم وهو ثأر الله، أن يكون له من الآثار بمستوى أنَّ الإمام زين العابدين عليه السلام كان لا يأكل طعاماً إلاَّ بكى ولمدّة عشرين عاماً، فإذا كان لدم الحسين عليه السلام مثل هذا الوقع، إذن من الطبيعي أن نسمع مثل هذه الأخبار عن الإمام، وممكن أن نسمع أخباراً أخرى تدخل السياسة في بعضها، لإبعاد الأضواء عنه.

وذلك لا يعني أنَّه قد اعتزل وآثر العزلة عن المسؤولية في مجتمعه، ولهذا من خلال حضوره في المجتمع استطاع أن يكون بعد مدّة الرجل الأوّل باعتراف الجميع، إذن كانت هذه عزلة مقطعية، واستثنائية.

موقف الإمام السجّاد عليه السلام من الثورات:

ما هو موقف الإمام السجّاد عليه السلام من الثورات التي حدثت في زمانه؟ هل كان الإمام يرفض منهج الثورة؟ ففي زمن الإمام السجّاد حصلت مجموعة ثورات، فقد كانت هناك ثورة أهل المدينة، وأعقبتها واقعة (الحَرّة)، وثورة عبد الله بن الزبير في مكّة المكرَّمة، والتي أعقبها هدم بيت الله الحرام بالمنجنيق، وبعدها ثورة التوّابين في الكوفة، وجرت مقتلة عظيمة في أطراف الموصل (قرقيسيا)، وكان بعدها ثورة المختار،

وانتصر فيها المختار، وحكم الكوفة لسبع سنوات، يقول السائل: أين خطّ السجّاد عليه السلام وموقفه من هذه الثورات؟

بعض هذه الثورات صحيحة، وبعضها بأهداف غير مقبولة، مثلاً أهل المدينة ثاروا بعد سنة من مقتل الحسين عليه السلام، حين ذهب من المدينة وفدٌ من الصالحين إلى يزيد، ورجعوا، فسألهم الناس: ما رأيتم؟

قالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، وإنَّا نشهدكم إنَّا خلعناه، فتابعهم الناس، فأعلنوا الثورة، وجهَّز لهم يزيد جيشاً، وجرى القتال خارج المدينة في منطقة تسمّى: (الحَرّة)، وكانت هناك مقتلة عظيمة هُزم فيها الثوّار، ودكَّت المدينة المنوّرة، ودخلها جيش يزيد بن معاوية وأباحها ثلاثة أيّام، وجرت الدماء حتَّى وصلت إلى الروضة النبوية الشريفة[1].

بعدها ثار عبد الله بن الزبير في مكّة المكرَّمة. وفي تحليل الأئمّة عليهم السلام من أهل البيت هي ليست ثورة شرعية، فلم يكن القصد منها إقامة الحقّ، بل كان منافساً للحسين عليه السلام، ولم يكن أحدٌ أسعد منه يوم خرج الإمام الحسين عليه السلام من المدينة، فقد كان فرحاً لخروج الحسين وخلو المدينة له!!

ثمّ ثار التوّابون وهم شيعة الحسين عليه السلام في الكوفة، بقيادة سليمان بن صرد، وهؤلاء بدءوا يخطّطون للثورة منذ السنة الأولى من مقتل الحسين عليه السلام، بعدما هدأت الأمور ووضعت الحرب أوزارها، بدأ الضمير يؤنّبهم، كيف يُقتل الحسين عليه السلام ونحن أحياء؟ وكان على رأسهم سليمان بن صرد الخزاعي ـ ويقال: إنَّه صحابي ـ بدءوا يعملون بالسرّ حتَّى اجتمعوا بستّة عشر ألف، وهؤلاء صبروا ثلاث سنوات إلى أن ثاروا في سنة (٦٥ هـ).

---

(١) راجع: تاريخ الطبري ٤: ٣٨٦.

ومن يقرأ تاريخ تلك الفترة يجد أنَّ الجوّ كان ملغماً بروح الثورة، وأنَّ هناك ناراً تغلي تحت الرماد، لقد كان شعار التوّابين: يا لثارات الحسين عليه السلام، وكان مخطّطهم العسكري أنَّ محور المواجهة لا يصحّ أن يكون في الكوفة، وإنَّما قالوا: نبدأ بأولئك الذين قادوا هذه الحركة ضدّ الحسين عليه السلام، وهم يزيد ومن ورائه من أهل الشام، أمَّا هؤلاء الذين في الكوفة فهم جنود مغلوب على أمرهم.

سنة (٦٥هـ) نادى المنادي: (يا لثارات الحسين عليه السلام)، وتجمَّع مع سليمان بن صرد في النخيلة خمسة آلاف، وهذا أقصى ما وصله من الرجال، وهم يريدون الزحف على الشام وفيها مئات الآلاف، ولم يكن من الطبيعي عسكرياً أن ينتصروا، ولهذا كانت حركتهم حركة مستميتة، كان يقول لهم سليمان بن صرد: (ألا انهضوا، فقد سخط عليكم ربّكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتَّى يرضى الله، وما أظنّه راضياً دون أن تناجزوا من قتل).

وهذا كان هو التخطيط، وتلك كانت هي الأهداف، ودخلوا في معركة مع جيش الشام خارج الموصل، قُتل فيها سليمان بن صرد، وقُتل مجموعة من القادة، والباقون لاذوا بالانسحاب سرّاً إلى الكوفة والمدائن والبصرة[1].

وسوف تسأل: أين كان الإمام السجّاد عليه السلام وما هو موقفه؟ مؤيّداً أو رافضاً؟

مع ثورة المختار:

بعدها جاءت ثورة المختار، وهو شخصية مرموزة في التاريخ، ولنقل شخصية مثيرة للجدل بين قادح ومادح، فقد كان سجيناً أيّام ثورة

(١) راجع: الكامل في التاريخ ٤: ١٥٨.

الحسين عليه السلام، وأطلق سراحه وذهب إلى المدينة المنوّرة، وأصبح فيها يعبئ قوّاته وكان عبد الله بن الزبير في المدينة أيضاً وهوقائد عسكري كبير، وهناك تنافس بينهما، والرواية تقول: إنَّ عبد الله بن الزبير وهو يعبئ للثورة كان يجلس في زاوية من المسجد، والمختار أيضاً كزعيم شعبي وعشائري ما كان يجلس في حلقة عبد الله بن الزبير، بل كان يجلس منزوياً في زاوية أخرى من المسجد. فقيل له: إنَّ عبد الله بن الزبير شخصية أكبر منك، والناس بايعوه، فلماذا أنت منزوٍ عنه؟ قال: أنا قائد وهو قائد، وطالما يخفي عليَّ أمره، فأنا غير مستعدٍ للذهاب إليه.

إذن كان هناك تنافس بين المختار وبين الزبير، والأمور الملفتة للنظر في شخصية المختار أنَّه كان يتنبَّأ ـ كما تقول الروايات ـ ويقول: أنا صاحبكم، وأنا الذي سوف أنتصر، وإنَّ أمير المؤمنين عليه السلام علياً قد بشَّرني بالنصر، ولدينا مثل هذه المضامين في المختار، إمَّا صدقاً، وإمَّا دهاءً سياسياً، فقد كان يستعمل الحرب النفسية، وقد دخل الكوفة وهو ينادي: (جاءكم وصيّ المهدي)، فيقولون: من هو وصيّ المهدي؟ فيقول: أنا مبعوث محمّد بن الحنفية، وإذا لم تصدّقوا اذهبوا واسألوا!

ويومئذٍ كان البعض لديهم الرمز هو محمّد بن الحنفية؛ لأنَّ الإمام السجّاد عليه السلام لا زال شاباً ولم تتَّضح قضيّته بعد. وتأمَّلوا في شخصية المختار الرمزية المثيرة للجدل.

وقبل أن يثور المختار اعتقلته السلطة، بعدما عرفت أنَّه يخطّط لشيء، فكتب رسالة إلى عبد الله بن عمر يشفعه في أمره، وبالفعل وهو بالسجن بدأ يحرّك الثورة ويراسل الشيعة ويقول لهم: إنّي سأخرج عن قريب، وخرج المختار وقاد ثورة في داخل الكوفة، وقيادة الثورة في داخل المدينة ليس أمراً سهلاً؛ لأنَّ

الكوفة يومئذٍ كانت معبأة بعناصر مخابرات الحزب الأموي، وقد كانت الكوفة وطرقها وعشائرها خليط، بين أناس علويين شيعة، وبين أناس حاقدين أمويين، فالمختار دخل في معركة ليس سهلة من سكة إلى سكة، ومن محلّة إلى محلّة ضدّ الحكم القائم في الكوفة وضدّ هذه المجموعات المنتشرة في الكوفة. عندما تقرأ تلاحظ كم هو مستوى الشجاعة والدهاء السياسي لدى المختار، إنَّه حقّاً شخصية مثيرة للجدل.

فقالوا له: أين أنت عن إبراهيم بن مالك الأشتر، هذا بطل وأبوه مالك الأشتر، إذا جاء معك انتصرت به، وهو قائد وشخصية فذّة ولديه عشيرة وجماعة فلا تخسره، فبعث له وفداً يقول له: إنَّ المختار يريد النهوض بثأر الحسين عليه السلام، وأنت من شيعة علي عليه السلام، لماذا لا تلتحق به؟ فتردَّد إبراهيم بن مالك الأشتر، فقام المختار ومعه بضعة عشر، فجاء إلى مضيف إبراهيم بن مالك الأشتر، وجلس على نفس الفراش الذي يجلس عليه إبراهيم، وقال له المختار: لِمَ لا تبايعني كما بايعني الناس؟

قال: ومن تكون أنت؟

قال: أنا وصيّ المهدي من آل محمّد.

قال: من هو المهدي من آل محمّد؟

قال: أنا وصيّ محمّد بن الحنفية، وهو الذي بعثني، وإن شئت أريتك كتابه، ونادى: يا فلان أخرج رسالة محمّد بن الحنفية، فأخرج له رسالة: (من فلان، أعطوا البيعة للمختار وآزروه.. الخ)، والتوقيع ليس باسم محمّد بن الحنفية، بل باسم محمّد المهدي.

فقال إبراهيم: وما يدريني أنَّ هذا التوقيع صحيح؟ فبيني وبين محمّد بن الحنفية مراسلات سابقة لا يوقّع بمثل هذا التوقيع، بل باسم محمّد بن الحنفية،

ولكن المختار داهية وبَطل، قال له: ذاك زمان وهذا زمان، الآن محمّد بن الحنفية أعلن نفسه أنَّه هو المهدي، وأنا بعثني وصيّه.

قال: ومن يصدّقك، هل لديك شهود؟

قال: نعم، هؤلاء الجالسون.

قالوا: نشهد بذلك _ تقول الرواية _ فقام إبراهيم بن مالك الأشتر من مكانه وقال للمختار: اجلس مكاني ومدَّ يدك أبايعك.

الأهداف صحيحة، والفكرة لا تتحمَّل التأجيل، فالكوفة ملغمة بروح الثورة، ولا بدَّ من ثورة، وهم لا يطيقون الحياة، والمختار يصيح: (أنا صاحبكم، وعندي البشارة من علي عَلَيْتَلِا بأنَّني سأنتصر).

وفي معركة من المعارك التي قادها المختار أُسِرَ شخص من الجماعات الأموية.

فقال له: قبل أن تقتلني، إنّي رأيت الملائكة يقاتلون معك.

فقال له المختار: ادخل القصر، فأنا أعرف أنَّك كاذب، وقلت هذه الكلمة كي تخلّص نفسك، ولكن أعفو عنك بشرط أن تقول هذه الكلمة للناس، كي يكون جواً للدعاية، فالحرب خدعة، والمختار كان يستعمل هكذا قضايا.

لقد جمع قوات هائلة، ولكن القوّة الأخرى أيضاً هائلة، في هذه الأثناء كانت قد سقطت مكّة بيد عبد الله بن الزبير الذي أعلن ثورة بمكّة والمدينة وأسقطهما مع البصرة، وجاء وطرد القوّة الأموية، في هذا الوقت ثار المختار، وكان لجماعة عبد الله بن الزبير موقع كبير في الكوفة، ولكن المختار دخل معهم في قتال عجيب، وعلى كلّ حال فقد سيطر على الموقف وقتل أمثال حرملة وعمر بن سعد شرّ قتلة، ثمّ حكم الكوفة سبع سنوات، ثمّ عبَّأ الجيوش، فكانت الخطّة أن يبدأ بالمركز

الأقرب وهو الكوفة، ثمّ يعبّئ القوات، وبالفعل عبَّأ القوات الكبيرة بروح قتالية عالية، وكان لديه أحد القادة الأبطال، وهو إبراهيم بن مالك الأشتر الذي كان على رأس قوّات المختار، بينما كان ابن زياد على رأس القوّة الأموية التي اتَّجهت من الشام لحرب المختار ـ وهو قائد عسكري قاسي القلب ومولع بالدماء، فقد كان لهم ملاكاتهم النفسية والبدنية بقطع النظر عن انحرافهم كان ابن زياد إذا صعد المطهَّم (الفرس) أقدامه تلمس الأرض ـ فالتقى مع إبراهيم بن مالك الأشتر مع قوّة كبيرة تقدَّر بعشرات الآلاف في قرقيسيا، وهناك كانت مقتلة عظيمة.

قال لهم إبراهيم: أنا لا أركب الخيل، بل اتركوني مع المشاة، وأنتم فقط دلّوني على ابن زياد فأنا لا أعرفه، إلى أن التقى بشخص مهيب وضخم على فرس ـ والرواية تقول: معطَّر ـ فمن عطره عُرف أنَّه القائد ابن زياد، رَصَده إبراهيم وضربه برمح وأسقطه وانتهى، كبَّر المكبّر أنَّه قُتل ابن زياد، فانهزم الجيش، وكانت البشائر تأتي للمختار ـ وتقول الرواية ـ: إنَّه أرسل رأس عمر بن سعد إلى الإمام السجّاد عليه السلام في المدينة(١).

والسؤال: هل كان الإمام السجّاد عليه السلام مع هذه الحركات الثورية التغييرية ضمن إستراتيجية خاصّة، أم آمن بخطّ العزلة؟

سنجد أنَّ الإمام السجّاد عليه السلام كانت مهمّته تثبيت موقع الإمامة؛ لأنَّ الأمّة كانت تعيش أزمة إمامة. وكان اللازم هو المحافظة على الإمامة من الاستئصال؛ لأنَّ الخطّ الأموي صمَّم على قتل كلّ من له ولاء لعلي عليه السلام.

الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو المعروف

---

(١) أنظر: أمالي الطوسي: ٢٤٢/ ح (١٦/٤٢٤).

بالحسن المثنّى حبسه الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان هو والحسنيون قد اتَّخذوا النهج العسكري. وخاضوا ثورات كان نتيجتها الفشل، وكان أئمّتنا عليهم السلام يعرفون بأنَّ هؤلاء سيُقتلون وأنَّه لا جدوى من هذا النمط من الحركة، بل يجب التحرّك بصيغة أخرى.

وكان الوالي على المدينة هو صالح بن عبد الله المري، فكتب الوليد بن عبد الملك إلى صالح بن عبد الله: أن أخرج الحسن بن الحسن بن علي من السجن واضربه في مسجد رسول الله خمسمائة سوط، فأخرجه إلى المسجد، واجتمع الناس، وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب، ثمّ نزل يأمر بضربه، فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء علي بن الحسين عليه السلام، فأفرج له الناس حتَّى أتى إلى جنب الحسن، فقال: «يا ابن العم، ما لك! ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرّج الله عنك».

قال: ما هو يا ابن العمّ؟

فقال: «لا إله إلاَّ الله الحليم الكريم، لا إله إلاَّ الله العلي العظيم، سبحان ربّ السماوات وربّ العرش العظيم، الحمد لله ربّ العالمين»، ثمّ انصرف عنه، وأقبل الحسن يكرّره، فلمَّا فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل، قال: أراه في سجنه مظلوماً، أخرجوه وأنا أراجع أمير المؤمنين في أمره، فأطلق بعد أيّام، وأتاه الفرج من عند الله تعالى[1].

إنَّ الإمام السجّاد عليه السلام بهدف المحافظة على الإمامة وتثبيتها لم يصدر منه ولا نصٌّ واحدٌ ضدّ المواقف الثورية التي خاضها التوّابون، أو التي خاضها المختار، أو التي خاضها الحسنيون، بل هناك رواية تقول:

---

(١) المستطرف ٢: ١٥٦.

تشاور محمّد بن الحنفية مع زين العابدين عن ثورة المختار، فكتب له الإمام زين العابدين:

«يا عمّ، لو أنّ واحداً يطلب بثأرنا أهل البيت لكان على الآخرين أن يؤازروه، وليطلب بثأرنا من يطلب»، أي لا تعط موقفاً سلبياً ضدّ المختار بل اتركهُ يفعل ما يريد، والمختار استفاد من هذا الموقف، والمختار يدري أن ليس لديه كتاب من محمّد بن الحنفية، ولا من زين العابدين، لكن المختار قال لهم: إن لم تصدّقوني ابعثوا وفداً ليسأل محمّد بن الحنفية، وبعد شهر وصلوا إلى محمّد بن الحنفية وقالوا له: يا محمّد، هذا المختار يدّعي أنَّه مبعوث من قِبَلك صحيح أم لا؟ فتكلَّم محمّد بن الحنفية بكلام شبيه بكلام الإمام زين العابدين، أنَّه لو كان أحد يطلب بثأرنا كان على الآخرين أن يؤازروه، فرجعوا وهم يقولون: لو كان المختار كاذباً لكذَّبه[1]. الإمام السجّاد عليه السلام لم يصدر منه موقفٌ ضدّ هذه الحركات الثورية، وفي نفس الوقت نستطيع أن نقول: إنَّه لم يصدر منه نصٌّ واحدٌ في تأييد هذه الحركات الثورية، لأنَّ مسؤولية المحافظة على الإمامة لا تسمح له _ تجاه العنف الأموي _ أن يعطي تصريحاً ضدّ أو مع تلك الثورات، إذن نستطيع أن نقول: إنَّ الإمام السجّاد عليه السلام لم يخرج عن الخطّ الثوري الحسيني، ولهذا وجدنا كيف تنامت وتفاعلت هذه الثورات.

---

(١) في الفصول المختارة: ٣٠٠: قد كان سُئل (محمّد بن الحنفية) عن ظهور المختار وادّعائه عليه أنَّه أمره بالخروج والطلب بثأر الحسين عليه السلام، وأنَّه أمره أن يدعو الناس إلى إمامته عن ذلك وصحَّته، فأنكره وقال لهم: والله ما أمرته بذلك، لكنّي لا أبالي أن يأخذ بثأرنا كلّ أحد، وما يسوءني أن يكون المختار هو الذي يطلب بدمائنا، فاعتمد السائلون له على ذلك، وكانوا كثرة قد رحلوا إليه لهذا المعنى بعينه على ما ذكره أهل السير، فرجعوا فنصر أكثرهم المختار على الطلب بدم أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ولم ينصروه على القول بإمامة محمّد بن الحنفية.

أدوات التحرّك عند الإمام الحسين والسجّاد عليهما السلام:

ذكرنا ونؤكّد أنَّ الأنبياء والأئمّة عليهم السلام جميعاً اعتمدوا الأدوات الطبيعية، ولم يعتمدوا الأدوات الإعجازية الغيبية، وهذا المفهوم مبثوث في طول حركة الأنبياء الإصلاحية، وأنَّهم يعتمدون القوى البشرية، وحركة المجتمع وأدواته، وليس على عوامل السماء والغيب. نعم، قد تهبط ملائكة تسدّد الأنبياء، لكن هذه الحركة نُسمّيها حركة إسنادية، أي أنَّ أصل التحرّك هو تحرّك بشري، لكن يأتي الدور الإسنادي للغيب.

مثلاً القرآن الكريم يقول في معركة بدر: ﴿بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٥)، الأدوات البشرية إذا استخدمت بشكل ناجح وجيّد حينئذٍ يأتي الإسناد الغيبي. هناك غيب والأنبياء معهم الغيب. ولكن الأصل هو الحركة البشرية.

مثال ثانٍ: بنو إسرائيل حين قالوا: ﴿يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ﴾ (المائدة: ١١٢)، ﴿قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرّازِقِينَ﴾ (المائدة: ١١٤)، فقال الله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ﴾ (المائدة: ١١٥)، فنزلت مائدة من السماء، فالمائدة التي نزلت من السماء هي عنصر غيب، لكن بالتأكيد أنَّ عنصر الغيب هذا جاء بعد نهاية التحرّك البشري، أي كلّ ما عند عيسى بن مريم بذله، واحتاج أخيراً إلى عامل غيبي.

أدوات الحركة الحسينية:

الإمام الحسين عليه السلام كانت حركته تعتمد على العنصر البشري أيضاً، وهو يطلب الإصلاح في أمّة جدّه، لكن الأدوات بشرية طبيعية، أذكر لكم خمس أدوات اعتمدها الإمام الحسين عليه السلام:

الأداة الأولى: الإقناع في مقابل الإكراه.

الأداة الثانية: الحوار والجدل بالتي هي أحسن.

الأداة الثالثة: الصبر والاستقامة.

الأداة الرابعة: الارتباط بالله تعالى.

الأداة الخامسة: الصدق والشفّافية.

الإمام الحسين عليه السلام استخدم هذه الأدوات في حركته، ونحن بصدد المقارنة بين حركة السجّاد عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام.

الأداة الأولى: هي الإقناع في مقابل الإكراه، إنَّ كلّ الأنبياء والأئمّة عليهم السلام والدعاة إلى الله منهجهم إقناعي، ومنهج الأعداء دائماً هو السيف والسوط، فإذا نظرت إلى التاريخ الإسلامي فستنظر إلى المعاندين والمنحرفين وما هو منهجهم؟

هو القتل، والسيف، والسجن، والإبادة، هذا هو منهج معاوية، وزياد بن أبيه وأمثالهما، ولا ترى منطق الجدل، والإقناع.

بينما نجد أنَّ الحسين عليه السلام تحرَّك لتكوين القناعة، وعبر خطاب صادق وشفّاف وواضح، وقد كانت له مجموعة خطابات.

الخطاب الأوّل في مكّة المكرَّمة، وحين عقد فيها أضخم مؤتمر سياسي، وقد مرَّ ذكره سابقاً[1].

---

(١) أنظر (ص ٩٤) تحت عنوان: مؤتمر مكّة.

كلّ ذلك من أجل تكوين قناعة علمية لدى الناس بمشروعية حركتهم.

الإمام الحسين عليه السلام كان يقول حينما بدأ بالحركة نحو العراق: «من قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردَّ عليَّ هذا أصبر، حتَّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ، وهو خير الحاكمين»[1].

فأنتم أصحاب الخَيار، ولا إكراه عليكم.

ثمّ ننتقل إلى الشفّافية والصدق والوضوح، فقد قال الإمام الحسين عليه السلام لأصحابه: «من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلَّف عنّي لم يدرك الفتح»[2]، وهذا هو ما نُسمّيه اليوم بالشفّافية، أي أنَّ الحسين عليه السلام كان واضحاً جدّاً في حركته وما سوف تؤول إليه.

وهكذا حين نتحدَّث عن الصبر والاستقامة، فالمؤرّخون يذكرون أنَّ الإمام الحسين عليه السلام حينما ودَّع المدينة المنوّرة باتّجاه العراق جاء إلى قبر جدّه صلى الله عليه وآله مودّعاً إيّاه، فغفا على القبر، فرأى رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام، فشكا له ما يلقاه، هنا قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا حُسَينُ، إنَّ لَكَ فِي الْجَنَّةِ دَرَجَةً لَنْ تَنالَها إلاَّ بالشَّهادَة»[3].

فالحسين عليه السلام كان بإمكانه أن يعتزل الساحة، لكن لا بدَّ من استقامة، وصبر.

هذه هي الأدوات والأخلاقيات والمناهج التي استخدمها الإمام الحسين عليه السلام، وحتَّى نصل إلى مسألة الارتباط بالله تعالى، باعتباره أحد أهمّ العناصر في حركة الإصلاح الحسيني. فعلى طول مسير الحركة من

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٣٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٣٠.

(٣) كتاب الفتوح ٥: ١٩؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٨.

بـداياتها وحتَّـى نهاياتهـا كـان ارتباطـه بـالله تعـالى، حتَّـى وهـو صـريع علـى رمضـاء كـربلاء كـان ارتباطـه عليه السلام بـالله لا ينقطـع لحظـة واحـدة، والعطـش قد أخذ منه مأخذاً كبيراً، فقد كان يقول:

«اللّهـمّ متعـالي المكـان، عظيـم الجبـروت، شـديد المحـال، ... شـكور إذا شكرت، ذكور إذا ذكرت، أدعوك محتاجاً، وأرغب إليك فقيراً، وأفزع إليك خائفاً، وأبكي إليك مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً، وأتوكَّل عليك كافياً. اللهـم احكم بيننا وبين قومنا، فإنَّهم غرّونا وخذلونا، وغدروا بنا وقتلونا، ونحن عترة نبيّك، وولد حبيبك محمّد صلى الله عليه وآله الذي اصطفيته بالرسالة، وائتمنته على الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً يا أرحم الراحمين»[١].

هـا هـو فـي منتهـى العطـش، حتَّـى تقـول الروايـة[٢]: حـال العطـش بينـه وبـين السـماء كأنَّـه الـدخان مـن شـدّة العطـش، وكـان لسـانه كالخشـبة اليابسـة، لكـن قلبـه كـان عـامراً بـذكر الله والارتبـاط بـالله، هـذه هـي الأدوات التـي استخدمها الإمام الحسين عليه السلام.

أدوات الخطّ الآخر:

وفـي مقابـل ذلـك لننظـر نموذجـاً مـن الأدوات التـي اسـتخدمها الخـطّ الغاشم السلطوي على طول التاريخ.

لقـد كتـب الإمـام الحسـين عليه السلام كتابـاً إلـى معاويـة حـين خطَّـط معاويـة لاستئصـال الشيعة واحـداً بعـد الآخـر، يقـول الإمـام الحسـين عليه السلام لمعاوية في ذلك الكتاب:

---

(١) مصباح المتهجّد: ٨٢٧/ ح (٢/٨٨٧).

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٢٤٥.

«أوَلستَ صاحب الحضرميين الذين كتب فيهم ابن سمّية إنَّهم كانوا على دين علي عليه السلام؟ فكتبت إليه أن أُقتل كلّ من كان على دين علي! فقتلهم ومثَّل بهم بأمرك، ودين علي ـ والله ـ الذي كان يضرب عليه أباك ويضربك، وبه جلست مجلسك الذي جلست...»[1]، هذه هي ثقافة القمع والإكراه والإرهاب، وليست هي ثقافة الحوار والإقناع وحرّية الرأي.

نلاحظ أنَّ معاوية أصدر مرسوماً ملكياً يأمر فيه بقتل كلّ من كان على دين علي.

زياد بن أبيه هذا كما تؤكّد ذلك الدراسات التاريخية، مثل (بروكلمان) في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلاميّة) يقول: (إنَّ زياد أجلى خمسين ألفاً من شيعة علي من العراق إلى خراسان).

هذه هي سياسة الخطّ الآخر، القمع والتهجير والقتل، ومع ذلك فقد صبر أهل البيت عليهم السلام، واعتمدوا أدوات الإقناع والخطاب الشفّاف والواضح. وبالتوكّل على الله تعالى وحده بقيت الحقيقة واضحة ولم تنطمر.

مدافعون عن الحكم الأموي:

اليوم هناك كتّاب مصريون وغير مصريين يحاولون الدفاع عن معاوية، وحتَّى عن يزيد! لكن الحقيقة لا تخفى على ذي عين، ولسنا هنا بصدد الإيقاع بمعاوية، بل حديثنا أن نأخذ العبر، فهناك أدوات إقناع، وأدوات قمع، ولكنَّنا نريد أن نؤكّد للعالم ونقول: إنَّ الإقناع العلمي هو أسلوبنا، ولكن أعداءنا يستخدمون القتل والإرهاب، أدواتنا هي حرّية الرأي والانتخابات، وأعداؤنا يستخدمون العنف والتفجير والدمار، وهذا على طول التاريخ، ونحن إذ نذكر

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٢١٣.

هذا التاريخ لكي يرى العالم ويرى جيلنا وشبابنا ويعرفوا الحقيقة، نحن لم نخرج ولا مرّة عن أدوات الإقناع والشفافية والصدق.

لقد قلت ذات مرّة: إنَّنا نهدف لما هو أبعد من العراق، نريد أن يستفيد العالم من نور أهل البيت، فعلَّق على كلامي أحدهم في الإنترنت قائلاً: إنَّ وضعكم في العراق لم يستقرّ بعد وأنتم تريدون تصدير نور أهل البيت عليهم السلام، فكيف إذا استقرَّ وضعكم الأمني والسياسي؟

الحمد لله نحن لا نريد تصدير النفاق والكفر، ولا النصرانية واليهودية، ونحن نأمل أن يستقبل العالم الإسلامي دعوتنا لا أن يخافوا منها، ثمّ إنَّ أدواتنا هي الحوار والإقناع، فلماذا التظاهر بالخوف والقلق من صوتنا؟ نحن لا نخاف من الحرّية، ونحن اليوم في العراق سعداء؛ لأنَّ هاهنا حرّية نستطيع الكلام من خلالها، لكن يوم كانت الحرّية مفقودة والألسن مقطوعة لا يمكن للحقيقة أن تقال.

كيف استخلف معاوية ابنه يزيد؟ لقد جمع عنده الناس وعرض عليهم رأيه في استخلاف يزيد، فقام أحدهم وقال: الأمير هذا _ وأشار إلى معاوية _، فإن هلك فهذا _ وأشار إلى يزيد _، ومن أبى فهذا _ وأشار إلى سيفه _. فقال له معاوية: اجلس فأنت سيّد الخطباء(١).

هذا هو أسلوبهم في الحكم والخلافة، وهكذا استخلف معاوية يزيد، ولهذا كان رجال كبار من التابعين مثل الحسن البصري يقول: (أربع خصال كنَّ في معاوية لو لم يكن فيه منهنَّ إلاَّ واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمّة بالسفهاء حتَّى ابتزَّها أمرها بغير مشورة منهم

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣: ٥٠٨.

وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سكّيراً خمّيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادّعاؤه زياداً وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، وقتله حجراً، ويلاً له من حجر وأصحاب حجر ــ مرّتين ــ)[(١)]، ممَّا يعني أنَّ الحقيقة لم تضع.

ورغم ذلك يأتي كاتب معاصر مثل: (محمّد عزَّت دروزة) في كتابه (تاريخ الجنس العربي) يقول: (نحن ننزّه معاوية صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وكاتب وحيه والذي أُثِرت عنه مخافة الله وتقواه وحرصه، ونحن ننزّهه عن أن يرى من ابنه الشذوذ عن هذه الحدود، بل نستبعد هذا عن يزيد!)، أي أنَّ يزيد لم يفعل شذوذاً!

ويأتي مثل أحمد دحلان في كتابه (تاريخ دول الإسلام)، وعبد المنعم ماجد في كتابه (التاريخ السياسي للدول العربية)، وحسين محمّد يوسف في كتابه (سيّد شباب أهل الجنّة الحسين بن علي) يبرّؤون ساحة معاوية عن هذا العمل، وهو الاستخلاف.

الإمام السجّاد عليه السلام وعوامل الغيب:

يقول أبو حمزة الثمالي ــ وهو من أصحاب الإمام زين العابدين عليه السلام ــ:

دخلت عليه البيت ووجدته يلتقط شيئاً، وأدخل يده من وراء الستر، وناوله من كان في البيت.

قلت: جُعلت فداك، هذا الذي أراك تلتقط أيّ شيء هو؟

قال: «هذا فضلة من زغب الملائكة»[(٢)].

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٠٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٧.

وهـذه الروايـة مثلهـا نجدها عـن الإمـام الحسـين عليه السلام فـي طريقـه إلـى كـربلاء فـي منطقـة يقـال لهـا: (الثعلبيـة) لمَّـا التقـاه أحـد أهـل الكوفـة، فقـال لـه عليه السلام: «أمـا والله لـو لقيتـك بالمدينـة لأريتـك أثـر جبرئيـل فـي دارنـا، ونزولـه علـى جـدّي بـالوحي، يـا أخـا أهـل الكوفـة، مسـتقى العلـم مـن عنـدنا، أفَعَلِمـوا وجهلنا، هذا ما لا يكون»[1].

السـؤال: هــل يمكــن رؤيــة الملائكــة؟ أو أثــر أجنحــتهم؟ وبالحقيقــة هـل لـديهم ريـش وأجنحـة كمـا لـدى الطيـور مـثلاً؟ الروايـة فـي موضـع آخـر تقول: «إنَّهم ليزاحموننا على متكأتنا _ أو: تكأتنا[2] _»[3].

الجــواب: إنَّ الروايــات فــي هــذا الشــأن متعــدّدة وتؤكّــد نفــس المضـمون السـابق، وهنـاك نمـوذج يقصّـه القـرآن الكـريم عـن شـخص غيـر مـؤمن وهــو السـامري فـي زمـن موسـى وهـارون، السـامري كـان دجّـالاً مخادعـاً، والقـرآن الكـريم يحـدّثنا عنـه ويقـول: إنَّ هـذا السـامري عمـل لهـم عجـلاً خـدع بـه النـاس، فلمَّـا رجـع موسـى وجـد الأمّـة مفكّكـة، فقـال للسـامري: ﴿فَمـا خَطْبُـكَ يـا سـامِرِيُّ﴾ (طه: ٩٥)، فقـال السـامري: يا موسى إنّـي اطَّلعـت علـى شـيء لـم يطّلع عليـه النـاس، ﴿بَصُـرْتُ بِمـا لَـمْ يَبْصُـرُوا بِـهِ فَقَبَضْـتُ قَبْضَـةً مِنْ أَثَـرِ الرَّسُـولِ فَنَبَـذْتُها وَكَـذلِكَ سَـوَّلَتْ لِـي نَفْسِـي﴾ (طه: ٩٤)، لقـد رأيـت جبرائيـل قـد نـزل علـى فـرس وتـرك أثـراً فـي الأرض، فقبضـت قبضـة مـن تراب أثر فرس جبرائيل، فزيَّنت لي نفسي أن ألقيها في صورة العجل[4].

---

(١) بصائر الدرجات: ٣٢/ باب ٧/ ح ١.

(٢) تكأة: ما يعتمد عليه في الجلوس.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٧.

(٤) أنظر: تفسير مجمع البيان ٧: ٥١.

نريد أن نقول: إذا كان السامري يتمكَّن في ظرف خاصّ من رؤية جبرائيل أو أثر جبرائيل، رغم أنَّ السامري كان منافقاً وعدوّاً لموسى، فلماذا نستبعد للإمام الحسين عليه السلام والإمام السجّاد عليه السلام أن يرى جبرائيل؟!

وهناك قصص كثيرة من القرآن وغير القرآن موجودة بهذا الشأن.

نعود للسؤال: هل يمكن للإنسان أن يرى الملائكة؟

الجواب: نعم، حتَّى إذا لم يكن معصوماً وفي حالات معيَّنة.

الإمام الحسين عليه السلام قال لأصحابه يوم عاشوراء: ارفعوا رؤوسكم. فرفعوا رؤوسهم وإذا الجنّة وحورها وأنهارها ماثلة أمامهم(١).

وفي رواية أخرى صحيحة السند عن الإمام الصادق عليه السلام تقول: «إذا زرتم أبا عبد الله عليه السلام فالزموا الصمت إلاَّ عن خير، فإنَّ ملائكة الليل والنهار من الحفظة تحضر عند الملائكة الذين بالحائر فتصافحهم فلا يجيبونها من شدّة البكاء، فينظرونهم حتَّى تزول الشمس وحتَّى ينوّر الفجر، ثمّ يكلّمونهم ويسألونهم عن أشياء من أمر السماء، فأمَّا ما بين هذين الوقتين فإنَّهم لا ينطقون ولا يفترون عن البكاء والدعاء»(٢)، وهناك غيرها من الروايات مرَّ ذكرها سابقاً.

وعن المفضّل بن عمر، قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «كأنّي والله بالملائكة قد ازدحموا المؤمنين على قبر الحسين عليه السلام».

---

(١) في بعض الكتب عن زينب عليها السلام: ... لمَّا رأى الحسين عليه السلام حسن إقدامهم وثبات أقدامهم قال عليه السلام: «إن كنتم كذلك فارفعوا رؤوسكم وانظروا إلى منازلكم في الجنّة». فكُشف لهم الغطاء، ورأوا منازلهم وحورهم وقصورهم فيها، والحور العين ينادين: العجل العجل، فإنّا مشتاقات إليكم، فقاموا بأجمعهم وسلّوا سيوفهم وقالوا: يا أبا عبد الله، ائذن لنا أن نغير على القوم ونقاتلهم حتَّى يفعل الله بنا وبهم ما يشاء. (أنظر: معالي السبطين ١: ٣٤٠).

(٢) كامل الزيارات: ١٧٧/ ح (١٩/٢٣٩).

قلت: فيتراءون لهم؟

قال: «هيهاتَ، قد لزموا والله المؤمنين، حتَّى أنَّهم ليمسحون وجوههم بأيديهم».

قلت: هذه والله الكرامة.

قال عليه السلام: «يا مفضَّل أزيدك؟».

قلت: نعم سيّدي.

قال عليه السلام: «كأنّي بسرير من نور قد وضع وضربت عليه قبّة من ياقوتة حمراء مكللة بالجواهر، وكأنّي بالحسين جالس على ذاك السرير وحوله تسعون ألف قبّة خضراء، وكأنّي بالمؤمنين يزورونه ويسلّمون عليه، فيقول الله لهم: أوليائي سلوني، فطالما أوذيتم وذللتم واضطهدتم، وهذا يوم لا تسألوني حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلاَّ قضيتها لكم»[1]، وهذه واحدة من تلك الروايات.

وهناك رواية عن أبي حمزة الثمالي وهي رواية صحيحة من حيث السند، يقول الراوي: خرجت في آخر زمن بني مروان إلى زيارة قبر الحسين عليه السلام، مستخفياً من أهل الشام حتَّى انتهيت إلى كربلاء، فاختفيت في ناحية القرية حتَّى إذا ذهب من الليل نصفه أقبلت نحو القبر، فلمَّا دنوت منه أقبل نحوي رجل فقال لي: انصرف مأجوراً فإنَّك لا تصل إليه، فرجعت فزعاً حتَّى إذا كان يطلع الفجر أقبلت نحوه حتَّى إذا دنوت منه خرج إليَّ الرجل.

فقال لي: يا هذا إنَّك لا تصل إليه.

(١) كامل الزيارات: ٢٥٨/ ح (٣/٣٩٠).

فقلت له: عافاك الله ولِمَ لا أصل إليه؟ وقد أقبلت من الكوفة أريد زيارته فلا تحل بيني وبينه وأنا أخاف أن أصبح فيقتلوني أهل الشام إن أدركوني هاهنا.

قال: فقال لي: اصبر قليلاً فإنَّ موسى بن عمران عليه السلام سأل الله أن يأذن له في زيارة قبر الحسين بن علي عليهما السلام فأذن له، فهبط من السماء في سبعين ألف ملك، فهم بحضرته من أوّل الليل ينتظرون طلوع الفجر ثمّ يعرجون إلى السماء.

قال: فقلت له: فمن أنت عافاك الله؟

قال: أنا من الملائكة الذين أمروا بحرس قبر الحسين عليه السلام والاستغفار لزوّاره، فانصرفت وقد كاد أن يطير عقلي لما سمعت منه.

قال: فأقبلت حتَّى إذا طلع الفجر أقبلت نحوه فلم يحل بيني وبينه أحد، فدنوت من القبر وسلَّمت عليه ودعوت الله على قتلته وصلَّيت الصبح وأقبلت مسرعاً مخافة أهل الشام[1].

فكان موسى عليه السلام يطلب إذناً من الله أن ينزل من السماء ليزور الحسين عليه السلام وقبر الحسين عليه السلام مزدحم بالملائكة، فليس البشر وحدهم، بل سبعون ألف ملك.

نحن نعتقد أنَّ الإنسان لديه تفاعل مع الملائكة رغم أنَّه لا يراهم، لكن الأئمّة عليهم السلام يرونهم، الإمام السجّاد عليه السلام عندما يقول: «إنَّهم يزاحموننا على متكأتنا»، فهذا على مستوى النظرية مقبول في ثقافتنا الإسلاميّة.

الخطاب الإقناعي لدى الإمام السجّاد عليه السلام:

الإمام السجّاد عليه السلام في مقارنة مع الإمام الحسين عليه السلام كان يعتمد الخطاب الإقناعي.

(١) كامل الزيارات: ٢٢١ و٢٢٢/ باب ٣٨/ ح (٢/٣٢٤).

هناك رواية تقول: إنَّ الإمام السجّاد عليه السلام التقى به مجموعة من الناس وقالوا له: (نحن كلّنا يا بن رسول الله سامعون مطيعون حافظون لذمامك، غير زاهدين فيك، ولا راغبين عنك، فمرنا بأمرك رحمك الله، فإنّا حرب لحربك، سلم لسلمك). ويبدو أنَّهم يريدون استنهاضه على الثورة.

فقال لهم الإمام السجّاد عليه السلام: «مسألتي أن لا تكونوا لنا أو علينا»[١]. بمعنى أنَّ المرحلة هي مرحلة صمت وتجنّب الاصطدام، وأن تعيشوا كما يعيش سائر الناس.

الإمام عليه السلام في غضون أربع وثلاثين سنة عاشها بعد الحسين عليه السلام كما يروي المؤرّخون: كان له مجلس ليلي في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله يلتقي فيه مع الآخرين وبشكل مفتوح، وجرت هناك محاججات جميلة تكشف لنا رؤية أهل البيت عليهم السلام.

قال له عروة بن الزبير وعبد الله بن الحسن: لنخرج من المدينة فهو أفضل، وبالفعل خرج عبد الله بن الحسن وعروة بن الزبير، وعاشا خارج المدينة احتجاجاً أو يأساً من الواقع الاجتماعي فيها[٢].

---

(١) الاحتجاج ٢: ٣٢.

(٢) عن عبد الله بن حسن بن حسن أنَّه قال: كان علي بن حسين بن علي بن أبي طالب يجلس كلّ ليلة هو وعروة بن الزبير في مؤخّر مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله بعد العشاء الآخرة، فكنت أجلس معهما، فتحدَّثا ليلة فذكرا جور من جار من بني أميّة والمقام معهم وهم لا يستطيعون تغيير ذلك، ثمّ ذكرا ما يخافان من عقوبة الله لهم، فقال عروة لعلي: يا علي، إنَّ من اعتزل أهل الجور والله يعلم منه سخطه لأعمالهم فإن كان منهم على ميل ثمّ أصابتهم عقوبة الله رجي له أن يسلم ممَّا أصابهم، قال: فخرج عروة فسكن العقيق، قال عبد الله بن الحسن: وخرجت أنا فنزلت سويقة (موضع قرب المدينة يسكنه آل علي بن أبي طالب). (تاريخ دمشق ٤٠: ٢٧٨).

لكن الإمام السجّاد عليه السلام مكث في المدينة كي لا ينقطع عن الناس، فكان له مجلس ليلي في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله. فلا بدَّ من الانفتاح على الناس وتكوين قناعة لديهم، وهذه هي خطابات الإمام السجّاد عليه السلام في الإقناع، وهذا هو الصبر والانقطاع إلى الله تعالى.

حركة ابن الزبير:

والإمام السجّاد عليه السلام نار على علم، وفوق أن نتحدَّث عن ارتباطه بالله تعالى، حتَّى في قصَّة ابن الزبير الذي أعلن عن ثورة في مكّة المكرَّمة، وعبد الله هو ابن الزبير الذي خرج على أمير المؤمنين عليه السلام.

الزبير كان شجاعاً، وكان صديقاً لأمير المؤمنين، وأحد الأشخاص الذي أعطى رأيه في الانتخابات للإمام علي عليه السلام، بينما طلحة أعطى رأيه لعثمان بن عفّان، الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام تقول: «ما زال الزبير منّا حتَّى نشأ بنوه، فصرفوه عنّا»[1].

لقد كان عبد الله بن الزبير سبباً في خروج الزبير على علي بن أبي طالب، ثمّ أصبح عبد الله بن الزبير يدّعي أنَّه أحقّ بالخلافة من يزيد، لكن هذه الحركة غير صادقة، فهي حركة طلب مُلك، فهو لم ينتصر للحسين عليه السلام. ولكن بعد الحسين عليه السلام أصبح يريد قيادة الثورة من مكّة المكرَّمة.

تقول الرواية: إنَّ الإمام زين العابدين كان قلقاً من فتنة ابن الزبير، والإمام لا يريد اعتماد الملائكة وعناصر الغيب، فالناس يجب أن يكونوا هم عناصر التغيير، وهذا الزبير يمكن أن يخلق فتنة ويقدّم خطاباً إعلامياً

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٨.

يخدع به الناس، تقول الرواية: إنَّ الإمام زين العابدين عليه السلام خرج إلى حائط _ بستان _ وهو مهموم وإذا برجل عليه ثياب بيضاء.

قال له: يا علي بن الحسين، ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ أعلى الدنيا حزنك، فرزق الله حاضر للبرّ والفاجر؟

قال: «ما على هذا أحزن، وإنَّه لكما تقول».

قال: فعلى الآخرة، فهو وعد صادق، يحكم فيه ملك قاهر؟

فقال: «ولا على هذا أحزن، وإنَّه لكما تقول، وإنَّما أتخوَّف من فتنة ابن الزبير»[1].

الإمام عليه السلام كان يهمّه تكوين القناعة الصحيحة لدى الناس، ويخشى أن يخدعهم ابن الزبير.

كان الإمام زين العابدين عليه السلام عجيباً في امتداده في نفوس الناس، في خُلُقه العظيم وتواصله الاجتماعي، كنت أقرأ رواية عن الإمام الصادق عليه السلام ملفتة للنظر تقول: «كان علي بن الحسين عليهما السلام إذا كان اليوم الذي يصوم فيه، أمر بشاة فتذبح وتقطّع أعضاءً وتطبخ، فإذا كان عند المساء أكبّ على القدور حتَّى يجد ريح المرق وهو صائم، ثمّ يقول: هاتوا القصاع، أغرفوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان، ثمّ يؤتى بخبز وتمر، فيكون ذلك عشاءه صلّى الله عليه وعلى آبائه»[2].

هذا نموذج للتواصل العجيب مع المجتمع.

رأى الزهري الإمام السجّاد عليه السلام في ليلة باردة مطيرة، وعلى ظهر الإمام السجّاد عليه السلام دقيق، وهو يمشي.

---

(١) الإرشاد ٢: ١٤٨.

(٢) الكافي ٤: ٦٨/ باب من فطر صائماً/ ح ٣.

فقال: يا بن رسول الله، ما هذا؟

قال: «أريد سفراً أعد له زاداً أحمله إلى موضع حريز».

فقال الزهري: فهذا غلامي يحمله عنك، فأبى.

قال: أنا أحمله عنك، فإنّي أرفعك عن حمله.

فقال عليه السلام: «لكنّي لا أرفع نفسي عمَّا ينجيني في سفري، ويحسن ورودي على ما أرد عليه، أسألك بحقّ الله لما مضيت لحاجتك وتركتني».

فانصرف عنه، فلمَّا كان بعد أيّام قال له: يا ابن رسول الله، لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً!

قال: بلى يا زهري! ليس ما ظننت، ولكنَّه الموت وله أستعدّ، إنَّما الاستعداد للموت تجنّب الحرام، وبذل الندى في الخير»[1].

نموذج من حركة الحسين عليه السلام:

قلنا بأنَّ أدوات الإمام الحسين عليه السلام أدوات بشرية، وسمعتم أنَّ الحسين يوم السابع من محرَّم الحرام خطا عدّة خطوات خلف الخيمة، ثمّ حفر هناك، فنبعت له عين من الماء العذب، فشرب الحسين عليه السلام وشرب من معه بأجمعهم، وملأوا أسقيتهم، ثمّ غارت العين، فلم يُرَ لها أثر.

وبلغ ذلك ابن زياد، فأرسل إلى عمر بن سعد: بلغني أنَّ الحسين يحفر الآبار، ويصيب الماء، فيشرب هو وأصحابه، فانظر إذا ورد عليك كتابي فامنعهم من حفر الآبار ما استطعت، وضيّق عليهم، ولا تدعهم يذوقوا الماء...[2].

---

(١) علل الشرائع ١: ٢٣١/ باب ١٦٥/ ح ٥.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٧.

ولهذا فقد اشتدَّ العطش بالإمام الحسين وأصحابه وعياله؛ لأنَّه قد اعتمد نفس الأدوات، الماء والبئر، وهكذا هي أدوات طبيعية، وليست أدوات إعجازية.

الإمام السجّاد عليه السلام أيضاً تحرَّك بنفس الأدوات البشرية على طول تاريخه، وكان دور الغيب هو دور الإسناد، وهذا الإسناد لاحظناه يوم العاشر من محرَّم، فإنَّ الإمام السجّاد قد مرض حتَّى كان لا يقوى على القيام، وهذا عامل غيبي كي لا ينقطع نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فالإمام لو لم يكن مريضاً لقاتل، وإذا قاتل كان يُقتل، وإن قتل انتهت الإمامة، فتركه القوم لمرضه، وهكذا عليه السلام في مجلس ابن زياد، حين قال له ابن زياد: من أنت؟

قال عليه السلام: «علي بن الحسين».

قال: أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟

فقال علي بن الحسين: «قد كان لي أخ يُسمّى عليّاً قتله الناس».

قال ابن زياد: بل قتله الله.

قال عليه السلام: «﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]».

فغضب ابن زياد وقال: وبك جرأة على جوابي، وفيك بقيّة للردّ عليَّ، اذهبوا به فاضربوا عنقه!! ـ وهذا هو أسلوب الطرف المقابل ـ هناك وقعت العقيلة زينب عليه وقالت: لا والله لا يُقتل حتَّى أُقتل دونه، فنجا الإمام زين العابدين عليه السلام[1].

الخطاب السياسي:

خطب إمامنا الحسين عليه السلام قائلاً:

«أيّها الناس، انسبوني فانظروا من أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم

---

(١) أنظر: الإرشاد ٢: ١١٦.

وعاتبوها، فانظروا هل يحلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟، ألست ابن بنت نبيّكم، وابن وصيّه، وابن عمّه، وأوّل المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربّه؟، أوَليس حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي؟ أوَليس جعفر الشهيد الطيّار ذو الجناحين عمّي؟ أوَلم يبلغكم قول مستفيض فيكم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنّة؟ ... أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟»[١].

هذا هو خطاب الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء:

ونلاحظ مثل هذا الخطاب كان لإمامنا السجّاد عليه السلام وهو في الشام في قصر يزيد بن معاوية فإنَّه قال:

«أيّها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي، أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن من حمل الركن بأطراف الردا، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجَّ ولبّى، أنا ابن من حُمل على البراق في الهوا، أنا ابن من اُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أنا ابن من بلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلّى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمّد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتَّى قالوا : لا إله إلاَّ الله»[٢].

وهذا اللون من التشابه بين الخطابين، وهذه اللغة لا تتكرَّر إلاَّ في الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ١١٨.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ١٣٨.

فمثل هذا الخطاب نجده عند الإمام الحسن عليه السلام، فبعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام خطب الناس وقال:

«من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمّد النبيّ صلى الله عليه وآله، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله، أنا ابن السراج المنير، وأنا ابن الذي أرسل رحمة للعالمين، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيراً، وأنا من أهل البيت الذين كان جبرائيل ينزل عليهم، ومنهم كان يعرج، وأنا من أهل البيت الذين افترض الله مودَّتهم وولايتهم»(١).

هذا خطاب واحد، وهذه اللغة المتكرّرة عند الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام والسجّاد عليه السلام، وفي كلّ مواقع الاحتكاك نرى أهل البيت عليهم السلام يلجئون لهذا الخطاب.

والسؤال: ما معنى هذا الخطاب؟ هل أنَّ الارتباط النَسَبي هو حجّة شرعية؟ صحيح أنَّك ابن الحسين، وأنَّك يا زين العابدين ابن الإمام علي عليه السلام، وأنَّك ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، لكن ما هي دلالة ذلك؟ ونفس السؤال للحسين عليه السلام، أنَّك ابن فاطمة الزهراء عليها السلام، وابن علي عليه السلام، وابن رسول الله صلى الله عليه وآله، صحيح، لكن هذا في الحوار هل يمثّل حجّة علمية؟

وذكرنا أنَّ أهل البيت عليهم السلام كانوا يعتمدون لغة الإقناع للآخر، وليس الإكراه، إذن هذا التأكيد من أهل البيت عليهم السلام على النسب والارتباط برسول الله صلى الله عليه وآله وبالوحي هل يفرض على الناس طاعتهم والانقياد لهم؟ حيث يمكن لقائل أن يقول: أنت ابن رسول الله، لكن

(١) أمالي الطوسي: ٢٦٩/ ح (٣٩/٥٠١).

لستَ بإمام، فرسول الله نبيّ، والإمام علي عليه السلام وصيّ، ولكن هذا ليس كافياً في الدلالة على شرعية موقفك. والدليل على ذلك أنَّ محمّد بن الحنفية هو أيضاً ابن الإمام علي عليه السلام، فلو أنَّ محمّد بن الحنفية يوماً ما صعد منبراً وقال: أنا ابن علي المرتضى، لقال الناس: هب أنَّك ابن علي المرتضى، لكنَّك لم تصبح إماماً.

موقع الارتباط النَسَبي في الإسلام:

السؤال هو: ما هو موقع الارتباط النسبي في الإسلام؟ ولماذا استخدمه الإمام الحسن، والإمام الحسين، والإمام السجّاد عليهم السلام؟ فهل هي قضيّة وراثية، أي أنَّك تريد أن تأخذ الإمامة لأنَّ الحسن عليه السلام أخوك، والإمام علي عليه السلام أبوك، فإذا كانت القضيّة وراثية فإنَّ محمّد بن الحنفية ابن الإمام علي عليه السلام، وزيد بن علي عليه السلام هو أيضاً ابن الإمام السجّاد عليه السلام، فلماذا لم يصبح إماماً، بينما كان الإمام الباقر عليه السلام هو الإمام الشرعي؟

يكون الجواب على هذا السؤال بأمور:

الجواب الأوّل: أنَّ هذا الخطاب منهم عليهم السلام كان بصدد الدفاع عن النفس، وتحريم دمهم على الناس، أي الإمام الحسين عليه السلام حينما يقول: أنا ابن علي المرتضى، وابن فاطمة الزهراء، والسجّاد عليه السلام يقول مثل ذلك، فإنَّه لا يريد أن يقول: أنا ابن إمامكم فأطيعوني، بل يريد أن يقول: كفّوا سيوفكم عنّي، فأيّ مبرّر لقتلي؟ هل أنا من الروم، أم من الكفرة، أم من المشركين، أم من الخوارج؟، أنا أعطيكم نسبي كي تعرفوني أنّي ابن من؟، فهذا الخطاب كان في مقام الدفاع، وليس في مقام إثبات الإمامة؛ لأنَّ الأعداء كانوا يريدون قتلهم، والإمام يقول لهم: «انسبوني من أنا؟ ثمّ

ارجعوا إلى أنفسكم فانظروا هل يحلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي»، فهو لا يريد القول: أنا إمام عليكم، لكنَّه يقول: هل يحلُّ لكم قتلي؟ إذن القضيّة كانت قضيّة دفاع عن النفس، وتحريم الدم الزكي، وهذا هو نفسه ما أراده زين العابدين عليه السلام في مجلس يزيد بن معاوية، حيث يتصوَّر الناس أنَّ هؤلاء أسرى من بلاد الكفر!! وقد استباح يزيد دمهم ونساءهم.

الجواب الثاني: أنَّ الأئمّة يريدون أن يذكّروا الناس بحقيقة ثابتة، وهي موضع قناعة فكرية عامّة، أنَّ النبوّة وحقّ القربى إنَّما هو في أهل البيت عليهم السلام، وهم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيراً، وهذه القضيّة لم تكن يومئذٍ موضع جدل من أحد، وحتَّى الآن لا أحد في العالم يناقش فيها وينكرها. نعم، ربَّما يناقشون في إمامة الحسن، والحسين، والسجّاد عليهم السلام، وحتَّى في علي عليه السلام، لكنَّهم لا يناقشون في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣)، الحسين عليه السلام يقول: أنا أنتسب لأهل بيت النبوّة، وإذا كنت من أهل بيت النبوّة، إذن أنا المطهَّر، والزكي، ولست خارجياً منحرفاً، أو من بلاد الروم والديلم، بل نحن من أهل البيت عليهم السلام الذين يتَّفق جميع المسلمين على أنَّ لهم موقعاً كريماً جليلاً مقدّراً.

ولهذا تجدون أنَّ الإمام السجّاد عليه السلام حينما خطب في مجلس يزيد بن معاوية وقال: «أنا ابن من حمل الركن بأطراف الردا»، فظهرت في مجلس يزيد مشاهد ثورة جديدة، قام رسول ملك الروم، وقام آخرون فلعنوا يزيد، ممَّا يدلّل على أنَّ الناس كانوا لا يعرفون سوى أنَّ هؤلاء خرجوا على يزيد بن معاوية، فهم مجموعة أناس متمرّدين،

والمتمرّد شأنه أن يُقتل، أمَّا أنَّهم أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله فهذا ما لا يعلمه الناس، ولهذا قام رسول ملك الروم وغيره محتجّاً على يزيد بن معاوية حين سأل: لمن الرأس؟

قال يزيد: ما لك ولهذا الرأس؟

قال: إنّي إذا رجعت إلى ملكنا يسألني عن كلّ شيء شاهدته فأحببت أن أخبره بقضيّة هذا الرأس وصاحبه ليشاركك في الفرح والسرور.

قال: هذا رأس الحسين بن علي.

قال: ومن اُمّه؟

قال: فاطمة بنت رسول الله.

فقال النصراني: أفٍّ لك ولدينك، لي دين أحسن من دينكم، إنَّ أبي من حفدة داود عليه السلام، وبيني وبينه آباء كثيرة، والنصارى يعظّمون قدري ويأخذون من تراب قدمي تبرّكاً، وقد قتلتم ابن بنت نبيّكم وليس بينه وبينه إلاَّ اُمّ واحدة! فقبَّح الله دينكم.

ثمّ قال ليزيد: ... لا بارك الله فيكم، ولا في دينكم.

فقال يزيد: اقتلوه لئلاَّ يفضحني في بلاده.

فلمَّا أحسّ بالقتل قال: تريد أن تقتلني؟

قال: نعم.

قال: اعلم أنّي رأيت البارحة نبيّكم في المنام يقول: يا نصراني، أنت من أهل الجنّة، فتعجَّبت من كلامه، وأنا أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمّداً رسوله، ثمّ نهض إلى الرأس فضمّه إلى صدره وقبّله وبكى[1].

---

(١) مثير الأحزان: ٨٢.

إذن هذا الخطاب حينما يذكره الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام، والسجّاد عليه السلام وأئمّة آخرون في مواقع التحدّي ومواقع غياب الحقيقة، كانوا يريدون أن يقولوا للناس ما هي الحقيقة ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣)، ولهذا تجدون كيف حدث التحوّل في الشام، فبعد أيّام أصبح هناك مأتم للحسين عليه السلام يُعقد لسبعة أيّام في داخل القصر الأموي وهو متوشح بالسواد!!

حدث هذا التحوّل؛ لأنَّ أئمّتنا عليهم السلام استخدموا خطاب التعريف بالهوية، مقابل التعتيم على الهوية.

الجواب الثالث: أنَّ الارتباط النسبي برسول الله صلى الله عليه وآله وبمهبط الوحي صحيح أنَّه ليس دليلاً على الإمامة، ولكنَّه يكوّن مناخاً قريباً من الشرعية والقدسيّة؛ لأنَّ القرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٣)، إذن حينما يكون واحداً من آل إبراهيم فإنَّه وبشكل طبيعي يصبح قريباً من أجواء القدسية، ويكون بذلك مناخاً مناسباً لقبول خطابه، ولهذا كان الأئمّة عليهم السلام يؤكّدون أنَّهم من هذه الشجرة.

الجواب الرابع: أنَّ الأئمّة عليهم السلام لم يكتفوا ببيان الارتباط النَسَبي، وإنَّما يرتفع الإمام فيقول: «أنا ابن سدرة المنتهى، أنا ابن شجرة طوبى»، أي أنَّ القضيّة ليست نَسَبية فقط، بل القضيّة قضيّة ذات بُعد معنوي، «أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن مكّة ومِنى»، يريد أن يقول: نحن أبناء الوحي، وأبناء القرآن، وهذه مسألة أخرى غير مسألة الارتباط النَسَبي برسول الله صلى الله عليه وآله، فهاهنا ارتباط عقيدي ومعنوي، نحن مترابطون، ونمثّل مشروعاً واحداً، إذا سألت عن مكّة ومنى فنحن أبناؤها، وإذا سألت عن زمزم والصفا فنحن أبناؤها، وإذا سألت عن يس والذاريات فنحن أبناؤها، أو سألت عن أيّ مواقع الوحي فنحن ذلك، وهذا أمر

جدير أن يستشهد به أهل البيت عليهم السلام في منطق الحوار، ولقد ذكرنا أنَّ أهل البيت عليهم السلام اعتمدوا منطق الحوار حتَّى يصلوا إلى قلب السامع.

مواقفهم تحليليّة أم مفروضة؟

هناك رأي يقول: لا يمكن أن نختار المنهج الحسيني؛ لأنَّ قضيّته تعبّدية، وهي مخصوصة بالحسين عليه السلام!

فنقول: نعتقد أنَّ القضيّة في الواقع ليست كذلك، نحن نعتقد أنَّ الحسين عليه السلام كان هو صاحب الموقف، وهو صاحب التخطيط، رغم أنَّه يعلم بأنَّ القرار إلهي، وقد أخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله[1]، وأُمّ سَلَمة، وابن عبّاس، فالإمام يعلم بمقتله ويقول لأُمّ سَلَمة: «إن أردتِ أريك حفرتي ومضجعي»، وتقول الرواية: إنَّ الإمام أشار إلى الأرض فانخفضت حتَّى أراها مضجعه ومدفنه وموضع عسكره[2].

وبهذا نستطيع أن نجيب على سؤال: هل كان الإمام الحسين يعلم بمقتله وشهادته أم لا؟

---

(١) عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «كان النبيّ صلى الله عليه وآله في بيت أُمّ سَلَمة رضي الله عنها، فقال لها: لا يدخل عليَّ أحد. فجاء الحسين عليه السلام وهو طفل، فما ملكت معه شيئاً حتَّى دخل على النبيّ صلى الله عليه وآله، فدخلت أُمّ سَلَمة على أثره، فإذا الحسين على صدره، وإذا النبيّ صلى الله عليه وآله يبكي، وإذا في يده شيء يقلّبه، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: يا أُمّ سَلَمة، إنَّ هذا جبرئيل يخبرني أنَّ هذا مقتول، وهذه التربة التي يقتل عليها، فضعيها عندك، فإذا صارت دماً فقد قتل حبيبي، فقالت أُمّ سَلَمة: يا رسول الله، سل الله أن يدفع ذلك عنه. قال: قد فعلت، فأوحى الله عزّ وجلّ إليَّ: أنَّ له درجة لا ينالها أحد من المخلوقين، وأنَّ له شيعة يشفعون فيشفعون، وأنَّ المهدي من ولده، فطوبى لمن كان من أولياء الحسين، وشيعته هم والله الفائزون يوم القيامة» أمالي الصدوق: ٢٠٣/ ح (٣/٢١٩).

(٢) راجع: بحار الأنوار ٤٤: ٣٣١.

بعض الكتّاب مثل صاحب كتاب (الشهيد الخالد) يعطي رأياً نادراً يقول فيه: إنَّ الإمام الحسين عليه السلام نهض بهدف أن ينتصر ويحكم ولم يكن له علم بمقتله، ونحن لسنا مع هذا الرأي، ولا فقهاء الشيعة يؤيّدونه، بل أنَّ الإمام كان يعلم بمقتله، فكلّ المؤشرات تدلُّ على ذلك، وأيضاً كلّ المعاصرين للحسين عليه السلام أخبروه بأنَّه سيقتل، أُمّ سَلَمة، محمّد بن الحنفية، عبد الله بن الزبير، عبد الله بن عمر وغيرهم، كلّ المؤشرات تدلّل على أنَّ الحسين سيُقتل، ومن الطبيعي أنَّ الإمام الحسين عليه السلام يعرفها كما يعرفها الآخرون، فضلاً عن علمه بذلك من خلال إخبار النبيّ صلى الله عليه وآله بذلك، حين رآه الصحابة باكياً، فسألوه، فأخبرهم بأنَّ ولده الحسين سيقتل(١). الكلّ يعلم هذه الحقيقة، فكيف لا يعرفها الحسين عليه السلام.

اعتقادنا أنَّ الحسين عليه السلام كان يعلم بأنَّه يستشهد، وهناك روايات كثيرة وأكيدة تتحدَّث عن أنَّ الحسين كان يخبر الآخرين بمقتله، فقد كان يقول: «من

(١) في الرواية أنَّه لمَّا أتت على الحسين من مولده سنتان كاملتان خرج النبيّ صلى الله عليه وآله في سفر له، فلمَّا كان في بعض الطريق وقف فاسترجع ودمعت عيناه، فسُئل عن ذلك؟، فقال: «هذا جبريل يخبرني عن أرض بشاطئ الفرات يقال لها: كربلا، يقتل بها ولدي الحسين بن فاطمة»، فقيل: من يقتله يا رسول الله؟ فقال: «رجل يقال له: يزيد، لا بارك الله له في نفسه! وكأنّي أنظر إلى مصرعه ومدفنه بها، وقد أهدي برأسه، ووالله ما ينظر أحد إلى رأس ولدي الحسين فيفرع إلاَّ خالف الله بين قلبه ولسانه». قال: ثمّ رجع النبيّ صلى الله عليه وآله من سفره ذلك مغموماً، ثمّ صعد المنبر فخطب ووعظ، والحسين بن علي بين يديه مع الحسن، قال: فلمَّا فرغ من خطبته وضع يده اليمنى على رأس الحسن واليسرى على رأس الحسين ثمّ رفع رأسه إلى السماء فقال: «اللهم! إنّي محمّد عبدك ونبيّك وهذان أطايب عترتي وخيار ذرّيتي وأرومتي ومن أخلّفهم في أمّتي، اللهم! وقد أخبرني جبريل بأنَّ ولدي هذا مقتول مخذول، اللهم! فبارك له في قتله واجعله من سادات الشهداء، إنَّك على كلّ شيء قدير، اللهم! ولا تبارك في قاتله وخاذله». قال: وضجَّ الناس في المسجد بالبكاء... (كتاب الفتوح ٤: ٣٢٦).

لحق بي منكم استشهد، ومن تخلَّف عنّي لم يدرك الفتح»[١]، وكان يقول: «شاء الله أن يراني مقتولاً»[٢]، و«شاء الله أن يراهنَّ سبايا»[٣]، وعشرات النصوص تدلّل على أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان عارفاً بمقتله.

الإمام السجّاد عليه السلام يستخدم العنصر الإعجازي:

ولنعد إلى منهج الإمام السجّاد عليه السلام، وكما هو منهج الإمام الحسين عليه السلام، في عدم اعتماد الأدوات الإعجازية، فقد كان لديهم ارتباط بالغيب، وبالقدرة الإعجازية، لكنَّهم لا يستخدمونها إلاَّ نادراً وفي ظرف خاصّ.

لقد أمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أن يقتادوا الإمام السجّاد عليه السلام من المدينة المنوّرة بالأغلال والحديد إلى الشام، يقول الزهري _ الذي كان عاملاً لبني أميّة _:

شهدت علي بن الحسين يوم حمله عبد الملك بن مروان من المدينة إلى الشام، فأثقله حديداً، ووكّل به حفّاظاً في عدّة وجمع، فاستأذنتهم في التسليم عليه والتوديع له فأذنوا، فدخلت عليه والأقياد في رجليه والغل في يديه، فبكيت وقلت: وددت أنّي مكانك وأنت سالم.

فقال: «يا زهري، أوَتظنّ هذا بما ترى عليَّ وفي عنقي يكربني؟ أما لو شئت ما كان، فإنَّه وإن بلغ بك ومن أمثالك ليذكّرني عذاب الله»، ثمّ أخرج يديه من الغل ورجليه من القيد، ثمّ قال: «يا زهري لا جزت معهم على ذا منزلتين من المدينة».

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٣٠.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٣٣١.

(٣) بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٤.

فما لبثنا إلاَّ أربع ليالٍ حتَّى قدم الموكّلون به يطلبونه بالمدينة فما وجدوه، فكنت فيمن سألوهم عنه، فقال لي بعضهم: إنّا نراه متبوعاً[(١)]! إنَّه لنازل ونحن حوله لا ننام نرصده، إذ أصبحنا فما وجدنا بين محمله إلاَّ حديده.

فقدمت بعد ذلك على عبد الملك، فسألني عن علي بن الحسين؟ فأخبرته، فقال: إنَّه قد جاءني في يوم فقده الأعوان، فدخل عليٌّ فقال: «ما أنا وأنت؟»، فقلت: أقم عندي، فقال: «لا أحبّ»، ثمّ خرج، فوَالله لقد امتلأ ثوبي منه خيفة.

قال الزهري: فقلت: ليس علي بن الحسين حيث تظنّ، إنَّه مشغول بنفسه، فقال: حبذا شغل مثله، فنعم ما شغل به[(٢)].

وفي رواية عن الرضا عليه السلام: أنَّ الإمام السجّاد عليه السلام خرج من الأسر وجاء إلى كربلاء وتولّى دفن الحسين عليه السلام[(٣)].

هذا هو استخدام للعنصر الإعجازي في حالات خاصّة، وفيما عدا ذلك هو اعتماد العنصر البشري، ولدينا مثل هذه الاستخدامات للعنصر الإعجازي في مواقع متعدّدة.

---

(١) بمعنى يتبعه الجنّ فيخدموه.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٦.

(٣) عن إسماعيل بن سهل، قال: عن بعض أصحابنا، قال: كنت عند الرضا عليه السلام، فدخل عليه علي بن أبي حمزة وابن السراج وابن المكاري، فقال علي بعد كلام جرى بينهم وبينه عليه السلام في إمامته: إنَّا روينا عن آبائك عليهم السلام أنَّ الإمام لا يلي أمره إلاَّ إمام مثله، فقال له أبو الحسن عليه السلام: «فأخبرني عن الحسين بن علي كان إماماً أو غير إمام؟»، قال: كان إماماً، قال: «فمن ولي أمره؟»، قال: علي بن الحسين، قال: «وأين كان علي بن الحسين؟ كان محبوساً في يد عبيد الله بن زياد»، قال: خرج وهم كانوا لا يعلمون حتَّى ولي أمر أبيه ثمّ انصرف، فقال له أبو الحسن: «إنَّ هذا الذي أمكن علي بن الحسين أن يأتي كربلا فيلي أمر أبيه، فهو يمكّن صاحب هذا الأمر أن يأتي بغداد ويلي أمر أبيه». (بحار الأنوار ٤٥: ١٦٩).

فأهل البيت لديهم علاقة مع عالم الغيب، وعالم السماء، ومع القدرة الإعجازية، لكنهم مكلّفون، أن يستخدموا القدرات الطبيعية، حتَّى أنَّ أهل البيت عليهم السلام يبدون وكأنَّهم لا يملكون أيّة قدرة عظمى، بل هم ناس في غاية البساطة والممارسة الاعتيادية الطبيعية.

الإمام السجّاد عليه السلام _ كما تقول الرواية _ قال: «لئن أدخل السوق ومعي دراهم أبتاع لعيالي لحماً وقد قرموا[١] أحبُّ إليَّ من أن أعتق نسمة»[٢]، وهذا اللون البشري الطبيعي في أئمّتنا عليهم السلام، فها هو الإمام السجّاد عليه السلام يتمنّى أن يخرج ويشتري لحماً لأهله. يضع جراباً على ظهره ويوزّع الصدقات على الفقراء.

الإمام السجّاد عليه السلام يؤسّس للحركة العلمية:

ومن ناحية أخرى نلاحظ: أنَّ الإمام قد بدأ في التأسيس للحركة العلمية، ويعود بنا هذا الحديث إلى دور الإمام السجّاد، فقد كان إذا جاءه طالب علم قال: «مرحباً بوصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله»، ثمّ يقول: «إنَّ طالب العلم إذا خرج من منزله لم يضع رجليه على رطب ولا يابس من الأرض إلاَّ سبَّحت له إلى الأرضين السابعة»[٣].

فالإمام كان دوره التأسيس ووضع الحجر الأساس للحوزة العلمية التي أسَّسها بعدئذٍ الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام.

* * *

---

(١) القرم: شدّة شهوة اللحم.

(٢) الكافي ٤: ١٢/ باب كفاية العيال والتوسع عليهم/ ح ١٠.

(٣) الخصال: ٥١٨/ ح ٤.

الدراسة العاشرة:

بين الإمام الحسين عليه السلام

والإمام الباقر عليه السلام

- مهمّة الإمام الباقر عليه السلام.
- المنهج الحواري لدى الإمام الباقر عليه السلام.
- القرآن يشير إلى الحسين عليه السلام.
- ثلاثة خطوط في حركة الإمام الباقر عليه السلام.
- علاقة الإمام الباقر عليه السلام بالعراق.

موجز عن حياة الإمام الباقر عليه السلام:

الإمام الباقر عليه السلام لقَّبه رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا اللقب، وقال صلى الله عليه وآله هو: «اسمه في التوراة»[1]. وتلاحظون أنَّ الإمام الحسن عليه السلام سمّاه رسول الله، وكذلك الإمام الحسين عليه السلام، وزين العابدين لقَّبه رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا اللقب.

وهكذا نرى الارتباط الوثيق والمباشر بين هؤلاء الأئمّة عليهم السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله.

في الحديث المعروف عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنَّ جابر بن عبد الله الأنصاري كان آخر من بقي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان رجلاً منقطعاً إلينا أهل البيت، وكان يقعد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وهو معتجر بعمامة سوداء، وكان ينادي: يا باقر العلم، يا باقر العلم، فكان أهل المدينة يقولون: جابر يهجر، فكان يقول: لا والله ما أهجر، ولكنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنَّك ستدرك رجلاً منّي، اسمه اسمي، وشمائله شمائلي، يبقر العلم بقراً، فذاك الذي دعاني إلى ما أقول.

---

(١) في الرواية عن أبي خالد الكابلي، قال: دخلت على سيّدي علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، فقلت له: يا ابن رسول الله، أخبرني بالذين فرض الله طاعتهم ومودَّتهم، وأوجب على عباده الاقتداء بهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟، فقال لي: «إنَّ أولي الأمر الذين جعلهم الله أئمّة للناس، وأوجب عليهم طاعتهم: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ثمّ الحسن ثمّ الحسين ابنا علي بن أبي طالب، ثمّ انتهى الأمر إلينا»، ثمّ سكت، فقلت له: يا سيّدي، روي لنا عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنَّ الأرض لا تخلو من حجّة لله على عباده، فمن الحجّة والإمام بعدك؟ فقال: «ابني محمّد، واسمه في التوراة باقر، يبقر العلم بقراً، هو الحجّة والإمام بعدي، ومن بعد محمّد ابنه جعفر، واسمه عند أهل السماء الصادق...» (إعلام الورى ٢: ١٩٤).

قال: فبينا جابر يتردَّد ذات يوم في بعض طرق المدينة، إذ مرَّ محمّد بن علي، فلمَّا نظر إليه قال: يا غلام أقبل، فأقبل، ثمّ قال له: أدبر، فأدبر، ثمّ قال: شمائل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي نفسي بيده، يا غلام ما اسمك؟

قال: اسمي محمّد بن علي بن الحسين، فأقبل عليه يقبّل رأسه ويقول: بأبي أنت وأُمّي، أبوك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرئك السلام... فرجع محمّد بن علي إلى أبيه علي بن الحسين ذعراً، فأخبره الخبر.

فقال: وقد فعلها جابر؟ قال: نعم.

فقال: يا بني ألزم بيتك، فكان جابر يأتيه طرفي النهار، وكان أهل المدينة يقولون: وا عجباه لجابر! يأتي هذا الغلام طرفي النهار وهو آخر من بقي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يلبث أن مضى علي بن الحسين عليهما السلام، فكان محمّد بن علي يأتيه على وجه الكرامة لصحبته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: فجلس عليه السلام يحدّثهم عن الله تبارك وتعالى، فقال أهل المدينة: ما رأينا أحداً أجرأ من هذا، فلمَّا رأى ما يقولون حدَّثهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال أهل المدينة: ما رأينا أحداً قطّ أكذب من هذا! يحدّثنا عمَّن لم يرَه، فلمَّا رأى ما يقولون حدَّثهم عن جابر بن عبد الله، قال: فصدَّقوه، وكان جابر بن عبد الله يأتيه فيتعلَّم منه»(١).

وبعد وفاة الإمام السجّاد عليه السلام كان الإمام الباقر عليه السلام هو المرجع الديني للأمّة الإسلاميّة، لكنَّه يحتاج إلى عمل وجهد لإثبات هذه الحقيقة، فهناك زعامات دينية كثيرة وفقهاء كبار يرجع الناس إليهم في الفقه.

ولد الإمام الباقر عليه السلام سنة (٥٧ هـ)، فكان عمره عند استشهاد

(١) الكافي ١: ٤٦٩/ باب مولد أبي جعفر محمّد بن علي عليه السلام/ ح ٢.

الإمـام الحسـين عليه السلام أربـع سـنوات، وامتـدَّ بـه العمـر إلـى سـنة (١١٤) للهجـرة، وحـين وفاتـه كـان عمـره الشـريف (٥٧) سـنة، أربـع سـنوات مـع الحسـين عليه السلام، وتسـع وثلاثـون سـنة مـع الإمـام السـجّاد عليه السلام، وعـاش بعـد وفـاة أبيـه السـجّاد أربعـة عشـر عامـاً، وعاصـر خلالهـا الوليـد بـن عبـد الملـك، ثـمّ سـليمان بـن عبـد الملـك، ثـمّ عمـر بـن عبـد العزيـز، ثـمّ هشـام بـن عبـد الملك، وكانت وفاته في زمن هشام بن عبد الملك.

هذه صورة إجمالية عن حياته عليه السلام.

فـي مرحلـة فتـوّة الإمـام البـاقر عليه السلام كـان الإمـام السـجّاد عليه السلام يعمـل علـى المحافظـة عليـه، بسـبب توجّـه الأنظـار إليـه، وحـين قـال لـه جـابر: (جـدّك يقـرؤك السـلام)، قـال الإمـام السـجّاد عليه السلام: «وقـد فعلهـا جـابر!؟»، أي أنَّ جـابر كشـف الامتـداد فـي الإمامـة، وكـان يرجـو الإمـام أن يبقـى ذلـك مخفيّـاً فـي هـذه المرحلـة، صـوناً لحيـاة الإمـام عليه السلام. ولهـذا فـإنَّ الإمـام السـجّاد عليه السلام قـال للبـاقر عليه السلام: «يـا بنـي ألـزم بيتـك»، وهـذا الأمـر طبعـاً إنَّمـا كـان فـي مرحلـة معيّنـة، لكـن مـن بعـد الإمـام السـجّاد عليه السلام، كـان البـاقر عليه السلام يجلـس فـي المسـجد النبـوي ويقـول: «قـال رسـول الله»، وأصـبح يحـدّث النـاس، لقـد كانـت المطـاردة والملاحقـة مـن قبـل السـلطة الحاكمـة بمسـتوى أن يقـول الإمام لابنه الباقر عليه السلام: «يا بني ألزم بيتك».

صورة من المطاردة الأموية:

جـابر بـن يزيـد الجعفـي ونتيجـة المطـاردة الشـديدة كـان يتظـاهر بـالجنون، وهـو مـن أصـحاب الإمـام السـجّاد والبـاقر عليهما السلام، ولكـن جـرّاء المطاردة والتصفية والقتل كان يتظاهر بالجنون.

يقول أحد أصحابه: قد رأيته يوماً في رحبة الكوفة وهو واضع عصاً بين رجليه ويجري مع الأطفال، وهو يقول: (أجد جمهور بن منصور أميراً غير مأمور)، والناس يقولون: جُنَّ جابر، والحقيقة أنَّه كان يعطي نبوءة، وهي أنَّه سيأتي يوم يحكم فيه والٍ اسمه جمهور بن منصور يكون والياً على الكوفة، ومرَّت الأيّام وإذا جمهور بن منصور يصبح والياً عليها، وتذكَّر الناس كلام جابر واتَّضح لهم أنَّه كان يتخفّى بتلك الطريقة ويتظاهر بالجنون خوفاً من بطش السلطان، هكذا ذاق الشيعة والأئمّة الأمرَّين حتَّى حافظوا على المذهب، فلقد جاء الأمر من البلاط الأموي إلى والي المدينة أن ألقي القبض على جابر بن يزيد الجعفي واقطع رأسه. وعندما أرسلوا الشرطة إليه قيل لهم: إنَّه مجنون، فأطلَّ الوالي عليه، وعندما رآه على تلك الحالة قال: الحمد لله الذي خلَّصني من دمه. فأرسل للشام بالخبر، فعفى عنه البلاط[1].

وهكذا تخلَّص الشيعة من عمليات الاستئصال، ولأجل ذلك قال الإمام السجّاد عليه السلام في هكذا ظروف لولده الباقر: «ألزم بيتك»، ففي مرحلة الفتوّة يجب المحافظة على الإمام عليه السلام.

مهمّة الإمام الباقر عليه السلام:

السؤال يقول: ما هي المهمّة التي أدّاها الإمام الباقر عليه السلام؟ وما هي المهمّة التي أدّاها الإمام الحسين عليه السلام؟

الجواب: نحن نعتقد أنَّ الإمام علياً عليه السلام والحسن والحسين والسجّاد عليهم السلام، كانت لديهم مهمّة الحفاظ على الهوية الإسلاميّة للدولة،

---

(١) أنظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٢٣.

بينما كانت مهمّة الإمام الباقر عليه السلام هي الحفاظ على البُنية الثقافية للأمّة! فالهويّة الإسلاميّة للدولة قبل ذلك كانت في معرض خطر التصفية والإنهاء، بحيث لا يبقى أيّ مظهر للهويّة الإسلاميّة، كانت هذه هي السياسة الأموية، لولا جهود الأئمّة الأطهار عليهم السلام التي فرضت على آل أميّة أن يتظاهروا بالإسلام ويحافظوا على الإطار الإسلامي للدولة. الحكم الأموي كان بصدد اقتلاع الإطار الإسلامي، فلا يبقى اسم للإسلام، ولا لرسول الله، لكن الأئمّة عليهم السلام هم الذين فرضوا عليهم الالتزام بالإطار الإسلامي، فأصبحوا يحكمون باسم إمرة المؤمنين.

كنت أقرأ في رواية: أنَّه لمَّا هلك معاوية وأصبح مكانه يزيد في أوّل خطبة خطبها قال: (نحن أهل الحقّ، وأنصار الدين)[1]، وهكذا نجده يتظاهر بالدين!!

ولم يقولوا: نحن ضدّ الدين، بينما الواقع أنَّهم لا يمتلكون التزاماً دينياً، وهذا هو ما نقرؤه من فلاسفة الإسلام والمؤرّخين السُنّة أمثال ابن رشد، وأحمد أمين الكاتب المصري المعروف الذي لا يحسن الظنّ بالشيعة، ولديه كتب في التاريخ (فجر الإسلام، ضحى الإسلام، وظهر الإسلام)، فهو يستعرض التاريخ في كتابه ضحى الإسلام، ويقيّم معاوية ويقول: (لم يكن الحكم الأموي حكماً إسلاميّاً، وإنَّما كان الحكم عربياً، والحكّام فيه خدم للعرب على حساب غيرهم، وكانت تسود العرب فيه النزعة الجاهلية لا النزعة الإسلاميّة).

وهذه هي الحقيقة، لكن جهود الأئمّة الأطهار عليهم السلام هي التي

(١) كتاب الفتوح ٥: ٧.

فرضت الهوية الإسلاميّة على السلطة وعلى الأمّة، فلا يكون حاكم أو خليفة حتّى إذا كان سكّيراً خمّيراً يلعب بالطيور قاتل النفس المحترمة مثل يزيد بن معاوية إلاَّ وجد نفسه مضطرّاً للتظاهر والحكم باسم الإسلام، وهذا دور عظيم قام به الأئمّة الأطهار في مرحلة الإمام علي، والحسن، والحسين، والسجّاد عليهم السلام.

حتَّى وصلنا إلى الإمام الباقر عليه السلام، حيث تركَّز الإطار الإسلامي، وثبتت الهوية الإسلاميّة، فكان دور الإمام الباقر عليه السلام والصادق عليه السلام هو بناء المحتوى الثقافي لهذه الأمّة.

في مرحلة الإمام الباقر والصادق عليهما السلام بدأنا نجد أنَّ عدداً من المدارس الإسلاميّة قد تحرَّكت، بجهود الأئمّة الأطهار عليهم السلام، ولعلَّه إلى هذا كانت إشارة رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّ محمّد بن علي هو الباقر، أي هنا مرحلة بناء المحتوى الثقافي، ونحتاج إلى إنسان مثل الإمام الباقر عليه السلام يبقر العلم بقراً.

دور الحسين عليه السلام هو تثبيت الهوية الإسلاميّة، ودور الإمام الباقر عليه السلام بناء المحتوى التفصيلي الفكري لذلك الإطار.

المنهج الحواري لدى الإمام الباقر عليه السلام:

والفكرة التي نريد تأكيدها هي أنَّ منهج أهل البيت عليهم السلام هو منهج حواري.

الإمام الباقر عليه السلام كان هو الرجل الأوّل في التأسيس لثقافة الحوار وبناء المحتوى الثقافي والفكري للأمّة الإسلاميّة، في هذا الوقت أصبح لدينا كثير من المذاهب الإسلاميّة، من أمثال المرجئة، والقدرية، والمغيرية، والحرورية.

تقول الرواية: عن حمزة بن الطيّار، عن أبيه محمّد، قال: جئت إلى باب أبي جعفر عليه السلام، أستأذن عليه فلم يأذن لي وأذن لغيري. فرجعت إلى منزلي وأنا مغموم، فطرحت نفسي على سرير في الدار وذهب عنّي النوم، فجعلت أفكّر وأقول: أليس المرجئة تقول كذا؟ والقدرية تقول كذا؟ والحرورية تقول كذا؟ والزيدية تقول كذا؟ فيفسد عليهم قولهم، وأنا أفكّر في هذا حتَّى نادى المنادي، فإذا الباب تدقّ، فقلت: من هذا؟

فقال: رسول لأبي جعفر عليه السلام، يقول لك أبو جعفر عليه السلام: «أجب».

فأخذت ثيابي عليَّ ومضيت معه، فدخلت عليه، فلمَّا رآني قال: «يا محمّد، لا إلى المرجئة، ولا إلى القدرية، ولا إلى الحرورية، ولا إلى الزيدية، ولكن إلينا، كما حجبتك لكذا وكذا»، فقبلت، وقلت به[1].

فالإمام الباقر عليه السلام لم يستخدم الأساليب الإعجازية الغيبية، وهذا أحد أوجه التشابه بين الإمام الحسين عليه السلام، والإمام الباقر عليه السلام، وباقي الأئمّة، حيث قلنا: إنَّهم اعتمدوا الأسباب الطبيعية البشرية، وليس الملائكة والغيب، رغم قدرتهم على ذلك.

أذكر لكم مثالاً:

شخص اسمه: (كثير النوا) دخل على الإمام الباقر عليه السلام، وكان من المخالفين وليس من شيعة الإمام الباقر عليه السلام، فسلَّم وجلس وقال له ــ وهو يريد السخرية بالإمام ــ: إنَّ المغيرة بن عمران عندنا بالكوفة يزعم أنَّ معك مَلَكا يعرّفك الكافر من المؤمن، وشيعتك من أعدائك!

قال عليه السلام: «ما حرفتك؟».

---

(١) اختيار معرفة الرجال ٢: ٦٣٧ و٦٣٨/ ح ٦٤٩؛ بحار الأنوار ٤٦: ٢٧١/ ح ٧٤.

قال: أبيع الحنطة.

قال عليه السلام: «كذبت».

قال: وربَّما أبيع الشعير.

قال عليه السلام: «ليس كما قلت، بل تبيع النوا».

قال: من أخبرك بهذا؟

قال: «المَلَك الذي يعرّفني شيعتي من عدوّي، ولست تموت إلاَّ تائهاً».

قال الراوي: فلمَّا انصرفت إلى الكوفة، ذهبت في جماعة نسأل عن كثير، فدُلِلنا على عجوز، فقالت: مات تائها منذ ثلاثة أيّام[1].

فالإمام الباقر عليه السلام والأئمّة يمكنهم استخدام الأساليب الإعجازية في الإقناع، ولكنَّهم استخدموا الأساليب الطبيعية.

وقد مرَّ علينا نصّ للإمام السجّاد عليه السلام يقول: «ما ندري كيف نصنع بالناس! إن حدَّثناهم بما سمعنا من رسول الله ضحكوا، وإن سكتنا لم يسعنا»[2]. وللإمام الباقر عليه السلام نصّ مثل هذا النصّ يقول: «بليّة الناس علينا عظيمة، إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا، وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا»[3].

فالأئمّة لم يستخدموا الأدوات الإعجازية، بل استخدموا الأدوات الطبيعية، وفرض الإمام الباقر عليه السلام إمامته على الناس يومئذٍ من خلال ذلك.

عبد الله بن عمر جاءه شخص وهو في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله، سأله عن مسألة فلم يدرِ بما يجيبه، فقال له: اذهب إلى ذلك الغلام فاسأله وأعلمني بما يجيبك ـ وأشار إلى محمّد بن علي بن الحسين عليهم السلام ـ

(١) كشف الغمّة ٢: ٣٥٦.

(٢) الكافي ٣: ٢٣٤/ باب أنَّ الميّت يمثّل له ماله وولده وعمله قبل موته/ ح ٤.

(٣) الإرشاد ٢: ١٦٧.

فأتاه وسأله فأجابه، فرجع إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: (إنَّهم أهل بيت مفهمون)[(١)].

أهل البيت عليهم السلام في كلّ زمان لهم الكأس المعلّى.

فمحمّد بن المنكدر فقيه كبير من فقهاء الإسلام، وليس على مذهب أهل البيت عليهم السلام. في زمن الإمام الباقر عليه السلام أصبح في نيَّته أن يعِظ الإمام الباقر عليه السلام، يقول: ما كنت أرى أنَّ مثل علي بن الحسين يدع خلفاً ـ لفضل علي بن الحسين ـ حتَّى رأيت ابنه محمّد بن علي، فأردت أن أعِظه فوعظني.

فقال له أصحابه: بأيّ شيء وعظك؟

قال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارّة، فلقيت محمّد بن علي ـ وكان رجلاً بديناً ـ وهو متّكئ على غلامين له أسودين ـ أو موليين له ـ، فقلت في نفسي: شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا! أشهد لأعِظنَّه، فدنوت منه فسلَّمت عليه، فسلَّم علي ببهر[(٢)] وقد تصبَّب عرقاً.

فقلت: أصلحك الله، شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على مثل هذه الحال في طلب الدنيا! لو جاءك الموت وأنت على هذه الحال؟! قال: فخلّى عن الغلامين من يده، ثمّ تساند وقال: «لو جاءني والله الموت وأنا (في هذه)[(٣)] الحال، جاءني وأنا في طاعة من طاعات الله، أكفُّ بها نفسي عنك وعن الناس، وإنَّما كنت أخاف الموت لو جاءني وأنا على معصية من معاصي الله». فقلت: يرحمك الله، أردت أن أعظك فوعظتني[(٣)].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٢٩.

(٢) البهر: تتابع النفس. (الصحاح ٢: ٥٩٨/ مادة بهر).

(٣) الإرشاد ٢: ١٦٢.

بهذه الطريقة استطاع الإمام أن يضع نفسه في موضع متقدّم فكرياً، ويبرهن على زعامته الدينية.

الحسين عليه السلام في القرآن الكريم:

هناك سؤال يقول: مع أهمّية قضيّة الحسين عليه السلام التي تحدَّث عنها الأنبياء، وبكوا لها، ومع أهمّية واقعة كربلاء في التاريخ الإسلامي البشري ما بعد الإسلام، ووقوف الأنبياء عند كربلاء قبل الإسلام، لماذا لم ترد في القرآن الكريم الإشارة إلى الحسين عليه السلام، وقضيّة كربلاء؟ فإذا كان الحسين عليه السلام بهذا الحجم الذي بكاه آدم فمن بعده، وملائكة السماء وأظلَّة العرش، «وجَلَّت وعظُمت مصيبتُك في السماوات»(١)، فهل جاء في القرآن الكريم إشارة أو تصريح عن قضيّة الحسين عليه السلام، أم لا؟

هناك الكثير من الموارد التي ذكر فيها الحسين عليه السلام بالإشارة، كما في آية المباهلة: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١)، وهكذا في سورة الدهر في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ (الإنسان: ٨ و٩)، وآية التطهير وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وغيرها كثير، إلاَّ أنَّنا نقف في هذه الدراسة على يدَّعى ارتباطها بالحسين عليه السلام.

---

(١) مصباح المتهجّد: ٧٧٤/ ح (٢/٨٤٧) من زيارة له عليه السلام في يوم عاشوراء.

الموضع الأوّل: سورة التين:

حيث جاء في بعض الروايات: أنَّ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (التين: ١)، بمعنى الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام(١).

الموضع الثاني: سورة مريم:

﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (مريم: ١ و٢).

تقول بعض الروايات: أنَّ ﴿كهيعص﴾ هي إشارة إلى مجمل واقعة كربلاء، فالكاف تعني كربلاء، والهاء تعني هلاك عترة النبيّ صلى الله عليه وآله في كربلاء، والياء تعني يزيد قاتل الحسين عليه السلام، والعين تعني عطش الحسين عليه السلام، والصاد تعني صبره(٢). ورغم وجود مثل هذه الروايات التي لا يعتمدها المفسّرون إلاَّ على نحو التطبيق والمصداق الأجلى والأظهر كما هو مبنى السيّد الطباطبائي قدس سره وكما سيأتي توضيحه، فإنَّ لدينا حول الموضوع عدّة إجابات:

الجواب الأوّل: أنَّ قضيّة الحسين عليه السلام ليس بالضرورة أن ينزل فيها قرآن؛ فحالها حال الكثير من الأحكام والقضايا المهمّة التي ترك تفصيلها وتبليغها وعرضها للسُنّة الشريفة.

الجواب الثاني: أنَّ قضيّة الحسين عليه السلام هي جزء من قضيّة كبرى ساخنة يومئذٍ ومهمّة، وهي قضيّة (أهل البيت عليهم السلام)، فلا نفصل الحسين عليه السلام عن أهل البيت عليهم السلام، فهو جزء من هذا المكوّن الكبير وهو أهل البيت عليهم السلام، والقضيّة الساخنة، والمعاصرة، والحادّة يومئذٍ هي قضيّة أهل البيت عليهم السلام، والقرآن الكريم لم ينزل في الحسن، ولا في الحسين عليه السلام، ولا في زين العابدين، ولا الباقر عليهم السلام

---

(١) أنظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٣.

(٢) راجع: كمال الدين: ٤٦١/ باب ٤٣/ ح ٢١.

بأسمائهم، ولكن نزل في القضيّة الكبيرة التي يمثّل الحسين عليه السلام جزءاً منها. إذن القرآن نزل، لكن ليس بالشخص، بل بالقضيّة المعاصرة الكبيرة، ويومئذٍ كانت القضيّة الساخنة هي قضيّة أهل البيت عليهم السلام، والقرآن يريد ربط المسلمين بالقضيّة الأكبر، فقال: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وقال: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ (الشورى: ٢٣)، فمن الطبيعي أن يتحدَّث القرآن الكريم عن القضيّة في إطارها العامّ.

في هذا الإطار يقول ابن عبّاس: (نزلت في علي ثلاثمائة آية)[(١)]. لكن ليس بالتصريح طبعاً.

العلاّمة الفيروزآبادي له كتاب اسمه: (فضائل الخمسة من الصحاح الستّة)، الخمسة هم رسول الله صلى الله عليه وآله، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام، من الصحاح الستّة من مصادر أبناء العامّة الكبرى، وقد جمع معظم الآيات والروايات الثابتة عند أهل السُنّة في هؤلاء الخمسة، وهناك يذكر عن أحمد بن حنبل قوله: (ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب عليه السلام)[(٢)].

العلاّمة السيّد عبد الحسين شرف الدين في كتابه (المراجعات)، وهو عبارة عن أسئلة وأجوبة بينه وبين شيخ الأزهر سليم البشري، السيّد شرف الدين نزل إلى مصر وأوجد علاقات مع علمائهم، ومن جملتهم شيخ الأزهر، ودخل معه في حوار، وتحوَّل إلى أسئلة وأجوبة في غاية الإتقان والعلمية، إلى أن أذعن الشيخ البشري إلى حقّانية مذهب أهل

---

(١) تاريخ دمشق ٤٢: ٣٦٤؛ ينابيع المودّة ٢: ٤٠٦.

(٢) كشف الغمّة ١: ١٦٦؛ مناقب الخوارزمي: ٣٤؛ مطالب السؤول: ١٧٢.

البيت عليهم السلام بلغة علمية، السيّد شرف الدين في كتابه يذكر عشرات الآيات التي نزلت في أهل البيت عليهم السلام، وبالذات في الإمام علي عليه السلام.

إذن، الحسين عليه السلام هو جزء من المكوّن الكبير الذي كان في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله عليه معركة ساخنة، وجاءت في أهل البيت عليهم السلام آيات عديدة فيهم وفي موقعهم.

أمَّا ما ذكرنا من أنَّ بعض الروايات تقول: إنَّ التين والزيتون في الآية: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (التين: ١): هي بمعنى الحسن والحسين عليهما السلام، وتقول في الآية ﴿كهيعص﴾ (مريم: ١): إنَّ الكاف تعني كربلاء، والهاء هلاك العترة، والياء يزيد، فإنَّ علماءنا يقولون: إنَّ هذه الروايات لا نستطيع أن نعتمد عليها في التحقيق، وأنَّها روايات نادرة، ومتعارضة، أي مثلما هناك رواية تقول: الكاف كربلاء، فالروايات الأكثر شهرة تذكر أنَّها إشارة إلى أسماء الله، والكاف يعني الكافي، والهاء تعني الهادي، والياء تعني الولي، والعين تعني العالم، والصاد تعني صادق الوعد[١]. وهذه لا تنسجم مع الرواية الأولى، ولهذا فإنَّ علماءنا لا يكادون يسلّطون الضوء كثيراً على هذه الروايات.

والعلاّمة السيّد الطباطبائي في كتابه (تفسير الميزان) حينما يتناول التين والزيتون، ورواية أنَّ التين يعني الحسن عليه السلام، والزيتون يعني الحسين عليه السلام، يقول: (ليس من التفسير في شيء)[٢].

نعم، إنَّ القرآن الكريم فيه أكثر من نصّ عن أهل البيت عليهم السلام، والإمام الحسين عليه السلام جزء من أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) معاني الأخبار: ٢٢.

(٢) تفسير الميزان ٢٠: ٣٢٢.

كما أنَّ المفسّرين يذكرون روايات أخرى جاءت لتؤكّد نزول بعض النصوص القرآنية في الحسين عليه السلام.

مثلاً سورة الفجر: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ (الفجر: ١ _ ٣)، إلى أن يقول تعالى: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٧ _ ٣٠).

هناك رواية تقول: إنَّ الشفع بمعنى يراد بها الحسن والحسين عليهما السلام، والوتر إشارة إلى أمير المؤمنين عليه السلام[1]، ورواية أخرى تقول: إنَّ قوله تعالى: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ هي إشارة إلى الحسين عليه السلام[2].

ومن جملة الآيات التي يذكر أنَّها تشير للحسين عليه السلام هي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير: ٨ و٩)، فقد جاء في روايات أنَّ الموؤدة هي الحسين عليه السلام[3]، فالحسين عليه السلام يعرض يوم القيامة في الحشر ويسأل: لماذا قتلت؟ فيكون حجّة على الخلق الذين قتلوه.

وهكذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ﴾ (النساء: ٧٧)، وهذه الآية فيها عرض لحالتين:

الأولى: يقال لهم: لا تقاتلوا فيقولون: نحن نريد القتال، بعدئذٍ يقال

---

(١) أنظر: تفسير القمي ٢: ٤١٩.

(٢) انظر: بحار الأنوار ٢٤: ٩٣.

(٣) عن ابن أبي عمير، عن بعض رجاله، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾؟ قال: «نزلت في الحسين بن علي عليهما السلام» كامل الزيارات: ١٣٤/ ح (٣/١٥٥).

لهم: قاتلوا، فيقولون: لولا أخَّرت علينا القتال، هذه الرواية تقول: إنَّ المقصود في المقطع الأوّل هو الحسن عليه السلام، والمقطع الثاني هو الحسين عليه السلام[١]، والعلاّمة الطباطبائي والمفسّرون الآخرون يقولون: إنَّ هذه الروايات إن صحَّت فهي من باب التطبيق، وليس بمعنى أنَّها نزلت في الحسين عليه السلام، وهي قابلة للتطبيق مدى الدهر على كلّ نفس تُقتل ظلماً. كما هو القرآن الكريم في طريقته، مثلاً حينما يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: ١)، صحيح أنَّها نزلت في إشارة معيَّنة للإمام علي عليه السلام مثلاً، لكن هي على مدى الدهر تنطبق على كلّ المؤمنين، هذا المنهج يُسمّى التطبيق، والعلاّمة الطباطبائي يُسمّيه: (قانون التطبيق والجري)[٢]، فأيّ نفس قتلت مظلومة سوف تعرض للحشر يوم القيامة ويقال لها: لماذا قتلت؟ والحسين عليه السلام أيضاً قُتل مظلوماً، فيشمله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ﴾، وهكذا قوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾، فهي عنوان عامّ ينطبق على كلّ نفس مطمئنّة يقال لها يوم القيامة: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾، والحسين عليه السلام هو من أوّل الأنفس المطمئنّة، إذن من الطبيعي أن نطبّق الآية عليه، هذا قانون التطبيق.

وهناك رواية جميلة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى

---

(١) عن الحسن بن زياد العطّار، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾؟ قال: «نزلت في الحسن بن علي عليهما السلام، أمره الله بالكفّ»، قال: قلت: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾؟ قال: «نزلت في الحسين بن علي عليهما السلام، كتب الله عليه وعلى أهل الأرض أن يقاتلوا معه» بحار الأنوار ٤٤: ٢٢٠.

(٢) أنظر مثلاً: تفسير الميزان ١١: ٣٦٧.

رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (الفجر: ٢٧ و٢٨)، وهذه الرواية مذكورة في أُمّهات الكتب، وقويّة من حيث المتن والسند في كتاب (الكافي) تقول:

عن سدير الصيرفي، قلت لأبي عبد الله _ الصادق عليه السلام _: جُعلت فداك يا ابن رسول الله، هل يُكره المؤمن على قبض روحه؟ قال: «لا والله، إنَّه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك، فيقول له ملك الموت: يا وليّ الله لا تجزع، فوَالذي بعث محمّداً صلى الله عليه وآله لأنا أبرُّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينك فانظر».

قال: «ويمثل له رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة من ذرّيتهم عليهم السلام، فيقال له: هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة عليهم السلام رفقاؤك».

قال: «فيفتح عينه فينظر فينادي روحه منادٍ من قبل ربّ العزّة فيقول: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إلى محمّد وأهل بيته ﴿ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً﴾ بالولاية ﴿مَرْضِيَّةً﴾ بالثواب ﴿فَادْخُلِي فِي عِبادِي﴾ يعني محمّداً صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾»، تقول الرواية: «فما شيء أحبُّ إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي»[1].

فالإمام الحسين عليه السلام هو النفس المطمئنّة، فمن كان أكثر من الحسين عليه السلام وعلي والأئمّة الأطهار عليهم السلام اطمئناناً ووثوقاً بما عند الله تعالى؟

حركة الإمام الباقر عليه السلام:

كما كان موقف الإمام الحسين عليه السلام متحرّكاً، حيث كان مع

(١) الكافي ٣: ١٢٧/ باب أنَّ المؤمن لا يُكره على قبض روحه/ ح ٢.

معاوية في موقف، ومع يزيد في آخر، فمواقفه متحرّكة وليست مواقف ثابتة، ولكنَّها في المنهج والأدوات والأهداف ثابتة.

ولنعد إلى حركة الإمام الباقر عليه السلام ومقارنتها بالإمام الحسين عليه السلام، وأشير إلى ثلاثة خطوط في حركته عليه السلام:

الخطّ الأوّل: التفرّغ للبناء الثقافي للأمّة:

وذكرنا أنَّ الإمام علياً والحسن والحسين وزين العابدين عليهم السلام كانت مهمّتهم الدفاع عن الهوية الإسلاميّة للأمّة، وثبتت هذه الهوية، وأصبح حتَّى خلفاء بني أميّة يتحدَّثون باسم الإسلام.

وجاء دور الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، وهو بناء المحتوى الثقافي لهذه الأمّة، وأشار رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ذلك عندما قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: «إنَّك ستدرك رجلاً منّي، اسمه اسمي، وشمائله شمائلي، يبقر العلم بقراً»[1]، أي أنَّ هذا الموقع العلمي قد أعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله للإمام الباقر عليه السلام كبداية مرحلة جديدة.

الخطّ الثاني: ترشيد الوعي السياسي للأمّة:

نحن نلاحظ اليوم أنَّ الأمّة الأكثر وعياً سياسياً في العالم هم شيعة أهل البيت عليهم السلام، ولا يمكن خداعها سياسياً وخلال (١٤٠٠) عاماً بكلّ الأساليب، ورأينا أساليب كثيرة في العراق، وما استطاعوا، وبعد عشرات السنين، أصبح الذين يدخلون معنا في معارك يرفعون نفس شعاراتنا.

شيعة أهل البيت عليهم السلام في العراق والعالم يمثّلون أعجوبة، فلم

---

(١) الكافي ١: ٤٦٩/ باب مولد أبي جعفر محمّد بن علي عليه السلام/ ح ٢.

تنفـع معهـم القـوّة ولا الفضـائيات ولا الخـداع ولا الأمـوال ولا الحصـار ولا السجون ولا الحروب.

قام رجل إلى عبد الملك بن مروان، فقال له: أناظرك و أنا آمن؟

قال: نعم.

فقال له: أخبرني عن هذا الأمر الذي صار إليك، أبنصّ من الله ورسوله؟

قال: لا.

قال: اجتمعت الأمّة فتراضوا بك؟

فقال : لا.

قال: فكانت لك بيعة في أعناقهم فوفوا بها؟

قال: لا.

قال: فاختارك أهل الشورى؟

قال: لا.

قال: أفليس قد قهرتهم على أمرهم، واستأثرت بفيئهم دونهم؟

قال: بلى.

قـال: فبـأيّ شـيء سُـمّيت أميـر المـؤمنين ولـم يـؤمّرك الله ولا رسـوله ولا المسلمون؟

قال له: أُخرج عن بلادي وإلاَّ قتلتك!

قال: ليس هذا جواب أهل العدل والإنصاف، ثمّ خرج عنه[1].

هـذا هـو وعـي الشـيعة، وهـذه هـي قـدرتهم علـى الجـدل العلمـي مـع خصومهم، وها هو أسلوب الأعداء.

---

(١) أعلام الدين: ٣٢٩.

الوعي السياسي في زمن الإمام الباقر عليه السلام كان بمستوى أن يقوم شخص للخليفة ويجادله، بما يعني أنَّه لم تمت الإرادة ولا الوعي السياسي، وهذا إنَّما كان بجهود الأئمّة عليهم السلام.

نموذج آخر للتدليل على جهود الإمام الباقر عليه السلام في رفع المستوى الثقافي باعتماد أسلوب الحوار والجدل والانفتاح على الجمهور ومناخ الحرّية:

عبد الله بن نافع الأزرق، رئيس مذهب الأزارقة وشيخ الخوارج، كان يقول: لو أنّي علمت أنَّ بين قطريها أحداً تبلغني إليه المطايا يخصمني أنَّ علياً قتل أهل النهروان وهو لهم غير ظالم لرحلت إليه.

فقيل له: ولا ولده؟

فقال: أفي ولده عالم؟

فقيل له: هذا أوّل جهلك، وهل يخلون من عالم؟!

قال: فمن عالمهم اليوم؟

قيل: محمّد بن علي بن الحسين بن علي.

قال: فرحل إليه في صناديد أصحابه حتَّى أتى المدينة، فاستأذن على أبي جعفر عليه السلام، فقيل له: هذا عبد الله بن نافع، فقال: «وما يصنع بي وهو يبرأ منّي ومن أبي طرفي النهار؟».

فقال له أبو بصير الكوفي: جُعلت فداك، إنَّ هذا يزعم أنَّه لو علم أنَّ بين قطريها أحداً تبلغه المطايا إليه يخصمه أنَّ علياً عليه السلام قتل أهل النهروان وهو لهم غير ظالم لرحل إليه.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: «أتراه جاءني مناظراً؟».

قال: نعم.

قال عليه السلام: «يا غلام أُخرج فحطّ رحله، وقل له: إذا كان الغد فأتنا».

قال: فلمَّا أصبح عبد الله بن نافع غدا في صناديد أصحابه، وبعث أبو جعفر عليه السلام إلى جميع أبناء المهاجرين والأنصار فجمعهم، ثمّ خرج إلى الناس في ثوبين ممغرين[1]، وأقبل على الناس كأنَّه فلقة قمر، فقال: «الحمد لله محيّث الحيث، ومكيّف الكيف، ومؤيّن الأين، الحمد لله الذي ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ...﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمّداً صلى الله عليه وآله عبده ورسوله، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. الحمد لله الذي أكرمنا بنبوّته واختصَّنا بولايته، يا معشر أبناء المهاجرين والأنصار، من كانت عنده منقبة في علي بن أبي طالب عليه السلام فليقم وليتحدَّث».

قال: فقام الناس فسردوا تلك المناقب.

فقال عبد الله: أنا أروى لهذه المناقب من هؤلاء، وإنَّما أحدث عليٌّ الكفر بعد تحكيمه الحكمين. حتَّى انتهوا في المناقب إلى حديث خيبر: «لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، كرّاراً غير فرّار، لا يرجع حتَّى يفتح الله على يديه».

فقال أبو جعفر عليه السلام: «ما تقول في هذا الحديث؟».

فقال: هو حقّ لا شكَّ فيه، ولكن أحدث الكفر بعدُ.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: «ثكلتك أُمّك، أخبرني عن الله عزّ وجلّ أحبَّ علي بن أبي طالب يوم أحبَّه وهو يعلم أنَّه يقتل أهل النهروان، أم لم يعلم؟».

قال ابن نافع: أعد عليَّ.

(١) المغرة: طين أحمر، والممغّر - كمعظّم -: المصبوغ بها. (القاموس المحيط ٢: ١٣٥).

فقال له أبو جعفر عليه السلام: «أخبرني عن الله جلَّ ذكره أحبَّ علي بن أبي طالب يوم أحبَّه وهو يعلم أنَّه يقتل أهل النهروان أم لم يعلم؟».

قال عليه السلام: «إن قلت: لا، كفرت».

قال: فقال: قد علم.

قال عليه السلام: «فأحبَّه الله على أن يعمل بطاعته أو على أن يعمل بمعصيته؟».

فقال: على أن يعمل بطاعته.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: «فقم مخصوماً».

فقام وهو يقول: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤][(١)].

هذا نموذج من الأجواء الثقافية التي كان يساهم بها الإمام عليه السلام، وكانت الاحتجاجات في جوّ من الانفتاح، والإمام يحاول أن يلتقط لحظات مهمّة للاستفادة منها.

هشام بن عبد الملك أمر بأن يُرحَّل الإمام الباقر عليه السلام من المدينة إلى الشام، فكان الإمام عليه السلام يقعد مع الناس في مجالسهم، فبينا هو قاعد وعنده جماعة من الناس يسألونه إذ نظر إلى النصارى يدخلون في جبل هناك، فقال: «ما لهؤلاء؟ ألهم عيد اليوم؟».

فقالوا: لا يا ابن رسول الله ولكنَّهم يأتون عالماً لهم في هذا الجبل في كلّ سنة في هذا اليوم، فيخرجونه فيسألونه عمَّا يريدون، وعمَّا يكون في عامهم.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «وله علم؟».

---

(١) الكافي ٨: ٣٤٩/ ح ٥٤٨.

فقالوا: هو من أعلم الناس، قد أدرك أصحاب الحواريين من أصحاب عيسى عليه السلام.

قال: «فهل نذهب إليه؟».

قالوا: ذاك إليك يا ابن رسول الله.

قال: فقنَّع أبو جعفر عليه السلام رأسه بثوبه، ومضى هو وأصحابه، فاختلطوا بالناس حتَّى أتوا الجبل، فقعد أبو جعفر عليه السلام وسط النصارى هو وأصحابه، وأخرج النصارى بساطاً، ثمّ وضعوا الوسائد، ثمّ دخلوا فأخرجوه، ثمّ ربطوا عينيه، فقلب عينيه كأنَّهما عينا أفعى، ثمّ قصد إلى أبي جعفر عليه السلام، فقال: يا شيخ، أمنّا أنت أم من الأمّة المرحومة؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: «بل من الأمّة المرحومة».

فقال: أفمن علمائهم أنت أم من جهّالهم؟

فقال: «لست من جهّالهم».

فقال النصراني: أسألك أم تسألني؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: «سلني».

فقال النصراني: يا معشر النصارى، رجل من أمّة محمّد يقول: سلني، إنَّ هذا لَمَليء بالمسائل.

ثمّ قال: يا عبد الله، أخبرني عن ساعة ما هي من الليل ولا من النهار أيّ ساعة هي؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: «ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس».

فقال النصراني: فإذا لم تكن من ساعات الليل ولا من ساعات النهار، فمن أيّ الساعات هي؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: «من ساعات الجنّة، وفيها تفيق مرضانا».

فقال النصراني: فأسألك أم تسألني؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: «سلني».

فقال النصراني : يا معشر النصارى، إنَّ هذا لمليء بالمسائل، أخبرني عن أهل الجنّة كيف صاروا يأكلون ولا يتغوَّطون، أعطني مثلهم في الدنيا؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: «هذا الجنين في بطن أُمّه يأكل ممَّا تأكل أُمّه ولا يتغوَّط».

فقال النصراني: ألم تقل: ما أنا من علمائهم؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: «إنَّما قلت لك: ما أنا من جهّالهم».

فقال النصراني: فأسألك أو تسألني؟

فقال أبو جعفر: «سلني».

فقال: يا معشر النصارى، والله لأسألنَّه عن مسألة يرتطم فيها كما يرتطم الحمار في الوحل.

فقال له: «سل».

فقال: أخبرني عن رجل دنا من امرأته فحملت باثنين حملتهما جميعاً في ساعة واحدة، وولدتهما في ساعة واحدة، وماتا في ساعة واحدة، ودُفنا في قبر واحد، عاش أحدهما خمسين ومائة سنة، وعاش الآخر خمسين سنة، من هما؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: «عُزير وعزرة، كانا حملت أُمّهما بهما على ما وصفت، ووضعتهما على ما وصفت، وعاش عزير وعزرة كذا وكذا سنة، ثمّ أمات الله تبارك وتعالى عزيراً مائة سنة، ثمّ بُعث وعاش مع عزرة هذه الخمسين سنة، وماتا كلاهما في ساعة واحدة».

فقال النصراني: يا معشر النصارى، ما رأيت بعيني قطّ أعلم من هذا الرجل، لا تسألوني عن حرف وهذا بالشام، ردّوني.

قال: فردّوه إلى كهفه، ورجع النصارى مع أبي جعفر عليه السلام[(١)].

هذا هو الدفاع عن ثقافة الأمّة، وصيانتها فكرياً، وترشيد وعيها سياسياً، فالإمام الباقر عليه السلام كانت مهمّته بناء الوعي الثقافي السياسي.

الخطّ الثالث: عدم الدخول في مواجهة مع السلطة:

كان ذلك من الخطوط المهمّة التي اعتمدها الإمام عليه السلام، فقد كان يرى أنّ كلّ حركة مسلّحة ضدّ السلطة هي حركة خاسرة، وهذا بخلاف زيد بن علي عليه السلام الذي دخل في مواجهة مع السلطة.

سوف تسألون أنّ زيداً هو أخو الإمام الباقر عليه السلام، وثورته كانت بعد الإمام الباقر عليه السلام، وحينما كان يحدّث نفسه في ثورة كان الإمام الباقر عليه السلام يقول له: «أعيذك بالله يا أخي أن تكون غداً المصلوب بالكناسة»[(٢)].

السؤال هو: هل أنّ الإمام الباقر عليه السلام يقبل بالتحرّك الثوري ضدّ السلطة أم لا؟

وهل كانت ثورة زيد شرعية، أم لا؟

فإذا كان الإمام المعصوم في وقته لا يقبل المواجهة، فهل يعني ذلك أنّ ثورة زيد لم تكن شرعية؟

والرواية عن جابر الجعفي تقول: لمَّا أزمع زيد بن علي على الخروج قلت له: إنّي سمعت أخاك يقول كذا وكذا، فقال لي: (يا جابر، لا يسعني أن أسكت وقد خولف كتاب الله وتحوكم إلى الجبت

(١) الكافي ٨: ١٢٢/ ح ٩٤.

(٢) الكافي ١: ٣٦٥/ باب ما يفصل بين دعوى المحقّ والمبطل في أمر الإمامة/ ح ١٦.

والطاغوت، وذلك إنّي شهدت هشاماً ورجل عنده يسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلت للساب: ويلك يا كافر، أما إنّي لو تمكّنت منك لاختطفت روحك وعجّلتك إلى النار، فقال لي هشام: مَهْ عن جليسنا يا زيد. فوَالله إن لم يكن إلاّ أنا ويحيى ابني لخرجت عليه وجاهدته حتّى أفنى)[1].

فإذا كان الإمام لا يؤمن بالمواجهة، فهل يعتبر هذا التحرّك شرعياً، أم لا؟

هنا كان الإمام السيّد الخوئي قدس سره وباقي فقهاءنا درسوا وناقشوا هذا الموضوع علمياً، وكانت نتيجة البحث العلمي الإيمان بأنّ زيداً كان إنساناً مخلصاً صادقاً تقيّاً زكياً، وكانت ثورته بعلم من الإمام المعصوم، والإمام برغم أنّه لم يباشر الثورة بنفسه، لكنَّه لم يكن يمنع من قيام الثورة، والسيّد الخوئي قدس سره يحقّق هذا الأمر في كتابه (معجم رجال الحديث)[2] في ترجمة زيد بن علي، ويستعرض الروايات في زكاة هذا الإنسان وطهارته وعلوّ شأنه، ثمّ يناقش تسع روايات جاءت في تضعيف زيد بن علي، ويقول: إنَّها غير صحيحة، ثمّ يؤيّد نظرية أنّ زيداً كان إنساناً تقيّاً مخلصاً صادقاً. وهذا ما يقرؤه عن الشيخ المفيد وهو من كبار فقهاء الشيعة، يقول:

(وكان زيد بن علي بن الحسين عليه السلام عين إخوته بعد أبي جعفر عليه السلام وأفضلهم، وكان عابداً ورعاً فقيهاً سخيّاً شجاعاً، ظهر بالسيف يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويطلب بثارات الحسين عليه السلام). ثمّ يستعرض السيّد الخوئي الروايات الجميلة في هذا الشأن التي يقول فيها الإمام الباقر عليه السلام: «لا تقولوا خرج زيد، فإنّ زيداً كان عالماً صدوقاً، لم

---

(١) تيسير المطالب: ١٠٨.

(٢) معجم رجال الحديث ٨: ٣٥٧/ رقم ٤٨٨٠، ترجمة زيد بن علي.

يدعكم إلى نفسه، إنَّما دعاكم إلى الرضا من آل محمّد، ولو ظهر لوفى بما دعاكم إليه. إنَّما خرج إلى سلطان مجتمع ينقضه».

ثمّ يقول السيّد الخوئي: وقد استفاضت الروايات في مدح زيد وجلالته، وأنَّه طلب بخروجه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منها: ما جاء عن الصادق عليه السلام أنَّه قال عن زيد:

«رحمه الله، أما إنَّه كان مؤمناً، وكان عارفاً وكان عالماً وكان صدوقاً، أما أنَّه لو ظفر لوفى أما إنَّه لو ملك لعرف كيف يضعها»(١)، ويذكر روايات أخرى عن الباقر عليه السلام.

إذن، الإمام الباقر عليه السلام رغم أنَّه اختار عدم المواجهة، لكنَّه لا يمنع من أن يحمل الراية غيره ويدخل المواجهة إذا كان تقيّاً صادقاً مخلصاً.

الموقف السياسي يحدّده الإمام عليه السلام:

ولنعد للحديث عن منهج الإمام الباقر عليه السلام:

هناك رواية تقول: إنَّ الإمام الحسين عليه السلام خطب أصحاب الحرّ، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، فلم يغيّر ما عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»(٢).

وهنا يأتي السؤال: كيف نفسّر منهج الإمام الباقر عليه السلام العلمي وابتعاده عن الثورة إذا كانت واجبة كما يقول الإمام الحسين عليه السلام في هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) بحار الأنوار ٤٧: ٣٢٣.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٨٥.

الجواب: إنَّ تشخيص الموقف التفصيلي السياسي إنَّما هو بيد الإمام المعصوم عليه السلام. حيث إنَّ هناك موقفين: موقف نسمّيه موقفاً شرعياً ثابتاً لا يتغيَّر، وموقف سياسي متحرّك يتغيَّر.

مثال الموقف الشرعي الثابت: ﴿أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾ (البقرة: ٢٧٥)، فلا يمكن أن يأتي إمام ويقول: البيع حرام والربا حلال، هذه أحكام إلهية ثابتة لا تتغيَّر، «حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمّد حرام إلى يوم القيامة»[١]، ﴿ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)، هذا نموذج لأحكام ومواقف شرعية ثابتة لا تتغيَّر، لكن الموقف السياسي يتغيَّر، مثال ذلك: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله في مكّة المكرَّمة ما كان مأذوناً له بالقتال، ولهذا فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان عندما يمرُّ على ياسر وعمّار وهم تحت السياط يقول: «صبراً آل ياسر»[٢]، وحتَّى قُتل ياسر تحت التعذيب ولم يقاتل رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ هاجر للمدينة المنوَّرة، وبدأ النبيّ صلى الله عليه وآله يحشّد القوّات، وحدثت معركة بدر، وأُحُد، وحنين... لأنَّ الموقف السياسي تغيَّر، إذن كان الموقف متحرّكاً ومتغيّراً.

والسؤال من الذي يحدّد الموقف؟

الجواب: أنَّ الحكم الشرعي يحدّده الله تعالى، لكن الموقف السياسي يحدّده الإمام الشرعي، سواء كان نبيّاً أو وصيّاً أو وليّاً، اليوم صلح، وغداً حرب، تحديد الموقف السياسي هو بيد الإمام وصلاحيته، والأمّة مسؤوليتها الطاعة والاتّباع، وهذه من امتيازات شيعة أهل البيت عليهم السلام، يقولون: الموقف الشرعي ثابت، لكن الموقف السياسي نراجع به قادتنا وأئمّتنا، ولهذا فإنَّ الإمام الحسين حينما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «من رأى سلطاناً جائراً...».

---

(١) الرواية عن الصادق عليه السلام، الكافي ١: ٥٨/ باب البدع والرأي والقياس/ ح ٢٢.

(٢) السيرة النبويّة لابن هشام ١: ٢١١.

وهكـذا أوضـح الحسـين عليه السلام موقفـه الشـرعي إلـى سـليمان بـن صـرد والتزامه بموقف إمامه الحسن عليه السلام من الصلح كما مرَّ سابقاً[(١)(٢)].

علاقة العراق بالإمام الباقر عليه السلام:

يقـول أبـو حمـزة الثمـالي: كنـت جالسـاً فـي مسـجد رسـول الله صلى الله عليه وآله، إذ أقبل رجل فسلَّم وقال: من أنت يا عبد الله؟

قلت: أنا رجل من أهل الكوفة.

قال: أتعرف أبي جعفر محمّد بن علي الباقر؟

قلت: نعم، فما حاجتك إليه؟

قـال: هيَّـأت لـه أربعـين مسـألة أسـأله عنهـا، فمـا كـان مـن حـقّ أخذتـه، وما كان من باطل تركته.

فقلت له: هل تعرف ما بين الحقّ والباطل؟

قال: نعم.

قلت: فما حاجتك إليه إذا كنت تعرف ما بين الحقّ من الباطل؟

قال: يا أهل الكوفة، إنَّكم قوم لا تطاقون. إذا رأيت أبا جعفر فأخبرني.

فمـا انقطع كلامـي معه حتَّى أقبـل أبـو جعفر عليه السلام وحولـه أهـل خراسـان

---

(١) أنظر (ص ٢٥٧).

(٢) كتب جعدة بن هبيرة بن أبي وهب إلى الحسين عليه السلام، وكان أمحضهم حبّاً ومودّة: (أمَّا بعد، فإنَّ من قبلنا من شيعتك متطلّعة أنفسهم إليك، لا يعدلون بك أحداً، وقد كانوا عرفوا رأي الحسن أخيك في دفع الحرب، وعرفوك باللين لأوليائك، والغلظة على أعدائك، والشدّة في أمر الله، فإن كنت تحبّ أن تطلب هذا الأمر فاقدم علينا، فقد وطّنا أنفسنا على الموت معك). فكتب إليهم: «أمَّا أخي فأرجو أن يكون الله قد وفَّقه وسدَّده فيما يأتي، وأمَّا أنا فليس رأيي اليوم ذلك، فالصقوا رحمكم الله بالأرض، واكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنّة ما دام معاوية حيّاً، فإن يحدث الله به حدثاً وأنا حيّ، كتبت إليكم برأيي والسلام» الأخبار الطوال: ٢٢١ و٢٢٢.

وغيرهم يسألونه عن مناسك الحجّ، فمضى حتَّى جلس مجلسه وجلس الرجل قريباً منه، فجلست حيث أسمع الكلام وحوله عالم من الناس، فلمَّا قضى حوائجهم وانصرفوا التفت إلى الرجل، فقال له: «من أنت؟».

قال: أنا قتادة بن دعامة البصري.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: «أنت فقيه أهل البصرة؟».

قال : نعم.

فقال له أبو جعفر عليه السلام: «ويحك يا قتادة، إنَّ الله جلَّ وعزَّ خلق خلقاً من خلقه فجعلهم حججاً على خلقه، فهم أوتاد في أرضه، قوّام بأمره، نجباء في علمه، اصطفاهم قبل خلقه أظلّة عن يمين عرشه».

قال: فسكت قتادة طويلاً، ثمّ قال: أصلحك الله، والله لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدّام ابن عبّاس فما اضطرب قلبي قدام واحد منهم ما اضطرب قدامك.

قال له أبو جعفر عليه السلام: «ويحك، أتدري أين أنت؟ أنت بين يدي ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ (النور: ٣٦ و٣٧)، فأنت ثمّ، ونحن أولئك.

فقال له قتادة: صدقت والله، جعلني الله فداك، والله ما هي بيوت حجارة ولا طين.

قال قتادة: فأخبرني عن الجبن؟

قال: فتبسَّم أبو جعفر عليه السلام، ثمّ قال: «رجعت مسائلك إلى هذا؟»، قال: ضلَّت عليَّ. فأجابه عليه السلام[1].

---

(١) الكافي: ٦: ٢٥٦/ باب ما ينتفع من الميتة.../ ح ١.

أبـو حمـزة الثمـالي هـو واحـد مـن شـيعة أهـل البيـت عليهم السلام، فقـال للسـائل: (إذا كنـت تعـرف الحـقّ مـن الباطـل، فلمـاذا تسـأل إذن؟)، فقـال لـه: (أنتم لا تُطاقون يا أهل الكوفة).

وشـاهد الحـديث هـو الـربط بـين آل البيـت عليهم السلام، وبـين أهـل الكوفـة الـذين عُرفـوا بـولائهم وقـدرتهم علـى النقـد العلمـي. وهـذا يتكـرَّر كثيـراً، بحيث يلفتنـي هـذا التكـرار، حيـث نلاحـظ أنَّ أهـل البيـت عليهم السلام مـوطنهم فـي المدينـة، لكـن قـومهم وأصـحابهم فـي العـراق، حتَّـى نجـد الإمـام الصـادق والبـاقر عليهما السلام جالسـين فـي مسـجد النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم والعراقيـون يحيطـون بهـم أيّـام موسم الحجّ، ثمّ التحق بهم أهل خراسان.

قال الأبرش الكلبي لهشام بن عبد الملك بن مروان حينما سأله مشيراً إلى الإمام الباقر عليه السلام في المسجد: من هذا الذي احتوشه أهل العراق ويسألونه؟

قـال: هـذا نبـيّ الكوفـة، يـزعم أنَّـه ابـن رسـول الله، وبـاقر العلـم، ومفسّـر القرآن...(١)!

محمّـد بـن مسـلم هـو أحـد الفقهـاء الكبـار، ومـن الـرواة عـن الإمـام البـاقر عليه السلام، ومـن الأقطـاب فـي أصـحاب أهـل البيـت عليهم السلام، ذهـب زائـراً للمدينة من العراق، يقول:

خرجـت إلـى المدينـة وأنـا وجـع ثقيـل، فقيـل لـه عليه السلام: محمّـد بـن مسـلم وجِع ثقيـل، فأرسـل إلـيَّ أبـو جعفـر عليه السلام بشـراب مـع الغـلام مغطّـى بمنـديل، فناولنيـه الغـلام وقـال لـي: اشـربه، فإنَّـه قـد أمرنـي أن لا أرجـع حتَّـى تشـربه، فتناولـت، فـإذا رائحـة المسـك منـه، وإذا شـراب طيّـب الطعـم بـارد،

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٢٩.

فلمَّا شربته قال لي الغلام: يقول لك: إذا شربت فتعال إليَّ، ففكَّرت فيما قال لي ولا أقدر على النهوض قبل ذلك على رجلي، فلمَّا استقرَّ الشراب في جوفي فكأنَّما نشطت من عقال، فأتيت بابه فاستأذنت عليه، فدخلت وأنا باكٍ، فسلَّمت وقبَّلت يده ورأسه، فقال لي: «وما يبكيك يا محمّد؟».

فقلت: جُعلت فداك أبكي على اغترابي، وبعد الشقّة، وقلّة المقدرة على المقام عندك والنظر إليك.

فقال لي: «أمَّا قلّة المقدرة، فكذلك جعل الله أولياءنا وأهل مودَّتنا، وجعل البلاء إليهم سريعاً.

وأمَّا ما ذكرت من الغربة، فلك بأبي عبد الله عليه السلام أسوة بأرض ناء عنّا بالفرات.

وأمَّا ما ذكرت من بعد الشقّة، فإنَّ المؤمن في هذا الدنيا غريب، وفي هذا الخلق منكوس، حتَّى يخرج من هذه الدار إلى رحمة الله.

وأمَّا ما ذكرت من حبّك قربنا والنظر إلينا وإنَّك لا تقدر على ذلك، فالله يعلم ما في قلبك، وجزاؤك عليه»(١).

هذه المفاهيم هي التي ثبتت شيعة أهل البيت عليهم السلام، ونحن نعتقد في الروايات التي تقول: إنَّ الله اختار للإيمان أمماً وشعوباً، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ الله تبارك وتعالى أطلع إلى الأرض فاختارنا، واختار لنا شيعة، ينصروننا، ويفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا، ويبذلون أموالهم وأنفسهم فينا، أولئك منّا وإلينا»(٢)، هذا يعود إلى الخلقة، أنَّ هناك أمماً تفضَّل عليها الله تبارك وتعالى منذ خلقها، فلو سألت نفسك: ماذا فعل الحسين عليه السلام بأهل العراق حتَّى رأى منهم

(١) الاختصاص: ٥٢.

(٢) الخصال: ٦٣٥/ حديث الأربعمائة.

هذه المحبّة على طول العصور؟ لا تعرف جواباً، قرون متَّصلة من الظلم كلّها بهدف محو ذكر الحسين عليه السلام وقمع شيعة الحسين عليه السلام، لكن أُنظروا ما الذي يحدث الآن في العراق من تفاني في حبّ الحسين عليه السلام؟ هذا كيف نفسّره؟ ولماذا لا نجد مثل ذلك لدى شعوب ودول أخرى مثل الحجاز والشام وغيرها؟

تأتي النظرية التي تقول: إنَّ الله تبارك وتعالى اختار هذا الشعب اختياراً خاصّاً لكي يكون مرتبطاً بأهل البيت عليهم السلام، وهنا لسنا بصدد مناقشة الكاتب (حسن العلوي)، فقد تناولنا فيما سبق مناقشته[1]، والذي قال: إنَّ الشعب العراقي لم ينتم لعمر بن الخطّاب، وكان يجب على الشعب العراقي أن يكون عمرياً؛ لأنَّ عمر هو الذي فتح العراق!! وهذا حديث مهزلة وليس حديثاً علمياً. إنَّ كلّ حاكم من هؤلاء الحكّام الأمويين والعبّاسيين والعثمانيين قد فتح فتوحات!! فهل الأساس في الولاء هو أنَّ كلّ أمير يفتح بلاداً يجب على تلك البلاد أن يكونوا أتباعاً له؟ هذا ليس تحليلاً علمياً، وقيمنا القرآنية تذكر شيئاً آخر، تقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)، أمَّا القائد العسكري فمن يكون؟ تلك مسألة أخرى.

هناك سرّ في أصل طينة العراق (شيعة العراق)، حيث نلاحظ رسوخ هذه العلاقة الخاصّة مع أهل البيت عليهم السلام، بحيث يقول هشام بن عبد الملك للأبرش الكلبي: هذا نبيّ الكوفة، وهو يتحدَّث عن الإمام الباقر عليه السلام.

وقد صرَّح ابن طاووس فقال: فقد ورد النهي عن ذمّ أهل العراق، كما مرَّ ذكره سابقاً[2].

لماذا؟

---

(١) أنظر (ص ١٦٥) تحت عنوان: عُمَر والتشيّع.

(٢) أنظر (ص ١٦٨) تحت عنوان: قراءتان للهوية العراقية.

هناك خصوصية ارتباط بأهل البيت عليهم السلام، فلا يجوز ذمّهم.

ثقافتنا، وتراثنا الديني يقول: إنَّ الانطلاقة العالميّة لإمام العصر عليه السلام ستكون من العراق، وبالفعل فقد أصبحنا اليوم نقترب من تلك الآمال، واستعداد هذا الشعب العظيم والرائع والمهول. واليوم العالم لم يرَ هكذا مشاهد، فلينظر العالم ما الذي يجري الآن في العراق، فهم يزعمون أنَّها فتنة واقتتال داخلي، فهذه الملايين على ماذا يبكون؟ على شخص اسمه الحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، فليقف وليعرف العالم ما هي القضيّة؟ أليست هي إرادة الله؟

هناك إرادة إلهية، لا يمكن أن نعطي تفسيراً آخراً، وهذا إعداد لشيعة أهل البيت عليهم السلام في العراق ليوم قريب بإذن الله، وترون الحركات التي تظهر يومياً والأجواء التي تتهيَّأ، والآن العالم يتهيَّأ للإمام المصلح المنتظر، والإصلاح العالمي نحن ندَّعي ولدينا أدلّتنا على ذلك أنَّ القائد المصلح الأعظم هو إمامنا صاحب العصر والزمان، وأمّته هي هذه الأمّة المباركة أمّة أهل البيت عليهم السلام، والإصلاح العالمي لا يأتينا من أوربا ولا من الغرب، بل نحن الذين نعطي الإصلاح العالمي لأوربا والغرب والعالم.

* * *

الدراسة الحادية عشرة:

بين الإمام الحسين عليه السلام
والإمام الصادق عليه السلام

- هل هناك اختلاف في المنهج؟
- مبدأ التقية بين الحسين والصادق عليهما السلام.
- الدفاع عن مصادر التشريع.

قال إمامنا الحسين عليه السلام فيما روي عنه: «اللّهمّ إنَّك تعلم أنَّه لم يكن ما كان منّا تنافساً في سلطان ولا التماساً من فضول الحطام ولكن لنري المعالم من دينك وتظهر الإصلاح في بلادك ويأمن المظلومون من عبادك ويعمل بفرائضك وسننك وأحكامك»[1].

وقال إمامنا الصادق عليه السلام فيما أوصى به محمّد بن عبد الله بن النعمان، قال: «إنَّ أبي كان يقول: وأيّ شيء أقرّ للعين من التقيّة، إنَّ التقيّة جُنَّةُ المؤمن، ولولا التقيّة ما عُبِدَ الله»[2].

وقال أيضاً: «من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه، كان له مثل أجر ألف شهيد»[3].

الإمام الحسين عليه السلام هو وارث حركة الأنبياء ووارث نبيّنا صلى الله عليه وآله وهو رمز للأئمّة الباقين، وارث آدم صفوة الله وإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله ووارث محمّد حبيب الله، وهكذا هو وارث حركة علي والزهراء والحسن ثمّ هو لمن بعده من الأئمّة كان سراجاً ومناراً ورمزاً.

الإمام الحسين عليه السلام على مستوى الأهداف يقول: «اللهم إنَّك تعلم

---

(١) تحف العقول: ٢٣٩؛ بحار الأنوار ٩٧: ٨١/ ح ٣٧.

(٢) تحف العقول: ٣٠٨؛ بحار الأنوار ٧٥: ٢٧٨/ ح ٢.

(٣) الكافي ٢: ٩٢/ باب الصبر/ ح ١٧.

أنَّه لم يكن ما كان منّا تنافساً في سلطان ولا التماساً من فضول الحطام» وإنَّما كان الهدف هو نصرة الدين.

والإمام الصادق عليه السلام مقارنة بحركة الإمام الحسين عليه السلام قد اتَّخذ أشكالاً أخرى فلم يقم بثورة مسلّحة، إذن ما هي أوجه الشبه بين حركته وحركة الإمام الحسين؟

الإمام الصادق عليه السلام في زمانه تحقَّقت عدّة ثورات ثورة زيد بن علي وثورة محمّد بن عبد الله بن الحسن (ثورات الحسنيين) بينما الإمام الصادق عليه السلام قد انتهج منهجاً علمياً تثقيفياً حتَّى كان له (٤٠٠٠) تلميذ يروون فقه الإمام الصادق.

يقول الحسن الوشا: رأيت في مسجد الكوفة (٩٠٠) شيخ كلّ يقول: (حدَّثني جعفر بن محمّد)[١]، إذن هذا بُعد علمي وتأسيس حوزة علمية، ولهذا فإنَّ الإمام الصادق اعتبر مؤسّساً للمذهب، فحركة الإمام الصادق من حيث الأهداف والنتائج قد لا تبدو متَّفقة مع حركة الإمام الحسين عليه السلام حيث نلاحظ أنَّ الإمام الصادق يؤكّد على الصبر والتقيّة كما مرَّ في بداية الحديث.

هل هناك اختلاف في المنهج؟

والسؤال: هل هناك اختلاف بين منهج الإمام الصادق ومنهج الإمام الحسين؟

قبل أن نقف عند هذا الموضوع أؤكّد أنَّ الإمام الحسين كان عند الأنبياء رمزاً يُذكر، وعند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً رمزاً يذكر، وكذلك عند

(١) راجع: رجال النجاشي: ٤٠/ الرقم ٨٠.

الإمام علي وعند أهل البيت واحداً واحداً، رمزاً خلَّده الأنبياء، والإمام الحسين هو سرُّ نجاح حركتنا وحركة أهل البيت وسرّ بقاء الإسلام، وذكرنا ذلك في سياق أنَّ كلّ ما عندنا هو من بركات الحسين والعراق والعالم الشيعي قائم ببركة الإمام الحسين عليه السلام وسنتحدَّث عمَّا صنعه الإمام الصادق عليه السلام من تأسيسه للمدرسة الفكرية وكذلك تأسيس إحياء ذكر الحسين واعتبارها هي الأصل.

الإمام الصادق عليه السلام اختصَّ في المجال الفقهي والعلمي حتَّى أنَّ المنصور العبّاسي وهو ثاني حاكم عبّاسي قد حاول مرَّات أن يقتل الإمام الصادق عليه السلام وفي واحدة من المرَّات قال له الإمام: «يا أمير المؤمنين أرفق بي فوَالله لقلَّما أصحبك».

فقال المنصور: انصرف، ثمّ قال لعيسى بن علي: ألحقه فسله أبي؟ أم به؟ فخرج يشتدّ حتَّى لحقه، فقال: يا أبا عبد الله إنَّ أمير المؤمنين يقول: أبك؟ أم به؟

قال: «لا، بل بي»[1]، فمات الإمام بعدها في حكم المنصور العبّاسي.

الفكرة هي أنَّ المنصور العبّاسي هو الذي استدعى الإمام من المدينة المنوّرة إلى الحيرة التي تبعد ثلاثة أميال عن الكوفة ويومئذٍ بغداد لم تكن مبنية فجلب المنصور العبّاسي الإمام عليه السلام من المدينة إلى الحيرة وقال لأبي حنيفة: إنَّ الناس قد فُتنوا بجعفر بن محمّد فأحضر له مسائلك كي نعقد حواراً معه، وهكذا يظهر أنَّ الإمام الصادق لم يخض حرباً مسلَّحة ضدّ الأمويين ولا العبّاسيين وذلك لعدّة أمور:

(١) مدينة المعاجز ٥: ٢٥٣/ باب ٦/ ح (٤٣/١٦١٣)؛ بحار الأنوار ٤٧: ١٧١/ ح ١٧.

لماذا لم يخض الإمام الصادق عليه السلام حرباً مسلّحة؟

أوّلاً: أنَّ الإمام الصادق كان يرى العمل المسلَّح غير ناجح في إسقاط الحكم الجائر، ولهذا نجد أنَّ سدير الصيرفي يقول للإمام الصادق: كيف يسعك القعود ولك مئة ألف سيف؟

فلم يجب الإمام، وخرجوا يسيرون خارج المدينة فرأى الإمام قطيعاً من الأغنام فالتفت إليه وقال: «والله يا سدير لو كان لي شيعة بعدد هذه الجداء ما وسعني القعود».

يقول الراوي: ونزلنا وصلَّينا فلما فرغنا من الصلاة عطفت على الجداء فعددتها فإذا هي سبعة عشر[1]، ومعنى ذلك أنَّ الإمام عليه السلام يعرف أنَّه لا يمكن مع دهاء العبّاسيين التحرّك وكسب الجمهور.

وفي رواية أخرى كان شيعة الإمام متحمّسين للثورة فكان الإمام يقول لهم: «اتّقوا الله، عليكم بالطاعة لأئمّتكم، قولوا ما يقولون، واصمتوا عمَّا صمتوا، فإنَّكم في سلطان من قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]».

ويقول الراوي: إنَّه كان يعني به حكم بني العبّاس[2]، أي أنَّ هذا السلطان لا يمكن إزالته بسهولة وبثورة تقومون بها، وبالفعل فلقد قام الحسنيون بثورات عديدة ولكنَّها لم تنجح، ونستطيع أن نفهم ونفترض أنَّ الإمام الصادق عليه السلام كان يرى أنَّ الإمام الحسين سلب الشرعية من هذه الحكومات، فلا حاجة مرَّة أخرى لسلب الشرعية منها، وإنَّما المرحلة بحاجة إلى تثبيت الأسس الفكرية للمذهب.

---

(١) الكافي ٢: ٢٤٣/ باب في قلّة عدد المؤمنين/ ح ٤.

(٢) أمالي الطوسي: ٦٦٧/ ح (٥/١٣٩٨)؛ بحار الأنوار ٣١: ٥٦٦/ ح ٥٣.

لهذا فإنَّ الإمام الصادق كان يرى أنَّ الشرعية مسلوبة من هذه الحكومات وأنَّ الإمام الحسين قد صنع أمراً يبقى خالداً أبد الدهر وهو أنَّ هذه الحكومات لا شرعية لها عند كلّ المسلمين بل في العالم أجمع، فلا أحد ـ ممَّن يحترم مبادئه ونفسه ـ يقول إنَّ حكومة يزيد شرعية ولا مروان ولا المنصور العبّاسي على طول التاريخ، ولقد صار واضحاً عند كلّ المسلمين أنَّ الشرعية بيد أئمّة الدين وأنَّ حكّام الجور لا شرعية لحكوماتهم. وهنا طبعاً اختلف علماء الإسلام على فريقين: فريق يقول بوجوب طاعتهم، لكن هل يعني ذلك أنَّ حكمهم شرعي أم هو غير شرعي؟ فقد أصبحت الرؤية واضحة بشرياً وإسلامياً في أنَّ هؤلاء الذين قتلوا الحسين ومن جاء بعدهم لا شرعية لهم، لقد كان هذا الوضوح بفعل ثورة الحسين ودم الحسين عليه السلام.

وهذه هي أبيات الشاعر الهندي الكبير محمّد إقبال اللاهوري التي كانت وفاته في النصف الأوّل من القرن الماضي وهو يثير حماس المسلمين في الهند رغم أنَّه ليس شيعياً لكنَّه يقول فيها:

يا عبيد الماء والطين اسمعوا	ما هو الفقر الغني الأرفع
هو عرفان سبيل السالكين	وارتواء القلب من عين اليقين
خيبر حرَّرها ذات الفقير	لم يكن ثَمَّ سوى خبز الشعير
إنَّه إيمان بدر وحنين	إنَّه زلزال تكبير الحسين

وعلى أساس ذلك وبعد هذا الإنجاز الذي حقَّقه الحسين على مستوى الرأي العام فإنَّ الأئمّة بعده أصبحوا يتحمَّلون مسؤولية أخرى وهي مسؤولية زعزعة الثقة بحكومات الجور، ورغم أنَّ هذه المسؤولية

قد قام بها الإمام الحسين إلى الأبد لكن الأئمّة الباقين من أهل البيت عليهم السلام يُطلب منهم أن يملئوا فراغاً في الزعامة الدينية وأنَّها لمن؟ وهذا فراغ كبير لأنَّ الحكم قد استقرَّ للسلاطين فأصبحت المعركة ليست معركة سياسية، بل معركة مذاهب فقهية، والإمام الصادق عليه السلام كان عليه أن يملأ فراغاً في الإمامة الدينية والفقهية.

فقد اجتمع سفيان الثوري وهو أحد كبار الفقهاء يومئذٍ مع الإمام الصادق عليه السلام ذات مرَّة فقال له الإمام: «فبأيّ شيء تقضي؟».

قال: بما بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعن أبي بكر، وعن عمر.

قال: «فبلغك أنَّ رسول الله قال: أقضاكم علي بعدي؟».

قال: نعم.

قال: «فكيف تقضي بغير قضاء علي عليه السلام، وقد بلغك هذا؟».

قال: فاصفر وجه ابن أبي ليلى.

ثمّ قال: «التمس مثلاً لنفسك، فوَالله لا أكلمك من رأسي كلمة أبداً»[1].

الفكرة إذن هي أنَّ الإمام بدأ يؤسس المذهب فكرياً، وأنَّ أساس الإسلام هو حبّ أهل البيت عليهم السلام والارتباط بهم، فالإسلام بدون محبّة أهل البيت وبدون الرجوع إليهم يحتاج إلى تصحيح، وليس هو الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الإمام الصادق عليه السلام والثوّار الحسنيون:

ثمّ إنَّ هناك التفاتة جميلة وهي أنَّ الإمام الصادق عاش وشاهد ثورات الحسنيين ومن جملتهم عبد الله بن الحسن الذي ثار على مشارف الديوانية في العراق ويسمّى اليوم: (عبد الله أبو نجم)، والروايات تنقل

---

(١) الاحتجاج ٢: ١٠٣.

بعض الافتراقات بينه وبين الإمام الصادق عليه السلام ثمّ حمله المنصور مخفوراً فبعث له الإمام برسالة رائعة مفصّلة يسليه بها، وهنا توجد نظرية تاريخية جميلة يذهب لها بعض علمائنا مثل العلاّمة المجلسي يقول بأنَّ الإمام الصادق عليه السلام كان راضياً عن هؤلاء ويترحَّم عليهم حيث كان منهجهم منهجاً صحيحاً وأنَّ الإمام الصادق حتَّى إذا لم يكن معهم بالثورة لكن حركتهم الثورية كانت حركة صحيحة، رغم أنَّ الإمام كان عليه أن يحافظ على وجوده لدور آخر وهو دور بناء المدرسة الفكرية.

الإمام مؤسّس لمشروع المجلس الحسيني:

إلى جانب ذلك كان الإمام الصادق عليه السلام قد أسَّس مشروع المجالس الحسينية، وأنَّ هذا المشروع يجب أن يبقى وأن يكون الإمام الحسين عليه السلام هو الرمز والمعلم لدى الشيعة.

الإمام الصادق حين وصل إليه نعي عمّه زيد بن علي بكى وترحَّم عليه ودخل شاعر اسمه فضيل فقال للإمام الصادق: يا سيّدي ألا أنشدك شعراً؟

قال: «أمهل»، ثمّ أمر بستور فسدلت، وبأبواب ففتحت، ثمّ قال: «أنشد»، فأنشدته:

لأُمّ عمرو باللوى مربع ... طامسة أعلامها بلقعُ
لمَّا وقفت العيس في رمسه ... والعين من عرفانه تدمعُ
ذكرت من قد كنت أهوى به ... فبت والقلب شجى موجعُ
عجبت من قوم أتوا أحمدا ... بخطّة ليس لها مدفعُ
قالوا له لو شئت أخبرتنا ... إلى من الغاية والمفزعُ

إذا توليـــــــت وفارقتنـــــــــا ومـنهم فـي الملـك مـن يطمـعُ
فقـــال لــو أخبـــرتكم مفزعـــاً مـــاذا عسـيتم فيــه أن تصــنعوا
صــنيع أهــل العجــل إذ فــارقوا هـــارون فـــالترك لـــه أودعُ
فالنــاس يــوم البعــث راياتهم خمـــس فمنهــا هالـــك أربـــعُ
قائـــدها العجـــل وفرعونهـــا وســـامري الأمّـــة المفظـــعُ
ومجـــدع مـــن دينـــه مـــارق أجـــدع عبـــد لكـــع أوكـــعُ
ورايـــــة قائـــدها وجهـــــه كأنَّـــه الشـــمس إذا تطلـــعُ(١)

وهكذا نجد أنَّ الإمام الصادق كان يؤسّس لتشييد دعائم المذهب فقهياً وعقائدياً ويوظّف الشعراء والرواة والحكماء والعلماء والمتكلّمين في تثبيت دعائم المذهب وتخليد ذكر الحسين عليه السلام.

وأنَّ أكثر ما ورد عندنا من تأكيد على زيارة الحسين والبكاء عليه ونصب المجالس له واردة عن الإمام الصادق عليه السلام.

لقد ذكر عنده الحسين عليه السلام فبكى ثمّ رفع رأسه فقال: «قال الحسين: أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلاَّ بكى»(٢).

ورواية ثانية يقول الراوي: قال الإمام الصادق عليه السلام: «وإنَّه لينظر إلى زوّاره وهو أعرف بهم وبأسماء آبائهم وبدرجاتهم وبمنزلتهم عند الله من أحدكم بولده وما في رحله، وإنَّه ليرى من يبكيه فيستغفر له رحمة له ويسأل أباه الاستغفار له»(٣).

---

(١) بحار الأنوار ٤٧: ٣٢٥/ ح ٢٢.
(٢) كامل الزيارات: ٢١٦/ باب ٣٧/ ح (٦/٣١٣)؛ بحار الأنوار ٤٤: ٢٧٩/ ح ٥.
(٣) كامل الزيارات: ٥٤٤/ باب ١٠٨/ ح (٣/٨٣٠)؛ بحار الأنوار ٢٥: ٣٧٦/ ح ٢٤.

هذا كلّه في الحقيقة تأسيس لمشروع المجالس الحسينية.

وفي رواية معروفة عن الصادق عليه السلام يقول: «تجلسون؟ وتحدّثون؟».

قال: نعم، جُعلت فداك.

قال: «إنَّ تلك المجالس أحبّها، فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيا أمرنا.

يا فضيل من ذَكرنا ـ أو ذُكرنا عنده ـ فخرج من عينيه مثل جناح الذباب، غفر الله ذنوبه ولو كانت أكثر من زبد البحر»[1].

ويدخل عليه أبو هارون المكفوف فقال له الإمام: «يا أبا هارون أنشدني في الحسين عليه السلام».

قال: فأنشدته، فبكى.

فقال: «أنشدني كما تنشدون ـ يعني بالرقّة ـ».

قال: فأنشدته:

أمرر على جدث الحسين ... وقل لأعظمه الزكيّه
يا أعظما لا زلت من ... وطفاء ساكبة رويّه
وإذا مررت بقبره ... فأطل به وقف المطيّه
وابك المطهّر للمطهَّر ... والمطهَّرة النقيّه
كبكاء معولة أتت ... يوماً لواحدها المنيّه

قال: فبكى، وسمعت البكاء من خلف الستر[2].

---

(١) قرب الإسناد: ٣٦؛ بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٢/ ح ١٤.

(٢) كامل الزيارات: ٢٠٨/ باب ٣٣/ ح (١/٢٩٧).

مبدأ التقيّة بين الحسين والصادق عليهما السلام:

كتب إمامنا الحسين عليه السلام رسالة إلى زعماء البصرة يقول فيها:

«وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وآله، فإنَّ السُنّة قد أُميتت، وإنَّ البدعة قد أُحييت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد»(١).

وقال إمامنا الصادق عليه السلام: «إنَّ أبي كان يقول: وأيّ شيء أقرّ للعين من التقيّة، إنَّ التقيّة جُنَّةُ المؤمن، ولولا التقيّة ما عُبِدَ الله»(٢).

فمن خلال النصّين السابقين قد نرى فيه أنَّ خطاب الإمام الحسين عليه السلام كان يختلف عن خطاب الإمام الصادق عليه السلام، حيث نجد أنَّ مبدأ التقيّة هو محور الخطاب الإعلامي لدى الإمام الصادق عليه السلام بينما كان مبدأ التغيير والثورة هو محور الخطاب الإعلامي لدى الإمام الحسين عليه السلام.

الإمام الصادق عليه السلام يروي عن أبيه الباقر عليه السلام ويقول: «التقيّة جُنَّةُ المؤمن ولولا التقيّة ما عُبِدَ الله»، ومعنى ذلك أنَّه لولا التقيّة لم يبقَ الدين الإسلامي على وجه الأرض وما عُبد الله أبداً، وقد تقول هنا: إنَّ الإمام الحسين لم يستخدم التقيّة، فحينما كتب إلى زعماء البصرة قال لهم: «إنَّ السُنّة قد أُميتت والبدعة قد أُحييت» فتعالوا انتصروا لدينكم واخرجوا على السلطان الجائر، فأين مبدأ التقيّة؟ ولِمَ لم يعمل به الإمام الحسين؟

هنا لدينا مجموعة وقفات وتأمّلات:

نقف عند هذه الرواية التي يرويها محمّد بن عبد الله بن النعمان عن الإمام الصادق عليه السلام عن الباقر عليه السلام يقول: «التقيّة جُنَّةُ المؤمن» كما جاء في كتاب

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٢٥.

(٢) تحف العقول: ٣٠٨؛ بحار الأنوار ٧٥: ٢٧٨/ ح ٢.

(تحف العقول) للحرّاني، والراوي قد يدمج ويسمّى محمّد بن النعمان وهو أحد الدعائم الأربعة التي شُيّد عليها صرح المذهب الجعفري وهم أربعة تلاميذ كبار في زمن الإمام الصادق والباقر عليهما السلام.

يقول الإمام الصادق عليه السلام بشأن هؤلاء: «أربعة أحبُّ الناس إليَّ أحياءً وأمواتاً: بريد العجلي، وزرارة بن أعين، ومحمّد بن مسلم، والأحول أحبُّ الناس إليَّ أحياءً وأمواتاً»[١].

ولقد كان محمّد بن النعمان يلقَّب بمؤمن الطاق، فقد كان في الكوفة سوق مظلَّل ومسقَّف ومحمّد هذا كان صرّافاً فيه فسُمّي: (مؤمن الطاق) نسبة إلى السوق. وكان محمّد بن النعمان غاية في الذكاء وسرعة البديهة، وكان الإمام الصادق عليه السلام يعتمد عليه في المناقشة ويثق بقدرته حيث كان كالصقر عندما ينقض على فريسته وكان معاصراً لأبي حنيفة الذي هو من أئمّة المذاهب الأربعة.

قال أبو حنيفة مرَّةً لمؤمن الطاق: إنَّكم تقولون بالرجعة؟

قال: نعم.

قال أبو حنيفة: فأعطني الآن ألف درهم حتَّى أعطيك ألف دينار إذا رجعنا.

قال الطاقي لأبي حنيفة: فأعطني كفيلاً بأنَّك ترجع إنساناً ولا ترجع خنزيراً[٢].

وفي قصَّة أخرى قال له أبو حنيفة: لِمَ لم يطالب علي بن أبي طالب عليه السلام بحقّه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله إن كان له حقّ؟

---

(١) كمال الدين: ٧٦؛ بحار الأنوار ٤٧: ٣٤٠/ ح ٢٣.

(٢) الاحتجاج ٢: ١٤٨؛ بحار الأنوار ٤٧: ٣٩٩/ ح ١.

فأجابه مؤمن الطاق: خاف أن تقتله الجنّ كما قتلوا سعد بن عبادة بسهم المغيرة بن شعبة[١].

وذلك حين لم يبايع سعد فقتلوه في الصحراء وقالوا: قتله الجنّ وأنشدوا شعراً على لسان الجنّ:

قد رمينا سيّد الخزرج سعد بن عباده فأصبناه بسهمين فلم نُخطئ فؤاده[٢]

هذه إجابات فيها بعد علمي وتاريخي كما فيها ظرافة وطرافة.

ومن ذلك أنَّ أبا حنيفة كان يتماشى مع مؤمن الطاق في سكّة من سكك الكوفة، إذا منادٍ ينادي: من يدلّني على صبي ضالّ؟

فقال مؤمن الطاق: أمَّا الصبي الضالّ فلم نرَه، وإن أردت شيخاً ضالاً فخذ هذا، عني به: أبا حنيفة[٣].

ما هو مبدأ التقيّة؟

عُرف الشيعة بالخصوص بأنَّهم يؤمنون بمبدأ التقيّة وهو يعني أنَّك إذا تعرَّضت لخطر تستطيع أن تكتم إيمانك وتُظهر للعدوّ غير ما هو في قلبك كما يقول القرآن الكريم في قصَّة مؤمن آل فرعون: ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ (غافر: ٢٨)، فلا يصحّ أن تكون ساذجاً وبسيطاً فتمكّن عدوّك منك بالخصوص في زمان القتل على الهوية من معاوية بن أبي سفيان إلى زمان المنصور العبّاسي الذي عاصر الإمام الصادق عليه السلام فهؤلاء قد شرَّعوا القتل على الهوية كما في قصَّة حجر بن عدي وأشير هنا إلى

(١) الاحتجاج ٢: ١٤٨؛ بحار الأنوار ٢٩: ٤٤٢/ ح ٣٦.

(٢) راجع: بحار الأنوار ٢٨: ٣٦٦.

(٣) الاحتجاج ٢: ١٤٩؛ بحار الأنوار ٤٧: ٣٩٩.

كتاب (الحسين في مواجهة النضال الأموي) للعلاّمة السيّد سامي البدري وهو كتاب جيّد وعميق وتاريخي حيث يذكر بشكل مفصَّل قصَّة حجر بن عدي فقد ألقي القبض عليه وجاء كتاب معاوية يقول: إمَّا أن تعلنوا البراءة من علي أو تُقتلوا، بلا جريرة أو جناية أو خروج على سلطان فقط حبُّ علي وبعدئذٍ قُتلوا على الهوية، وحجر هو صاحب أمير المؤمنين عليه السلام الذي قال فيه: «يا حجر كيف بك إذا أوقفت على منبر صنعاء، وأمرت بسبّي والبراءة منّي؟»[1].

قال عليه السلام: «فأمَّا السبّ فسبّوني فإنَّه لي زكاة ولكم نجاة. وأمَّا البراءة فلا تتبرَّؤوا منّي فإنّي قد ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة»[2].

فالتقيّة إذن هي مبدأ إنساني والشرع هو أبو الإنسانية فلا يسمح لك أن تتعرَّض إلى خطر وأنت تستطيع الدفاع عن نفسك بكتمان عقيدتك ومذهبك.

الشيعة يعتقدون أنَّ هذا المبدأ قد سنَّه القرآن الكريم قبل أهل البيت فيقول تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً﴾ (آل عمران: ٢٨)، بمعنى إلاَّ إذا كنت مضطرّاً، مثلما تخلَّص عمّار بن ياسر حيث لم يطق التعذيب فتكلَّم بكلمات ثمّ جاء معتذراً إلى رسول الله فقال له صلى الله عليه وآله: «يا عمّار إن عادوا فعد»[3].

علماء التفسير أيضاً من السُنّة والشيعة يقولون: إنَّ هذه الآية أحد دلالاتها هو مبدأ التقيّة، والحقيقة أنَّ علماء السُنّة قالوا: إنَّ التقيّة واجبة إذا كنت تتعرَّض إلى الاضطهاد من قبل الكافرين، ونحن الشيعة تعرَّضنا

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ١٠٤؛ بحار الأنوار ٣٩: ٣١٧/ ح ١٧.

(٢) نهج البلاغة ١: ١٠٦/ ح ٥٧.

(٣) راجع: الكافي ٢: ٢١٩/ باب التقيّة/ ح ١٠.

إلى اضطهاد على طول التاريخ من قبل الحكّام الجائرين أيضاً ولجأنا إلى التقيّة أمَّا غيرنا فإنَّه لم يتعرَّض لذلك، وكانت تفرش لهم الموائد وتفتح لهم البلاطات، ولذا لم يكونوا مضطرّين للتقيّة.

الفخر الرازي وهو إمام المفسّرين عند أبناء العامّة عندما يستعرض آية التقيّة يقول: إنَّ هذه الآية تدلُّ على مبدأ التقيّة وظاهرها يدلُّ على أنَّ التقيّة تحلّ مع الكفّار الظالمين، إلاَّ أنَّ المذهب الشافعي يرى أنَّ الحالة مع المسلمين إذا شاكلت الحالة مع الكافرين أيضاً جازت لهم التقيّة.

ملاحقات الحكم العبّاسي للشيعة:

ففي زمن المنصور كان يُقتل من اسمه علي وفي مثل هكذا ظروف يجب العمل بالتقيّة وعلى كلّ الأحوال فإنَّ مبدأ التقيّة هو مبدأ أصَّله الإسلام والقرآن ولكن الإمام الصادق عليه السلام بلوره ورسَّخه وبرز مبدأ التقيّة، كما برزت كثير من مبادئنا في ظلّ مدرسة الإمام الصادق عليه السلام خاصّة وإنَّه كانت في زمانه الملاحقات من قبل أبي جعفر المنصور العبّاسي بدرجة عالية جدّاً ممَّا اضطرَّ الإمام في سبيل الحفاظ على الإسلام والمسلمين والشيعة بالخصوص إلى أن يعملوا بمبدأ التقيّة.

الإمام الصادق عليه السلام كانت مدّة إمامته (٣٤) سنة، وهي أطول مدّة قياساً إلى الأئمّة السابقين، منها (٨) سنوات في حكم بني العبّاس، والباقي كان على عهد الحكومة المروانية المنهارة، واستطاع الإمام الصادق عليه السلام في فترة انهيار الحكم الأموي وبداية الحكم العبّاسي أن يربّي جيلاً فكرياً كبيراً وينشر الفكر الإسلامي الصحيح وحينما جاء المنصور في السنة الأولى والثانية بدأ الرعب بدرجة كبيرة.

المؤرّخون يروون في قصَّة طفل أمر المنصور العبّاسي أن يُدفن في الأسطوانة ويبنى عليه وهو حيّ تقول الرواية: إنَّه لمَّا بنى المنصور الأبنية ببغداد جعل يطلب العلوية طلباً شديداً ويجعل من ظفر منهم في الأسطوانات المجوَّفة المبنية من الجصّ والآجر، فظفر ذات يوم بغلام حسن الوجه عليه شعر أسود من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام فسلَّمه إلى البنّاء الذي كان يبني له وأمره أن يجعله في جوف أسطوانة ويبني عليه ووكَّل عليه من ثقاته من يراعي ذلك حتَّى يجعله في جوف الأسطوانة بمشهده، فجعله البنّاء في جوف الأسطوانة فدخلته رقَّة عليه ورحمة له فترك في الأسطوانة فرجة يدخل منها الروح، وقال للغلام: لا بأس عليك فاصبر فإنّي سأخرجك من جوف هذه الأسطوانة إذا جنَّ الليل، فلمَّا جنَّ الليل جاء البنّاء في ظلمة فأخرج ذلك العلوي من جوف تلك الأسطوانة وقال له: اتَّق الله في دمي وغيّب شخصك فإنّي إنَّما أخرجتك ظلمة هذه الليلة من جوف هذه الأسطوانة لأنّي خفت إن تركتك في جوفها أن يكون جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة خصمي بين يدي الله عز وجل، ثمّ أخذ شعره بآلات الجصّاصين كما أمكن وقال: غيّب شخصك وانج بنفسك ولا ترجع إلى اُمّك، فقال الغلام: فإن كان هذا هكذا فعرّف اُمّي أنّي قد نجوت وهربت لتطيب نفسها ويقلُّ جزعها وبكاؤها. وإن لم يكن لعودي إليها وجه، فهرب الغلام ولا يدرى أين قصد من وجه أرض الله تعالى ولا إلى أيّ بلد وقع؟!

قال ذلك البنّاء: وقد كان الغلام عرَّفني مكان اُمّه وأعطاني العلامة فأنهيت إليها في الموضع الذي دلَّني عليه فسمعت دويّاً كدويّ النحل من البكاء فعلمت أنَّها اُمّه فدنوت منها وعرَّفتها خبر ابنها وأعطيتها شعره وانصرفت[1].

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٠٢/ باب ٩/ ح ٢.

هـذا تـاريخ أسـود رهيـب فيمـا جـرى علـى شـيعة أهـل البيـت، ولهـذا فـإنَّ الإمـام الصـادق عليه السلام يقـول: «إنَّ التقيّـة جُنَّـةُ المـؤمن» حتَّـى أنَّ المنصـور حينمـا جـاءه خبـر وفـاة الإمـام الصـادق عليه السلام بالمدينـة فأرسـل إلـى كاتبـه وقـال: اُكتـب إن كـان أوصـى إلـى رجـل واحد بعينه فقدّمه واضرب عنقه.

فرجع إليه الجواب: أنَّه قد أوصى إلى خمسة وأحدهم أبو جعفر المنصور، ومحمّد بن سليمان، وعبد الله وموسى وحميدة.

وفي رواية أخرى أنَّ أبا جعفر قال: ليس إلى قتل هؤلاء سبيل(١).

أي أنَّ الإمام غطّى على الوصيّ موسى بن جعفر عليه السلام بطريقة فنّية وذلك نتيجة الرعب والملاحقة العجيبة لأهل البيت وشيعتهم.

الانفتاح على الإمام الصادق عليه السلام:

المنصور كان يمنع أن يُقام مجلس تدريس للإمام الصادق عليه السلام ولكن ذات مرَّة كتب المنصور للإمام الصادق عليه السلام: اُريدك أن تهدي لي هدية، فأهدى له الإمام عليه السلام مخصرة (عصا) للنبيّ صلى الله عليه وآله فسرَّ بذلك أبو جعفر المنصور، فكتب إليه أنَّ جزاء هذه الهدية أنَّك حرٌّ في التدريس تحدَّث بما تريد أنت وشيعتك، وهنا انتشر مذهب الإمام الصادق عليه السلام في هذه الفسحة الزمنية خصوصاً أنَّ الإمام الباقر عليه السلام كان قد أوصاه بأصحابه خيراً، وبدأت المحافل تُعقد، وفي ذلك الوقت لم تكن توجد صحافة ولا فضائيات، ولكن هناك شعراء والإمام لا بدَّ أن يوظّف الشعر لصالح الحقّ ولصالح المذهب.

---

(١) الكافي ١: ٣١٠/ باب الإشارة والنصّ على أبي الحسن موسى.../ ح ١٣ و١٤.

كان من كبار شعراء المذهب في زمن الإمام الصادق عليه السلام رجل اسمه السيّد الحميري وهو شاعر موهوب بشكل عجيب، في يوم سمع أحد الشيعة الشعراء يمدح آل البيت بقوله:

ما بال بيتكم يخرَّب سقفه وثيابكم من أرذل الأثواب

فقال له السيّد الحميري: يا جعفر الطائي ويحك أتقول في آل محمّد شرّاً؟

فقال جعفر: فما أنكرت من ذلك؟

فقال له السيّد: إذا لم تُحسن المدح أسكت، أيوصف آل محمّد بمثل هذا؟! ولكنّي أعذرك، هذا طبعك وعلمك ومنتهاك، وقد قلت أمحو عنهم عار مدحك، فأنشده السيّد الحميري:

أقسم بالله وآلائه والمرء عمَّا قال مسؤولُ
أنَّ علي بن أبي طالب على التقى والبرّ مجبولُ
وإنَّه كان الإمام الذي له على الأمّة تفضيلُ
يقول بالحقّ ويعنى به ولا تلهّيه الأباطيلُ
كان إذا الحرب مرتها القنا وأحجمت عنها البهاليلُ
يمشي إلى القرن وفي كفّه أبيض ماضي الحد مصقولُ
مشي العفرني بين أشباله أبرزه للقنص الغيلُ
ذاك الذي سلَّم في ليلة عليه ميكال وجبريلُ
ميكالُ في ألفٍ وجبريلُ في ألفٍ ويتلوهم سرافيلُ
ليلة بدر مدداً أنزلوا كأنَّهم طيرٌ أبابيلُ

فسلَّموا لمَّا أتوا حذوَهُ ... وذاك إعظام وتبجيلُ[(١)]

وكان هذا الشعر إذا قرء على الشعراء يقومون له إعجاباً ويقولون: هذا هو الشعر الذي يدخل القلب بدون استئذان.

بناء الجيل الصالح:

وأنقل هنا رواية تربوية عن الإمام الصادق عليه السلام لأنَّنا نعتقد أنَّ التقيّة لم تمنع الأئمّة من بناء الجيل الصالح، فمع ظروف التقيّة تلك لكن الإمام كانت عينه على شيعته.

يقول إبراهيم بن مهزم: خرجت من عند أبي عبد الله عليه السلام ليلة ممسياً فأتيت منزلي بالمدينة وكانت أُمّي معي فوقع بيني وبينها كلام فأغلظت لها، فلمَّا أن كان من الغد صلَّيت الغداة وأتيت أبا عبد الله عليه السلام فلمَّا دخلت عليه قال لي مبتدئاً: «يا أبا مهزم ما لك والوالدة أغلظت في كلامها البارحة، أمَا علمت أنَّ بطنها منزل قد سكنته وأنَّ حجرها مهد قد غمسته وثديها وعاء قد شربته؟».

قال: قلت: بلى.

قال: «فلا تغلظ لها»[(٢)].

فرغم كلّ ظروف الأئمّة الحرجة آنذاك لكن التربية والأخلاق والنصيحة لم تنقطع كي يصبح هناك جيلاً إنسانياً، فلولا تربية أهل البيت عليهم السلام لم يبقَ شيء من الدين ورغم كلّ الظروف التي أحاطت بهم.

وكما أنَّ الإمام الحسين عليه السلام في مكّة المكرَّمة جمع الأنصار وفيهم سبعمائة شخص من الأنصار وأولاد الأنصار وبدأ يحدّثهم

(١) أمالي الطوسي: ١٩٨/ ح (٤١/٣٣٩).

(٢) بصائر الدرجات: ٢٦٣/ باب ١١/ ح ٣؛ بحار الأنوار ٤٧: ٧٢/ ح ٣٢.

بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله في فضل أهل البيت عليهم السلام وحديث الغدير وحديث المنزلة وحديث السفينة، يُشهدهم على ذلك كي لا يأتِ يومٌ وتُنسى هذه الأمور وتمنعها السلطة الحاكمة.

فكذلك الإمام الصادق عليه السلام قام بنفس الموقف في عرفة، يروي ابن أبي المقدام يقول: رأيت أبا عبد الله عليه السلام يوم عرفة بالموقف وهو ينادي بأعلى صوته: «أيّها الناس إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان الإمام ثمّ كان علي بن أبي طالب ثمّ الحسن ثمّ الحسين ثمّ علي بن الحسين ثمّ محمّد بن علي عليهم السلام ثمّ (هه)»، فينادي ثلاث مرَّات لمن بين يديه ومن عن يمينه وعن يساره ومن خلفه اثنى عشر صوتاً، يقول الراوي: فلمَّا أتيت منى سألت أصحاب العربية عن تفسير (هه) فقالوا: هه لغة بني فلان: (أنا فاسألوني)، قال: ثمّ سألت غيرهم أيضاً من أصحاب العربية فقالوا مثل ذلك[1].

شرط التقيّة:

لكن في كلا الموقفين يتَّضح أنَّ التقيّة مشروطة بشرط وهو أن لا يكون الخطر على الدين أعظم من الخطر على النفس، فإذا كان الخطر على الدين أعظم فتقديم النفس فداءً للدين واجب.

إن كان دين محمّد لم يستقم   إلاَّ بقتلي يا سيوف خذيني

الإمام الحسين رأى أنَّ الخطر على الدين أعظم، والإمام الصادق في ظروفه التي عاش فيها رأى أنَّ الدين لا خطر على أصله وببركة الحسين قد ثبت هذا الدين ولا خطر عليه، لكن الإمام الصادق فُرضت عليه التقيّة لأجل المحافظة على وجود المذهب والشيعة.

(١) الكافي ٤: ٤٦٦/ باب الوقوف بعرفة وحدّ الموقف/ ح ١٠.

وضوح الرؤية ظاهرة متميّزة:

كان من جملة ما تتميَّز به الملحمة الحسينية الوضوح في الرؤية الذي يتمتَّع به شيعة أهل البيت عليهم السلام إلى اليوم، ولا توجد أمّة من الأمم تتمتَّع بوضوح في الرؤية مثلما يتمتَّع به شيعة أهل البيت، لم تهزمهم السجون ولا قطع الرؤوس ولا الحصار ولا التضليل الإعلامي على طول التاريخ وجاء هذا الوضوح من مصباح الهدى وسفينة النجاة الإمام الحسين عليه السلام.

وهناك مجموعة مشاهد في مسيرة وحركة الإمام الحسين عليه السلام فمن جملتها عندما خرج من المدينة المنوّرة، قال: «كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن منّي أكراشاً جوفاً، وأجربة سغباً»(١).

وفي الطريق يقول له علي الأكبر: ممَ حمدت الله واسترجعت؟

فقال: «يا بني إنّي خفقت خفقة فعنَّ لي فارس على فرس وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم فعلمت أنَّها أنفسنا نعيت إلينا».

فقال له ابنه: يا أبة لا أراك الله سوءاً ألسنا على حقّ؟

قال: «بلى والذي إليه مرجع العباد».

قال: فإنّنا إذاً لا نبالي أن نموت محقّين(٢).

فالخارطة إذن واضحة جدّاً أمام الحسين عليه السلام.

ليلة عاشوراء أخبرهم جميعاً بأنّي سأُقتل غداً وأنَّكم تُقتلون ولا يبقى غير ولدي العليل علي بن الحسين، وعندما أصبح الصباح في يوم عاشوراء وهنا نجد الوضوح في الرؤية عند علي الأكبر عندما طلب من الحسين ماءً ولم يكن معه قال له: «فإنّي أرجو أنّك لا تمسي حتّى يسقيك جدّك بكأسه الأوفى شربةً لا

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٣٨؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٧.

(٢) الإرشاد ٢: ٨٢؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٧٩.

تظمأ بعدها أبداً» فالحسين عليه السلام يتحدَّث عن شيء كأنَّه يراه وعلى مستوى كبير من اليقين والوضوح. ولمَّا خرَّ الأكبر صريعاً نادى: يا أبتاه هذا جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله قد سقاني بكأسه الأوفى شربةً لا أظمأ بعدها أبداً وهو يقول: «العجل العجل! فإنَّ لك كأساً مذخورةً حتَّى تشربها الساعة»(١).

ولمَّا أخبر الحسين عليه السلام أهل بيته وأصحابه أنَّكم تقتلون غداً قال القاسم: وأنا فيمن يقتل؟ فأشفق عليه.

فقال له: «يا بني كيف الموت عندك؟».

قال: يا عمّ أحلى من العسل.

فقال: «أي والله فداك عمّك إنَّك لأحد من يقتل من الرجال معي بعد أن تبلو ببلاء عظيم»(٢).

فالقضيّة واضحة جدَّاً عند الحسين عليه السلام.

مصادر التشريع:

قال إمامنا الحسين عليه السلام: «إنّا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم الله ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحرَّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالخلافة والبيعة»(٣).

وقال إمامنا الصادق عليه السلام: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن،

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٣.

(٢) مدينة المعاجز ٤: ٢١٥.

(٣) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٧؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٥.

وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ»[1].

دفاع أهل البيت عليهم السلام عن مصادر التشريع:

البحث عن مصدر التشريع وأدلّته في الإسلام وموقف أهل البيت في الدفاع عن هذه المصادر التشريعية، فقد مضى علينا أكثر من (١٤٠٠) عاماً فيما بيننا وبين بعثة النبيّ صلى الله عليه وآله فكيف يصل إلينا الإسلام صحيحاً نقيّاً سالماً بدون تحريف؟ ما هي المصادر والأدلّة.

نلاحظ أنَّ الإمام الصادق عليه السلام هو الذي حفظ سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله إذ كانت هذه السُنّة معرّضة للضياع، والإمام الحسين عليه السلام أيضاً هو مدافع عن السُنّة وأئمّتنا وبالخصوص الإمام الصادق عليه السلام هو الذي دافع عن سُنّة رسول الله ونشر حديثه حتَّى أنَّ الشيخ المفيد في كتاب الإرشاد[2] يقول: إنَّ أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات، على اختلافهم في الآراء والمقالات، فكانوا أربعة آلاف رجل. والإمام الصادق عليه السلام يقول إنَّ حديثه يرجع إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله.

القرآن يقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى﴾ (النجم: ٣ و٤)، والحسين عليه السلام أيضاً يقول: «إنّا أهل بيت النبوّة» النبوّة فينا «ومعدن الرسالة» الرسالة الإلهية «ومختلف الملائكة» أي أنَّ الملائكة يتردَّدون علينا، أمَّا يزيد الفاسق شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة فإنَّ مثلي لا يبايع مثله ولا يمكن أن يكون يزيد أميراً

(١) الكافي ١: ٥٣/ باب رواية الكتب والحديث.../ ح ١٤.
(٢) الإرشاد ٢: ١٧٩.

للمؤمنين، وإماماً للمسلمين ومصدراً للتشريع، بل الإمام الحسين عليه السلام هو مصدر التشريع وسفينة النجاة.

مصدر التشريع:

التشريع الإسلامي له مصدران (الكتاب) وهو القرآن الكريم و(السُنّة) وهي سُنّة النبيّ التي وردتنا بطرق صحيحة ولا أصحّ من طريق أهل البيت عليهم السلام، فسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله هي التي حدّثنا بها أهل البيت عليهم السلام يؤكّد هذا الموضوع الإمام الصادق عليه السلام حين يقول: «عجباً للناس إنَّهم أخذوا علمهم كلّه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فعملوا به واهتدوا ويرون أنَّ أهل بيته لم يأخذوا علمه، ونحن أهل بيته وذرّيته، في منازلنا نزل الوحي، ومن عندنا خرج العلم إليهم، أفيرون أنَّهم علموا واهتدوا وجهلنا نحن وضللنا، إنَّ هذا لمحال»[1].

عوامل تدمير السُنّة:

ولقد تعرَّضت السُنّة إلى تدمير، وجاء أهل البيت عليهم السلام وقاموا بعملية إحياء السُنّة والدفاع عنها، وهذه القضيّة يعترف بها المؤرّخون، والحقيقة أنَّ هناك أربعة أشكال لتدمير السُنّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله:

العامل الأوّل: المنع من تدوين السُنّة:

فلقد منعت الخلافة من تدوين السُنّة والحديث بها. ويعترف بهذه القضيّة جميع المؤرّخين فلقد كانت سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله من الكتب الممنوعة لمدّة (١٠٠) عاماً، حيث كان الحكّام بعد رسول الله يمنعون الحديث بسُنّة النبيّ صلى الله عليه وآله كما يمنعون تدوينها ويصادرون الكتب الموجودة التي تدوّن سُنّة النبيّ صلى الله عليه وآله

---

(١) الكافي ١: ٣٩٨/ باب أنَّ مستقى العلم من بيت آل محمّد عليهم السلام/ ح ١.

ولمدّة مئة عام ــ فيما عدا عهد الإمام علي عليه السلام ــ حتَّى نهايات العهد الأموي وعلى يد عمر بن عبد العزيز الذي أجاز للناس رواية سُنّة النبيّ صلى الله عليه وآله، هذا هو الواقع على مستوى الموقف الرسمي يومئذٍ، أمَّا الشيعة الذين كانوا يمثّلون المعارضة فمنذ اليوم الأوّل كان الإمام علي عليه السلام يدوّن السُنّة كما حافظ عليها أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم وتحمَّلوا من أجل ذلك الحبس وألوان العذاب لقد حبسوا أبا الدرداء وحبس أبو ذر وأُبعد في قصَّة تدوين السُنّة والحديث بها.

عبد الله بن عمرو يقول: كنت أكتب كلّ شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أتكتب كلّ شيء تسمعه ورسول الله صلى الله عليه وآله بشر يتكلَّم في الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله، فأومأ بإصبعه إلى فيه، وقال: «أكتب فوَالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلاَّ الحقّ»[(١)].

روى الذهبي: فلمَّا مات رسول الله جمعوا الناس فقالوا: إنَّكم تحدّثون عن رسول الله صلى الله عليه وآله أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشدُّ اختلافاً فلا تُحدّثوا عن رسول الله شيئاً فمن سألكم قولوا: بيننا وبينكم كتاب الله[(٢)].

ابن شهاب الزهري وهو من المحدّثين من أبناء العامّة وهو أوّل من كتب في السُنّة على رأس السنة المائة بعدما أجاز عمر بن عبد العزيز ذلك ولم يكن قبله يوجد كتاب ولا كراس فيه: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله) إلاَّ ما كتبه أهل البيت وشيعتهم، ودامت المعركة (١٠٠) سنة دفاعاً عن السُنّة، حتَّى أنَّ عبد الرحمن بن عوف يقول: والله ما مات عمر بن

(١) سنن أبي داود ٢: ١٧٦/ باب في كتاب العلم/ ح ٣٦٤٦.
(٢) تذكرة الحفّاظ ١: ٣.

الخطّاب حتَّى بعث إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجمعهم من الآفاق، عبد الله بن حذافة وأبا الدرداء وأبا ذر وعقبة بن عامر فقال: ما هذه الأحاديث التي قد أفشيتم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآفاق؟

قالوا: أتنهانا؟

قال: لا، أقيموا عندي لا والله لا تفارقوني ما عشت فنحن أعلم نأخذ منكم ونردّ عليكم، فما فارقوه حتَّى مات[1].

ولأجل أن تكون الرؤية موضوعية روى الذهبي أنَّ عمر بن الخطّاب حبس ثلاثة ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصاري، فقال: (قد أكثرتم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)[2] ثمّ دعا بكلّ ما مكتوب فجُمع فأحرق، هذا هو أوّل عامل من عوامل تدمير السُنّة، وتصوَّروا أنَّ نصوصاً يُمنع الكلام بها لمائة عام ولا تُكتب، فكيف لا تذهب والجيل الذي حفظها أيضاً ذهب، والجيل الذي بعده لم يسمعها، وأئمّتنا واحداً بعد آخر كانوا يؤكّدون في المحافل ويقولون: هذه سُنّة رسول الله.

العامل الثاني: الوضع والكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أيّها الناس قد كثرت عليَّ الكذّابة، فمن كذب عليَّ متعمّداً فليتبوَّأ مقعده من النار»[3] وبدأت عملية الوضع والكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخاصّة في الزمن الأموي، وهنا وظف معاوية بن أبي سفيان الرواة لوضع آلاف الأحاديث كذباً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا أيضاً من الثوابت في التاريخ الإسلامي لا يناقش فيه أحد، لا

(١) كنز العمّال ١٠: ٢٩٢ و٢٩٣/ باب في آداب العلماء/ ح ٢٩٤٧٩.

(٢) تذكرة الحفّاظ ١: ٧.

(٣) الكافي ١: ٦٢/ باب اختلاف الحديث/ ح ١.

من السُنّة ولا من الشيعة، فقد كتب كتاباً إلى عمّاله أن (برأت الذمّة ممَّن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته)، وكتب إليهم أن (أنظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم) وكثرت الأحاديث حتَّى كتب مرَّةً أخرى إلى عمّاله: (إنَّ الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كلّ مصر وفي كلّ وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاَّ وتأتوني بمناقض له في الصحابة)[١]، فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[٢] فأتوني بحديث يقول: (وفلان محرابها) وما شاكل كي تتوازن الأمور، وإذا قال صلى الله عليه وآله: «إنَّ الجنّة تشتاق إلى أربعة»[٣] فضعوا حديثاً يقول: (الجنّة تشتاق إلى عشرة)، وإذا قال صلى الله عليه وآله: «إنّي قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[٤] فاجعلوها (وسُنّتي)، وهكذا اختلطت الأمور وكثرت عملية الوضع والكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله حتَّى أنَّ ابن أبي الحديد وهو من كبار مؤرّخي السُنّة يقول في كتابه (شرح نهج البلاغة)[٥]: (فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة... حتَّى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى

(١) راجع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١: ٤٤ و٤٥.
(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٧٢/ ح ٢٩٨.
(٣) بحار الأنوار ٣١: ٦٢٦/ ح ١٢٣.
(٤) كمال الدين: ٢٣٧/ باب ٢٢/ ح ٥٥.
(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١: ٤٦.

أيدي الديّانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنّون أنَّها حقّ، ولو علموا أنَّها باطلة لما رووها ولا تديّنوا بها).

العامل الثالث: الاجتهاد في مقابل سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

وهنا نجد أنَّ السيّد عبد الحسين شرف الدين ألَّف كتاباً جميلاً اسمه: (النصّ والاجتهاد) جمع فيه مائة مورد من الموارد التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً وخالفوا سُنّته وقدّموا رأياً آخر، اجتهاداً منهم وإعراضاً عن السُنّة.

العامل الرابع: إضافة قول الصحابي إلى سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

فما قاله الصحابي يكون مقبولاً وحجّة حتَّى وإن كان بلا آية قرآنية ولا رواية معتمدة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهكذا اختلطت الأمور وضاعت السُنّة الصحيحة. فجاء أهل البيت عليهم السلام فكان أحد أهمّ اهتماماتهم هو الدفاع عن الكتاب والسُنّة، وأوّل من دوَّن سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الإمام علي عليه السلام وأصحابه رغم المنع والحضر الذي كان موجوداً يومئذٍ.

الإمام الصادق يقول للمفضَّل بن عمر: «اُكتب وبث علمك في إخوانك فإن مت فورّث كتبك بنيك، فإنَّه يأتي على الناس زمان هرج لا يأنسون إلاَّ بكتبهم»[1]، والشيعة كانت كتبهم تُدفن تحت التراب لكي لا تصادرها السلطات الحاكمة، ومن أجل أن تصل لنا سالمة.

أحد كبار المحدّثين عندنا هو الشيخ الصدوق له مجموعة كتب رائعة جدّاً منها الخصال، وعيون أخبار الرضا عليه السلام، والتوحيد، وثواب الأعمال وعقاب الأعمال، وعلل الشرائع، وأهمّها هو كتاب (من لا يحضره الفقيه) وهو موسوعة فقهية سجَّل فيه خمسة آلاف وستمائة

(١) الكافي ١: ٥٢/ باب رواية الكتب والحديث.../ ح ١١.

وثلاثين حديثاً، وله كتاب آخر هو كتاب (صفات الشيعة) يذكر فيه رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، عندما كان أبو جعفر المنصور الدوانيقي في الحيرة قال للإمام الصادق: يا أبا عبد الله ما بال الرجل من شيعتكم يُستخرج ما في جوفه في مجلس واحد حتَّى يُعرف مذهبه؟

فقال عليه السلام: «ذلك بحلاوة الإيمان في صدورهم من حلاوته يبدونه تبدياً»[(١)].

والعلاّمة الحرّ العاملي وهو من كبار علماء الشيعة في القرن الثاني عشر جمع مجموعة كتب موسوعية في كتاب ضخم جمع فيه (٣٧) ألف حديث عن الرسول الأعظم والأئمّة عليهم السلام من أهل البيت اسمه (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة) وقد أضاف عليه الشيخ النوري وهو من علماء القرن الرابع عشر ما يقارب (٢٥) ألف حديث في كتابه (مستدرك الوسائل).

المعركة الفكرية:

الإمام الصادق عليه السلام بدأ مرحلة الدفاع الفكري عن الدين والدخول في معركة فكرية، فمرَّة يلتقي بـ(عباد بن كثير البصري الصوفي) وهو متصوّف عابد يقول له الإمام عليه السلام: «ويحك يا عباد غرَّك أن عفَّ بطنك وفرجك إن الله يقول في كتابه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾ (الأحزاب: ٧٠ و٧١)، اعلم أنَّه لا يتقبَّل الله منك شيئاً حتَّى تقول قولاً عدلاً»[(٢)]، والقول السديد كما يقول

(١) صفات الشيعة للصدوق: ١٥؛ بحار الأنوار ٤٧: ١٦٦/ ح ٥.

(٢) الكافي ٨: ١٠٧/ باب إذا بلغ المؤمن أربعين سنة/ ح ٨١.

المفسّرون هو العقيدة الصحيحة، والتصوّف وحده لا ينفع، فأهل البيت عليهم السلام هم سفن النجاة وعترة النبيّ وباب علمه، وقد أعرضوا عنهم وسكتوا عن حقّهم.

يقول أبو حامد الغزالي وهو من كبار علماء السُنّة في القرن الخامس له كتاب بعنوان (إحياء علوم الدين) يعتبر من الكتب المهمّة ولذلك جاء علماؤنا فلخَّصوه وهذَّبوه وجعلوه معتبراً لديهم للدراسة، ذلك هو ما صنعه الفيض الكاشاني وأسمى كتابه: (المحجّة البيضاء في إحياء الأحياء).

واطَّلعت على رأي يرويه الشيخ الكاشاني حينما لخَّص الكتاب المذكور يقول: لخَّصت هذا الكتاب وهذَّبته وأعلمكم أنَّ أبا حامد الغزالي في آخر عمره اهتدى واستبصر.

يقول أبو حامد الغزالي: (يحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين وحكاية ما جرى بين الصحابة من التشاجر والتخاصم، فإنَّه يهيّج بغض الصحابة والطعن فيهم وهم أعلام الدين، وما وقع بينهم من المنازعات فيُحمل على محامل صحيحة، ولعلَّ ذلك لخطأ في الاجتهاد لا لطلب الرئاسة والدنيا)(١).

ومثل هذا الكلام يذكره سعد الدين التفتازاني وهو إمام علماء الكلام والعقائد لدى المذاهب الأخرى في كتابه (شرح المقاصد في علم الكلام) يقول في حديث طويل: (وأمَّا ما جرى بعدهم من الظلم على أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فمن الظهور بحيث لا مجال للإخفاء ومن الشناعة بحيث لا اشتباه على الآراء إذ تكاد تشهد به الجماد والعجماء

(١) راجع: الغدير للأميني ١٠: ٢١١.

ويبكـي لـه مـن فـي الأرض والسـماء وتنهـدّ منـه الجبـال وتنشـقّ الصـخور ويبقـى سـوء عملـه علـى كـرّ الشـهور ومـرّ الـدهور فلعنـة الله علـى مـن باشـر أو رضي أو سعى ﴿وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى﴾ [طه: ١٢٧]).

ثمّ يقول: (فإن قيل: فمن علماء المذاهب من لم يجوّز اللعن على يزيد مع علمهم بأنَّه يستحقّ ما يربو على ذلك ويزيد، قلنا: تحامياً عن أن يرتقي إلى الأعلى فالأعلى كما هو شعار الروافض على ما يروى في أدعيتهم ويجري في أنديتهم، فرأى المعتنون بأمر الدين إلجام العوام بالكلّية)[١].

مقامات الشيعة عن لسان صادق العترة:

هنـاك روايـة جميلـة فـي قصَّـة الـروافض يرويهـا ليـث البختـري أبـو بصير وهـو مـن الأوتـاد الأربعـة فـي أصـحاب الأئمّـة كمـا يعبّـر عـنهم الإمـام الصـادق عليه السلام حيـث يقـول أبـو بصـير للإمـام الصـادق عليه السلام: جُعلـت فـداك يـا ابـن رسـول الله كبـر سـنّي ودقّ عظمـي واقتـرب أجلـي مـع أنَّنـي لسـت أدري مـا أرد عليـه مـن أمـر آخرتـي، فقـال أبـو عبـد الله عليه السلام: «يـا أبـا محمّـد وإنَّك لتقول هذا؟».

قال: قلت: جُعلت فداك كيف لا أقول هذا!؟

فقـال: «يـا أبـا محمّـد أمَـا علمـت أنَّ الله تبـارك وتعـالى يكـرم الشـباب منكم ويستحيي من الكهول؟».

قال: قلت: جُعلت فداك فكيف يكرم الشباب منّا ويستحيي من الكهول؟

فقال: «يُكرم الشباب أن يعذّبهم ويستحيي من الكهول أن يحاسبهم».

قال: قلت: جُعلت فداك هذا لنا خاصّة أم لأهل التوحيد؟

(١) شرح المقاصد في علم الكلام ٢: ٣٠٧.

قال: فقال: «لا والله إلاَّ لكم خاصّة دون العالم».

قال: قلت: جُعلت فداك فإنّا قد نبزنا نبزاً انكسرت له ظهورنا وماتت له أفئدتنا واستحلَّت له الولاة دماءنا في حديث رواه لهم فقهاؤهم.

قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: «الرافضة؟».

قال: قلت: نعم.

قال: «لا والله ما هم سمّوكم ولكن الله سمّاكم به، أمَا علمت يا أبا محمّد أنَّ سبعين رجلاً من بني إسرائيل رفضوا فرعون وقومه لما استبان لهم ضلالهم فلحقوا بموسى عليه السلام لما استبان لهم هداه فسمّوا في عسكر موسى الرافضة لأنَّهم رفضوا فرعون وكانوا أشدّ أهل ذلك العسكر عبادة وأشدّهم حبّاً لموسى وهارون وذرّيتهما عليهما السلام فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى موسى عليه السلام أن أثبت لهم هذا الاسم في التوراة فإنّي قد سمّيتهم به ونحلتهم إيّاه، فأثبت موسى عليه السلام الاسم لهم، ثمّ ذخر الله عزَّ وجلَّ لكم هذا الاسم حتَّى نحلكموه، يا أبا محمّد رفضوا الخير ورفضتم الشرّ، افترق الناس كلّ فرقة وتشعَّبوا كلّ شعبة فانشعبتم مع أهل بيت نبيّكم صلى الله عليه وآله وذهبتم حيث ذهبوا واخترتم من اختار الله لكم وأردتم من أراد الله فأبشروا ثمّ أبشروا، فأنتم والله المرحومون المتقبّل من محسنكم والمتجاوز عن مسيئكم، من لم يأت الله عزَّ وجلَّ بما أنتم عليه يوم القيامة لم يتقبَّل منه حسنة ولم يتجاوز له عن سيّئة، يا أبا محمّد فهل سررتك؟».

قال: قلت: جُعلت فداك زدني.

قال: «يا أبا محمّد إنَّ لله عزَّ وجلَّ ملائكة يسقطون الذنوب عن ظهور شيعتنا كما يسقط الريح الورق في أوان سقوطه وذلك قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ... وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]، استغفارهم والله لكم دون هذا الخلق، يا أبا محمّد فهل سررتك؟».

قال: قلت: جُعلت فداك زدني.

قال: «يا أبا محمّد لقد ذكركم الله في كتابه فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣]، إنَّكم وفيتم بما أخذ الله عليه ميثاقكم من ولايتنا وإنَّكم لم تبدّلوا بنا غيرنا ولو لم تفعلوا لعيَّركم الله كما عيَّرهم حيث يقول جلَّ ذكره: ﴿وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، يا أبا محمّد فهل سررتك؟».

فقال: «يا أبا محمّد لقد ذكركم الله في كتابه فقال: ﴿إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، والله ما أراد بهذا غيركم، يا أبا محمّد فهل سررتك؟».

قال: قلت: جُعلت فداك زدني.

فقال: «يا أبا محمّد ﴿الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، والله ما أراد بهذا غيركم، يا أبا محمّد فهل سررتك؟».

قال: قلت: جُعلت فداك زدني.

فقال: «يا أبا محمّد لقد ذكرنا الله عزّ وجلّ وشيعتنا وعدوّنا في آية من كتابه فقال عزّ وجلّ: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ [الزمر: ٩]، فنحن الذين يعلمون وعدوّنا الذين لا يعلمون وشيعتنا هم أولوا الألباب، يا أبا محمّد فهل سررتك؟».

قال: قلت: جُعلت فداك زدني.

فقال: «يا أبا محمّد والله ما استثنى الله عزّ وجلّ بأحد من أوصياء الأنبياء ولا أتباعهم ما خلا أمير المؤمنين عليه السلام وشيعته فقال في كتابه وقوله الحقّ: ﴿يَوْمَ لا يُغْني مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ [الدخان: ٤١ و٤٢]، يعني بذلك علياً عليه السلام وشيعته ، يا أبا محمّد فهل سررتك؟».

قال: قلت: جُعلت فداك زدني.

قال: «يا أبا محمّد لقد ذكركم الله تعالى في كتابه إذ يقول: ﴿يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، والله ما أراد بهذا غيركم، فهل سررتك يا أبا محمّد؟».

قال: قلت: جُعلت فداك زدني.

فقال: «يا أبا محمّد لقد ذكركم الله في كتابه فقال: ﴿إِنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، والله ما أراد بهذا إلاَّ الأئمّة عليهم السلام وشيعتهم، فهل سررتك يا أبا محمّد؟».

قال: قلت: جُعلت فداك زدني.

فقال: «يا أبا محمّد لقد ذكركم الله في كتابه فقال: ﴿فَأُولئِكَ مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفيقاً﴾ [النساء: ٦٩]، فرسول الله صلى الله عليه وآله في الآية النبيّون ونحن في هذا الموضع الصدّيقون والشهداء وأنتم الصالحون فتَّسموا بالصلاح كما سمّاكم الله عزّ وجلّ، يا أبا محمّد فهل سررتك؟».

قال: قلت: جُعلت فداك زدني.

قال: «يا أبا محمّد لقد ذكركم الله إذ حكى عن عدوّكم في النار بقوله: ﴿وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرارِ * أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصارُ﴾ [ص: ٦٣]، والله ما عنى ولا أراد بهذا غيركم، صرتم عند أهل هذا العالم شرار الناس وأنتم والله في الجنّة تحبرون وفي النار تطلبون، يا أبا محمّد فهل سررتك؟».

قال: قلت: جُعلت فداك زدني.

قال: «يا أبا محمّد ما من آية نزلت تقود إلى الجنّة ولا تذكر أهلها بخير إلاَّ وهي فينا وفي شيعتنا، وما من آية نزلت تذكر أهلها بشرّ ولا تسوق إلى النار إلاَّ وهي في عدوّنا ومن خالفنا، فهل سررتك يا أبا محمّد؟».

قال: قلت: جُعلت فداك زدني.

فقال: «يا أبا محمّد ليس على ملّة إبراهيم إلاَّ نحن وشيعتنا وسائر الناس من ذلك براء، يا أبا محمّد فهل سررتك؟».

وفي رواية أخرى: فقال: حسبي[1].

الحسين عليه السلام والملائكة:

وهو موضوع ملفت للنظر لأنَّ الإمام الصادق عليه السلام لديه حديث يقول فيه: إنَّ الملائكة تنزل في بيوتنا والإمام الحسين عليه السلام أيضاً له مثل هذا الحديث بأنَّ الملائكة تنزل في بيوتنا، لنعقد الآن هذه المقارنة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصّلت: ٣٠): «أمَا والله لربَّما وسَّدنا لهم الوسائد في منازلنا»[2]، ولدينا في الأحاديث الكثيرة[3] أنَّ جبرئيل كان يتمثَّل زمن النبيّ صلى الله عليه وآله على شكل شاب جميل على صورة دحية الكلبي، فالقضيّة إذن مهضومة فكرياً ونستطيع الاستدلال عليها.

وفي حديث آخر عن الحسين بن العلاء، قال: «يا حسين بيوتنا مهبط الملائكة» وضرب بيده إلى مساور في البيت فقال: «يا حسين

(١) الكافي ٨: ٣٣ - ٣٦/ باب مقامات الشيعة وفضائلهم.../ ح ٦.

(٢) كشف الغمّة ٢: ٤٠٣؛ بحار الأنوار ٤٧: ٣٤/ ح ٣٠.

(٣) راجع: مناقب آل أبي طالب ٢: ٨٢؛ بحار الأنوار ٣٩: ١٠١، و٥٦: ٢٥٨/ ح ٢٥.

مساور والله طال ما اتَّكت عليها الملائكة، وربَّما التقطنا من زغبها»[١]، وهذا الموضوع هو الذي فتح لنا فرصة الانتقال من الإمام الصادق إلى الإمام الحسين لأنَّ لديه حديثاً شبيهاً به في عدد من المشاهد والصور:

الصورة الأولى:

الحسين في طريقه إلى الكوفة التقى به رجل من أهل الكوفة فسأله مسائل فقهية وحدث حوار فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «والله يا أخا أهل الكوفة لو لقيتك بالمدينة لأريتك أثر جبرئيل من دارنا»[٢].

الصورة الثانية:

إنَّ الحسين هزَّت مهده الملائكة، والملائكة تفخر بأنَّها هزَّت مهد الحسين، ورواياتنا كثيرة وأنقلها لكم عن أدباء العرب المسلمين ممَّن هم على غير مذهب أهل البيت، لمَّا قيل للشاعر أبي نؤاس وهو في محفل الإمام الرضا عليه السلام حيث تبارى الشعراء بمدح الإمام الرضا عليه السلام بمناسبة ولاية العهد ولم يتكلَّم أبو نؤاس فقيل له: لِمَ لم تتكلَّم؟ فقال:

قيل لي أنت أشعر الناس طراً ... في روي تأتي به وبديهي
فلماذا تركت مدح ابن موسى ... والخلال التي تجمعن فيه
قلت لا أهتدي لمدح إمام ... كان جبريل خادماً لأبيه[٣]

الصورة الثالثة:

قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنَّ أربعة آلاف ملك هبطوا يريدون القتال مع

---

(١) بصائر الدرجات: ١١٠/ باب ١٧/ ح ٢؛ بحار الأنوار ٢٦: ٣٥٢/ ح ٤.

(٢) الكافي ١: ٣٩٩/ باب أنَّه ليس شيء من الحقّ في يد الناس.../ ح ٢.

(٣) راجع: تاريخ الإسلام للذهبي ١٣: ٥١٣.

الحسين بن علي عليهما السلام، لم يؤذن لهم في القتال، فرجعوا في الاستئذان فهبطوا وقد قتل الحسين، فهم عند قبره شعث غبر يبكونه إلى يوم القيامة»[١].

عن الإمام الباقر عليه السلام: «أربعة آلاف ملك شعث غبر يبكون الحسين إلى يوم القيامة، فلا يأتيه أحد إلاَّ استقبلوه، ولا يمرض أحد إلاَّ عادوه، ولا يموت أحد إلاَّ شهدوه»[٢].

الصورة الرابعة:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «كأنّي والله بالملائكة قد ازدحموا المؤمنين على قبر الحسين عليه السلام».

قال: قلت: فيتراؤون له؟

قال: «هيهاتَ هيهاتَ لزموا والله المؤمنين حتَّى أنَّهم ليمسحون وجوههم بأيديهم».

قال: «وينزل الله على زوّار الحسين عليه السلام غداة وعشية من طعام الجنّة وخدّامهم الملائكة»[٣].

* * *

---

(١) كامل الزيارات: ١٧٢/ باب ٢٧/ ح (٢/٢٢٢).

(٢) كامل الزيارات: ١٧٤/ باب ٢٧/ ح (١١/٢٣١).

(٣) كامل الزيارات: ٢٥٩/ باب ٥٠/ ح (٣/٣٩٠).

الدراسة الثانية عشرة:

بين الإمام الحسين عليه السلام
والإمام الكاظم عليه السلام

- انتشار فقه أهل البيت عليهم السلام.
- الدور التربوي للإمام الكاظم عليه السلام.
- المحافظة على الهوية الإسلاميّة.

قـال إمامنـا الحسـين عليه السلام: «فلعمـري مـا الإمـام إلاَّ العامـل بالكتـاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحقّ، والحابس نفسه على ذات الله»[(١)].

وقـال إمامنـا الكـاظم عليه السلام: «يـا هشـام أوحـى الله إلـى داود عليه السلام: قـل لعبـادي لا يجعلـوا بينـي وبيـنهم عالمـاً مفتونـاً بالـدنيا فيصـدّهم عـن ذكـري، وعن طريق محبّتي ومناجاتي، أولئك قطّاع الطريق من عبادي»[(٢)].

هـذان نصّـان أحـدهما للإمـام الحسـين عليه السلام والآخـر للإمـام موسـى بـن جعفـر الكـاظم عليه السلام وتبـدأ دراسـاتنا بمقارنـة بـين حركـة الإمـام الحسـين عليه السلام وحركة الإمام الكاظم عليه السلام.

شروط الإمام الشرعي:

سـبق وأن شـرحنا مفـاد الحـديث الشـريف عـن الإمـام الحسـين عليه السلام وبيان الشروط التي يجب توفّرها في من يصلح للقيادة والإمامة[(٣)].

وإذا انتقلنـا إلـى الإمـام الكـاظم عليه السلام فإنَّـه فـي الـنصّ السـابق يعبّـر عـن أنَّ هــذه الفكــرة موجــودة فــي كــلّ الكتــب الإلهيــة وأنَّ الطريــق بــين الله والعبـاد هـو الإمـام الـذي تتـوفَّر فيـه مواصـفات العدالـة والزهـد والتـزام الحـقّ وليس الإقبال على الدنيا.

نحـن اليـوم فـي عمليـة الرجـوع إلـى المجتهـد لا نكتفـي بـأن يكـون

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ١٧.

(٢) تحف العقول: ٣٩٧.

(٣) أنظر (ص ٢٨٨) تحت عنوان: شروط الحاكم الشرعي.

عالماً فقط، بل يجب أن يكون مجتهداً عادلاً، ومن أهل الآخرة ومقدّساً يوصلنا إلى الله تبارك وتعالى، وهذا هو ما يبحث عنه الشيعة.

الإمام الكاظم عليه السلام يحافظ على المكاسب الحسينية:

في زمن الإمام الكاظم عليه السلام كثرت الزعامات الدينية، ولكن منهم من يوصلك إلى الجنّة وآخر يوصلك إلى النار، فكان دور الإمام موسى بن جعفر عليه السلام هو ترشيد الأمّة لأن يتبعوا علماء الحقّ وليس علماء الباطل.

الإمام الحسين عليه السلام أنهى الخطر على استعباد الأمّة الإسلاميّة والإمام الصادق عليه السلام أنهى الخطر على الشريعة الإسلاميّة. فكانت مسؤولية الإمام الكاظم عليه السلام هو المحافظة على المكاسب الحسينية والمكاسب الصادقية.

التشيّع في داخل القصر العبّاسي:

في زمن الإمام الكاظم عليه السلام انتشر الفقه المحمّدي الأصيل في البلدان بحيث أصبحنا نجد معتمداً للإمام في مصر وآخر في بلاد المغرب وآخر في بلاد بلخ، وهي جزء من أفغانستان، وأصبحنا نشهد انتشاراً للمذهب هنا وهناك.

فالامتداد المذهبي في زمن الإمام الكاظم عليه السلام كان بمستوىً واسع حتّى أصبحت السلطة مطوّقة برجال المذهب وكان أتباع أهل البيت عليهم السلام لهم نفوذ في السلطة التي لاحقتهم تحت كلّ حجر ومدر، والتي كانت تدفنهم وهم أحياء، وإذا اليوم أصبحنا نرى رجال هذا المذهب يتصدّون إلى مواقع متقدّمة بالسلطة، ويصبحون وزراء، والحاكم لا يدري، والإمام موسى بن جعفر الذي عاصر المنصور العبّاسي والمهدي والهادي حتّى وصل إلى هارون الرشيد العبّاسي الذي

لاحق الشيعة واحداً بعد الآخر، ولكن مع كلّ هذه الملاحقة وصل المذهب وعلماؤه إلى عمق البلاط العبّاسي وأصبحوا وزراء بدون علم السلطان.

علي بن يقطين(١) كان وزيراً وقصَّته معروفة عند هارون الرشيد.

كتب للإمام الكاظم عليه السلام: إنَّ أصحابنا قد اختلفوا في مسح الرجلين فإن رأيت أن تكتب إليَّ بخطّك ما يكون عملي عليه فعلت إن شاء الله، فكتب إليه أبو الحسن عليه السلام: «فهمت ما ذكرت من الاختلاف في الوضوء، والذي آمرك به في ذلك أن تتمضمض ثلاثاً وتستنشق ثلاثاً، وتغسل وجهك ثلاثاً وتخلّل شعر

(١) عن محمّد بن علي الصوفي، قال: استأذن إبراهيم الجمّال على أبي الحسن علي بن يقطين الوزير فحجبه فحجَّ علي بن يقطين في تلك السنة فاستأذن بالمدينة على مولانا موسى بن جعفر عليه السلام فحجبه فرآه ثاني يومه فقال علي بن يقطين: يا سيّدي ما ذنبي؟

فقال: «حجبك لأنَّك حجبت أخاك إبراهيم الجمّال وقد أبى الله أن يشكر سعيك أو يغفر لك إبراهيم الجمّال».

فقلت: سيّدي ومولاي من لي بإبراهيم الجمّال في هذا الوقت وأنا بالمدينة وهو بالكوفة؟

فقال: «إذا كان الليل فامض إلى البقيع وحدك من غير أن يعلم بك أحد من أصحابك وغلمانك واركب نجيباً هناك مسرجاً».

قال: فوافى البقيع وركب النجيب ولم يلبث أن أناخه على بباب إبراهيم الجمّال بالكوفة فقرع الباب وقال: أنا علي بن يقطين.

فقال إبراهيم الجمّال من داخل الدار: ما يعمل علي ابن يقطين الوزير ببابي؟

فقال علي بن يقطين: يا هذا إنَّ أمري عظيم، وآلى عليه الإذن له فقال له فلمَّا دخل قال: يا إبراهيم إنَّ المولى عليه السلام أبى أن يقبلني أو تغفر لي.

فقال: يغفر الله لك، فآلى علي بن يقطين علي إبراهيم الجمّال أن يطأ خدّه، فامتنع إبراهيم من ذلك، فآلى عليه ثانياً ففعل، فلم يزل إبراهيم يطأ خدّه وعلي بن يقطين يقول: اللّهمّ اشهد، ثمّ انصرف وركب النجيب وأناخه من ليلته بباب المولى موسى بن جعفر عليه السلام بالمدينة فأذن له ودخل عليه فقبَّله. (عيون المعجزات: ٩٠ و٩١؛ بحار الأنوار ٤٨: ٨٥/ ح ١٠٥).

لحيتك وتمسح رأسك كلّه وتمسح ظاهر أذنيك وباطنهما وتغسل رجليك إلى الكعبين ثلاثاً ولا تخالف ذلك إلى غيره».

فلمَّا وصل الكتاب إلى علي بن يقطين تعجَّب بما رسم فيه، ممَّا أجمع العصابة على خلافه، ثمّ قال: مولاي أعلم بما قال وأنا ممتثّل أمره، وكان يعمل في وضوئه على هذا الحدّ، ويخالف ما عليه جميع الشيعة، امتثالاً لأمر أبي الحسن عليه السلام، و سعى بعلي بن يقطين إلى الرشيد، وقيل: إنَّه رافضي مخالف لك. فقال الرشيد لبعض خاصَّته: قد كثر عندي القول في علي بن يقطين والقرف له بخلافنا وميله إلى الرفض ولست أرى في خدمته لي تقصيراً، وقد امتحنته مراراً فما ظهرت منه على ما يقرف به وأحبّ أن أستبرئ أمره من حيث لا يشعر بذلك، فيتحرَّز منّي.

فقيل له: إنَّ الرافضة يا أمير المؤمنين تخالف الجماعة في الوضوء فتخفّفه ولا ترى غسل الرجلين فامتحنه يا أمير المؤمنين من حيث لا يعلم، بالوقوف على وضوئه.

فقال: أجل إنَّ هذا الوجه يظهر به أمره، ثمّ تركه مدّة وناطه بشيء من الشغل في الدار، حتَّى دخل وقت الصلاة، وكان علي بن يقطين يخلو في حجرة في الدار لوضوئه وصلاته، فلمَّا دخل وقت الصلاة وقف الرشيد من وراء حائط الحجرة بحيث يرى علي بن يقطين، ولا يراه هو، فدعا بالماء للوضوء، فتمضمض ثلاثاً، واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، وخلَّل شعر لحيته، وغسل يديه إلى المرفقين ثلاثاً، ومسح رأسه وأذنيه، وغسل رجليه والرشيد ينظر إليه. فلمَّا رآه وقد فعل ذلك لم يملك نفسه حتَّى أشرف عليه بحيث يراه، ثمّ ناداه: كذب يا علي بن يقطين من زعم أنَّك من الرافضة. وصلحت حاله عنده، وورد عليه كتاب أبي الحسن عليه السلام ابتداءً: «من الآن يا علي بن يقطين فتوضّ كما أمر

الله، واغسل وجهك مرَّة فريضة، وأخرى إسباغاً، واغسل يديك من المرفقين كذلك وامسح مقدم رأسك، وظاهر قدميك بفضل نداوة وضوئك، فقد زال ما كان يخاف عليك والسلام»(١)، من هذا نلاحظ أنَّ أئمّتنا يتابعون شيعتهم.

لسان الشيعة أحدٌ من السيف:

قصَّة أخرى رائعة جدّاً عن يحيى بن خالد أيضاً وهو وزير ومن شيعة أهل البيت عليهم السلام، يقول الراوي: كان ليحيى بن خالد مجلس في داره يحضره المتكلّمون من كلّ فرقة وملّة يوم الأحد، فيتناظرون في أديانهم، يحتجّ بعضهم على بعض، فبلغ ذلك الرشيد، فقال ليحيى بن خالد: يا عبّاسي ما هذا المجلس الذي بلغني في بيتك يحضره المتكلّمون؟

فقال: يا أمير المؤمنين ما من شيء ممَّا رفعني به أمير المؤمنين وبلغ بي من الكرامة والرفعة أحسن موقعاً عندي من هذا المجلس، فإنَّه يحضره كلّ قوم مع اختلاف مذاهبهم، فيحتجّ بعضهم على بعض ويعرف المحقّ منهم، ويتبيَّن لنا فساد كلّ مذهب من مذاهبهم.

فقال له الرشيد: أنا أحبّ أن أحضر هذا المجلس وأسمع كلامهم على أن لا يعلموا بحضوري فيحتشموني ولا يظهروا مذاهبهم.

قال: ذلك إلى أمير المؤمنين متى شاء.

قال: فضع يدك على رأسي أن لا تعلمهم بحضوري، ففعل ذلك وبلغ الخبر المعتزلة، فتشاوروا بينهم وعزموا على أن لا يكلّموا هشاماً إلاَّ في الإمامة لعلمهم بمذهب الرشيد وإنكاره على من قال بالإمامة.

قال: فحضروا، وحضر هشام، وحضر عبد الله بن يزيد الأباضي

(١) بحار الأنوار ٤٨: ٣٩/ ح ١٤.

وكان من أصدق الناس لهشام بن الحكم، وكان يشاركه في التجارة، فلم دخل هشام على عبد الله بن يزيد من بينهم، فقال يحيى بن خالد لعبد الله بن يزيد: يا عبد الله كلّم هشاماً فيما اختلفتم فيه من الإمامة...

فقال هشام: أتقول: إنَّ الله عزّ وجلّ عدل لا يجور؟

قال: نعم هو عدل لا يجور تبارك وتعالى.

قال: فلو كلَّف الله المقعد المشي إلى المساجد والجهاد في سبيل الله، وكلَّف الأعمى قراءة المصاحف والكتب أتراه كان يكون عادلاً أم جائراً؟

قال ضرار: ما كان الله ليفعل ذلك.

قال هشام: قد علمت أنَّ الله لا يفعل ذلك ولكن على سبيل الجدل والخصومة، أن لو فعل ذلك أليس كان في فعله جائراً إذ كلَّفه تكليفاً لا يكون له السبيل إلى إقامته وأدائه؟

قال: لو فعل ذلك كان جائراً.

قال: فأخبرني عن الله عزّ وجلّ كلَّف العباد ديناً واحداً لا اختلاف فيه لا يقبل منهم إلاَّ أن يأتوا به كما كلَّفهم؟

قال: بلى.

قال: فجعل لهم دليلاً على وجود ذلك الدين، أو كلَّفهم ما لا دليل لهم على وجوده فيكون بمنزلة من كلَّف الأعمى قراءة الكتب والمقعد المشي إلى المساجد والجهاد.

قال: فسكت ضرار ساعة، ثمّ قال: لا بدَّ من دليل وليس بصاحبك.

قال: فتبسَّم هشام وقال: تشيّع شطرك وصرت إلى الحقّ ضرورة ولا خلاف بيني وبينك إلاَّ في التسمية...

القصَّة رائعة حقّاً والجدل لطيف جدّاً، وهارون الرشيد يسمع هذه

القصَّة، ويرى أنَّ هشام بن الحكم لديه سيطرة على الحوار وأفحم هؤلاء المتكلّمين.

فقال هارون: مثل هذا حيّ ويبقى لي ملكي ساعة واحدة؟! فوَ الله للسان هذا أبلغ في قلوب الناس من مائة ألف سيف.

فلمَّا انتهى المجلس أشار يحيى بن خالد إلى هشام أنَّك ستقتل ففرّ إلى البوادي، وبالفعل فقد فرَّ هشام إلى الكوفة ومات هناك، ولم يتمّ القبض عليه(١).

والفكرة التي نريد تأكيدها هي أنَّ الشريعة والمذهب والحقّ انتشر في زمن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى الأصقاع المختلفة ودخل حتَّى إلى قصر السلطان، وهذا هو دور الإمام الكاظم عليه السلام وهو المحافظة على المكاسب الحسينية والصادقية الجعفرية في الوقت الذي كان الشيعة يدفنون كتبهم خوفاً، كما فعل يونس بن عبد الرحمن حينما دفن كتبه الفقهية لأربع سنوات وبعد أن عادوا إليها وجدوها مأكولة، ومع كلّ هذه الملاحقة فقد تطوَّر المذهب وانتشر في جميع المعمورة.

الدور التربوي للإمام الكاظم عليه السلام:

الإمام الكاظم عليه السلام له وصيّة تربوية جميلة يقول الراوي: فسلَّمت عليه وجلست، وقد كنت أتيته لأسأله عن رجل من أصحابنا كنت سألته حاجة فلم يفعل، فالتفت إليَّ وقال: «ينبغي لأحدكم إذا لبس الثوب الجديد أن يمرّ يده عليه ويقول: الحمد لله الذي كساني ما أُواري به عورتي، وأتجمَّل به بين الناس، وإذا أعجبه شيء فلا يُكثر ذكره، فإنَّ ذلك ممَّا يهدّه، وإذا كانت لأحدكم إلى

---

(١) أنظر النصّ الكامل للرواية في: كمال الدين: ٣٦٢ - ٣٦٨.

أخيه حاجة ووسيلة لا يمكنه قضاؤها فلا يذكره إلاَّ بخير، فإنَّ الله يوقع ذلك في صدره فيقضي حاجته».

قال خالد: فرفعت رأسي وأنا أقول: لا إله إلاَّ الله، فالتفت إليَّ وقال: «يا خالد اعمل ما أمرتك»(١).

يذكر التاريخ قصَّة شقيق البلخي ـ وهو موثّق لدى المؤرّخين ـ ولقاءه مع الإمام الكاظم عليه السلام، يقول:

خرجت حاجّاً في سنة تسع وأربعين ومائة فنزلنا القادسية فبينا أنا أنظر إلى الناس في زينتهم وكثرتهم فنظرت إلى فتى حسن الوجه شديد السمرة ضعيف فوق ثيابه ثوب من صوف مشتمل بشملة في رجليه نعلان وقد جلس منفرداً، فقلت في نفسي: هذا الفتى من الصوفية يريد أن يكون كلاً على الناس في طريقهم والله لأمضين إليه ولأوبّخنه، فدنوت منه فلمَّا رآني مقبلاً قال: «يا شقيق ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]».

ثمّ تركني ومضى، فقلت في نفسي: إنَّ هذا الأمر عظيم قد تكلَّم بما في نفسي ونطق باسمي وما هذا إلاَّ عبد صالح لألحقنَّه ولأسألنَّه أن يحالني فأسرعت في أثره فلم ألحقه... ثمّ مال إلى كثيب رمل فجعل يقبض بيده ويطرحه في الركوة ويحرّكه ويشرب، فأقبلت إليه وسلَّمت عليه فردَّ عليَّ السلام، فقلت: أطعمني من فضل ما أنعم الله عليك، فقال: «يا شقيق لم تزل نعمة الله علينا ظاهرة وباطنة فأحسن ظنّك بربّك»، ثمّ ناولني الركوة فشربت منها فإذا هو سويق وسكر.

---

(١) كشف الغمّة ٣: ٣٥؛ بحار الأنوار ٤٨: ٣١/ ح ٢.

وهذه الحادثة نظمت قصيدة تقول:

سل شقيق البلخي عنه وما | عاين منه وما الذي كان أبصرْ
قال لمَّا حججت عاينت شخصاً | شاحب اللون ناحل الجسم أسمرْ
سائراً وحده وليس له | زاد فما زلت دائماً أتفكَّرْ
وتوهَّمت أنَّه يسأل الناس | ولم أدر أنَّه الحجّ الأكبرْ
ثمّ عاينته ونحن نزول | دون قيد على الكثيب الأحمرْ
يضع الرمل في الإناء ويشربه | فناديته وعقلي محيَّرْ
اسقني شربةً فناولني | منه فعاينته سويقاً وسكَّرْ
فسألت الحجيج من يكُ هذا | قيل هذا الإمام موسى بن جعفرْ[1]

اليوم نحن بحاجة إلى هذه الأخلاق والتعاليم كي يكون مجتمعنا مجتمعاً ملائكياً ومباركاً، وهذا هو امتداد المذهب في زمن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ودوره في المحافظة على المكاسب الحسينية والصادقية.

الامتداد السياسي للمذهب:

والجوّ السياسي في زمن بني العبّاس يختلف اختلافاً كلّياً عن الجو في الزمن الأموي وأصبح التشيّع ممتدّاً في الآفاق، حتَّى أنَّ هارون الرشيد قال ذات مرَّة للإمام الكاظم عليه السلام: ما لكم لا تنسبون إلى علي هو أبوكم وتنسبون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو جدّكم؟ والمحلّل التاريخي يجد أنَّ الموج الثقافي وصل إلى مستوى أنَّ هارون الرشيد وهو رأس السلطة أصبح يجد أنَّ الجوّ مهدَّد بثقافة (يا بن رسول الله) وهي قضيّة قد

(١) كشف الغمّة ٣: ٥.

تبدو غير مهمّة ولا تهزّ البلاد كي يخاطب الإمام الكاظم عليه السلام بهذا الشكل، ولكن يبدو أنَّه قد أصبح لها امتداد وموج ثقافي وفكري.

فقال له الإمام: «إنَّ الله نسب المسيح عيسى بن مريم عليه السلام إلى خليله إبراهيم عليه السلام بأُمّه مريم البكر البتول التي لم يمسّها بشر في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤ و٨٥]...»(١).

فتطوَّر الموقف إلى أنَّ هارون الرشيد وجد أنَّ المدّ الفكري لأهل البيت لا يمكن مقاومته إلاَّ بالحيل، وهنا جاءت عملية سجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

الإمام الكاظم عليه السلام كانت مدَّة إمامته (٣٥) عاماً وهي أطول مدّة إمامة لإمام من أهل البيت عليهم السلام وكان قد عاصر المنصور والهادي والمهدي وهارون الرشيد فاعتقل وسجن في زمن الرشيد.

الوحوش تخضع لأهل البيت عليهم السلام:

قال إبراهيم بن سعد: أدخل إلى موسى بن جعفر عليه السلام بسباع لتأكله، فجعلت تلوذ به وتبصبص له، وتدعو له بالإمامة، وتعوذ به من شرّ الرشيد، فلمَّا بلغ ذلك الرشيد أطلق عنه، وقال: أخاف أن يفتنني ويفتن الناس ومن معي(٢).

هذا الموضوع ذكَّرني بموقف الإمام الحسين عليه السلام والوحوش والسباع حوله يوم عاشوراء، وتأمَّلت هل أنَّ قصَّة السباع التي بكت الحسين هي أسطورة أم لها أصل في تراثنا الديني؟ ولقد تحدَّثنا عن علاقة الحسين عليه السلام بسائر

(١) تحف العقول: ٤٠٥.
(٢) دلائل الإمامة: ٣٢١ و٣٢٢/ ح (١٤/٢٧١).

الموجودات السماء، الملائكة، والأرض والحجر والمدر، وعثرت على روايتين يمكن اعتبارهما صحيحتين من حيث سند الرواية.

الرواية الأولى:

يرويها الشيخ الصدوق في كتاب الأمالي تقول:

إنَّ الحسين بن علي دخل يوماً إلى الحسن عليه السلام فلمَّا نظر إليه بكى، فقال له: «ما يبكيك يا أبا عبد الله؟».

قال: «أبكي لما يصنع بك؟».

فقال له الحسن عليه السلام: «إنَّ الذي يؤتى إليَّ سُمٌّ يُدسُّ إليَّ فأُقتل به، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله، يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل، يدَّعون أنَّهم من أمّة جدّنا محمّد صلى الله عليه وآله، وينتحلون دين الإسلام، فيجتمعون على قتلك، وسفك دمك، وانتهاك حرمتك، وسبي ذراريك ونسائك، وانتهاب ثقلك، فعندها تحلّ ببني أميّة اللعنة، وتمطر السماء رماداً ودماً، ويبكي عليك كلّ شيء الوحوش في الفلوات، والحيتان في البحار»[1].

الرواية الثانية:

يرويها الشيخ ابن قولويه في كتاب كامل الزيارات وهو من الكتب المعتبرة الذي لا يروي فيه إلاَّ رواية معتبرة، وبسند كلّه ثقاة، والسيّد الخوئي رحمه الله في كتابه (معجم رجال الحديث) كان رأيه السابق أنَّ كلّ اسم ورد في كتاب كامل الزيارات للشيخ ابن قولويه فهو ثقة بشهادة مؤلّف الكتاب.

عن الحارث الهمداني صاحب أمير المؤمنين عليه السلام، قال: قال علي عليه السلام: «بأبي وأُمّي الحسين المقتول بظهر الكوفة، والله كأنّي أنظر إلى

(١) أمالي الصدوق: ١٧٨/ ح (٣/١٧٩).

الوحوش مادة أعناقها على قبره من أنواع الوحش يبكونه ويرثونه ليلاً حتَّى الصباح، فإذا كان كذلك فإيّاكم والجفاء»(١).

الشاعر يخاطب الإمام علياً عليه السلام ويقول: يا أبا الحسن أنت كنت تتكلَّم مع الوحوش وتخاطب الأموات فهلاَّ حضرت كربلاء:

أمخاطب الذؤبان في فلواتها	ومكلّم الأموات في رمس البلا
يا ليت في الأحياء شخصك حاضر	وحسين مطروح بعرصة كربلا
عريان يكسوه الصعيد ملابسا	أفديه مسلوب اللباس مسربلا
ولصدره تطأ الخيول وطالما	بسريره جبريل كان موكَّلا
متوسّداً حرَّ الصخور معفّرا	بدمائه ترب الجبين مرمّلا

المحافظة على الهوية الإسلاميّة:

قال إمامنا موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «يا هشام لو كان في يدك جوزة وقال الناس: في يدك لؤلؤة ما كان ينفعك وأنت تعلم أنَّها جوزة، ولو كان في يدك لؤلؤة وقال الناس: إنَّها جوزة ما ضرَّك وأنت تعلم أنَّها لؤلؤة... يا هشام إنَّ لله على الناس حجّتين: حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمَّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة عليهم السلام، وأمَّا الباطنة فالعقول»(٢).

فالإمام الكاظم عليه السلام يريد أن يقول لهشام ولشيعته في كلّ عصر: إنَّكم إذا كنتم على حقّ والناس لا يعرفون ذلك فما يضرّكم من الأمر، ولنفترض أنَّ الناس لم يعرفوا قدر القرآن الكريم وأهل البيت إذا كنّا نواليهم ونعرف قدرهم ما ضرَّنا أنَّ الناس لا يعرفون قدرهم.

---

(١) كامل الزيارات: ١٦٦/ باب ٢٦/ ح (٣/٢١٤).

(٢) تحف العقول: ٣٨٦؛ بحار الأنوار ١: ١٣٦/ باب ٤/ ح ٣٠.

يبدو أنّه كانت هناك اهتزازات في المجتمع الإسلامي والإمام ـ كما قلنا ـ دوره هو المحافظة على المكاسب الحسينية وعلى المكاسب الجعفرية وعلى وحدة شيعته ووحدة الجماعة الصالحة كي لا ينهاروا أو يتفرّقوا ولا تضعف عزيمتهم إذا كان الناس لا يعرفون قيمة هذه الجوهرة التي بأيديهم، فقد كان يلوح في الأفق خطر التفرّق وخطر التصفية فالإمام يريد توحيدهم من ناحية وأن لا يقضى عليهم من ناحية أخرى، لكن الشيء الغريب أنّ رسول الله والأئمّة بمقدار ما كانت مهمّتهم تحقيق الوحدة للمسلمين من خلال التمسّك بحبل الله، الوحدة التي جمعت العربي والرومي والحبشي والهندي في ظلّ الإسلام، هذه الوحدة كانت على أساس التمسّك بحبل الله المتين، المتمثّل بالقرآن، ورسول الله صلى الله عليه وآله وهكذا أئمّتنا كانت مهمّتهم المحافظة على حبل الله المتين وإذا انقطع فلن تبقى هويّة لهذه الأمّة، هذه هي المعادلة، فالوحدة لا تحفظ إلاّ بالحفاظ على الهويّة الإسلاميّة، وإذا لم تحفظ الهوية الإسلاميّة صرنا أمماً شتّى متعدّدة، فالإسلام هو حافظنا وحافظ وحدتنا، ورغم وضوح هذا الموقف في حركة أهل البيت عليهم السلام لكنّنا نجد هناك تهمة توجّه من قبل الأعداء والمنحرفين باتّهام أهل البيت عليهم السلام بأنّهم أرادوا الفرقة.

اتّهام الحسين عليه السلام بالتفرقة:

الإمام الحسين هو سيّد شباب أهل الجنّة، والحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا، وهما الحبل بينكم وبين الله تعالى، ومع ذلك فإنّ السابقين واللاحقين من أهل الضلال اتّهموا الإمام

الحسين عليه السلام بأنّه فرّق المسلمين، وكأنّ يزيد كان يوحّد المسلمين والحسين يفرّقهم.

كما مرّ سابقاً قول الشيخ محمّد الخضري وتخطأته للحسين عليه السلام(١)، فبحسب هذا القول أنّ سبب التفرقة هو الحسين ابن رسول الله وسيّد شباب أهل الجنّة وليس يزيد ولا معاوية، لكن هذا لا يحتاج إلى مناقشة لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حسم الموقف حينما قال: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»(٢)، «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»(٣)، «إنّ الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»(٤).

قريش أيضاً قالت لأبي طالب: إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلّل آباءنا(٥)، أي اتّهموا النبيّ بالتفرقة، بينما القرآن يقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (الأنبياء: ٩٢)، ويقول في آية أخرى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وحبل الله هو القرآن ورسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام فإذا الناس قد خرجوا عن القرآن وعن نبيّهم أو إمامهم فالفرقة هي بفعل هؤلاء الخارجين وليس بفعل النبيّ والإمام، ولا بفعل الذين تمسّكوا بهم وإن كانوا قلّةً.

فإذا قال يزيد:

لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزل

فهل يصحُّ أن يقال: إنّه حافظ على الوحدة الإسلاميّة وأمّا الحسين

---

(١) أنظر (ص ١١١) تحت عنوان: كلمات ضدّ الحسين عليه السلام.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٦/ ح ٥٦؛ مسند أحمد ٣: ٣.

(٣) روضة الواعظين: ١٥٦.

(٤) مدينة المعاجز ٤: ٥٢/ ح (١٠٨٠/١٣٣).

(٥) راجع: مناقب آل أبي طالب ١: ٥٢.

الذي يقول: «وإنَّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي صلى الله عليه وآله»[١]، فهو سبب الفرقة!؟ بل الوحدة إنَّما تكون من خلال التمسّك بحبل الله تعالى، نحن نعتقد أنَّ أهل البيت عليهم السلام هم سبب ما بقي من وحدة الأمّة الإسلاميّة الضاربة في عمق العالم ولولاهم لكانت العنصرية والقومية قد استأصلت الجميع فلولا أهل البيت لا توجد وحدة إسلاميّة ولا توجد أمم تدخل الإسلام.

قال سعيد بن العاص الأموي والي عثمان على الكوفة لسمّاره: (إنَّ السواد ــ يقصد سواد العراق بما فيه من مزارع وبساتين ــ بستان لقريش وبني أميّة)[٢] ولولا أهل البيت فأيّة أمّة إسلاميّة كانت تصمد؟ ومن يدخل الإسلام وهو بهذا الشكل؟ ومن ناحية ثانية يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسُنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ثمّ لم يغيّر بقول ولا فعل، كان حقيقاً على الله أن يدخله مدخله»[٣] بمعنى أنَّه لا يجوز السكوت على السلطان الجائر.

الوحدة إنَّما هي من خلال المحافظة على الهوية الإسلاميّة وليس بعيداً عنها، ولا يجوز أن يتَّهم الإمام الحسين عليه السلام بأنَّه فرَّق الأمّة الإسلاميّة، بل هو عمل على المحافظة على وحدة المسلمين من خلال مواجهة الحكومات الدكتاتورية المستبدّة التي تستعبد الناس.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ١٢٩.

(٣) بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٢.

خطر الانشقاقات الداخلية:

الإمام الكاظم عليه السلام كان في زمنه خطر الانشقاقات الداخلية، فقد ظهر مذهب جديد هو المذهب الإسماعيلي وهو إلى الآن موجود في الهند وباكستان ويقال عنهم أيضاً: (البهرة)، والإسماعيلية قسم من الشيعة قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وهو الابن الأكبر وكان وجيهاً ولكن شاءت حكمة الله أن يموت في زمن الإمام الصادق عليه السلام وكان الجوّ العام آنذاك يتصوَّر أنَّ الإمام بعد الإمام الصادق عليه السلام هو إسماعيل، فالإمام الصادق كان يقرأ رؤية الناس وكان جماعة كثيرة يعتقدون بإسماعيل، فلمَّا شيَّع جنازته أمر بوضع سريره على الأرض قبل دفنه مراراً كثيرة، وكان يكشف عن وجهه وينظر إليه، يريد عليه السلام بذلك تحقيق أمر وفاته عند الظانّين خلافته له من بعده، وإزالة الشبهة عنهم في حياته[1]، أي أنَّ الإمام كان يقرأ الأجواء، وأنَّه سيحدث هناك انشقاق في داخل الشيعة، وفي زمن الإمام الصادق قالوا بإمامة إسماعيل وعدم وفاته، وبقيت هذه القضيّة وكانت مسؤولية الإمام الكاظم عليه السلام أن يواجه مثل هذه الانشقاقات الداخلية.

الخطّ الإسماعيلي اختلف مع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بمستوى أن تحالف هذا الخطّ مع هارون الرشيد ومع المهدي العبّاسي ضدّ الإمام موسى بن جعفر، ونكاد لا نصدّق هذه الأخبار ولكن هي انشقاقات داخلية يحدّثنا بها التاريخ ونعترف بها وفيها خطوط انحرافية في داخل البيت الشيعي وداخل الأسرة الهاشمية الواحدة إذن هي قضيّة يجب أن تستوعبها ثقافتنا، فلا يقول قائل: كيف يحدث ذلك، فلقد حدث ذلك في زمن نبيّ الله موسى وفي زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وفي زمن الأئمّة أيضاً، ولهذا كانت مهمّة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام توحيد البيت الشيعي.

---

(١) الإرشاد ٢: ٢٠٩؛ بحار الأنوار ٤٧: ٢٤٢/ ح ٢.

جاء علي بن جعفر[1] للإمام الكاظم عليه السلام وقال له: إنَّ ابن أخيك محمّد بن إسماعيل يسألك أن تأذن له في الخروج إلى العراق وأن توصيه، فأذن له عليه السلام، فلمَّا رجع إلى مجلسه قام محمّد بن إسماعيل وقال: يا عمّ أحبّ أن توصيني.

فقال: «أوصيك أن تتَّقي الله في دمي».

فقال: لعن الله من يسعى في دمك، ثمّ قال: يا عمّ أوصني.

فقال: «أوصيك أن تتَّقي الله في دمي»، قال: ثمّ ناوله أبو الحسن عليه السلام صرّة فيها مائة وخمسون ديناراً فقبضها محمّد، ثمّ ناوله أخرى فيها مائة وخمسون ديناراً فقبضها، ثمّ أعطاه صرّة أخرى فيها مائة وخمسون ديناراً فقبضها، ثمّ أمر له بألف وخمسمائة درهم كانت عنده، فقلت له في ذلك واستكثرته فقال: «هذا ليكون أوكد لحجَّتي إذا قطعني ووصلته».

قال : فخرج إلى العراق فلمَّا ورد حضرة هارون أتى باب هارون بثياب طريقه قبل أن ينزل واستأذن على هارون وقال للحاجب: قل لأمير

(١) علي بن جعفر هو ابن الإمام الصادق عليه السلام وكان صالحاً فقيهاً مطيعاً لأخيه الإمام الكاظم عليه السلام ومن بعده الجواد والرضا عليهما السلام، فعن محمّد بن الحسن بن عمّار، قال: كنت عند علي بن جعفر بن محمّد جالساً بالمدينة وكنت أقمت عنده سنتين أكتب عنه ما يسمع من أخيه - يعني أبا الحسن عليه السلام - إذ دخل عليه أبو جعفر محمّد بن علي الرضا عليه السلام المسجد - مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله - فوثب علي بن جعفر بلا حذاء ولا رداء فقبَّل يده وعظَّمه، فقال له أبو جعفر عليه السلام: «يا عمّ اجلس رحمك الله»، فقال: يا سيّدي كيف أجلس وأنت قائم؟ فلمَّا رجع علي بن جعفر إلى مجلسه جعل أصحابه يوبّخونه ويقولون: أنت عمّ أبيه وأنت تفعل به هذا الفعل؟ فقال: اسكتوا إذا كان الله عز وجل - وقبض على لحيته - لم يؤهّل هذه الشيبة وأهَّل هذا الفتى ووضعه حيث وضعه، أنكر فضله؟! نعوذ بالله ممَّا تقولون، بل أنا له عبد. (الكافي ١: ٣٢٢/ باب الإشارة والنصّ على أبي جعفر الثاني.../ ح ١٢).

المؤمنين إنَّ محمّد بن إسماعيل بن جعفر بن محمّد بالباب، فقال الحاجب: انزل أوّلاً وغيّر ثياب طريقك وعد لأدخلك إليه بغير إذن فقد نام أمير المؤمنين في هذا الوقت، فقال: اعلم أمير المؤمنين أنّي حضرت ولم تأذن لي فدخل الحاجب وأعلم هارون قول محمّد بن إسماعيل فأمر بدخوله فدخل قال: يا أمير المؤمنين خليفتان في الأرض موسى بن جعفر بالمدينة يجبى له الخراج وأنت بالعراق يجبى لك الخراج.

فقال: والله!؟ فقال: والله، قال: فأمر له بمائة ألف درهم، فلمَّا قبضها وحمل إلى منزله أخذته الريحة في جوف ليلته فمات وحول من الغد المال الذي حمل إليه(١).

فلمَّا قبض هارون على الإمام الكاظم عليه السلام قال له الإمام عليه السلام: «حدَّثني أبي، عن أبيه، عن علي، عن النبيّ عليهم السلام: «الرحم إذا مسَّت الرحم اضطربت ثمّ سكنت، فإن رأى أمير المؤمنين أن تمسّ رحمي رحمه ويصافحني فعل».

فتحوَّل عند سريره ومدَّ يمينه إلى موسى عليه السلام فأخذ يمينه، ثمّ ضمّه إلى صدره، فاعتنقه وأقعده عن يمينه وقال: أشهد أنَّك صادق وأباك صادق وجدّك صادق ورسول الله صلى الله عليه وآله صادق(٢).

توحيد البيت الشيعي:

من ذلك نعرف أنَّ هناك انشقاقات داخلية في داخل البيت الشيعي وكانت مهمّة الإمام الكاظم عليه السلام هي توحيد البيت الشيعي في مقابل تلك الانشقاقات،

(١) بحار الأنوار ٤٨: ٢٣٩/ ح ٤٨.

(٢) تحف العقول: ٤٠٤.

لقد كان هناك خطّ آخر وهو خطّ سياسي، وهو خطّ الثوّار الحسنيين الذين قالوا: مثلما ثار الحسين نحن أيضاً نثور واحداً بعد الآخر، وكان هذا الخطّ في زمن الإمام الصادق والكاظم وفيه وجوه محترمة من بني هاشم.

ومن جملة تلك الثورات ثورة صاحب فخ، وفخ ذكرها دعبل الخزاعي في قصيدته عندما يقول:

قبور بكوفان وأخرى بطيبة　　　وأخرى بفخ نالها صلواتي

وأخرى بأرض الجوزجان محلّها　　　وقبر بباخمرى لدى الغرباتِ

وهذه القبور هي للثوّار الحسنيين، وأهمّ تلك الثورات هي ثورة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكانت فيها واقعة مؤلمة وفجيعة في فخ، حتَّى أنَّ لدينا روايات عن الإمام الجواد عليه السلام يقول: «وما وقعت وقعة بعد وقعة الطفّ أعظم علينا من محاربة فخ»(١)، وهي منطقة فيها بئر ماء يُسمّى: (فخ) تبعد عن مكّة المكرَّمة أربعة كيلومترات، ذلك أنَّ الحسين بن علي بن الحسن أراد أن يثور وجاء للإمام موسى بن جعفر وقال له: أطلب منك النصرة وأن تكون معي.

قال له: «إنَّك مقتول فأجد الضراب فإنَّ القوم فسّاق يظهرون إيماناً، ويضمرون نفاقاً وشركاً، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وعند الله عزَّ وجلَّ أحتسبكم من عصبة»(٢)، وأخبره أنَّه سوف يسيطر على بعض المدينة ومكّة أيّاماً «وليس لك إلاَّ ضياع المدينة» أي البساتين المحيطة، فثار في المدينة وسقطت بيده، ومكّة كذلك، إلى أن أتته جيوش كثيرة وصارت

(١) شجرة طوبى ١: ١٦٦/ المجلس ٥٤.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٢٩٨؛ بحار الأنوار ٤٨: ١٦٩.

مقتلة عظيمة في فخ، وقُتِل جميع من معه، تقول الرواية: وكان معه جميع الطالبيين إلاَّ اثنان هما فلان وموسى بن جعفر، فقد تخلَّف عنه الإمام موسى بن جعفر لأنَّ مهمّته كانت المحافظة على الكيان الإسلامي.

الإمام الجواد عليه السلام يقول: «وما وقعت وقعة بعد وقعة الطفّ أعظم علينا من محاربة فخ».

لقد كتب الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن رسالة للإمام الكاظم عليه السلام يطلب منه الالتحاق به، فأجابه الإمام بالاعتذار، فكان بعض القادة يقول له: لماذا ثبطت الناس عن نصرتنا وثورتنا صحيحة، فكتب له الإمام رسالة جاء فيها: «وذكرت أنّي ثبَّطتُ الناس عنك... وأنا متقدّم عليك أحذّرك معصية الخليفة»، وكانت هذه الرسالة قد وصلت إلى هارون الرشيد فعفا عن الإمام[1]. وهذه هي سياسة الأئمّة الأطهار عليهم السلام، في سبيل أن يبقى الكيان محفوظاً، وفي نفس الوقت لم يكن هذا الخطّ الثوري خطّاً باطلاً، بل كان الإمام يترحَّم عليهم وكان يحتسبهم عند الله تعالى.

وهكذا حافظ الإمام الكاظم عليه السلام على الأمّة من الانشقاقات، ومن الاستئصال والتصفية، وبالفعل بقي خطّ أئمّتنا إلى اليوم بفضل هذه السياسة الحكيمة ولذا نقرأ في زيارتهم: «وبموالاتكم تمَّت الكلمة، وعظمت النعمة، وائتلفت الفرقة»[2]، ونحن نعتقد أنَّ الوحدة الإسلاميّة إنَّما كانت بأهل البيت عليهم السلام ولولا أهل البيت لما بقي شيء من الوحدة الإسلاميّة.

* * *

(١) راجع: الكافي ١: ٣٦٧/ باب ما يفصل به بين دعوى المحقّ.../ ح ١٩.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٣٠٩/ ح ١.

الدراسة الثالثة عشرة:

بين الإمام الحسين عليه السلام
والإمام الرضا عليه السلام

- تحوّل في السيّاسة العبّاسية.
- اتّجاهات في فهم الدين.
- الإمام الرضا عليه السلام في مواجهة الانشقاقات.

قال إمامنا الحسين عليه السلام: «ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذلّة وهيهات منّا الذلّة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيّة، من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[1].

وقال إمامنا علي بن موسى الرضا عليه السلام: «حدَّثني أبي موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمّد، عن أبيه محمّد بن علي، عن أبيه علي ابن الحسين، عن أبيه الحسين سيّد شباب أهل الجنّة، عن أبيه أمير المؤمنين، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: أخبرني جبرئيل الروح الأمين، عن الله عز وجل قال: إنّي أنا الله، لا إله إلاَّ أنا وحدي عبادي فاعبدوني، وليعلم من لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلاَّ الله مخلصاً بها، أنَّه قد دخل حصني، ومن دخل حصني أمن عذابي».

قالوا: يا بن رسول الله، وما إخلاص الشهادة لله؟

قال: «طاعة الله ورسوله، وولاية أهل بيته عليهم السلام»[2].

الطاعة لِمَنْ؟

هذان حديثان أحدهما للإمام الحسين عليه السلام والآخر للإمام الرضا عليه السلام وحديثنا عن المقارنة بين حركة الإمام الرضا عليه السلام وبين حركة الإمام الحسين.

مطلع المقارنة كلمتان، كلمة للإمام الرضا عليه السلام وكلمة بنفس الاتّجاه للإمام الحسين عليه السلام الذي يؤكّد على مسألة الطاعة، ولمن تطع؟

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٥٩.

(٢) أمالي الطوسي: ٥٨٩/ ح (٩/١٢٢٠)؛ بحار الأنوار ٣: ١٥/ باب ١/ ح ٣٩.

ولمن تنقد؟ وما هو السبيل بينك وبين الله تعالى؟ حينما يقول القرآن الكريم: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)، والإمام الحسين حينما خطب يوم عاشوراء في النصّ الذي قرأناه حيث ينصّ على حرمة طاعة اللئام.

القرآن الكريم يتحدَّث عن قوم فرعون ويقول: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ (الزخرف: ٥٤)، وهذه كانت مشكلة قوم فرعون أنَّه استخفَّهم فأطاعوه، وهذا هو الخطر.

الإمام الرضا عليه السلام يوم استدعاه المأمون الذي اتَّخذ خراسان عاصمةً له، ويحتاج هذا الأمر إلى بحث وتحليل تاريخي فهارون الرشيد في خراسان ودفن هناك وجاء بعده المأمون أيضاً في خراسان وأصرَّ المأمون على استدعاء الإمام الرضا عليه السلام إلى خراسان وكان الإمام يعتذر إلى أن رأى الإمام أنَّ القضيّة لا بدَّ منها فهو بمثابة اعتقال وسوق، وليس بالمحبّة والاختيار، فانطلق الإمام من المدينة المنوّرة إلى خراسان باتّجاه البصرة ثمّ الأهواز ثمّ فارس التي هي الآن شيراز ثمّ خراسان، وهي يومذاك لم تكن بهذا الاسم بل كانت تسمّى: (مرو) وكان نفوذ أهل البيت في كلّ هذه الأجواء الشعبية وكان الإمام الرضا أينما ذهب احتفَّت به الجماهير حتَّى وصل إلى نيشابور ويقال لها يومئذٍ: نيسابور وهي على أطراف مشهد فاستقبله الناس حتَّى قيل: إنَّهم بلغوا اثني عشر ألف فلمَّا أراد أن يرحل عنهم قالوا له: يا بن رسول الله ترحل عنّا ولا تحدّثنا بحديث فنستفيده منك، وقد كان قعد في العمارية فأطلع رأسه، وقال: «سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمّد يقول: سمعت أبي محمّد بن علي يقول: سمعت أبي علي بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن علي يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

سمعت جبرئيل عليه السلام يقول: سمعت الله عزّ وجلّ يقول: لا إله إلاَّ الله حصني، فمن دخل حصني أمن عذابي»، فلمَّا مرَّت الراحلة نادانا: «بشروطها، وأنا من شروطها»[1].

والإمام الحسين عليه السلام تحدَّث بنفس هذا الاتّجاه حينما انطلق وتحرَّك من مكّة المكرَّمة فقد قال: «رضى الله رضانا أهل البيت»[2] أي إنَّ هناك توافقاً دائمياً وهو الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وآله: «لن يفترقا حتَّى يردا عليَّ الحوض»[3].

تحوّل في السياسة العبّاسية:

حينما نريد أن نكوّن صورة عن حركة الإمام الرضا عليه السلام في ظلّ الأجواء السياسية والثقافية والدينية التي عاشها وهي امتداد لحركة الإمام موسى بن جعفر والإمام الصادق عليهما السلام.

نلاحظ في زمن الإمام الرضا عليه السلام فشل السياسة العبّاسية في البطش والتظليل ممَّا دعاهم إلى أخذ سياسة ثالثة.

لقد كانت السياسة أيّام أبي العبّاس السفّاح وأبي جعفر المنصور والهادي والمهدي والرشيد قائمة على البطش والقمع وكمّ الأفواه وخداع الناس والقول بأنَّ بني العبّاس هم من آل البيت ومن شجرة النبوة، ولكن كلّ هذه المحاولات أخفقت وتصاعد موج الولاء للإمام الرضا عليه السلام فكان كلّ الناس ينادون: الرضا من آل محمّد، والخلافة العبّاسية بعدما رأت أنَّ البطش والتضليل لم يُجد نفعاً انتهجوا السياسة

(١) أمالي الصدوق: ٣٠٦/ ح (٨/٣٤٩).

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ٣٨؛ بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٧.

(٣) الكافي ٢: ٤١٥/ باب أدنى ما يكون العبد مؤمناً.../ ح ١.

الثالثة وهي سياسة المكر والنفاق، فلبسوا ثوب الإيمان، لذا نجد المأمون العبّاسي يظهر ولاءً للإمام الرضا عليه السلام ويفرض عليه أن يكون ولي عهد له، فقال له الإمام: إذا كان لا بدَّ منها فإنّي أقبل بشرط أن لا آمر ولا أنهى، فالإمام يريد أن يكشف هذه الخدعة للملأ العام، والمأمون عقد مجالس فرح وأدب وشعر لخداع الناس.

تقول رواياتنا: إنَّما سُمّي الرضا لأنَّه كان رضى الله تعالى في سمائه، ورضى لرسوله والأئمّة عليهم السلام بعده في أرضه[1]، أي أنَّ الجوّ الجماهيري أيضاً كان للإمام، الراوي يقول: لمَّا توفّي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام دخل أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام لسوق، فاشترى كلباً وكبشاً وديكاً، فلمَّا كتب صاحب الخبر إلى هارون بذلك قال: قد أمنا جانبه، وكتب الزبيري أنَّ علي بن موسى الرضا عليه السلام قد فتح بابه ودعا إلى نفسه، فقال هارون: وا عجبا من هذا! يكتب إنَّ علي بن موسى عليه السلام قد اشترى كلباً وكبشاً وديكاً ويكتب فيه بما يكتب[2]. هكذا عمل أئمّتنا بهدف الحفاظ على الإمامة وأن لا يكون هناك خطر يقتلع الإمامة من جذورها، وهكذا حفظوها من إمام إلى إمام، إلى أن وصلتنا إلى اليوم.

لقد كان هناك طوق مفروض حول الإمام الرضا عليه السلام منذ أيّام الرشيد وبعد الرشيد صار الحكم للأمين، ثمّ خلع الأمين وحبس وأُجلس عمّه إبراهيم بن شكله (١٤) يوماً _ وهذه هي خلافة المسلمين التي أصبحت بيد أُناس بهذه المستويات _، ثمّ أُخرج الأمين من الحبس وبويع له ثانية، ثمّ ملك المأمون الذي

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٧٥؛ بحار الأنوار ٤٩: ١٠/ ح ٢١.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٢٢/ باب ٤٧/ ح ٤.

أرسل قوّات من خراسان وقتل الأمين، والإمام الرضا عليه السلام رغم كلّ ذلك الحصار فقد انتشر نوره في العالم فأرسل المأمون على الإمام الرضا عليه السلام وجاء الإمام من المدينة إلى خراسان.

اتّجاهات في فهم الدين:

وفي الطريق لمَّا اجتمع عليه الناس حدَّثهم بهذا الحديث: «لا إله إلاَّ الله حصني»[1].

ولكن هذه الكلمة ذات محتوىً عظيم في الجانب الفكري والسياسي، حيث كان السؤال عن ما هو الإيمان يمثّل بحثاً ساخناً وجدلاً واسعاً حيث كانت مجموعة اتّجاهات، كما هو اليوم توجد مجموعة اتّجاهات، ولننظر إلى الاتّجاه الصحيح للإيمان الذي رسمه أهل البيت عليهم السلام:

الاتّجاه الأوّل: اتّجاه الإباحية في ذلك الزمان كما هو في هذا الزمان حيث قالوا: إنَّ الإيمان هو مجرَّد الاعتقاد بالتوحيد والنبوّة ولا حاجة إلى أيّ سلوك خاصّ.

الاتّجاه الثاني: الاتّجاه التكفيري الذي يرى أنَّ الإيمان مشروط بالعدالة والالتزام الكامل بالشريعة بحيث إذا ارتكبت معصيةً فأنت كافر وقد خرجت من الإيمان.

الاتّجاه الثالث: المنزلة بين المنزلتين وهو اتّجاه المعتزلة الذين قالوا: إنَّ مرتكب المعصية ليس مؤمناً ولا كافراً وإنَّما هو في منزلة بين منزلتين.

الاتّجاه الرابع: الذي ظهر يومئذٍ هو نظرية المرجئة الذين يقولون: لا نعلم مصير الفاسق وإنَّما أمره موكول إلى الله، فنحن لا نحكم عليه بالكفر.

---

(١) راجع: أمالي الصدوق: ٣٠٥ و٣٠٦/ ح (٨/٣٤٩).

الساحة يومئذٍ كانت تغلي بهذه الاتّجاهات وأهل البيت عليهم السلام كان عليهم المحافظة على المفهوم الصحيح للإيمان، وبنفس الوقت المحافظة على الإمامة، هنا قال الإمام عليه السلام: «لا إله إلاَّ الله حصني، فمن دخل حصني أمن عذابي» فكان شرط الإيمان هو الإخلاص، ولهذا أصبح لدينا في ثقافة أهل البيت إسلام وإيمان، فالمسلم هو كلّ من قال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمّداً رسول الله، وهناك شيء آخر هو الإيمان ونقصد بالإيمان عمق الإسلام، والإيمان هو الاعتقاد بولاية أهل البيت، فالمسلم الذي لا يؤمن بولاية أهل البيت ليس بمؤمن، وهذا الأمر أفادنا به القرآن الكريم الذي يقول: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا﴾ (الحجرات: ١٤)، والقرآن الكريم يضع فرقاً بين ما هو إسلام وبين ما هو إيمان، وهنا يقول الإمام الرضا عليه السلام حينما سألوه: وما إخلاص الشهادة لله؟

قال: «طاعة الله ورسوله، وولاية أهل بيته عليهم السلام».

والإمام الحسين عليه السلام قال: «رضى الله رضانا أهل البيت».

الإمام الرضا عليه السلام في مواجهة الانشقاقات:

الإمام الرضا يتحمَّل مسؤولية مواجهة الانشقاقات التي حدثت، حيث إنَّ كلّ مبدأ من المبادئ حينما يكون له انتشار واسع جدَّاً تصبح السيطرة عليه ضعيفة وتتكوَّن فيه اتّجاهات متعدّدة وتصبح هناك عناصر متسلّلة، ويومئذٍ كلّ العالم الإسلامي كان يتَّجه نحو الإمام الرضا ممَّا أدّى إلى ظهور خيوط مائلة، ففي زمن الإمام الكاظم كان هناك خطّ مائل وهم الإسماعيلية كما ذكرنا سابقاً[1] وبعد الإمام الكاظم ظهر خطّ

(١) أنظر (ص ٤٤٤) تحت عنوان: خطر الانشقاقات الداخلية.

مائل آخر وهم الواقفة الذين وقفوا على إمامة الإمام موسى بن جعفر وقالوا: هو الإمام الذي سيظهر، وبعده لا يوجد إمام، الإمام كان عليه تحمّل مسؤولية توضيح الاتّجاه الصحيح في مقابل هذه الادّعاءات، وهؤلاء الواقفة قالوا: إنَّ موسى بن جعفر لم يمت ولقد التحق بهذا المذهب مجموعات شيعية غرَّتهم الأموال مثل علي بن أبي حمزة البطائني الذي تجمَّعت عنده أموال طائلة باعتباره وكيلاً للإمام وكان عليه أن يبعثها إلى الإمام الرضا فلم يسلّمها.

قصّة زينب الكذّابة:

هناك امرأة في خراسان اسمها زينب عرفت بعدئذٍ بزينب الكذّابة، دخل الإمام الرضا عليه السلام على المأمون وعنده زينب الكذّابة، وكانت تزعم أنَّها بنت علي بن أبي طالب، وأنَّ علياً عليه السلام قد دعا لها بالبقاء إلى يوم القيامة، فقال المأمون للرضا عليه السلام: سلّم على أختك.

فقال: «والله ما هي بأختي ولا ولدها علي بن أبي طالب».

فقالت زينب: ما هو أخي ولا ولده علي بن أبي طالب.

فقال المأمون للرضا عليه السلام: ما مصداق قولك هذا؟

فقال: «إنّا أهل البيت لحومنا محرَّمة على السباع، فأطرحها إلى السباع، فإن تكُ صادقة فإنَّ السباع تعفى لحمها».

قالت زينب: ابتدئ بالشيخ.

قال المأمون: قد أنصفت.

فقال له: «أجل»، ففتحت بركة السباع فنزل الرضا عليه السلام إليها، فلمَّا رأته بصبصت وأومأت إليه بالسجود، فصلّى فيما بينها ركعتين وخرج منها.

فأمر المأمون زينب أن تنزل فنزلت، وطرحت السباع فأكلتها[(١)].

لولا أئمّتنا لكانت هذه المواقف تنطلي على الناس، فكان دور الإمام هو توضيح الصورة وإقامة البرهان.

الإمامة منصب إلهي:

هناك موضوع نستلهم الموقف والرؤية الدينية فيه من خلال هذين التصريحين:

الإمام الحسين يقول: «خير لي مصرع أنا لاقيه» أي إنَّ هناك اختياراً غيبياً إلهياً للمصرع في كربلاء «بين النواويس وكربلاء» والنواويس هي قرى في أطراف كربلاء «كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات» حيث يتقطَّع الإمام قطعة قطعة في كربلاء بسيوف الأعداء التي عبَّر عنها الإمام بعُسلان الفلوات بمعنى ذئاب الفلوات، فهناك قرار مسبق غيبي ممَّا وراء عالم السماوات والأرض، نعم إنَّ الإمام الحسين عليه السلام تقدَّم باختياره، لكن هناك قرار إلهي مُسبق وهو يسير وفق القرارات الإلهية. وإذا جئنا لتصريح الإمام الرضا عليه السلام حيث يقول: «إنَّ الإمامة هي خلافة الله ورسوله والإمام لا يعادله عالم، مخصوص بالفضل من غير طلب ولا اكتساب»، نجد أنَّ الإمام هنا يعطينا صورة عن الإمامة في الإسلام، ومن هو الإمام في الإسلام، فالإمام يُعطى العلم من قبل الله تبارك وتعالى بدون دراسة ولهذا لا يعرف التاريخ عن أحد من أئمّتنا أنَّه

---

(١) الثاقب في المناقب: ٥٤٦/ باب ١٣/ ح (٦/٤٨٨)؛ وقد ذكر المصنّف في (ص ٥٤٥) القصَّة بلفظ آخر ونسبها إلى الإمام الهادي عليه السلام، وكذا في مناقب آل أبي طالب ٣: ٥١٨؛ بحار الأنوار ٥٠: ٢٠٤/ ح ١٤.

درس عند أستاذ، في الوقت الذي يعتقد كلّ العالم الإسلامي بفضل أئمّتنا الكبير بينما لا يقول أحد عن الإمام الصادق مثلاً أنَّه درس عند فلان أو غيره إذن علومهم من أين اكتسبوها؟

هنا يقول الإمام الرضا عليه السلام: «بغير طلب ولا اكتساب» وليس كما ندرس نحن البشر، وإنَّما هو علم من عند الله تبارك وتعالى.

والإمام الحسين عليه السلام في النصّ الذي قرأناه يتحدَّث عن إرادة إلهية فيقول: «خير لي مصرع أنا لاقيه» والإمام الرضا عليه السلام يؤكّد أنَّ علم الأئمّة مأخوذ مباشرة من الله تعالى بدون تعليم بشري أو مأخوذ من رسول الله صلى الله عليه وآله أو من تلك الألف باب التي علَّمها رسول الله صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام.

هل الإمام يعلم الغيب؟

إنَّ هذا الموضوع يفتح لنا بحثاً نقف عنده اليوم هو علم الغيب وما هو اعتقادنا في علم الأئمّة؟

الأئمّة لم يدرسوا عند أحد، ولم يتعلَّموا عند أستاذ فهل يعلمون الغيب أم لا؟

أليس علم الغيب من اختصاص الله تبارك وتعالى؟ والقرآن الكريم صريح بذلك حينما يقول على لسان الأنبياء: ﴿لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ (الأنعام: ٥٠)، ويقول تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ﴾ (الأنعام: ٥٩)، فهل نقول إذن أنَّ الأئمّة يعلمون الغيب؟

وإذا قلنا: لا يعلمون الغيب فكيف نفسّر معجزاتهم وكراماتهم كما سيأتي عن الإمام الرضا عليه السلام مجموعة أخبار غيبية؟

الجواب: أنَّ هناك علماً غيبياً ذاتياً وهو علم الله تعالى وهناك علم

غيب تعليمي، أي إذا أراد الله تعالى أن يعلّمه أحداً من الناس فعل ذلك كما علَّم يوسف تأويل الأحاديث: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ (يوسف: ٣٧)، فذلك بتعليم من الله تبارك وتعالى وهي ليست دراسة، فيوسف لم يدرس، وإنَّما أُعطي السبب وهو ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٣٧)، فهذا الإخلاص والانقطاع إلى الله هو الذي جعل الله تعالى يتفضَّل عليه بهذه القدرة، والإنسان كلَّما ارتبط بالله يسدّده ويفتح له الآفاق إذن هذا علم غيب، لكنَّه علم تعليمي، ورسول الله علَّم الإمام علياً عليه السلام ألف باب في كلّ باب ألف باب، فعلَّم الحسن والحسين، وعلَّما زين العابدين، ثمّ محمّد الباقر وهكذا، لذا في ثقافتنا أنَّ الأئمّة عندهم علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

الإمام الرضا عليه السلام مع بعض الواقفة:

الحسن الوشا وهو من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام يقول: كنت كتبت معي مسائل كثيرة قبل أن أقطع على أبي الحسن عليه السلام وجمعتها في كتاب ممَّا روى عن آبائه عليهم السلام وغير ذلك وأحببت أن أثبت في أمره وأختبره فحملت الكتاب في كمّي وصرت إلى منزله وأردت أن آخذ منه خلوة فأناوله الكتاب فجلست ناحية وأنا متفكّر في طلب الإذن عليه وبالباب جماعة جلوس يتحدَّثون فبينا أنا كذلك في الفكرة في الاحتيال للدخول عليه إذ أنا بغلام قد خرج من الدار في يده كتاب فنادى: أيّكم الحسن بن علي الوشاء ابن بنت إلياس البغدادي؟ فقمت إليه فقلت: أنا الحسن بن علي فما حاجتك؟

فقال: هذا الكتاب أمرت بدفعه إليك فهاك خذه، فأخذته وتنحَّيت ناحية فقرأته فإذا والله فيه جواب مسألة مسألة فعند ذلك قطعت عليه وتركت الوقف(١).

إنَّ من الحقّ أن تسألوا من أين أخذ الإمام الرضا هذه المعلومة؟ الجواب: هذا بتعليم من الله تعالى ولا نعرف كيف ذلك.

هناك شخص قال: خرجت إلى الرضا عليه السلام وامرأتي بها حبل، فقلت له: إنّي خلفت أهلي وهي حامل، فادع الله أن يجعله ذكراً.

فقال لي: «وهو ذكر، فسمّه عمر».

فقلت: نويت أن أسمّيه علياً، وأمرت الأهل به.

قال: «سمّه عمر»، فوردت الكوفة وقد ولد لي ابن وسمّي علياً، فسمَّيته عمر، فقال لي جيراني: لا نصدّق بعدها بشيء ممَّا كان يحكى عنك. فعلمت أنَّه كان أنظر لي من نفسي(٢).

هذا تعليم من عند الله تبارك وتعالى، وهؤلاء الواقفة كان أحد الأسباب التي وقفوا من أجلها على موسى بن جعفر هو الدعاية المضادة أنَّ الإمام الرضا لم يكن لديه ولد فقد كانوا يقولون: كيف يكون الرضا إماماً ولم تكن لديه ذرّية، ذلك أنَّه لم يكن قد رزق يومئذٍ مولوداً، لذا فقد جاءه شخص من الواقفة وقال: أنت إمام؟

قال: «نعم».

قال: إنّي أشهد الله أنَّك لست بإمام.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٥٢/ باب ٥٥/ ح ١، والواقفة هم مجموعة من الناس وقفوا على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

(٢) الثاقب في المناقب: ٢١٤/ باب ١/ ح (١٦/١٨٧).

قال: «ما علمك أنّي لست بإمام؟».

قال: إنّا قد روينا عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّ الإمام لا يكون عقيماً وأنت قد بلغت السنّ وليس لك ولد.

فقال: «إنّي أشهد الله أنَّه لا تمضي الأيّام والليالي حتَّى يرزقني الله تعالى ولداً منّي»، يقول الراوي: فعددنا الشهور من الوقت الذي قال فوهب له أبا جعفر عليه السلام في أقلّ من سنة(١)، وهذا أيضاً بتعليم من الله تبارك وتعالى.

متى يعلم الإمام عليه السلام الغيب؟

السؤال: هل من شروط الإمام أن يعلم الغيب؟

الجواب: تقول رواياتنا كما في الكافي للشيخ الكليني الذي عقد أكثر من باب في أنَّ الإمام متى ما أراد أن يعلم أُعلم، فهو لا يعلم الغيب ولكن عندما تكون القضيّة حسّاسة فإنَّ الله تبارك وتعالى يلهمه.

وهناك أكثر من رواية في هذا الشأن أنَّ الإمام الرضا في طريقه إلى طوس شاهد تشييع جنازة، فوقف عند الجنازة ودعا للميّت واستغفر له وتألَّم لهذا الميّت وبشَّره بالجنّة.

يقول الراوي: قلت: جُعلت فداك هل تعرف الرجل؟ فوَالله إنَّها بقعة لم تطأها قبل يومك هذا.

فقال لي: «يا موسى بن سيار أمَا علمت أنّا معاشر الأئمّة تعرض علينا أعمال شيعتنا صباحاً ومساءً، فما كان من التقصير في أعمالهم سألنا الله تعالى الصفح لصاحبه...»(٢).

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٢٦/ باب ٤٧/ ح ١٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٥٢؛ بحار الأنوار ٤٩: ٩٩/ ح ١٣.

الريّان بن الصلت يقول: لمَّا أردت الخروج إلى العراق وعزمت على توديع الرضا عليه السلام _ وكان الإمام يومئذٍ في العراق _ فقلت في نفسي: إذا ودَّعته سألته قميصاً من ثياب جسده لأكفَّن به، ودراهم من ماله أصوغ بها لبناتي خواتيم، فلمَّا ودَّعته شغلني البكاء والأسف على فراقه عن مسألة ذلك فلمَّا خرجت من بين يديه صاح بي: «يا ريّان ارجع»، فرجعت، فقال لي: «أمَا تحب أن أدفع إليك قميصاً من ثياب جسدي تكفَّن فيه إذا فنى أجلك؟ أوَما تحبّ أن أدفع إليك دراهم تصوغ بها لبناتك خواتيم؟».

قلت: يا سيّدي قد كان في نفسي أن أسألك ذلك فمنعني الغمّ بفراقك، فرفع عليه السلام الوسادة وأخرج قميصاً فدفعه إليَّ ورفع جانب المصلّى فأخرج دراهم فدفعها إليَّ[1].

المأمون قام بخدعة ولاية العهد لأنَّ امتداد الإمام الرضا الجماهيري بلغ حدّاً لا يستطيع المأمون إلاَّ أن يقوم بعملية خداع للرأي العام ولكن الإمام الرضا كان يقول سرّاً لمن يأتيه من شيعته: «لا تشغل قلبك بهذا الأمر ولا تستبشر فإنَّه شيء لا يتمّ»[2] فهو يعلم بالحقيقة، ولهذا حينما جاءه دعبل الخزاعي في قصيدته الرائعة أضاف لها الإمام بيتاً هو:

وقبر بطوس يا لها من مصيبة ألحَّت على الأحشاء بالزفراتِ

فقال له دعبل: يا بن رسول الله هذا الذي بطوس قبر من هو؟

قال: «قبري، ولا تمضي الأيّام والليالي حتَّى تصير طوس مختلف شيعتي وزوّاري»[3].

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٢٩/ باب ٤٧/ ح ١٧.

(٢) الإرشاد ٢: ٢٦٣؛ بحار الأنوار ٤٩: ١٤٧/ ح ٢٣.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٥٠.

فهذه معلومة غيبية وقد أخذها الإمام عليه السلام من عند الله تبارك وتعالى، ثمّ أعطاه الإمام مائة دينار فقال دعبل: والله لم أمدحكم لأجل هذا، ولكن لو أعطيتني قطعة قماش تكون في كفني، فنهض الإمام وأعطاه جبَّته، فوصل الخبر فتلقّاه مجموعة في الطريق وقالوا: يا دعبل لديك جبّة الإمام الرضا نريدها منك، فقال: والله ما أعطيكم خرقةً منها فإنّي أريدها في كفني، فقالوا: نعطيك ألف دينار، فلم يقبل، إلى أن أرغموه وأخذوها منه عنوة، فقال: اعطوني خرقةً منها فأعطوه ومعها ألف دينار[1].

الحسين عليه السلام يختار العراق:

الحسين اختار العراق لأنَّ هناك إعداداً لمستقبل البشرية، ومن ناحية ثانية فإنَّ الخيار الآخر ليس هو الأفضل. فهل يذهب إلى مصر أو اليمن أو مكان آخر؟ فلا توجد أرض ولا يوجد أنصار يقبلون الحسين ويمهدون لحركته مثل العراق، لا يوجد خيار إلاَّ هؤلاء الناس في العراق الذين أعطوا حبّ الحسين وربَّما خذلتهم الظروف والرعب، لكن لم توجد أمّة امتلأ قلبها بحبّ الحسين مثل العراق، ومعنى ذلك أنَّ الإمام لم يأت إلى العراق اعتباطاً ولا يجوز أن يتكلَّم أحد على أهل بيت العصمة بهذه الكلمات.

* * *

---

(١) المصدر السابق.

الدراسة الرابعة عشرة:

بين الإمام الحسين عليه السلام
والإمام الجواد عليه السلام

- دور الأئمّة عليهم السلام في تفسير القرآن الكريم.
- الإمام الجواد عليه السلام يفسّر القرآن.
- الإمام الحسين عليه السلام لم ينهض لاستلام الحكم.
- لماذا يدافعون عن يزيد؟

قال إمامنا الحسين عليه السلام حين لقيه رجل من أهل الكوفة في منطقة يقال لها: الثعلبية، وجرى بينهما كلام فقال عليه السلام: «يا أخا أهل الكوفة أفمستقى الناس العلم من عندنا فعلموا وجهلنا؟ هذا ممَّا لا يكون»[1].

وقال إمامنا الجواد عليه السلام: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدّي عن الله عزَّ وجلَّ فقد عبد الله وإن كان الناطق يؤدّي عن الشيطان فقد عبد الشيطان»[2].

وصلنا في سلسلة بحوثنا في الدراسة المقارنة إلى المقارنة بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام الجواد عليه السلام، وهذان تصريحان تصريح للإمام الحسين عليه السلام فيه تركيز على إمامة أهل البيت عليهم السلام: «أفمستقى الناس العلم من عندنا فعلموا وجهلنا؟»، وتصريح للإمام الجواد عليه السلام وفيه شرح لمعنى الإمامة باعتبار أنَّها هي الاتّباع لقول الآخر والاستماع إليه وأنَّها هي التي تحدّد العبودية لله أم للشيطان، فالطريق بيننا وبين الله يجب أن يكون طريقاً صحيحاً وإذا كان كذلك فعبادتنا هي عبادة الله وإذا كان الطريق غير صحيح إذن فعبادتنا ليست عبادة لله تبارك وتعالى.

نلاحظ أنَّ كلّ الأئمّة أكّدوا على هذا المحور وهو دور الإمام في تقديم الفهم الصحيح للدين.

---

(١) الكافي ١: ٣٩٩/ باب أنَّه ليس شيء من الحقّ في يد الناس.../ ح ٢.

(٢) الكافي ٦: ٤٣٤/ باب الغناء/ ح ٢٤.

دور الأئمّة عليهم السلام في تفسير القرآن الكريم:

ونحن لدينا المصدر الأساس للتشريع هو القرآن ثمّ السُنّة وقد شرحنا أنَّ السُنّة تعرَّضت إلى تدمير ووقف أهل البيت يدافعون عن السُنّة وعن القرآن الكريم الذي تعرَّض هو الآخر إلى اجتهادات جاهلة انحرافية، ونعتقد نحن الشيعة في القرآن الكريم أنَّه كتاب الله المنزل الصادق، وهو حجّة على العباد في كلّ زمان ومكان، وأنَّه القرآن الصحيح بلا زيادة أو نقصان، ونعتقد أنَّ القرآن الكريم فيه آيات محكمات وآيات متشابهات فالقرآن الكريم يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧)، فالقرآن الكريم فيه آيات واضحة محكمة يستطيع كلّ من يقرأ القرآن أن يستدلَّ ويستشهد بها ولا يحتاج إلى تفسير مفسّرين، وهناك آيات مجملة متشابهة تقبل أكثر من تفسير، وهذه يجب أن نرجع في تفسيرها إلى أهل بيت النبوّة، ولا يجوز العمل بالمتشابهات بعيداً عن أهل البيت، لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي، ألا وهما الخليفتان من بعدي، ولن يفترقا حتَّى يردا عليَّ الحوض»[1] ولا يمكن أن يكون القرآن بعيداً عن أهل البيت فلا بدَّ من التمسّك بأهل البيت إضافة إلى القرآن الكريم وهنا يأتي دور الأئمّة.

الإمام الجواد عليه السلام يفسّر القرآن:

الإمام الجواد في مجلس المعتصم العبّاسي وقد كان عمره سبع سنوات لكنَّه مع هذا العمر الصغير كان قد فرض الهيبة والتفوّق العلمي بمستوى أنَّ

(١) أمالي الصدوق: ٥٠٠/ ح (١٥/٦٨٦).

المأمون أراد أن يخدع الرأي العام مرَّة أخرى ليقول إنَّه من المؤيّدين لأهل البيت عليهم السلام، فدعا محمّد الجواد أن يتزوَّج ابنته (أُمّ الفضل) وقد اعترض عليه العبّاسيون ولم يكونوا يعلمون أنَّه لا ينوي خيراً لأهل البيت عليهم السلام. وحين جاء المعتصم بعد المأمون لاحظ الموقع الجماهيري الكبير للجواد الذي كان قد ضرب بهيبته آفاق العالم الإسلامي وهو صغير، حتَّى كان إذا دخل المسجد النبوي يقوم له الناس الكبار، وكان من جملتهم عمّ أبيه علي بن جعفر يقوم ويتقدَّم إليه ويجلسه في مكانه، يتحدَّث المؤرّخون أنَّ عمّ الإمام الجواد عبد الله بن موسى بن جعفر وكان كبيراً وهو جالس في مجلس فأفتى بفتوى فأقبل إليه الإمام الجواد وهو فتىً أسمر يميل للسواد حتَّى أنَّ بعض الروايات تقول: إنَّه كان أسوداً، فلمَّا سمع فتواه قال له: «لا إله إلاَّ الله، يا عمّ إنَّه عظيم عند الله أن تقف غداً بين يديه فيقول لك: لِمَ تفتي عبادي بما لم تعلم وفي الأمّة من هو أعلم منك»، ثمّ شرح له الإمام الفتوى الصحيحة فقام عنه عمّه وأجلسه في مكانه[1]، هكذا كانت هيبة الإمام الجواد العلمية، والمعتصم العبّاسي واجه مثل هذا النفوذ العلمي والسياسي للإمام الجواد عليه السلام.

مرَّةً جيء بسارق إلى المعتصم وكان في مجلسه الفقهاء والعلماء واعترف السارق على نفسه بالسرقة، فقال المعتصم العبّاسي لهؤلاء القضاة: ما هو حكمه الشرعي؟ والحكم معروف لديه لقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما﴾ (المائدة: ٣٨)، إذن المسألة واضحة، لكن المشكلة هي من أين تُقطع اليد؟

فقال بعض الفقهاء: تُقطع يده من المفصل.

---

(١) راجع نصّ الرواية في: عيون المعجزات: ١٠٩؛ بحار الأنوار ٥٠: ١٠٠/ ح ١٢.

فقيل: ما الدليل؟

قالوا: لقوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ (النساء: ٤٣)، ومسح اليد في التيمّم من المفصل. وقال آخرون: بل تُقطع يده من المرفق لأنَّ القرآن الكريم يقول: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ (المائدة: ٦)، واليد في الوضوء تُغسل من المرفق، هذا والإمام الجواد جالس فقال المعتصم: يا بن رسول الله ما هو الرأي؟

قال: اعذرني.

فقال: بل أسمع منك.

فقال عليه السلام: هؤلاء الفقهاء أخطأوا السُنّة.

فقال: كيف؟

قال: تُقطع اليد من أطراف الأصابع.

قال: ما الدليل؟

قال: يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ (الجنّ: ١٨)، والكفّ من المساجد، فاستحسن المعتصم الفكرة وأمر بتنفيذ الموقف الذي ذكره الإمام الجواد عليه السلام وكان القاضي هنا هو ابن أبي داود وهو يومئذٍ قاضي القضاة.

فقال: وددت لو أنّي متُّ قبل عشرين عاماً ولا يتقدَّم عليَّ هذا الصغير.

هذا الواقع هو الذي دعا عدداً من هؤلاء الفقهاء ليتحرَّكوا ضدّ الإمام الجواد عند الخليفة فقالوا للخليفة: إنَّ هذا الفتى يقول شطر هذه الأمّة بإمامته فانتبه المعتصم وخطَّط لقتله(١).

---

(١) راجع نصّ الرواية في: مدينة المعاجز ٧: ٤٠٤/ باب ٧٨/ ح (٢٤١٢/١٠٤)؛ بحار الأنوار ٥٠: ٦/ ح ٧.

لا قرآن بدون أهل البيت عليهم السلام:

ما نريد تسجيله هنا أنَّ القرآن الكريم هو مصدر تشريعي لكنَّه بدون العترة وبدون سُنّة أهل البيت لا يمكن تفسيره في المتشابهات، وفي هذه المتشابهات لا يجوز أن نتَّبع اجتهاداتنا الظنّية المزاجية الشخصية، وإنَّما يجب أن نعود إلى السُنّة، وعندنا أنَّ السُنّة الصحيحة هي لدى أهل البيت عليهم السلام. والإمام الجواد في النصّ الذي وضعناه للدراسة يريد أن يؤكّد أنَّ التبعية الفكرية هي لون من ألوان العبادة، فيجب أن تكون تبعيّة لأهل الله ومن ينطق عن الله.

والإمام الحسين عليه السلام أيضاً بتصريحه يقول لذلك الرجل من أهل الكوفة: «لو لقيتك بالمدينة لأريتك أثر جبرئيل من دارنا ونزوله بالوحي على جدّي. يا أخا أهل الكوفة أفمستقى الناس العلم من عندنا فعلموا وجهلنا؟ هذا ممَّا لا يكون؟»، وهذا دفاع عن الإمامة الشرعية وهي متمثّلة بمراجع الدين وأئمّة أهل البيت عليهم السلام وهذه قضيّة مهمّة جدّاً أراد أهل البيت المحافظة عليها، حيث إنَّه إذا ذهبت الإمامة السياسية فيجب أن لا تذهب الإمامة الدينية.

الإمام الحسين عليه السلام لم ينهض لاستلام الحكم:

الإمام الحسين عليه السلام لم ينهض لاستلام حكم عسكري أو سياسي وإنَّما نهض لتثبيت الإمامة الشرعية لأنَّه يعلم أنَّه مقتول ولا يمكن أن يتسلَّم الحكم ولا أن يسترد الزعامة السياسية، لكنَّه نهض لكي يثبت موقعية الإمامة الشرعية وأنَّ يزيد ليس له إمامة شرعية، وأنَّ كلّ هؤلاء الحكّام والملوك لا يمثّلون سُلطة شرعية أو إمامة شرعية، لذلك يجب أن نأخذ الفتوى من غيرهم.

هناك ظاهرة تاريخية في حركة الإمام الحسين عليه السلام أنَّه لم يكن يفرض على الناس أن يلتحقوا به في ثورته، فالإمام الحسين أراد إثبات قضيّة للتاريخ وهي سلب الشرعية من الحكم الأموي، ونفس الأمر كان مع ابن عبّاس وبني هاشم الذين لم يفرض عليهم اللحاق به بل كان يقول لهم: «إنّي راحل مصبحاً إن شاء الله ومن لحق بنا استشهد ومن لم يلحق بنا لم يدرك الفتح».

وكلّ الذين التقى بهم الإمام الحسين عليه السلام في الطريق خيَّرهم بالمضي معه أو الانسحاب وحتَّى الذين وصلوا معه إلى كربلاء قال لهم: «وهذا الليل قد غشيكم فاتَّخذوه جملاً»[1]، بل حتَّى في لقائه مع عبيد الله بن الحرّ الجعفي الذي اعتذر منه فاشترط عليه أن لا يبقى في هذا المكان «فإنَّه من سمع واعيتنا أهل البيت ثمّ لم يجبنا، كبَّه الله على وجهه في نار جهنم»[2] ولذلك انسحبت جموع كثيرة، لأنَّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يهدف إلى تحقيق الإمامة السياسية، وإنَّما كان يهدف إلى تثبيت الإمامة الدينية وتأكيد أنَّ الشريعة من أين تؤخذ؟ من يزيد أم من علماء الدين وأئمّة الهدى؟

لماذا يدافعون عن يزيد؟

مع الأسف كنت أقرأ تصريحاً لإمام من أئمّة المذاهب الأخرى وهو أبو حامد الغزالي الذي يعتبر مجدّداً في عصره في القرن الخامس وهو إلى الآن يعتبر زعيم الفكر الديني لدى أهل السُنّة، لديه كتاب اسمه (إحياء علوم الدين) وكان يومئذٍ اتّجاهان في الفكر الإسلامي اتّجاه فلسفي عقلي واتّجاه باطني صوفي وأبو حامد الغزالي ذهب وراء الاتّجاه الصوفي الباطني وكتب كتاب (تهافت

(١) أمالي الصدوق: ٢٢٠/ المجلس ٣٠/ ح (١/٢٣٩).
(٢) أمالي الصدوق: ٢١٩/ المجلس ٣٠/ ح (١/٢٣٩).

الفلاسفة) وجاء ابن رشد الأندلسي وكتب ردّاً عليه كتاباً اسمه (تهافت التهافت) وهؤلاء زعماء الفكر الديني خارج مدرسة أهل البيت، وإلى الآن يعتبرون زعماء الفكر الديني لدى المذاهب الأخرى، وأبو حامد الغزالي هو إنسان جليل القدر من الناحية العلمية، ولكن له هفوات عجيبة حيث يقول في كتابه إحياء علوم الدين: (فإن قيل: هل يجوز لعن يزيد لكونه قاتلاً للحسين أو آمر به؟

قلنا: لم يثبت أصلاً، فلا يجوز أنَّه قتله أو أمر به فضلاً عن اللعنة).

ويقول أبو حامد الغزالي في سبب عدم جواز لعنه: (فلا يجوز نسبة كبيرة إلى مسلم من غير تحقيق)[١].

وهذا الدفاع يأتي من أبي حامد الغزالي إمام الفكر الآخر، وتصل إلى درجة أنَّه يرفض حتَّى من يقول: (اللّهمّ العن قاتل الحسين) أي تبرئة الآخرين، والتعتيم على قتل الحسين يقول: (فهل يجوز أن يقال: قاتل الحسين أو الآمر بقتله لعنه الله؟ قلنا: الصواب أن يقال: قاتل الحسين إن مات قبل التوبة فعليه لعنة الله)[٢] غريب هذا الدفاع المستميت، رغم أنَّ الحسين سيّد شباب أهل الجنّة. والحقيقة أنَّه لولا مواقف شيعة أهل البيت لما بقي للدين ذكر ولا للحسين ولا لرسول الله صلى الله عليه وآله. وهذا هو الذي جعل الإمام الصادق عليه السلام يقول: «نحن صُبَّر وشيعتنا والله أصبر منّا، لأنّا صبرنا على ما علمنا وصبروا على ما لم يعلموا»[٣].

والإنسان يجد أنَّه من تضييع الوقت أن يناقش مثل هؤلاء الذين ينزّهون يزيد وأمثال يزيد.

---

(١) راجع: الاثنا عشرية للحرّ العاملي: ٨٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الدعوات للراوندي: ٢٧٨/ ح ١٧؛ بحار الأنوار ٧٩: ١٣٣/ ح ١٦.

لقد دافع أئمّتنا عن الإمامة، والإمام الحسين عليه السلام أراد أن تبقى الإمامة الشرعية على مدى التاريخ.

هكذا أيضاً فعل الإمام الجواد عليه السلام:

عمر بن الفرج الرخجي كان والياً للمتوكّل العبّاسي في المدينة المنوَّرة ضرب طوقاً على أهل البيت، فبدأ الضيق المادي يظهر عليهم حتَّى يقول أبو الفرج الأصفهاني في كتابه (مقاتل الطالبين)(١): (حتَّى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات يصلين فيه واحدة بعد واحدة...).

عمر بن الفرج الرخجي هذا التقى مرَّةً بالإمام الجواد وهو صغير فقال له: إنَّ شيعتك تدَّعي أنَّك تعلم كلّ ما في دجلة ووزنه.

فقال الإمام: «يقدر الله أن يفوّض علم ذلك إلى بعوضة من خلقه أم لا؟».

قلت: نعم، يقدر.

قال: «أنا أكرم على الله تعالى من بعوضة ومن أكثر خلقه»(٢).

الإمام الجواد كانت مهمّته الدفاع عن الإمامة الشرعية كما هي مهمّة الإمام الحسين، أمَّا صغر سنّ الإمام فهذا فيه مزيد من الحجّة والبرهان، شاهد في ذلك قصَّة عيسى بن مريم فالله تعالى يجعل النبوّة في طفل وهو في مهده، إذن هي إرادة الله لا نناقش فيها. نحن أتباع التوحيد لا نسأل لماذا جعل الله هذا نبيّاً وهذا لم يجعله نبيّاً.

الإمام الجواد كان برهانه صغر سنّه وقد كان كبار العلماء ينهارون أمامه ويسلّمون له تسليماً.

* * *

---

(١) مقاتل الطالبين: ٣٩٦.

(٢) مدينة المعاجز ٧: ٤٠٠/ باب ٧٥/ ح (٢٤٠٩/١٠١)؛ بحار الأنوار ٥٠: ١٠١/ ح ١٢.

الدراسة الخامسة عشرة:

بين الإمام الحسين عليه السلام
والإمام الهادي عليه السلام

- مبدأ انتصار الحقّ.
- الإمام يؤكّد مبدأ انتصار الحقّ.
- الإمام في خان الصعاليك.
- تيّارات الهزيمة.
- الحقيقة تنتصر في داخل القصر.

قال إمامنا الحسين عليه السلام: «إنّا نمكث ما شاء الله بعدما يجري علينا، ثمّ يخرجنا الله وإيّاكم حتَّى يظهر قائمنا فينتقم من الظالمين...».

فقيل له: من قائمكم يا ابن رسول الله؟

قال: «السابع من ولد ابني محمّد بن علي الباقر...، وهو الذي يغيب مدّةً طويلة ثمّ يظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[1].

وقال إمامنا علي الهادي عليه السلام: «يا أبا دعامة قد وجب حقّك علينا ألا أُحدّثك بحديث تسرُّ به؟

قال: فقلت له: ما أحوجني إلى ذلك يا ابن رسول الله.

قال: «... قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي أُكتب، فقلت: ما أكتب؟ فقال: أُكتب: بسم الله الرحمن الرحيم الإيمان ما وقر في القلوب، وصدَّقته الأعمال، والإسلام ما جرى على اللسان، وحلَّت به المناكحة»[2].

مبدأ انتصار الحقّ:

المبدأ الأساس الذي نجده مشتركا في حركة الأئمّة هو التأكيد على حقيقة (انتصار الحقّ) وفشل سياسات الباطل، وبالتالي عدم صحَّة اليأس والاستسلام وضرورة العمل وأنَّ نهاية المسير هي للحقّ، هذا المعنى نجده مع كلّ أئمّتنا واحداً بعد واحد، حتَّى مع الأنبياء كذلك والأنبياء كلّهم لم ينتصروا مادياً إلاَّ داود وسليمان ونبيّنا صلى الله عليه وآله حيث استطاعوا أن يؤسّسوا دولة وحكومة،

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٤٩٨/ ح (٢٥٩/٤٧٦).
(٢) بحار الأنوار ٥٠: ٢٠٨/ ح ٢٣.

لكن جميع الأنبياء قالوا للناس: إنَّ شمس الحقّ لن تغيب، وتبقى الحقيقة ساطعة إلى الأبد وأنَّ الحقيقة سوف تنتصر، هنا تأتي فكرة الصبر والتضحية وتأتي أخيراً فكرة القائم من آل محمّد.

ونحن بصدد عقد مقارنة بين حركة الإمام الحسين عليه السلام وبين حركة الإمام علي الهادي، إنَّ الحسين ما خرج يطلب نصراً مادياً فهو عارف بالحقيقة، بل يريد أن يؤكّد عدم جواز الاستسلام، ويؤكّد أنَّ شمس الحقيقة لن تغيب، وأنَّ الحقّ لن يموت أبداً، ففي ليلة العاشر من محرَّم الحرام نجد الإمام الحسين يبشّر أصحابه القلائل الذين كان من المفروض أن يدبّ فيهم الانهيار أمام الأمواج العسكرية المضادة، لا يبشّرهم بالجنّة فقط وإنَّما يبشّرهم بالنصر على مستوى الدنيا أيضاً، فيقول لأصحابه: «إنّا نمكث ما شاء الله» أي نمكث في عالم البرزخ ما شاء الله «ثمّ يخرجنا الله وإيّاكم» وهذه هي نظرية الرجعة التي يعتقد بها شيعة أهل البيت عليهم السلام «ثمّ يخرجنا الله وإيّاكم حتَّى يظهر قائمنا فينتقم من الظالمين» ها هو الحسين عليه السلام يتحدَّث عن مستقبل التاريخ في الدنيا وليس فقط في الآخرة.

فقيل له: من قائمكم يا ابن رسول الله؟

قال: «السابع من ولد ابني محمّد بن علي الباقر...»، وهم جعفر بن محمّد الصادق، ثمّ موسى بن جعفر الكاظم، ثمّ علي بن موسى الرضا، ثمّ محمّد بن علي الجواد، ثمّ علي بن محمّد الهادي، ثمّ الحسن بن علي العسكري، والسابع هو الحجّة بن الحسن المهدي عليه السلام.

الحسين في ليلة عاشوراء تحدَّث عن مستقبل البشرية على المدى البعيد وأكَّد هنا فكرة القائم، وفكرة انتصار الحقّ، وفكرة فشل الباطل، «فينتقم من الظالمين» كما أكَّد فكرة الرجعة «وإنَّا وأنتم نشاهدهم في

السلاسل والأغلال وأنواع العذاب» تأكيد على انتصار الحقيقة لا محالة، وأنَّه لا مجال للهزيمة أبداً، وعلى هذا الأساس أنتم يا أتباع الأنبياء لا تيأسوا ولا تستسلموا لأنَّ الحقيقة منتصرة لا محالة، وأنَّه مهما تمادى الظالمون فإنَّ نور الحقّ لن ينطفي، وهذه هي مقولة القرآن الكريم: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢)، وهذه ليست حكاية ولا مجرَّد إعطاء أمل، بل هو قانون أشار الله تبارك وتعالى إليه، أنَّه لا يمكن أن ينطفئ نور الحقيقة «حتَّى يظهر قائمنا فينتقم من الظالمين»، إذن هذا مبدأ يؤكّده الأئمّة الأطهار واحداً بعد آخر، ويسلّم الراية للآخر حتَّى وصلنا إلى الإمام علي الهادي عليه السلام الذي يجب أن يحمل مشعل الحقيقة ويوصله لمن بعده حتَّى لا تموت الحقيقة ولا يخبو نجمها.

الإمام يؤكّد مبدأ انتصار الحقّ:

الإمام علي الهادي عليه السلام عاش ظرفاً في غاية الصعوبة، هذه المرَّة كان المتوكّل العبّاسي هو الحاكم، وكان شديد الحقد على آل البيت فقد غيَّر السياسة التي اتَّبعها المأمون ومرَّةً أخرى عاد إلى سياسة القمع والملاحقة والمحاصرة، فاستدعى الإمام علي الهادي من المدينة المنوَّرة إلى سامراء وبقي الإمام الهادي في سامراء عشرين عاماً تحت الإقامة الجبرية والرقابة المفروضة عليه وهو في داخل بيته، ولهذا نجد ونتيجة لسياسة المحاصرة هذه أنَّ الثراء والعطاء العلمي قد انقطع على عهد الإمام الكاظم والجواد والهادي لأنَّ الإمام الصادق عليه السلام كان يعيش في ظرف حرّية نسبية، لكن بعده الإمام موسى بن جعفر كان مودعاً في السجن والجواد في الإقامة الجبرية عند المأمون حيث كان

الداخل والخارج عليهم مرصودين، وحين وصلنا إلى الإمام الهادي كان الواقع على نفس الحال في سامراء فقد كان يداهم بيته مرَّةً بعد أخرى وحتَّى حينما كان يُسجن كان يُسجن في أشدّ السجون، حتَّى أنَّ الراوي يقول: بطريقة ما أقنعت السجّان أن يوصلني إلى الإمام الهادي وهو في السجن وإذا بالإمام جالس وإلى جنبه قبر محفور، بكيت للمشهد الموحش.

فقال لي الإمام: «لا عليك لن يصلوا إلينا بسوء الآن»(١)، ومع كلّ هذا الواقع كان الإمام الهادي عليه السلام يؤكّد مبدأ انتصار الحقيقة وأنَّ شمس الدين لن تطفئ ولن تخبو أبداً.

الإمام الهادي عليه السلام في خان الصعاليك:

الإمام علي الهادي استدعاه المتوكّل العبّاسي من المدينة إلى سامراء وقبلها أنزله في خان حقير ذليل يُسمّى: (خان الصعاليك) يقول ابن سعيد الراوي: رأيت الإمام في هذا الخان فقلت: جُعلت فداك في كلّ الأمور أرادوا إطفاء نورك والتقصير بك حتَّى أنزلوك هذا الخان الأشنع، خان الصعاليك؟

فقال: «هاهنا أنت يا ابن سعيد؟»، ثمّ أومأ بيده وقال: «أنظر» فنظرت، فإذا أنا بروضات آنقات وروضات باسرات، فيهنَّ خيرات عطرات وولدان كأنَّهنَّ اللؤلؤ المكنون وأطيار وظباء وأنهار تفور، فحار بصري وحسرت عيني.

فقال: «حيث كنّا فهذا لنا عتيد، لسنا في خان الصعاليك»(٢).

يروي المؤرّخون أنَّ المتوكّل سمَّ فنذر إن عوفي أن يتصدَّق بمال كثير، فلمَّا عوفي سأل الفقهاء عن حدّ المال الكثير فاختلفوا عليه، فقال بعضهم: مائة

---

(١) راجع نصّ الرواية في: الخصال: ٣٩٥/ ح ١٠٢.

(٢) الكافي ١: ٤٩٨/ باب مولد أبي الحسن علي بن محمّد عليهما السلام/ ح ٢.

ألف، وقال بعضهم: عشرة آلاف، فقالوا فيه أقاويل مختلفة، فاشتبه عليه الأمر فقال رجل من ندمائه يقال له: صفعان: ألا تبعث إلى هذا الأسود فتسأل عنه؟ فقال له المتوكّل: من تعني ويحك؟ فقال له: ابن الرضا، فقال له: وهو يحسن من هذا شيئاً؟ فقال: إن أخرجك من هذا فلي عليك كذا وكذا وإلاَّ فاضربني مائة مقرعة، فقال المتوكّل: قد رضيت يا جعفر بن محمود صر إليه وسله عن حدّ المال الكثير، فصار جعفر بن محمود إلى أبي الحسن علي بن محمّد عليهما السلام فسأله عن حدّ المال الكثير فقال: «الكثير ثمانون»، فقال له جعفر: يا سيّدي إنَّه يسألني عن العلّة فيه، فقال له أبو الحسن عليه السلام: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، فعددنا تلك المواطن فكانت ثمانين»(١).

حينما حكم المتوكّل حدثت ثلاث ثورات شعبية واحدة في المدينة وأخرى في البصرة وثالثة في مكّة، وكلّها كانت تعلن الولاء لأهل البيت عليهم السلام، الأمر الذي جعل السلطان العبّاسي يواجه اهتزازاً وضعفاً حقيقياً، وبدأ الخلاف داخل القصر، حيث نلاحظ أنَّ الخدم الأتراك وولده هم الذين قتلوا المتوكّل العبّاسي.

هذا هو دور أئمّتنا في سلب قدسية الحكومات والمحافظة على نور الحقّ منطلقاً من أهل البيت.

المتوكّل العبّاسي مارس في المرحلة الأولى سياسة الاحتواء لأهل البيت عليهم السلام فكان إذا دخل الإمام علي الهادي على المتوكّل أمر خدّامه أن يرفعوا له الستر ويفتحوا له الأبواب، وكان أحد أصحاب المتوكّل حاقداً على الإمام، فقال له: ما يعمل أحد بك أكثر ممَّا تعمله بنفسك في علي بن محمّد، فلا يبقى في

---

(١) الكافي ٧: ٤٦٤/ باب النذور/ ح ٢١.

الدار إلاَّ من يخدمه، ولا يتبعونه بشيل الستر ولا فتح باب ولا شيء، وهذا إذا علمه الناس قالوا: لو لم يعلم استحقاقه للأمر ما فعل به هذا، دعه إذا دخل يشيل الستر لنفسه ويمشي كما يمشي غيره، فتمسّه بعض الجفوة، فتقدَّم ألاَّ يخدم ولا يشال بين يديه ستر، وكان المتوكّل ما رئي أحد ممَّن يهتم بالخبر مثله. قال: فكتب صاحب الخبر إليه أنَّ علي بن محمّد دخل الدار، فلم يخدم ولم يشل أحد بين يديه الستر، فهبّ هواء رفع الستر له فدخل، فقال: اعرفوا خبر خروجه، فذكر صاحب الخبر أنَّ هواء خالف ذلك الهواء شال الستر له حتَّى خرج، فقال: ليس نريد هواء يشيل الستر، شيلوا الستر بين يديه[1].

وفي الوقت الذي عمل الإمام الهادي عليه السلام فيه على ترسيخ عقيدة انتصار الحقّ، كانت تيارات الهزيمة تنخر بجسم الأمّة، وقد برزت تيارات اليأس في الفترة العبّاسية كما برز أدب التحلّل والانحلال وبرز أناس يطلقون على أنفسهم أصحاب الطريقة، حيث نعتقد نحن بأنَّ الدين عقيدة وشريعة ولكن هؤلاء الذين ظهروا في العصر العبّاسي قالوا بأنَّ الإسلام لا يحتاج إلى شريعة وإنَّما هو طريقة نحو الله تعالى.

بينما أئمّتنا أرادوا أن يؤكّدوا أنَّ الإسلام هو عقيدة وشريعة، ولا يمكن ترك الشريعة، الإمام الهادي عليه السلام قال وأوصى وكتب لشيعته: «الإيمان ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال» فالإيمان يحتاج إلى شريعة وصلاة وصيام وزكاة وما شاكل ذلك.

ولسنا هنا بصدد مناقشة أصحاب الطرق، لكن ثقوا لولا أهل البيت وجهودهم العلمية والسياسية لما بقي للشريعة ذكر، وأصبح الناس إمَّا متحلّلين

(١) أمالي الطوسي: ٢٨٦ و٢٨٧/ ح (٣/٥٥٦)؛ بحار الأنوار ٥٠: ١٢٨/ ح ٦.

وإمَّا أصحاب طرق، ولم يبقَ شيء من الشريعة، إنَّ بقاء الشريعة كانت ببركة جهود أئمّتنا الذين جعلوا حتَّى الحاكم العبّاسي والأموي ينافق بإظهار الإيمان، ونجحت جهود أهل البيت وأتباعهم وفشلت السياسات الأخرى.

يذكر التاريخ أنَّ المتوكّل العبّاسي وصله تقرير يقول: إنَّ الإمام الهادي يجمع السلاح والمال فأرسل مجموعةً من الأتراك فداهموه، فلم يجدوا في البيت إلاَّ سجّادةً وحصيراً ومع ذلك أخذوه مخفوراً للمتوكّل العبّاسي وكان المتوكّل مخموراً فلمَّا رآه هابه وعظَّمه وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكأس التي كانت في يده.

فقال: «والله ما يخامر لحمي ودمي قطّ، فاعفني»، فأعفاه، فقال: أنشدني شعراً.

فقال عليه السلام: «إنّي قليل الرواية للشعر».

قال: لا بُّد، فأنشده عليه السلام وهو جالس عنده:

باتوا على قُلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تنفعهم القللُ
واستنزلوا بعد عزّ من معاقلهم ... وأسكنوا حفراً يا بئسما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد دفنهم ... أين الأساور والتيجان والحللُ
أين الوجوه التي كانت منعَّمة ... من دونها تضرب الأستار والكللُ
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود تقتتلُ
قد طال ما أكلوا دهراً وقد شربوا ... وأصبحوا اليوم بعد الأكل قد أُكلوا

الرواية تقول: فضرب المتوكّل بالكأس الأرض وتنغَّص عيشه في ذلك اليوم(١).

---

(١) بحار الأنوار ٥٠: ٢١١ - ٢١٣/ ح ٢٥.

الحقيقة تنتصر في داخل القصر:

ابن السكّيت وهو أكبر علماء اللغة له كتاب (إصلاح المنطق) قال عنه الأدباء: ما رأيت للبغداديين كتاباً أحسن من كتاب ابن السكّيت في المنطق، فاستدعاه المتوكّل وطلب منه أن يكون أديب القصر وشاعره ومربّي أبناء القصر الملكي وقد كان للمتوكّل ولدان. الابن الأكبر هو المعتزّ والثاني المؤيّد، فاستجاب له ابن السكّيت وأصبح يباشر تربية ولديه المعتزّ والمؤيّد. يوماً ما سأل المتوكّل ابن السكّيت: أيّما أحبُّ إليك ابناي هذان _ أي المعتزّ والمؤيّد _ أم الحسن والحسين؟

فقال ابن السكّيت: والله إنّ قنبر خادم علي بن أبي طالب خير منك ومن ابنيك.

هذه حالة تحدّي رائعة، والحقيقة لا يدري الإنسان كيف يبدي إعجابه بهذه الأمّة، وأنا أرى الأدب والشعر والتاريخ والبطولات تتفجَّر في هذه المدرسة، تقول الرواية: فقال المتوكّل للأتراك: سلوا لسانه من قفاه ففعلوا ذلك به فمات[1].

المتوكّل العبّاسي كان حاقداً حقداً خاصّاً على أهل البيت وهو أوّل من هدم قبر الحسين ووضع المسالح لتقطع الطريق على زوّار قبر الحسين، وكانوا إذا ألقوا القبض على أحد أنزلوا به أشدّ العقوبات من قطع الأيدي والألسن والبناء في الجدران ولكن من الذي نجح وانتصر؟

* * *

(١) أنظر: وفيات الأعيان ٦: ٤٠٠ و٤٠١؛ الكنى والألقاب ١: ٣١٤ و٣١٥.

الدراسة السادسة عشرة:

بين الإمام الحسين عليه السلام

والإمام العسكري عليه السلام

- ما هي الأولويات في حياة الإنسان؟
- ما هو مشروع الأئمّة والأنبياء عليهم السلام؟
- الإمام العسكري عليه السلام مع الشاب الغفاري.
- الإمام العسكري عليه السلام مع الجاثليق.
- مهمّات مرحلية قام بها الإمام العسكري عليه السلام.

قال الإمام العسكري عليه السلام: «الفقر معنا خير من الغنى مع عدوّنا، ونحن كهف من التجأ إلينا، ونور لمن استضاء بنا، وعصمة لمن اعتصم بنا، من أحبَّنا كان معنا في السنام الأعلى، ومن انحرف عنّا فإلى النار»[1].

هذا النصّ هو مفتاح الحديث عن موضوعين علميين:

الموضوع الأوّل: ما هي أولويات الإنسان في حياته؟

الموضوع الثاني: ما هو مشروع الأنبياء والأئمّة؟ أو ما هو المشروع الديني في الحياة؟

الإمام الحسين عليه السلام في سنة (٦١هـ) يقول: «من لحق بي استشهد ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح»[2]، وإلى سنة (٢٦١هـ) يقول الإمام العسكري عليه السلام: «الفقر معنا خير من الغنى مع غيرنا»، الفاصل بين هذين النصّين مائتا سنة، ولكن اللغة هي نفس اللغة، والخطاب الإعلامي مع الناس هو نفس الخطاب، إذن ما هو المشروع الذي وحَّد الخطاب الإعلامي بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام الحسن العسكري عليه السلام؟ بل نرتقي ونقول: ما هو مشروع الأنبياء؟ وهل نجحوا في مشروعهم؟

ما هي الأولويات في حياة الإنسان؟

الإنسان يهتمّ بالعافية والغنى والأسرة والذرّية والمستقبل السعيد، فهل يقول الإسلام عكس ذلك؟ وهل يدعو الإسلام الإنسان ليفكّر فقط

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٣٤.

(٢) كامل الزيارات: ١٥٧/ باب ٢٣/ ح (٢٠/١٩٥).

بالفقر والبكاء والمصاب والحزن؟ كيف يوجّه الإسلام اهتمامات الإنسان؟ هذا هو ما نريد الإجابة عليه.

الإسلام لا يريد أن يعيش الإنسان فقيراً ولا منكوباً ولا مطروداً، لكن الأولويات تختلف عندما قال يوسف: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣)، وهذا ليس بمعنى أنَّ يوسف عليه السلام يريد أن يكون مسجوناً، وأنَّ الأنبياء ومن على خطّهم يؤثرون السجون، ولكن كأولوية حينما يكون الأمر دائراً بين السجن وبين العبودية لغير الله، إذن تكون الأولوية للحياة العزيزة الصادقة مع الله حتَّى وإن كانت في سجن.

ولهذا فإنَّ الإمام الحسن العسكري عليه السلام يتحدَّث عن الأولويات ويقول: يا شيعتنا أنتم في فقر ومشاكل وملاحقات لكن اعلموا أنَّ الفقر معنا خير من الغنى مع غيرنا، والقتل معنا خير من الحياة مع غيرنا، إنَّ من الممكن أن يعيش الإنسان أجمل حياة لكن يومئذٍ ﴿يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾ (النبأ: ٤٠).

النصّ الذي قرأناه للإمام الحسن العسكري عليه السلام جاء في رواية محمّد بن الحسن بن ميمون وهو أحد شيعة الإمام الحسن العسكري عليه السلام يقول: كتبت إليه أشكو الفقر ثمّ قلت في نفسي: أليس قد قال أبو عبد الله: «الفقر معنا خير من الغنى مع عدوّنا، والقتل معنا خير من الحياة مع عدوّنا»؟

فرجع الجواب من الإمام العسكري عليه السلام يقول: «إنَّ الله عزّ وجلّ يخصّ أولياءنا إذا تكاثفت ذنوبهم بالفقر، وقد يعفو عن كثير منهم وهو كما حدَّثتك نفسك، الفقر معنا خير من الغنى مع عدوّنا، ونحن كهف لمن التجأ إلينا...»[(١)].

نلاحظ هنا أنَّ الإمام الحسن العسكري في ختام جوابه لمحمّد بن الحسن

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٣٤.

بن ميمون يقول: «من أحبَّنا كان معنا في السنام الأعلى» فالمقياس هو الارتباط بمن؟ والإسلام ليس ضدّ التمدّن ولا ضدّ التقدّم ولا الحياة المرفّهة بل المطلوب أن تبنى المجتمعات بأفضل بناء، وفي روايات عصر الظهور أنَّ المجتمع يصل إلى مستوى من التقدّم والرفاه في العيش حتَّى لا يوجد فقير يستلم الزكاة.

إذن اتّجاه الإسلام نحو التقدّم والتمدّن والرفاهية والثراء وليس نحو البؤس والفقر، وفي الروايات في عصر الظهور يقال للناس: «أيّها الناس هلمّوا، فخذوا ما سفكتم فيه الدماء، وقطعتم فيه الأرحام»[1] وهذا معناه بلوغ المجتمع الإسلامي قمة الرفاه الاقتصادي وقمة التمدّن، إذن نحن نسعى لقمة التمدّن والرفاهية والتقنية والتكنولوجيا وأحدث الوسائل لراحة الإنسان، لكن عندما يتعارض ذلك مع أولويات أخرى يكون الخطاب هو «القتل معنا خير من الحياة مع عدوّنا».

ما هو مشروع الأئمّة والأنبياء عليهم السلام؟

لماذا رأينا الإمام الحسين عليه السلام قد قتل؟ والإمام العسكري قد قتل؟ والإمام علي عليه السلام قتل وباقي الأنبياء لم يستطيعوا أن يكوّنوا دولة فيما عدا سليمان وداود، فيما نجد أنَّ لغة الخطاب هي لغة الصبر والانتظار والتحمّل، فهل مشروعنا في الحياة هو الصبر؟ بحيث نلاحظ أنَّ الإمام الحسن العسكري عليه السلام يقول: «ولا يزال شيعتنا في حزن حتَّى يظهر ولدي الذي بشَّر به النبيّ يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، فاصبر يا شيخي يا أبا الحسن علي وأمُر جميع شيعتي بالصبر، فإنَّ الأرض لله يورثها من يشاء...»[2]، نحن هنا نريد أن نقدّم

(١) شرح الأخبار ٣: ٣٩٧/ ح ١٢٧٨.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٥٣٧.

دراسة علمية عن مشروع الأئمّة؟ ونرتفع بنفس السؤال للأنبياء ونقول: ما هو مشروعهم وإلى اليوم أين هي رسالة الأنبياء؟ وما هو مشروعهم؟ هل كان مشروعهم إقامة دولة إسلاميّة؟

قد يقول قائل: بما أنَّهم لم يقيموا دولة إسلاميّة فقد فشلوا، لكن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا﴾ (غافر: ٥١)، ﴿وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ﴾ (يوسف: ٢١)، ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا﴾ (التوبة: ٤٠)، ﴿وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧٣)، فكيف يفشل الأنبياء ومعهم الله والملائكة؟ إذن يجب أن نكتشف أنَّ هناك مشروعاً وهدفاً آخر للأنبياء والأئمّة وهو إقامة الحجّة، والأنبياء أرادوا أن يقيموا الحجّة على الناس ويدلّوهم ويدفعوهم باتّجاه البحث عن الحقيقة وعدم الغرق في الدنيا، كلمة الأنبياء وخطابهم وخطاب الأئمّة واحد وهو إضاءة مشعل نور لمن يريد أن يصل للحقيقة، هذه الفكرة نسمّيها بمصطلحنا الحوزوي العلمي: (إقامة الحجّة) وليس إقامة الدولة فإقامة الدولة هي أحد الخطوات المتقدّمة، لكن أصل القضيّة أنَّ الحجّة يجب أن تقام على الناس كي لا يقول أحد: ﴿لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً﴾ (طه: ١٣٤)، ولا يحتجّ أحد على الله تعالى ولا يكون لأحد على الله حجّة، وهذه هي فكرة الدليل حينما نقرأ في زيارة الأئمّة المعصومين عليهم السلام: «والدليل على من بعثته برسالاتك»[1] فكلّ واحد من أئمّتنا كان دليلاً على الأنبياء السابقين، وكما نقرأ: «السلام عليك يا أمين الله في أرضه وحجّته على عباده»[2].

(١) الكافي ٤: ٥٧٢/ باب زيارة قبر أبي عبد الله.../ ح ١.

(٢) مصباح المتهجّد: ٧٣٨/ ح (٩٨/٨٢٩).

اليوم نحن في القرن الحادي والعشرين يجب أن نقيم الحجّة على البشرية، فهذا طريق الأنبياء، وهو طريق النجاة والجنّة، من شاء أن يهتدي فليهتد، وكلّ واحد منّا يجب أن يكون حجّة بمستوى من المستويات، كأن يكون حجّة على عياله أو جيرانه أو أهل ملّته أو قريته، وهكذا كلّنا كمجموع نكون حجّة على العالم.

فبحمد الله تعالى مصباح أهل البيت عليهم السلام يضيء للعالم، واليوم لا يوجد أحد في العالم لا يعرف شيئاً عن النبوّة والأنبياء سواء ذاك الذي كان في الصين أو الفيليبين أو قارة أفريقيا، وفي العالم الإسلامي أيضاً لا يوجد أحد لا يعرف أنَّ هناك مذهباً هو مذهب أهل البيت، وبدأت اليوم تتكشَّف الحقيقة، أي بدأت عملية العودة إلى الله، والعودة إلى مذهب أهل البيت، فقد استمعت لحديث ولقاء الشيخ أحمد بدر الدين الحسون مفتي سوريا مع قناة الأنوار وهو يتحدَّث قائلاً: (إنَّ أساتذتنا أخفوا علينا الحقيقة، حقيقة الحسين عليه السلام وحقيقة أهل البيت، ولم يسمحوا لنا أن نستدلّ بروايات أهل البيت، أليس هم من أذهب الله تعالى عنهم الرجس؟).

وهذه الحقيقة أصبحت اليوم واضحة لكلّ العالم الإسلامي، أنَّ هناك مذهباً شرعياً اسمه مذهب أهل البيت.

الإمام عليه السلام يقول: «نحن كهف لمن التجأ إلينا»، ومن لم يلتجأ فستأكله السباع وأنَّ مسؤولية الأئمّة هو أن يفتحوا فرصة، «ونور لمن استضاء بنا» أي أنَّ مسؤولية الشمس أن تشع نوراً فمن يريد أن يستفيد فالنور أمامه، ومن يغمض عينيه فليست مسؤولية الشمس إن لم يصله نور، «وعصمة لمن اعتصم بنا، من أحبّنا كان معنا في السنام الأعلى، ومن انحرف عنّا مال فإلى النار»، لو كانت مهمّة الأئمّة والأنبياء هي إقامة

الدولة لوصلوا إلى ذلك بطرق شتّى فهم ليسوا أقلّ ذكاءً من الذين أسَّسوا دولاً، ولكن الأئمّة والأنبياء مهمّتهم إقامة الحجّة على الناس، وإلاَّ فقد كان بإمكانهم الاستعانة بالملائكة أو المعجزة.

الإمام العسكري كانت بينه وبين شيعته مواعيد لقاءات خارج السجن، إذن الإمام كان لديه قدرة حتَّى على الخروج من السجن، ويمكن أن يوظّف العامل الإعجازي، لكن الأئمّة لم يوضّفوه وإنَّما كانت مهمّتهم أن يكونوا نور الهدى ومصباحاً مضيئاً للناس، وحتَّى تكون البشرية دائماً تبحث عن الحقيقة وإلى اليوم فإنّ البحث عن الله ما زال موجوداً، والبشرية لم تسدل الستار على عالم الإيمان بالله.

الإمام الحسن العسكري كانت شهادته على يد المعتمد العبّاسي وقد كان عمره يومذاك (٢٦) عاماً أي أنَّ إمامته بعد أبيه دامت خمس سنوات فقط، ولكن على هذا العمر القصير فقد كان المعتمد العبّاسي قلقاً من وجوده، لقد كان الإمام في سامراء لكن الناس في كلّ بقاع العالم الإسلامي يعرفون أنَّ هناك أحداً من آل رسول الله هو الملجأ والملاذ. لقد كان الإمام ممنوعاً عليه الكلام ومراقباً وقد أمر شيعته أن لا يسلّموا عليه، في سامراء كان الخليفة العبّاسي يجبر الناس على الخروج بمسيرة تأييد ومبايعة له، وقد كان الإمام مجبوراً للخروج مع هذه المسيرة، وكان يوصي شيعته أن لا يسلّموا عليه لئلاَّ يُعرفوا. في ظلّ هذا الواقع كان نور الحقيقة ساطعاً.

الإمام العسكري عليه السلام مع الشاب الغفاري:

أحدهم جاء من المدينة وقال: أريد أن أرى الإمام ويقيم الحجّة عليَّ بإمامته، فأخبروه أنَّ الإمام ممنوع من الحديث فوقف جانباً يوم المسيرة لينظر الإمام وهو لا يعرفه من قبل فالتفت إليه الإمام وقال: «غفاري أنت؟».

قال: نعم.

قال: «ما فعلت أُمّك حمدوية؟».

فقال: صالحة، ومرَّ. فقلت للشاب: أكنت رأيته قطّ، وعرفته بوجهه قبل اليوم؟

قال: لا.

قلت: فيقنعك هذا؟

قال: ومن دون هذا[1].

الإمام العسكري عليه السلام مع الجاثليق:

قحط الناس بسُرَّ من رأى قحطاً شديداً فأمر الخليفة المعتمد بن المتوكّل الناس بالخروج إلى الاستسقاء ثلاثة أيّام، فلم يسقوا. فخرج النصارى ومعهم راهب وكلَّما مدَّ يده إلى السماء غيّمت وأمطرت، ثمّ في اليوم الثاني كذلك.

فشكَّ بعض الناس، وارتدَّ بعضهم، فشقَّ ذلك على المعتمد، فأمر بإحضار الحسن العسكري، فلمَّا حضر عنده قال له المعتمد: أدرك أمّة جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يهلكوا.

فقال الإمام الحسن: «إنَّ النصارى ليخرجوا غداً وأُزيل الشكّ إن شاء الله عزَّ وعلا»، وكلَّم المعتمد في إطلاق أصحابه من السجن فأطلقهم له.

فلمَّا خرج الراهب مع النصارى رفع يده إلى السماء غيّمت وأمطرت.

فأمر الحسن بالقبض على ما في يد الراهب، فقبض فإذا فيها عظم آدمي، فأخذه من يده وقال: استسق، فرفع يده، فزال الغيم وظهرت الشمس، فتعجَّب الناس، فقال المعتمد: ما هذا يا أبا محمّد؟

---

(١) الخرائج والجرائح ١: ٤٤٠/ باب ١٢/ ح ٢٠؛ بحار الأنوار ٥٠: ٢٧٠/ ح ٣٤.

فقال: «هذا عظم نبيّ قد ظفر به هذا الراهب، وما كشف عظم نبيّ تحت السماء إلاَّ هطلت بالمطر»(١).

إذن الإمام كان قادراً على أن يستخدم الإعجاز لو كانت مهمّة الأنبياء والأئمّة هي أن يطيحوا بالظالم بأيّ شكل لأطاحوا به.

الإمام الحسن العسكري عليه السلام يقول: «من كان في طاعة الله كان الله في حاجته»(٢) فلو كان الأئمّة يريدون مُلكاً كان الله في حاجتهم، ولهذا كان خطابهم وخطابنا إلى اليوم هو: أيّها الناس اصبروا واعملوا واجهدوا وقولوا الحقّ حتَّى يأذن الله تعالى بالفرج لمن يملأها قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

ربَّما يمتعض الإنسان ألماً ويتساءل لماذا نحن في حصار؟ ولماذا إمكاناتنا قليلة؟ والعالم إلى أين وصل ونحن إلى أين وصلنا؟ ولكن يجب أن لا يقوّض ذلك همّنا، إنَّ الله تعالى ربَّما لا يبعث نبيّاً لخمسمائة عام، كما بين المسيح وبين نبيّنا ولكن ما هي مسؤوليتنا فالأمر بيد الله تبارك وتعالى.

«من كان في طاعة الله كان الله في حاجته» ولكن السؤال هل أنت في طاعة الله؟ وعملك في طاعة الله؟ فإذا كان كذلك فمن المحال أن تخسر، لأنَّ الله هو القادر على كلّ شيء.

مهمّات مرحلية قام بها الإمام العسكري عليه السلام:

إذن الإمام العسكري كان يتحمَّل عدّة مهمّات مرحلية:

أوّلاً: الإعداد للإمام المنتظر عليه السلام:

وهنا نحتاج إلى بحث تحليلي لمعرفة أنَّ الظروف المحيطة بالإمام

(١) ينابيع المودّة ٣: ١٣٠ و١٣١/ باب ٦٣.

(٢) الثاقب في المناقب: ٥٦٩/ باب ١٤/ ح (١٣/٥١٣).

العسكري عليه السلام لم تسمح له أن يتحرَّك سوى إحالة المسؤولية إلى الإمام المنتظر.

ثانياً: التأكيد على دور الفقهاء:

الإمام العسكري عليه السلام يقول: سوف لا يظهر صاحب العصر والزمان بسرعة، ولكن ستطول الأيّام، ولكن أنتم فقهاء أهل البيت عليهم السلام تعالوا وتحمّلوا المسؤولية، والحمد لله فإنَّ من امتيازاتنا هو وجود الحوزة العلمية والفقهاء والذي بقي المذهب محفوظاً بهم، بينما أصبح غيرنا شذر مذر «لا عذر لأحد من موالينا في التشكيك فيما يؤدّيه عنّا ثقاتنا، قد عرفوا أنّا نفاوضهم سرّنا...»(١).

ثالثاً: البناء الأخلاقي:

يتجلّى ذلك في ضمن هذه المسؤوليات حتَّى في ساحات الجهاد فالإمام الحسن العسكري عليه السلام يقول: «إنَّ في الجنّة باباً يقال له: المعروف، ولا يدخله إلاَّ أهل المعروف»، يقول الراوي: فحمدت الله تعالى في نفسي، وفرحت بما أتكلَّف من حوائج الناس، فنظر عليه السلام إليَّ فقال: «نعم دُم على ما أنت عليه فإنَّ أهل المعروف في دنياهم هم أهل المعروف في الآخرة، جعلك الله منهم يا أبا هاشم ورحمك»(٢).

رابعاً: توحيد البيت الشيعي وكسب الجمهور والانفتاح على الضعفاء:

الحسين بن الحسن بن جعفر بن محمّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام كان بقم يشرب الخمر علانية فقصد يوماً لحاجة باب أحمد بن إسحاق الأشعري وكان وكيلاً في الأوقاف بقم فلم يأذن له ورجع إلى بيته مهموماً.

---

(١) بحار الأنوار ٥٠: ٣١٨/ ح ١٥.

(٢) الثاقب في المناقب: ٥٦٤/ باب ١٤/ ح (١/٥٠١).

فتوجَّه أحمد بن إسحاق إلى الحجّ فلمَّا بلغ سُرَّ من رأى استأذن على أبي محمّد الحسن العسكري عليه السلام فلم يأذن له فبكى أحمد لذلك طويلاً وتضرَّع حتَّى أذن له. فلمَّا دخل قال: يا ابن رسول الله لِمَ منعتني الدخول عليك؟ وأنا من شيعتك ومواليك؟ قال عليه السلام: «لأنَّك طردت ابن عمّنا عن بابك»، فبكى أحمد وحلف بالله أنَّه لم يمنعه من الدخول عليه إلاَّ لأن يتوب من شرب الخمر، قال: «صدقت ولكن لا بدَّ من إكرامهم واحترامهم، على كلّ حال، وأن لا تحقّرهم ولا تستهين بهم، لانتسابهم إلينا فتكون من الخاسرين».

فلمَّا رجع أحمد إلى قم أتاه أشرافهم، وكان الحسين معهم فلمَّا رآه أحمد وثب إليه واستقبله وأكرمه وأجلسه في صدر المجلس، فاستغرب الحسين ذلك منه استبدعه وسأله عن سببه فذكر له ما جرى بينه وبين العسكري عليه السلام في ذلك.

فلمَّا سمع ذلك ندم من أفعاله القبيحة، وتاب منها، ورجع إلى بيته وأهرق الخمور وكسر آلاتها، وصار من الأتقياء المتورّعين، والصلحاء المتعبّدين، وكان ملازماً للمساجد معتكفاً فيها، حتَّى أدركه الموت[1].

* * *

(١) بحار الأنوار ٥٠: ٣٢٤/ ح ١٧.

الدراسة السابعة عشرة:

بين الإمام الحسين عليه السلام

والإمام المهدي عليه السلام

- مقدّمات حول قضيّة الإمام المهدي عليه السلام.
- عناصر الاشتراك بين الحسين والمهدي عليهما السلام.
- الخطاب السياسي للإمام الحسين والإمام المهدي عليهما السلام.
- الإمام المهدي عليه السلام في القرآن والسُنّة.
- علامات الظهور.
- نظرية المجتمع السعيد.
- الإصلاح العالمي بين نظريتين.
- الأدلّة على وجود الإمام المهدي عليه السلام.

حديثنا حول (الحركة الإصلاحية من الحسين عليه السلام إلى المهدي عليه السلام دراسة في عناصر الاشتراك والتمايز في الأهداف والمناهج والنتائج)، لكنّنا قبل ذلك نحتاج إلى مجموعة مقدّمات:

المقدّمة الأولى: نظرية وحدة التاريخ:

هذه الفقرات التي نقرؤها من دعاء الندبة والتي تشير إلى تجربة نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام وهي قوله عليه السلام:

«وَبَعْضٌ حَمَلْتَهُ فِي فُلْكِكَ وَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنَ الْهَلَكَةِ بِرَحْمَتِكَ، وَبَعْضٌ اتَّخَذْتَهُ لِنَفْسِكَ خَلِيلاً، وَسَأَلَكَ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ فَأَجَبْتَهُ، وَجَعَلْتَ ذَلِكَ عَلِيّاً، وَبَعْضٌ كَلَّمْتَهُ مِنْ شَجَرَةٍ تَكْلِيماً وَجَعَلْتَ لَهُ مِنْ أخِيهِ رِدْءاً وَوَزِيراً، وَبَعْضٌ أوْلَدْتَهُ مِنْ غَيْر أبٍ، وَآتَيْتَهُ الْبَيِّنَاتِ وَأيَّدْتَهُ بِرُوح الْقُدُس، وَكُلٌّ شَرَعْتَ لَهُ شَرِيعَةً، وَنَهَجْتَ لَهُ مِنْهَاجاً، وَتَخَيَّرْتَ لَهُ أوْصِيَاءَ مُسْتَحْفِظاً بَعْدَ مُسْتَحْفِظٍ، مِنْ مُدَّةٍ إِلَى مُدَّةٍ، إقَامَةً لِدِينِكَ، وَحُجَّةً عَلَى عِبَادِكَ...»[1]، وهذا الدعاء المروي عن الإمام المنتظر عليه السلام، والمروي برواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام.

في مطلع هذا الدعاء تأكيد على الوحدة والترابط والتسلسل التاريخي للأنبياء نبيّاً بعد نبيّ ثمّ الأئمّة إماماً بعد إمام كأنّهم كتلةٌ واحدة ونورٌ واحد، لا توجد هناك قضايا متعدّدة، ولا توجد هناك تجارب

(١) المزار لابن المشهدي: ٥٧٤ و٥٧٥/ ح ٢؛ بحار الأنوار ٩٩: ١٠٥.

متضادّة بل هي تجربة واحدة على طول التاريخ، هي تجربة الأنبياء التي تقع ضمن خطّ التجربة البشرية.

والبشرية في الحقيقة هي عبارة عن جسد واحد، وكيان واحد، هذا سنقرؤه بشكل تفصيلي في وحدة المسارات، وحدة التأثيرات، وحدة توارث الأمم.

فالإنسان مثلاً كفرد له أعضاء (رجل، يد وما شاكل ذلك) لكن ذلك بمجموعه يشكّل إنساناً اسمه فلان بن فلان يعني يشكّل كياناً واحداً.

هذا الصفّ جيّد وهذا الصفّ غير جيّد، المدرسة التي نذهب إليها هي في الحقيقة تعبّر عن شيء واحد، يقال: هذه المدرسة موفّقة أو غير موفّقة أصبحت تكّون كياناً واحداً، رغم أنَّها تحوي على عشرات الصفوف ومئات التلاميذ.

نتطوَّر أكثر فنصل إلى القرية، ثمّ إلى المدينة، ثمّ إلى الشعب.

نقول: الشعب العراقي والشعب الإيراني والهندي والأفغاني ممدوح أو مذموم رغم وجود ملايين من الناس هنا وهناك لكنَّهم أصبحوا كياناً واحداً اسمهُ (القرية والمدينة والشعب).

هذا الأمر إذا توسَّعنا به بدراسة دقيقة نكتشف أنَّ التاريخ واحد والبشرية واحدة مرتبطة من بدايتها إلى نهايتها.

ولهذا في دعاء الندبة نقرأ استعراضاً للأنبياء باعتبارهم حلقةً متّصلة في سلسة واحدة، هكذا نقرأ على سبيل المثال: «فَبَعْضٌ أسْكَنْتَهُ جَنَّتَكَ» يعني آدم عليه السلام، «وَبَعْضٌ حَمَلْتَهُ فِي فُلْكِكَ» يعني نوح عليه السلام، «وَبَعْضٌ كَلَّمْتَهُ مِنْ شَجَرَةٍ» يعني موسى عليه السلام، «وَبَعْضٌ أوْلَدْتَهُ مِنْ غَيْر أبٍ» يعني عيسى عليه السلام، «إلَى أنِ انْتَهَيْتَ بِالأمْرِ إلَى حَبِيبكَ وَنَجِيبكَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله».

هذا التسلسل لمدرسة واحدة، مجموعة أساتيذ في مدرسة واحدة، في جامعة واحدة الجامعة اسمها البشرية، الأساتذة اسمهم الأنبياء، حتّى الأئمّة الأطهار عليهم السلام أيضاً نجد تسلسلاً طبيعياً يمثّل امتداداً لكيان واحد، ولهذا الناس يقولون: التاريخ يعيد نفسه، في الحقيقة هم يشيرون إلى نظرية ومن الصعب عليهم أن يكتشفوها وهي أنَّ التاريخ واحد، في الحقيقة يعني البداية في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونحن امتداد لها كالقطار مكوَّن من مجموعة عربات... لكنَّه يمثّل قطاراً واحداً وكياناً واحداً.

وحدة الأديان:

الدين حركة واحدة، حين نصل إلى الدين الإسلامي. يقول القرآن الكريم: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٨).

يعني أنتم امتداد إلى إبراهيم عليه السلام، أنتم الأمّة الإسلاميّة نفس أمّة إبراهيم عليه السلام، أنتم حلقة في مسلسل واحد، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ (آل عمران: ١٩).

ولهذا فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦).

يريد أن يقول: يا بني إسرائيل أنا لست شيئاً جديداً أنا حلقةٌ في الوسط، قبلي توراة موسى وأنا أصدّق بالتوراة وبعدي سيأتي نبيٌّ اسمه أحمد ﴿مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦).

أنا أُمثّل حلقةً في هذا القطار، حلقةً في هذه السلسلة، هذا معنى نظرية وحدة التاريخ ووحدة الأديان الإلهيّة.

وحدة الأمّة الدينية:

على هذا الأساس نصل إلى نظرية وحدة الأمّة الدينية.

نحن أُمّة الإسلام أيضاً نمثّل حلقة في سلسلة الأمم الدينية.

ولهذا فإنّ الروايات الثابتة تقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لتتبعُنّ سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتَّى لو دخلوا جحر ضبّ لاتبعتموهم» قلنا: يا رسول الله اليهود والنّصارى؟ قال: «فمن؟»[(١)]، أنتم نسخة من الأمم السابقة وليس شيئاً جديداً نعم أنتم أكثر تكاملاً.

من قبيل الطفل حينما يشب ويصبح شاباً، هذا الشاب هو نفسه ذلك الطفل الأوّل وليس شيئاً أخر.

كان طفلاً والآن صار شاباً وغداً حينما يكبر يصبح رجلاً، هذا الرجل ليس شيئاً آخر غير ذلك الشاب وغير ذاك الذي كان طفلاً، صحيح هو نفسه لكنَّه الآن صار رجلاً.

نحن الآن ـ الأمّة الإسلاميّة ـ نمثّل امتداداً للأمم الدينية التي كانت قبلنا نحن امتداد لها، ولهذا فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم ـ كما عملوا تعملون أنتم نسخة منهم ـ شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتَّى لو دخلوا جُحر ضبّ لدخلتموه»[(٢)].

هنا في الدنيا اختلاط بين الأمّة الدينية والأمّة اللادينية، أمَّا يوم القيامة هو يوم التمايز هناك يصير ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى: ٧)، هناك الأمّة الدينية تذهب إلى الجنّة والأمّة اللادينية تذهب إلى النار، ولهذا فإنّ يوم القيامة يسمّى: يوم التمايز، ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (يس: ٥٩).

---

(١) كنز الفوائد: ٦٠؛ صحيح البخاري ٨: ١٥١.

(٢) بحار الأنوار ٢٣: ١٦٥؛ مسند أحمد ٢: ٥١١.

أمَّا في الدنيا فإنَّ كلّ الأمّم تمثّل شيئاً واحداً اسمه البشرية، كلّهم يمثّلون طلاّباً في مدرسة واحدة على أنَّ مناهج هذه المدرسة تختلف لكن بالنتيجة كلّهم يقال لهم: يا بني آدم.

هذه هي نظرية وحدة الأديان الإلهية وامتداد بعضها للبعض الأخر.

المقدّمة الثانية: المهدي عليه السلام امتداد للحسين عليه السلام:

في هذه المقدّمة نريد أن نكتشف مسألةً أخرى وهي أنَّ حركة الإمام المهدي عليه السلام تمثّل امتداداً لحركة الحسين عليه السلام وليست شيئاً آخر، أو منهجاً آخر، وإنَّما هي امتداد لنفس الأهداف، وامتدادٌ لنفس المنهج مع الفرق في الحجم.

ثورةُ الإمام المنتظر عليه السلام ثورة شمولية عالمية وبهذا امتازت عن ثورة الحسين عليه السلام في بعض ما امتازت به ولكنَّها تبقى الامتداد الطبيعي للحركة الإصلاحية التي قادها الأنبياء، ومارسها رسول الله صلى الله عليه وآله، ومارسها علي عليه السلام، ومارسها الحسين عليه السلام، ونحن الآن في زمن الغيبة نمثّل حالة الاستثناء، زمن الظهور هو الذي يُمثّل القاعدة.

زمن غيبة الإمام المنتظر المعصوم عليه السلام، هل هو زمان طبيعي وفق القاعدة التي رسمها الله تعالى أو هو استثناء للقاعدة؟

الجواب: هو حالة استثناء.

الحالة الصحيحة والصحّية هي أنَّ كلّ أمّة لها إمام، ولكن إذا غاب إمامها فإنَّ هذه حالة غير صحّية، مثل مدرسة يغيب عنها المدير، ومثل صفّ يغيب عنه الأستاذ، نحن الآن في زمان أمّة بلا إمام ظاهر، وأمّة بلا إمامٍ ظاهر يعني حالة استثناء، حالة مَرَضيَّة، ولهذا نحن نطمح أن

نصل إلى الحالة الصحّية، إلى حالة ظهور الإمام، ولهذا نعتبر زماننا زمان الغيبة هو زمان مَرَض.

ولهذا نقرأ في أدعية شهر رمضان: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ فَقْدَ نَبِيِّنَا وَغَيْبَةَ وَلِيِّنَا»[١]، إذن هذه مشكلة وبالحقيقة هذا مَرَض، هذا ألم، ولو كانت حالة صحّية لما شكوناها إلى الله تعالى، إذن نحن نتّجه الآن نحو الحالة الصحّية وهي حالة ظهور الإمام المعصوم عليه السلام ولهذا تجدون الروايات بين الفريقين عن رسول الله صلى الله عليه وآله تقول:

«كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»[٢].

ويعني هذا أنَّ الإمام المهدي يمثّل امتداداً للنُبوّات ويمثّل الحالة الصحّية للكيان البشري وللمجتمع الإنساني.

الخطبة الأولى للإمام المنتظر عليه السلام:

هذا الأمر وهذه النظرية هي ما يذكره الإمام المنتظر عليه السلام حين يظهر في مكّة المكرَّمة في أوّل خطاب سياسي له.

الرواية تقول عن الإمام الباقر عليه السلام: «والقائم يومئذٍ بمكّة عند الكعبة مستجيراً بها يقول: أنا وليّ الله أنا أولى بالله وبمحمّد صلى الله عليه وآله فمن حاجَّني في آدم فأنا أولى الناس بآدم، ومن حاجَّني في نوح فأنا أولى الناس بنوح، ومن حاجَّني في إبراهيم فأنا أولى الناس بإبراهيم، ومن حاجَّني في محمّد فأنا أولى الناس بمحمّد، ومن حاجَّني في النبيّين فأنا أولى الناس بالنبيّين إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ

---

(١) مصباح المتهجّد: ٣٦٦/ ح (١٠٣/٤٩٢).

(٢) العمدة: ٤٣٢/ ح ٩٠٥؛ صحيح البخاري ٤: ١٤٣.

إِبْـراهِيمَ وَآلَ عِمْـرانَ عَلَـى الْعـالَمِينَ * ذُرِّيَّـةً بَعْضُـها مِـنْ بَعْـضٍ وَاللَّـهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمـران: ٣٣ و٣٤]، فأنـا بقيّـة آدم، وخيـرة نـوح، ومصـطفى إبـراهيم، وصـفوة محمّـد ألا ومـن حـاجَّني فـي كتـاب الله فأنـا أولـى النـاس بكتـاب الله، ألا ومـن حـاجَّني فـي سُـنّة رسـول الله فأنـا أولـى النـاس بسُـنّة رسـول الله وسـيرته وأُنشـد الله من سمع كلامي لمَّا يبلّغُ الشاهد الغائب.

فيجمع الله له أصحابه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا فيجمعهم الله على غير ميعاد قَزَع كقَزَع الخريف»، ثمّ تلا هذه الآية: «﴿أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ [البقـرة: ١٤٨]، فيبايعونـه بـين الـركن والمقـام، ومعـه عهـد رسـول الله صلى الله عليه وآله قـد تواترت عليه الآباء فإن أشكل عليهم من ذلك شئ فإنَّ الصوت من السماء لا يشكل عليهم إذا نودي باسمه واسم أبيه»[1].

فالإمام يؤكّد: إنَّ ثورتي وحركتي هي حركة آدم، هي حركة نوح، هي حركة إبراهيم، هي حركة موسى، هي حركة عيسى، هي حركة رسول الله، هي حركة الأنبياء، هي حركة علي، هي حركة الحسين، أنتم بماذا تحاجّونني؟ أنا أولى بكم من ذلك، أنتم بماذا تتقدَّمون عليَّ؟ أنا بالحقيقة خلاصة تلك التجربة المدرسية، خلاصة هؤلاء الأساتذة في الجامعة البشرية.

هذا المعنى نقرؤه في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام: «السَّلامُ عَلَى آدَمَ صِفْوَةِ اللَّهِ، السَّلامُ عَلَى نُوح نَبِيِّ اللَّهِ، السَّلامُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ خَلِيل اللَّهِ، السَّلامُ عَلَى مُوسَى كَلِيم اللَّهِ»[2]، استعراض للأنبياء واحداً بعد واحد، كأنَّهم مدرسة واحدة، ثـمّ إلى الحسين عليه السلام، «السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ آدَمَ صَفْوَةِ اللَّهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ

---

(١) بحار الأنوار ٥٢: ٣٠٥ و٣٠٦/ ح ٧٨.

(٢) بحار الأنوار ٩٧: ٣٠٢/ ح ٢٢.

نُوح نَبِيّ اللَّهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيل اللَّهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ مُوسَى كَلِيم اللَّهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ عِيسَى رُوح اللَّهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ مُحَمَّدٍ حَبِيبِ اللَّهِ»[1].

هـذا الاستعراض يريد أن يقول شيئاً، وهو أنَّ الإمام المنتظر المهدي عليه السلام يمثّل آخر أستاذ في هذه الجامعة البشرية التي شارك في تربيتها الأنبياء، نبيّاً بعد نبيّ.

والقرآن هو حصيلة المناهج الدراسية لأولئك الأنبياء عليهم السلام، هو قمّة تلك المناهج الدراسية، ولهذا فإنَّ الإمام المنتظر أوّل ما يظهر يقول للناس:

المقدّمة الثالثة: المستوى العلمي لقضيّة الإمام المهدي عليه السلام:

ننتقل إلى مقدّمة ثالثة مهمّة في حديثنا وهي أنَّ قضيّة الإمام المهدي عليه السلام تمثّل ضرورة في الفكر الإسلامي.

أوّلاً: معنى ضرورة في المصطلح الإسلامي؟

ثانياً: استعراض لبعض الأقوال والآراء في ذلك.

نحن نعتقد أنَّ قضيّة الإمام المهدي تمثّل ضرورة في الفكر الإسلامي وليس الشيعي فقط، وليست رؤيةً اجتهادية.

الضرورات والاجتهادات:

توجد قضايا ضرورية يعني بديهية، وتوجد قضايا اجتهادية يعني تقبل الاجتهاد في النفي والإثبات، مثلاً في مجال الأحكام الشرعية فإنَّ وجوب الصلاة يعتبر ضرورة من ضرورات الإسلام.

---

(١) مصباح المتهجّد: ٧٢٠/ ح (٨٠٦/٧٥).

يعني غير قابل للشكّ، وجوب الصوم كذلك، وفي مجال الاعتقادات نجد أنَّ التوحيد كذلك، والنبوّة كذلك، هذه ضرورة من ضرورات الإسلام.

وهناك قضايا اجتهادية يمكن أن تتعدَّد فيها الاجتهادات.

على سبيل المثال فإنَّ حكم الربا هو ضرورة ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾ (البقرة: ٢٧٥)، الربا حرام بالضرورة الإسلاميّة لكن حكم الشطرنج ليس كذلك فإنَّ بعض الفقهاء يقول: الشطرنج حلال، إذا كان بدون مقامرة ورهان، وبعض الفقهاء يقول: الشطرنج حرام مطلقاً سواء أكان به قمار، أو ليس به قمار تتراهن عليه هو حرام، على كلّ حال هذه مسألة اجتهادية تخضع لاستنباط الفقهاء، يمكن لفقيه أن يستنبط الحرمة المطلقة ويمكن لفقيه أن يستنبط الحرمة المشروطة، إذن صارت عندنا قضايا ضرورية وقضايا اجتهادية في التشريع الإسلامي.

أضرب لكم مثالاً آخر من القضايا الاجتهادية في المعتقد الإسلامي. هناك مسألة اسمها المعاد الجسماني والمعاد الروحاني، يعني أنَّ المعاد ضرورة نحن نعتقد به وهو ضرورة من ضرورات الدين وإذا لم يؤمن الإنسان بيوم القيامة فإنَّه يخرج عن الإسلام.

أصل المعاد ضرورة من ضرورات الدين، لكن هذا المعاد هل هو معاد جسماني أم معاد روحاني.

يعني نحن نرجع بأجسامنا، نفس هذه الأجسام أو أجسام مثلها، أم هي أرواحنا تحشر يوم القيامة ولا توجد أجسام، لا توجد رجل ولا عين إنَّما توجد روح، هذه نظريات، توجد نظرية تقول بالمعاد الجسماني، يعني نفس جسم الإنسان يرجع يوم القيامة، هذه المسألة أين ندخلها؟

هذه المسألة تدخل في القضايا الاجتهادية، أنت عالم دين، أنت

مفكّر إسلامي تبحث ويمكن أن تعتقد بالمعاد الجسماني أو تعتقد بالمعاد الروحاني، هذه قضيّة اجتهادية خاضعة للبحث، أمَّا أصل المعاد فليس قضيّة اجتهادية، بل قضيّة ضرورية، التوحيد قضيّة ضرورية، النبوّة قضيّة ضرورية، خاتمية الإسلام قضيّة بديهية وضرورية، يعني اليوم لا يستطيع إنسان أن يقول: جاء دين جديد غير دين الإسلام، نقول: هذا كفر، الإسلام هو الدين الخاتم، ونبيّنا لا نبيّ بعده، هذه القضيّة من القضايا الضرورية التي يتّفق عليها المسلمون بلا مناقشة، «لا نبيّ بعدي»(1)، هذه نسمّيها ضرورة.

والآن بعد أن بيَّنا الفرق بين القضايا الضرورية والقضايا الاجتهادية نقول: إنَّ قضيّة الإمام المهدي عليه السلام تمثّل ضرورة في الفكر الإسلامي، يعني كلّ المسلمين يعتقدون بفكرة الإمام المهدي عليه السلام الشيعة والسُنّة، إذاً لا يوجد فرق بيننا وبين السُنّة وإن كان ثَمَّة فرق فهو فرق في التفاصيل.

فلو راجعنا بعضاً من مصادر أبناء العامّة نعرف أنَّ قضيّة الإمام المهدي عليه السلام هي قضيّة على مستوى الضرورة في الفكر الإسلامي.

هذا الكتاب (علامات القيامة الكبرى) لفقيه من أئمّة الجامع الأزهر الإمام الداعية الشيخ محمّد متولّي الشعراوي توفّي قبل سنوات ويُعتبر مجدّداً ويُعتبر إماماً من أئمّة المذاهب السُنّية، وهذا الكتاب كتاب حديثٌ وليس كتاباً قديماً، إنَّ هذا العالم السُنّي والمجدّد يستعرض تحت عنوان: (عقيدة أهل السُنّة في

(1) قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «أنت - أو إنَّك، أو أمَا ترضى أن تكون - منّي بمنزلة هارون من موسى، إلاَّ أنَّه لا نبيّ بعدي». رواه جمهور المحدّثين من الفريقين، أنظر: المحاسن ١: ١٥٩/ ح ٩٧؛ الكافي ٨: ١٠٧/ ح ٨٠؛ كمال الدين: ٢٧٨/ باب ٢٤/ ح ٢٥؛ مسند أحمد ١: ١٨٤، و٣: ٣٢؛ صحيح مسلم ٧: ١٢٠؛ سنن الترمذي ٥: ٣٠٤/ ح ٣٨١٤.

المهدي المنتظر) مجموعة كلمات لعلماء من كبار السُنّة تؤكّد أنَّ قضيّة الإمام المهدي ضرورة في الفكر الإسلامي.

يقول أبو الحسن محمّد بن الحسين في كتاب (المناقب للشافعي): (قد تواترت الأخبار واستفاضت عن الرسول صلى الله عليه وآله بذكر المهدي عليه السلام وأنَّه من أهل بيته وأنَّه يملك سبع سنين، وأنَّه يملأ الأرض عدلاً وأنَّ عيسى يخرج فيساعده على قتل الدجّال، وإنَّه يؤمّ هذه الأمّة، ويصلّي عيسى خلفه).

يقول أيضاً: قال ابن حَجَر في كتابه (القول المختصر): «الذي يتعين اعتقاده ما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة من وجود المهدي المنتظر عليه السلام الذي يخرج الدجّال وعيسى في زمانه).

وقال السفراييني في كتابه (لوائح الأنوار البهيّة): (وقد كثرت الروايات بخروجه ـ يعني الإمام المهدي عليه السلام ـ حتَّى بلغت حدّ التواتر المعنوي، وشاع ذلك بين علماء السُنّة حتَّى عُدَّ من معتقداتهم)، يعني قضيّة الإمام المهدي من معتقدات السُنّة ليس فقط الشيعة. ثمّ يقول: (فالإيمان بخروج المهدي واجب كما هو مقرَّر عند أهل العلم، ومدوَّن في عقائد أهل السُنّة والجماعة)، ثمّ ينقل الشيخ الشعراوي كلمات كثيرة لعدد من علماء السُنّة في أنَّ قضيّة الإمام المهدي عليه السلام جزء من المعتقدات الإسلاميّة الضرورية التي لا يجوز التشكيك فيها[1].

هذا المعنى ثابت عندنا إسلاميّاً سواءً عند الشيعة أو عند أهل السُنّة ولهذا عندنا روايات تقول: «من أنكر القائم من ولدي فَقَد أنكرني»[2]،

(١) أنظر: المهدي المنتظر عليه السلام في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة للبستوي: ٤٠ – ٥٩.
(٢) كمال الدين: ٤١٢/ باب ٣٩/ ح ٨؛ بحار الأنوار ٥١: ٧٣/ ح ٢٠.

والرواية الأخرى تقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أنكر القائم من ولدي في زمان غيبته مات ميتة جاهلية»[١].

الأحاديث في المهدي عليه السلام:

أمَّا الأحاديث فهناك مئات الأحاديث بلغ بها بعض علمائنا إلى (ستّة آلاف حديثاً)[٢]، ولكن حينما نتحدَّث عن الروايات لدى أهل السُنّة أيضاً نجد أنَّهم نقلوا مئات الروايات، في كتاب واحد لصاحب كتاب كنز العمّال توجد (٢٧٤) رواية في الإمام المهدي عليه السلام هذا في كتاب واحد وإذا أردنا أن نستعرض مجموعة الكتب سوف نجد شيئاً كثيراً جدّاً.

أحد علماء النجف الأشرف المعاصرين وهو العلاّمة الشيخ محمّد أمين زين الدين له كتاب[٣] في الإمام المهدي عليه السلام يذكر إحصائية يمكن الاستفادة منها وهي:

هناك أربعون حديثاً أخرجها الحافظ أبو نعيم من علماء الحديث عند أبناء العامّة.

وثمانية وثلاثون حديثاً ذكرها ابن خلدون.

وسبعون حديثاً أخرجها الحافظ محمّد بن يوسف الكنجي.

ومائة وعشرة أحاديث رواها صاحب كتاب كشف المخفي في مناقب المهدي.

إذن هذه مئات الأحاديث، ثمّ ينقل أسماءً لخمسين صحابياً من صحابة

(١) كمال الدين: ٤١٣/ باب ٣٩/ ح ١٢؛ بحار الأنوار ٥١: ٧٣/ ح ٢١.

(٢) راجع: بحث حول المهدي للشهيد السيّد محمّد باقر الصدر.

(٣) مع الدكتور أحمد أمين في حديث المهدي والمهدوية.

الرسول ذكروا حديث المهدي، ثمّ يذكر خمسين تابعياً، الأمر الذي يجعل القضيّة بدرجة من الوضوح واليقينية أنَّها صارت عند الفكر الإسلامي لدى الشيعة والسُنّة من القضايا الضرورية التي يجب الاعتقاد بها.

نظرية ابن خلدون:

ابن خلدون في الوقت الذي يذكر ثمانية وثلاثين رواية في الإمام المهدي عليه السلام ويتحدَّث بصحّة بعضها من الناحية السنديّة، لكنَّه بعد ذلك يرفض فكرة الإمام المهدي لمجرَّد نظرية تحليلية عنده وحاول أن يحمّل الفكر الإسلامي اجتهاداته الشخصية(١).

مثلاً في قضيّة الإمام المهدي هو يذكر أنَّ بعض الروايات الواردة في الإمام المهدي هي روايات صحيحة لكن بعد ذلك واستناداً إلى نظرية شخصية لديه في علم الاجتماع يقول فيها: إنَّ تأسيس الدولة يحتاج إلى عصبية، وأهل البيت ليس لديهم عصبية، فإذا كان المهدي من ولد فاطمة من أهل البيت عليهم السلام

(١) قال ابن خلدون في كتابه (تاريخ ابن خلدون ١: ٣٢٧): (والحقّ الذي ينبغي أن يتقرَّر لديك أنَّه لا تتمّ دعوة من الدين والملك إلاَّ بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتَّى يتمّ أمر الله فيه وقد قرَّرنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك هناك وعصبية الفاطميين، بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أمم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلاَّ ما بقي بالحجاز في مكّة وينبع بالمدينة من الطالبين من بني حسن وبني حسين وبني جعفر وهم منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرّقون في مواطنهم وإماراتهم وآرائهم يبلغون آلافاً من الكثرة فإن صحَّ ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلاَّ بأن يكون منهم ويؤلّف الله بين قلوبهم في أتباعه حتَّى تتمّ له شوكة وعصبية وافية بإظهار كلمته وحمل الناس عليها وأمَّا على غير هذا الوجه مثل أن يدعو فاطمي منهم إلى مثل هذا الأمر في أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة إلاَّ مجرَّد نسبة في أهل البيت فلا يتمّ ذلك ولا يمكن لما أسلفناه من البراهين الصحيحة).

فهو لا يستطيع أن يشّكل دولة إذ لا عصبية له، إذن قضيّة الإمام المهدي ليست صحيحة! بهذه الطريقة من الاستدلال! عجيب هذا الموقف، بعد أن ينقل روايات رسول الله صلى الله عليه وآله في الإمام المهدي يقول: أنا اجتهادي في علم الاجتماع لا يجعلني أقبل أنَّ إنساناً مثل الإمام المهدي عطوفاً رؤوفاً يحبّ المساكين يستطيع أن يشكّل دولة.

خاتمية الإسلام وشهادة الأمّة الإسلاميّة:

هناك سؤال وهو لماذا احتلَّت قضيّة الإمام المهدي هذا الموقع الكبير بحيث أنَّ من ينكره ينكر الإسلام وينكر الرسول صلى الله عليه وآله كما مرَّ في روايات سابقة متَّفق عليها لدى الشيعة والسُنّة[1]؟

الجواب: إنَّ هذا أمر في غاية الأهمّية، إنَّنا نريد أن نقول: إنَّ الإسلام هو الذي يمثّل نهاية الحضارات وليس الحضارة الغربية، وإنَّ الأمّة الإسلاميّة تمثّل الأمّة الشاهدة وليس الأمّة الغربية هي الشاهدة على العالم.

إنَّ الإسلام يمثّل الرسالة الإلهية الخاتمة ولا توجد رسالة بعد الإسلام كالرسالة التي يبشّر بها الغرب اليوم باسم الديمقراطية.

الغرب اليوم يبشّر بنظريات شمولية كبرى ومطلقة.

الغرب يقول: أنا أُمثّل الأمّة الشاهدة على العالم وليس أنتم، أنا أُمثّل الأمّة القيّمة على العالم هذا أوّلاً.

ثانياً: الديمقراطية الغربية هي التي تمثّل الحضارة الخاتمة، والرسالة الخاتمة وليس الإسلام، التقدّم المدني الغربي الأمريكي بالذات هو الذي يمثّل نهاية الحضارات وليس الإسلام، هذا الأمر تماماً على خلاف رؤية الإسلام.

---

(١) أنظر (ص ٥٠٩).

الفكر الإسلامي يقول شيئاً آخراً، هذا الذي تعكسه نظرية وعقيدة الإمام المهدي، هذه العقيدة تريد أن تقول: إنَّ الأمّة الإسلاميّة هي الأمّة الشاهدة على العالم، وإنَّ الحضارة الإسلاميّة هي نهاية الحضارات، وإنَّ الرسالة الإسلاميّة هي نهاية الرسالات، وإنَّ رائد الحركة الإصلاحية في العالم ليس هم رؤساء الغرب إنَّما هم أئمّة الهدى من ولد فاطمة وأهل البيت عليهم السلام كما تقول الروايات، هؤلاء هم روّاد الحركة الإصلاحية في العالم.

مسألة الإمام المهدي ليست مسألة هامشية، هي مسألة في عمق حركتنا كشعب من الشعوب، مسألة في عمق حضارتنا كرسالة من الرسالات الإلهية، بدون قضيّة الإمام المهدي عليه السلام تكون الرسالة الإسلامية مبتورة، ومغلوبة، أو مقطوعة الذيل، هذه المخاطر ستتغلَّب عليها قضيّة الإمام المهدي عليه السلام، الرسول صلى الله عليه وآله هو المبشّر بهذه الرسالة وهذا الإمام المهدي الذي تقول الروايات بالإجماع أنَّه من ولد فاطمة عليها السلام ومن أهل بيتي، اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، هو الذي يُكمّل مسيرة الرسالة الإلهية ويختمها على الأمّة الإسلاميّة عموماً وعلى يد شيعة أهل البيت خصوصاً.

الاشتراك في الشخصية:

إنَّ هناك اشتراكاً في الشخصية يعني أنَّ الثورة التي قادها الحسين عليه السلام والثورة التي يقودها المهدي عليه السلام تشترك في شخصية القائد، ذلك هو الحسين عليه السلام في كربلاء وهذه ثورة المهدي عليه السلام يقودها الابن التاسع للحسين عليه السلام، هكذا تقول الروايات عندنا بالاتّفاق وعند السُنّة على اختلاف في بعض الروايات عندهم أنَّ المهدي من ولد

الحسن عليه السلام، وبعض رواياتهم أنَّه من ولد الحسين عليه السلام، ولكن رواياتنا المشهورة تقول: إنَّه من ولد الحسين عليه السلام فهو التاسع من ولده(١).

هذا الأمر قد يحتاج إلى تأمّل.

لماذا صار قائد الثورة الإصلاحية الشمولية العالمية هو من ذرّية الحسين عليه السلام وهو امتداد جسمي للحسين عليه السلام؟

في الحقيقة إنَّ هذا الاشتراك في شخصية القيادة ينقلنا إلى علاقة عاطفية ووشائج قلبية قويّة بين المهدي والحسين عليه السلام، هذه العاطفة تجسّدها قصَّة من القصص يرويها التاريخ ويذكرها خطباء المنبر الحسيني وقد سمعتها من أستاذنا في المنبر الشيخ شاكر القرشي وهو مؤرّخ أيضاً وعالم في التاريخ الإسلامي.

لقاء السيّد حيدر الحلّي بالإمام المهدي عليه السلام:

السيّد حيدر الحلّي من شعراء الطفّ وكربلاء والإمام الحسين عليه السلام، ومعروف بنظمه للشعر في الإمام الحسين عليه السلام ونجماً في سماء شعراء الطفّ الحوليين، أي الذين ينظمون قصيدة واحدة خلال السنة لكن هي من المعلَّقات ومن روائع القصائد، وكان السيّد حيدر الحلّي إذا أكمل القصيدة يذهب ويلقيها عند ضريح الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء أوّلاً، السيّد حيدر هذه المرَّة نظم قصيدة معروفة من القصائد الخالدة والتي خلَّدته أيضاً وهي قصيدة مطلعها:

---

(١) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: دخلت على النبيّ صلى الله عليه وآله، فإذا الحسين بن علي على فخذه، وهو يقبّل عينيه ويلثم فاه، ويقول: «أنت سيّد ابن سيّد، أنت إمام ابن إمام أبو أئمّة، أنت حجّة الله ابن حجّته، وأبو حجج تسعة من صلبك، تاسعهم قائمهم» الإمامة والتبصرة: ١١٠/ باب أنَّ المهدي من ولد الحسين عليه السلام/ ح ٩٦.

الله يـــا حـــامي الشـــريعة أتقـــرُّ وهـــي كـــذا مروعـــه
بـــــك تســــتغيث وقلبُهـــــا لك عن جوىً يشكو صدوعه

إلى أن يقول:

تنعـــى الفـــروع أصـــوله وأصـــوله تنعـــى فروعـــه
فيـــه تحكـــم مـــن أبـــاح اليـــوم حرمتـــه المنيعـــه

السـيّد حيـدر الحلّـي عنـدما سـافر إلـى كـربلاء وكـان السـفر يسـتغرق أيّامـاً وليـالي مشـياً علـى الأقـدام أو علـى دابـة، وعنـدما وصـل إلـى منطقـة ليستريح فـي بسـتان مـن البسـاتين وإذا بـأعرابي جـاء إلـى السـيّد حيـدر وقـال له: يا سيّد حيدر أنشدني القصيدة التي نظمتها أخيراً.

قلت له: أيّ قصيدة تقصد؟

قال: قصيدتك التي مطلعها:

الله يـــا حـــامي الشـــريعة أتقـــرُّ وهـــي كـــذا مروعـــه

هنا اندهش السيّد حيدر لأنَّه لم يُطلع أحداً على هذه القصيدة التي ذكرها الأعرابي ولكنَّه تفاعل معه وسيطرت روح هذا الشخص العربي على روح السيّد حيدر الحلي فأصبح ينشده القصيدة حتَّى وصل إلى قوله:

مـــاذا يهيّجـــك إن صـــبرت لوقعـــة الطـــف الفـــظيعه

يقـول السـيّد حيـدر: هـذا الشـخص العربـي بـدأ بالبكـاء والنحيـب وأنـا أقرء عليه:

مـــاذا يهيجـــك إن صـــبرت لوقعـــة الطـــف الفـــظيعه
أتـــرى تجـــيءُ فجيعـــة بـأمضّ مـن تلـك الفجيعـه
حيث الحسين على الثرى خيلُ العدى طحنت ضلوعه

يقول السيّد حيدر: أنا أقرأ الأبيات وغافل عن المشهد كيف كان، وهذا السيّد الأعرابي إلى جانبي ينحب بالبكاء من عسى أن يكون!؟ ثمّ قرأت:

ورضيعهُ بدم الوريد مخضبٌ فاطلب رضيعه

يقول السيّد حيدر: التفت هذا الأعرابي وقال: يا سيّد حيدر كفى، ليس عندي إجازة للخروج أنا منتظر الإجازة.

الخطاب السياسي للحسين والمهدي عليهما السلام رؤية مقارنة:

حينما نعقد مقارنة بين الخطاب السياسي للإمام الحسين عليه السلام والخطاب السياسي للإمام المهدي عليه السلام سنلاحظ وجود تطابق في الخطوط العريضة لهذين الخطابين.

لمَّا ورد إمامنا الحسين كربلاء في اليوم الثاني من محرَّم الحرام خطب أصحابه وأهل بيته قائلاً:

«اللّهمّ إنّا عترة نبيّك صلى الله عليه وآله وقد أخرجنا وطردنا عن حرم جدّنا، وتعدَّت بنو أمية علينا، اللهمّ فخذ بحقّنا وانصرنا على القوم الكافرين»[(١)].

وقال عليه السلام: «إنَّ هذه الدنيا قد تغيَّرت وتنكَّرت، وأدبر معروفها، فلم يبقَ منها إلاَّ صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أنَّ الحقّ لا يعمل به، وأنَّ الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً، فإنّي لا أرى الموت إلاَّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاَّ برما، إنَّ الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت به معائشهم فإذا محّصوا بالبلاء قلَّ الديّانون»[(٢)].

---

(١) كتاب الفتوح ٥: ٨٤.

(٢) تحف العقول: ٢٤٥.

مكوّنات الخطاب:

هذا الخطاب هو أوّل تصريح رسمي للإمام الحسين عليه السلام حينما دخل أرض كربلاء يتألّف من ثلاثة مقاطع:

المقطع الأوّل: التظلّم، وبيان ظلامة الحقّ، وظلامة أهل البيت «أُخرجنا وطردنا عن حرم جدّنا».

المقطع الثاني: تقييم الواقع الاجتماعي، تقييم الدنيا «الناس عبيد الدنيا».

المقطع الثالث: الانتصار للحقّ «ليرغب المؤمن في لقاء الله».

هذه ثلاثة مقاطع تضمَّنها خطاب الحسين عليه السلام في أوّل وروده إلى كربلاء.

وإنَّ هذا الخطاب بهذه المقاطع الثلاثة وبعبارة مقاربة جدَّاً نجده يصدر من الإمام الحجّة المنتظر عليه السلام لدى أوّل ساعة خروجه في مكّة المكرَّمة.

إمامنا المنتظر عليه السلام يوم خروجه في مكّة المكرَّمة وقد أسند ظهره إلى البيت يخطبُ الناس وقد هبط عليه جبرئيل فيكون أوّل من يبايعه جبرئيل ثمّ الثلاثمائة والثلاثة عشر رجلاً[(١)].

إمامنا المنتظر عليه السلام خطب نفس خطاب الحسين عليه السلام من حيث المقاطع والمضمون.

المقطع الأوّل:

قال الإمام الحسين عليه السلام: «اللّهمّ إنّا عترة نبيّك صلى الله عليه وآله وسلم وقد أخرجنا وطردنا عن حرم جدّنا، وتعدَّت بنو أمية علينا، اللّهمّ فخذ بحقّنا وانصرنا على القوم الكافرين»[(٢)].

---

(١) تفسير القمي ٢: ٢٠٥؛ بحار الأنوار ٥٢: ٣١٦/ ح ١٠.

(٢) كتاب الفتوح ٥: ٨٤.

الإمام المنتظر عليه السلام مثل هذا المعنى يذكره أيضاً في المقطع الأوّل من خطابه حيث يقول:

«يا أيّها الناس إنّا نستنصر الله، فمن أجابنا من الناس فإنّا أهل بيت نبيّكم محمّد صلى الله عليه وآله...، وأسألكم بحقّ الله وبحقّ رسوله وبحقّي، فإنَّ لي عليكم حقّ القربى من رسول الله إلاَّ أعنتمونا ومنعتمونا ممَّن يظلمنا فقد أخفنا وطردنا من ديارنا وأبنائنا وبغي علينا ودفعنا عن حقّنا وافترى أهل الباطل علينا...»(١)، هذا هو المقطع الأوّل وهو التظلّم وبيان الظلامة.

المقطع الثاني:

قال الإمام الحسين عليه السلام: «إنَّ هذه الدنيا قد تغيَّرت وتنكَّرت، وأدبر معروفها، فلم يبقَ منها إلاَّ صبابة...».

الإمام المنتظر عليه السلام مثل هذا المعنى يذكره أيضاً في المقطع الثاني من خطابه حيث يقول:

«فإنَّ الدنيا قد دنا فناؤها وزوالها، وأذنت بالوداع...»(٢)، هذا هو المقطع الثاني وهو تقييم الواقع الاجتماعي وتقييم الدنيا.

المقطع الثالث:

قال الإمام الحسين عليه السلام: «فإنَّ السُنّة قد أميتت، وإنَّ البدعة قد أحييت...»(٣).

---

(١) الغيبة للنعماني: ٢٩٠/ باب ١٤/ ح ٦٧.

(٢) الملاحم والفتن لابن طاووس: ٦٤/ باب ١٣٠/ ح ١٥٧.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٢٥.

الإمام المنتظر عليه السلام مثل هذا المعنى يذكره أيضاً في المقطع الثالث من خطابه حيث يقول:

«وإنّي أدعوكم إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وآله، والعمل بكتابه، وإماتة الباطل، وإحياء سُنّته»(١)، هذا هو المقطع الثالث وهو الانتصار للحقّ.

هذا التلاقي والتقارب في الخطاب السياسي للإمامين يوضّح نقطة اشتراك مهمّة بين الثورتين والحركتين على مستوى الأهداف أوّلاً، وعلى مستوى المناهج ثانياً وعلى مستوى الشخصية القائمة بالثورة ثالثاً وعلى مستوى التاريخ والمسار التاريخي رابعاً.

الاشتراك في الأهداف:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أذن الله عزّ وجلّ للقائم بالخروج صعد المنبر فدعا الناس إلى نفسه، وناشدهم بالله، ودعاهم إلى حقّه، على أن يسير فيهم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، ويعمل فيهم بعمله، فيبعث الله عزّ وجلّ جبرئيل عليه السلام حتَّى يأتيه فينزل على الحطيم ـ الحطيم أحد جدران الكعبة الأربعة بمعنى تتحطَّم عنده الذنوب ـ.

ثمّ يقول له: إلى أيّ شيء تدعو؟

فيخبره القائم فيقول جبرئيل: أنا أوّل من يبايعك ابسط كفّك، فيمسح على يده، وقد وافاه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، فيبايعونه...».

أصحاب الإمام المنتظر عليه السلام هم قادة الألوية وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر وهناك جنود وهم الآلاف المؤلّفة من شيعته.

---

(١) الملاحم والفتن لابن طاووس: ٦٤/ باب ١٣٠/ ح ١٥٧.

«... ويقيم بمكّة حتَّى يتمّ أصحابه عشرة آلاف أنفس، ثمّ يسير إلى المدينة»[١].

إنَّ أوّل انطلاقة للإمام المنتظر عليه السلام تكون من المدينة، لكن دون أن يعلن الثورة، تماماً مثل حركة الحسين عليه السلام، الحسين أوّل ما خرج من المدينة المنوَّرة لم يعلن الثورة، بل أعلنها في مكّة المكرَّمة.

إمامنا المنتظر عليه السلام، أوّل ما يظهر في المدينة ثمّ يرحل من المدينة إلى مكّة لأسباب[٢]، وفيها يعلن الثورة وقد أسند ظهره إلى البيت الحرام ويبايعه جبرائيل ويلتحق به أصحابه ثمّ يعود إلى المدينة لتحريرها من جيش السفياني، وقد اجتمع له عشرة آلاف من أصحابه.

هدف الإمام المهدي عليه السلام:

ما هو الهدف الأصلي لحركة الإمام المهدي عليه السلام؟

هو تجديد الإسلام وإحياء هذه الرسالة الإلهية الخاتمة، حتَّى يكون الإسلام عالمياً ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الصف: ٩)، على كلّ الأديان والمذاهب والحضارات والسياسيات ﴿وَلَوْ كَرِهَ المشركون﴾.

الروايات تقول: إنَّ هذه الآية ما جاء تأويلها بعد وإذا قام قائمنا

---

(١) إعلام الورى ٢: ٢٨٨.

(٢) عن جابر بن يزيد الجعفي، قال: قال أبو جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام: «يا جابر، الزم الأرض ولا تحرّك يداً ولا رجلاً حتَّى ترى علامات أذكرها لك إن أدركتها... ويبعث السفياني بعثاً إلى المدينة فينفر المهدي منها إلى مكّة، فيبلغ أمير جيش السفياني أنَّ المهدي قد خرج إلى مكّة، فيبعث جيشاً على أثره فلا يدركه حتَّى يدخل مكّة خائفاً يترقَّب على سُنَّةِ موسى بن عمران...» الغيبة للنعماني: ٢٨٩/ باب ١٤/ ح ٦٧.

جاء تأويلها بمعنى أنَّ إمامنا المنتظر عليه السلام يطبّق حينئذٍ قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1].

تجديد الإسلام هو خلاصة هدف حركة إمامنا المنتظر عليه السلام وهي نفسها خلاصة الهدف لحركة إمامنا الحسين عليه السلام.

هل يأتي بدين جديد؟

بعض الروايات تقول: إنَّ الإمام المنتظر يأتي بأمر جديد وكتاب جديد[2].

وبعض الباحثين تصوّر أنَّ الإمام المهدي عليه السلام يأتي بدين جديد غير الإسلام وغير القرآن وغير سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

الحقيقة أنَّ الإمام المنتظر عليه السلام يأتي بالإسلام جديداً وهو نفس الإسلام، لكن بعد أن هجره الناس وجهلوه يبدو لهم جديداً، فالأهداف إحياء نفس الإسلام ولأنَّ ذلك أمر قد غفل عنه الناس فهم يحسبون أنَّ هذا الدين جديد.

فعن الصادق عليه السلام: «إنَّه قال لي أبي عليه السلام: ... والله لكأنّي أنظر إليه

---

(١) عن أبي بصير، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، فقال: «والله ما نزل تأويلها بعد، ولا ينزل تأويلها حتَّى يخرج القائم عليه السلام فإذا خرج القائم عليه السلام لم يبقَ كافر بالله العظيم ولا مشرك بالإمام إلاَّ كره خروجه حتَّى أن لو كان كافراً أو مشركاً في بطن صخرة لقالت: يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله» كمال الدين: ٦٧٠/ باب ٥٨/ ح ١٦.

(٢) عن أبي بصير، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «يقوم القائم بأمر جديد، وكتاب جديد، وقضاء جديد، على العرب شديد، ليس شأنه إلاَّ القتل، لا يستتيب أحداً، ولا تأخذه في الله لومة لائم» الغيبة للنعماني: ٢٣٨/ باب ١٣/ ح ١٩.

بين الركن والمقام يبايع الناس على كتاب جديد، على العرب شديد»، وقال: «ويلٌ لطغاة العرب من شرٍّ قد اقترب»(١).

تَصوَّر بعض الكتّاب أنَّ الرواية إشارة إلى دين جديد وكتاب جديد، بينما بالتأكيد ليس الأمر كما تصوَّر هؤلاء، فإنَّ الثابت في عشرات الأحاديث الأخرى أنَّه يُحيي نفس هذا الدين ونفس سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، لكن يحسبه الناس أمراً جديداً وبهذا كانت أوّل كلمة وأوّل خطاب للإمام المنتظر عليه السلام يدعو الناس فيه لأن يسير بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله.

إذن الإمام لا يأتي بدين جديد وإنَّما يقوم بإحياء نفس الإسلام.

لمحة عن حركة الإمام عليه السلام:

الحقيقة أنَّ حركة الإمام المنتظر هي ثورة إصلاحية شمولية عالمية.

أوّلاً: أنَّها ثورة كما أنَّ حركة الحسين عليه السلام هي ثورة، ومعنى ثورة أنَّها عملية تغيير جذري.

فالإنسان حين يؤسّس مؤسسة خيرية لا يقال: هذا قام بثورة.

حين يبني مستشفى لا يقال: هذا قام بثورة.

حين يؤلّف كتاباً لا يقال: قام بثورة.

حتَّى وهو يؤسّس دولة أيضاً لا يقال: قام بثورة.

لكن إذا أحدث عملية تغيير جذري فإنَّه سيقال له: إنَّه قام بثورة ثقافية، ثورة سياسية، ثورة اجتماعية.

حركة الإمام الحسين عليه السلام كانت تغييراً جذرياً، يعني قلب الواقع القائم يومئذٍ.

---

(١) الغيبة للنعماني: ٢٠٠/ باب ١١/ ح ١.

حركة الإمام المنتظر عليه السلام أيضاً هي تغيير الواقع ولهذا نسمّيها: (ثورة).

وكلمة (ثورة) غير موجودة في المصطلح الإسلامي.

ولهذا حينما تقرأ القرآن الكريم أو الروايات الشريفة لا تجد عبارة: (ثورة)، وإنَّما الاصطلاح الإسلامي يستخدم كلمة: (قيام) أو (خروج).

«إذا قام قائمنا» الثورة بالمصطلح الإسلامي يعَّبر عنها بكلمة (قيام) ليس عندنا مصطلح (ثورة)، لكن في الاصطلاح الجديد في الأدب العربي أصبح يقال للقيام السياسي أو الثقافي التغييري: (ثورة).

هذا الاصطلاح وهو كلمة (ثورة) نستخدمه بالمشرق العربي أمَّا في المغرب العربي يستخدمون شيئاً آخر، إذا قرأت كتب المغاربة والجزائريين لا تجد عبارة (ثورة)، هناك يسمّونها: (قَومة)، نحن نقول: (الثورة العربية) مثلاً، هم يسمّونها: (القَومة العربية)، (الثورة الإسلاميّة) يسمّوها: (القَومة الإسلامية)، واصطلاحهم هذا قريب من اللغة العربية، بل أقرب من اصطلاح (ثورة)، وكلمة (قَومة) هي من (قيام).

الحقيقة أنَّ حركة الإمام المنتظر عليه السلام هي عملية ثورية بما تحتويه من تغيير جذري.

ثانياً: وهي ثورة إصلاحية شمولية عالمية كما سيأتي توضيح ذلك.

لماذا لم ترد في القرآن؟

هناك سؤال وشبهة طرحها أحد المستشرقين اسمه (دونالتسن).

دونالتسن هو كاتب غربي مستشرق تعلَّم اللغة العربية ودرس كتبنا وقرأ تاريخنا ثمّ ألّف في العقيدة والفكر[(١)].

(١) أنظر: العقيدة والشريعة/ دونالتسن.

دونالتسن[١] يطرح سؤالاً يقول فيه:

العجيب أنَّ فكرة الإمام المهدي لم ترد في القرآن الكريم بهذا النصّ ولو كانت هذه الفكرة أصيلةً في الإسلام، فلماذا لم ينصّ عليها القرآن؟ وحينما تقرأ القرآن لا تجد كلمة الإمام المهدي عليه السلام؟

دونالتسن هكذا يقول: إنَّ هذه الفكرة ليست واقعية ولم يأتِ بها الإسلام بدليل أنَّها لم ترد في القرآن الكريم.

جواب الشبهة:

الحقيقة إنَّ علماءنا بحثوا هذا الأمر قبل أن يتحدَّث عنه دونالتسن، فاستعرضوا ما هي الآيات التي جاءت في قضيّة الإمام المهدي عليه السلام.

بعض علمائنا ذكر (١٣٣) آية قرآنية جاءت في الإشارة لهذا الموضوع، مرَّةً على مستوى الظهور القوي، ومرَّةً على مستوى الإشارة إلى قضيّة الإمام المهدي عليه السلام.

(١٣٣) آية كما هو في كتاب (إلزام الناصب) للعلاّمة المحقّق الحائري اليزدي، في أحد فصوله وقد ذكر الآيات الواردة في قيام الإمام المهدي عليه السلام[٢].

لكن من حقّكم أن تسألوا وتقولوا: إنَّ كلّ هذه الآيات ليست صريحة، ولا واحدة منها فيها اسم الإمام المهدي عليه السلام فلماذا؟

إذا كانت القضيّة بهذا الحجم من الأهمّية بحيث أنَّ «من أنكر

---

(١) أنظر: الصلة بين التصوّف والتشيّع لكامل مصطفى الشيبي؛ وأنظر أيضاً: موسوعة الرأي الآخر: ٣٥٧٧/ الجزء المختصّ بالإمام المهدي عليه السلام.

(٢) أنظر: إلزام الناصب ١: ٤٩ - ١٠٠.

المهدي فقد أنكرني»، كما في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله [(١)]، إذا كانت بهذه الأهمّية وهي تمثّل ضرورة في الفكر الإسلامي الشيعي والسُنّي، إذن لماذا لم يصرّح بها القرآن الكريم ولم ينصّ عليها؟

طريقة القرآن:

الجواب: إنّنا بحاجة لنعرف طريقة القرآن في البيان.

فإنَّه يكتفي بالأطر العامّة في بيان القضايا ولا ينزل إلى التفاصيل إلاَّ من خلال الاحتكاك الميداني.

الصلاة _ مثلاً _ مئات الآيات نزلت في الصلاة لكن كلّها في الإطار العامّ، ولا آية واحدة تتحدَّث عن صلاة الصبح أو صلاة الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء.

الصوم كذلك في الإطار العامّ، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٣)، أمَّا ما هي المفطرات؟ ما هي شروط الصوم الصحيح؟ أبداً ولا آية قرآنية تتحدَّث عن ذلك.

الزكاة كذلك أمَرَ القرآن بالصدقات لكن كم هي الزكاة؟ متى تجب الزكاة؟ أين تجب الزكاة؟ أبداً لا يوجد في القرآن الكريم إشارة إلى ذلك.

القرآن الكريم هو شبيه بكتاب دستوري يعني يقدّم دستوراً للأُمّة على مدى التاريخ يكتفي بالأطر العامّة والبنود والمواد ولا ينزل إلى تفصيل إلاَّ عند الاحتكاك مع السائلين، يأتي سائل يسأل مثلاً حينئذٍ يأتيه الجواب بشكل فيه تفصيل.

---

(١) كمال الدين: ٤١٢/ باب ٣٩/ ح ٨.

دور النبيّ صلى الله عليه وآله ودور الأئمّة الأطهار عليهم السلام هو ذكر التفاصيل.

ولهذا فعلماؤنا هكذا يجيبون على هذا السؤال بشكل عامّ وهو سؤال موجود في مواطن كثيرة.

يقولون: إنَّ سبب عدم نزول القرآن بالتفاصيل من أجل أن يضطرّ الناس للرجوع إلى النبيّ وأهل بيته للسؤال منهم، وإلاَّ إذا صارت كلّ التفاصيل مذكورة في القرآن، يعني أنَّ القرآن يصبح مجموعة مجلَّدات وسوف يستغني الناس، وسوف لا يألفون الرجوع إلى المجلس التشريعي الذي يمثّله النبيّ ويمثّله الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

القرآن صريح في هذه القضيّة، مثلاً القرآن يقول: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران: ٧).

القرآن يريد أن يقول: أيّها الناس أنا القرآن يوجد عندي نوعان من الآيات: نوع منها واضحة وصريحة ونوع متشابِهة كلّ واحد يفسّرها بتفسير.

لماذا أيّها القرآن؟

القرآن يقول: ﴿أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ (آل عمران: ٧)، القلوب المريضة تركض وراء التفسير غير الصحيح. لكن أصل القضيّة أنَّ هذا القرآن لماذا جاء بمتشابِه؟

علماؤنا يقولون[١] في جواب ذلك: حتَّى يرجع الناس إلى أهل البيت عليهم السلام، ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣)، الغرض هو الرجوع إلى الأستاذ.

---

(١) أنظر: الكافي للحلبي: ٥٦.

مثلاً في المدرسة هناك مناهج مدرسية وفيها كتب تاريخ، جغرافية، فيزياء، كيمياء، لكن ما هو دور الأستاذ؟

الكتاب يعطيك المتن لكن الأستاذ يشرح التفاصيل، يوضّح لك ما هي النقاط الغامضة، إذا كان الكتاب يشرح لك كلّ التفاصيل فلا تحتاج إلى أستاذ، ولا ترجع إليه، ولا يمكن للكتاب وحده أن يربّيك ويجعلك تُناقش وتحاور.

ولأجل ذلك كانت الكتب الدراسية تحتوي المتون والباقي على الأستاذ.

القرآن أيضاً هذه هي طريقته.

امتحان الناس:

وهناك جواب ثانٍ وهو أنَّ القرآن يريد أن يمتحن الناس، ويمحصهم مَن منهم يرجع إلى أهل البيت، أهل الذكر، ومن منهم يعاند ويكابر ويقول: أنا غير مستعدّ أن أدرس عند أستاذ ولا مستعدّ أن أرجع إلى نبيّ قطّ!

يوجد أناس بهذا الشكل.

لمَّا بلَّغ رسول صلى الله عليه وآله بغدير خمّ ما بلَّغ، وشاع ذلك في البلاد أتى الحارث بن النعمان الفهري، وفي رواية أبي عبيد جابر بن النضر بن الحارث بن كلدة العيدري. فقال: يا محمّد أمرتنا عن الله بشهادة أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمّداً رسول الله، وبالصلوة والصوم والحجّ والزكوة فقبلنا منك ثمّ لم ترضَ بذلك حتَّى رفعت بضبع ابن عمّك ففضَّلته علينا وقلت: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فهذا شيء منك أم من الله؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذي لا إله إلاَّ هو إنَّ هذا من الله».

فولّى الحارث يريد راحلته وهو يقول: اللّهمّ إن كان ما يقول محمّد حقّاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو أتنا بعذاب اليم، فما وصل

إليها حتَّى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره وقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ﴾ (المعارج: ١)[١].

سُنّة الله تقتضي امتحان الناس، أن تضع الناس في امتحان لمعرفة مدى طاعتهم وعصيانهم.

قوم موسى عليه السلام:

توجد رواية تقول: إنَّ موسى عليه السلام ابتلي بقومه، حينما ذهب ثلاثين ليلة وأتمّها ربّه بعشر، فغاب موسى عليه السلام غيبة صغيرة هي رحلة أربعين يوماً، لا يعلمون إلى أين، ولا أخذ معه أحداً ﴿وَواعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف: ١٤٢)، ذهب إلى الله تبارك وتعالى، لمَّا انتهت ثلاثون ليلة ولم يرجع موسى عليه السلام إلى قومه قالوا: هذا النبيّ كذب علينا، وَعَدنا ثلاثين ليلة ولم يأتِ، وهنا عمل لهم أحد أتباع موسى عليه السلام وهو السامري ويبدو أنَّه كان فنّاناً مقتدراً وصاحب خبرة، عمل لهم عجلاً ﴿لَهُ خُوارٌ﴾ (الأعراف: ١٤٨)، يعني يصيح، هؤلاء تعجَّبوا، وخدعهم السامري واتَّبعوه، وصارت مشكلة، وصار افتراق، وصار ابتعاد عن موسى، وابتعاد عن هارون الذي كان خليفة موسى عليه السلام، وأصبح هارون يتوسَّل بهم ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (طه: ٩٠)، سوف يأتي موسى عليه السلام انتظروا قليلاً، قالوا له: أوّلاً: موسى عليه السلام كذب علينا فهذه ثلاثون ليلة قد مضت ولم يرجع إلينا، ثانياً: هذا السامري عَمَل لنا عجلاً وهذا العجل له خوار وهذه معجزة فنحن نتَّبعه.

ومحلّ الشاهد أنَّ موسى عليه السلام قال: إلهي أنا أدري أنَّ العجل عمله السامري لكن من الذي أخاره؟ السامري أم أنت؟

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٤٠.

فقال تعالى: أنا أخرته، هنا يقول القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ (الأعراف: ١٥٥)(١).

إلهي أنت إذن تريد أن تمتحن الناس، وإلاَّ فإنَّ السامري وحده لا يستطيع أن يعمل هكذا عمل لولا أنَّك أعطيته هذه القدرة.

نظرية الامتحان يذكرها القرآن الكريم مراراً، وفي قصص الأنبياء كثيرة.

غيبة الإمام المنتظر عليه السلام هي صورة من صور الامتحان للناس.

الفتنة في اللغة العربية هي بمعنى الامتحان والابتلاء، ليهتدي ويؤمن من يؤمن وليكفر من يكفر.

ومحلّ الشاهد أنَّ القرآن الكريم طريقته بيان الإطار العامّ وليس النزول للتفاصيل، بل يبقى هناك مجال للامتحان والفتنة، ولهذا فإنَّ القرآن الكريم ليس به تفصيل لكثير من القضايا الضرورية البديهية الثابتة في الإسلام.

قد تسأل الآن وتقول: نحن نقبل من القرآن الكريم أن يشير إلى الإطار العامّ لقضيّة المهدي المنتظر عليه السلام فأين هذه الإشارة؟

نقول لكم: نعم القرآن الكريم فيه عشرات الآيات تتحدَّث عن قضيّة الإمام المنتظر التي تعني في إطارها العامّ الحركة الإصلاحية ونجاحها في ختام المسيرة البشرية، هذه هي قضيّة الإمام المنتظر عليه السلام.

الإطار العامّ للقضيّة المهدوية:

إنَّ قضيّة الإمام المهدي عليه السلام في إطارها العامّ والذي هو بمستوى الضرورة من ضرورات الإسلام هي عبارة عن أمرين:

---

(١) أنظر: تفسير العياشي ٢: ٢٩/ ح ٧٩.

الأمـر الأوّل: انتصار الحقّ وظهور حركة إصلاحية عالمية تحقّق انتصاراً ساحقاً.

الأمـر الثـاني: إنَّ هـذه الحركـة الإصـلاحية تظهـر علـى يـد رجـل مصلح عالمي هذا الذي يُلقَّب بالمهدي.

هـذا هـو الإطار العامّ لقضيّة الإمام المهدي عليه السلام الثابتة لدى كلّ المذاهب الإسلاميّة وهناك تفاصيل أخرى تختلف فيها المذاهب مثل:

من يكون هذا الرجل المصلح؟

وهل هو موجود بالفعل؟

وغير ذلك من الأسئلة.

ونحـن إذا بقينا مع الإطار العامّ للقضيّة نجد أنَّ القرآن الكريم يتحدَّث بشكل واسع عنها.

الآيات القرآنية:

القرآن الكريم فيه آيات عديدة بهذا الشأن منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأُرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ﴾ (القصص: ٥).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأُرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥)، الزبور عبارة عن ألواح وأوراق داود.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأُرْضِ﴾ (النور: ٥٥).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣).

هذه آيات واضحة في نظرية مستقبل البشرية وأنَّ المستقبل البشري سيشهد انتصاراً للحقّ، وأنَّ ختام المسيرة البشرية انتصار الحقّ وهذه الآيات بمستوى الصريحة والظاهرة في هذا الأمر.

إذن على الطريقة القرآنية لا توجد مشكلة وهذه بعض النصوص القرآنية في الدلالة على نهضة الإمام المهدي عليه السلام لكن بدون تصريح بالاسم كما هي طريقة القرآن الكريم.

لدينا مثلاً (مائة وأربع وعشرون) ألف نبيّ، كم نبيّ جاء اسمه في القرآن الكريم من مجموع هؤلاء؟ جاء اسم موسى وعيسى وهارون ونوح وإبراهيم ويونس وداود وغيرهم بما لا يبلغ اسم عشرين نبيّاً. أمَّا هذا الرقم الكبير للأنبياء فإنَّه غير موجود ولا عشر معشاره في القرآن الكريم، وقس على ذلك مسائل كثيرة.

الوعد الإلهي بانتصار الحقّ مؤكَّد في القرآن الكريم بصياغات عديدة.

عمق التأكيد القرآني:

التأكيد القرآني على قضيّة انتصار الحقّ في ختام المسيرة البشرية هو في غاية العمق.

لاحظوه مرَّةً يقول: ﴿كَتَبْنا﴾ (الأنبياء: ١٠٥).

ومرَّةً يقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (النور: ٥٥).

ومرَّةً يقول: ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا﴾ (يونس: ١٠٣).

ومرَّة يقول: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا﴾ (غافر: ٥١).

﴿كَتَبْنا﴾ يعني اتَّخذنا قراراً.

ويقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ فهذا وعد والله لا يخلف الميعاد.

مرَّة يقول: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ هذه جملة خبرية والله هو الصادق فيما يقول.

في آية أخرى تتحدَّث عن الإرادة الإلهية تقول: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ (القصص: ٥)، وإذا أراد الله شيئاً قال له كن فيكون.

هذه تأكيدات قرآنية بصياغات متعدّدة على قضيّة الإمام المهدي عليه السلام في إطارها العامّ وتبقى التفاصيل متروكة إلى السُنّة الشريفة، وهذا ما نلاحظهُ أيضاً في إمامة الإمام علي عليه السلام حيث لا يوجد أيضاً نصّ قرآني بالاسم ولكن السُنّة الشريفة هي التي أكَّدت ذلك.

الإمام المهدي عليه السلام في السُنّة الشريفة:

أمَّا السُنّة الشريفة فالملفت للنظر أنَّه جاء الإصرار والتأكيد على قضيّة الإمام المهدي عليه السلام بشكل مثير يجعلنا نتساءل لماذا هذا الإصرار؟

هناك نصوص عديدة بمستوى عالٍ من الوضوح والبيان، منها:

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو لم يبقَ من الدنيا إلاَّ يوم واحد لطَوَّل الله ذلك اليوم حتَّى يبعث فيه رجلاً من ولدي يواطئ اسمه اسمي يملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً»، هذه الرواية نقرؤها في صحاح السنَّة وليس في كتبنا فقط[١].

٢ ـ رواية ثانية عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو لم يبقَ من الدنيا إلاَّ يوم واحد لطوَّل الله ذلك اليوم حتَّى يبعث رجلاً منّي يواطئ اسمه اسمي...»[٢].

---

(١) راجع: سنن ابن ماجة ٢: ٩٢٩/ ح ٢٧٧٩؛ سنن أبي داود ٢: ٣٠٩/ ح ٤٢٨٢؛ سنن الترمذي ٣: ٣٤٣/ ح ٢٣٣٢؛ وغيرها من المصادر.

(٢) الغيبة للطوسي: ١٨١/ ح ١٤٠.

٣ _ وهكذا رواية ثالثة في هذا الشأن عن الإمام علي عليه السلام، قال: قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تذهب الدنيا حتَّى يقوم بأمر أمّتي رجلٌ من ولد الحسين، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً»(١).

٤ _ وأخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لفاطمة عليها السلام: «والذي نفسي بيده لا بدَّ لهذه الأمّة من مهدي، وهو والله من ولدك»(٢).

وهذا أمر ملفت للنظر لماذا لا تقوم القيامة ولا تقوم الساعة إلاَّ أن يخرج واحد ليحقّق الإصلاح حتَّى ولو بقي يومٌ واحدٌ؟

تفسير الإصرار على القضيّة:

يمكن أن نذكر مجموعة آراء في تفسير هذا الإصرار القرآني وهذا الإصرار النبوي.

الرأي الأوّل: إنَّ هذا من باب الوفاء لوعد الله، والله لا يخلف الميعاد، أليس وَعَد المؤمنين بالنصر ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ (النور: ٥٥)، فالله تعالى يطيل عمر الدنيا ولو يوماً واحداً حتَّى يحكم المؤمنون، حتَّى يقول: أيّها العباد أنا وفيت بوعدي...

الرأي الثاني: إنَّ هذا الإصرار القرآني والإصرار النبوي من باب الانتقام ليشفي صدور المؤمنين بالانتقام من الأعداء بمشاهدة الباطل كيف يُسحق ويُمحق.

الرأي الثالث: إنَّ هذا الإصرار من باب إعطاء أمل وإعطاء زخم روحي للمؤمنين حتَّى لا ييأسوا.

---

(١) دلائل الإمامة: ٤٥٣/ ح (٣٣/٤٢٩).

(٢) أمالي الطوسي: ١٥٥/ ح (٨/٢٥٦).

هذه مجموعة آراء لكنَّها في الحقيقة غير قادرة على أن تعطي تفسيراً مقنعاً لهذا الإصرار.

هذه التفاسير التي ذكرتُها لكم (الوفاء بالوعد)، (شفاء صدور المؤمنين)، (أعطاء الأمل) هذه التفاسير لا تستطيع أن تكشف العمق الفلسفي لقضيّة الإمام المهدي عليه السلام، لذا نحن نميل إلى الرأي الرابع.

الرأي الرابع: هو أنَّ قضيّة الإمام المهدي عليه السلام تمثّل سُنّة من سُنن التاريخ، فالقرآن يتحدَّث عن سُنن، مثلاً الموت سُنّة إلهية في الوجود ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، يعني هذا قانون إلهي.

ولهذا تقول الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام: «إنَّ قوماً فيما مضى قالوا لنبيّ لهم: ادع لنا ربّك يرفع عنّا الموت، فدعا لهم، فرفع الله عنهم الموت، فكثروا حتَّى ضاقت عليهم المنازل، وكثر النسل، ويصبح الرجل يطعم أباه وجدّه وأُمّه وجدّ جدّه ويوضيهم ويتعاهدهم فشغلوا عن طلب المعاش، فقالوا: سل لنا ربّك أن يردنا إلى حالنا التي كنّا عليها، فسأل نبيّهم ربّه فردَّهم إلى حالهم»(١).

الموت قانون إلهي، الموت لا يتخلَّف، الحياة قائمة على هذا القانون.

المعاد بعد الموت سُنّة كونية، ﴿إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾ (العلق: ٨)، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦)، سُنّة كونية لا تتخلَّف.

واحدة من السنن الكونية انتصار الحقّ، ومن الممكن أنَّ هذه السنن الكونية غير معلومة لنا، يعني أنَّ هذه القضيّة لا نقدر أن ندخلها في مختبر فيزياوي أو كيمياوي حتَّى نرى هذه السُنّة كيف تكون، نحن الآن في تجربة بشرية واضحة نعرف أنَّ الكلّ يموت، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥)،

(١) الكافي ٣: ٢٦٠/ باب النوادر/ ح ٣٦.

هذا حسب التجربة البشرية، لكن القرآن الكريم يتحدَّث عن سُنّة كونية بشرية أخرى اسمها انتصار الحقّ في نهاية المطاف، وهذا الأمر غير مشهود لنا في أيّام عمرنا القصير. إنَّه لا بدَّ أن ينتصر الحقّ، ﴿كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا﴾ (التوبة: ٤٠)، ربَّما نحن لم نكتشفها لكن القرآن يؤكّدها في عشرات الآيات والسُنّة الشريفة تؤكّدها في مئات النصوص بشكل قطعي، «لو لم يبقَ من الدنيا إلاَّ يوم واحد لطوَّل الله ذلك اليوم...».

كما أنَّك تقول: إنَّ الإنسان لو يصبح عمره (مائة) سنة أو (مائتي) سنة أو (ثلاثمائة) سنة فلا بدَّ يموت أخيراً، تماماً تريد هذه النصوص أن تقول: إنَّها سُنّة كونية لا تتخلَّف، هنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لو أنَّ الدنيا لم يبقَ منها إلاَّ يوم لا بدَّ أن تتحقَّق هذه السُنّة الكونية، سُنّة انتصار الحقّ، يملؤها قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

مدّة حكم الإمام عليه السلام:

نحن قبلنا أنَّ الحقّ سوف ينتصر، لكن ما هي مدّة حكم الإمام المنتظر عليه السلام؟

هنا نجد عدّة روايات[١]:

رواية تقول: يحكم (سبع) سنين[٢].

---

(١) قال العلاّمة المجلسي في (بحار الأنوار ٥٢: ٢٨٠): (بيان: الأخبار المختلفة الواردة في أيّام ملكه عليه السلام بعضها محمول على جميع مدّة ملكه وبعضها على زمان استقرار دولته، وبعضها على حساب ما عندنا من السنين والشهور، وبعضها على سنيه وشهوره الطويلة، والله يعلم).

(٢) عن أبي سعيد الخدري أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «ليقومنَّ على أمّتي رجل من أهل بيتي، أقنى، أجلى، يوسع الأرض عدلاً، كما أوسعت جوراً، يملك سبع سنين» دلائل الإمامة: ٤٦٩ و٤٧٠/ ح (٦٢/٤٥٨).

رواية تقول: يحكم (أربعين) سنة(١).

رواية تقول: إنَّ كل سنة تعادل عشر سنوات، معناه أنَّ سبع سنوات تعادل (سبعين) سنة(٢).

رواية تقول: يحكم (ثلاثمائة وتسع) سنين(٣).

رواية تقول: إنَّه يحكم (تسعَ عشرةَ)(٤) سنة، وهذه أشهر الروايات.

خليفة المهدي عليه السلام:

وقد يقول قائل: ما قيمة هذه الفترة القصيرة بعد الصبر الطويل؟

لكن الجميل أن نعرف أنَّه عليه السلام يحكم (تسعَ عشرةَ) سنة، وبعده يحكم خليفة له يلقَّب بالمهدي أيضاً، من المهديين من ورثة الإمام المنتظر عليه السلام وخلفائه، يحكم (ثلاثمائة وتسع) سنوات يعني الإمام المنتظر يحكم (تسع عشرة) سنة وبعده حكومة لرجل واحد من نوّاب

---

(١) عن الحسن بن علي بن أبي طالب، عن أبيه عليهما السلام، قال في حديث طويل له: «... يبعث الله رجلاً في آخر الزمان، وكلب من الدهر، وجهل من الناس، يؤيّده الله بملائكته، ويعصم أنصاره، وينصره بآياته، ويظهره على الأرض حتَّى يدينوا طوعاً وكرهاً، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، ونوراً وبرهاناً، يدين له عرض البلاد وطولها، لا يبقى كافر إلاَّ آمن به، ولا طالح إلا صلح، وتصطلح في ملكه السباع، وتخرج الأرض نبتها، وتنزل السماء بركتها، وتظهر له الكنوز، يملك ما بين الخافقين أربعين عاماً، فطوبى لمن أدرك أيّامه، وسمع كلامه» الاحتجاج ٢: ١١.

(٢) عن عبد الكريم بن عمرو الخثعمي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كم يملك القائم؟ قال: «سبع سنين تكون سبعين سنة من سنيكم هذه» الغيبة للطوسي: ٤٧٤/ ح ٤٩٧.

(٣) عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «يملك القائم ثلاثمائة سنة ويزداد تسعاً كما لبث أهل الكهف في كهفهم يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً...» بحار الأنوار ٥٢: ٣٩٠/ ح ٢١٢.

(٤) عن عبد الله بن أبي يعفور، عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: «يملك القائم عليه السلام تسع عشرة سنة وأشهراً» الغيبة للنعماني: ٣٥٣/ باب ٢٦/ ح ١.

المهـدي عليه السلام يحكـم هـذا الرجـل المهـدي أيضـاً وهـو بعـد مهـدينا يحكـم (ثلاثمائـة وتسع) سـنوات، ثـمّ تـأتي روايـة أخـرى وروايـات كثيـرة تقـول: إنَّ بعـد المهـدي أحـد عشـر مهـدياً أو اثنـا عشـر مهـدياً، إذا قبلنـا أنَّ كـلّ واحـد مـنهم يحكـم (مئـة) سـنة فَرَضـاً أصبح المجمـوع (ألفـاً ومئـة) سـنة، وإذا كـان الأوّل مـنهم يحكـم (ثلاثمائـة وتسـع) سـنوات إذن أصـبح المجمـوع (ألفـاً وأربعمائـة وتسـع سـنوات) والإمـام المهـدي عليه السلام شخصـياً يحكـم (تسـع عشـرة) سـنة علـى أشـهر الروايـات، فيكـون المجمـوع (ألفـاً وأربعمائـة وثمانية وعشرين) عاماً.

وهنـاك روايـات أخـرى كثيـرة تـذكر أنَّـه لا يـزال حكـم الإمـام المهـدي مسـتمرّاً حتَّـى انقضـاء الخلـق، يعنـي يسـتمرّ حكـم العـدل لـيس بالضـرورة علـى يـد شـخص الإمـام المهـدي وإنَّمـا يسـتمرّ هـذا الحكـم الـذي يقوم على الحقّ فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً إلى قيام الساعة.

رجعة المعصومين عليهم السلام:

بعض علمائنا يقول بأنَّ هؤلاء الأحد عشر هم عبارة عن الأئمّة من أهل البيت، حيث عندنا روايات مؤكّدة تقول: إنَّهم عليهم السلام سيرجعون فأحد عشر إماماً إضافة إلى الإمام المنتظر أصبح المجموع (اثني عشر) إماماً.

عـن أبـي بصـير، قـال: قلـت للصـادق جعفـر بـن محمّـد عليهما السلام: يـا بـن رسـول الله إنّـي سـمعت مـن أبيـك عليه السلام أنَّـه قـال: «يكـون بعـد القـائم اثنـا عشـر مهـدياً»، فقـال: «إنَّمـا قـال: اثنـا عشـر مهـدياً، ولـم يقـل: إثنـا عشـر إمامـاً، ولكنَّهم قوم من شيعتنا يدعون الناس إلى موالاتنا ومعرفة حقّنا»[1].

(١) كمال الدين: ٣٥٨/ باب ٣٣/ ح ٥٦.

في حديث آخر عن أبي حمزة، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل أنَّه قال: «يا أبا حمزة إنَّ منّا بعد القائم أحد عشر مهدياً من ولد الحسين عليه السلام»[١].

في رواية أخرى عن جابر بن يزيد الجعفي، قال: سمعت أبا جعفر ــ يعني الإمام الباقر عليه السلام ــ يقول: «والله ليملكنَّ منّا أهل البيت رجل بعد موته ثلاثمائة سنة ويزداد تسعاً»، قلت: متى يكون ذلك؟ قال: «بعد القائم عليه السلام...»[٢].

في رواية أخرى عن جابر الجعفي، قال: قلت له: كم يقوم القائم عليه السلام في عالمه حتَّى يموت؟ قال: «تسع عشرة سنة من يوم قيامه إلى يوم موته»[٣]، هذه الرواية مُكرَّرة ومشهورة أنَّه يحكم (تسع عشرة) سنة ولكن بعد ذلك أحد عشر مهدياً، واحدٌ منهم يحكم (ثلاثمائة وتسع) سنوات.

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال لي: «يا أبا محمّد كأنّي أرى نزول القائم في مسجد السهلة بأهله وعياله»، قلت: يكون منزله جُعلت فداك؟ قال: «نعم، كان فيه منزل إدريس...».

قلت: جُعلت فداك، لا يزال القائم فيه أبداً؟ قال: «نعم».

قلت: فمن بعده؟

قال: «هكذا من بعده إلى انقضاء الخلق...»[٤]، وهذه الرواية مكرَّرة في مصادر الحديث.

---

(١) الغيبة للطوسي: ٤٧٨/ ح ٥٠٤.

(٢) الغيبة للطوسي: ٤٧٨/ ح ٥٠٥.

(٣) الغيبة للنعماني: ٣٥٤/ باب ٢٦/ ح ٣.

(٤) المزار لابن المشهدي: ١٣٥/ باب ٥/ ح ٧.

النجف والكوفة على عهد الإمام عليه السلام:

الإمام المنتظر عليه السلام كما مرَّ سابقاً[١] وهذا أحد عناصر الاشتراك بينه وبين الإمام الحسين عليه السلام يخرج من المدينة المنوَّرة ويكون إعلان الثورة من مكّة المكرَّمة ويأتي للعراق ويصل إلى النجف ومنها إلى الكوفة ومنها إلى السهلة.

فعن أبي بكر الحضرمي، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «كأنّي بالقائم عليه السلام على نجف الكوفة، قد سار إليها من مكّة في خمسة آلاف من الملائكة، جبرئيل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، والمؤمنون بين يديه، وهو يفرّق الجنود في البلاد»[٢].

رواية أخرى عن مفضَّل بن عمر، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ قائمنا إذا قام أشرقت الأرض بنور ربّها، واستغنى الناس، ويعمّر الرجل في ملكه حتَّى يولد له ألف ذكر لا يولد فيهم أنثى، ويبني في ظهر الكوفة مسجداً له ألف باب، وتتَّصل بيوت الكوفة بنهر كربلا وبالحيرة، حتَّى يخرج الرجل يوم الجمعة على بغلة سفواء يريد الجمعة فلا يدركها»[٣].

أوّل أمّة تلتحق بالإمام عليه السلام:

وأوّل أمّة تلتحق بالإمام المنتظر هم شيعة أهل البيت عليهم السلام، لتأكيد هذه الحقيقة، حقيقة أنَّ أصحاب الحركة الإصلاحية العالمية هم الشيعة وإمامهم، الإمام المنتظر عليه السلام.

---

(١) أنظر (ص ٥١٩) تحت عنوان: الاشتراك في الأهداف.

(٢) الإرشاد ٢: ٣٧٩ و٣٨٠.

(٣) الغيبة للطوسي: ٤٦٨/ ح ٤٨٤.

ولهـذا فـإنَّ أوّل أمّـة تلتحـق بـه هـم شـيعته، يـأتون قَزَعـاً كقَـزَع الخريـف أي سُحُباً كسُحب الخريـف قطعاً صغيرة ومسرعة وتحضر عنده في مكّة المكرَّمة[1].

يقـول إمامنـا الصـادق عليه السلام كمـا فـي الروايـة: «إنَّ قائمنـا إذا قـام مـدَّ الله لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم حتَّى لا يكون بينهم وبين القائم بريد يكلّمهم ويسمعون وينظرون إليه، وهو في مكانه»[2]، ولكنَّهم يشاهدونه وتنقطع الفواصل المكانية والزمانية بينهم وبين الإمام المنتظر عليه السلام.

الانتقام من الظالمين:

الروايات تذكر أنَّ أحد الأمور التي تتحقَّق بظهوره عليه السلام الانتقام من الظالمين ولكن ليس على أساس أنَّ هذا هو الهدف، بل هذا أحد ما يتحقَّق على يد هذه الحكومة الإصلاحية التي تنتقم من الظالمين وتثأر لدماء الأبرياء، لدماء الأنبياء، لدم الإمام الحسين عليه السلام، شعارهم: (يا لثارات الحسين)[3].

عن الإمام الصادق عليه السلام: «لمَّا كان من أمر الحسين بن علي ما كان، ضجَّت الملائكة إلى الله تعالى وقالت: يا ربّ يفعل هذا بالحسين

---

(١) راجع: الغيبة للنعماني: ٣٢٦ و٣٢٧/ باب ٢٠/ ح ٣.

(٢) الخرائج والجرائح ٢: ٨٤٠ و٨٤١/ باب ١٦/ ح ٥٨.

(٣) عن الإمام الرضا عليه السلام، قال: «... يا بن شبيب إن كنت باكياً لشيء فابك للحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام فإنَّه ذبح كما يذبح الكبش وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً ما لهم في الأرض شبيهون، ولقد بكت السماوات السبع والأرضون لقتله، ولقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف لنصره فلم يؤذن لهم فهم عند قبره شعث غبر إلى أن يقوم القائم عليه السلام فيكونون من أنصاره وشعارهم: يا لثارات الحسين عليه السلام...» عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٨/ ح ٥٨.

صفيّك وابن نبيّك؟!»، قال: «فأقام الله لهم ظلّ القائم عليه السلام وقال: بهذا أنتقم له من ظالميه»[١].

الله تبارك وتعالى خَلَق لهم مثلَ القائم وصوَّر لهم صورة القائم، وقال سوف أنتقم بهذا للحسين عليه السلام، ولهذا ورد في دعاء الندبة: «أيْنَ الطَّالِبُ بِدَم الْمَقْتُولِ بِكَرْبَلاءَ»[٢].

من عناصر الاشتراك بين الحسين والمهدي عليهما السلام هو منهج التغيير:

خطب إمامنا الحسين عليه السلام أصحاب الحُرّ حينما التقى به في الطريق إلى العراق قائلاً:

«أيّها الناس إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإنَّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطَّلوا الحدود، واستأثروا بالفيئ، وأحلّوا حرام الله وحرَّموا حلاله، وأنا أحقّ من غير...»[٣].

هل ستكون حركة الإمام المنتظر عليه السلام في المنهج والأسلوب والطريقة مشتركة مع منهج الإمام الحسين عليه السلام في حركته أم يقوم بمنهج آخر؟

ثورة تغييرية:

إنَّ نقطة التقاء مهمّة بين الثورتين إنَّها ثورة تغييرية يعني الإمام

(١) أمالي الطوسي: ٤١٨/ ح (٨٩/٩٤١).

(٢) المزار لابن المشهدي: ٥٧٩.

(٣) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٨٥ و٨٦.

الحسين عليه السلام قام بثورة تغييرية وأعلن عن ذلك في خطابه حين قال: «... إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً... فلم يغيّر عليه...»، ثمّ قال: «أنا أحقّ من غير...»، هذا نسمّيه: ثورة تغييرية، يعني أنّ الإمام الحسين عليه السلام يريد أن يغيّر الواقع الثقافي والسياسي والأخلاقي الموجود، وإمامنا المنتظر عليه السلام أيضاً يقوم بثورة تغييرية.

نوعان من الحركة التغييرية:

هناك نوعان من الحركات التغيرية على طول التاريخ:

النوع الأوّل: حركات تغييرية مسلَّحة.

النوع الثاني: حركات تغييرية سلميّة.

فلنوضّح هذا الموضوع بالمثال، مثلاً: حركة (هتلر) كانت حركة مسلَّحة يريد أن يسيطر على العالم أيضاً بعنوان الإصلاح _ ونحن هنا لا نتحدَّث عن الأهداف _ ولكن منهج الحركة النازية منهج حركة مسلَّحة، (كاسترو) و(جيفارا) حركتهما في كوبا كانت حركة مسلَّحة.

(ماوتسي تونغ) أيضاً قام بحركة تغييرية مسلَّحة.

بينما لا تستطيع أن تقول: إنّ (غاندي) قام بحركة تغييرية مسلَّحة، فلم يقم بحركة تغييرية مسلَّحة.

في ماضي التاريخ حركة المغول التاتار حينما زحفوا على العالم الإسلامي ودخلوا بغداد أيضاً هذه كانت حركة مسلَّحة بغضّ النظر عن أهدافها، هل هي حركة إصلاحية أو هي حركة استبدادية؟ كان هدفهم التغيير أو كان هدفهم التسلّط؟ ذاك بحث آخر.

منهج حركة الأنبياء عليهم السلام:

إذا لاحظنا حركات الأنبياء: إبراهيم، موسى، عيسى، نوح عليهم السلام ونبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله، لا نستطيع أن نقول: إنَّها كانت ثورات مسلَّحة، بل كانت ثورات تعتمد الإرادة الجماهيرية، ثورات وحركات إصلاحية نسمّيها: أيديولوجية تعتمد على تغيير أفكار الناس، ورؤى الناس وإرادات الناس، وتتمّ عملية التغيير ليس عن طريق انقلاب عسكري، ولا عبر زحف مسلَّح كما زحف المغول _ مثلاً _ على بغداد بهدف التسلّط لكن بصورة زحف مسلَّح، الأنبياء لم يقوموا بزحف مسلَّح، بل اعتديَ عليهم بزحف مسلَّح، هم قاموا بالدفاع، عيسى عليه السلام لم يقم بحركة مسلَّحة، موسى عليه السلام أيضاً ما قام بحركة مسلَّحة ضدّ فرعون، رسول الله صلى الله عليه وآله رغم أنَّه خاض حروباً كثيرة، بدر وأُحُد وحنين، وحوالي ثمانين غزوة لكن حركة رسول الله صلى الله عليه وآله ما كانت حركة مسلَّحة، لم تكن غزواً مسلَّحاً واكتساحاً عسكرياً وإنَّما كانت تغييراً جماهيرياً أيديولوجياً عقائدياً، ثمّ استخدام السلاح في المرحلة الثانية وهذه نقطة تحتاج إلى توضيح، ماذا نقصد بالحركة الجماهيرية؟ هل يعني أنَّها لا تستخدم السلاح أبداً؟

كما يقول الشاعر:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إيّاك إيّاك أن تبتلَّ بالماء

الجواب: المقصود أنَّه ليس العنصر الأوّل هو السلاح وإنَّما العنصر الأوّل هو الإرادة البشرية ثمّ يُستخدم السلاح كعنصر هامشي، القوّة، السيف، السلاح عنصر هامشي في مواجهة الأعداء في مواجهة الذين يقطعون الطريق على هداية الشعوب.

رسول الله صلى الله عليه وآله استخدم السلاح ولكن بعد أن بقي ثلاث عشرة

سنة في مكّة المكرَّمة يُعَّذَب أصحابهُ ويظُلمون وهم بدون سلاح، حتَّى جاء الوحي الإلهي يأمره بالهجرة، وهاجر أوّل مرَّة إلى الطائف وهاجر إلى المدينة المنوَّرة بعد ذلك، في المدينة المنوَّرة واجه هجوماً من قبل جيوش قريش وهنا صارت معركة بدر.

في معركة بدر كانت قريش بقيادة أبي سفيان قد جهَّزت جيوشاً للزحف على المدينة المنوَّرة، رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذٍ لا يملك سلاحاً، يومئذٍ المسلمون لم يكن عندهم سلاح حتَّى يقاتلوا، كانت عملية دفاعية، وإذا استُخدم السلاح فيما بَعد أيضاً فهو بهذا الاتّجاه، أي باتّجاه دفاعي.

ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وآله أوّل ما دخل المدينة المنوَّرة؟

كان في المدينة المنوَّرة اقتتال عشائري بين الأوس والخزرج أصلح بينهم، رسول الله صلى الله عليه وآله ثنيت له الوسادة وصار أمير القوم بدون قتال، يعني لا يوجد من يدَّعي في التاريخ على أنَّ النبيّ زحف إلى المدينة المنوَّرة زحفاً عسكرياً، وإنَّما بقى في مدخل المدينة المنوَّرة ينتظر علياً ثمّ دخل المدينة المنوَّرة، والناس مبتهجون فرحون بانتظار النبيّ صلى الله عليه وآله، ممَّا يعني أنَّها حركة شعبية، حركة جماهيرية واستخدام السلاح يأتي بالمرحلة الثانية، هذا معنى الحركة التغييرية السلميّة.

منهج حركة الحسين عليه السلام:

حركة الحسين عليه السلام أيضاً كانت هكذا حتَّى نصل بعد ذلك للمقارنة بين حركة الحسين وبين حركة الإمام المنتظر عليهما السلام.

حركة الحسين عليه السلام هل كانت مسلَّحة أم حركة جماهيرية أيديولوجية سلميّة؟

الآن قد تقولون: نحن نعرف أنَّه كان هناك قتل وقتال ودماء وهذه حركة مسلَّحة.

الجواب: ليست حركة الحسين عليه السلام حركة مسلَّحة، الإمام الحسين كانت حركته حركة تغييرية عقائدية واستخدام السلاح للدفاع عن نفسه وأهله ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام مهيّئاً للقتال، ولا قام بعملية غزو عسكري، بدليل ما يتَّفق عليه التاريخ كلّه أنَّ الإمام الحسين عليه السلام خرج من مكّة المكرَّمة بدون قوّات عسكرية وفي الطريق كان يلتقي بأعراب من هنا وهناك، وما ذكر التاريخ مرَّةً واحدةً أنَّ الحسين عليه السلام غزا مجموعة منهم، أو أنَّه كان يدعوهم عنوةً للالتحاق به، لقد التحق به جمع كثير طلباً للعافية والملك وليس على أساس القتال.

التاريخ يذكر أنَّ الإمام الحسين عليه السلام تلقّى رسائل من أهل الكوفة: «إنَّه ليس علينا إمام، فأقبل لعلَّ الله أن يجمعنا بك على الحقّ»[1]، أرسل الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل لكي يستخبر الحال فإن رآهم كما قالوا أخذ منهم البيعة، وكتب مسلم للحسين عليه السلام أنَّ الأمر كما جاءت به كتبهم، إذن هي ثورة جماهيرية

---

(١) روى أبو مخنف في (مقتل الحسين عليه السلام: ١٥ و١٦): (... فكتبوا إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن علي، من سليمان بن صرد، والمسيب بن نجمة، ورفاعة بن شداد، وحبيب بن مظاهر، وشيعة من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة، سلام عليك، فإنّا نحمد إليك الله الذي لا إله إلاَّ هو. أمَّا بعد فالحمد الله الذى قصم عدوّك الجبّار العنيد الذي انتزى على هذه الأمّة فابتزّها أمرها وغصبها فيئها وتأمَّر عليها بغير رضى منها، ثمّ قتل خيارها واستبقى شرارها وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعداً له كما بعدت ثمود إنَّه ليس علينا إمام، فأقبل لعلَّ الله أن يجمعنا بك على الحقّ، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا جماعة ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنَّك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك).

يعني مثل حركة النبيّ صلى الله عليه وآله عندما دخل المدينة، كان الناس مهيّئين لاستقبال النبيّ صلى الله عليه وآله، في الكوفة هكذا قالوا للحسين، حينما أرسل مسلم بن عقيل، بايعه ثمانية عشر ألف بلا أيّة عملية مسلَّحة، ثمّ كتب مسلم بن عقيل للإمام الحسين عليه السلام: «وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً»(١)، هذه الكوفة ممَّهدة لك، هذه حركة تغييرية جماهيرية أصلاً بلا حاجة إلى قتال مسلَّح.

ولهذا فالإمام الحسين عليه السلام حينما التقى بالحُرّ الرياحي وقطع عليه الطريق، قال له زهير: إنّي والله ما أراه يكون بعد هذا الذي ترون إلاَّ أشدّ ممَّا ترون، يا ابن رسول الله، إنَّ قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم، فلعمري ليأتينا بعدهم ما لا قبل لنا به، فقال الحسين عليه السلام: «ما كنت لأبدأهم بالقتال»(٢)، ثم خَطب أصحاب الحُرّ وصلّى بهم جماعة بهدف تغييرهم عقائدياً وجذرياً عسى أن يميلوا إلى الحقّ ولم ينفع ذلك إلى أن اصطفّ الصفّان في كربلاء، ووجد الحسين عليه السلام أن لا خيار أمامهُ إلاَّ أن يستبسل أو يستسلم للطاغية يزيد.

إذن حركة الحسين عليه السلام لم تكن حركة مسلَّحة وإنَّما اضطرَّ الحسين عليه السلام للقتال دفاعاً عن نفسه ودفاعاً عن عياله.

منهج حركة الإمام المهدي عليه السلام:

أمَّا إمامنا المنتظر عليه السلام فحركته وثورته العالمية كيف ستكون؟

هل هي على طريقة الزحف العالمي المسلَّح وخوض حرب عالمية يقودها الإمام ويفتح العراق، ويفتح الشام ويفتح فلسطين ويفتح

(١) كتب مسلم بن عقيل للحسين عليه السلام: (أمَّا بعد، فإنَّ الرائد لا يكذّب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً، فعجّل الإقبال حين يأتيك كتابي فإنَّ الناس كلّهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى، والسلام)، مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٥١.

(٢) الإرشاد ٢: ٨٤.

الروم ويفتح الصين، أم هي حركة جماهيرية وإنَّ استخدام السلاح هو الهامش وليس هو الأصل؟ هذه الحركة مثل حركة الأنبياء عليهم السلام هناك استخدام للسلاح لكن هو الهامش وليس هو الأصل.

الجواب: إنَّ حركة الإمام المنتظر هي حركة تغييرية جماهيرية ليست مسلَّحة، يعني العملية ليست عملية زحف مسلَّح كما قام (ماوتسي تونغ) من الجبال وزحف على الصين وشكَّل الجمهورية الشعبية الديمقراطية الاشتراكية الصينية، أو من قبيل الاتّحاد السوفيتي حينما قام (لينين) وبعده (ستالين) باستقطاع شعوب ودول من العالم وضمّها عنوةً إلى دولة كبرى اسمها: (الاتّحاد السوفيتي) عبر غزو مسلَّح وانقلابات عسكرية هنا وهناك، حركة الإمام المنتظر عليه السلام ليست كذلك، إنَّما هي حركة أيديولوجية تغييرية ثقافية، السلاح يستخدم فيها كآخر شيء.

هذا الأمر يحتاج إلى استدلال ووقوف لدراسة روايات لطيفة في هذا المجال.

لمحة عن حركة الإمام عليه السلام:

أنا أُلفت نظركم إلى مجموعة آفاق في هذا الشأن:

إمامنا المنتظر أوّل ظهوره في المدينة المنوَّرة ويومئذٍ يكون العراق والشام قد سقطا بيد قائد عسكري طاغ اسمهُ السفياني، هناك طاغية دكتاتور يكون قد سيطر على الشام والعراق فلمَّا تبلغه نهضة الإمام المنتظر في المدينة المنوَّرة يقوم السفياني بالزحف على المدينة المنوَّرة والإمام المنتظر فيها.

الإمام دوره هنا أن يغيّر موقع المعركة، ينتقل الإمام كما تقول الروايات من المدينة المنوَّرة ــ ربَّما لتكتيك عسكري أو لشيء آخر الله

العالم ــ إلى مكّة المكرَّمة وحينئذٍ تسقط المدينة المنوَّرة في يد السفياني وقوّاته العسكرية والإمام حينئذٍ موجود بمكّة المكرَّمة وهنا في مكّة يعلن عن ثورته العالمية، فأوّل من يبايعه جبرئيل بثلاثة آلاف من الملائكة ولا يزحف الإمام لتحرير المدينة المنوَّرة من يد السفياني إلاَّ بعد أن يستكمل عنده من أنصاره وشيعته عشرة آلاف يلتحقون به من هنا وهناك، حينئذٍ تبدأ عملية التحرير الكبرى لكنَّها أيضاً ليست عملية مسلَّحة، الروايات المؤكَّدة تقول: إنَّ السفياني يكون قد سيطر على المدينة المنوَّرة حينما يعرف أنَّ المهدي المنتظر خرج في مكّة المكرَّمة يقوم بزحفٍ كبير. زحف قوّات كبيرة من المدينة المنوَّرة إلى مكّة وفي الطريق يخسف الله تبارك وتعالى بهم الأرض جميعاً فلا ينجو منهم إلاَّ ثلاثة ــ أو واحد ــ يرجعون يخبرون بالحادثة التي حدثت وإنَّ الأرض قد ابتلعت كلّ هؤلاء، زلزال كبير يبتلع كلّ هذا الجيش الذي عدده ثلاثة آلاف، وهذه علامة من العلامات الخمس.

خمس علامات يصفها العلماء والمؤرّخون لظهور الإمام المهدي عليه السلام بأنَّها علامات حتمية، يعني هذه خمس علامات حتمية غير قابلة للشكّ وكثير من الروايات تذكر هذه العلامات الخمس.

الصيحة: نداء بالسماء يسمعه كلّ الخلق، صيحة واحدة وذلك إذا ظهر المهدي في مكّة المكرَّمة.

السفياني: ثمّ ظهور السفياني.

الخسف: والخسف به بين المدينة ومكّة.

اليماني: وظهور اليماني من اليمن، قائد اسمه اليماني من الموالين لحركة الإمام المنتظر عليه السلام.

النفس الزكية: ثمّ قتل النفس الزكية بين الركن والمقام.

فهذه خمس علامات نحن ذكرناها استعراضاً وسنعود إليها، ومحور حديثنا باتّجاه معرفة أنَّ حركة الإمام المنتظر هي حركة مسلَّحة أم حركة جماهيرية سلميّة؟ وبهذا الشرح قد بيَّنت لكم أنَّها حركة جماهيرية سلميّة وليست حركة مسلَّحة، ولهذا يخرج من المدينة فيذهب إلى مكّة ويواجه زحف السفياني.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال:

«خمس قبل قيام القائم: اليماني، والسفياني، والمنادي ينادي من السماء، وخسف بالبيداء، وقتل النفس الزكية»، روايات كثيرة في نفس هذا المعنى تتكرَّر.

قد تتساءلون: ما هي الصيحة؟ يعني النداء، هناك رواية تقول: إنَّ النداء بهذا الشكل:

عن محمّد بن علي الحلبي، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

«اختلاف بني العبّاس من المحتوم، والنداء من المحتوم، وخروج القائم من المحتوم».

قلت: وكيف النداء؟

قال: «ينادي منادي من السماء أوّل النهار: ألا إنَّ علياً وشيعته هم الفائزون».

قال: «وينادي منادٍ في آخر النهار: ألا إنَّ عثمان وشيعته هم الفائزون»[1].

---

(١) الكافي ٨: ٣١٠/ من علامات القائم عليه السلام/ ح ٤٨٤.

وفي رواية عن الباقر عليه السلام يقول:

«ويخرج المهدي منها ـ المدينة المنوَّرة ـ على سُنّة موسى خائفاً يترقَّب حتَّى يقدم مكّة وتقبل الجيش ـ يعني جيش السفياني ـ حتَّى إذا نزلوا البيداء ـ يعني بالعراء بين مكّة والمدينة مسافة حوالي (٤٦٠ كم) ـ وهو جيش الهملات ـ يعني الهلاك ـ خُسف بهم، فلا يفلت منهم إلاَّ المخبر ـ يذهب فيعطي خبر زلزال عظيم ـ فيقوم القائم بين الركن والمقام فيصلّي وينصرف معه وزيره، فيقول: يا أيّها الناس... ويجيء والله ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فيهم خمسون امرأة...».

خمسون امرأة يشاركنَّ في العملية التغييرية التي يقودها الإمام المنتظر في خلَّص أصحابه يعني (٣١٣) ليس كلّهم رجالاً، بل بينهم خمسون امرأة أيضاً وبعض الروايات تقول: (١٣) امرأة[١]، «يجتمعون بمكّة على غير ميعاد قَزَعاً كقَزَع الخريف يتبع بعضهم بعضاً...، ثمّ يخرج من مكّة هو ومن معه الثلاثمائة وبضعة عشر يبايعونه بين الركن والمقام، ومعه عهد نبيّ الله ورايته وسلاحه ووزيره معه، فينادي المنادي بمكّة باسمه وأمره من السماء حتَّى يسمعه أهل الأرض كلّهم...»[٢].

إذن الإمام حركته لحدّ الآن حركة تغيير سلميٍّ.

وبعد هذا يزحف إلى المدينة المنوَّرة لمواجهة السفياني وبعد تطهير المدينة ينسحب إلى العراق وتكون هناك معركة عظيمة بين جيش السفياني

---

(١) عن المفضَّل بن عمر، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «يكرُّ مع القائم عليه السلام ثلاث عشرة امرأة». قلت: وما يصنع بهنَّ؟ قال: يداوين الجرحى، ويقمن على المرضى، كما كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله» دلائل الإمامة: ٤٨٤/ ح (٨٤/٤٨٠).

(٢) أنظر: تفسير العياشي ١: ٦٤ و ٦٥؛ بحار الأنوار ٥٢: ٢٢٣/ ح ٨٧.

وجيش الحسني الذي يأتي من خراسان لنصرة الإمام المهدي عليه السلام ويهزم السفياني ويتحرَّر العراق كاملاً، وتتحرَّر الشام بيد الإمام المنتظر وتتحرَّر فلسطين أيضاً، والروايات تقول: تتحرَّر الروم وكذلك الصين(١)، وتبدأ حركة عظيمة عالمية للإمام عليه السلام يخضع فيها العالم كلّه لحكم الإسلام(٢).

وفي رواية: «إذا قام قائمنا أذهب الله عزّ وجلّ عن شيعتنا العاهة، وجعل قلوبهم كزبر الحديد، وجعل قوّة الرجل منهم قوّة أربعين رجلاً، ويكونون حكّام الأرض وسنامها»(٣)، يعني هم يقودون الحركة التغييرية.

وفي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «... فإذا وقع أمرنا وجاء مهدينا كان الرجل من شيعتنا أجرى من ليث وأمضى من سنان يطأ عدوّنا برجليه ويضربه بكفّيه وذلك عند نزول رحمة الله وفرجه على العباد»(٤).

التعايش السلمي:

الروايات تقول: إنَّ الإمام عليه السلام يقبل النصارى فيدخلون في إطار دولته

(١) روى أبو بصير، عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل أنَّه قال: «إذا قام القائم عليه السلام، سار إلى الكوفة، فهدم بها أربعة مساجد، فلم يبقَ مسجد على وجه الأرض له شُرُف إلاَّ هدمها، وجعلها جماء، ووسَّع الطريق الأعظم، وكسر كلّ جناح خارج في الطريق، وأبطل الكنف والمآزيب إلى الطرقات، ولا يترك بدعة إلاَّ أزالها، ولا سُنّة إلاَّ أقامها، ويفتح قسطنطينية والصين وجبال الديلم، فيمكث على ذلك سبع سنين مقدار كلّ سنة عشر سنين من سنيكم هذه، ثمّ يفعل الله ما يشاء...» الإرشاد ٢: ٣٨٥.

(٢) روى علي بن عقبة، عن أبيه، قال: «إذا قام القائم عليه السلام حكم بالعدل، وارتفع في أيّامه الجور، وأمنت به السبل، وأخرجت الأرض بركاتها، وردَّ كلّ حقّ إلى أهله، ولم يبقَ أهل دين حتَّى يظهروا الإسلام ويعترفوا بالإيمان...» الإرشاد ٢: ٣٨٤.

(٣) الخصال: ٥٤١/ ح ١٤.

(٤) بصائر الدرجات: ٤٤/ باب في أئمّة آل محمّد عليهم السلام حديثهم صعب مستصعب/ ح ١٧.

ويأخذ منهم الجزية، وهذا يعني أنَّه لا يوجد هناك إرهاب فكري إمَّا أن تدخل الإسلام أو تقتل، لا بل يمكنك أن تبقى في دولة الإمام المنتظر ومثل ما يعطي المسلمون الزكاة والخمس أنتم تعطون الجزية أيضاً.

إذن هناك تعايش اجتماعي وتبادل ثقافي كما نسمّيه في أيّامنا هذه.

الحركة الثقافية:

إنَّ حركة الإمام المنتظر عليه السلام حركة ثقافية في البداية، وحركة عقائدية أيضاً.

هناك رواية تقول:

«إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد، فجمع بها عقولهم وكملت به أحلامهم»[1]، هذا ماذا يعني في اصطلاحنا المعاصر؟

إنَّ الحركة حركة تغيير ثقافي وتغيير في قلوب هؤلاء الناس.

نحن الآن في العراق إذا أردنا أن نقيّم الموقف الحالي ونرسمه ونصوّره نجد أنَّه كأنَّ يداً مسحت على رؤوس العراقيين، وخاصّة الشيعة فوحَّدت صفوفهم لخوض العملية السياسية وهذا شيء عجيب، وغريب في الحقيقة، كأنَّ يداً مسحت على قلوب هؤلاء الناس فحسَّنت أخلاقهم ووحَّدت عقولهم بحيث أصبح الجميع ينادي بالانتخابات ويدعو لخوض العملية السياسية وانتصرنا هذا الانتصار العجيب.

ماذا تقول الروايات؟

عن أبان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «العلم سبعة وعشرون جزءاً فجميع ما جاءت به الرسل جزءان، فلم يعرف الناس غير الجزءين»، يعني كلّ هذا

(١) الكافي ١: ٢٥/ كتاب العقل والجهل/ ح ٢١.

التقدّم العلمي الموجود الآن في العالم وكذلك حركة الأنبياء وبشائرهم وكتبهم وشرائعهم، هي عبارة عن استخدام فصلين من سبع وعشرين فصلاً من العلوم، يعني هذا الكتاب العلمي مؤلَّف من سبع وعشرين فصلاً ولحدّ الآن قرأت البشرية الفصل الأوّل والثاني فقط، «فإذا قام القائم أخرج الخمسة والعشرين جزءاً فبثّها في الناس، وضمَّ إليها الجزءين، حتَّى يبثّها سبعة وعشرين جزءاً»[١].

فكم هو مقدار التطوّر العلمي والثقافي الذي سيكون يومئذٍ، العالم الآن منشغل بالتطوّر العلمي، ونحن الآن في بيوتنا نطَّلع على ما يجري في كلّ العالم، نشاهده عبر الشاشات وهذا من العجائب، إذن إلى أين سوف تصل البشرية في تطوّرها العلمي؟

حركة الإمام المنتظر إذن نستطيع أن نسمّيها: حركة تغييرية أيديولوجية ثقافية عقائدية.

مناقشة روايات السيف:

لكن قد تقول: إنَّ هناك عشرات النصوص تقول: إنَّ الإمام المنتظر يستخدم السيف ويُكثر القتل بالناس حتَّى يودُّون لو لم يكن قد خرج من كثرة ما يحدث من قتال[٢].

ونذكر بعض هذه الروايات ثمّ نقف لنفسّرها والتي تصوّر القضيّة مثل ما تصوّر لنا قضيّة (جنكيز خان) في معاركه، سيف وذبح وقتل حتَّى يودّ الناس أن لا يكون قد خرج لكثرة ما يقتل من الناس، مع أنَّ هذه الروايات نفسها تسمّي يوم ظهوره يوم الرحمة ونزول الرحمة من الله تعالى.

---

(١) الخرائج والجرائح ٢: ٨٤١/ باب ١٦/ ح ٥٩.

(٢) راجع: الغيبة للنعماني: ٢٣٦/ باب ١٣.

تقول الرواية عن أبي حمزة الثمالي، قال: سمعت أبا جعفر محمّد بن علي عليهما السلام يقول:

«لو قد خرج قائم آل محمّد صلى الله عليه وآله لنصره الله بالملائكة المسوّمين والمردِفين والمنزلين والكروبيين، يكون جبرائيل أمامه، وميكائيل عن يمينه، وإسرافيل عن يساره، والرعب يسير مسيرة شهر أمامهُ وخلفه وعن يمينه وعن شماله، والملائكة المقرَّبون حذاه، أوّل من يتبعه محمّد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام الثاني، ومعه سيفٌ مخترط» يعني سيف مشهور، والسيف رمز للسلاح، «يفتح الله له الروم والديلم والسند والهند وكابل شاه والخزر...»[1]، هذه كلّها تفتح لإمامنا المنتظر عليه السلام.

رواية أخرى تقول عن محمّد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول:

«لو يعلم الناس ما يصنع القائم إذا خرج لأحبَّ أكثرهم ألاَّ يَرَوه ممَّا يقتل من الناس...»[2].

رواية أخرى تقول عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال:

«... وما يستعجلون بخروج القائم؟ والله ما لباسه إلاَّ الغليظ، وما طعامه إلاَّ الشعير الجشب، وما هو إلاَّ السيف، والموت تحت ظلّ السيف»[3].

هذا كلّه تصوير عن معركة عظمى شبيهة بالحرب العالمية والغزو المسلَّح يقوم به الإمام المنتظر وهذه الروايات تعطي مثل هذه الدلائل.

---

(١) الغيبة للنعماني: ٢٣٩ و٢٤٠/ باب ١٣/ ح ٢٢.

(٢) الغيبة للنعماني: ٢٣٨/ باب ١٣/ ح ١٨.

(٣) الغيبة للنعماني: ٢٣٩/ باب ١٣/ ح ٢١.

ولكن من خلال التأمّل ومراجعة مجموع هذه الروايات سنكتشف شيئاً آخر.

نكتشف أنَّ حروب الإمام المنتظر هي حروب دفاعية في الحقيقة، والأداة التغييرية هي أداة فكرية ثقافية، لكن حينما يتعرَّض الإمام لهجوم من قبل السفياني، ولتمرّد داخلي، أو هجوم من قبل الأعداء خاصّة اليهود، حينئذٍ سيصل الإمام المنتظر عليه السلام إلى فلسطين ويلاحق اليهود حتَّى لا يبقى حجر إلاَّ وهو يقول: (يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله)[١].

إنَّ مجموعة مؤامرات تحاك ضدّ الإمام المنتظر، مجموعة انشقاقات داخلية ستكون أيّام الإمام المنتظر، ثمّ يقوم الإمام بتصفيتها ويلقى من الناس أذىً أشدّ ممَّا لقيه الرسول صلى الله عليه وآله.

عن الفضيل بن يسار، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ قائمنا إذا قام استقبل من جهل الناس أشدّ ممَّا استقبله رسول الله صلى الله عليه وآله من جهّال الجاهلية...»[٢].

رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن لديه أحد، وليس الغرض أن يخوض حرباً مسلَّحة، وعملية التغيير يجب أن تحدث فكرياً وأيديولوجياً.

يقول الإمام الباقر عليه السلام: «... كأنّي بقائم أهل بيتي قد أشرف على نجفكم هذا _ وأومأ بيده إلى ناحية الكوفة _، فإذا هو أشرف على نجفكم نشر راية رسول الله صلى الله عليه وآله، فإذا هو نشرها انحطَّت عليه ملائكة بدر...»[٣].

---

(١) صحيح البخاري ٣: ٢٣٢.
(٢) الغيبة للنعماني: ٣٠٧/ باب ١٧/ ح ١.
(٣) الغيبة للنعماني: ٣٢١/ باب ٢٠/ ح ٣.

قدَّمت لكم مجموعة شواهد في هذا المجال كنماذج للتدليل على أنَّ حركة الإمام المنتظر عليه السلام هي حركة تغييرية غير مسلَّحة بالأصل.

مع الدكتور أحمد أمين وابن خلدون:

أحمد أمين مؤرّخ مصري صاحب كتاب (فَجر الإسلام) و(ضُحى الإسلام) و(ظُهر الإسلام)، له كتاب اسمه: (المهدي والمهدوية)، يناقش فيه فكرة الإمام المنتظر ويستبعدها ويقدّم استدلالات لنفي هذه الفكرة الثابتة بالضرورة في الفكر الإسلامي السُنّي والشيعي.

مع أنَّ خمسين صحابياً روى هذه الرواية وخمسين تابعياً أيضاً، وصاحب كتاب كنز العمّال وحده قدَّم (٢٤٧) رواية في الإمام المهدي، وهؤلاء من علماء السُنّة المؤرّخين والمحدّثين، ومن الشيعة أكثر من ذلك.

لكن أحمد أمين يقدّم مناقشة نقدية للفكرة.

يقول: إنَّ نظرية الإمام المهدي اضطرَّ لها الشيعة نتيجة الهزيمة السياسية التي حلَّت بهم، إنَّ هذه الأمّة مهزومة فاضطرّوا أن يعلّلوا أنفسهم بالأماني وأنَّه عندنا قائد منتظر، وسيظهر وسيأخذ بثاراتنا، القضيّة قضيّة معالجة إحباطات نفسية في قلوب الناس.

في أيّام عبد الكريم قاسم أوّل رئيس جمهورية في العراق لمَّا قُتل نزلت شائعة تقول: إنَّ عبد الكريم قاسم صعد للقمر وسيظهر فيما بعد وينزل مرَّةً أخرى، الحقيقة أنَّها كانت هزيمة أرادوا أن يملأوا فيها الفراغ النفسي عندهم بمثل هذه الشائعة.

ثمّ يستشهد أيضاً بكلمات ابن خلدون(١)، حيث يقول الأخير:

أوّلاً: إنَّ الدولة لا تقوم إلاَّ على أساس عصبية لأنَّ كلّ دولة من الدول تحتاج إلى قائد متعصّب، ليس عصبياً باصطلاحنا اليوم يعني منفعل، وإنَّما المتعصّب بمعنى حازم وشديد وصاحب إصرار وعناد بالغ على أفكاره ونظريته، إنَّ أيّة دولة لا تقوم بدون عصبية.

ثانياً: ويرى ابن خلدون: إنَّ الدولة سوف لا يكون عمرها الطبيعي إلاَّ عمر ثلاثة أجيال تاريخياً، هكذا يقرأ الدولة أنَّ أقصى عمرها مائة وعشرين سنة، أيّة دولة من الدول أو حضارة من الحضارات تبدأ بمرحلة فتوّة ثمّ مرحلة ركود ثمّ مرحلة انهيار، مثل الولد يمرُّ بعملية نمو حتَّى يصل مثلاً إلى (٢٥) عاماً، ومن (٢٥) إلى (٤٥) عاماً ركود، ومن (٤٥) إلى ما بعدها مرحلة انهيار، يقول ابن خلدون: الدولة عمرها ثلاثة أجيال وكلّ جيل عمره (٤٠) سنة، فيكون المجموع (١٢٠) سنة.

الدولة بعد أن يصل عمرها إلى (١٢٠) سنة تموت، وهكذا أيُّ حضارة من الحضارات، وهكذا يقدّم ابن خلدون تحليلاً في هذا الشأن يستند في هذا التحليل إلى هذه النظرية أنَّ الدولة أوّل أمرها تقوم على أساس العصبية البدوية والجيل الأوّل جيل متعصّب وهو الذي يقوم

(١) ابن خلدون المؤرّخ المعروف والشهير في القرن الثامن له كتاب اسمه: (كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر)، وهو من الكتب التراثية الرائعة، عنده نظرية في علم الاجتماع، لكن مشكلته أنَّه يفرض هذه النظريات غير القطعيّة على الرؤى القرآنية والثابتة في النصوص القطعيّة، يحاول أن يفرضها فرضاً على النصوص بمعنى يمارس الاجتهاد في مقابل النصّ، وعلى أثره جاء أحمد أمين يكرّر نفس النتائج التي يصل إليها: إنَّ قضيّة الإمام المهدي هي ردّة فعل لهزيمة الشيعة.

بتأسيس الدولة، بعده يأتي جيل ثانٍ، جيل مرفَّه نسبياً لم يشترك في تأسيس الحكم وصعوبته وإنَّما جاء واستلم حكماً قائماً فكأنَّه عاش بين العصبية وبين الدلال والنعومة يحكم أربعين سنة، بعدها يأتي جيل جديد لم يشهد شيئاً من الشدّة والعصبية وإنَّما جيل ترف، هذا الجيل الأخير لا يوجد عنده نوع من العصبية، فتبدأ الدولة معه بالاضمحلال وتنتهي.

ويقدّم ابن خلدون هذا التحليل وفي ضوئه يستبعد إقامة دولة عالمية دائمة تملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

ثالثاً: يقول ابن خلدون: إنَّ أهل البيت عليهم السلام أناس عندهم عطف ورحمة والدولة لا تقوم عند أناس من هذا القبيل، بل لا بدَّ من عصبية وأهل البيت لا يوجد عندهم عصبية، إذن المهدي كيف يقوم بدولة ولا توجد عنده عصبية!؟

مناقشة ابن خلدون:

هذا التحليل في الحقيقة يمكن أن يناقشه أحد من زاوية اجتماعية وتاريخية ويمكن قبوله، ونحن الآن لسنا بصدد مناقشته في علم الاجتماع والتاريخ، لكن من زاوية أخرى أنَّنا في الفكر الإسلامي لا نسمح لأنفسنا فرض الاجتهاد والرأي التحليلي الخاصّ على النصّ الثابت إسلامياً.

ومن الممكن وجود آراء ونظريات ولكن إذا أصبح كلّ واحد يفرض نظريته على النصّ الإسلامي فلا يبقى من القرآن شيء.

مثلاً القرآن يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الأَلْبابِ﴾ (البقرة: ١٧٩)، لكن الولايات المتّحدة الأمريكية _ مثلاً _ ترفع شعار إلغاء قانون القصاص في العالم، فلا يوجد قصاص، حتَّى إذا كان ظالمٌ مثلَ صدام

يقتلُ آلاف الناس وهناك قبور جماعية، وإحراق قرى حتَّى أطفالها ونسائها، يقال: لا يجوز أن يُقتل هذا المجرم قصاصاً.

أنا لا أناقش ابن خلدون من ناحية اجتماعية، بل أناقشه من ناحية إسلاميّة، نحن إسلامياً نعتقد أنَّ ما يقوله القرآن لا يجوز أن يخضع إلى الرأي الشخصي حتَّى لو كان الشخص بروفسور بعلم الاجتماع والتاريخ، بل يجب أن يخضع رأيه للحكم القرآني.

ابن خلدون وغيره أصبح يفكّر بطريقة فرض الاجتهاد الشخصي على الثوابت الدينية، هو قد توصَّل إلى نظرية، وهي نظرية تقبل الصواب والخطأ، يمكن أن تكون صحيحة، ويمكن بعد مئة سنة تتغيَّر ويكتشفون شيئاً آخر ضدّ هذه النظرية، فكيف نرفض ما ثبت بالنصّ الصحيح استناداً إلى اجتهادية غير يقينية.

النصّ الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لن تنقضي الأيّام والليالي حتَّى يبعث الله رجلاً من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[1]، كيف تطرح هذه النصوص الثابتة لصالح نظرية اجتهادية؟ هذا غير مقبول، وهو ما نسمّيه: (اجتهاد في مقابل النصّ).

نحن نقول: هذا النصّ القرآني الذي يؤكّد قيام الدولة العالمية الصالحة هو نصٌّ مقدَّس، والروايات الثابتة تؤكّد أنَّ تلك الدولة تقدم على يد الإمام المهدي عليه السلام، هذه يجب أن نقبلها لأنَّها مستندة للوحي ومستندة إلى مصدر أعلم منّا وهو الله تبارك وتعالى ولا يمكن تجاوز هذه النصوص الثابتة بالضرورة في الفكر الإسلامي.

---

(١) الإرشاد ٢: ٣٤٠؛ الفصول المهمّة ٢: ١١٠٠.

مناقشة أحمد أمين:

أحمد أمين يقول: إنَّ فكرة الإمام المنتظر عبارة عن ردّة فعل لهزيمة الشيعة، وعلماؤنا يناقشون هذا الأمر في أكثر من مناقشة:

مثلاً الشهيد الصدر رحمه الله في كتابه (بحث حول المهدي) يناقش الفكرة مناقشة سريعة، والأستاذ السيّد عدنان البكّاء يناقشها مناقشة مفصّلة في كتاب (الإمام المنتظر)، والعلاّمة الشيخ محمّد أمين زين الدين يناقشها أيضاً مناقشة جيّدة في هذا الأمر.

وخلاصة المناقشة ببساطة ووضوح أنَّ هذه الروايات التي تتحدَّث عن الإمام المهدي وقيام الإمام المهدي ودولته هي ليست روايات من مصطنعات الشيعة، هذه الروايات يذكرها الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، بل هي ثابتة في تاريخ الأديان قبل الإسلام، يعني أنَّ هناك تباشير دينية سماوية بالقائم المهدي عليه السلام سواء أكان عيسى عليه السلام أم غيره، إذن فكرة المصلح العظيم الذي يخرج في آخر الزمان قد بشَّرت به هذه الأديان، وقد ظهرت هذه الفكرة أيضاً في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يكون هناك تكتّل مذهبي للشيعة أو هزيمة سياسية لهم، إذن هذا في الحقيقة مجرَّد فرض ومن الممكن للباحث أن يقدّم مجموعة فرضيات لكن المهمّ هو التأكّد من مدى علمية هذه الفرضيات.

نحن نقول: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله نبيّ يوحى إليه ويُمكن لشخص آخر مثل (ميشيل عفلق) أن يقول: هذا الرجل ليس بنبيّ، وهو وضع القرآن من عنده لا نبوّة ولا وحي، هذه فرضية لكن لا يجوز فرضها بدون دليل على الواقع، فإذا أصبحت الحقائق العلمية تُفرض عليها الفرضيات إذن لا يبقى شيء من الحقائق العلمية ثابتاً، الفرضيات ما لم تتمتَّع بحجّة علمية وبدليل وبإثباتات علمية فإنَّه لا قيمة لها.

البخاري لم ينقل روايات المهدي عليه السلام:

يستند ابن خلدون وأحمد أمين كذلك في تشكيكهم بقضيّة الإمام المهدي عليه السلام إلى شبهة أخرى وهي أنَّه لماذا لم يذكر البخاري في صحيحه روايات الإمام المهدي؟

البخاري هو أحد المحدّثين الكبار عنده كتاب اسمه: (صحيح البخاري) هذا المؤلّف وهو إمام من أئمّة السُنّة لم يذكر أخبار الإمام المهدي عليه السلام ولكن ذكرتها كتبهم الأخرى، عشرات الصحاح ذكرتها لكن البخاري لم يذكرها، يقولون: لماذا لم يذكرها البخاري؟ إذن هذه الروايات قابلة للمناقشة.

والحال أنَّك إذا جئت للبخاري تجد أنَّ هذا الرجل بالأصل له موقف من قضيّة أهل البيت عليهم السلام، مثال ذلك أنَّ البخاري عاش في زمن الإمام الجواد عليه السلام يعني أدرك امتدادات الإمام الصادق الذي يقول عنه الحسن الوَشّاء: (أدركت في هذا المسجد تسعمائة شيخ كلٌّ يقول: حدَّثني جعفر بن محمّد)(١)، ونقل عنه الرواة ما سارت به الركبان وذاع صيته في البلدان، مع ذلك ورغم أنَّ البخاري كان معاصراً لنهايات حركة الإمام الصادق في الكوفة، ولكنَّه لا يروي عنه ولا رواية واحدة، هذا تعصّب واضح في الحقيقة، فهل يمكن اعتبار ذلك شاهداً على أن لا وجود للإمام الصادق عليه السلام؟

عشرات الصحاح للأئمّة المؤرّخين والمحدّثين من أهل السُنّة تروي روايات النبيّ والصحابة في قضيّة الإمام المهدي عليه السلام فإذا لم

---

(١) رجال النجاشي: ٤٠/ الرقم ٨٠.

ينقلها البخاري يجب أن تسجَّل عليه علامة استفهام، أمَّا الاحتجاج بهذا الكتاب ولماذا لم يذكر هذه الروايات ثمّ استنتاج أنَّ هذه الروايات ليست صحيحة فإنَّ مثل هذا الاحتجاج ليس علمياً.

العنصر المشترك الثالث: العامل الغيبي والبشري:

حديثنا عن عنصر اشتراك آخر في المنهج أيضاً بين حركة المهدي عليه السلام وحركة الحسين عليه السلام.

عنصر الاشتراك هذا يتحدَّث عن دور العامل الغيبي في الحركتين ودور العامل البشري.

حضور الناس، واستعداد الناس، وإمكانات الناس وقوّات الناس هذا نسمّيه العامل البشري.

أمَّا العامل الغيبي فهو يعني اليد الإلهية، الإعجاز، الملائكة، النصر الإلهي الغيبي.

أين دور العامل البشري وموقعه؟ وأين دور العامل الغيبي وموقعه في حركة الحسين عليه السلام وفي حركة الإمام المنتظر عليه السلام؟

وبعبارة أخرى: إنَّ حركة الإمام المهدي عليه السلام ونجاحها وانتصارها العالمي حيث يملأ الأرض قسطاً وعدلاً تعتمد بالأصل على العنصر البشري.

وهذا الموضوع في غاية الأهمّية وسوف تنحلُّ به مجموعة عُقد ومجموعة شبهات وإشكالات.

البعض يسجّل أسئلة على سبيل الإشكال أنَّه إذا كان الإمام المهدي عليه السلام ينتصر بالملائكة، ينتصر بقوّة الغيب إذاً لماذا لا يخرج الآن وتنتهي القضيّة؟ إذن ما هي فلسفة التأخير؟ بل ما هي فلسفة الغيبة؟

كيف تصوّرون الإمام المهدي عليه السلام غاب خوفاً من القتل ثمّ تقولون: ينتصر بالملائكة وينتصر باليد الإلهية؟ فلماذا لم تنصره من اليوم الأوّل؟

هذه مجموعة إثارات وشبهات.

أصلاً لماذا غاب ثمّ لماذا لا يظهر الآن، هل هذا من اللطف الإلهي؟

أنتم شيعةُ أهل البيت عليهم السلام تقولون: إنَّ الإمام المهدي عليه السلام لطف من الله، وغيبته لطف من الله، وظهوره يوم يظهر لطف من الله، إذا كان هذا اللطف الإلهي كذلك فلماذا لا يعجّله الله تعالى؟

نحن اليوم نريد أن نحلّ عقدة فكرية هي سبب هذه الإشكالات.

دور العامل البشري في عملية التغيير، ودور العامل الغيبي في عملية التغيير.

نحن المسلمون نعتقد أنَّ حركة الأنبياء وحركة التغيير على الأرض تعتمد بالدرجة الأولى على العنصر البشري، ودور العنصر الغيبي هو دور الإسناد ودور الأدوات الاحتياطية، إذا عجز العنصر البشري يأتي دور العنصر الغيبي ويأتي دور الملائكة، ويأتي دور المعجزة كأدوات احتياط وكدور ثانٍ والدور الأوّل هو العامل البشري.

الأديان في مجال التشريع:

ماذا نعتقد في الأديان في مجال التشريع؟

الجواب:

الغيب هو الأصل، يعني أنَّ النبيّ يتلقّى الوحي، وليس هو الذي يشرّع الصوم والصلاة وما شاكل ذلك في مجال التشريع، ودور الإنسان

حينما يدخل في مجلس تشريعي إسلامي أن يملأ نقاط الفراغ كما كان هو دور النبيّ صلى الله عليه وآله، أمَّا أصل التشريع فهو من الله تعالى.

يوجد لدينا برلمانات في العالم الإسلامي هؤلاء لا يشرّعون في مقابل الله تعالى، ولا يشرّعون في مقابل القرآن، هؤلاء هم مجلس تشريعي يتحرَّك في منطقة الفراغ، ميزانية الدولة، الخطّة الخمسيّة، العلاقة بين الوزارات، كيف تكون؟ استجواب الوزير كيف يكون؟ تقديم لوائح قانونية هذا كلّه وأمثاله لملء مناطق الفراغ.

أمَّا أصل التشريع فمن الله تبارك تعالى، هذا في مجال التشريع.

الأديان في مجال التغيير:

لكن في مجال التغيير على الأرض فإنَّ الله تعالى يقول: أيّها الإنسان الدور الآن دورك، أيّها الإنسان اعمل أنت ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾، حينئذٍ يأتي دور الإسناد، ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ (محمّد: ٧)، اعملوا أنتم أوّلاً بعد ذلك يأتي دور الله تبارك وتعالى، يعني في مجال التغيير على الأرض يأتي أوّلاً دور العنصر البشري ويأتي ثانياً دور العنصر الغيبي والإلهي.

هذه نظرية في الحقيقة جارية على كلّ الأديان وليس نبيّنا صلى الله عليه وآله فقط أو حركة إمامنا الحسين عليه السلام خاصّة، لأنَّ كلّ الأديان هكذا كانت، يعني نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فبمقدار ما يتقدَّم العنصر البشري يتقدَّم الدور الإلهي، يعني موسى عليه السلام دخل في مواجهة مع فرعون ولمَّا عجز العنصر البشري تقدَّم الدور الإلهي ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ (الأعراف: ١١٧)، و﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ (الشعراء: ٦٣)، هذا إسناد إلهي لكن أصل التحرّك كان من موسى وجماعته ولو لم يتحرَّكوا وجلسوا في البيت لم ينزل عليهم النصر الإلهي.

رواية في بني إسرائيل:

تقـول الروايـة عـن الإمـام البـاقر عليه السلام : «... فإنَّمـا مثلنـا ومـثلكم مثـل نبـيّ كـان فـي بنـي إسـرائيل فـأوحى الله عزَّ وجلَّ إليـه أن ادع قومـك للقتـال فـإنّي سأنصـرك، فجمعهـم مـن رؤوس الجبـال ومـن غيـر ذلـك ثـمّ توجَّـه بهـم فمـا ضـربوا بسـيف ولا طعنـوا بـرمح حتَّـى انهزمـوا، ثـمّ أوحـى الله تعـالى إليـه أن ادع قومـك إلـى القتـال فـإنّي سأنصـرك، فجمعهـم ثـمّ توجَّـه بهـم فمـا ضـربوا بسـيف ولا طعنـوا بـرمح حتَّـى انهزمـوا، ثـمّ أوحـى الله إليـه أن ادع قومـك إلـى القتـال فـإنّي سأنصـرك فـدعاهم فقـالوا: وعـدتنا النصـر فمـا نصـرنا، فـأوحى الله تعـالى إليـه: إمَّـا أن يختـاروا القتـال أو النـار، فقـال: يـا ربّ القتـال أحـبُّ إلـيَّ مـن النـار، فـدعاهم فأجابـه مـنهم ثلاثمائـة وثلاثـة عشـر عـدّة أهـل بـدر فتوجَّـه بهم فما ضربوا بسيف ولا طعنوا برمح حتَّى فتح الله عزَّ وجلَّ لهم»[1].

هنا عندما استعدّوا لتحمّل المسؤولية جاء العامل الغيبي.

ولهذا يقال فيما هو المأثور: (يا عبدي منك الحركة ومنّي البركة).

هذه هي نظرية تقدّم العامل البشري على العامل الغيبي.

وهـذا نجـده فـي حركـة الأنبيـاء رغـم أنَّهـم محـاطون بالغيـب والملائكـة، فموسـى عليه السلام كـان محاطـاً منـذ طفولتـه بالرعايـة الإلهيـة وكـذلك عيسـى عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن هذا كلّه يتقدَّمه العنصر البشري.

استثناء داود وسليمان عليهما السلام:

لكن هذا القانون تخلَّف بحكمة إلهية بشكل واضح في اثنين من الأنبياء وهمـا: سـليمان وداود عليهما السلام، فإنَّ الله تبارك وتعـالى أراد أن يـري البشـر أنَّـه قـادر

(١) الكافي ٨: ٣٨١ و٣٨٢/ ح ٥٧٦.

على إعطاء حكومة عالمية لبعض أنبيائه كداود وسليمان عليهما السلام حينما سأله سليمان عليه السلام، وقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ (ص: ٣٥)، فملك سليمان عليه السلام غير حاصل لأحد من البشر، الله تعالى يقول: أنا قادر على كلّ شيء، لكن أريد منكم أن تعملوا، وأنا قادر على نصرة الأنبياء لكن أريد منكم أن تبذلوا الجهد أوّلاً.

الله قادر على تسخير الموجودات الأخرى لنصرة أنبيائه من الرياح والطير والجبال ﴿وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٩)، فالرياح تجري بأمره ﴿غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ (سبأ: ١٢)، فيأمر الرياح أن تعصف بالمدينة فتعصف بها.

وهذا لا يتكرَّر لِمَلِكٍ إلى آخر الدنيا كما قال سليمان عليه السلام: ﴿لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ (ص: ٣٥).

هنا القاعدة تخلَّفت لحكمة إلهية، حيث اعتمد ملك داود وسليمان على العامل الغيبي قبل العامل البشري لكن القاعدة العريضة هي أنَّ العامل البشري هو الذي يتقدَّم على العامل الغيبي.

دعاء الرسول صلى الله عليه وآله في يوم الخندق:

عندما تذهبون إلى المدينة المنوَّرة يوجد مكان يدعى بالمساجد السبعة وهي مساجد متواضعة مهملة من حيث العمران، هذه المساجد كانت على الخندق في معركة الأحزاب عندما جمعت قريش حلفاءها من الأعراب، تقول الرواية: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله صعد على مكان مرتفع فصلّى ركعتين ثمّ قال: «اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة لم تعبد بعدها في الأرض»، تقول الرواية: فبعث الله ريحاً قلعت خيم المشركين، وبدَّدت

رواحلهم، وأجهدتهم بالبرد، وسفت الرمال والتراب عليهم[١]، وبُني في هذا المكان مسجد اسمه: (مسجد الفتح) لأنَّ الله تعالى كتب لنبيّه الفتح بعد الدعاء، والجماعة بنوا بجانبه مساجد أخرى باسم: مسجد عمر وأبي بكر إلى جانب ذلك يوجد مسجد علي ابن أبي طالب عليه السلام، ومسجد الزهراء عليها السلام، ومسجد سلمان رضي الله عنه.

العامل الغيبي يأتي بعد العامل البشري فحينما حضر الإمام علي عليه السلام في معركة الأحزاب وقتل عمرو بن عبد ود العامري حينئذٍ جاء دور العامل الغيبي فالرسول دعا بالنصر واستجاب الله دعاءه لكن ذلك إنَّما كان بعد أن ثبت النبيّ والمسلمون معه وبذلوا كلّ جهدهم وحينئذٍ جاء دور النصر الإلهي.

ذكرنا القانون الذي تخلَّف في اثنين من الأنبياء وهم داود وسليمان عليهما السلام وفي نبيّنا كان هذا القانون هو الحاكم فعملية التغيير التي قادها رسول الله صلى الله عليه وآله كانت بحضور العنصر البشري ففي مكّة ثلاث عشرة سنة وفي المدينة عشر سنوات من العمل والجهاد وبعد ذلك جاء دور العامل الغيبي، فمثلاً في معركة بدر كان المسلمون لا يملكون إلاَّ أربعة أسياف وكان البقية يقاتلون بجريد النخل، حينئذٍ جاء دور العامل الغيبي ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٥).

هذا الأمر نريد أن نناقشه مع قضيّة الحسين عليه السلام ومع حركة الإمام المنتظر عليه السلام الذي نحن بانتظاره، فعندما يخرج الإمام كيف يكون الانتصار بالبشر أم بالملائكة والرياح والمعاجز الإلهية؟

---

(١) أنظر نصّ الرواية في: الخرائج والجرائح ١: ١٥٦/ ح ٢٤٥.

العنصر البشري في حركة الحسين عليه السلام:

لقد كان واضحاً جدّاً اعتماد الحسين عليه السلام على القانون العامّ في التغيير، ودور العنصر البشري، ولهذا فإنَّ الحسين عليه السلام خطب في المدينة المنوَّرة حتَّى يعبّئ الناس ثمّ أتى إلى مكّة المكرَّمة وخطب خطبة جهادية قائلاً: «خُطَّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة»، خطاب سياسي وجهادي توعوي.

لماذا لم يبشّرهم بالانتصار ولم يحدّثهم عن نزول الملائكة وإنَّما بدأ باتّجاه الثورة؟

وهكذا تتواصل حركة الحسين عليه السلام فنجد أنَّها كانت تعتمد العنصر البشري.

مثلاً كيف كان القتال في كربلاء؟ الحسين عليه السلام صفَّ أصحابه زهير على الميمنة وحبيب بن مظاهر على الميسرة والحسين عليه السلام بالقلب وأعطى رايته لقمر بني هاشم، هذه عملية عسكرية يخوضها، يعني قلب وجناحين يمين وشمال تماماً كما هو تخطيط عسكري يقوم به الحسين عليه السلام.

والإمام الحسين عليه السلام قبل أن يخرج من مكّة المكرَّمة بعث كتاباً للتعبئة الجماهيرية، بعث برسائل إلى رؤساء الأخماس _ قادة الألوية _ في البصرة، يطلب منهم النصرة فأجابه بعضهم وأدركه في مكّة المكرَّمة، وبعضهم أدركه في كربلاء بعد مقتله، يعني لم يدرك الحسين عليه السلام في الحقيقة وإن كان أدرك الثواب، مثل سعيد وهو أحد رؤساء الأخماس وقادة الألوية في البصرة الذي وصل إلى كربلاء وكان الحسين عليه السلام قد قتل.

نحن نلاحظ أنَّ هاهنا تخطيطاً عسكرياً يخوضه الإمام الحسين عليه السلام.

مثلاً حينما حاصروا المشرعة تراجع الإمام الحسين عليه السلام وراء الخيام عدّة خطوات ثمّ حفر بئراً فنبعت عين ماء فشرب منها[1]، كان هذا في السابع من محرَّم الحرام، الحسين عليه السلام وراء الخيام حفر خندقاً ملأه بالحطب وأحرقه، هذه خطّة عسكرية حتَّى لا يحدث على الخيام هجوم من الخلف وبهذا قال الأعداء: (يا حسين أتعجَّلت النار قبل يوم القيامة)[2]! إذن هذه خطّة عسكرية يخوضها الإمام الحسين عليه السلام، مع هذا التقدّم في العنصر البشري والعنصر الغيبي موجود أيضاً، كما في نزول الملائكة لنصرة الحسين عليه السلام، كما مرَّ ذكره سابقاً[3].

فحركة الإمام الحسين عليه السلام تعتمد على التعبئة البشرية إضافةً إلى العامل الغيبي الذي يحيط بكلّ القضيّة لكن عمق

(١) قال محمّد بن أبي طالب: (ورجعت خيل ابن سعد حتَّى نزلوا على شاطئ الفرات، فحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء، وأضرَّ العطش بالحسين وأصحابه، فأخذ الحسين عليه السلام فأساً وجاء إلى وراء خيمة النساء فخطا في الأرض تسع عشر خطوة نحو القبلة ثمّ حفر هناك، فنبعت له عين من الماء العذب، فشرب الحسين عليه السلام وشرب الناس بأجمعهم، وملأوا أستقيتهم، ثمّ غارت العين، فلم يرَ لها أثر...) بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٧.

(٢) قال المفيد رحمه الله: (وأصبح الحسين بن علي عليهما السلام فعبَّأ أصحابه بعد صلاة الغداة، وكان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً، فجعل زهير بن القين في ميمنة أصحابه، وحبيب بن مظاهر في ميسرة أصحابه، وأعطى رايته العبّاس أخاه، وجعلوا البيوت في ظهورهم، وأمر بحطب وقصب كان من وراء البيوت أن يترك في خندق كان قد حفر هناك وأن يحرق بالنار، مخافة أن يأتوهم من ورائهم...) إلى أن قال: (وأقبل القوم يجولون حول بيوت الحسين عليه السلام فيرون الخندق في ظهورهم والنار تضطرم في الحطب والقصب الذي كان ألقي فيه، فنادى شمر بن ذي الجوشن عليه اللعنة بأعلى صوته: يا حسين أتعجَّلت النار قبل يوم القيامة...) أنظر: الإرشاد ٢: ٩٥ و٩٦.

(٣) أنظر (ص ١٣٤ و٢١٦).

القضيّة هو أن يحمل الإنسان اللواء. ولهذا فالحسين عليه السلام لم يطلب نصرة هؤلاء الملائكة، ولا أُذن لهم بالنزول إلى كربلاء إلاَّ بعد مقتل الحسين عليه السلام.

الفكرة التي أردنا أن نصل إليها هي أنَّ الإمام الحسين عليه السلام لم يعتمد على الملائكة ولكن كان يعتمد على العنصر البشري ولو اعتمد على هؤلاء الملائكة لما قُتل، إنَّما قُتل الإمام لأنَّه كان يعتمد على العنصر البشري، وهكذا الأنبياء أحياناً يخسرون المعركة باعتبار أنَّ العنصر البشري لم يكن يستحقّ نزول النصر من الله تبارك وتعالى.

الحقيقة أنَّ الموازنة واضحة عند الأئمّة الأطهار والأنبياء عليهم السلام بين العنصر البشري والغيبي على أنَّهم في جانب العنصر البشري يُعدَّون في قِمَم البطولة فكيف إذا صارت اليد الإلهية تمتدُّ إليهم.

هذه رؤية عن حركة الإمام الحسين عليه السلام واعتماده على العنصر البشري ثمّ العنصر الغيبي.

حركة الإمام المنتظر عليه السلام:

ثمّ نصل إلى حركة الإمام المنتظر عليه السلام ونرى أين موقع العنصر البشري والغيبي في حركته؟ نلاحظ أنَّها تسير وفق القانون الإلهي لعملية التغيير فالتعبئة البشرية ثمّ التخطيط والتجحفل والكرّ والفرّ ثمّ بعد ذلك يأتي دور النصر الإلهي والعنصر الغيبي الذي كان مع كلّ الأنبياء ومع الإمام في مواقع عديدة، فهو عليه السلام الآن غائب بقوّة العنصر الغيبي، وامتداد عمره أيضاً بقدرة الغيب.

مشكلة طول العمر:

لا توجد لدينا مشكلة عندما نُسئل عن عمره الطويل.

نحن أناس نؤمن بقدرة الله تعالى وبالغيب ولا نحتاج أن نقف طويلاً عند هذا السؤال: إنَّ الإمام كيف يصبح عمره (١٢٠٠) سنة؟ ممكن أن يمتدّ إلى (٢٠٠٠) سنة، وهذه القضيّة لا توجد فيها مشكلة علمية.

المسألة من الناحية العلمية هي مسألة المحافظة على الأنسجة والخلايا وما شاكل ذلك.

العنصر الغيبي موجود في غيبة الإمام المنتظر عليه السلام مع أنَّه يمارس دوره وحضوره بين الناس كما تقول الرواية: عن عبيد بن زرارة، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «يفقد الناس إمامهم، يشهد الموسم فيراهم ولا يرونه».

ولهذا نقرأ في دعاء الندبة: «بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ مُغَيَّبٍ لَمْ يَخْلُ مِنَّا»[١]، يعني هو غائب وهو حاضر.

ويستمرّ العنصر الغيبي حتَّى نصل إلى ساعة ظهوره وبيعة جبرائيل مع أربعة آلاف من الملائكة وهذا عنصر غيبي أيضاً.

خروج الدابة:

من جملة العناصر الغيبية التي سوف تظهر مع ظهور الإمام المنتظر عليه السلام هو خروج الدابة.

حيث نقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ﴾ (النمل: ٨٢).

---

(١) المزار لابن المشهدي: ٥٨١.

لنبقى أوّلاً مع الإطار العامّ للآية، الإطار العامّ بشكل صريح يقول: ستخرج دابة من الأرض تكلم الناس، وهذا المقطع وحده يكفي في الدلالة على وجود عنصر غيبي.

متى يكون ذلك؟

﴿إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني إذا صارت إرادةُ الله واقتضت أن يُطاحَ بالشرك بشكل كامل حينئذٍ أخرج لهم دابة من الأرض وليس من السماء.

كيف يمكن لدابة أن تتكلَّم؟

على كلّ حال اتَّفق العلماء من الفريقين شيعة وسُنّة على أنَّ هذه الآية واضحة الدلالة مؤيّدة بروايات تؤكّد الفكرة أنَّه في آخر الزمان ستظهر دابة تكلّم الناس.

وهناك تفاصيل في الأحاديث عمَّا تقوله هذه الدابة.

تقول: هذا مؤمن وهذا كافر.

ترسم على هذا خطّاً أنَّه مؤمن وترسم على هذا خطّاً أنَّه كافر(١).

هذه تفاصيل حتَّى الشيخ متولّي الشعراوي وهو أحد أئمّة الأزهر في القاهرة في كتابه (علامات القيامة الكبرى) يذكر هذه الآية وأنَّ أحد (علامات القيامة الكبرى) خروج الدابة ثمّ يذكر خمس روايات عن رسول الله بأسانيدهم أسانيد السُنّة وليس الشيعة ثمّ يذكر خمس تفاسير أيضاً لها.

---

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل له قال: «... خروج دابة من الأرض من عند الصفا، معها خاتم سليمان بن داود، وعصا موسى عليهما السلام، يضع الخاتم على وجه كلّ مؤمن فينطبع فيه: هذا مؤمن حقّاً، ويضعه على وجه كلّ كافر فينكتب: هذا كافر حقّاً...» كمال الدين: ٥٢٧/ باب ٤٧/ ح ١.

وفي كتبنا كذلك تراجعون تفسير العلاّمة الطباطبائي وتفسير البرهان هذه الآية من المتَّفق عليه دون شكّ أنَّها من إحدى الآيات الصريحة التي لا تقبل الشكّ.

جاءت تفاسير عديدة:

واحدة من التفاسير التي يذكرها الشعراوي وكتب أخرى تذكر ذلك أنَّ هذه الدابة هي الفرس أو الجمل أو الأسد، القرآن يقول: دابة، يعني كلّ ما يمشي على الأرض وكلّ ما يدبُّ عليها.

ذكروا مجموعة تفاسير من جملتها أنَّ هذه الدابة هي فصيل ناقة صالح.

من جملة هذه التفاسير أنَّ هذه الدابة عبارة عن جراثيم ميكروبية تظهر في آخر الزمان تصيب الكافرين وتطيح بهم، نحن غير قادرين على قبول هذا التفسير، ولا يحقُّ لنا أن نفسّر القرآن بالرأي، لكن كتصورات وكخيال يمكن أن يمتدّ بالبعض ويقول: ربَّما تكون الدابة إشارة إلى أجهزة معرفة الكذب في العصر الحديث.

على كلّ حال هذا خيال الإنسان، الإنسان يضرب بخياله لفهم ما يشير إليه القرآن.

وهناك قراءة ثانية للآية، تقول: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تَكْلِمُهُمْ﴾ وليس ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ بمعنى تتكلَّم معهم، بل بمعنى تجرحهم من الكلِم وهو الجرح، تضع خطّاً وجرحاً على جبين الكافر المشرك أنَّ هذا إنسان منحرفٌ يستحقّ القتل أو ما شاكل ذلك.

كثير من روايات أهل البيت عليهم السلام نحن نذكرها دون أن نؤكّد

عليها لأنَّه غير ثابت عندنا مدى صحَّة هذه الرواية أنَّ الدابة التي تخرج من الأرض هو علي عليه السلام وسيخرج آخر الزمان(١).

هذا التفسير يقترب منه بعض أبناء العامّة، ويقولون المقصود بـ ﴿دَآبَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ هو بشر عنده قدرة على أن يعرف المنافق من المؤمن، هذا موجود في روايات وتفاسير أبناء العامّة وفي تفسيرنا عدّة روايات تقول: إنَّ ﴿دَآبَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ ذلك هو علي عليه السلام، يعني يشرح للناس من هو على الحقّ ومن هو على الباطل.

الشاهد في الأمر أنَّ هذا غيب في أن تخرج دابة توضّح أين الحقّ وأين الباطل، هذا الغيب نحن نعتقد به لكن مع كلّ هذا تبقى قضيّة الإمام المنتظر عليه السلام معتمدةً على العنصر البشري قبل اعتمادها على العامل الغيبي.

الإمام المهدي عليه السلام يقوم معتمداً على العنصر البشري أوّلاً، ودعوة الناس للالتحاق به ودور العنصر الغيبي هو دور الإسناد.

---

(١) تفسير القمي: ج ٢/ ص ١٣٠:

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو نائم في المسجد قد جمع رملاً ووضع رأسه عليه فحرّكه برجله ثمّ قال له: قم يا دابة الله، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله أيسمّي بعضنا بعضاً بهذا الاسم؟ فقال: لا والله ما هو إلاّ له خاصّة وهو الدابة التي ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، ثمّ قال: يا علي إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة ومعك ميسم تسمُّ به أعداءك»، فقال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: إنَّ الناس يقولون: هذه الدابة إنَّما تكلِمهم؟ فقال: أبو عبد الله عليه السلام: «كلمهم الله في نار جهنَّم إنَّما هو يكلّمهم من الكلام» تفسير القمي ٢: ١٣٠.

قصَّة الجزيرة الخضراء:

قصَّة الجزيرة الخضراء والتي يفترض البعض أنَّها مثلث برمودا حالياً.

إنَّ مثلث برمودا هو موقع للإمام المنتظر عليه السلام وهذا خيال بمعنى لا يوجد أيّ رقم علمي يدلُّ عليه، لا على الجزيرة الخضراء ولا على مثلث برمودا.

في الحقيقة أنَّه عمل المخابرات الأمريكية، فهل رأيتم هذا المثلث على الخريطة في المحيط الأطلسي التي تطلُّ عليه أمريكا؟

هذا عمل المخابرات الأمريكية هي التي تخطف السفن وما شاكل ذلك بعنوان مثلث برمودا الذي لا يمكن الوصول إليه ولا يعلمون خبر من يصل إليه أيطير في السماء أم يغرق في البحر!؟

وكذلك خدعة الأطباق الطائرة التي ظهرت أخيراً. فالشعوب المسكينة تبقى مخدوعةً لعشرات السنين بهذه القضايا المخابراتية.

أمَّا الجزيرة الخضراء كيف هي؟ وأين توجد؟ وهل يوجد فيها الإمام؟ كما تقول القصَّة: إنَّه مع أولاده وأحفاده يعيشون في هذه الجزيرة الخضراء التي تحوي عيون الماء والفواكه والأطعمة ويصدّرون هذه الأطعمة إلى الأندلس ففي كلّ ثلاثة أشهر تخرج قافلة من هذه الجزيرة وتذهب إلى الشيعة؟!

هذه القصَّة عثر عليها في كتاب خطّي لا يعرف من هو كاتبه وسجَّلها علماؤنا كتراث وأرشيف ليست له قيمة علمية.

أصل الفكرة هي أنَّ العامل البشري إضافة إلى العامل الغيبي محفوظ فغيبة إمامنا المنتظر عليه السلام لا يمكن تفسيرها بالوسائل المادية، بل بالوسائل الغيبية وبهذا تنحلُّ العقدة عن مكان وجوده وعمره الطويل.

وقد سجَّل علماؤنا الكبار لقاءاتٍ مع الإمام المنتظر عليه السلام مثلُ

العلاّمـةُ بحـر العلـوم، والمقـدَّس الأردبيلـي، والعلاّمـة الحلّـي قدس سرهم، الـذين دفنوا بجوار أمير المؤمنين عليه السلام ولهم قبور تزار.

إنَّ اللقـاءات مـع الإمـام عليه السلام تخضـع لعنصـر الغيـب فالإمـام موجـود ولكنَّنا لا نشاهده، «بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ مُغَيَّبٍ لَمْ يَخْلُ مِنَّا»(١).

العنصر المشترك الآخر هو الاشتراك التاريخي:

هناك اشتراك يمكن أن نسمّيه: الاشتراك في العمق التاريخي، يعني لم يكن الحسين عليه السلام يمثّل حادثة في مقطع زمني، ولا حركة الإمام المنتظر عليه السلام في مقطع زماني معيَّن، وإنَّما هاتان الحركتان وهذان الحدثان هما امتداد إلى صدر التاريخ ومع الأنبياء عليهم السلام حيث كانوا يتحدَّثون عن الإمام الحسين عليه السلام كظاهرة ستحدث، ويتحدَّثون عن الإمام المنتظر عليه السلام أيضاً كظاهرة ستحدث، هذا الامتداد إلى الأنبياء هو ظاهرة ملفتة للنظر.

لماذا تركيز الأنبياء على الإمام الحسين وعلى الإمام المنتظر عليهما السلام؟

ونبيّنا عليه السلام أيضاً نجده قد أهمَّهُ كثيراً التركيز على الإمام الحسين عليه السلام ومصيبة الحسين عليه السلام كأعظم فاجعة وكجريمة كبرى في التاريخ البشري، ثمّ نجد أنَّه أُثر عنه حديثٌ مكرَّر عن الإمام المنتظر عليه السلام كأعظم فاتح عالمي.

الأنبياء أُثر عنهم أحاديث كثيرة في علاقاتهم مع الحسين عليه السلام حتَّى نجد كتاب (الخصائص الحسينية) للعلاّمة التستري يذكر أربعة عشر مجلساً عقده الأنبياء للحسين عليه السلام.

هذا الحشد من الأحاديث النبويّة عن حادثتي الحسين والمهدي عليهما السلام،

(١) المزار لابن المشهدي: ٥٨١.

الحسين عليه السلام كأعظم حدث مأساوي والمهدي عليه السلام كأعظم فتح سوف يتحقَّق في ختام البشرية، هذا ربط تاريخي بين المهدي والحسين والأنبياء عليهم السلام.

الرسول صلى الله عليه وآله يذكر حركة الحسين عليه السلام:

الروايات في هذا الشأن كثيرة ويذكر العلاّمة الشيخ باقر القرشي وهو من علماء النجف المعاصرين والمؤرّخين والباحثين في كتابه (حياة الإمام الحسين عليه السلام) مجموعة روايات عن مصادر أهل السُنّة وليس الشيعة ذكر فيها رسول الله صلى الله عليه وآله مصاب الحسين عليه السلام وهذه الروايات منقولة عن ابن عبّاس، وأُمّ سَلَمة، وعائشة، وزينب بنت جحش، وعبد الله بن مسعود.

ومثل ذلك كان للنبيّ صلى الله عليه وآله عشرات الأحاديث في المهدي عليه السلام.

أمَّا روايات البكاء على الحسين عليه السلام وأحداث كربلاء فهي تتكرَّر بألفاظ متقاربة مرَّةً عن أُمّ سَلَمة، وأخرى عن عائشة، وثالثة عن ابن عبّاس، هكذا تقول:

دخل الحسين بن علي عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يُوحى إليه فنزا على رسول الله وهو منكب وهو على ظهره، فقال جبرئيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: أتحبّه يا محمّد؟

قال: «يا جبرئيل وما لي لا أحبّ ابني؟».

قال: فإنَّ أمّتك ستقتله من بعدك، فمدَّ جبرئيل عليه السلام يده فأتاه بتربة بيضاء، فقال: في هذه الأرض يقتل ابنك هذا واسمها: الطفّ.

فلمَّا ذهب جبرئيل عليه السلام من عند رسول الله صلى الله عليه وآله، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله والتزمه في يده يبكي فقال: «يا عائشة إنَّ جبرائيل أخبرني أنَّ ابني حسين مقتول في أرض الطفّ وإنَّ أمّتي ستفتن بعدي»، ثمّ خرج إلى أصحابه.

الرواية تقول: فيهم علي وأبو بكر وعمر وحذيفة وعمّار وأبو ذر وهو يبكي، فقالوا ـ أي الصحابة ـ: ما يبكيك يا رسول الله؟

فقال: «أخبرني جبرئيل عليه السلام أنَّ ابني هذا يقتل بعدي بأرض الطفّ وجاءني بهذه التربة وأخبرني أنَّ فيها مضجعه»[(١)].

هذه الرواية تتكرَّر في مواضع كثيرة عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله.

الرسول صلى الله عليه وآله يبشّر بظهور المهدي عليه السلام:

هذه الظاهرة يريد أن يسجّلها الرسول صلى الله عليه وآله في ذهن الصحابة ويسجّل إلى جانبها ظاهرة أخرى يقول: «لو لم يبقَ من الدنيا إلاَّ يوم واحد لطوَّل الله ذلك اليوم حتَّى يظهر فيه رجلٌ من ولدي يواطئ اسمه اسمي يملأها عدلاً وقسطاً كما مُلئت ظلماً وجوراً»[(٢)]، هذا التبشير بالفتح العالمي على يد أحد أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله جاء في حديث صحيح ومتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد نجد هذا المعنى في تاريخ الأنبياء عليهم السلام كالتوراة والإنجيل الذي يتحدَّث عن المهدي كأعظم مصلح سيخرج في آخر الزمان.

المهدي عليه السلام في التوراة والإنجيل:

ويذكر المحقّق الحائري اليزدي في كتابه إلزام الناصب (٣٦) نصّاً من التوراة والإنجيل في ظهور المصلح الأعظم في آخر الزمان بالاسم أو بدون اسم[(٣)].

---

(١) مجمع الزوائد ٩: ١٨٧ و١٨٨.

(٢) كنز الفوائد: ١١٣.

(٣) راجع: إلزام الناصب ١: ١٠٦ - ١٤٧.

مع الدكتور المصري:

وفي هذه الأيّام يذكر أحد الكُتّاب وهو الدكتور أحمد السقا المصري يقول: إنَّ هذه النصوص التبشيرية بالمصلح في آخر الزمان في التوراة والإنجيل صحيحة لكنَّها تنطبق على رسول الله صلى الله عليه وآله.

حينما يبشّر الإنجيل بالمصلح العالمي في آخر الزمان وكذا التوراة حين بشّرت بمهدي يظهر في آخر الزمان ويفتح له العالم المقصود بهذا المهدي هو نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وهذا الفتح الإسلامي الذي حدث في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وبعده هو الذي بشَّرت به التوراة والإنجيل.

ولكن هذا الرأي لا يتَّفق مع المئات من الأحاديث التي أخبر بها الرسول صلى الله عليه وآله في المهدي والتي يقول فيها: «لو لم يبقَ من الدنيا إلاَّ يوم واحد لطوَّل الله ذلك اليوم حتَّى يظهر فيه رجلٌ من ولدي يواطئ اسمه اسمي» إلاَّ أن نهمل هذه الروايات الصحيحة التي أجمع عليها السُنّة والشيعة، فكيف يمكن مع هذه المئات من الروايات التي اعتبرت قضيّة الإمام المهدي عليه السلام من ضرورات الفكر الإسلامي!؟

إضافة إلى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يُفتح له كلّ العالم ولم تُملأ الأرض قسطاً وعدلاً فقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله ولم تفتح بعد أجزاء من الجزيرة العربية فكيف نفترض أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله هو ذلك الرجل الذي سيظهر ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً؟

لقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله بثلاث وصايا أحدها إخراج المشركين

مـن جزيـرة العـرب(١)، إذن لا بـدَّ مـن وجـود فـتح عـالمي لـم يتحقَّـق لحـدّ الآن والروايـات الصـحيحة التـي تفسّـر الآيـات القرآنيـة التـي مـرَّ بعضـها تبشّـر بهذا الفتح العالمي الذي سيحدث في آخر الأجيال البشرية.

الأديان الوضعيّة ورؤيتها:

إذن لـدينا حـديث النبـوءات عـن الحسـين عليه السلام وحـديث النبـوءات عن المهدي عليه السلام وحشد من الروايات في هذا الشأن.

فـي الحقيقـة إذا أردنـا أن نتوسَّـع فـي هـذا الموضـوع نجـد أنَّ الأديـان بشكل عامّ تتحدَّث عن المصلح الأكبر الذي سيظهر في آخر الزمان.

الفكـرة التـي نريـد أن نسـجّلها أنَّـه لـيس فقـط الأديـان الإلهيـة تحـدَّثت عـن الإصـلاح العـالمي الـذي يكـون فـي آخـر الزمـان وإنَّمـا الأديـان الوضـعية أيضـاً، الشـيوعية بشَّـرت بهـذه القضـيّة والحضـارة الغربيـة الرأسـمالية الليبراليـة أيضاً بشَّرت بها.

الإصلاح في النظرية الشيوعية:

النظريـة الشـيوعية هكـذا تقـول: إنَّـه سـتطبق العدالـة فـي الأرض وذلـك علـى يـد الطبقـة العاملـة حينمـا يطيحـون بالطبقـة البرجوازيـة والعمّـال هـم الـذين يحكمـون فيكـون حينئـذٍ هنـاك توزيـع عـادل لـرأس المـال والنـاس

(١) عـن ابـن عبّـاس رضي الله عنه قـال: (اشـتدَّ برسـول الله صلى الله عليه وآله وجعـه فقـال: «ائتـوني بكتـف أكتـب لكـم كتابـاً لا تضـلّوا بعـده أبـداً»، فتنـازعوا ولا ينبغـي عنـد نبـيّ تنـازع، فقـالوا: مـا لـه أهجـر؟ اسـتفهموه، فقـال: «ذرونـي فالـذي أنـا فيـه خيـر ممَّـا تـدعوني إليـه»، فـأمرهم بـثلاث قـال: «أخرجـوا المشـركين مـن جزيـرة العـرب، وأجيـزوا الوفـد بنحـو مـا كنـت أجيـزهم، والثالثـة إمَّا أن سكت عنها وإمَّا أن قالها فنسيتها) صحيح البخاري ٤: ٦٦.

يعيشون في رفاه ويتمّ الاستغناء عن الحكومة والدولة، يعني لا توجد دولة ولا توجد حكومة ولا يوجد رئيس وزراء، توجد يومئذٍ عملية إدارة شعبية وإدارة ذاتية، تسقط الدولة في مجتمع سعيد مملوء بالعدالة على يد الطبقة العاملة، ولا مانع لدى النظرة الشيوعية من استخدام القتل لملايين الناس من أجل أن تحكم الطبقة العاملة وتقول: إنَّه في آخر الزمان يكون مجتمع الناس تسوده العدالة والمحبّة والإخوة.

وهنا نعتقد أنَّ هذه واحدة من تأثيرات الفكر الديني على مجمل الحضارات الإنسانية، يعني أنَّ الدين له أثر حتَّى عند من لا يؤمن بالدين هذه امتدادات التأثير الديني.

الماركسية تقول: في حكومة العمّال ستزول حالة الاستئثار والأنانية وإنَّما الناس كلّهم أراضيهم تتوزَّع بالتساوي، وأموالهم تتوزَّع بالتساوي.

نحن الآن لسنا بصدد مناقشة هذا الأمر رغم اعتقادنا بأنَّ الشيوعية تتحدَّث عن فرضية دون أن تقدّم عليها دليلاً، لكن ما نريد إثباتهُ هنا هو اعتقاد الأديان الوضعية بالمستقبل السعيد للبشرية وانتصار الإصلاح العالمي.

النظرية الغربية أيضاً تتحدَّث عن هذا الأمر في مجتمع التقدّم العلمي يعني بفعل التقدّم التقني العلمي وبفعل التنافس الشديد بين الطبقة العاملة والطبقة المالكة سيبلغ مستوى الثروات عند الناس بما يسمّونه: (مستوى الوفرة)، يعني تكون الفاكهة موجودة بكلّ ما يحتاجه البشر، أدوات النقل والانتقال موجودة بكلّ ما يحتاج إليه البشر، ملابس موجودة، بيوت موجودة، هذا هو مجتمع الوفرة، نتيجة التنافس الشديد.

الشيوعيون يقولون: من أجل أن نصل إلى مجتمع الوفرة يجب أن نقمع الأثرياء إلاَّ أنَّ الغربيين يقولون بالعكس: يجب أن يصبح التنافس

قويّاً بين الأثرياء وبين الطبقة الفقيرة كلَّما قوي التنافس فإنَّ البركة تزداد، يعني نظرية ترسيخ الصراع بين الطبقتين، هذه إحدى التمايزات بين النظرية الغربية والنظرية الشيوعية.

على كلّ حال الصلاح العالمي والمجتمع السعيد الذي سيكون في آخر الزمان هذه الفكرة موجودة في الأديان الوضعية والإلهية مع نقاط اختلاف كثيرة.

منها: أنَّ الأديان الوضعية تعتمد في هذا التحليل على اجتهادات شخصية دون دليل علمي بينما الأديان الإلهية تنطلق من قرار إلهي أي أنَّ هذه المسيرة البشرية بقرار من الله تعالى ستنتهي إلى مجتمع سعيد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (النور: ٥٥)، هذا القرار الإلهي موجود بأنَّ الحكم سيكون للمستضعفين في الأرض وقد أنبأت به الكتب الإلهية ولو بقي التقدّم العلمي بدون إخبار إلهي غيبي فإنَّه لا يملك دليلاً يتوصَّل به إلى هذه النتيجة، نحن نرى اليوم كلَّما زاد التقدّم العلمي زادت المأساة والبؤس بسبب عدم الاستخدام الصحيح لهذا التقدّم العلمي.

الديمقراطية هل هي المصلح ؟

بعد سقوط الشيوعية أصبحت الديمقراطية تطرح نفسها على الساحة كمصلح أعظم وترى أنَّ الأمّة الغربية هي الأمّة الشاهدة على العالم وأنَّ الديمقراطية هي الرسالة التي ستؤسّس المجتمع السعيد للبشرية.

لقد طرح الكاتب الأمريكي (فوكو ياما) وهو من أصل ياباني نظرية (نهاية التاريخ) ووضَّح فيها أنَّ أمريكا الآن وصلت إلى نهاية التأريخ وهذه هي القمّة

ويجب أن تكون هي النموذج الذي يطبَّق على كلّ الأرض لتحقيق المجتمع السعيد، ونلاحظ اليوم أنَّ أمريكا تنطلق في حركتها من هذه الأفكار، أي إنَّها هي القائدة للعالم ونموذج المجتمع السعيد، وتوزّع الوصايا هنا وهناك على الحكّام العرب وبلدان الشرق الأوسط للإصلاحات الديمقراطية كرسالة جديدة لتحقيق المجتمع السعيد.

ظواهر المجتمع السعيد:

إنَّ المجتمع السعيد الذي تمتلأ فيه الأرض قسطاً وعدلاً على يد وليّ الله الأعظم الحجّة بن الحسن عليه السلام له ظواهر أربع:

الظاهرة الأولى: ظاهرة الغنى والثروة، أي لا يبقى أحد فقيراً أو جائعاً أو محتاجاً حتَّى تقول الروايات: إنَّه لا يبقى أحد من الناس يحتاج إلى الصدقة[(١)].

الظاهرة الثانية: هي المحبّة والتآخي بين الناس.

الظاهرة الثالثة: ظاهرة المصالحة الطبيعية حتَّى بين الحيوانات وتقول الروايات: إنَّ الشاة تمشي بجانب الذئب فلا يعتدي عليها، فالمصالحة الطبيعية في عصر الإمام المنتظر عليه السلام تشمل كلّ المخلوقات العاقلة وغير العاقلة.

الظاهرة الرابعة: وهي العدالة أي لا يوجد مظلوم بل تمتلأ الأرض قسطاً وعدلاً.

---

(١) روى علي بن عقبة، عن أبيه، قال: «إذا قام القائم عليه السلام حكم بالعدل... وحكم بين الناس بحكم داود وحكم محمّد عليهما السلام، فحينئذٍ تظهر الأرض كنوزها وتبدي بركاتها، فلا يجد الرجل منكم يومئذٍ موضعاً لصدقته ولا لبرّه لشمول الغنى جميع الناس» أنظر: الإرشاد ٢: ٣٨٤ و٣٨٥.

ففي الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: «... بنا يفتح الله، وبنا يختم الله، وبنا يمحو ما يشاء، وبنا يثبت، وبنا يدفع الله الزمان الكلب، وبنا ينزل الغيث، فلا يغرنَّكم بالله الغرور، ما أنزلت السماء من قطرة من ماء منذ حبسه الله عز وجل، ولو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها، ولأخرجت الأرض نباتها، ولذهبت الشحناء من قلوب العباد، واصطلحت السباع والبهائم، حتَّى تمشي المرأة بين العراق إلى الشام، لا تضع قدميها إلاَّ على النبات، وعلى رأسها زبيلها لا يهيّجها سبع ولا تخافه»(١).

وهناك رواية عن علي بن الحسين عليه السلام: «إذا قام قائمنا أذهب الله عز وجل عن شيعتنا العاهة، وجعل قلوبهم كزبر الحديد، وجعل قوّة الرجل منهم قوّة أربعين رجلاً، ويكونون حكّام الأرض وسنامها»(٢).

نحن نعتقد أنَّ حركة الإصلاح العالمي يقودها أتباع أهل البيت عليهم السلام وهم الشيعة.

وفي الرواية: «ويكون دار ملكه الكوفة»(٣)، يعني العاصمة التي ينطلق منها الإمام المنتظر عليه السلام في حركته هي الكوفة، دار الملك يعني قصر رئاسة الجمهورية في اصطلاحنا اليوم.

وروى أبو بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: «يا أبا محمّد كأنّي أرى نزول القائم عليه السلام في مسجد السهلة بأهله وعياله».

قلت: يكون منزله جُعلت فداك؟

---

(١) الخصال: ٦٢٦/ الحديث الأربعمائة.

(٢) الخصال: ٥٤١/ ح ١٤.

(٣) تاج المواليد: ٧٥؛ بحار الأنوار ٥٣: ١١.

قال: «نعم، كان فيه منزل إدريس، وكان منزل إبراهيم خليل الرحمن، وما بعث الله نبيّاً إلاَّ وقد صلّى فيه، وفيه مسكن الخضر».

هذا مسجد السهلة العظيم الذي أهمل من قبل أعداء أهل البيت عليهم السلام كما أهملت كلّ المساجد والمراقد الشريفة للأئمّة الأطهار في أيّام النظام البائد، وتقول الرواية: «والمقيم فيه كالمقيم في فسطاط رسول الله صلى الله عليه وآله، وما من مؤمن ولا مؤمنة إلاَّ وقلبه يحنُّ إليه... وما من يوم ولا ليلة إلاَّ والملائكة تزور هذا المسجد، يعبدون الله فيه...»، حتَّى يقول الإمام للراوي: «أمَا إنّي لو كنت بالقرب منكم ما صلَّيت صلاة إلاَّ فيه»[1].

وهناك رواية أخرى جميلة في هذا الشأن، عن أبي جعفر عليه السلام أنَّه قال: «كأنَّني بدينكم هذا لا يزال متخضخضاً، يفحص بدمه، ثمّ لا يردّه عليكم إلاَّ رجلٌ منّا أهل البيت...»[2]، يعني أنَّ الدين سيعود ويحكم ويحقّق المجتمع السعيد لا الشيوعية ولا الديمقراطية ولا الليبرالية قادرة على ذلك، إذن بعودة الإسلام للمجتمع في زمان الإمام تذهب الشحناء من قلوب الناس وتتصالح عناصر الطبيعة ويسود الغنى والعدالة الإسلاميّة في المجتمع.

إشكالات على نظرية المجتمع السعيد:

هناك إشكالان طرحهما بعض الباحثين على نظرية الإمام المهدي عليه السلام والمجتمع السعيد:

الإشكال الأوّل: هو ديمومة عنصر الصراع بين البشرية حسب الفهم القرآني.

(١) المزار لابن المشهدي: ١٣٤ و١٣٥/ باب ٥/ ح ٧.

(٢) الغيبة للنعماني: ٢٤٥/ باب ١٣/ ح ٣٠.

الإشكال الثاني: هو سُنّة الابتلاء الإلهي للبشرية.

ففي الإشكال الأوّل يقولون: إنّ الله تعالى قال لآدم وحواء وإبليس ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٦)، فكيف تقولون بحصول المجتمع السعيد في زمن الإمام المهدي عليه السلام مع وجود هذا الصراع؟

وجوابه: أنَّ هذا الصراع يقع بين الإنسان والشيطان وليس بين أبناء الإنسان والإنسان فآدم وحواء لم يكن بينهم معركة، بل كانت بين إبليس وجنوده، صحيح نحن نعتقد أنَّ هذه المعركة دائمية، وسوف لن يتحوَّل الإنسان يوماً ما إلى ملائكة حتَّى لا توجد عنده إغراءات شيطانية، بل توجد معركة دائمية في قلب الإنسان بين جنود الرحمن وبين جنود الشيطان، هذا نعتقد به لكن هذا ليس يعني بالضرورة على أرض الواقع أن توجد معركة بين الناس أنفسهم، المعركة بين الإنسان وبين الشيطان، أمَّا بين الناس فيمكن أن يتحقَّق المجتمع السعيد الذي لا معركة فيه، هذا هو الجواب عن الإشكال الأوّل.

أمَّا الإشكال الثاني: وهو سُنّة الابتلاء قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ٢)، فكيف تقولون بحصول مجتمع سعيد في آخر الزمان خالي من أيّ مشكلة أو ابتلاء أو فقر، والقرآن يؤكّد أنَّ الحياة لا تخلو من فتن؟

وجوابه: أنَّ الابتلاء المذكور ليس بالضرورة أن يكون على شكل معارك وأمراض وما شاكل ذلك، بل قد يكون من خلال منازعة الإنسان لشهواته أوّلاً، ومن خلال التراجعية في عمر الإنسان ويبتلى بموت حبيب أو صديق له هكذا عنصر الابتلاء موجود ولو لم يكون في الابتلاء إلاَّ

المعركة مع شهوات الإنسان لكفى، نحن في نظرية الإمام المهدي عليه السلام لا نفترض أنَّه لا توجد مشاكل مطلقاً وإنَّما الروايات تريد الإشارة إلى تحقّق مجتمع سعيد يعني السعادة في النظرة الكلّية.

الروايات تقول: إنَّ الإمام المنتظر عليه السلام يحكم بحكم داود لا يحتاج إلى بيّنة[1]، إذن ذلك يعني أنَّه توجد مشاكل وتوجد محاكم، شاكي ومشتكي عليه.

الطريق إلى المجتمع السعيد:

ما هو الطريق إلى المجتمع السعيد؟

الغرب يقول: إنَّ المجتمع السعيد يعتمد تحقّقه على مدى التقدّم التقني، يعني يوزّع السيارات والمبايلات والتلفزيونات على كلّ الناس فيصبحون ملوكاً، هذا المجتمع سعيد.

الغرب يقول: إنَّ التقدّم العلمي هو الأداة لتحقيق المجتمع السعيد.

الإسلام ماذا يقول؟

هل أنَّ التقدّم العلمي قادر على أن يحقّق المجتمع السعيد؟

لا، الإسلام لديه نظرية أخرى هي أنَّ المجتمع السعيد لا يتحقَّق إلاَّ عبر مجموعة أمور:

أوّلاً: الصلاح الإنساني.

ثانياً: ثبات الكتلة الصالحة.

ثالثاً: ظهور القائد المصلح الأعظم.

---

(١) روى عبد الله بن عجلان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إذا قام قائم آل محمّد عليهم السلام حكم بين الناس بحكم داود لا يحتاج إلى بيّنة...» الإرشاد ٢: ٣٨٦.

رابعاً: الانتظار والدعاء.

فالتقدّم العلمي مهما وصل إليه الإنسان تبقى البشرية تعاني من ألوان المعاناة المستحدثة فمثلاً زلزلة واحدة في بطن المحيط وعلى بُعد (١٦٠٠) كيلومتراً هزَّت عشر دول وبلغ عدد الضحايا أكثر من (٢٥٠/٠٠٠) ألف، وما تزال آلاف المدن والقرى مدمّرة[1].

وكنت أقرأ في الأيّام الأولى لحدوث هذا الزلزال بعض التقارير عن الموجة الأولى التي داهمت هذه المناطق والقرى والمدن الصغيرة التي تقع على حافّة المحيط، قصَّة شخص سويدي كان سائحاً نجا من الحادثة يقول: إنَّه في اللحظات الأولى بعد انسحاب المياه كنّا نشاهد تسلّل السرّاق واللصوص إلى البيوت المدمّرة فعجبت من هذا المنظر الذي أرى فيه آلاف الجثث مطروحة أمامنا وبنفس الوقت حركة اللصوص للسرقة والنهب.

هذه هي مشكلة البشرية، السقوط الأخلاقي الذي لا ينفع معه أيّ تقدّم علمي.

النبيّ يتحدَّث عن انتصارات تمهيدية:

عن عبد الله بن مسعود، قال: أتينا رسول الله صلى الله عليه وآله فخرج إلينا مستبشراً يعرف السرور في وجهه فما سألناه عن شيء إلاَّ أخبرنا به ولا سكتنا إلاَّ ابتدأنا حتَّى مرَّت فتية من بنى هاشم فيهم الحسن والحسين فلمَّا رآهم التزمهم وانهملت عيناه.

فقلنا: يا رسول الله ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه.

---

(١) إشارة إلى حادثة (تسونامي) التي حدثت في المحيط الهندي وضربت عشر دول في الشهر (١٢) عام (٢٠٠٥م).

فقال: «إنّا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وإنَّه سيلقى أهل بيتي من بعدى تطريداً وتشريداً في البلاد حتَّى ترتفع رايات سود من المشرق فيسألون الحقّ فلا يعطونه ثمّ يسألونه فلا يعطونه ثمّ يسألونه فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون فمن أدركهم منكم أو من أعقابكم فليأتِ إمام أهل بيتي ولو حبواً على الثلج فإنَّها رايات هدى يدفعونها إلى رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي... فيملك الأرض فيملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»(١).

إذن هناك انتصارات تمهيدية قبل ظهوره عليه السلام، تقوم بها الأمّة التي ستحقّق هذا المجتمع السعيد.

طوبى للشيعة:

وبهذا الصدد هناك رواية عن يونس بن عبد الرحمن من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام وهو ممَّن أجمعت الطائفة على صحَّة ما صدر منه من الروايات، يقول الراوي: دخلت على موسى بن جعفر عليهما السلام فقلت له: يا بن رسول الله أنت القائم بالحقّ؟

فقال: «أنا قائم بالحقّ ولكن القائم الذي يطهّر الأرض من أعداء الله عزَّ وجلَّ ويملأها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً هو الخامس من ولدي له غيبة يطول أمدها خوفاً على نفسه، يرتدُّ فيها أقوام ويثبت فيها آخرون».

ثمّ قال: «طوبى لشيعتنا، المتمسّكين بحبلنا في غيبة قائمنا، الثابتين على موالاتنا والبراءة من أعدائنا، أولئك منّا ونحن منهم، قد رضوا بنا

(١) مستدرك الحاكم ٤: ٤٦٤.

أئمّة، ورضينا بهم شيعة، فطوبى لهم، ثمّ طوبى لهم، وهم والله معنا في درجاتنا يوم القيامة»(١).

إنَّ من واجبات زمان الغيبة الدعاء بالفرج لصاحب الزمان عليه السلام كما أنَّ من واجبنا الثبات والانتصار للحقّ والتمهيد لظهوره عليه السلام.

الدعاء في زمن الغيبة:

جاء في الرواية عن زرارة بن أعين وهو من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام، الذي قال عنه الإمام الصادق عليه السلام: «رحم الله زرارة بن أعين لولا زرارة لاندرست آثار النبوّة وضاعت أحاديث أبي عليه السلام»(٢)، وهو من أصحاب الإجماع عند الطائفة بمعنى أنَّ علماء الشيعة أجمعوا على صحَّة رواياته، يقول في روايته: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ للغلام غيبة قبل أن يقوم».

قال: قلت: ولِمَ؟

قال: «يخاف ـ وأومأ بيده إلى بطنه ـ»، ثمّ قال: «يا زرارة وهو المنتظر، وهو الذي يشكّ في ولادته، منهم من يقول: مات أبوه بلا خلف، ومنهم من يقول: حمل، ومنهم من يقول: إنَّه ولد قبل موت أبيه بسنتين، وهو المنتظر غير أنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبّ أن يمتحن الشيعة، فعند ذلك يرتاب المبطلون يا زرارة».

قال: قلت: جُعلت فداك إن أدركت ذلك الزمان أيّ شيء أعمل؟

قال: «يا زرارة إذا أدركت هذا الزمان فادع بهذا الدعاء: اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي نَفْسَكَ، فَإنَّكَ إنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أعْرِفْ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ

(١) كمال الدين: ٣٦١/ باب ٣٤/ ح ٥.

(٢) الاختصاص: ٦٦.

عَرِّفْنِي رَسُولَكَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ أعْرِفْ حُجَّتَكَ، اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي حُجَّتَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي...»(١).

المسار الجغرافي لحركة الحسين عليه السلام:

الحسين عليه السلام انطلق في حركته من المدينة المنوَّرة يوم أرسل عليه الوالي الأموي يطلب منه البيعة، فقال له الحسين عليه السلام في خلاصة الموقف إنَّ «يزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحرَّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله»(٢).

ثمّ قرَّر الحسين عليه السلام الهجرة إلى مكّة بشكل علني وفي مكّة المكرَّمة أعلن ثورته متَّجهاً للعراق في الثامن من ذي الحجة والذي يسمّى: يوم التروية، الإمام الحسين عليه السلام في هذا اليوم خرج إلى العراق بدلاً من أن يتَّجه مع الحجّاج إلى عرفات حيث يجب الوقوف في عرفات يوم التاسع من ذي الحجة.

من مكّة اتَّجه الحسين عليه السلام إلى العراق ووصل كربلاء ولم يُسمح للحسين عليه السلام أن يتَّجه للكوفة، كان أصل الاتّجاه نحو الكوفة ولكن موقف الحرّ الرياحي اضطرَّ الحسين لتغيير مساره نحو كربلاء ورغم أنَّ الحسين عليه السلام لم ينزل الكوفة ولكن السبايا ورأس الحسين عليه السلام دخلوا الكوفة ثمّ اتَّجه رأس الحسين عليه السلام نحو الشام، فالمسار الجغرافي للحسين عليه السلام هو: المدينة _ مكّة _ كربلاء _ الكوفة، ثمّ الشام، هذه حركة الإمام الحسين عليه السلام.

(١) الكافي ١: ٣٣٧/ باب في الغيبة/ ح ٥.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٧.

المسار الجغرافي للإمام المهدي عليه السلام:

هـذا المسـار الجغرافـي نجـده أيضـاً عنـد الإمـام المنتظـر عليه السلام حيـث ينطلـق كانطلاقـة أولـى تمهيديـة غيـر معلنـة وغيـر عالميـة ينطلـق مـن المدينـة المنـوَّرة إلـى مكّـة المكرَّمـة حيـث تكـون جيـوش وقـوّات السـفياني(١) قـد لاحقتـه مـن الشـام إلـى المدينـة المنـوَّرة، الإمـام المنتظـر عليه السلام يخـرج مـن المدينـة المنـوَّرة إلـى مكّـة المكرَّمـة مثـل جـدّه الحسـين عليه السلام ولا يـدخل فـي مواجهة مع السفياني في المدينة.

الروايات تقول: إنَّه ستحدث معارك طاحنة في الكوفة بين قوّات الإمام المهـدي عليه السلام وقـوّات السفياني التي تكـون قـد تعسـكرت فـي الكوفـة وحينئذٍ تلتحق بالإمـام المهـدي عليه السلام قـوّات جديـدة بقيادة قائـد اسـمه الحسـني، هـذه الرايـات قادمـة مـن خراسان كما تقـول الروايـات، تلتحق بالإمام المنتظـر عليه السلام وتكون بينهم وبين السفياني في الكوفة معركة طاحنة على أثرها ينهزم السفياني ويكون الإمام المنتظر عليه السلام قد حرَّر الكوفة واتَّخذها عاصمة له، بحيث تقول الروايات: إنَّ دار ملكه الكوفة، وهناك روايات جميلة هي بشرى لأهل الكوفة، يعني هذا الإقليم.

الروايــة تقــول: «أســعد النــاس بــه أهــل الكوفــة»(٢)، لأنَّهــم ســوف يصبحون في العاصمة إذن لا بدَّ أن يكونوا أسعد الناس.

فيتقــدَّم باتّجـاه الشـام فتتحـرَّر ويهـزم السـفياني، ومـن هنـاك ينتقـل

---

(١) هـل هـذا هـو اسـمه أو هـو كنايـة عـن اتّجاهـه الحركـي فهـو سـفياني الهـوى والـولاء ولـيس بالضرورة أن يكون اسمه السفياني لكن ميوله سفيانية؟

(٢) بحار الأنوار ٥٢: ٣٩٠/ ح ٢١٢؛ ينابيع المودّة ٣: ١٧٢.

الإمام لتحرير القدس وفي القدس ينزل عيسى بن مريم ويصلّي خلف إمامنا المنتظر عليه السلام(١)، هذا هو السير الجغرافي للحركة.

روايات المسار الجغرافي:

الرواية تقول: «ويبعث السفياني بعثاً إلى المدينة فينفر المهدي منها إلى مكّة، فيبلغ أمير جيش السفياني أنَّ المهدي قد خرج إلى مكّة، فيبعث جيشاً على أثره فلا يدركه حتَّى يدخل مكّة _ يعني الإمام المنتظر _ خائفاً يترقَّب على سُنّة موسى بن عمران. فينزل أمير جيش السفياني البيداء فينادي منادٍ من السماء: يا بيداء، بيدي القوم، فيخسف بهم، فلا يفلت منهم إلاَّ ثلاثة نفر، يحوّل الله وجوههم إلى أقفيتهم، وهم من كلب...، والقائم يومئذٍ بمكّة، قد أسند ظهره إلى البيت الحرام مستجيراً به فينادي: يا أيّها الناس، إنّا نستنصر الله فمن أجابنا من الناس فإنّا أهل بيت نبيّكم محمّد صلى الله عليه وآله...»(٢).

الرواية الأخرى تقول عن الإمام الصادق عليه السلام: «السفياني من المحتوم»، يعني من القضاء والقدر المؤكَّد خروجه مع خروج الإمام المنتظر عليه السلام، السفياني يخرج كعدوّ له كما هي سُنّة الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الفرقان: ٣١)، هذه السُنّة مع الإمام المنتظر عليه السلام أيضاً موجودة.

الرواية تقول: «السفياني من المحتوم، وخروجه في رجب، ومن أوّل خروجه إلى آخره خمسة عشر شهراً، ستّة أشهر يقاتل فيها، فإذا

(١) أنظر: الملاحم والفتن لابن طاووس: ٢٠٢/ باب ٢٠٤/ ح ٢٩٠.
(٢) الغيبة للنعماني: ٢٨٩ و٢٩٠/ باب ١٤/ ح ٦٧.

ملك الكور الخمس ملك تسعة أشهر، ولم يزد عليها يوماً»[١]، هذا حكم السفياني إلى أن يهزم، هذه بعض الروايات.

وهناك رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تقول: «كأنّي بالسفياني أو بصاحب السفياني قد طرح رحله في رحبتكم بالكوفة، فنادى مناديه: من جاء برأس رجل من شيعة عليّ فله ألف درهم، فيثب الجار على جاره يقول: هذا منهم، فيضرب عنقه ويأخذ ألف درهم».

ثمّ يقول عليه السلام: «أمَا إنَّ أمارتكم يومئذٍ لا تكون إلاَّ لأولاد البغايا وكأنّي أنظر إلى صاحب البرقع...»، هذه الرواية تلفتنا إلى شيء عجيب وهم هؤلاء الملثّمون الإرهابيّون في هذا الزمان الذي يلبسون النقاب، هذه الروايات تتحدَّث عن مجموعة من أصحاب البراقع الملثّمين القتلة، يلبسون برقعاً فلا يعرفهم أحد، هذه الظاهرة الرواية تتحدَّث عنها، وهو من عجيب ما تتحدَّث عنه ونحن نشهد بعض نماذجه المعاصرة.

قلت: ومن صاحب البرقع؟

قال عليه السلام: «رجل منكم يقول بقولكم يلبس البرقع فيحوشكم فيعرفكم ولا تعرفونه، فيغمز بكم رجلاً رجلاً، أمَا إنَّه لا يكون إلاَّ ابن بغي»[٢].

الإصلاح ينطلق من الشرق:

الأنبياء انطلقوا من الشرق فلسطين، الحجاز، العراق هذه حركة الأنبياء عليهم السلام.

الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وموسى وعيسى عليهم السلام ونبيّنا

---

(١) الغيبة للنعماني: ٣١٠/ باب ١٨/ ح ١.

(٢) الغيبة للطوسي: ٤٥٠/ ح ٤٥٣.

صلى الله عليه وآله، ونـوح وهـود وصـالح عليهم السلام، هـذا قطـار الأنبيـاء المقـدَّس أسـتطيع أن أقـول: هـذا كلّـه انطلـق مـن الشـرق، ربَّمـا هنـاك اسـتثناء لـم نطَّلـع عليـه لكـن بحـدود مـا يطلعنـا عليـه القـرآن الكـريم، ومـا تحـدّثنا بـه سـيرة وحيـاة الأنبيـاء، إنَّنـا لا نـرى يومـاً مـن الأيّـام نبيّـاً بُعـث فـي بـلاد الغـرب، ولا نبيّـاً فـي بـلاد فـارس أو الصـين مـع أنَّ الفـرس لـديهم تقـدّم علمـي كبيـر، الصـين كـذلك، الـروم كـذلك لكـن لا تـدري مـا هـي الحكمـة الإلهيـة أنَّ الأنبيـاء ينطلقـون مـن الشـرق إمَّـا الشـرق العربـي أو الشـرق العبـري، أنَّ الأنبيـاء عليهم السلام كثيـر منهم عرب وكثير منهم عبريون.

أربعة أنبياء عرب:

أربعـة أنبيـاء عـرب كـان خـاتمهم النبـيّ محمّـد صلى الله عليه وآله، وهـؤلاء الأنبيـاء الأربـع كمـا يقـول العلاّمـة الطباطبـائي فـي الميـزان هـم: (هـود، وصـالح، وشـعيب ومحمّـد صلى الله عليه وآله)[1]، أنـا لا أذكـر هـذا علـى أسـاس منطلقـات قوميـة، ولكـن كحقـائق تسـتحقّ البحـث والتأمّـل، لمـاذا هـذه المنطقـة (الشـرق) أصبحت مهد النبوّات؟ لماذا الغرب لم يصبح مهد النبوّات؟

بعـض الروايـات تقـول: يوجـد نبـيّ واحـد أسـود أفريقـي، البقيّـة إمَّـا عرب أو عبريون، هذا يحتاج إلى تحليل.

فـي مقابـل هـذا يوجـد شـيء آخـر وهـو أنَّ التقـدّم العلمـي التقنـي عنـد الغـرب كـان وإلـى الآن، السـيّارات غـرب، المبـايلات غـرب، التلفزيـون غـرب، الأدوات العلاجيـة غـرب، الكهربـاء غـرب، تقـدّم علمـي جـاء وزحف علينا من الغرب، لحدّ الآن الشرق غير قادر على منافسته، صحيح

(١) تفسير الميزان ٢: ١٤٤.

أنَّ الاتّحاد السوفيتي صنع مركبات فضائية واستطاع أن يصعد إلى القمر وما شاكل، لكن يبقى التقدّم العلمي هو من حصّة الغرب إلى الآن.

في مقابل ذلك نجد أنَّ التقدّم الروحي المعنوي هو من حصّة الشرق وسوف نجد أنَّ الغرب الآن يعترف أنَّ الإصلاح المعنوي سوف يبدأ من الشرق فإنَّهم يبحثون عن المصلح الأكبر وهو إمام الزمان ولكن ليس في واشنطن ونيويورك، يبحثون عن صاحب الزمان في النجف ـ كربلاء ـ مكّة المكرَّمة ـ المدينة، وهكذا ينتظرون عيسى بن مريم.

الآن يوجد لديهم بحث حقيقي لأنَّهم يعرفون هذه القضايا على أساس تراث علمي تاريخي موجود عندهم.

الآن كلّ الإرهاصات العالمية والتنبّؤات العالمية تتحدَّث عن خروج مصلح من الشرق وليس من الغرب، كما أنَّ رواياتهم التي يعتقدون بها تتحدَّث عن نزول عيسى، وهو يحكم بعد ذلك، ويقتل اليهود، هذه القضايا هي بالنسبة إليهم تؤرق مضاجعهم، هؤلاء يقولون: عيسى، وأولئك يقولون: المهدي، على كلّ حال النتيجة واحدة هي ظهور مصلح ينقض على قدراتهم المادية.

ولهذا فإنَّ التحقيقات التي تجريها قوّات الاحتلال هنا في العراق مع بعض الذين اعتقلوا اشتباهاً أو عمداً وكان يحدّثنا ويقول: عملوا معي اثني عشر جلسة تحقيق، واحدة منها جلسة تحقيقية كاملة عن الإمام المنتظر عليه السلام.

من هو المهدي؟

أين يظهر في مكّة؟ في المدينة؟ في النجف؟ في الكوفة؟ في كربلاء؟ هذا **السؤال الأوّل**.

السؤال الثاني: تلتقون به أم لا تلتقون به؟

السؤال الثالث: مراجعكم مثل السيّد السيستاني يلتقي به أم لا يلتقي؟

السؤال الرابع: أنتم تدَّعون أنَّه إذا ظهر هذا المصلح الأكبر يسيطر على العالم، أسلحته ما هي؟ عندكم بالروايات ما هي أسلحته؟ حتَّى يفكّروا بالمضادات!

جلسة تحقيقية كاملة تستغرق ساعتين أو أكثر فقط حول الإمام المنتظر عليه السلام، ثمّ يقولون لهذا الشخص المعتقل عندهم: فلنفترض إذا أنت التقيت بالإمام المنتظر عليه السلام ماذا تعمل؟ يعني ما هي علاقتك معه؟ هذا **سؤال خامس.**

السؤال السادس: إذا قال لك الإمام المنتظر عليه السلام: قاتل هؤلاء، أنت تقاتلنا أم لا تقاتلنا!؟ عجيب هم يعيشون جوّاً كأنَّهم على أبواب ظهور هذا المصلح الأعظم، هذه قوى عظمى في العالم تفكّر في نفسها، ماذا سيصبح مصيرنا؟ لأنَّه ثابت عندهم في التوراة والإنجيل أنَّ عيسى ينزل من السماء ويصلّي في بيت المقدس ويقتل اليهود هناك ولديهم تنبؤات لأناس مرتاضين هذه التنبؤات بقطع النظر عن مدى دقّتها لكن تثير هواجسهم ومخاوفهم.

لا تتصوَّروا أنَّ أولئك لا يعتقدون بالتنبؤات التاريخية ولا بالأنبياء، إنَّهم يعتقدون أنَّه يوجد شيء ربَّما يزلزل وجودهم.

تنبؤات (نوستر داموس)[1] هي من أهمّ التنبؤات التي نُشرت وقد عملت لها المخابرات فلماً سينمائياً مهمّاً جدَّاً لتنبيه ذهن الناس.

نوستر داموس توفّي في القرن السادس عشر يعني قبل (خمسمائة) عام أصبحوا يرون أنَّ هذه التنبؤات ربَّما تكون واقعية، هو يتنبَّأ بحكومة

---

(١) أنظر كتاب تنبؤات نوستر داموس.

هنري الرابع ملك فرنسا وقد حدث ذلك، وكان يتنبَّأ بسقوط دولة إسرائيل، وبسقوط أمريكا، يتنبَّأ بحرب عالمية وحدثت، يتنبَّأ بالحرب العراقية الإيرانية وقد حدثت.

هؤلاء يجدون هذه التنبؤات أمامهم سقوط إسرائيل، سقوط أمريكا مهما كانت درجة الاحتمال في صحَّتها.

الغرب الآن يعيش إرهاصات ظهور المصلح الأعظم من الشرق، وهذه قضيّة جدّاً مهمّة أنَّ الإصلاح العالمي ينطلق من الشرق كما هو حركة الأنبياء وهذا سرّ من الأسرار.

والسؤال المطروح هو: لماذا الإمام المنتظر عليه السلام يخرج ويتحرَّك في محور مكّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة والنجف والكوفة وكربلاء وما شاكل، هل من غير الممكن أن يخرج من دولة عظمى من تلك الدول؟ عيسى أيضاً كذلك يتحرَّك في فلسطين، والمجتمع الغربي الآن يسلّم بهذه القضيّة، إنَّ انطلاقة الإصلاح العالمي ستكون من الشرق وليس منهم.

الإصلاح العالمي بين النظريتين:

كلّ الأديان الإلهية والوضعية كما ذكرنا سابقاً، تبشّر بإصلاح عالمي، وسعادة المجتمع الإنساني في نهاية المسار البشري، هم يبشّرون بهذا ويعتقدون بهذا، ولكن ما هو الفرق بين الإصلاح العالمي وفق النظرية الإسلاميّة والإصلاح العالمي وفق النظرية الغربية المطروحة بالفعل؟

يعني ما هي معالم أو مقوّمات الإصلاح الغربي العالمي ومقوّمات الإصلاح الإسلامي العالمي الذي يكون على يد إمامنا المنتظر عليه السلام ونحن الآن نعيش إرهاصاته ومقدّماته التمهيدية بإذن الله تعالى.

معالم الإصلاح الغربي:

أوّلاً: ترسيخ التضادّ الطبقي والصراع السياسي بين الأحزاب.

ويمثّل هذا الأصل عمق النظرية الديمقراطية التي تقول: يجب أن يحتدّ الصراع بين الفقراء والأغنياء، بين أصحاب رؤوس الأموال وبين العمّال، وكذلك بين الاتّجاهات السياسية المتعدّدة، هذا الصراع هو المفاعل لحركة الاقتصاد والسياسة.

نظرية السوق الحرّة هذه تعتمد على صراع عنيف بين أصحاب رؤوس الأموال وبين العمّال وكذلك التنافس السياسي الحادّ بين الاتّجاهات المختلفة.

ثانياً: الحرّية المطلقة السياسية والاجتماعية والثقافية، حرّية مطلقة بلا حدود، لكي تساعد على التنافس والتضادّ التنموي.

ثالثاً: عزل الدين عن السلطة والسياسة، لأنَّ الدين يعتمد على ثوابت فكرية وتشريعيّة ولا يسمح بالتعددية التي هي أساس التقدّم.

رابعاً: الوصاية الغربية على العالم.

اليوم هم يباشرون هذه الوصاية، يعني يصدّرون قرارات ويصدّرون توجيهات لدول وشعوب العالم، يعني كيف نحن لدينا مرجع ديني يصدّر توجيهات وقرارات للعالم الإسلامي، هم الآن يصدّرون قرارات للعالم العربي والعالم الشرقي وما شاكل كتوجيهات نحو الإصلاح الديمقراطي، هذه أهمّ معالم الإصلاح الغربي.

معالم الإصلاح الإسلامي:

أمَّا الإصلاح الإسلامي العالمي، فإنَّ لديه مجموعة معالم أيضاً:

الأوّل: حاكمية الشريعة الإسلاميّة، أنَّه لا إصلاح بدون دين الله وشريعته.

الثاني: شهادة الأمّة الإسلاميّة على العالم، وليس وصاية الأمّة الغربية على العالم، ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣)، هنا شهداء ليس بمعنى القتلى، بل بمعنى أصحاب الشهادة والأشراف، قيمومة الأمّة الإسلاميّة وليست قيمومة مجلس الأمن والأمم المتّحدة، ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾.

الثالث: الإمام المعصوم هو الذي يقود هذه العملية الكبرى، يعني أنَّ العملية الإصلاحية الكبرى لا يمكن أن تتمّ بدون إمام معصوم، والإمام المعصوم من وجهة نظرنا الإسلاميّة هو من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وولد فاطمة عليها السلام، وهو التاسع من ولد الحسين عليه السلام.

المصلح المعصوم ضرورة:

ننتقل إلى نقطة ثالثة، لماذا كان المصلح المعصوم ضرورة؟

إنَّ الحركة الإصلاحية العالمية من وجهة النظر الإسلاميّة أحد مقوّماتها وجود الإمام المعصوم الذي يقودها، هذه ضرورة نعتقد بها فلا يمكن أن تتمّ هذه العملية الإصلاحية الكبرى عبر أناس لا يملكون السيطرة على أهوائهم ولا على أمزجتهم، وهم ناس لا يمتنعون من فتك ولا من إبادة، بل طلاّب مصالح وفئويات وجماعات وقوميات وعرقيات وما شاكل ذلك، الذي يريد أن يصلح العالم يجب أن يكون قمّة في الصلاح والهدى.

قد نناقش هذا الأمر من الناحية العقلية والفلسفية، ولكن على مستوى أدلّة الإثباتات الإسلاميّة، يقول القرآن الكريم:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (التوبة: ٣٣)، إذن القيمومة الدينية والأطروحة الحاكمة على العالم في مستقبل الجنس البشري

هي الإسلام، يعني حاكمية الشريعة الإسلاميّة، الأمّة الإسلاميّة وبالخصوص شيعة أهل البيت عليهم السلام كما أشرت في روايات في هذا الشأن أنَّ هذه الأمّة هي التي تتمتَّع بالشهادة وتحقّق التجربة السعيدة للعالم كلّه.

القرآن الكريم يقول: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾، فهو لم يقل: الذين آمنوا من الأمم الأخرى من النصارى أو اليهود، أو قال: الأمم الأخرى من باريس أو لندن أو من واشنطن ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ (النور: ٥٥)، ﴿مِنْكُمْ﴾ هم الذين يستخلفون في الأرض ويكونون قائمين على هذه التجربة الإصلاحية العالمية.

الروايات أيضاً متَّفق عليها هكذا تقول عن سلمان الفارسي رحمه الله قال: دخلت على النبيّ صلى الله عليه وآله وإذا الحسين عليه السلام على فخذيه وهو يقبّل عينيه ويلثم فاه، وهو يقول: «أنت سيّد ابن سيّد، أنت إمام ابن إمام أبو الأئمّة، أنت حجّة ابن حجّة، أبو حجج تسعة من صلبك، تاسعهم قائمهم»[1].

قد يناقشون ويقولون: عيسى عليه السلام أيضاً معصوم، فهل يمكن أن يكون المصلح عيسى بن مريم عليه السلام؟

الجواب: أنَّ المرجع عندنا هو أدلّة الإثبات العلمية، يعني إذا كان الدليل هو الأحاديث والنصوص المقدَّسة عندنا، هذه النصوص تقول: إنَّ هذا المصلح ليس عيسى بن مريم عليه السلام وإنَّما عيسى بن مريم عليه السلام يصلّي خلفه.

نحن نتَّفق أنَّ عيسى بن مريم عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب، بل رفعه الله إليه، نتَّفق على أنَّه عليه السلام ينزل آخر المطاف لكن ليس هو المصلح العالمي الأكبر وإنَّما ذاك المصلح هو من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) الخصال: ٤٧٥/ ح ٣٨؛ ينابيع المودّة ٢: ٤٤/ باب ٥٤/ ح ٤٠.

الإمام أحمد ابن حنبل في مسنده أخرج عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ينزل عيسى بن مريم إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويرجع السلم ويتَّخذ السيوف مناجل وتذهب حمة كلّ ذات حمة وتنزل السماء رزقها وتخرج الأرض بركتها حتَّى يلعب الصبى بالثعبان فلا يضرّه ويراعى الغنم الذئب فلا يضرّها ويراعى الأسد البقر فلا يضرّها»[1].

مثل هذه الروايات في مصادرنا موجودة أيضاً، روايات كثيرة في هذا الشأن عن خروج عيسى بن مريم في آخر الزمان.

بعض الروايات عن أبي هريرة عن خروجه عليه السلام ونزوله من السماء يقول في ختام ما يقول الرسول صلى الله عليه وآله: «... وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنَّه لم يكن بيني وبينه نبيّ وأنَّه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجلاً مربوعاً إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصران كان رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل...»، يعني عيسى بن مريم عليه السلام.

ومن الجميل أن نجد في بعض الروايات تقول عن الإمام المنتظر عليه السلام في وصفه أنَّه إسرائيلي القامة بمعنى يميل إلى الطول[2]. ثمّ تتحدَّث عن الإمام المهدي عليه السلام وتقول:

---

(١) مسند أحمد ٢: ٤٨٢ و٤٨٣.

(٢) عن حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المهدي من ولدي، وجهه كالكوكب الدرّي، واللون لون عربي، والجسم جسم إسرائيلي، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، يرضى بخلافته أهل السماء والطير في الجوّ، ويملك عشرين سنة» دلائل الإمامة: ٤٤١/ ح (٤١٣/١٧).

والروايات الدالّة على أنَّ جسمه عليه السلام جسم إسرائيلي بأجمعها مروية عن طرق العامّة حتَّى التي وردت في كتب الشيعة منها. وربَّما يكون ذلك لاعتبار أنَّ أُمّ الإمام المنتظر عليه السلام هي روميّة، وكأنَّ المقصود بإسرائيلي أنَّه يشبه أبناء بلاد الروم.

«... فيدقّ الصليب ويقتل الخنزيز ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام فيهلك الله في زمانه الملل كلّها إلاَّ الإسلام ويهلك الله في زمان المسيح الدجّال وتقع الأمنة على الأرض حتَّى ترعى الأسود مع الإبل والنمار مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيّات لا تضرّهم فيمكث أربعين سنة ثمّ يتوفّى ويصلّى عليه المسلمون»[١]، إلى آخر هذه الروايات الكثيرة والجميلة.

مجموعة شبهات:

هذا الاستدلال واجه مجموعة أسئلة لكن هذه الأسئلة ليست علمية، بل هي أسئلة طفولية.

ما هي فائدة الإمام المهدي عليه السلام؟

مثلاً ابن تيمية يقول: هذا الإمام الغائب ما هي فائدته؟

تقولون: هو لطف من الله تعالى ولكن أيّ لطف في إمام غائب؟

ويستمرُّ في الجدل حتَّى يصل إلى شيء من الجرأة فيقول: إنَّ الحكّام الأمويين والعبّاسيين أفضل من إمامكم الغائب، على الأقلّ هؤلاء نفعوا الناس، إمامكم الغائب لم ينفع الناس بشيء.

لقد حاول علماؤنا في مقام الجواب أن يبرهنوا على وجود منافع للأمّة بهذا الإمام، استناداً إلى روايات كثيرة تقول: تنتفعون به كما تنتفعون بالشمس إذا غطَّتها السُحب[٢].

---

(١) مسند أحمد ٢: ٤٠٦.

(٢) قال سليمان: فقلت للصادق عليه السلام: فكيف ينتفع الناس بالحجّة الغائب المستور؟ قال: «كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب» أمالي الصدوق: ٢٥٣/ ح (١٥/٢٧٧).

وهناك شبهة أخرى مثل شبهة ابن تيمية مصدرها (أحمد الكاتب) هذا الشخص الذي انحرف وأصبح أخيراً يقول: إذا كان المهدي المنتظر موجوداً إذن لماذا لم يصحّح كتاب الكافي!؟ ولأشرح لكم هذه الشبهة:

يوجد كتاب هو مصدر من مصادر الفكر الشيعي اسمه: (الكافي) لمؤلّفه الشيخ الكليني، كتبه في زمن الغيبة الصغرى، هو كتاب يجمع روايات كثيرة فيها صحيحة وفيها غير صحيحة، يعني هو كتاب موسوعي وشأن الكتب الموسوعية أن تنقل مجموعة ما يوجد من تراث روائي، ولكن هذا الشخص _ أحمد الكاتب _ يقول: لو كان الإمام المنتظر عَلَيْهِ السَّلَامُ موجوداً فلماذا لم يصحّح كتاب الكافي!؟

في الحقيقة هذه الشبهات طفولية، يعني نحن نعتقد بلطف الله تبارك وتعالى ونعتقد بوجود المعصوم لكن ليس بمستوى أن نفرض رأينا على الله أو على الإمام المعصوم.

نحن نعتقد بعدل الله تعالى، لكن أمامنا مشاهد المرض والقتلى والغرق والفجائع والحوادث المأساوية نحن نراها لكن نحن لا نعترض على الله ونقول: الله ليس بعادل، لماذا يُقتل ربع مليون في حادثة الزلزال الذي حدث عام (٢٠٠٥م) في عمق المحيط، تلك الظاهرة التي يسمّونها بظاهرة (تسونامي) والتي لحدّ الآن ذهب ضحيّتها أكثر من ربع المليون وهؤلاء بينهم أطفال ونساء ومساكين نحن لا نعترض على الله لماذا؟

لأنّنا نعتقد بأصل العدالة الإلهية إجمالياً، أمَّا تفصيلها فنحن ليس لدينا قدرة استيعاب.

الله تبارك وتعالى عادل ولكن ليس بالضروري أن نعرف نحن تفاصيل هذه العدالة.

الشاهد نحن نعتقد بعدل الله وبحكمة الله ولكن ليس بالضرورة الشيء الذي نحن نريده يكون، ونحن ليس لدينا قدرة على إدراك كلّ المصالح الشمولية، العميقة في الوجود كلّه؟ ما يدرينا ما هي؟

ففي قصَّة حصلت مع موسى والخضر عليهما السلام حين كانوا في وسط البحر.

الرواية تقول: جاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال الخضر لموسى عليه السلام: ما علمي وعلمك من علم الله، إلاَّ مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر[1].

هذه هي معلومات البشر، فكيف نستطيع أن نكشف كلّ الحِكَم الإلهية في الوجود؟

نحن لا نستطيع أن نفرض على الله تعالى مواقف وكذلك لا نستطيع أن نفرض على المعصوم مواقف أن يصحّح كتاب الكافي أو يظهر لإنقاذ الناس وما شاكل ذلك.

نحن نعتقد إجمالاً بالعدالة واللطف الإلهي ونعتقد بفائدة وجود المعصوم الغائب بشكل إجمالي ولا نستطيع أن نفرض عليه موقفاً.

رسالة الإمام عليه السلام إلى الشيخ المفيد:

وهو من علماء الطائفة، توفّي في عام (٤١٠) للهجرة يعني في مطلع القرن الخامس الهجري، الإمام المنتظر عليه السلام يكتب له رسالة يقول فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أمَّا بعد: سلام عليك أيّها الوليّ المخلص في الدين، المخصوص فينا باليقين، فإنّا نحمد إليك الله الذي لا إله إلاَّ هو، ونسأله الصلاة على سيّدنا ومولانا ونبيّنا محمّد وآله الطاهرين،

(١) تفسير مجمع البيان ٦: ٣٦٥؛ صحيح البخاري ٥: ٢٣١.

ونعلمك _ أدام الله توفيقك لنصرة الحقّ، وأجزل مثوبتك على نطقك عنّا بالصدق _: إنَّه قد أذن لنا في تشريفك بالمكاتبة، وتكليفك ما تؤدّيه عنّا إلى موالينا قبلك، أعزَّهم الله بطاعته، وكفاهم المهمّ برعايته لهم وحراسته، فقف أيَّدك الله بعونه على أعدائه المارقين من دينه على ما أذكره، واعمل في تأديته إلى من تسكن إليه بما نرسمه إن شاء الله.

نحن وإن كنّا ناوين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين، حسب الذي أراناه الله تعالى لنا من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك ما دامت دولة الدنيا للفاسقين، فإنّا نحيط علماً بأنبائكم، ولا يعزب عنّا شيء من أخباركم، ومعرفتنا بالذلّ الذي أصابكم مذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً، ونبذوا العهد المأخوذ وراء ظهورهم كأنَّهم لا يعلمون.

إنّا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء واصطلمكم الأعداء فاتّقوا الله جلّ جلاله وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت عليكم يهلك فيها من حَمَّ أجَلُه ويُحمى عنها من أدرك أمله، وهي إمارة لأزوف حركتنا ومباثتكم بأمرنا ونهينا، والله متمّ نوره ولو كره المشركون...»[(١)].

والشيخ المفيد كان يوصّى تلميذه وهو الشيخ الطوسي أن يؤلّف كتاباً في الغيبة حتَّى تترسَّخ هذه الفكرة عند الناس فألَّف كتاب (الغَيبة).

والشيخ الصدوق قبل الشيخ الطوسي كان ألَّف كتاباً اسمه (كمال الدين وتمام النعمة) في الإمام المنتظر عليه السلام.

الشيخ الطوسي والشيخ الصدوق يستعرضان هذه الأدلّة على حركة الإمام المهدي عليه السلام ووجوده وأوّلها الدليل العقلي.

---

(١) الاحتجاج ٢: ٣٢٢ و٣٢٣.

والشهيد السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره أيضاً في كتابه (بحث حول المهدي) يستعرض استعراضاً سريعاً بعض النماذج من هذه الأدلّة.

نقاط التمايز:

هناك مجموعه نقاط تمايز بين حركة الإمام الحسين وحركة الإمام المهدي عليهما السلام.

١ ـ الحسين عليه السلام قُتِل شهيداً ولم ينتصر بالبعد العسكري لكن إمامنا المنتظر عليه السلام سوف ينتصر.

٢ ـ الإمام الحسين عليه السلام لم يحكم دولة ولكن الإمام المنتظر عليه السلام سوف يحكم دولة.

٣ ـ الإمام الحسين عليه السلام لم يُفتح له العالم بينما الإمام المنتظر عليه السلام يفتح له العالم حتَّى يدقّ أبواب الروم والصين وتفتح له الروم والصين وهذه أقصى بقاع الأرض يومئذٍ، يعني لا توجد يومئذٍ قارة أستراليا إنَّها لم تكن مكتشفة، قارة أمريكا كذلك غير مكتشفة كان أقصى الأرض يومئذٍ يقال له: الصين، وعلى هذا الأساس قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «أطلبوا العلم ولو بالصين، فإنَّ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم»[1]، ليس المقصود في الصين أنَّ أهل الصين كانوا علماء، عندما يقال: الصين يعني أقصى البقاع رغم أنَّها الآن تعتبر قريبةً منّا بالنسبة لقارة أستراليا وقارة أمريكا لأنَّ الصين جزء من قارة آسيا ونحن في قارة آسيا أيضاً، على كلّ حال العالم يُفتح للإمام المنتظر عليه السلام بينما العالم لم يفتح للإمام الحسين عليه السلام.

٤ ـ ديمومة دولة الإمام المنتظر عليه السلام حيث تدوم دولته وحركته إلى مئات السنين، وبعض الروايات تقول: إلى انقضاء الخلق.

---

(١) روضة الواعظين: ١١؛ بحار الأنوار ١: ١٨٠/ ح ٦٥.

الإمـام المنتظـر عليه السلام سـوف يمـوت إلاَّ أنَّ دولتـه تبقـى مسـتمرّة، مهدي بعد مهدي، وإمام بعد إمام، ورواياتنا هكذا تقول: إنَّ الذي يصلّي على الإمـام المنتظـر عليه السلام ويغسّله ويكفّنه هو الإمـام الحسـين عليه السلام[1]، باعتبار أنَّ الإمام الحسين عليه السلام وفق نظرية رجعة أهل البيت عليهم السلام للحياة أوّل من يرجع[2] وهو الذي يلي أمر القائم عليه السلام، لأنَّ في مفاهيمنا أنَّ المعصوم لا يتولّى أمر غسله وكفنه إلاَّ معصوم[3]، ولهذا إنَّ الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء لمَّا قُتِل دفنه الإمام السجّاد عليه السلام بعد أن بقيت جثّته ثلاثة أيّام بلا دفن.

وحينئذٍ يأتي هذا السؤال: إنَّ الإمام المنتظر عليه السلام وهو خاتم الأوصياء هل يوجد وراءه معصوم حتَّى يصلّي عليه ويغسّله؟

الجواب: نعم _ وفقاً لنظرية الرجعة _ في مسيرة العودة والرجعة حيث يعود الأئمّة الأطهار واحداً بعد واحد.

٥ _ الإمام المنتظر عليه السلام يستخدم الكثير من الأدوات الإعجازية، يعني المعجزة سوف تشترك مع الإمام المنتظر عليه السلام في حركته وليس فقط الأدوات الطبيعية كالأسلحة الطبيعية.

---

(١) راجع: مختصر بصائر الدرجات: ٢١١؛ بحار الأنوار ٥٣: ١١٥.

(٢) عن المعلّى بن الخنيس وزيد الشحام، عن أبي عبد الله عليه السلام، قالا: سمعناه يقول: «إنَّ أوّل من يكرُّ في الرجعة الحسين بن علي عليهما السلام، ويمكث في الأرض أربعين سنة، حتَّى يسقط حاجباه على عينيه» مختصر البصائر: ١٠٧/ ح ٤.

(٣) روى أبو بصير، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «كان فيما أوصى به إليَّ أبي علي بن الحسين عليهما السلام أن قال: يا بني إذا أنا متُّ فلا يلي غسلي غيرك، فإنَّ الإمام لا يغسّله إلاَّ إمام مثله...» الخرائج والجرائح ١: ٢٦٤/ باب ٥/ ح ٨.

نحن ذكرنا سابقاً أنَّ حركة الإمام المنتظر عليه السلام تعتمد على الأدوات البشرية ولكن إلى جانبه هناك الإسناد والإعجاز الإلهي.

الإمام المنتظر عليه السلام في حركته يستخدم آليات أخرى غير الآليات المتعارفة دبّابات وطائرات وصواريخ وما شاكل ذلك، هذه كلّها يستخدمها لكنَّه يستخدم سلاح الرعب من الله تعالى في قلوب الأعداء، وكذلك الملائكة.

عندنا بعض الروايات تقول: إنَّ الإمام المنتظر عليه السلام يدخل العراق على سبع قباب من نور[1]، بعض الباحثين يرى أنَّ هذه السبع قباب من نور هي سبع طائرات حيث يومئذٍ لا يوجد شيء اسمه طائرة، قبل (١٤٠٠) سنة الرواية تقول: يدخل العراق على سبع قباب من نور هو في أحداها يعني (رتل عسكري جوّي) وغير معروف أنَّ الإمام في أيّ واحدة من هذه الطائرات بناءً على هذا التفسير أنَّ سبع قباب من نور يعني طائرات، الفكرة أنَّ الإمام المنتظر عليه السلام يستخدم أدوات إعجازية لكن الأصل هي الأدوات البشرية الطبيعية لأنَّ هذه سُنّةُ الله تعالى.

هذه نقاط تمايز بين حركة الحسين والمهدي عليهما السلام.

الاشتراك في فلسفة التحرّك:

لكن بقي محور مهمّ من محاور الاشتراك وهو الاشتراك في فلسفة التحرّك، يعني ماذا؟

---

(١) عن جابر، قال: قال أبو جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، قال: «ينزل في سبع قباب من نور لا يعلم في أيّها هو، حين ينزل في ظهر الكوفة فهذا حين ينزل» تفسير العياشي ١: ١٠٣/ ح ٣٠١.

يعني أنَّ حركة الإمام الحسين عليه السلام كانت منطلقة من الوظيفة الشرعية، وحركة الإمام المهدي عليه السلام أيضاً منطلقة من الوظيفة الشرعية.

التكليف هو الذي يشخّص للإمام المعصوم موقفه وليس قضيّة ذات أبعاد شخصية، التكليف الذي حتَّم وفرض على الحسين عليه السلام أن يهاجر ويقود الثورة هو نفسه التكليف الذي سينطلق منه الإمام المنتظر عليه السلام لأنَّه مكلَّف، هو عبد مطيع لله تعالى، إذا أذن الله تعالى له بالتحرّك تحرَّك.

الإذن من الله تعالى مرتبط بالواقع البشري وبقانون يعتني ويهتمّ بالمقاسات الإسلاميّة، فهي قانون قرآني، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، يعني نحن نفترض أنَّ هناك مجتمعاً سعيداً سيكون في آخر الزمان بحيث أنَّ ذلك المجتمع السعيد تمشي المرأة من العراق إلى الشام لا تطأ قدمها إلاَّ على زرع[1]، يعني ثروة زراعية واسعة حتَّى يصطلح الذئب مع الشاة هذا هو المجتمع السعيد، لنفترض أنَّ هذه الروايات كما أشرنا لذلك ربَّما يكون المقصود منها الإشارة إلى نموذج العدل الأقصى وليس بالضرورة أنَّ الذئب لا يأكل شاة أو القطّة لا تأكل الفأرة.

قد يقول قائل: هذا خيال، ما هي الفائدة أنَّ القطّة لا تأكل الفأرة؟

يعني هل هذه رحمة؟ الرحمة تعني أنَّ القانون الحيواني يجب أن يكون حاكماً والقطّة تأكل الفأرة هذه هي الرحمة.

وهذا ما نميل إليه، لكن الروايات تريد أن تعطينا أمثلة على حالة الوئام العالي، السماء تمطر، الأرض تنبت، الحيوانات تكثر، هذه رحمة واسعة.

الشاهد في الأمر: إنَّ الإمام المنتظر عليه السلام ينطلق من الوظيفة

(١) راجع: الخصال: ٦٢٦/ الحديث الأربعمائة.

الشرعية والوظيفة الشرعية تعتمد على السنن الإلهية، وإحدى تلك السنن الإلهية في عملية التغيير هو قانون ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، يعني أيّها الناس كونوا أناساً صالحين فإنَّ الله يغيّر لكم لكن إذا لم تصبحوا أناساً صالحين يعني لا تمهّدون الأرض فكيف يخرج صاحب الزمان عليه السلام ويغيّر الواقع والواقع لا يستحقّ التغيير.

إذن وفق المقاسات القرآنية فإنَّ حركة صاحب الزمان عليه السلام تعتمد على شروط موضوعية ونتحدَّث عنها بشكل إجمالي، ولكن في البداية نريد أن نؤكّد على أنَّ أصل الفكرة هي أنَّ الحركة تنطلق من وظيفة شرعية.

مواجهة الانحراف الداخلي:

أوّل مواجهة يخوضها الإمام عليه السلام هي المواجهة مع الانحراف الداخلي، وهذه أيضاً نقطة اشتراك بين الحسين عليه السلام والمهدي عليه السلام.

قبل أن يدخل الإمام المهدي عليه السلام في قتال مع الروم ومع الصين واليهود والنصارى فإنَّ أوّل قتال يكون مع اتّجاهات منحرفة بقيادة السفياني، يعني هناك تيّارات سياسية فكرية تحت لواء السفياني الأموي، وربَّما يكون المقصود ليس حالة نَسَبية بمعنى الانتساب إلى أبي سفيان وإنَّما حالة فكرية بمعنى نفس الاتّجاهات الانحرافية الأمويّة التي كانت في بدايات الإسلام كما أنَّ حركة الحسين عليه السلام كانت في مواجهة التيّار الأموي المنحرف في داخل الوسط الإسلامي، وحركة الإمام المهدي عليه السلام أيضاً مع تيّار منحرف، الروايات تسمّيها: راية السفياني، يعني هو نفس الامتداد لخطّ النفاق الذي تمثّله الحالة الأموية.

السفياني أيضاً حركته باسم الإسلام، ليست حركته بفلسفات لا

دينية، بل بفلسفات دينية أيضاً هكذا تقول بعض الروايات في حركة الإمام المنتظر عليه السلام.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «... ثمّ يأتي الكوفة فيطيل بها المكث ما شاء الله أن يمكث حتَّى يظهر عليها. ثمّ يسير حتَّى يأتي العذراء هو ومن معه، وقد لحق به ناس كثير، والسفياني يومئذٍ بوادي الرملة. حتَّى إذا التقوا يخرج أناس كانوا مع السفياني من شيعة آل محمّد، ويخرج ناس كانوا مع آل محمّد إلى السفياني، فهم من شيعته حتَّى يلحقوا بهم، ويخرج كلّ ناس إلى رايتهم، وهو يوم الإبدال. قال أمير المؤمنين عليه السلام: ويقتل يومئذٍ السفياني ومن معه حتَّى لا يترك منهم مخبر، والخائب يومئذٍ من خاب من غنيمة كلب، ثمّ يقبل إلى الكوفة فيكون منزله بها...»[1].

هذه هي التيّارات المنحرفة، لا يتصوَّر بعض الشباب إنَّ الانحراف دائماً يكون لابساً ثوب الكفر وبشكل علني، فالانحراف لا يأتيك بشكل علني، بل يأتيك بشكل خفي، فيجب الحذر منه دائماً.

اليهود مركز العداء:

ومن العجيب في الروايات التي تستحقّ أن نقف عندها متأمّلين جدَّاً، أنَّ مركز العداء لحركة الإمام المهدي عليه السلام هم اليهود وليس النصارى.

الآن مركز العداء للعالم الإسلامي هم اليهود، صحيح أنَّ النصارى واقفون مع اليهود ضدّنا، لكن مركز الحركة العدائية ضدّ المسلمين هم اليهود سواء اليهود الموجودون بإسرائيل أو اليهود الموجودون بأمريكا

(١) تفسير العياشي ١: ٦٦/ ح ١١٧.

أو اليهود المتنفّذون في الأمم المتّحدة أو في مجلس الأمن أو في أماكن أخرى، هذا النفوذ للأخطبوط اليهودي هو مصدر العداء للمسلمين.

ولهذا فإنَّ رواياتنا عندما تتحدَّث عن الروم تتحدَّث برحمة، وعندما تتحدَّث عن اليهود تتحدَّث بقسوة.

التحالف الإسلامي النصراني:

الرواية تقول: إنَّ عيسى عليه السلام ينزل ويصلّي خلف الإمام المهدي عليه السلام في المسجد الأقصى، والناس في الغرب وأوربا يرون أنَّ هذا النبيّ الذي يعتبرون أنفسهم أتباعه يصلّي خلف إمامنا، فيحدث حالة من الاصطفاف والتحالف بين إمام الأمّة الإسلاميّة وإمام الأمّة النصرانية.

ولهذا فالروايات تقول: ستحدث هدنة بين المسلمين على يد الإمام المهدي عليه السلام وبين الروم بينما سيكون هناك سحقاً نهائياً لليهود، حتَّى أنَّ الروايات تقول: «حتَّى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله»[1]، يعني ملاحقة نهائية لليهود لا يبقى منهم أحد، مثل هذه الملاحقة غير موجودة بين المسلمين وبين النصارى.

هذه الظاهرة أنَّ اليهود هم مركز العداء تلاحظونها في القرآن حينما يتحدَّث عن النصارى وحينما يتحدَّث عن اليهود.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ (المائدة: ٨٢)، ولم يقل النصارى، بينما يقول عن النصارى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى﴾ (المائدة: ٨٢)، البعض من هؤلاء النصارى إذا اكتشفوا الحقيقة سوف يقتربون منها، فنحن لدينا أمل كبير على الشعوب

(١) صحيح البخاري ٣: ٢٣٢.

الأوربية والغربية أنَّها سوف تهتدي، والآن فإنَّ إرهاصات الاهتداء بالأفق موجودة، هم يبحثون عن الإصلاح وعن المنقذ لأنَّهم في حيرة.

قصَّة في ألمانيا:

حدث لي في سفرة من الأسفار في شهر محرَّم الحرام إلى ألمانيا حيث كانت هناك بحمد الله تجمّعات عراقية مؤمنة، كنّا نذهب ونزورهم أيّام شهر رمضان المبارك ومحرَّم الحرام، وهناك في ألمانيا مجموعات كبيرة من الشباب الألماني الضائع التائه في الشوارع، يقدّر وجودهم بخمسة ملايين يسمّونهم البائسين وهم (الروك) و(الهيبز) هؤلاء رغم وجود الوفرة والأموال لكنَّهم يؤثرون أن يبيتوا في الشوارع والميتروات ومحطّات القطار وما شاكل ذلك.

قلت لصاحبي: تعال خذني لأرى هؤلاء كيف هم؟ شباب بمعنى الكلمة، شباب مرفَّه مدلَّل جامعي لكنَّهم حائرون في الحدائق والشوارع يعيشون في فلسفة عجيبة، فلسفة الابتعاد عن النظافة، الابتعاد عن الراحة، لا يبيتون في بيت، أخَذَني لهم سألتهم وهم في حديقة من الحدائق عن وضع البؤس عندهم ما سببه؟

يومئذٍ وقبل أن يسقط جدار برلين وقبل أن تتَّحد ألمانيا الغربية والشرقية، قلت لهؤلاء: ما هو سبب البؤس الذي عندكم؟

قالوا: سبب البؤس أمريكا حيث كانت قوّات التحالف مسيطرة على ألمانيا ومعسكراتها كما هو اليوم في العراق حيث مشهد الأرتال العسكرية في بغداد، يومئذٍ في ألمانيا أرتال عسكرية تجوب الشوارع وطيران أمريكي يسيطر على الجوّ.

قال: سبب البؤس عندنا هي أمريكا التي لا تسمح لنا بالانطلاق.

قلت له: جيّد يوجد شخص في العالم الشرقي اسمه الخميني، وكان هذا الحديث قبل وفاة الإمام الخميني قدس سره. يومئذٍ الخميني وحركته والتيّار الإسلامي العالمي له أصداء في العالم، هذا الشخص يريد إنقاذكم ماذا تقول أنت؟

قال: أمَّا نحن فيائسون لكن فليجرّب حظّه لعلَّه يستطيع أن ينقذنا.

هذا التفكير موجود في الشارع العامّ المليوني في أوربا، وليس في النجف أو في كربلاء أو في العراق أو في إيران هذا واقع العالم الذي نعيشه، ولهذا فإنَّ العالم الاستكباري فكَّر بضرب الإسلام بالإسلام، إنَّ هذا الإسلام، هذا المصلح العالمي الذي ظهر في مطلع هذا القرن بانتصار الشيعة وتأسيسهم دولة كبرى، إنَّ هذا الإسلام لا يمكن مواجهته بحرب صدام ضدّ إيران التي دامت ثمان سنوات، ولا بحصار اقتصادي ولا إزعاجات داخلية وحركة منافقين، وإنَّما هذا الإسلام الذي أصبح يمتدّ في كلّ العالم كأيدلوجية حضارية إصلاحية جديدة، إنَّ أفضل طريقة لمواجهته هي مواجهة الإسلام بالإسلام، فصار هناك إسلام يسمّونه إسلاماً إرهابياً أصولياً وإسلام يسمّونه إسلاماً معتدلاً.

بالفعل نحن أيضاً نعتقد أنَّه يوجد أناس إرهابيون والإسلام بريء منهم، لكن الخدعة ليست هذه، الخدعة والخطّة هي أن يُصنَّف الإسلام على أساس أنَّه فكر إرهابي ولا بدَّ أن يكون هنا إسلام جديد هذا الإسلام الجديد هو الذي يطرحه الغرب وتطرحه أمريكا.

الفكرة التي نريد تأكيدها هي أنَّ مركز العداء مع حركة الإصلاح العالمي هو اليهود، ونحن نتوقَّع أنَّ الدول الكبرى ستكتشف أنَّ هؤلاء

اليهـود يريـدون جـرّ العـالم إلـى حـرب كبـرى بحيـث لا تـأمن منهـا حتَّـى الشعوب الأوربيـة والغربيـة وغيـر ممكـن أن تبقـى الـدول الكبـرى أسـيرة بيـد الأخطبـوط اليهـودي، هـذا الأمـر تنبّؤاتنـا تقـول: إنَّهـم سيكتشـفونه ويكـون هناك تحالف إسلامي نصراني ضدّ اليهود، وتطهّر الأرض منهم.

المواجهة مع الدجّال:

تؤكّـد روايـات الظهـور المتَّفـق عليهـا أنَّـه سـتظهر هنـاك حركـة أو شخصـيّة قبـل الإمـام المهـدي عليه السلام اسـمّها الـدجّال، فـي رواياتنـا اصـطلاح الأعـور الـدجال واصـطلاح المسـيح الـدجّال، المسـيح بمعنـى ممسـوح، عيسـى المسـيح، يعنـي أنَّ الله مسـح عليـه بالرحمـة وهـذا الأعـور الـدجّال مسح الله على إحدى عينيه فهو أعور.

رواياتنا بشكل عامّ سواءً الواردة عندنا أو الواردة عند أبناء العامّة ليست بعيدة عن فكرة أنَّ الدجّال ليس هو شخص مثل السفياني أو اليماني إنَّما الدجّال عبارة عن انحراف خطير سيحدث في آخر الزمان، هو حالة الدجل وحالة الكذب وتحريف الحقيقة والواقع بشكل لا نظير له، ولهذا فإنَّ بعض المفكّرين هكذا يفسّرون حركة الدجّال أنَّه ليس شخصاً وإنَّما عبارة عن الحضارة الغربية، هكذا يفسّرها بعض الباحثين: إنَّ الدجّال يعني هذا الكذب الذي نراه اليوم في العالم الحديث حيث الإعلام العالمي اليوم غير قائم على الحقيقة وإنَّما قائم على الدجل، هناك شعوب تتحرَّك بالكامل، تتحرَّك كلّها على دَجَل وَوهم حيث لا توجد الحقيقة، اليوم العالم الاستكباري هكذا يفتعل الأخبار ويفرضها على الشعوب ويحرّكون تلك الشعوب وهذا هو الدجل، الآن بعض الفضائيات هي (دجّال) بمعنى الكلمة.

لعلَّ ممَّا يؤيّد هذه النظرية أنَّ بعض الروايات تقول: يظهر ستّون دجّالاً، دجّالون كذّابون كلّ منهم يدَّعي النبوّة[١]، هل يقول حقيقةً: أنا نبيّ أو أنَّه يدَّعي أنَّه هو المصلح وهو المنقذ وهو المخلّص وهذا ما نلاحظه الآن، فالحضارة الغربية تدّعي أنَّها هي المنقذ بعناوين متعدّدة.

وعلى كلّ حال فإنَّ أحد المعارك التي يخوضها الإمام المنتظر عليه السلام كحركة سياسية ثقافية هي المعركة مع الانحراف تحت عنوان (الدجّال).

هكذا تقول الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«ألا إنَّ الدجّال صائد بن الصيد، فالشقي من صدَّقه، والسعيد من كذَّبه، يخرج من بلدة يقال لها: أصفهان، من قرية تعرف باليهودية، عينه اليمنى ممسوحة، والعين الأخرى في جبهته تضيء كأنَّها كوكب الصبح، فيها علقة كأنَّها ممزوجة بالدم، بين عينيه مكتوب كافر، يقرأه كلّ كاتب وأُمّي، يخوض البحار وتسير معه الشمس، بين يديه جبل من دخان، وخلفه جبل أبيض يري الناس أنَّه طعام، يخرج حين يخرج في قحط شديد، تحته حمار أقمر، خطوة حماره ميل، تطوى له الأرض منهلاً منهلاً، لا يمرُّ بماء إلاَّ غار إلى يوم القيامة، ينادي بأعلى صوته يسمعه ما بين الخافقين من الجنّ والإنس والشياطين، يقول: إليَّ أوليائي أنا الذي خَلَقَ فسوى وقدَّر فهدى، أنا ربكم الأعلى...»[٢].

رواياتنا بشكل عامّ ليست بعيدة عن أنَّ الدجّال ليس شخصاً وإنَّما هو ظاهرة الدجل والكذب والانحراف العميق عن الأصالة الإسلاميّة.

---

(١) عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقوم الساعة حتَّى يخرج المهدي من ولدي، ولا يخرج المهدي حتَّى يخرج ستّون كذّاباً كلّهم يقول: أنا نبيّ» الإرشاد ٢: ٣٧١.

(٢) كمال الدين: ٥٢٦ و٥٢٧/ باب ٤٧/ ح ١.

ما هي الوظيفة الشرعية؟

نرجع إلى ما ذكرناه أنَّ الإمام المنتظر عليه السلام ينطلق من الوظيفة الشرعية مثل الإمام الحسين عليه السلام انطلق من الوظيفة الشرعية، هو مكلَّف، هو عبد لله تبارك وتعالى.

الوظيفة الشرعية تتلخَّص في إقامة الإصلاح والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

الإمام المنتظر عليه السلام ينطلق من هذا المنطلق لكن الإمام المعصوم هو الذي يشخّص التكليف، ولهذا فإنَّ بعض رواياتنا تقول: «هلكت المحاضير»[(١)]، أي المستعجلون، يعني هؤلاء الذين يريدون أن يشخّصوا التكليف للإمام المنتظر عليه السلام، هو يظهر ليس حسب ما أنت تريد، ليس أنت الذي تُشخّص التكليف للمعصوم، المعصوم هو يشخّص التكليف.

لماذا الإمام زين العابدين عليه السلام لم يواصل الثورة؟

لماذا الإمام الباقر عليه السلام لم يثر؟

ولماذا الإمام الصادق عليه السلام لم يثر؟

كان في ذلك الزمان بعض الناس يشكلون على الأئمّة المعصومين أنَّهم أخلدوا إلى الدعة والراحة، كما في زماننا يشكلون على المراجع أنَّ هؤلاء مراجع قاعدون ساكتون وما شاكل ذلك، عجباً تكليف المرجع أنا أحدّده أو هو الذي يحدّده؟ وفق فهمه واجتهاده الفقهي؟

---

(١) عن أبي المرهف، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «هلكت المحاضير»، قال: قلت: وما المحاضير؟ قال: «المستعجلون، ونجا المقرّبون، وثبت الحصن على أوتادها...» الغيبة للنعماني: ٢٠٣/ باب ١١/ ح ٥.

المعصـوم هـو الـذي يشـخّص التكليـف وبانتظـار مـا نسـمّيه الشـروط الموضوعية.

لا بـدَّ أن تتـوفَّر الشـروط فـي الواقـع الخـارجي التـي تسـاعد علـى ظهور الإمام المنتظر عليه السلام وتشجّع على هذا التحرّك.

الإمام الحسين عليه السلام أيضاً كذلك.

علامات الظهور وشروط الظهور:

هنـا سـوف نصـل لمحـور جديـد فـي البحـث وهـو أنَّ هنـاك علامـات وهناك شروط.

التراث التاريخي يذكر لنا مجموعة علامات، وبعض الناس يبحث عن هذه العلامات، بينما يوجد فرق بين ما هي العلامات وبين ما هي الشروط.

ونـذكر هنـا بعـض العلامـات التاريخيـة التـي جـاءت بهـا الروايـات صـحيحة كانـت أو غيـر صـحيحة، دقيقـة أو غيـر دقيقـة، لكـن فيهـا فـرق بـين ما هو شرط وبين ما هو علامات.

ومن هذه العلامات:

١ ـ الخسف:

من جملة علامات ظهور المنتظر عليه السلام، خسف في المشرق، وخسف في المغرب يعني زلزال عظيم في غرب الأرض وزلزال عظيم في شرق الأرض يمكن أن ينطبق هذا على الزلازل الكثيرة التي أصابت الشرق والغرب، و يمكن أنَّه لم يتحقَّق بعد وربَّما سوف تشهد البشرية زلزالاً عملاقاً لا مثيل له في الغرب والشرق، هذه واحدة من العلامات، لكن هذا ليس شرطاً لخروج الإمام المهدي عليه السلام بمعنى أنَّه لا يوجد بينه وبين ظهور الإمام علاقة اجتماعية وسياسية وإنَّما هي تقارنات تاريخية مجرَّدة.

٢ ـ الموت الأحمر والأبيض:

من جملة العلامات موت أحمر وموت أبيض، ويمكن أن يكون الموت الأحمر إشارة إلى حروب واسعة ودموية، والموت الأبيض إشارة إلى أمراض فتّاكة تصيب البشرية.

الرواية تقول: «حتَّى يذهب ثلثا الناس»[1]، يعني إذا كان تعداد البشرية ستّ مليارات مثلاً فإنَّه يموت أربع مليارات عبر موت أحمر وموت أبيض، ومن حقّ الباحثين أن يفكّروا هل هي الحرب العالمية الأولى أم الحرب العالمية الثانية أم حرب عالمية ثالثة؟

هذه كلّها في الحقيقة لا تسمن ولا تغني من جوع، هذه العلامات يمكن أن تطبّق على الحرب العالمية الأولى أو الثانية أو الثالثة، ويمكن أن ننتظر تطبيقات أخرى لها، المهمّ لنا أن نوفّر الشروط لحركة الإمام المنتظر عليه السلام.

الموت الأبيض يمكن أن يُفسَّر بمرض الطاعون كما تفسّره بعض الروايات[2]، ويمكن أن يُفسَّر بآراء أخرى كمرض الإيدز الذي فتك بالعالم، الآن يوجد في العالم عشرون مليون مصاباً بمرض الإيدز ربَّما هذا هو الذي يُفسَّر بالموت الأبيض، لو أنَّ هذا الوباء انتقل إلى الشعوب بانتقال سريع نتيجة الإباحية في الحضارة الحديثة، فإنَّه بدل عشرين

---

(١) عن علي بن محمّد الأزدي، عن أبيه، عن جدّ، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «بين يدي القائم موت أحمر، وموت أبيض، وجراد في حينه، وجراد في غير حينه، أحمر كالدم، فأمَّا الموت الأحمر فبالسيف، وأمَّا الموت الأبيض فالطاعون» الغيبة للنعماني: ٢٨٦/ باب ١٤/ ح ٦١.

(٢) عن محمّد بن مسلم وأبي بصير قالا: سمعنا أبا عبد الله عليه السلام يقول: «لا يكون هذا الأمر حتَّى يذهب ثلثا الناس»، فقلنا: إذا ذهب ثلثا الناس فمن يبقى؟ فقال: «أمَا ترضون أن تكونوا في الثلث الباقي؟» الغيبة للطوسي: ٣٣٩/ ح ٢٨٦.

مليوناً سيصاب ملي
اران بالإيدز وينتشر سريعاً وهو ما يزال غير قابل للسيطرة عليه بسهولة.

٣ _ سقوط العراق:

سقوط العراق بيد الأتراك هذا من العلامات، فهل المقصود سيطرة الدولة العثمانية على العراق؟ هذا ممكن وممكن أن يكون إشارة إلى سقوط آخر للعراق بيد الأتراك.

الروايات تقول: إنَّ الأتراك يسيطرون على العراق[1]، وبالفعل هم سيطروا مئات السنين على العراق حين كان تحت الحكومة العثمانية التركية وليست الإسلاميّة، هل المقصود هذا؟

الروايات تقول: إنَّ هذه الأمور لا بدَّ أن تحدث، وإذا لم تحدث فلا تستعجلوا في ظهور صاحب العصر والزمان.

٤ _ فتح فلسطين[2]:

يومئذٍ فلسطين لم تكن محرّرة، كانت بيد النصارى، فلسطين تحرَّرت في زمن عمر بن الخطّاب، فهل المقصود بفتح فلسطين الذي هو من علامات ظهور الإمام المنتظر عليه السلام هو ذاك الفتح أو المقصود فتح ثان لأنَّ فلسطين الآن أيضاً محتلّة فسوف ننتظر فتحاً ثانياً؟

٥ _ انكشاف الفرات:

من جملة العلامات «يحسر الفرات عن جبل من ذهب»[3]، إذا أردنا أن

---

(١) راجع: الغيبة للطوسي: ٤٦٣/ ح ٤٧٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يحسر الفرات عن جبل من ذهب فيقتتل الناس عليه فيقتل من كلّ عشرة تسعة» مسند أحمد ٢: ٢٦١.

نتعامل مع هذا النصّ تعاملاً حرفياً يعني أنَّ جبلاً يخرج من عمق الفرات وهذا الأمر ليس من السهل تصوّره، لأنَّ مساحة عرض النهر لا تتَّسع لأن يبرز منها جبل فالجبل امتداده العرضي أكبر من ذلك، ما هي قيمة هذا العرض عرض (٢٠٠) أو (٣٠٠) متراً حتَّى ينكشف الفرات عن جبل من ذهب.

ولهذا قد يرى بعض الباحثين أنَّه يمكن أن يكون المقصود هو اكتشاف منابع البترول في العراق، هذا هو الذهب الأسود، انكشاف الفرات يعني نهاية الفرات، لمَّا التقى الفرات ودجلة وصار خليجاً ظهرت بحيرات النفط في تلك المنطقة من جنوب العراق وهذا هو الذهب الأسود.

الروايات تعبّر عنه جبلاً من ذهب، يمكن أن يكون هذا إشارة لذلك، والله أعلم بما هو المقصود منها.

٦ ـ طلوع الشمس من المغرب:

من جملة هذه العلامات طلوع الشمس من المغرب[١].

ما هو المقصود من ذلك؟

هل المقصود طلوع الشمس من المغرب يعني أنَّ هناك تحوّلاً في عالم سير الأفلاك؟

أو المقصود بطلوع الشمس من المغرب الإشارة إلى أنَّ الدنيا تكون في غاية الاضطراب السياسي كما نحن نعبّر في

---

(١) عن أبي حمزة الثمالي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنَّ أبا جعفر عليه السلام كان يقول: «خروج السفياني من المحتوم، والنداء من المحتوم، وطلوع الشمس من المغرب من المحتوم»، وأشياء كان يقولها من المحتوم. فقال أبو عبد الله عليه السلام: «واختلاف بني فلان من المحتوم، وقتل النفس الزكيّة من المحتوم، وخروج القائم من المحتوم...» الغيبة للطوسي: ٤٣٥/ ح ٤٢٥.

زماننا بنحو الكناية فنقول: (أنت ترى نجوم الظهر)، وليس المقصود نجوم الظهر يعني أنَّ النجوم تخرج ظهراً، وإنَّما نقصد حدوث تحوّلات وإزعاجات وشدائد بحيث تجعل الظهر عندك ليلاً، وهكذا حينما نقول: (تدور الدنيا) أو (تنقلب السماء) أو (يدور الفلك) فإنَّ المقصود بكلّ ذلك الكناية عن تحوّلات كبرى مهمّة في عالم دنيا الإنسان وليس عالم الأفلاك.

ربَّما يكون هذا هو المقصود بطلوع الشمس من مغربها.

٧ ـ زوال الجبال:

رواية تقول: «لا تقوم الساعة حتَّى تزول الجبال»(١)، وليس المقصود أنَّ الجبال تزول بالمعنى الحقيقي بحيث لا تبقى جبال على الكرة الأرضية، بل المقصود أن تكون درجة المعاناة بمستوى أنَّ الجبال تنهار، كلّ هذا ممكن في تفسير مثل هذه النصوص.

٨ ـ تقارب الزمان:

تقارب الزمان(٢) هو أحد العلامات التي تذكرها الروايات وهو كما تلاحظون في عصرنا هذا من سرعة الأيّام والشهور والسنين.

هذه الروايات تعبّر عن هذا الواقع بعبارة تقارب الزمان.

---

(١) عن سمرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تقوم الساعة حتَّى تزول الجبال عن أماكنها وترون الأمور العظام التي لم تكونوا ترونها» المعجم الكبير ٧: ٢٠٧.

(٢) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا اقترب الساعة تقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة، والجمعة كاحتراق السعفة في النار» كنز العمّال ١٤: ٢٢٧/ ح ٣٨٥٠٣.

٩ ـ ظهور يأجوج و مأجوج:

أئمّة السُنّة يتحدَّثون عن هذه العلامة، وهي موجودة في مصادرنا أيضاً[١].

وهذه كلّها تبقى في إطار العلامات.

نحن في منهجية التعامل مع قضيّة الإمام المنتظر عليه السلام نرفض منهجية البحث عن العلامات، والتي يتحدَّث بعضها عن عقد جسر ممَّا يلي محلّة الكرخ ببغداد[٢]، فسواء عقد جسر أو أكثر أو لم يعقد أيّ جسر، فما هي علاقة ذلك بخروج صاحب العصر عليه السلام؟

وهكذا اتّصال النجف بكربلاء مثلاً، هي علامات ربَّما تكون صحيحة بالفعل، النجف والحيرة تتَّصل[٣]، والعالم كلّه سوف يتَّصل بعضه مع البعض الآخر.

العمل على توفير الشروط:

المنهجية الصحيحة أن نبحث عن شروط الظهور وما هي مسؤوليتنا تجاه حركة الإمام المنتظر عليه السلام؟

المسؤولية هي الانتظار والثبات والعمل بالتكليف الشرعي، ولهذا فإنَّ علماءنا ينطلقون من التكليف الشرعي ويعملون حسب التكليف الشرعي.

---

(١) عن حذيفة بن أسيد، قال: أطلع علينا رسول الله صلى الله عليه وآله من غرفة له ونحن نتذاكر الساعة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تقوم الساعة، حتَّى تكون عشر آيات: الدجّال، الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وثلاث خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر، تنزل معهم إذا نزلوا وتقيل معهم إذا قالوا» الخصال: ٤٣١ و٤٣٢/ ح ١٣؛ مسند أحمد ٤: ٦.

(٢) راجع: الإرشاد ٢: ٣٦٩.

(٣) راجع: الغيبة للطوسي: ٤٦٨/ ح ٤٨٤.

مسؤوليتنا مع الإمام المنتظر عليه السلام هي الثبات والانتظار والدعاء له بالفرج والعمل بالتكليف الشرعي، وأنا أختم هذه الأفكار بذكر مجموعة من الروايات النافعة.

الرواية تقول عن الإمام الباقر عليه السلام: «يأتي على الناس زمان يغيب عنهم إمامهم، فيا طوبى للثابتين على أمرنا في ذلك الزمان، إنَّ أدنى ما يكون لهم من الثواب أن يناديهم الباري جلّ جلاله: عبادي وإمائي! آمنتم بسرّي وصدَّقتم بغيبي، فابشروا بحسن الثواب منّي، فأنتم عبادي وإمائي حقّاً منكم أتقبَّل، وعنكم أعفو، ولكم أغفر، وبكم أسقي عبادي الغيث وأدفع عنهم البلاء ولولاكم لأنزلت عليهم عذابي...»[1].

أمَّا ثواب الانتظار فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «من مات منتظراً لهذا الأمر كان كمن كان مع القائم في فسطاطه...»[2].

منتظراً يعني صبوراً في المواقف أمام الهزّات السياسية والفكرية، هذا المنتظر في آخر الزمان كأنَّه مشارك مع الإمام المنتظر عليه السلام في خيمته وفي جيشه وفي دولته حتَّى إذا كان ذلك قبل الإمام.

نحن الآن وفي مختلف الأزمنة نواجه تحدّيات سياسية وتحدّيات فكرية تحتاج إلى ثبات واستقامة.

فائدة الإمام في الغيبة:

هناك سؤال أنَّه ما هي فائدة الإمام المنتظر عليه السلام؟

يمكن الإشارة إلى مناقشة فلسفية مطروحة في زماننا، تأثَّر بها

---

(١) كمال الدين: ٣٣٠/ باب ٣٢/ ح ١٥.

(٢) كمال الدين: ٣٣٨/ باب ٣٣/ ح ١١.

بعض المسلمين وهي الفلسفة أو النظرية البرجماتية النفعية وهي التعامل مع القضايا والحقائق على أساس مقدار ما نستفيد منها.

كنت أقرأ لبعض الكتّاب المسلمين المتغرّبين يقول: نحن لا نقبل من الحقائق إلاّ بمقدار ما ينفعنا حالياً وفعلياً، الصلاة إذا كنت أستفيد منها فعلاً فسوف أقبلها أمَّا أن تقول لي: سوف تستفيد منها يوم القيامة فهذا لا أقبله، الصوم إذا ثبت بالتجربة أنَّه يفيد فسوف أصوم، أمَّا الصوم الذي لا أستفيد منه سوى العطش وسوء الأخلاق فهذا الصوم لا أريده.

إنَّ مجموعة كتّاب متغرّبين يدعون إلى الحداثة الإسلاميّة ويتعاملون مع الإسلام على هذا الشكل، الإيمان بالله إذا كان يحقّق لي نفعاً، فسوف أؤمن بالله أمَّا إذا كان لا يحقّق لي نفعاً فإنَّه ليس ضرورياً، المسيحيون طرحوا هذه النظرية يعني هذه هي نظريات الفكر الغربي ولكن مع الأسف تمتدُّ لنا بلغة الحداثة والتجديد، يقولون: يجب أن نتعامل مع الحقائق الدينية على أساس ما تحقّق من منفعة فعلية ندركها ونرفض حالة التعبّد، الصلاة إذا جعلتك هادئاً نفسياً واستفدت منها فصلِّ وإذا لم تفدك فلا تصلِّ.

ما معنى «الصوم جُنَّة من النار»[(١)]؟ أنا أريد صوماً ينفعني في الدنيا ولا أريده أن يفيدني في الآخرة.

هذا هو ما يسمّى بـ(الحداثة المعاصرة) وفق القراءة الغربية لها وسوف نتناول هذا السؤال وهو: ما هي فائدة صاحب العصر والزمان عليه السلام؟

وربَّما يذكر علماؤنا فوائد، لكن نحن لسنا مضطرّين للخضوع أمام هذه الفلسفة البرجماتية في التعامل مع الحقائق فنحن لا نتعامل مع الحقائق على أساس ما تقدّمه من منافع دنيويّة.

(١) الكافي ٤: ٦٢/ باب ما جاء في فضل الصوم والصائم/ ح ١.

قصّة العلاّمة الحلّي:

هـذه القصَّـة فيهـا الإشـارة إلـى ألطـاف الإمـام المهـدي عليه السلام ووجـود المنفعة فيه حتَّى وهو في الغيبة.

القصَّة تقول: إنَّ العلامة الحلّي خرج من الحلّة إلى كربلاء للزيارة ويومئذٍ كان يركب حماراً وبيده أيضاً سوط وفي طريق النجف وإذا به يلتقي برجل أعرابي واقف على الطريق فأردفه خلفه على الدابّة وسارا معاً في الطريق، ويبدو أنَّ هذا الأعرابي كان فاهماً فقيهاً وأصبح العلاّمة الحلّي في الطريق يتبادل معه الحديث، وإذا بهذا الشخص العربي مطَّلع على الأسرار الفقهية، حتَّى وصلوا إلى مسألة من المسائل قال العلاّمة الحلّي: أنا أرى في هذه المسألة كذا، قال الشخص العربي: أنت على خطأ.

قال العلاّمة: أنا في الحقيقة لم أجد دليلاً على الرأي الآخر.

الأعرابـي قـال: الـدليل موجـود، والروايـة موجـودة فـي كتـاب تهـذيب الشـيخ الطوسـي ارجـع للصـفحة الفلانيـة والموقـع الفلانـي مـن كتـاب الشـيخ الطوسـي سـتجد هـذه الروايـة، وهنـا تفاجـأ العلاّمـة الحلّـي كيـف أنَّ هـذا الأعرابـي فقيـه بدرجـة عاليـة حتَّـى أنَّـه يعـرف كتـاب التهـذيب والروايـات التي فيه بشكل دقيق وتفصيلي.

القصَّة تقول: إنَّ العلامة الحلّي أصبح يفكّر في نفسه من أين لهذا الأعرابي مثل هذه المعلومات؟ هذا فقيه، بل هو أفقه منه، هل يمكن أن يكون هو صاحب الزمان؟ هل يمكن اللقاء بصاحب العصر والزمان عليه السلام؟

بينمـا هـو يتحـدَّث وفـي حالـة حيـرة، وإذا قـد سـقط السـوط مـن يـده وقبـل أن ينـزل نـزل هـذا الرجـل الأعرابـي وأخـذ السـوط وأعطـاه بيـده وقـال: كيف لا يمكن رؤية القائم وكفّه في كفّك الآن؟

القصَّة تقول: إنَّ العلاّمة الحلّي اُغمي عليه ولمَّا أفاق من الإغماء لم يرَ ذلك الإنسان(١).

قصَّة المقدَّس الأردبيلي:

المقدَّس الأردبيلي له وقائع مماثلة:

القصَّة تقول: عن شخص اسمه أمير علاَّم يقول: كنت في بعض الليالي في صحن الروضة المقدَّسة بالغري على مشرّفها السلام وقد ذهب كثير من الليل، فبينا أنا أجول فيها، إذ رأيت شخصاً مقبلاً نحو الروضة المقدَّسة فأقبلت إليه فلمَّا قربت منه عرفت أنَّه أستاذنا الفاضل العالم التقي الزكي مولانا أحمد الأردبيلي قدَّس الله روحه. فأخفيت نفسي عنه، حتَّى أتى الباب، وكان مغلقاً، فانفتح له عند وصوله إليه، ودخل الروضة، فسمعته يكلّم كأنَّه يناجي أحداً ثمّ خرج، وأغلق الباب فمشيت خلفه حتَّى خرج من الغري وتوجَّه نحو مسجد الكوفة. فكنت خلفه بحيث لا يراني حتَّى دخل المسجد وصار إلى المحراب الذي استشهد أمير المؤمنين صلوات الله عليه عنده، ومكث طويلاً ثمّ رجع وخرج من المسجد وأقبل نحو الغري. فكنت خلفه حتَّى قرب من الحنانة فأخذني سعال لم أقدر على دفعه، فالتفت إليَّ فعرفني، وقال: أنت مير علام؟ قلت: نعم، قال: ما تصنع هاهنا؟ قلت: كنت معك حين دخلت الروضة المقدَّسة إلى الآن وأقسم عليك بحقّ صاحب القبر أن تخبرني بما جرى عليك في تلك الليلة، من البداية إلى النهاية. فقال: أخبرك على أن لا تخبر به أحداً ما دمت حيّاً، فلمَّا توثَّق ذلك منّي قال: كنت أفكّر في بعض المسائل وقد أغلقت عليَّ، فوقع في قلبي أن آتي أمير المؤمنين عليه السلام وأسأله عن ذلك، فلمَّا وصلت إلى الباب فتح لي بغير مفتاح كما

(١) حياة أولي النهى: ٣٩٧.

رأيت فدخلت الروضة وابتهلت إلى الله تعالى في أن يجيبني مولاي عن ذلك، فسمعت صوتاً من القبر: أن ائت مسجد الكوفة وسل القائم عليه السلام فإنَّه إمام زمانك فأتيت عند المحراب، وسألته عنها وأجبت وها أنا أرجع إلى بيتي(١).

هذه في الحقيقة إضاءات ذكرناها ليس على سبيل الاستدلال بها، بل على سبيل الإشارة إلى عشرات من أمثال هذه القصص التي تروى وهي تعبّر بشكل وآخر عن حقيقة التلاقي مع الإمام المنتظر عليه السلام وأنماط العلاقة معه، بقطع النظر عن مدى الدقّة في هذه القصص أو في تفاصيلها.

الاستخدام الإعجازي لدى الإمام المهدي عليه السلام:

لا شكَّ أنَّ الإمام يستخدم أدوات إعجازية وليس مجرَّد أدوات طبيعية وبناءً على هذه النظرية يمكن أن يذهب بعض الباحثين في الاتّجاه التقليدي لدراسة حركة الإمام المنتظر إلى أنَّه عليه السلام سوف يستخدم أدوات إعجازية، يعني ينتصر بالاستخدام الإعجازي لا بالاستخدام الطبيعي، إنَّه بغير الاستخدام الإعجازي لا يمكن أن ينتصر إمام الزمان مع تكالب الدنيا عليه، والتقدّم العسكري والتكنولوجي لدى الأعداء ومع الإعلام والفضائيات وغسل الدماغ والأموال والمليارات لا يستطيع أن ينتصر صاحب الزمان على الوضع، لا بدَّ من استخدام إعجازي، هكذا يتصوَّر بعض الباحثين في القراءة الأولى للروايات.

نعم إنَّ الإمام يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، يطبّق حكم الإسلام على الخافقين، يصل للروم والصين وقسطنطينية وأرمينيه وما شاكل ذلك هذا بالأدوات الإعجازية.

---

(١) بحار الأنوار ٥٢: ١٧٤ و١٧٥.

نماذج من الأدوات الإعجازية:

مثلاً رواية تقول: «ينزل في سبع قباب من نور لا يعلم في أيّها هو، حين ينزل في ظهر الكوفة، فهذا حين ينزل»(١)، هذا استخدام إعجازي.

رواية أخرى تقول: إنَّه عليه السلام حينما يبعث ولاة وقضاة ووكلاء كلاً منهم عندما يعجز عن مسألة لا يحتاج مراجعة بريدية ولا اتّصالاً تلفونياً وإنَّما يقال له: «عهدك في كفّك»(٢)، يعني وكيل صاحب الزمان في مصر أو المغرب أو واشنطن إذا قطعت الاتّصالات السلكية واللاسلكية وتعطَّلت نتيجة القصف التكنولوجي مثلاً، فإنَّ صاحب الزمان لا يحتاج إلى اتّصالات.

رواية ثالثة تقول: «إنَّ قائمنا إذا قام مدَّ الله عزَّ وجلَّ لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم حتَّى لا يكون بينهم وبين القائد بريد، يكلّمهم فيسمعون وينظرون إليه وهو في مكانه»(٣)، جماعته يسمعون صوته ويشاهدونه رغم أنَّ بينهم فواصل مئات أو آلاف الكيلومترات.

رواية رابعة تقول: إنَّه يلتحق به في أوّل ساعات ندائه وصيحته أصحابه الثلاثمائة والثلاثة عشر(٤)، هذه الأمور لا يمكن أن تتحقَّق خلال أربع وعشرين ساعة إلاَّ عبر عملية إعجازية.

---

(١) تفسير العياشي ١: ١٠٣/ ح ٣٠١.

(٢) عن محمّد بن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليه السلام، قال: «إذا قام القائم بعث في أقاليم الأرض في كلّ إقليم رجلاً يقول: عهدك في كفّك فإذا ورد عليك أمر لا تفهمه ولا تعرف القضاء فيه فانظر إلى كفّك واعمل بما فيها...» الغيبة للنعماني: ٣٣٤/ باب ٢١/ ح ٨.

(٣) الكافي ٨: ٢٤١/ ح ٣٢٩.

(٤) عن محمّد بن مسلم الثقفي، قال: سمعت أبا جعفر محمّد بن علي الباقر عليهما السلام يقول: «... فعند ذلك خروج قائمنا، فإذا خرج أسند ظهره إلى الكعبة، واجتمع إليه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وأوّل ما ينطق به هذه الآية: ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ثمّ يقول: أنا بقيّة الله في أرضه، فإذا اجتمع إليه العقد وهو عشرة آلاف رجل خرج...» كمال الدين: ٣٣١/ باب ٣٢/ ح ١٦.

فما هو الموقف؟ في الفهم التقليدي لها أنَّ العملية ستتمّ عبر استخدام إعجازي، الروايات تقول: إنَّ بعضهم يأتي على السحاب[١]، والناس يرونه هذا فلان بن فلان ويعرفون اسمه وكنيته وما شاكل ذلك، وبعضهم يُفقد في فراشه.

أمير المؤمنين عليه السلام يقول في رواية: هم المفقودون في فراشهم[٢]، يعني نصف الليل هو نائم في فراشه وإذا به في الصباح غير موجود.

إذن هذا طيّ للأرض، خلال أربع وعشرين ساعة يسمعون خبره في مكّة المكرَّمة، هذا عمل في مظهره الأوّل عمل إعجازي.

من جملة الاستخدام الإعجازي، الغمامة التي تنادي: «هذا المهدي خليفة الله فاتَّبعوه»[٣]، هذا استخدام إعجازي.

وأيضاً الصيحة السماوية فبعض الروايات تقول: ذاك صوت جبرائيل[٤] ينادي: «الحقّ مع علي وشيعته»[٥].

---

(١) عن المفضَّل بن عمر، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا أذن الإمام دعا الله باسمه العبراني فأتيحت له صحابته الثلاثمائة وثلاثة عشر قَزَع كقَزَع الخريف، فهم أصحاب الألوية، منهم من يفقد من فراشه ليلاً فيصبح بمكّة، ومنهم من يرى يسير في السحاب نهاراً يعرف باسمه و اسم أبيه وحليته ونسبه...» الغيبة للنعماني: ٣٢٦ و٣٢٧/ باب ٢٠/ ح ٣.

(٢) عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ﴾، قال: «نزلت في القائم عليه السلام، وكان جبرائيل عليه السلام على الميزاب في صورة طير أبيض، فيكون أوّل خلق مبايعة له أعني جبرئيل، ويبايعه الناس الثلاثمائة والثلاثة عشر، فمن كان ابتلي بالمسير وافى في تلك الساعة، ومن لم يبتل بالمسير فقد من فراشه، وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام: المفقودون من فرشهم...» الغيبة للنعماني: ٣٢٨/ باب ٢٠/ ح ٦.

(٣) عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يخرج المهدي وعلى رأسه غمامة فيها منادٍ ينادي: هذا المهدي خليفة الله فاتَّبعوه» كشف الغمّة ٣: ٢٧٠.

(٤) راجع: الغيبة للنعماني: ٢٦٢/ باب ١٤/ ح ١٣.

(٥) راجع: الإرشاد ٢: ٣٧١.

على هذا الأساس هل هكذا نقرا المسألة أو يمكن أن نقرأ هذه الأمور باعتبارها جزءً من التقدّم التقني العالي جدًّا كما سيحدث في آخر الزمان يعني أنَّ المسألة هي مسألة استخدام طبيعي وليست استخداماً إعجازياً.

الروايات هكذا تقول: «إنَّه إذا تناهت الأمور إلى صاحب هذا الأمر رفع الله تبارك وتعالى كلّ منخفض من الأرض، وخفض له كلّ مرتفع منها حتَّى تكون الدنيا عنده بمنزلة راحته، فأيّكم لو كانت في راحته شعرة لم يبصرها»[1]، يعني يرفع الله تعالى له الأودية بحيث يبصر ذلك الوادي، يعني يكون مسحاً جوّياً كاملاً على البقاع التي يريد السيطرة عليها، أنتم تشاهدون في الحروب استطلاعاً جوّياً، أحياناً تخرج الطائرات بدون طيّار، طائراتُ تجسّس، الإمام المنتظر هل سيستخدم هذه الطائرات للتجسّس، أم أنَّ هناك أدوات إعجازية أخرى؟

الرواية تقول: «أمَا إنَّ ذا القرنين قد خيّر السحابين فاختار الذلول، وذخر لصاحبكم الصعب»، قال: قلت: وما الصعب؟ قال: «ما كان من سحاب فيه رعد وبرق وصاعقة فصاحبكم يركبه، أمَا إنَّه سيركب السحاب، ويرقى في الأسباب أسباب السماوات السبع والأرضين السبع، خمس عوامر واثنتين خراب»[2].

ذو القرنين، هو عبد صالح ملك شرق الأرض وغربها.

الرواية تقول: إنَّ الله تبارك وتعالى سخَّر له السحاب الذلول، أمَّا السحاب الصعب الشديد المتلاطم ذو الأعاصير والرعد والبرق فهو في خدمة إمامنا عليه السلام، «ما كان من سحاب فيه رعد وبرق وصاعقة فصاحبكم يركبه، أمَا إنَّه سيركب السحاب، ويرقى في الأسباب»، هذا التصوير في القراءة التقليدية الأوّلية

(١) كمال الدين: ٦٧٤/ ح ٢٩.

(٢) بصائر الدرجات: ٤٢٩/ باب في ركوب أمير المؤمنين عليه السلام السحاب.../ ح ١.

له يعني استخداماً إعجازياً وحينئذٍ ستكون هذه أحد نقاط الامتياز بين حركة الإمام الحسين عليه السلام وحركة المهدي عليه السلام.

الحسين عليه السلام لم يستخدم مثل هذه الأدوات الإعجازية أصلاً، حتَّى قتل عطشاناً ولو استخدم أدوات إعجازية على الأقلّ كان يمدّ يده إلى الفرات ويجلب الماء منه، هذا الأمر نريد أن نقف عنده، فما هو قانون الاستخدام الإعجازي؟ ومتى يستخدم الأنبياء الإعجاز ومتى لا يستخدمونه؟

نحن نرى أنبياء عذّبوا وطردوا وشرّدوا، أين الاستخدام الإعجازي؟ ونرى الأنبياء رغم كلّ الظروف الصعبة لكن في لحظات خاصّة استخدموا الأدوات الإعجازية.

إذن نريد أن نقول: إنَّ سيرة الأنبياء تكشف لنا شيئاً كما القرآن يتحدَّث به أنَّ الأنبياء عندهم نوعان من الأدوات، أدوات طبيعية وهم الأنصار والمقاتلون والأموال وما شاكل ذلك، وأدوات إعجازية أيضاً يستخدمونها حينما تستحقّ الظروف الاستخدام الإعجازي.

الاستخدام الإعجازي لدى الأنبياء عليهم السلام:

مثلاً عصا موسى ﴿فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ﴾ (الأعراف: ١١٧)، الثعابين كلّها التي صنعها السحرة عصا واحدة ألقاها موسى على الأرض لقفتهم كلّهم، هذا استخدام إعجازي، عصا من خشب وإذا بها تتحوَّل إلى ثعبان كبير من الدرجة الأولى ﴿تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ﴾، جميع الحبال والعُصي التي ألقوها وأصبحت ثعابين بجهد السحرة، ثمّ مدَّ يده مرَّةً أخرى وإذا رجعت بيده عصا.

نفس هذه العصا العجيبة ضرب بها البحر وهو النيل فارتفعت من هذا النيل الأرض اليابسة وهي ليست طينية بحيث تزلُّ بها أقدام المقاتلين أو أقدام الخيول،

والماء أصبح جانبين ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشعراء: ٦٣)، يعني هذه الموجة على اليمين كالجبل وتلك الموجة الثانية على اليسار كالجبل لكنَّه لا يتحرَّك، أي أصبح جبلاً من ماء صلب لا يتحرَّك ولا ينزل، هذه موجة ارتفاعها عشرات الأمتار لكن هذه الموجة ثابتة، هذا استخدام غير طبيعي.

عيسى عليه السلام أيضاً كذلك يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، وهذا استخدام إعجازي.

أيّوب أيضاً في شفائه بعد أربعين سنة من المرض، القرآن الكريم يقول: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ﴾ (ص: ٤٢)، وحين رفس الأرض برجله قليلاً خرجت عين ماء، هذا استخدام إعجازي.

إذن الأنبياء عندهم استخدام إعجازي لكنَّهم لا يستخدمونه دائماً ولهذا فرسول الله صلى الله عليه وآله في المعارك يحيط به الأعداء أحياناً وأحياناً تُكسر أسنانه في المعركة وأحياناً يُشجُّ جبينه من رمي الحجارة، إذن أين الاستخدام الإعجازي؟

هذا أمر يحتاج إلى قانون، ما هو قانون الاستخدام الإعجازي في حركة الأنبياء حسب الدلالة القرآنية؟

مثلاً إبراهيم عليه السلام أيضاً قام باستخدام إعجازي مع نمرود والنار العاتية التي كان لهبها يُحرق من بُعد مسافة، لمَّا اُلقي إبراهيم عليه السلام أصبحت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

طوفان نوح عليه السلام أيضاً كان استخداماً إعجازياً.

داود وسليمان وتسخير الرياح والجبال والطير والجنّ والشياطين لهما، حتَّى أنَّ الشياطين عملوا باعتبارهم أفراداً في الجيش عند النبيّ سليمان، هذا استخدام إعجازي ما هو قانونه؟

قانون الاستخدام الإعجازي:

الاستخدام الإعجازي حسب الطرح القرآني لدى الأنبياء عليهم السلام يكون في ثلاثة مواضع:

الموضع الأوّل: الدلالة على التمثيل الإلهي:

لأنَّ هذا النبيّ يقول: أنا أُمثّل الله تعالى وهذه القضيّة لا يمكن الاستدلال عليها بشهود، أو الاستدلال عليها بقصيدة شعرية، حينما تدَّعي أنَّك مرتبط بالسماء نحن نحتاج إلى دليل على ارتباطك بالسماء، وهذا الأمر لا يكون إلاَّ في أمر نعجز عنه، أمَّا لو جئتنا بأيّ شيء آخر ممكن للبشر أن يصنعوا مثله فنقول لك: هذا ليس معجزة وربَّما هذا أمر صنعته بقدراتك البشرية. فالدلالة على أصل التمثيل عن الله تعالى يحتاج فيها الأنبياء إلى تقديم معجزة.

الموضع الثاني: عند استنفاد الطاقات في المعركة:

يعني كلّ الأدوات الطبيعية حينما تنتهي في ذلك الوقت لا ملجأ إلاَّ إلى الله تعالى، لا بدَّ من استخدام إعجازي.

مثلاً إبراهيم عليه السلام لمَّا وضعوه في المنجنيق ورموه في النار تعطَّلت لديه كلّ الأدوات الطبيعية هو يهوي إلى النار والنار ملتهبة فما هو الحلّ؟

وإبراهيم مكبَّل ورموه في الهواء هنا استنفدت كلّ الطاقات البشرية فلذا جاء دور الإعجاز، وقال الله تبارك وتعالى للنار: ﴿كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ﴾ (الأنبياء: ٦٩).

وهكذا في قصَّة موسى عليه السلام حين يقف على النيل ﴿قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أمامنا البحر ووراءنا فرعون، وآلاف مؤلَّفة ونحن مجموعة قليلة فما هو الموقف؟ ﴿قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء: ٦١ و٦٢).

هنا جاء الاستخدام الإعجازي، الله تعالى قال: ﴿اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشعراء: ٦٣)، لمَّا انتهت قدرة موسى عليه السلام وانتهت قوّاته جاء دور الإعجاز والقدرة الإلهية، هذا هو الموضع الثاني لاستخدام الأدوات الإعجازية وهو عند استنفاد الأدوات الطبيعية، هنا يأتي دور الأدوات الاحتياطية.

الإنسان متى يستخدم الأدوات الاحتياطية؟ عندما تنتهي الأدوات الطبيعية، أمَّا إذا كان لديه أدوات طبيعية فإنَّه لا يستخدم الأدوات الاحتياطية، هذا هو الموضع الثاني.

الموضع الثالث: تكوّن الشخصية:

في أصل التكوّن لشخصية ذلك النبيّ، أصل التكوّن أحياناً يكون من خلال استخدام إعجازي بمشيئة الله تعالى يعني تكوّن عيسى من غير أبٍ، هذا استخدام إعجازي في أصل التكوّن لأنَّ شخصية الأنبياء لحِكَم إلهية لا نعلمها تظهر بعملية إعجازية يعني ليس بعملية طبيعية.

عيسى من غير أبٍ، آدم عليه السلام من طين، ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩)، موسى عليه السلام أيضاً في أصل التكوّن حينما ألقته أُمّه في البحر أيضاً يوجد إعجاز وإحاطة إلهية، القرآن يقول عنها: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩)، الله تعالى يقول له: أنا أريد أن أصنعك، هذا نسمّيه أصل التكوّن.

يحيى بن زكريا كذلك، كان زكريا عمره تسعين سنة وزوجته عجوز بما يقارب ذلك العمر لكن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٧). وقد نطق يحيى وهو صبي ﴿وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (مريم: ١٢)، هذا هو الموضع الثالث للاستخدام الإعجازي.

ما عدا هذه المواضع الثلاثة فإنَّ الأنبياء لا يستخدمون المعجزة، وهذا سوف يفتح لكم باب الإجابة على الكثير من الأسئلة والإثارات والشبهات.

إنَّ الأنبياء لماذا لا يستخدمون معاجزهم وقدراتهم الخارقة والملائكة وما شاكل ذلك؟

إنَّ قانون الاستخدام الإعجازي الذي ذكرناه في هذه الموارد الثلاثة يعطي الإجابة على تلك الأسئلة، فقد كان _ مثلاً _ أحد مواضع الاستخدام الإعجازي هو عند استنفاد الطاقات البشرية الطبيعية أمَّا إذا كان بالإمكان استخدام الأدوات الطبيعية فحينئذٍ لا توجد حاجة إلى إعجاز.

الاستخدام الإعجازي لدى الإمام المنتظر عليه السلام:

والآن نصل إلى إمامنا المنتظر عليه السلام فلنرَ الإمام المنتظر هل عنده استخدام إعجازي أم لا؟

وإذا كان عنده ما هو السبب؟

في أصل تكوّن الإمام هناك استخدام إعجازي، وذلك أنَّ الإمام الحسن العسكري عليه السلام في القصَّة الجميلة المعروفة دعا عمَّته حكيمة: «يا عمَّة اجعلي إفطارك هذه الليلة عندنا فإنَّها ليلة النصف من شعبان فإنَّ الله تبارك وتعالى سيظهر في هذه الليلة الحجّة وهو حجّته في أرضه».

قالت حكيمة: فقلت له: ومن اُمّه!

قال لي: «نرجس».

قلت له: جعلني الله فداك ما بها أثر.

فقال: «هو ما أقول لك...».

قالت حكيمة: وخرجت أتفقَّد الفجر فإذا أنا بالفجر الأوّل كذنب

السرحان وهي نائمة فدخلني الشكوك، فصاح بي أبو محمّد عليه السلام من المجلس فقال: «لا تعجلي يا عمّة فهاك الأمر قد اقترب».

قالت: فجلست وقرأت ألم السجدة ويس، فبينما أنا كذلك إذ انتبهت فزعة فوثبت إليها فقلت: اسم الله عليك، ثمّ قلت لها: أتحسين شيئاً؟

قالت: نعم يا عمّة!

فقلت لها: اجمعي نفسك واجمعي قلبك فهو ما قلت لك.

قالت: فأخذتني فترة وأخذتها فترة فانتبهت بحسّ سيّدي فكشفت الثوب عنه فإذا أنا به عليه السلام ساجداً يتلقّى الأرض بمساجده...[(١)].

هذا في الحقيقة استخدام ممكن أن نسمّيه استخداماً إعجازياً، أصل التكوّن إعجازي.

غيبة الإمام المنتظر أيضاً حالة إعجازية، الغيبة إلى يومنا هذا يبلغ طولها (١١٧١) سنة، لأنَّ الإمام المنتظر ولد في سنة (٢٥٥هـ) ونحن الآن دخلنا في سنة (١٤٢٦هـ)، هذا العمر الطويل، والغياب عن الأنظار مع أنَّه يخالطنا ويشهد مجالسنا هذا في الحقيقة عملية إعجازية.

أنواع الإمكان:

إنَّ الإمكان على ثلاثة أنواع:

النوع الأوّل: الإمكان الفلسفي في مقابله الاستحالة الفلسفية.

النوع الثاني: الإمكان العلمي في مقابله الاستحالة العلمية.

النوع الثالث: الإمكان العرفي في مقابله الاستحالة العرفية.

النوع الأوّل: الإمكان الفلسفي: الفلاسفة يقولون: من المستحيل

---

(١) أنظر النصّ الكامل للرواية في: كمال الدين: ٤٢٤ - ٤٢٦/ باب ٤٢/ ح ١.

اجتماع النقيضين، يعني وجود شيء وعدم وجوده في وقت واحد، هذا مستحيل، وكذلك أن يصير الجزء أكبر من الكلّ، مثلاً الطابقة التي هي جزء من الغرفة أن تكون هذه الطابقة أكبر من الغرفة كلّها في الوقت الذي هي جزء من جدار الغرفة، هذا لا يصحّ، هي جزء من هذا الكلّ، هذا نسمّيه استحالة فلسفية في مقابلها إمكان فلسفي، مثلاً المعاد بعد الموت فهذا من الناحية الفلسفية ممكن لا محال فيه.

الفلاسفة لا يجدون مشكلة فلسفية فليس هناك تناقض ولا تضادّ.

النوع الثاني: الإمكان العلمي: مثل أن يكون هناك سكّان في القمر أو سكّان في المريخ، هذا علمياً أمر ممكن لا توجد فيه مشكلة، إنَّ البحار والمحيطات في يوم من الأيّام كلّها تتبخَّر هذا علمياً ممكن، أو تتصلَّب كلّ البحار والمحيطات وتصبح قطعة ثلج واحدة، هذا أيضاً ممكن من الناحية العلمية.

النوع الثالث: الإمكان العرفي: يعني هو من الناحية الفلسفية والعلمية ممكن لكنَّه غير متداول عندنا ولا مألوف، مثلاً وجود جبل من ذهب، علمياً ممكن لا توجد فيه مشكلة، لكن الحقيقة أنَّه لم يحدث لحدّ الآن مثل هذا الأمر، هذا نسمّيه: إمكان عرفي في مقابله استحالة عرفية.

علماؤنا في مواجهة سؤال أنَّ الإمام المنتظر كيف يكون عمره (١٠٠٠) عاماً أو أكثر، أصبحوا يستدلّون بالقدرة الإلهية المعجزة، لكن نحن اليوم هذه الاستدلالات _ وإن كانت صحيحة _ تجاوزناها وعبرناها وأصبحت القضيّة واضحة، أي لا توجد مشكلة فلسفية ولا علمية في طول عمر الإمام، نعم توجد مشكلة عرفية.

صحيح بالعرف لا يوجد إنسان عمره (١٢٠٠) سنة لكن هذه المشكلة

العرفية عندنا نحن الذين نؤمن بالغيب محلولة، إنَّ الله تبارك وتعالى لإثبات الإعجاز كما في عمر نوح عليه السلام يعطي عمراً طويلاً لمن يشاء.

إذن لا توجد لدينا مشكلة، وعلى كلّ حال قد يدخل هذا في الاستخدام الإعجازي، أصل التكوّن، غيبة الإمام، وطول عمره، هذه تدخل في باب الاستخدام الإعجازي.

خمس من سنن الأنبياء عليهم السلام:

توجد لدينا رواية جميلة تقول: «في صاحب هذا الأمر أربع سنن من أربعة أنبياء»[1]، يعني الإمام المنتظر عليه السلام عنده أربع خصال من خصال الأنبياء، وبعض الروايات تذكر أكثر من ذلك:

أخذ من نوح العمر الطويل، وأخذ من عيسى اختلاف الناس فيه، مثلما عيسى الناس فيه مختلفون، بعض الناس يقولون: صلبوه، وبعضهم يقول: قتلوه، وبعضهم يقول: رفع للسماء، ولحدّ الآن البشرية مختلفة، الاختلاف أيضاً موجود بإمام العصر أحدهم يقول: الإمام العسكري ليس له مولود، وآخر يقول: لا يمكن أن يكون عمره بهذا الشكل، وآخر يقول: يمكن أن يكون، ولهذا الروايات تقول: «وإنَّ من أعظم البلية أن يخرج إليهم صاحبهم شاباً وهم يحسبونه شيخاً كبيراً»[2]، وفي بعض الروايات أنَّه ابن أربعين سنة[3]، بينما هو قد زاد عمره الواقعي على مئات

---

(١) أنظر: كمال الدين: ١٥٢/ باب ٦/ ح ١٦.

(٢) الغيبة للنعماني: ١٩٤ و١٩٥/ ح ٤٣.

(٣) عن أبي صلت الهروي، قال: قلت للرضا عليه السلام: ما علامات القائم منكم إذا خرج؟ قال: «علامته أن يكون شيخ السنّ، شاب المنظر حتَّى أنَّ الناظر إليه ليحسبه ابن أربعين سنة أو دونها...» كمال الدين: ٦٥٢/ باب ٥٧/ ح ١٢.

السنين وإلى ما شاء الله تعالى، لكن عندما يظهر، يظهر بعمر شاب في الأربعين ولهذا الناس يقولون: كيف يكون هذا؟

وفيه سُنّة من موسى حينما غاب عن قومه أربعين ليلة، كما أنَّ له سُنّة من يوسف الصديق، ومن جدّه محمّد صلى الله عليه وآله[(١)].

زواج الإمام عليه السلام:

هناك سؤال: إنَّ الإمام عليه السلام خلال هذا العمر الطويل هل هو متزوّج أم غير متزوّج؟

هل عنده أولاد أم لا؟

هذا من حقّكم أن تسألوا عنه، علماؤنا أيضاً بحثوا هذه المسائل، لكن هذا البحث ممكن أن نجعله في باب الترف الفكري، يعني هذه القضايا نحن غير مكلَّفين بها، هل هو متزوّج؟ وهل له أولاد؟ هذه القضيّة خارج تكليفنا ومع ذلك فإنَّ علماءنا بحثوها.

وقدَّم بعض العلماء عدّة أدلّة على أنَّ الإمام عليه السلام متزوّج وله أولاد:

الدليل الأوّل: إنَّ الزواج سُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، فهل يمكن أنَّ ابن رسول الله صلى الله عليه وآله يترك هذه السُنّة والنبيّ صلى الله عليه وآله يقول: «النكاح سُنّتي فمن

(١) عن سعيد بن جبير، قال: سمعت سيّد العابدين علي بن الحسين عليهما السلام يقول: «في القائم منّا سنن من الأنبياء، سُنّة من أبينا آدم عليه السلام، وسُنّة من نوح، وسُنّة من إبراهيم، وسُنّة من موسى، وسُنّة من عيسى، وسُنّة من أيّوب، وسُنّة من محمّد صلى الله عليه وآله، فأمَّا من آدم ونوح فطول العمر، وأمَّا من إبراهيم فخفاء الولادة واعتزال الناس، وأمَّا من موسى فالخوف والغيبة، وأمَّا من عيسى فاختلاف الناس فيه، وأمَّا من أيّوب فالفرج بعد البلوى، وأمَّا من محمّد صلى الله عليه وآله فالخروج بالسيف» كمال الدين: ٣٢٢/ باب ٣١/ ح ٣.

رغب عن سُنّتي فليس منّي»(١)، إنَّ الزواج سُنّة الإسلام وهذا إمام الإسلام، كيف يبتعد عن السُنّة!؟

الدليل الثاني: هنالك روايات ذكرت وأشارت إلى وجود ذرّية له.

كما جاء في رواية المفضَّل بن عمر، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ لصاحب هذا الأمر غيبتين إحداهما تطول حتَّى يقول بعضهم: مات، ويقول بعضهم: قتل، ويقول بعضهم: ذهب، حتَّى لا يبقى على أمره من أصحابه إلاَّ نفر يسير لا يطلع على موضعه أحد من ولده ولا غيره إلاَّ المولى الذي يلي أمره»(٢).

وكذلك بعض الشواهد تذكر قصَّة الجزيرة الخضراء التي مرَّت الإشارة إليها سابقاً(٣).

ولكن القصَّة خيالية ولها راوٍ واحد مجهول، وعُثِرَ على هذه القصَّة في كتاب مجهول بدون معرفة اسم المؤلّف.

هذه الرواية يرويها العلاّمة المجلسي في البحار يقول:

(وجدت رسالة مشتهرة بقصَّة الجزيرة الخضراء في البحر الأبيض أحببت إيرادها لاشتمالها على ذكر من رآه، ولما فيه من الغرائب. وإنَّما أفردت لها باباً لأنّي لم أظفر به في الأصول المعتبرة...)(٤).

وقال علماؤنا: إنَّها أقرب للخيال بعدّة أدلّة، وهي واضحة الجعل والافتعال بدليل أنَّه إذا كانت هذه الجزيرة موجودة بالفعل وهذه القرية

(١) بحار الأنوار ١٠٠: ٢٢٠/ ح ٢٣.

(٢) الغيبة للطوسي: ١٦١ و١٦٢/ ح ١٢٠؛ الغيبة للنعماني: ١٧٦/ باب ١٠/ ح ٥، وفيه: (أحد من ولي) بدل (أحد من ولده).

(٣) أنظر (ص ٥٧٥)؛ راجع النصّ الكامل للقصَّة في: بحار الأنوار ٥٢: ١٥٩ - ١٧٤.

(٤) بحار الأنوار ٥٢: ١٥٩.

موجودة ومتاعهم يأتيهم كلّ شهرين أو ثلاثة، إذن كيف لم يفكّر شخص منهم أن يذهب ويلتقي بصاحب الزمان، فقط زين الدين علي بن فاضل، كيف هؤلاء شيعة، ولكن لا يتوقعون اللقاء بإمام زمانهم؟

فروايات أهل البيت عليهم السلام لا تعطي في هذا الموضوع (الزوجة والأولاد) إشارات كافية، باعتبار أنَّ هذا الموضوع سوف لا يترتَّب عليه تكليف يخصّنا، أو موقف بالنسبة لنا، ولهذا فإنَّ مسألة وجود أولاد للإمام عليه السلام تبقى أقرب للترف العلمي.

تفسير الأدوات الإعجازية:

حديثنا عن الاستخدام الإعجازي لدى الإمام المنتظر عليه السلام نرجع إلى تلك المفردات التي ذكرناها، قباب من نور وسحاب ينادي، وكلّ شخص كتابه في يده، هذه في الحقيقة لها قراءتان وتفسيران:

القراءة الأولى: إنَّها استخدام إعجازي.

القراءة الثانية: إنَّها استخدام التقنية الحديثة، يعني نحن غير مضطرّين لأن نتحدَّث عن المعجزة.

أمَّا الرواية التي تقول: إنَّ هؤلاء يطيرون في السحاب، وتطوى للإنسان الأرض عندما يطير ألف كيلومتراً في ساعة واحدة هذا ألا يمكن أن نسمّيه طُويتْ له الأرض بينما هو طيران في الجوّ بالطائرات الحديثة؟

وهكذا قباب من نور يمكن تفسيرها على مستوى القراءة الثانية، أنَّ القباب من نور هي عبارة عن الطائرات والنقل الجوّي.

وهكذا مسألة الكتاب في كفّ كلّ واحد من وكلائه، هذا في زماننا أصبح شيئاً موجوداً عبارة عن الهاتف النقال المصوّر، وموضوع فيه قرص (سي

دي) ويجمع كلّ المعلومات والأحكام الشرعية، فهذا الإنسان بيده يتَّصل مباشرة بالإمام المنتظر عليه السلام، أو بمركز الكومبيوتر ويعطونه الموقف هذا ممكن. هذه تقنية علمية ومن الطبيعي أنَّ الإمام صاحب الزمان سوف يستخدمها.

هذه الأمور قبل ألف عام كانوا يفترضونها استخداماً إعجازياً، لكن نحن الآن ممكن أن نفسّرها على أساس أنَّها استخدام التقنية العلمية، أيضاً يسمعون صوته ويرونه وهم في أقصى الأرض عبر شاشات التلفزيون والفضائيات.

وأنتم تصوَّروا لو تطوَّر هذا الأمر بعد مائة سنة إلى أين سيصل الإنسان؟

فلماذا لا نتصوَّر ولو على مستوى الإمكان أنَّ الإمام المنتظر عليه السلام يستخدم التقنية العلمية العالية.

وهكذا النداء من الغمامة، الآن الفضائيات أليست هي عبارة عن أمواج صوتية عبر القارات وعبر القمر الصناعي، فهذا أيضاً ربَّما عبَّرت عنه الروايات بأنَّ السحاب يتكلَّم، هي أمواج في الحقيقة، لكن كلمة الأمواج وهذا التعبير يومئذٍ غير موجود فكان يقال: سحاب.

الحقيقة أنَّ الكثير من هذه العناصر التي تؤكّدها الروايات يمكن تفسيرها على أنَّها تقنية علمية متطوّرة، وحركة الإمام المنتظر عليه السلام تبقى حركة وفق الأدوات الطبيعية بدليل أنَّ الإمام مثلاً ينصّب وكيلاً له في مكّة المكرَّمة وبمجرَّد أن يذهب الإمام للمدينة فإنَّ أهل مكّة يهبُّون على الوكيل ويقتلونه، يرجع الإمام مرَّةً أخرى حتَّى يحرّر مكّة المكرَّمة(١). إذن هي عملية مناورات عسكرية فيها كرٌّ وفرٌّ وما شاكل ذلك.

والروايات واضحة جدّاً حتَّى أنَّ بعضها تقول: «إنَّ صاحب هذا

---

(١) راجع: الهداية الكبرى: ٣٩٩.

الأمر لو قد ظهر لقي من الناس ما لقي رسول الله صلى الله عليه وآله وأكثر»[1]، معنى هذا أنَّ العملية تجري وفق الأدوات الطبيعية وليس وفق الإعجاز.

هناك رواية جميلة تقول: يفتح الروم بالتكبير[2]، يعني يدخل عشرات الآلاف من القوّات يصيحون: الله أكبر، ويحرّرون أوربا بالتكبير. التكبير هل هذا استخدام إعجازي أو هو استخدام وفق الأدوات الطبيعية؟

روايات عديدة طبعاً تقول: يفتح روما بالتكبير، يعني بدون استخدام سلاح، قد يوحي هذا أنَّه لا يوجد قصف جوّي ولا قصف مدفعي، بل هو زحف بشري بالتكبير هذا أمر ممكن أيضاً وهذا ليس جزءً من الاستخدام الإعجازي، بل هو استخدام أدوات طبيعية.

وهناك روايات متعدّدة في تفسير قصَّة يأجوج ومأجوج الذي جاء ذكرهم في القرآن أين هم؟ ذو القرنين لماذا سمّي (ذو القرنين)، بعض الروايات تقول: سمي ذو القرنين لأنَّهم ضربوه مرَّةً على قرنه الأيمن ومرَّةً على قرنه الأيسر يعني على الجمجمة، في المرَّة الأولى غاب عنهم (٥٠٠) سنة ثمّ ظهر، وهكذا في المرَّة الثانية[3].

إذا كنتم يا أبناء العامّة تقولون: إنَّ يأجوج ومأجوج سوف يرجعون، إذن لماذا تعترضون علينا حين نقول: إنَّ صاحب العصر والزمان في رعاية الله تعالى وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله حيّ يرزق ثمّ يظهر في آخر الزمان.

أنتم تقبلون أنَّ يأجوج ومأجوج يرجعون ولا تقبلون بعودة الإمام المعصوم!

---

(١) الغيبة للنعماني: ٣٠٨/ باب ١٧/ ح ٢.

(٢) أنظر: مجمع الزوائد ٦: ٢١٩.

(٣) راجع: تفسير القمي ٢: ٤٠.

إذا كان أصحاب الكهف يرجعون أحياءً فلماذا لا تقبلون أنَّ صاحب العصر والزمان يرجع، لماذا؟

إذا كان هناك استحالة فلسفية فهي في الاثنين، وإذا كانت فيه استحالة علمية أو عرفية فبالاثنين، ما هو دليلكم على هذا؟

سُنّة الابتلاء:

هناك في خطّ الحياة سُنّة اسمها: سُنّة الامتحان والابتلاء.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الملك: ٢).

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ (التوبة: ٩).

وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ٢٩).

هذه سُنّة اسمها سُنّة الابتلاء رافقت حركة الأنبياء جميعاً ورافقت حركة الإصلاح وحركة الأمم جميعاً.

وحينما نتحدَّث عن عنصر الاشتراك والتمايز بين حركة الإمام الحسين وحركة الإمام المهدي عليهما السلام نريد أن نسأل عن هذه السُنّة، سُنّة الابتلاء، هل هي موجودة مع إمام زماننا وهو يقود الحركة الإصلاحية العالمية الكبرى أم غير موجودة؟

لقد كانت موجودة مع الحسين عليه السلام.

فمع أنَّ الناس يعلمون أنَّه سيّدُ شباب أهل الجنّة، لكن مع ذلك كان هناك زلزال فكري، حدثت حيرة عند مرضى القلوب، هذا هو الابتلاء، البعض يقول:

الحسين عليه السلام خرج عن جدّه فيقتل بسيف جدّه، رغم أنَّه سيّد شباب أهل الجنّة، ورغم قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[1]، لكن تسويلات الشيطان جعلت بعض الناس يقول: إنَّ الحسين عليه السلام خرج على إمام زمانه! من هو إمام زمانه؟ هو يزيد بن معاوية، لكن من وضع يزيد بن معاوية إماماً لزمانه؟ لا يوجد جواب.

وآخر يقول للحسين: يا بن رسول الله أنا أعلم بأنَّك على حقّ ولكن أنا لا أنصرك في هذه القضيّة، ماذا أفعل نفسي لا تسمح بالموت؟ أنا أعلم أنَّك مقتول، وأنا غير مستعدّ أن أُقتل، أنا أعلم أنَّ الذي بايعك وشايعك على الحقّ، لكن أعلم أنَّك مقتول، إنَّ من رأيته خارجاً لك من الكوفة يكفون لقتلك وأنا غير مستعدّ، هذا هو الابتلاء.

الله تعالى يريد أن يمتحن، يفتن الناس وإلاَّ فإنَّ الله تبارك وتعالى قادر على الهداية بدون امتحان: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٢٦).

والسؤال الآن أنَّ سُنّة الابتلاء مع إمام زماننا موجودة أم لا؟

الجواب: نعم، موجودة.

رغم أنَّه عليه السلام ينتصر ويتحرَّك ضمن الأدوات الطبيعية وأحياناً يستخدم الأدوات الإعجازية كما شرحنا سابقاً لكن ذلك لا يغلق باب امتحان الناس، حيث يمكن لأحد أن يقبل وآخر لا يقبل، رغم أنَّ القضيّة أصبحت واضحة، والناس يومئذٍ يدخلون في دين الله أفواجاً، ومع ذلك فإنَّ هناك مجالاً واسعاً يبقى لأحد أن يشكّك وينافق ويقاتل، وهذه هي سُنّة الابتلاء.

---

(١) روضة الواعظين: ١٥٦.

الصيحة في السماء:

إذا خرج الإمام تحدث صيحة في السماء فينادي منادٍ من السماء أوّل النهار: «ألا إنَّ الحقّ مع علي وشيعته»، ولكن حينما يكون آخر النهار يأتي نداء ثانٍ، تقول الرواية: «ثمّ ينادي إبليس في آخر النهار من الأرض» وليس من السماء، إبليس يعني مثلاً الفضائيات الكاذبة.

ينادي من الأرض يقول: «ألا إنَّ الحقّ مع عثمان وشيعته»[1]، يحدث بين الناس بلبلة.

تحدث حالة من الالتباس.

لنقف عند نقطة علي وعثمان.

إنَّ هذا التعبير: علي وعثمان، هل يعني أنَّ المعركة يومئذٍ معركة بين الشيعة والسُنّة، باتّجاهين اتّجاه جماعة علي واتّجاه جماعة عثمان، أو هي رمز للحقّ والباطل، هذا هو الأقرب لأنَّه يومئذٍ لم تكن اشتراكية ولا شيوعية ولا ديمقراطية، يوجد يومئذٍ حقّ اسمه علي عليه السلام ويوجد باطل اسمه الاتّجاهات الأخرى، الصيحة الأولى تقول: الحقّ مع هؤلاء، الصيحة الثانية تقول: الحقّ مع هؤلاء، اسم علي وعثمان استخدم هنا رمزاً لمعركة الحقّ والباطل.

وضوح الحقيقة:

الراوي يقول للإمام: يوبّخونا ويكذّبونا إنّا نقول: إنَّ صيحتين تكونان، يقولون: من أين تعرف المحقّة من المبطلة إذا كانتا؟

قال: «فماذا تردّون عليهم؟».

قلت: ما نرد عليهم شيئاً.

---

(١) الإرشاد ٢: ٣٧١.

قال: «قولوا: يصدّق بها إذا كانت من كان يؤمن بها من قبل، إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]»[1].

لصاحب القلب والبصيرة والمعرفة، لا تضيع الحقيقة، والذي في قلبه مرض تضيع عليه الحقيقة حتَّى لو تنزل الملائكة، وهذا ما حدث مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صلى الله عليه وآله لَمَّا أَتَاهُ الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلاَ أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ.

فَقَالَ صلى الله عليه وآله: وَمَا تَسْأَلُونَ؟

قَالُوا: تَدْعُو لَنَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ.

فَقَالَ صلى الله عليه وآله: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ وَإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لاَ تَفِيئُونَ إِلَى خَيْرٍ وَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلِيبِ وَمَنْ يُحَزِّبُ الأَحْزَابَ.

ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وآله: يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ.

فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لاَنْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ

---

(١) الكافي ٨: ٢٠٨/ ح ٢٥٢.

وَقَصْفٌ كَقَصْفِ أجْنِحَةِ الطَّيْرِ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مُرَفْرِفَةً وَألْقَتْ بِغُصْنِهَا الأعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَبِبَعْض أغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي، وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صلى الله عليه وآله.

فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا عُلُوّاً وَاسْتِكْبَاراً: فَمُرْهَا فَلْيَأتِكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا.

فَأمَرَهَا بِذَلِكَ، فَأقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأشَدِّهِ دَوِيّاً، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله.

فَقَالُوا كُفْراً وَعُتُوّاً: فَمُرْ هَذَا النّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ.

فَأمَرَهُ صلى الله عليه وآله فَرَجَعَ، فَقُلْتُ أنَا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ إِنّي أوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأوَّلُ مَنْ أقَرَّ بِأنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ وَإِجْلاَلاً لِكَلِمَتِكَ.

فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ ساحِرٌ كَذَّابٌ عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ»[(١)].

القلوب المريضة التي لا تريد أن تؤمن، لا تؤمن حتَّى لو ينزل عليها ملائكة من السماء.

يقول الإمام عليه السلام: «أمرنا أبين من هذه الشمس»[(٢)].

---

(١) نهج البلاغة ٢: ١٥٨ و١٥٩/ الخطبة القاصعة.

(٢) عن مفضَّل بن عمر، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده في البيت أناس فظننت أنَّه إنَّما أراد بذلك غيري، فقال: «أمَا والله ليغيبنَّ عنكم صاحب هذا الأمر وليخملنَّ هذا حتَّى يقال: مات، هلك، في أيّ وادٍ سلك؟ ولتكفأنَّ كما تكفأ السفينة في أمواج البحر، لا ينجو إلاَّ من أخذ الله ميثاقه، وكتب الإيمان في قلبه، وأيَّده بروح منه، ولترفعنَّ اثنتا عشرة راية مشتبهة لا يدرى أيّ من أيّ»، قال: فبكيت، فقال: «ما يبكيك يا أبا عبد الله؟»، فقلت: جُعلت فداك، كيف لا أبكي وأنت تقول: «اثنتا عشرة راية مشتبهة لا يدرى أيّ من أيّ؟ قال: وفي مجلسه كوة تدخل فيها الشمس، فقال: «أبيّنة هذه؟»، فقلت: نعم، قال: «أمرنا أبين من هذه الشمس» الكافي ١: ٣٣٨ و٣٣٩/ باب في الغيبة/ ح ١١.

يقول الراوي: ذكرنا خروج القائم عليه السلام عند أبي عبد الله عليه السلام، فقلت له: كيف لنا أن نعلم ذلك؟

فقال: «يصبح أحدكم وتحت رأسه صحيفة عليها مكتوب: طاعة معروفة»[1].

هل هذه الورقة هي عبارة عن ورقة بالفاكس تذهب للبيت!؟ لا ندري.

المهمّ هو أنَّ المسألة ليست خارجة عن سُنّة الابتلاء.

الرواية تقول: «يصدّق بها إذا كانت من كان يؤمن بها من قبل»، أولئك الناس الذين هم من قبل يعرفون الحقيقة يكتشفون ما هو الفرق بين صيحة الحقّ وصيحة الباطل أمَّا الذين كانوا من قبل لا يعرفون الحقيقة يومئذٍ أيضاً لا يعرفون الحقيقة.

هذه الروايات تريد أن تقول: إنَّ هناك وعياً مسبقاً عند الشيعة وليست القضيّة أنَّ جبرئيل ينزل من السماء يقول: أيّها الناس هذا صاحب الزمان الحقوا به، وبالتالي ما هو الفرق بيننا وبين غيرنا من حيث الوضوح عند الجميع؟

لا ليس كذلك هذا الأمر يعرفه من عرفه من قبل، أمَّا من لم ينجح بالامتحان سابقاً فهو يومئذٍ أيضاً تضيع عليه الحقيقة، إذن هناك وعي مسبق لدى شيعة أهل البيت عليهم السلام كما تقول الروايات في هذا الشأن.

الوعي السياسي لدى الشيعة:

عن الإمام السجاد عليه السلام: «إنَّ أهل زمان غيبته القائلين بإمامته والمنتظرين لظهوره أفضل من أهل كلّ زمان»، لماذا؟

(١) كمال الدين: ٦٥٤/ باب ٥٧/ ح ٢٢.

«لأنَّ الله تبارك وتعالى أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ـ وهو باصطلاحنا الوعي الثقافي والسياسي ـ ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة...»، لا يوجد فرق عندنا من حيث الوعي والمعرفة بين أن يكون إمام زماننا غائباً أو إمام زماننا موجوداً بيننا، نحن به مصدّقون «ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله بالسيف، أولئك المخلصون حقّاً وشيعتنا صدقاً، والدعاة إلى دين الله عزّ وجلّ سرّاً وجهراً»(١).

إذن سُنّة الابتلاء محفوظة يومئذٍ كما جاء في الحديث الشريف: «أمَا والله ليغيبنَّ إمامكم سنين من دهركم، وليمحصنَّ حتَّى يقال: مات، قتل، هلك بأيّ وادٍ سلك؟...»(٢).

أين يوجد إمام الزمان عليه السلام؟

مات أو قتل أو هلك في أيّ وادٍ سلك؟ لكن تبقى المجموعات المؤمنة ثابتة على العقيدة الصحيحة.

عصائب العراق:

من جملة تلك المجموعات وأنا أذكر هذا الأمر للاستبشار والتيمّن ما تذكره الرواية عن حذيفة بن اليمان صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله.

هذا الصحابي الجليل قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إذا كان عند خروج القائم ينادي منادٍ من السماء: أيّها الناس قطع عنكم مدّة الجبّارين وولي الأمر خير أمّة محمّد فالحقوا بمكّة، فيخرج النجباء من

---

(١) كمال الدين: ٣٢٠/ باب ٣١/ ح ٢.

(٢) الغيبة للطوسي: ٣٣٧/ ح ٢٨٥.

مصـر، والأبـدال مـن الشـام، وعصـائب العـراق، رهبـان بالليـل ليـوث بالنهـار، كأنَّ قلوبَهم زبر الحديد، فيبايعونه بين الركن والمقام»[١].

والإمـام عليه السلام يومئـذٍ يحتـاج إلـى دليـل يقدّمـه للنـاس، الصـيحة فـي السـماء، الغَمامـة فـوق رأسـه، ومـع ذلـك فهـو يـدخل معهـم فـي حـوار: «مـن يحـاجّني فـي آدم فأنـا أولـى النـاس بـآدم. أيّهـا النـاس مـن يحـاجّني في نـوح فأنا أولى الناس بنوح...»[٢].

هـذا حـوار مفتـوح، لا بـدَّ أن يقـدّم الإمـامُ دلـيلاً والنـاس يطـالبون بـه، ولهـذا فكيـف عـرف الشـيعة إمـام الزمـان وهـم لـم يـروه؟ لقـد اسـتندوا فـي ذلك إلى دليل محكم لا يقبل الشكّ.

قصّة أبي الأديان:

يقـول: كنـت أخـدم الحسـن بـن علـي بـن محمّـد بـن علـي بـن موسـى بـن جعفـر ابـن محمّـد بـن علـي بـن الحسـين بـن علـي بـن أبـي طالـب عليهم السلام وأحمـل كتبـه إلـى الأمصـار، فـدخلت عليـه فـي علّتـه التـي تـوفّي فيهـا عليه السلام فكتـب معـي كتبـاً وقـال: «امـض بهـا إلـى المـدائن فإنَّـك ستغيب خمسـة عشـر يومـاً وتـدخل إلـى سُـرَّ مـن رأى يـوم الخـامس عشـر وتسـمع الواعيـة فـي داري وتجدني على المغتسل».

قال أبو الأديان: فقلت: يا سيّدي فإذا كان ذلك فمن؟

قال: «من طالبك بجوابات كتبي فهو القائم من بعدي».

فقلت: زدني.

---

(١) الاختصاص: ٢٠٨.

(٢) راجع: الغيبة للنعماني: ١٨٧ و١٨٨/ ح ٣٠.

فقال: «من يصلّي عليَّ فهو القائم بعدي».

فقلت: زدني.

فقال: «من أخبر بما في الهميان فهو القائم بعدي»، ثمّ منعتني هيبته أن أسأله عمَّا في الهميان.

وخرجت بالكتب إلى المدائن وأخذت جواباتها ودخلت سُرَّ من رأى يوم الخامس عشر كما ذكر لي عليه السلام فإذا أنا بالواعية في داره وإذا به على المغتسل وإذا أنا بجعفر بن علي أخيه بباب الدار والشيعة من حوله يعزّونه ويهنّونه، فقلت في نفسي: إن يكن هذا الإمام فقد بطلت الإمامة، لأنّي كنت أعرفه يشرب النبيذ ويقامر في الجوسق ويلعب بالطنبور، فتقدَّمت فعزَّيت وهنَّيت فلم يسألني عن شيء.

ثمّ خرج عقيد فقال: يا سيّدي قد كفّن أخوك فقم وصلّ عليه.

فدخل جعفر بن علي والشيعة من حوله يقدمهم السمّان والحسن بن علي قتيل المعتصم المعروف بسلمة. فلمَّا صرنا في الدار إذا نحن بالحسن بن علي عليه السلام على نعشه مكفّناً فتقدَّم جعفر بن علي ليصلّي على أخيه، فلمَّا همَّ بالتكبير خرج صبي بوجهه سمرة، بشعره قطط، بأسنانه تفليج، فجبذ برداء جعفر بن علي وقال: «تأخَّر يا عمّ فأنا أحقُّ بالصلاة على أبي».

فتأخَّر جعفر، وقد أربد وجهه واصفرَّ. فتقدَّم الصبي وصلّى عليه ودفن إلى جانب قبر أبيه عليهما السلام.

ثمّ قال: «يا بصري هات جوابات الكتب التي معك»، فدفعتها إليه، فقلت في نفسي: هذه بيّنتان بقي الهميان.

ثمّ خرجت إلى جعفر بن علي وهو يزفر، فقال له حاجز الوشاء: يا سيّدي من الصبي لنقيم الحجّة عليه؟

فقال: والله ما رأيته قطّ ولا أعرفه.

فنحن جلوس إذ قدم نفر من قم فسألوا عن الحسن بن علي عليهما السلام فعرفوا موته فقالوا: فمن نعزّي؟

فأشار الناس إلى جعفر بن علي فسلَّموا عليه وعزّوه وهنّوه وقالوا: إنَّ معنا كتباً ومالاً، فتقول ممَّن الكتب؟ وكم المال؟

فقام ينفض أثوابه ويقول: تريدون منّا أن نعلم الغيب.

قال: فخرج الخادم فقال: معكم كتب فلان وفلان وفلان، وهميان فيه ألف دينار وعشرة دنانير منها مطلية، فدفعوا إليه الكتب والمال وقالوا: الذي وجَّه بك لأخذ ذلك هو الإمام...»[1].

المقصود من عرض هذه القصَّة أنَّ شيعة أهل البيت عليهم السلام آمنوا بأهل البيت عبر استدلال وعبر علامات وليس مجرَّد ادّعاءات، علامات دقيقة شخَّصوها، وإلى اليوم بحمد الله تعالى شيعة أهل البيت عليهم السلام لم تزل بهم قدم، خطّ مستقيم، صراط مستقيم يمشون عليه، هذا هو الوعي الثقافي والسياسي والديني الذي عندهم.

اليوم أيضاً قد يقول قائل: نحن الآن في زمان الغيبة إذن أين الأدلّة وأين العلامات؟

إذا كان أبو الأديان ووفد قم تقدَّمت لهم أدلّة، عجباً الآن ألا نحتاج أدلّة؟

أيضاً نحتاج أدلّة، ولا بدَّ أن تكون الأدلّة يقينية كما هو الشأن في كلّ القضايا الاعتقادية، يجب أن تكون أدلّة يقينية.

---

(١) كمال الدين: ٤٧٤ - ٤٧٦/ باب ٤٣.

أنت مرَّةً تريد أن تتعبَّد بشيء لا يحتاج إلى دليل يقيني قطعي، تريد أن تصلّي يقال لك: حكمك الشرعي كيت وكيت، أنت تقوم وتعمل وفق الحكم الشرعي وتتعبَّد وتصلّي لوجه الله ولا تحتاج إلى يقين لأنَّ هذا تكليف وحكم تعبّدي، لكن في القضايا الاعتقادية لا بدَّ أن تطمئن بذلك المعتقد ومعناه أنَّك تحتاج إلى دليل يقيني، ولهذا فإنَّ بعض الكُتّاب من أهل السُنّة يشكلون على الشيعة ويقولون: أنتم تؤمنون بالإمام وتعتقدون بالغيبة وبالإمام المهدي هذا اعتقاد والقضايا الاعتقادية لا يكفي بها خبر أو مجموعة أخبار لا بدَّ أن تقدّموا لنا الدليل اليقيني؟

علماؤنا يقولون: أدلّتنا على الإمام المنتظر عليه السلام هي بمستوى القطع واليقين.

آية الله سيّدنا الشهيد محمّد باقر الصدر قدس سره في كتابه الموجز (بحث حول المهدي) يستعرض استعراضاً سريعاً نوعين من الأدلّة، الأوّل هو الدليل الإسلامي، والثاني هو الدليل العلمي كما سمّاه الشهيد الصدر قدس سره.

أربعة أدلّة على وجود الإمام المهدي عليه السلام:

والحقيقة أنَّ أربعة نماذج من الأدلّة يمكن أن نقدّمها:

الدليل الأوّل: هو الدليل العقلي الذي يعتمد على قاعدة اللطف وهو الذي ذكره الشيخ الطوسي وغيره من علماء الطائفة الذين يستندون إلى هذا الدليل كواحد من الأدلّة، وقد سبق أن قدَّمنا صورة عن هذا الدليل[(١)].

الدليل الثاني: هو الدليل الشرعي وهو عبارة عن الروايات المتواترة في هذا الأمر، وهذا الدليل هو الذي يسمّيه الشهيد الصدر بالدليل الإسلامي.

(١) راجع: الغيبة للطوسي: ٣/ فصل الكلام في الغيبة.

الدليل الثالث: هو الدليل العلمي كما سمّاه وشرحه الشهيد الصدر[١].

الدليل الرابع: هو الدليل الخارجي، وهو عبارة عن مجموعة اللقاءات الأكيدة التي حدثت مع صاحب العصر، بحيث لا يمكن الشكّ بصحّتها ووثاقتها.

موجز عن الدليل الإسلامي:

الشهيد الصدر في الدليل الشرعي الإسلامي يقول: المسألة يقينية حيث يوجد في مصادر الفريقين الشيعة والسُنّة ستّة آلاف رواية في الإمام المنتظر عليه السلام، أربعمائة رواية منها هي عن طريق أبناء السُنّة، حينما نجمع هذه المجموعة من الروايات والكم الهائل المتعدّد الإسناد، والمتعدّد النقول، رغم الملاحقة والمطاردة التي كانت على الشيعة، نجد أنَّ القضيّة كافية جدّاً لتوليد اليقين بصحّتها.

العلاّمة الأستاذ السيّد عدنان البكاء في كتابه (الإمام المهدي المنتظر) ينقل بعض الروايات، وهكذا سليم بن قيس وهو أوّل مؤرخ إسلامي في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله له رواية مهمّة، يرويها عن سلمان:

يقول: دخلت على النبيّ صلى الله عليه وآله فإذا الحسين بن علي عليه السلام على فخذه، وتفرَّس في وجهه وقبَّل بين عينيه وقال:

«أنت سيّد ابن سيّد، أنت إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمّة، أنت حجّة ابن حجّة الله، وأبو حجج تسعة من صلبك تاسعهم قائمهم»[٢]، هذه نماذج من تلك الروايات.

---

(١) راجع: بحث حول المهدي: ٤١ و٤٢.

(٢) كتاب سليم بن قيس: ٤٦٠/ ح ٧٧.

ونحن إذا أردنا في أيّ قضيّة تاريخية أن نقدّم أدلّة الإثبات عليها فإنَّ ستّة آلاف رواية، (أربعمائة) روايةٍ منها يرويها أبناء العامّة بمصادرهم، وأسانيد متعدّدة، تكون كافية جدّاً لتحصيل اليقين.

موجز عن الدليل العلمي:

في الدليل العلمي كما ذكره الشهيد الصدر نحاول أن نبحث القضيّة استقرائياً وميدانياً كبحث علمي في المختبر.

أضرب لكم مثالاً: أنتم تعرفون أنَّ العراق عاش عهداً ملكياً حوالي ثلاثين عاماً حكم فيها فيصل الأوّل والثاني وغازي وعبد الإله ولا أحد من الموجودين حالياً عاش العهد الملكي لكن هل يوجد أحد الآن يشكُّ في أنَّ العراق عاش عهداً ملكياً، ثمّ دخل العهد الجمهوري؟ لا أحد يشكُّ، لماذا؟ لأنَّ أدلّة الإثبات موجودة، هناك أمّة كاملة، أبناء وأجداد وصحفيون وصحافة، وكتب ومجلات، وإذاعة وبيانات، وشعر وقصائد ووثائق موجودة في المكتبات وفي المتاحف الكبرى العالمية تتحدَّث عن هذه الفترة التي عاشها العراق في ظلّ العهد الملكي، فإذا وجد اليوم شخص يقول: إنَّ الأمر كلّه خيال ووهم، والعراق لم يعش عهداً ملكياً، فإنَّك تقول له: أنت تصطدم مع الحقيقة التي لا تقبل الشكّ.

وإذا أردنا مثلاً أن نثبت أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله هاجر من مكّة المكرَّمة إلى المدينة فما هو دليلنا؟

المسألة التاريخية ليست مسألة روايات فقط، وإنَّما أمّة كاملة عاشت هذه التجربة والنبيّ في المدينة أسَّس حكماً، وخاض حروباً، وبنى مساجد، يعني القضيّة بالأرقام الميدانية وليست فقط بالأخبار والروايات.

الشهيد الصدر يسمّي ذلك: (تجربة استقرائية) ونحن بالتجربة الاستقرائية الخارجية نثبت وجود الإمام المنتظر عليه السلام.

نحن نعرف أنَّ أمّة كاملة عاشت تجربة طولها سبعين عاماً، هي تجربة النوّاب الأربعة، أربعةُ وكلاء فقهاء عدول بأعلى المستويات من العدالة، وبنسق واحد يتحدَّثون بتوافق كامل وبعيداً عن أيّ منازعات ومصلحية وبعيداً عن أيّ شكوك وعن أيّ اضطراب في الكيفية وفي النصوص، يقولون: نحن ننقل لكم في النيابة عن الإمام المنتظر، مدّة سبعين سنة، وهناك أمّة كاملة فيها فقهاء عظماء أيضاً عاشت مع وكلاء ونوّاب الإمام المنتظر وهم (عثمان بن سعيد العمري، ومحمّد بن عثمان العمري، والحسين بن روح النوبختي وعلي بن محمّد السمري) أربعة فقهاء كان إمام الزمان عليه السلام يتَّصل من خلالهم بالناس، والناس يقدّمون رسائل إلى هؤلاء، هذه تجربة كاملة لفقهاء عاشوا مع هؤلاء الوكلاء الأربعة مثل الشيخ الصدوق وفقهاء آخرين أدركوا الفترة التالية بعدها مثل الشيخ المفيد والشيخ الكليني الذين وقفوا خاضعين أمام هذه التجربة ولم يكذّبوها ولا شكَّكوا فيها، فهل يمكن أن يكونوا كلّهم سذّجاً وبسطاء تنطلي عليهم الكذبة؟

القضايا التاريخية كيف يمكن إثباتها بأكثر من ذلك؟

التجربة على الأرض حينما تحدث فهذا إثبات بالنسبة لنا.

قصّة من محمّد بن عثمان العمري:

محمّد بن عثمان العمري وهو أحد نوّاب الإمام وكان وسيطاً بين الشيعة والإمام المنتظر عليه السلام.

يقول الراوي: دخلت على أبي جعفر محمّد بن عثمان رضي الله عنه يوماً لأُسلّم عليه، فوجدته وبين يديه ساجة _ أي خشبة من صاج _ ونقّاش ينقش عليها ويكتب آياً من القرآن وأسماء الأئمّة عليهم السلام على حواشيها.

فقلت له: يا سيّدي ما هذه الساجة؟

فقال لي: هذه لقبري تكون فيه أوضع عليها ـ أو قال: أسند إليها وقد عرفت منه ـ، وأنا في كلّ يوم أنزل فيه فأقرأ جزءاً من القرآن فيه فأصعد، ـ فأظنّه قال: فأخذ بيدي وأرانيه ـ.

فإذا كان يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا صرت إلى الله عزّ وجلّ ودفنت فيه وهذه الساجة معي.

يقول الراوي: فلمَّا خرجت من عنده أثبتُّ ما ذكره ولم أزل مترقّباً به ذلك فما تأخَّر الأمر حتَّى اعتلَّ أبو جعفر، فمات في اليوم الذي ذكره من الشهر الذي قاله من السنة التي ذكرها، ودفن فيه[1].

لقد كان هؤلاء الفقهاء بهذا المستوى من الورع والتقوى وهم الجسور بيننا وبين الإمام المنتظر عليه السلام.

هذا الحسين بن روح وهو النائب الثالث للإمام المنتظر عليه السلام كان يوجد فقيه معاصر له اسمه جعفر بن أحمد كان كلّ الناس يتحدَّثون أنَّ هذا الفقيه المعاصر له سوف يكون هو المرجع الديني والنائب للإمام المنتظر، يعني بعد الوكيل الثاني سوف يكون جعفر بن أحمد هو الوكيل الثالث وليس الحسين بن روح لمقامه وفضله وشدّة تقواه وورعه، ولمَّا حضرت محمّد بن عثمان العمري ـ وهو الوكيل الثاني ـ الوفاة كان جعفر بن أحمد جالساً عند رأسه والحسين بن روح جالساً عند رجليه، يقول جعفر بن أحمد: بينما كنّا كذلك التفت محمّد بن عثمان العمري إليَّ وقال: يا جعفر قد جاء الأمر بالنيابة بعدي إلى الحسين بن روح، يقول جعفر: قمت وجلست عند رجلي محمّد بن عثمان وأخذت بيد

(١) الغيبة للطوسي: ٣٦٥/ ح ٣٣٢.

الحسين بن روح وأجلسته عند رأس محمّد بن عثمان دون أن يكون هناك أي تنافس أو أنانية(١).

مثل هذا المستوى لمراجعنا ومعهم أمّة كاملة كانت تراقب مسيرتهم وفيهم كبار الفقهاء مثل الشيخ الصدوق والمفيد والكليني بأعلى المستويات ولا نجدهم قد ناقشوا ولا شكّكوا في الأمر وكانت المسألة بالنسبة لهم بمستوى من اليقين، فإذا لم تكن قضيّة الإمام المنتظر عليه السلام قضيّة واقعية فكيف يمكن أن تخدع أمّة كاملة لمدّة سبعين سنة، هذا هو ما يسمّيه الشهيد الصدر قدس سره بالدليل العلمي.

مسؤوليتنا في زمان الغيبة:

هل مسؤوليتنا هي البحث عن الإمام؟ أم هي الإعداد لظهور الإمام؟

هل نبحث عنه في مسجد السهلة، في الكوفة، في سامراء، في مكّة، في المدينة؟ هل هذه هي مسؤوليتنا أم هي الإعداد لظهور الإمام وقيام دولته؟

طبعاً مسؤوليتنا كما تقول الروايات الثابتة الصحيحة(٢) وكما يقول العلماء والفقهاء هي الإعداد لظهور الإمام ولكن مع ذلك فإنَّ هناك فهماً نسمّيه الفهم البدائي.

الفهم الصحيح أنَّ مسؤوليتنا تجاه الإمام المنتظر عليه السلام هي الإعداد لظهوره، والاستعداد لدولته ولا مانع في نفس الوقت العمل على اللقاء به والتشرّف بخدمته.

إنَّ الاتّجاه المعروف والمقبول عند علمائنا أنَّه يمكن اللقاء به

---

(١) أنظر: كمال الدين: ٥٠٣/ باب ٤٥/ ح ٣٣.

(٢) راجع: بحار الأنوار ٥١: ٣٥٤.

لكن ليس بالطريقة التقليدية يعني البحث عنه هنا وهناك وما شاكل ذلك، مسؤوليتنا هي شيء آخر.

موجز عن الدليل الخارجي:

الدليل الرابع وهو ما أسميناه بالدليل الخارجي حيث يتحدَّث علماء، فقهاء، صالحون، عن لقائهم بالإمام المنتظر عليه السلام، وأمام هذه اللقاءات المنقولة إلينا بأخبار صحيحة لا نجد إلاَّ موقف التصديق بها والاعتراف بواقعية ما تتحدَّث عنه.

ومن المهمّ الإشارة إلى معنى عدد من الروايات التي تأمر بتكذيب من يدّعي المشاهدة.

في الحقيقة إنَّ هذه الروايات ربَّما تكون صحيحة ولكن المقصود بها الإشارة إلى أولئك الذين يعملون على خداع الناس بادّعاء المشاهدة واللقاء بالمعصوم عليه السلام.

أمَّا علماؤنا الصالحون فهم لا يريدون أبداً ادّعاء المشاهدة واللقاء، بل يحاولون إخفاء ذلك إن حدث لهم، ولكنَّهم ربَّما ذكروا ذلك تطميناً للقلوب وتأكيداً للحقيقة.

صور اللقاء بالإمام المنتظر عليه السلام:

اللقاء بالإمام على أربع صور:

الصورة الأولى: اللقاء العامّ:

نحن نعتقد أنَّ شيعة أهل البيت عليهم السلام كلّهم لديهم لقاء عامّ مع الإمام عليه السلام، ماذا يعني اللقاء العامّ؟

اللقاء العامّ يعني أنَّنا الآن في مجمل حركتنا واتّجاهاتنا السياسية

والفكرية ومحافلنا الدينية الصحيحة والشرعية لدينا في مجمل هذا التحرّك حضور وتسديد وترشيد وفاعلية من قبل إمام الزمان عليه السلام فهو معنا يشهدنا ويبارك لنا ويدعو لنا، هذا هو اللقاء العامّ، فهو لقاء معنوي روحي كاللقاء بالأئمّة عليهم السلام حينما نزور مراقدهم الشريفة.

إنَّ مجمل الحركة الدينية لدى شيعة أهل البيت عليهم السلام فيها لقاء عام مع الإمام المعصوم عليه السلام، ولولا هذا اللقاء العامّ وهذا الحضور وهذه الفعالية لم نكن قادرين على أن نواصل السير رغم الصعوبات والمعاناة.

الصورة الثانية: اللقاء في المنام:

علماؤنا جمعوا مئات الرؤى للقاء بالإمام صاحب العصر والزمان عليه السلام.

الشيخ الحُرّ العاملي هو من كبار علماء الشيعة في كتاب (إثبات الهداة) جمع ستّة منامات له شخصياً التقى فيها مع الإمام المنتظر عليه السلام.

وكان لي شخصياً قبل حوالي عشرين سنة شرف اللقاء به عليه السلام في المنام إلى جوار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام سألته فيها ثلاث مسائل بعد أن عانقته وعانقني وقدَّم لي ثلاث بشائر هي أغلى ما أدَّخرهُ في عمري، ولقد طفت معه ضريح الإمام علي عليه السلام ووضعت يدي بيده، وسألته ثلاث مسائل فأجابني عليها.

وكان لي قبل ثلاث سنوات شرف اللقاء به وتقبيل يده الشريفة في المنام، ثمّ كان لي لقاء آخر معه والصلاة خلفه، وقد كنت حدَّثت بها سيّدنا شهيد المحراب قدس سره في أيّام المحنة الشديدة علينا قبل الانتصار، وقبل سقوط صدام حيث كانت قد اشتدَّت بنا المحن.

الصورة الثالثة: اللقاء المباشر غير المعروف:

والمقصود أن يحصل اللقاء المباشر وفي عالم اليقظة وليس المنام ولكن

لا تتوجَّه ولا تعرف أنَّه الإمام المنتظر عليه السلام، ولكن بعد أن يتغيَّر المجلس وتفتقد الإمام تعرف أنَّه الإمام عليه السلام، هذا النحو من اللقاء يتحدَّث عنه كثير من العلماء كما ذكرنا لقاء العلاّمة الحلّي في قصَّة سابقة(١).

وهناك لقاء أعظم من هذه الصور كلّها وهو:

الصورة الرابعة: اللقاء المباشر المعروف:

والمقصود أنَّك تلتقي به عليه السلام وتعرفه وتكلّمه مثل لقاء علي بن مهزيار ونذكرها للتبرّك.

قصَّة علي بن مهزيار:

عن حبيب بن محمّد بن يونس بن شاذان الصنعاني، قال: دخلت إلى علي بن إبراهيم بن مهزيار الأهوازي فسألته عن آل أبي محمّد عليه السلام.

فقال: يا أخي لقد سألت عن أمر عظيم، حججت عشرين حجّة كلاً أطلب به عيان الإمام فلم أجد إلى ذلك سبيلاً، فبينا أنا ليلة نائم في مرقدي إذ رأيت قائلاً يقول: يا علي بن إبراهيم! قد أذن الله لي في الحجّ، فلم أعقل ليلتي حتَّى أصبحت، فأنا مفكّر في أمري أرقب الموسم ليلي ونهاري.

فلمَّا كان وقت الموسم أصلحت أمري، وخرجت متوجّهاً نحو المدينة، فما زلت كذلك حتَّى دخلت يثرب فسألت عن آل أبي محمّد عليه السلام، فلم أجد له أثراً ولا سمعت له خبراً، فأقمت مفكّراً في أمري حتَّى خرجت من المدينة أريد مكّة، فدخلت الجحفة وأقمت بها يوماً وخرجت منها متوجّهاً نحو الغدير، وهو على أربعة أميال من الجحفة، فلمَّا أن دخلت المسجد صلَّيت وعفَّرت واجتهدت في الدعاء وابتهلت

(١) أنظر (ص ٦٢٧) تحت عنوان: قصَّة العلاّمة الحلّي.

إلى الله لهم، وخرجت أريد عسفان، فما زلت كذلك حتَّى دخلت مكّة فأقمت بها أيّاماً أطوف البيت واعتكفت.

فبينا أنا ليلة في الطواف، إذا أنا بفتى حسن الوجه، طيّب الرائحة، يتبختر في مشيته طائف حول البيت، فحسَّ قلبي به، فقمت نحوه فحككته، فقال لي: من أين الرجل؟

فقلت: من أهل العراق.

فقال: من أيّ العراق؟

قلت: من الأهواز.

فقال لي: تعرف بها الخصيب؟

فقلت: رحمه الله، دُعي فأجاب.

فقال: رحمه الله، فما كان أطول ليلته وأكثر تبتّله وأغزر دمعته، أفتعرف علي بن إبراهيم بن المازيار؟

فقلت: أنا علي بن إبراهيم.

فقال: حياك الله أبا الحسن ما فعلت بالعلامة التي بينك وبين أبي محمّد الحسن بن علي عليهما السلام؟

فقلت: معي.

قال: أخرجها.

فأدخلت يدي في جيبي فاستخرجتها، فلمَّا أن رآها لم يتمالك أن تغرغرت عيناه بالدموع وبكى منتحباً حتَّى بلَّ أطماره.

ثمّ قال: أذن لك الآن يا بن مازيار، صر إلى رحلك وكن على أهبّة من أمرك، حتَّى إذا لبس الليل جلبابه، وغمر الناس ظلامه، سر إلى شعب بني عامر! فإنَّك ستلقاني هناك، فسرت إلى منزلي. فلمَّا أن أحسست

بالوقت أصلحت رحلي وقدمت راحلتي وعكمته شديداً، وحملت وصرت في متنه وأقبلت مجدّاً في السير حتَّى وردت الشعب، فإذا أنا بالفتى قائم ينادي: يا أبا الحسن إلي.

فما زلت نحوه، فلمَّا قربت بدأني بالسلام وقال لي: سر بنا يا أخ، فما زال يحدّثني وأُحدّثه حتَّى تخرَّقنا جبال عرفات، وسرنا إلى جبال منى، وانفجر الفجر الأوّل ونحن قد توسَّطنا جبال الطائف. فلمَّا أن كان هناك أمرني بالنزول وقال لي: انزل فصلّ صلاة الليل.

فصلَّيت، وأمرني بالوتر فأوترت، وكانت فائدة منه، ثمّ أمرني بالسجود والتعقيب، ثمّ فرغ من صلاته وركب، وأمرني بالركوب وسار وسرت معه حتَّى علا ذروة الطائف، فقال: هل ترى شيئاً؟

قلت: نعم أرى كثيب رمل عليه بيت شعر يتوقَّد البيت نوراً. فلمَّا أن رأيته طابت نفسي.

فقال لي: هناك الأمل والرجاء.

ثمّ قال: سر بنا يا أخ، فسار وسرت بمسيره إلى أن انحدر من الذروة وسار في أسفله.

فقال: انزل فهاهنا يذلُّ كلّ صعب، ويخضع كلّ جبّار.

ثمّ قال: خلّ عن زمام الناقة.

قلت: فعلى من أخلفها؟

فقال: حرم القائم عليه السلام، لا يدخله إلاَّ مؤمن ولا يخرج منه إلاَّ مؤمن، فخلَّيت من زمام راحلتي، وسار وسرت معه إلى أن دنا من باب الخباء، فسبقني بالدخول وأمرني أن أقف حتَّى يخرج إليَّ.

ثمّ قال لي: أدخل هنَّأك السلامة، فدخلت فإذا أنا به جالس قد اتَّشح ببردة

واتَّزر بأخرى، وقد كسر بردته على عاتقه، وهو كأقحوانة أرجوان قد تكاثف عليها الندى، وأصابها ألم الهوى، وإذا هو كغصن بان أو قضيب ريحان، سمح سخي تقي نقي، ليس بالطويل الشامخ، ولا بالقصير اللازق، بل مربوع القامة، مدوَّر الهامة، صلت الجبين، أزج الحاجبين، أقنى الأنف، سهل الخدّين، على خدّه الأيمن خال كأنَّه فتات مسك على رضراضة عنبر.

فلمَّا أن رأيته بدرته بالسلام، فردَّ عليَّ أحسن ما سلَّمت عليه، وشافهني وسألني عن أهل العراق، فقلت: سيّدي قد ألبسوا جلباب الذلّة، وهم بين القوم أذلاّء.

فقال لي: «يا بن المازيار لتملكونهم كما ملكوكم، وهم يومئذٍ أذلاّء».

فقلت: سيّدي لقد بعد الوطن وطال المطلب.

فقال: «يا بن المازيار أبي أبو محمّد عهد إليَّ أن لا أجاور قوماً غضب الله عليهم ولعنهم ولهم الخزي في الدنيا والآخرة ولهم عذاب أليم، وأمرني أن لا أسكن من الجبال إلاَّ وعرها، ومن البلاد إلى عفرها، والله مولاكم أظهر التقيّة فوكَّلها بي فأنا في التقيّة إلى يوم يؤذن لي فأخرج».

فقلت: يا سيّدي متى يكون هذا الأمر؟

فقال: «إذا حيل بينكم وبين سبيل الكعبة، واجتمع الشمس والقمر واستدار بهما الكواكب والنجوم».

فقلت: متى يا بن رسول الله؟

فقال لي: «في سنة كذا وكذا تخرج دابة الأرض من بين الصفا والمروة، ومعه عصا موسى وخاتم سليمان، يسوق الناس إلى المحشر».

قال: فأقمت عنده أيّاماً وأذن لي بالخروج بعد أن استقصيت لنفسي وخرجت نحو منزلي، والله لقد سرت من مكّة إلى الكوفة ومعي غلام يخدمني فلم أرَ إلاَّ خيراً(١).

هذه القصَّة هي نموذج من عشرات، بل مئات من قصص اللقاء مع الإمام الحجّة عليه السلام.

ومع ذلك فإنَّ مسؤوليتنا هي الإعداد والاستعداد لظهوره عليه السلام.

في دعاء نقرأ:

«اللَّهُمَّ إِنّي أُجَدِّدُ لَهُ فِي هَذَا الْيَوْم وَفِي كُلِّ يَوْم عَهْداً وَعَقْداً وَبَيْعَةً فِي رَقَبَتِي، اللَّهُمَّ كَمَا شَرَّفْتَنِي بِهَذَا التَّشْرِيفِ وَفَضَّلْتَنِي بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ، وَخَصَصْتَنِي بِهَذِهِ النّعْمَةِ، فَصَلِّ عَلَى مَوْلايَ وَسَيِّدِي صَاحِبِ الزَّمَانِ وَاجْعَلْنِي مِنْ أَنْصَارِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَالذَّابّينَ عَنْهُ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُسْتَشْهَدِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ»(٢).

التكليف في زمن الغَيبة:

في بداية الحديث رأينا الإمام الصادق عليه السلام يشخّص لنا ما هو التكليف في هذا الزمن وهو زمن الغيبة.

يقول عليه السلام: «من سرَّه أن يكون من أصحاب القائم فلينتظر وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق وهو منتظر، فإن مات وقام القائم بعده كان له من الأجر مثل أجر من أدركه، فجدّوا وانتظروا، هنيئاً لكم أيّتها العصابة المرحومة»(٣).

(١) الغيبة للطوسي: ٢٦٣ - ٢٦٧/ ح ٢٢٨.

(٢) المزار لابن المشهدي: ٦٦٢ و٦٦٣.

(٣) الغيبة للنعماني: ٢٠٧/ باب ١١/ ح ١٦.

فلينتظر ويكون ثابتاً على هذا المعتقد، ويكون غير آيس من ظهوره عليه السلام، وهذا هو معنى الانتظار حيث ورد في الروايات عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أفضل أعمال أمّتي انتظار الفرج»[1]، هذا هو العمل الأوّل.

أمَّا العمل الثاني العمل بالورع والتقوى والابتعاد عن المعاصي، وهذا تكليفنا في زمن الغيبة.

والعمل الثالث أن يكون حسن الأخلاق والتعامل مع الناس ومع الأهل ومع الدائرة ومع المراجعين ومع الأستاذ ومع الطلبة.

وهذه أمور ميسورة لكلّ واحد عليه أن ينتظر ويعمل بالورع ويعمل بمحاسن الأخلاق.

رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «يا فضيل، اعرف إمامك فإنَّك إذا عرفت إمامك لم يضرّك تقدَّم هذا الأمر أو تأخَّر، ومن عرف إمامه ثمّ مات قبل أن يقوم صاحب هذا الأمر كان بمنزلة من كان قاعداً في عسكره...»، كما لو كنت جندياً معه إذا كنت عارفاً بالإمامة معتقداً به منتظراً لأمره ومؤدّياً للتكليف الذي عليك وهو الانتظار، الورع، محاسن الأخلاق.

ثمّ يقول عليه السلام: «لا، بل بمنزلة من قعد تحت لوائه»[2].

لماذا لا يستجاب الدعاء بالفرج؟

إنَّ إحدى المستحبّات في زمن الغيبة الدعاء بالفرج وهذا هو الدعاء المعروف: «اللَّهُمَّ كُنْ لِوَلِيِّكَ الْحُجَّةِ بْنِ الْحَسَنِ، صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ

(١) تحف العقول: ٣٧.

(٢) الغيبة للنعماني: ٣٥٠ و٣٥١/ باب ٢٥/ ح ٢.

وَعَلَى آبَائِهِ، فِي هَذِهِ السَّاعَةِ وَفِي كُلِّ سَاعَةٍ، وَلِيّاً، وَحَافِظاً، وَقَائِداً، وَنَاصِراً، وَدَلِيلاً، وَعَيْناً، حَتَّى تُسْكِنَهُ أَرْضَكَ طَوْعاً وَتُمَتِّعَهُ فِيهَا طَوِيلاً»[١].

لكن قد تقولون: إنَّه طالما ندعو فلا يستجاب فما هو السبب؟

هنا الإمام الصادق عليه السلام أو الباقر عليه السلام، والرواية هي مردَّدة بين الإمامين تقول: (عن أحدهما)، الرواية يرويها الشيخ الكليني في (الكافي) عن محمّد بن مسلم، وهو من تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام من الدرجة الأولى الذي روى عن الإمام الصادق عليه السلام ثلاثين ألف رواية، يروي عن أحدهما إمَّا الباقر أو الصادق عليه السلام هكذا يقول في الجواب عن السؤال: إنَّه لماذا ندعو ولا يستجاب لنا؟

الإمام الباقر أو الإمام الصادق عليه السلام يقول:

«يا أبا محمّد إنَّما مثل أهل البيت مثل أهل بيت كانوا في بني إسرائيل كان لا يجتهد أحد منهم أربعين ليلةً إلاَّ دعا فأجيب، وإنَّ رجلاً منهم اجتهد أربعين ليلةً، ثمّ دعا فلم يستجب له فأتى عيسى ابن مريم عليه السلام يشكو إليه ما هو فيه ويسأله الدعاء.

قال: «فتطهَّر عيسى وصلّى ثمّ دعا الله عزّ وجلّ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا عيسى إنَّ عبدي أتاني من غير الباب الذي أؤتى منه، إنَّه دعاني وفي قلبه شكّ منك فلو دعاني حتَّى ينقطع عنقه وتنتثر أنامله ما استجبت له».

قال: «فالتفت إليه عيسى عليه السلام فقال: تدعو ربّك وأنت في شكّ من نبيّه؟

فقال: يا روح الله وكلمته قد كان والله ما قلت، فادع الله لي أن يذهب به عنّي».

---

(١) مصباح المتهجّد: ٦٣٠ و٦٣١/ ح (٨٥/٧٠٩).

قال: «فدعا له عيسى عليه السلام فتاب الله عليه وقبل منه وصار في حدّ أهل بيته»[١].

المطلوب إذن أوّلاً دعاء مع يقين.

وثانياً الورود من نفس الباب الذي أمر الله تعالى أن ندخل منه.

﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها﴾ (البقرة: ١٨٩)، أمَّا أن تدخل من الشباك فلا تلوم أحداً إذا جرحت أو لم تصل سالماً.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها»[٢]، فإذا أراد أحد أن يأتي مدينة الرسول من باب أبي هريرة فلن يصل.

فالدعاء بالفرج مستحبّ ولكن مع الثقة ومع اليقين وبشرط أن ندخل البيوت من أبوابها.

موقع المرأة:

حديثنا هو عقد مقارنة بين حركة الحسين عليه السلام وحركة الإمام المهدي عليه السلام في موقع المرأة في الحركتين.

المرأة لها موقع في حركة الإمام الحسين عليه السلام فهل لها مثل ذاك الموقع في حركة الإمام صاحب الزمان؟

ثمّ هذا الأمر ينفتح لنا منه باب واسع وهو اعتقادنا بموقع المرأة في الإسلام.

اليوم في العالم يدور الحديث عن حقوق المرأة، وحرّية المرأة،

---

(١) الكافي ٢: ٤٠٠/ باب الشكّ/ ح ٩.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢١٠ و٢١١/ باب ٢٣/ ح ١؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٢٧.

ومشاركة المرأة، الإسلام ماذا يعتقد في حرّية المرأة، وحقّ المرأة؟ وهذا الأمر هو محلّ حديث وبحث ساخن في أيّامنا هذه.

في أيّامنا هذه توجد امرأة في أمريكا أصبحت مثاراً للحديث في الصحف والأقلام وكتابات المفكّرين وحتَّى وصلت إلى شيخ الأزهر، هذه المرأة اسمها: (أمينة ودود) وهي مسلمة أمريكية طرحت موضوع إمامة المرأة للرجال في الصلاة، قالت: مثلما أنتم الرجال تكونون إمام جماعة ونحن نصلّي وراءكم، فأنا أمينة ودود أريد أن أكون إمام جماعة، نقلت بعض الصحافة أنَّها بدأت تفعل هذا الأمر وصلَّت صلاة الجماعة تريد أن تكون إمام جماعة في المسجد ويصلّي وراءها الرجال، هذا الموضوع أصبح ساخناً جدَّاً في الإعلام وفي الصحافة حتَّى تناوله شيخ الأزهر وأعطى فيه الفتوى الفقهية.

أنا الآن لست بصدد تناول هذا الموضوع لكن أريد أن أذكر موضوعات ساخنة، إنَّه حينما نتحدَّث عن حقوق المرأة وموقعها فإنَّ له مستويات معيَّنة، وحتَّى يصل إلى مستوى إمامة المرأة للرجل في الصلاة وأنَّ هذا هل هو في الحقيقة علامة من علامات المساواة أو لا فهو شيء آخر؟

في الحقيقة هو تجاوز للواقعيات، وتجاوز للامتيازات التكوينية بين الرجل والمرأة، هذا هو ما نريد أن نبحثه موجزاً.

النظرية الإسلاميّة في المرأة:

ننفتح للحديث عمَّا هي النظرية الإسلاميّة في المرأة ويمكن تلخيصها بما يلي:

أوّلاً: الأصالة الإنسانية.

ثانياً: المساواة الحقوقية.

ثالثاً: التمايزات الوظيفية.

هذه الأمور الثلاثة هي خلاصة ما يعتقد به الإسلام في المرأة والآن حينما نطرح هذا الأمر بشكل معاصر نجد أنّ الادّعاءات الغربية تجاه حقوق المرأة واتّهام الإسلام بأنَّه لا يراعي المرأة نجدها ادّعاءات كاذبة.

الأصالة الإنسانية:

حيث إنَّ الإسلام يعتقد أنّ الأصالة ليست لعنصر الذكورة ولا لعنصر الأنوثة وإنَّما الأصالة للإنسان، والإنسان موجود في الرجل كما هو موجود في المرأة هذا نسمّيه الأصالة الإنسانية، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، رجالاً أو نساءً لا يوجد فرق.

التساوي في الحقوق:

﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ١٣)، هذه الآية ختمت كلّ حديث عن المرأة.

كما المؤمن وليّ على المؤمنة كذلك المؤمنة وليّة على المؤمن، فالمرأة لها موقع الولاية والريادة في بناء المجتمع، هذا هو ما نسمّيه بالمشاركة السياسية أو المشاركة الاجتماعية، وهكذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، هذا على مستوى العلاقات الأسرية، رغم أنَّ الإسلام قد أعطى القيمومة للرجل وقال: ﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ﴾ (النساء: ٣٤)، وقال: ﴿وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، إلاَّ أنَّ ذلك لا يصطدم مع حقيقة المساواة الحقوقية ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

التمايز الوظيفي:

في الوقت الذي نعتقد بالأصالة الإنسانية وفي الوقت الذي نعتقد بالمساواة الحقوقية لكن إلى جانب ذلك هناك تمايز وظيفي ناشئ من التمايز التكويني بين الرجل والمرأة.

هذا التمايز الوظيفي هو الذي يجعل المرأة اليوم في العالم المعاصر لا تتحمَّل أعمال ووظائف شاقّة ولا قتالاً عسكرياً ولا أعمالاً سياسية مرهقة.

الإسلام يعتقد أنَّ هناك تمايزاً وظيفياً يجعل المرأة تمارس مهاماً تتناسب مع طبيعتها الفسيولوجية والسيكولوجية التي تختلف عن المهام التي يندفع لها الرجل.

إنَّ هناك امتيازات تكوينية بين الرجل والمرأة سوف ينشأ عنها تمايز تشريعي ووظيفي يذكره القرآن في الميراث مثلاً: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ (النساء: ١١)، أو في القضاء حيث إنَّ شهادتها دون شهادة الرجل، ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، هذا هو ما نسمّيه تمايز تشريعي ناشئ من تمايزات تكوينية، دون أن يعني ذلك أنَّ الرجل له كرامة على المرأة فلا نتخلّى عن قوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾، ولا نبتعد عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ﴾ كلاَّ، هذا تمايز وظيفي تمارسه كلّ القوانين العالمية اليوم بشكل وآخر.

نفس هذا الواقع نجده في العلاقة بين الابن والأبوين، فالابن مسؤول عن البرّ بالوالدين ولكن ذلك لا يعني أنَّ الأب عند الله أفضل من الابن، بل الابن عند الله تعالى قد يكون أفضل من الأب فقد يكون الابن مجتهداً فقيهاً والأب من عامّة الناس.

كما يذكرون في قصَّة العلاّمة الحلّي المدفون في رواق الحضرة العلوية عند الباب الذهبية الأولى، الذي عاش في القرن السابع الهجري كان معروفاً بنبوغه والمعروف أنَّ عمره كان ثلاث عشرة سنة وبلغ مرتبة الاجتهاد الفقهي حيث تذكر بعض الروايات التاريخية أنَّ والده أراد أن يؤدّبه مرَّةً أو يضربه فانهزم منه العلاّمة الحلّي وتبعه الأب ولكن العلاّمة الحلّي قرأ آية السجدة من القرآن الكريم وهو غير مكلَّف فلا يجب عليه السجود، لكن أباه يجب عليه أن يسجد وعندما يسجد الأب يكون العلاّمة الحلي قد هرب.

هذا كمثال ذكرته في الحقيقة للإشارة إلى أنَّ الابن قد يكون أفضل من الأب، لكن مع ذلك فإنَّ الابن يجب أن يطيع الأب ويكون بارّاً به وهذا لا يدلُّ على الأفضلية، بل هذه قضيّة أخرى، نسمّيها التمايز الوظيفي والتمايز التشريعي على أساس الاستحقاقات التكوينية، هذا ليس تمايزاً في الكرامة الإنسانية، ولا تمايزاً في الجنبة الحقوقية، حيث يقول تعالى: ﴿المُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١)، ويقول: ﴿وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ١٩)، لكن إلى جانب ذلك يوجد تمايز وظيفي كما هو اليوم موجود في كلّ العالم لكن العالم الغربي يحاول خداع الناس في مسألة الدفاع عن حقوق المرأة حتَّى وصلنا إلى ما ذكرنا لكم في قصَّة أمينة ودود ومطالبتها بأن تكون المرأة إمامة جماعة للرجال، وبالفعل فقد قامت بإمامة حوالي مائة من الرجال والنساء في أحد الكنائس في نيويورك وفي ظلّ حماية أمنية مشدَّدة برعاية الولايات المتّحدة الأمريكية!

التشريع الإسلامي يقول: إنَّ المرأة لا تكون إماماً للرجل في صلاة الجماعة، ليس على أساس أنَّ الرجل أفضل، بل على أساس أنَّ خصائص المرأة لا تسمح لها أن تكون في موقع الإمامة في الصلاة لطبيعة البناء النفسي والبدني للمرأة والبناء النفسي والبدني للرجل، كما أنَّ المرأة لا يمكن أن تكون حدّاداً مثلاً أو عاملة في المناجم الشاقة تحت الأرض أو مقاتلة في الخطوط الأمامية، وهكذا الحال في الشهادة عند القضاء حيث إنَّ شهادتها بنصف شهادة الرجل فإنَّ هذا الحكم خاضع للتمايز التكويني بينها وبين الرجل من حيث قدراتها العاطفية.

الإنسان المعاصر مرغم على قبول هذا التمايز التكويني مهما ادّعى وحاول أن يكابر أو يخادع لكن التمايز التكويني والوظيفي يبقى موجوداً والفقه الإسلامي يبقى فقهاً أصيلاً مبنيّاً على أساس التمايز التكويني الذي سوف ينتج منه تمايز وظيفي وتشريعي.

أمَّا الأصالة الإنسانية فإنَّها تبقى واحدة وتبقى المساواة الحقوقية والسياسية واحدة.

إشكالات على النظرية الإسلاميّة:

حينئذٍ سوف نواجه إشكالين:

الإشكال الأوّل: كيف نفسّر اختلاف أحكام التشريع الإسلامي بين الرجل والمرأة، مثلاً في الميراث نجد أنَّ نصيب الرجل ضعف نصيب المرأة، وفي الحياة الزوجية نجد أنَّ الرجل هو القيّم على المرأة ﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ﴾ (النساء: ٣٤)، كيف نفسّر ذلك؟

الجواب: إنَّ هذا في الحقيقة انطلاق من التمايز التكويني بينهما

والتمايز الوظيفي، فطالما كان الرجل معيلاً بالمرأة وفقاً للبناء الإسلامي للمجتمع ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (النساء: ٣٤)، إذن من الطبيعي أن يكون حقّه المالي أكثر من حقّها.

يجب أن ندرس هذه المسألة من مجموع زواياها، ويجب أن ندرسها وفقاً لكامل النظرية الإسلاميّة التي تقول: إنَّ الرجل هو الذي يعيل بالمرأة وليست المرأة هي التي تعيل بالرجل، طبعاً في التشريع الغربي والحياة الغربية لا توجد مثل هذه المسؤولية ولا مثل هذه العلاقة، في حال من هذا القبيل لا معنى لأن يكون ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ (النساء: ١١)، لكن في التشريع الإسلامي عندما نأخذه ككلّ حيث إنَّ الرجل هو المعيل للمرأة وهو الكفيل بها، في ضوء هذا التشريع فإنَّ من الطبيعي أن يكون ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ لأنَّ المسؤولية المالية وضعها الإسلام في عاتق الرجل وبالتالي فإنَّ من الطبيعي أن يكون نصيب الرجل في الميراث أكثر من المرأة.

الإشكال الثاني: كيف نفسّر روايات انتقاص المرأة حيث توجد لدينا روايات تقول: «لولا النساء لعبد الله حقّاً حقّاً»[(١)]، «إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الإِيمَانِ، نَوَاقِصُ الْحُظُوظِ، نَوَاقِصُ الْعُقُولِ»[(٢)]. هذه الروايات موجودة في تراثنا الروائي، إذن كيف نفسّر ذلك؟

الجواب: نحن نأخذ أصل النظرية من القرآن الكريم ومن السُنّة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

وقد أشرنا أنَّ النظرية تتألّف من ثلاثة أركان:

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٩٠/ ح ٤٣٧٣.

(٢) نهج البلاغة ١: ١٢٩/ الخطبة ٨٠، في ذمّ النساء.

الأصالة الإنسانية، والمساواة الحقوقية، والتمايز الوظيفي، هذه هي النظرية، وحينئذٍ فإنَّ كلّ ما يصطدم مع هذه النظرية يجب أن نبحث له عن تفسير معقول أو نرد علمه وتفسيره إلى أهله عليهم السلام ونقول: إنَّ علمه عند أهله، أو نقول: هي بالأصل روايات غير ثابتة سنديّاً حيث لا نملك أيّ أرقام تدلُّ على أنَّ هذه الروايات صادرة عن الإمام المعصوم عليه السلام.

إنَّ الكثير من الروايات موجودة في كتب الحديث لكن الفقهاء لا يقبلون إلاَّ الروايات الصحيحة والموثوقة منها، ويتركون ما عداها خاصّة إذا كان معارضاً للقرآن الكريم.

إنَّ أصل النظرية في شأن المرأة نأخذها من القرآن الكريم وهي تعتمد على الأصالة الإنسانية للمرأة كما هي للرجل.

لا يتصوَّر شخص منّا أنَّ الرجل أفضل من المرأة لا في الدنيا ولا في يوم القيامة، هذا التصوّر يصطدم مع الحقيقة القرآنية القائلة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، لا يتصوَّر أحد أنَّ الرجل في الدنيا له دور في بناء المجتمع أكبر من دور المرأة، بينما القرآن الكريم صريح في المساواة حيث يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٧١).

الرجل والمرأة يأمرون بالمعروف، ويؤتون الزكاة، الرجل كان يأتي ويبايع رسول الله صلى الله عليه وآله في بداية الإسلام، والمرأة كانت تأتي رسول الله وتبايع كذلك، لكن الفرق وهذا نتيجة التمايز الوظيفي والتمايز التكويني أنَّ الرجل كان يأتي ويمدّ يده ورسول الله صلى الله عليه وآله يضع يده فوق يد ذلك الرجل، حيث قال القرآن الكريم: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح:

١٠)، أمَّا بالنسبة للمرأة فقد قدَّم التشريع الإسلامي طريقة أخرى للمشاركة السياسية حيث وضعوا طشتاً من ماء وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يضع يده في ذلك الطشت والمرأة تأتي وتضع يدها في ذلك الطشت، يعني صارت عملية تلاقٍ ميداني بين الرجل والمرأة.

هذا هو الجواب عن الإشكال الثاني في تفسير مجموعة من الروايات التي تشين بموقع المرأة وتعتبرها ناقصة أو أنَّها شرّ، وهذه الروايات كما قلنا تتعارض مع النظرية القرآنية والسُنّة الثابتة وحينئذٍ إذا أردنا أن نقبلها فيجب أن نقبلها على أساس تأويل، أو نقول: نرد علمها إلى أهلها حيث لا نعلم المقصود منها.

هذا الموقف هو نفسه الذي نتعامل به مع نصوص قرآنية تقول مثلاً: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٣)، فهل يوجد أحد ينظر إلى وجه الله تبارك وتعالى؟

الجواب: لا، ولذا فإنَّ المفسّرين يبحثون عن تأويل لهذه الآية. كذلك في نصوص أخرى قد يبدو أنَّها تصطدم مع معتقداتنا القرآنية الثابتة فإنَّ كلّ نصّ يتعارض مع تلك الثوابت يجب أن نبحث له عن تأويل وتنتهي المشكلة.

المرأة في حركة الحسين عليه السلام:

ولنعد إلى معرفة دور المرأة في حركة الحسين عليه السلام.

المرأة شاركت في الحركة الحسينية سواءً في صنع الثورة أو في صيانة الثورة.

مشاركة المرأة في صنع الثورة:

امرأة زهير بن القين وهو رجل جليل الشأن، عظيم القدر، وشيخ عشيرة، امتنع من الاستجابة للحسين حينما دعاه، فأقبلت إليه زوجته وقالت:

(أيبعث إليك ابن رسول الله ثمّ لا تأتيه؟ سبحان الله لو أتيته فسمعت من كلامه).

هذه الكلمة كانت نقطة تحوّل عظيم عند زهير بن القين فبدلاً من أن يكون من المتخلّفين عن نصرة الحسين عليه السلام وإذا به يصبح من أنصار الحسين ومن الدرجة الأولى، وهذا تحوّل عظيم[١].

هذا نموذج في الحقيقة يذكره التاريخ عن دور المرأة في صنع الثورة الحسينيّة.

مشاركة المرأة في صيانة الثورة:

أنتم تعرفون أنَّ أهل الشام استقبلوا السبايا بالطبول والدفوف ولكن دور العقيلة زينب سرعان ما أحدث ثورة وانقلاباً في الشام، حتَّى اضطرَّ يزيد بن معاوية إلى أن يعقد مأتماً حسينياً في قصره لمدّة أسبوع، وهذا من الغرائب في التاريخ، وبعد أن كان رأس الحسين عليه السلام معلَّقاً قبل أيّام على باب القصر أصبح قصر يزيد بن معاوية موشَّحاً بالسواد ويزيد يقول: (لعن الله ابن مرجانة، أمَا والله لو أنّي صاحبه ما سألني خصلة إبداً إلاَّ أعطيتها إيّاه، ولدفعت الحتف عنه بكلّ ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي)[٢].

هذا هو دور العقيلة زينب عليها السلام في صيانة الثورة حتَّى لا تصادر وتُشوَّه ولا يقال: هؤلاء خوارج اُقتلوهم لأنَّهم خرجوا على إمام زمانهم.

---

(١) راجع: مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٧٤.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ٢١٥.

دور المرأة في الحركة الحسينية:

نستطيع أن نقول: إنَّ المرأة كان دورها في حركة الحسين عليه السلام متمثّلاً في ثلاثة أدوار:

الدور الأوّل: هو الدور التحريضي.

الدور الثاني: هو الدور الدفاعي.

الدور الثالث: هو الدور الإعلامي.

أمَّا الدور التحريضي كما شرحت لكم في امرأة زهير بن القين.

أمَّا الدور الدفاعي كما في زينب عليها السلام، فقد دافعت عن زين العابدين عليه السلام في مجلس يزيد وابن زياد وفي عرصات كربلاء ومنعت من قتله.

أمَّا الدور الإعلامي حينما رجعوا إلى المدينة المنوَّرة وأصبح المأتم معقوداً لمدّة طويلة، كان هنا دور أُمّ البنين وأمثال أُمّ البنين وكانت تلهب أجواء المدينة حزناً وحماساً لمقتل الحسين عليه السلام وتثير ظلامة الحسين عليه السلام. حتَّى كان مثل مروان بن الحكم الحاقد على أهل البيت عليهم السلام حينما يمرُّ على أُمّ البنين وقد صنعت قبوراً أربعة تبكي عندهم، كان مروان إذا مرَّ بها يبكي(١).

وهذا دور إعلامي عظيم، قامت به المرأة في صيانة الثورة الحسينية.

طبعاً لا يوجد دور عسكري للمرأة في الثورة الحسينية، وهذه قضيّة يجب أن نفرغ منها، أنَّ الدور العسكري ساقط عن المرأة، يقول الشاعر:

كُتب القتل والقتال علينا ... وعلى المحصنات جرُّ الذيول

الذيول المقصود به في اللغة العربية أطراف الرداء، يعني على المرأة أن تكون محجَّبة وتجرُّ حجابها ولا تشارك في ميدان القتال.

---

(١) راجع: مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ١٨١.

الدور العسكري ساقط عن المرأة إسلاميّاً، كما هو ساقط حضارياً، البعض اليوم مهما نادى بحقوق المرأة ومساواة المرأة للرجل ولكن المرأة لا تقوم بدور عسكري في كلّ العالم وعلى طول التاريخ، أنتم لا تجدون في قيادة القوّات المسلَّحة أو في عمليات الهجوم والصاعقة وما شاكل ذلك لا تجد أنَّ المرأة هي التي تتصدّى لذلك هذه القضيّة هي قضيّة تكوينية، مهما قال وتحدَّث العلم والقانون عن حقوق المرأة لكن في الحقيقة هذا ظلم للمرأة أن تشارك أو تدفع للعمل في خارج استحقاقاتها التكوينية.

على طول التاريخ أنتم لا تجدون إلاَّ في حالات نادرة أنَّ المرأة كانت تقود جيشاً.

أين نجد في التاريخ المعاصر والقديم امرأة قائدة للقوّات المسلَّحة؟

هل وجدنا ذلك في الحرب العالمية الأولى أو الثانية أو في حروب فيتنام أو في تحرير ايرلندا أو في تحرير الصين على يد ماوتسيتونغ مثلاً!؟

نحن ندرك أنَّ هناك امتيازاً تكوينياً بين الرجل والمرأة لا يسمح للمرأة أن تكون عاملة في المناجم تحت الأرض لأنَّ فيها مخاطر وصعوبات بدنية وإرهاقاً جسمياً، هذا العالم الغربي الذي يدعو للمساواة بين المرأة والرجل لكن لا يبعثها إلى المناجم تحت الأرض، ولا نجد أنَّ المرأة في العالم سواءً في الغرب أو الشرق وفي أكثر الأمم تمدّناً لا تعمل المرأة عاملة بناء، مهما يريد الإنسان أن يدعو للمساواة بين المرأة والرجل لكن لا أحد يرضى لها أن تكون عاملة بناء أو ما شاكل ذلك من الأعمال الشاقّة، لا في الشرق ولا في الغرب ولا في أمريكا ولا بريطانيا، لماذا؟

ليس على أساس أنَّها لا تملك الحقّ في ذلك، وإنَّما على أساس أنَّ من

حقّها أن تمارس أعمالاً تتناسب مع كيانها الفسيولوجي والسيكولوجي يعني التكوين النفسي والتركيب البدني لا يسمح لها أن تعمل في المناجم والحروب.

هذا العالم والسياسة العالمية كلّها، خذوا مثلاً رؤساء الولايات المتّحدة الأمريكية، ارجعوا من الرئيس الفعلي وهو بوش إلى من قبله لا تجدون رئيسة للجمهورية في الولايات المتّحدة الأمريكية! هل هذا هو تجاوز لحقوق المرأة؟ نحن نقول: إنَّه ليس تجاوزاً وإنَّما هي امتيازات تكوينية، هذا ليس بخساً لحقّها، بل هو اعتراف بحقّها البدني وحقّها النفسي الذي لا يساعدها على تحمّل هذه الأعباء الشاقّة.

في الثورة الحسينية أيضاً لم يكن للمرأة دور عسكري، كان لها دور كما قلنا تحريضي ودفاعي وإعلامي، كان لها دور في فعل الثورة ودور في صيانة الثورة ودور في ديمومة الثورة.

بعض النساء نتيجة الاندفاع الكبير لنصرة الحسين عليه السلام كما تعرفون في يوم عاشوراء أخذت عموداً من الخيمة ونزلت لكي تقاتل.

لكن الإمام الحسين عليه السلام أقبل عليها وسحبها من المعركة وقال: «ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهنَّ فإنَّه ليس على النساء قتال»[1]، يعني ليس للمرأة دور عسكري.

المرأة في حركة إمام العصر عليه السلام:

ننتقل إلى حركة الإمام صاحب العصر والزمان عليه السلام، حيث تتحدَّث الروايات عن أنصار صاحب العصر والزمان وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، هنا أين موقع المرأة؟

(١) أنظر: مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف: ١٢٤.

في الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام يقول: «ويجيء والله ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فيهم خمسون امرأة يجتمعون بمكّة على غير ميعاد قَزَعَاً كَقَزَع الخريف»[١]، إذن هاهنا خمسون امرأة من العناصر القيادية في حركة الإمام المهدي عليه السلام.

في رواية أخرى أنَّ المستوى العلمي عند ظهوره يرتقي ويصعد حتَّى تكون المرأة قادرة على ممارسة القضاء الشرعي على كتاب الله يعني تكون هناك نساء مجتهدات قضاة.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «وتؤتون الحكمة في زمانه حتَّى أنَّ المرأة لتقضي في بيتها بكتاب الله تعالى وسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله»[٢].

معنى هذا أنَّ هناك دوراً للمرأة ترمز له الروايات الشريفة في حركة إمام العصر عليه السلام.

بل أكثر من ذلك نجد الإمام الصادق عليه السلام في رواية أخرى يقول:

«يكرُّ مع القائم عليه السلام ثلاث عشرة امرأة».

يقول الراوي: قلت: وما يصنع بهنَّ؟

قال: «يداوينَ الجرحى، ويقمن على المرضى، كما كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله»[٣].

* * *

(١) تفسير العياشي ١: ٦٥/ ح ١١٧.

(٢) الغيبة للنعماني: ٢٤٥/ باب ١٣/ ح ٣٠.

(٣) دلائل الإمامة: ٤٨٤/ ح (٨٤/٤٨٠).

مصادر التحقيق

القرآن الكريم.

أبصار العين في أنصار الحسين: السماوي/ ت الطبسي/ ١٤١٩هـ.

الاحتجاج: أحمد بن علي الطبرسي/ ت محمّد باقر الخرسان/ مط النعمان.

الأخبار الطوال: أبي حنيفة الدينوري/ دار إحياء الكتاب العربي/ ١٩٦٠م.

الاختصاص: الشيخ المفيد/ ت عليّ أكبر غفاري/ جماعة المدرسين/ قم.

اختيار معرفة الرجال: الشيخ الطوسي/ ت ميرداد الاستربادي/ ت مهدي الرجائي/ مط بعثت/ قم/ ١٤٠٤هـ.

الأخلاق الحسينية: جعفر البياتي/ أنوار الهدى/ ط ١/ ١٤١٨هـ/ مط مهر.

إرشاد القلوب: أبي محمّد الحسن الديلمي/ ت السيّد الميلاني.

الإرشاد: الشيخ المفيد/ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث/ قم.

إعلام الورى: أمين الإسلام الطبرسي/ مؤسسة آل البيت عليهم السلام/ قم.

إقبال الأعمال: ابن طاووس/ ط ١/ ١٤١٤هـ/ مطبع ونشر مكتب الإعلام الإسلامي.

الأمالي: الشيخ الصدوق/ ت قسم الدراسات الإسلامية/ مؤسسة البعثة.

الأمالي: الشيخ الطوسي/ مؤسسة البعثة/ قم/ الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ.

الأمالي: الشيخ المفيد/ ت عليّ أكبر الغفاري/ نشر جماعة المدرسين قم.

الإمامة والتبصرة: ابن بابويه القمي/ ط الأولى ١٤٠٩/ مؤسسة آل البيت.

الإمامة والسياسة: ابن قتيبة الدينوري/ الأولى/ ايران/ ١٤١٣هـ.

أنساب الأشراف: البلاذري/ ت المحمودي/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت/ ١٩٧٤م.

بحار الأنوار: محمّد باقر المجلسي/ ط ٢/ ١٤٠٣هـ/ مؤسسة الوفاء/ بيروت.
البداية والنهاية: الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي/ ط ١/ ١٤٠٨هـ/ مط دار إحياء التراث العربي.
بصائر الدرجات الكبرى: محمّد الصفار/ مؤسسة الأعلمي/ طهران.
تاريخ ابن خلدون: ابن خلدون/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
تاريخ الإسلام: الذهبي/ ت تدمري/ دار الكتاب العربي/ بيروت/ ١٩٨٧م.
تاريخ الطبري: الطبري/ ط ٤/ ١٤٠٣هـ/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت.
تاريخ بغداد: أحمد بن علي الخطيب البغدادي/ دار الكتب العلمية/ بيروت.
تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر/ ط ١٤١٥هـ/ مط دار الفكر/ ت عليّ شيري.
التبيان في تفسير القرآن: الشيخ الطوسي/ ط ١/ ١٤٠٩هـ/ طبع ونشر مكتبة الإعلام الإسلامي.
تحف العقول: البحراني/ ط عام ١٣٩٤/ مكتبة بصيرتي.
ترجمة الإمام الحسين من تاريخ دمشق: ابن عساكر/ مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة.
تفسير أبي حمزة الثمالي: أبو حمزة الثمالي/ ط ١/ ١٤٢٠هـ/ مط الهادي.
تفسير العياشي: محمّد بن مسعود العياشي/ ت المحلاتي/ طبع ونشر المكتبة العلمية الإسلامية/ طهران.
تفسير القمي: عليّ بن إبراهيم القمي/ منشورات مكتبة الهدى.
تفسير جوامع الجامع: الطبرسي/ ط ١/ ١٤١٨هـ/ مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.
تفسير مجمع البيان: الفضل بن الحسن الطبرسي/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت.
تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي/ ط ٣/ دار الكتب الإسلامية/ ١٣٦٤ش.
الثاقب في المناقب: ابن حمزة الطوسي/ مط الصدر/ قم/ ط ٢/ ١٤١٢هـ.

جامع البيان: محمّد بن جرير الطبري/ طبع ونشر دار الفكر/ بيروت.
حياة الإمام الحسين عليه السلام: باقر شريف القرشي/ ط ١/ ١٣٩٤هـ/ مط الآداب.
الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي/ نشر مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام.
الخصال: الشيخ الصدوق/ ت عليّ أكبر الغفاري/ نشر جماعة المدرسين قم.
الدر المنثور: جلال الدين السيوطي/ ط ١/ ١٣٦٥هـ/ مط الفتح جدة/ دار المعرفة.
الدعوات: قطب الدين الراوندي/ مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام/ قم.
دلائل الإمامة: أبي جعفر محمّد الطبري/ ت قسم الدراسات الإسلامية/ ط ١/ ١٤١٣/ مط مؤسسة البعثة.
ذخائر العقبى: الطبري/ مكتبة المقدسي/ القاهرة/ ١٣٥٦هـ.
رجال النجاشي: أبي العباس أحمد النجاشي/ ت الزنجاني/ ط ٥/ ١٤١٦هـ.
روضة الواعظين: محمّد بن الفتال النيسابوري/ منشورات الرضي/ قم.
السقيفة وفدك: الجوهري/ ت محمّد هادي الأميني/ شركة الكتبي للطباعة/ بيروت/ ١٩٨٠م.
سنن ابن ماجة: ابن ماجة القزويني/ دار الفكر/ (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي).
سنن أبي داود: أبو داود السجستاني/ دار الفكر/ (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي).
سنن الترمذي: الترمذي/ دار الفكر/ تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف.
سنن النسائي: أحمد بن شعيب النسائي/ ط ١/ ١٣٤٨هـ/ دار الفكر/ بيروت.
السيرة الحلبية: الحلبي/ ط: مصطفى الحلبي.
السيرة النبوية: ابن هشام/ مكتبة محمّد علي صبيح/ ميدان الأزهر بمصر.
شجرة طوبى: الحائري/ ط ٥/ ١٣٨٥هـ/ المكتبة الحيدرية/ النجف الأشرف.
شرح الأخبار: القاضي النعماني المغربي/ مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.
شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد/ ت محمّد أبو الفضل/ مط المرعشي.

الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري/ دار العلم للملايين/ بيروت/ ١٤٠٧هـ.
صحيح البخاري: محمّد بن إسماعيل البخاري/ مط دار الفكر بيروت.
صحيح مسلم: مسلم ابن الحجاج النيسابوري/ دار الفكر بيروت.
صفات الشيعة: الشيخ الصدوق/ الناشر عابدي/ طهران.
عدة الداعي ونجاح الساعي: أحمد بن فهد الحلي/ مكتبة الوجداني/ قم.
علل الشرائع: الشيخ الصدوق/ مط الحيدرية النجف/ ١٣٨٦هـ.
عمدة الطالب: ابن عنبة/ مط الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٩٨٠م.
العمدة: ابن البطريق الأسدي الحلّي/ ت ونشر جماعة المدرسين قم/ ط ١.
عوالي اللئالي: ابن أبي جمهور الاحسائي/ الطبعة الأولى/ ١٤٠٣هـ/ قم.
عيون أخبار الرضا عليه السلام: الشيخ الصدوق/ ط الثانية ١٣٦٣/ مكتبة طوس.
عيون المعجزات: حسين بن عبد الوهاب/ المطبعة الحيدرية/ النجف/ ١٣٦٩هـ.
الغارات: إبراهيم الثقفي الكوفي/ ت جلال الدين المحدث/ مط بهمن/ إيران.
الغدير: الشيخ عبد الحسين الأميني/ مط دار الكتاب العربي/ بيروت/ ط ١٣٧٩هـ.
الغيبة: النعماني/ ت فارس حسون/ ط ١/ ١٤٢٢هـ.
الغيبة: الطوسي/ مؤسسة المعراف الإسلاميّة/ ط ١/ ١٤١١هـ.
فتح القدير: الشوكاني/ مط عالم الكتب.
الفتوح: أحمد بن محمّد بن علي بن أعثم الكوفي.
فرائد السمطين: الحمويني/ ط: بيروت.
فرحة الغري: ابن طاووس/ ط ١/ ١٤١٩هـ/ مركز الغدير.
الفصول المختارة: المرتضى/ ت نور الدين الاصبهاني/ ط ٢/ ١٤١٤هـ.
الفصول المهمّة: ابن الصبّاغ المالكي/ تحقيق دار الحديث/ قم.
قرب الإسناد: عبد الله بن جعفر الحميري/ نشر مؤسسة آل البيت/ ط ١/ ١٤١٣هـ.

الكافي: الشيخ الكليني/ ت عليّ أكبر غفاري/ ط ٣/ ١٣٨٨هـ/ مط حيدري.
كامل الزيارات: الشيخ جعفر بن محمّد بن قولويه القمي/ ت جواد القيومي/ ط ١/ ١٤١٧/ مط مؤسسة النشر الإسلامي.
الكامل في التاريخ: ابن الأثير/ دار بيروت/ ١٩٦٥م.
كتاب سليم بن قيس: سليم بن قيس الهلالي/ ط النجف الأشرف.
كشف الغمة في معرفة الأئمة: عليّ بن عيسى بن الفتح الأربلي/ مط دار الأضواء بيروت/ ط ٢/ ١٤٠٥هـ/ الناشر دار الأضواء.
كفاية الأثر: علي بن محمد الخزاز القمي/ انتشارات بيدار/ قم/ ١٤٠١هـ.
كمال الدين: الشيخ الصدوق/ ت عليّ أكبر غفاري/ ط ١٤٠٥هـ.
كنز العمّال: المتقي الهندي/ ت مجموعة/ مطبع ونشر/ مؤسسة الرسالة/ بيروت.
كنز الفوائد: الكراجكي/ ط ٢/ ١٣٦٩ش/ مط غدير/ قم.
الكنى والألقاب: عبّاس القمي/ مط الصدر/ طهران.
لسان العرب: ابن منظور/ ط ١٤٠٥هـ/ نشر أدب الحوزة/ قم.
اللهوف في قتلى الطفوف: السيد عليّ بن طاووس/ ط ١/ ١٤١٧ هـ/ مط مهر.
المبسوط: السرخسي/ ط ١٤٠٦هـ/ دار المعرفة/ بيروت.
مثير الأحزان: ابن نما الحلي/ ١٣٦٩هـ/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف.
مجمع الزوائد: نور الدين الهيثمي/ ط ١٤٠٨هـ/ دار الكتب العلمية/ بيروت.
المحاسن: أحمد بن محمّد البرقي/ ت السيد جلال الدين الحسيني/ الناشر دار الكتب الإسلامية.
مختصر بصائر الدرجات: الحسن بن سليمان الحلي/ ط ١/ ١٣٧٠هـ.
مدينة المعاجز: السيّد هاشم البحراني/ ت الشيخ عزة الله المولائي الهمداني/ مط بهمن/ ط ١/ مؤسسة المعارف الإسلامية.

المزار: محمّد بن المشهدي/ ط ١/ ١٤١٩هـ/ مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.
المستدرك: الحاكم النيسابوري/ ت المرعشلي/ دار المعرفة/ بيروت ١٤٠٦هـ.
مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل/ طبع ونشر دار صادر/ بيروت.
مصباح المتهجّد: الشيخ الطوسي/ ط ١/ ١٤١١هـ/ مؤسسة فقه الشيعة/ بيروت.
مطالب السؤول: كمال الدين محمّد بن طلحة الشافعي.
معاني الأخبار: الشيخ الصدوق/ ت عليّ أكبر غفاري/ ط ١٣٦١هـ.
المعجم الكبير: الطبراني/ ت السلفي/ مط دار إحياء التراث العربي/ القاهرة.
معجم رجال الحديث: السيد الخوئي/ ط ٥/ ١٤١٣هـ/ ت لجنة.
مقاتل الطالبين: أبي الفرج الأصفهاني/ ت كاظم المظفر/ مط المكتبة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ط ٢/ مؤسسة دار الكتاب/ قم.
مقتل الحسين: لوط بن يحيى بن مخنف الأزدي/ ت الغفاري/ مط العلمية ١٣٩٨هـ/ الناشر مكتبة شهاب الدين.
مكارم الأخلاق: الشيخ الحسن بن الفضل الطبرسي/ الطبعة السادسة/ ١٣٩٢هـ.
من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام: عبد العظيم المهتدي/ ط ١/ ١٤٢١هـ.
من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق/ منشورات جامعة المدرسين/ قم/ ط ٢.
مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب/ ت مجموعة ط ١٣٧٦/ النجف.
المناقب: أحمد الخوارزمي/ ت المحمودي/ مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.
منهاج الكرامة في معرفة الإمامة: العلاّمة الحلّي/ ت عبد الرحيم مبارك.
موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: اعداد معهد تحقيقات باقر العلوم عليه السلام/ نشر دار المعروف قم/ ط ٣.
الميزان في تفسير القرآن: السيد الطباطبائي/ مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.
نهج البلاغة: خطب الإمام علي عليه السلام/ ت محمّد عبده/ دار المعرفة/ بيروت.

الهداية الكبرى: الحسين بن حمدان الخصيبي/ ط ٤/ ١٤١١هـ/ مؤسسة البلاغ/ بيروت.

وفيات الأعيان: ابن خلكان/ ت محمّد محي الدين عبد الحميد/ مط السعادة/ ط ١/ ١٣٦٧هـ/ مصر.

ينابيع المودة: سليمان القندوزي الحنفي/ ت عليّ الحسيني/ ط ١/ ١٤١٦هـ/ دار الأسوة.

* * *

فهرست الموضوعات

مقدّمة المؤلّف ٣
تمهيد ٧
الدراسة الأولى: بين الإمام الحسين عليه السلام والنبيّ نوح عليه السلام ١٧
ظاهرتان في مجتمع نوح عليه السلام ٢٠
منهج الحوار ٢١
مشكلات الأمّة ٢٤
الخطاب السياسي للإمام الحسين عليه السلام ٢٩
الدراسة الثانية: بين الإمام الحسين عليه السلام والنبيّ إبراهيم عليه السلام ٣١
نشوء المجتمع السياسي ٣٤
أهداف إبراهيم عليه السلام ٣٥
معالم المنهج الإبراهيمي ٣٦
من معالم الحركة الحسينية ٥٠
الدراسة الثالثة: بين الإمام الحسين عليه السلام والنبيّ موسى عليه السلام ٦١
أهداف موسى عليه السلام ٦٧
مشاكل بني إسرائيل ٧٧
مقارنة بين موسى والحسين عليهما السلام ٧٩
تكامل الأنبياء عليهم السلام ٨٥
مؤتمر مكّة ٩٢

الدراسة الرابعة: بين الإمام الحسين عليه السلام والنبيّ عيسى عليه السلام ٩٥
أهداف عيسى عليه السلام ٩٩
نقاط تشابه مع الحسين عليه السلام ١٠٦
كلمات ضدّ الحسين عليه السلام ١٠٩
الدراسة الخامسة: بين رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام الحسين عليه السلام ١١٣
أهداف النبوّة الخاتمة ١١٦
منجزات النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ١١٧
أركان العالميّة الإسلاميّة ١٢١
مشتركات النبيّ صلى الله عليه وآله وسبطه الحسين عليه السلام ١٣٨
الدراسة السادسة: بين أمير المؤمنين عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام ١٤٣
ظاهرة المبدئية القصوى ١٤٦
نماذج تطبيقية للمبدئية القصوى ١٥٠
المبدئية القصوى لدى الإمام الحسين عليه السلام ١٥٣
العلاقة بين الغايات والوسائل ١٥٨
المرونة في السياسة الإسلاميّة ١٦٨
أدوات الثورة الحسينية ١٨٧
قوّة الجذب لدى الإمام علي عليه السلام ١٩٩
قوّة الجذب لدى الحسين عليه السلام ٢٠٨
الدراسة السابعة: بين فاطمة الزهراء عليها السلام والإمام الحسين عليه السلام ٢١٥
نقاط في حركة الزهراء عليها السلام ٢١٨
أدوات الخطّ الآخر ٢٢٤
بين الزهراء وعلي عليهما السلام ٢٢٤

نتائج حركة الزهراء عليها السلام ٢٤٠
نتائج حركة الحسين عليه السلام ٢٤١
الدراسة الثامنة: بين الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام ٢٤٥
كيف ننظر لأهل البيت عليهم السلام؟... ٢٤٨
سياسات الإمام الحسن عليه السلام ٢٥٤
الشعار الحسيني وموقف الإمام الحسن عليه السلام ٢٦٦
مهمّات الحسن عليه السلام بعد الصلح... ٢٧٠
الدراسة التاسعة: بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام السجّاد عليه السلام ٢٧٥
الواقع بعد الحسين عليه السلام ٢٨٦
مخاطر ما بعد الحسين عليه السلام ٢٨٦
شروط الحاكم الشرعي.. ٢٩٠
نظرية الحكم في الإسلام.. ٣٠٣
مع شخصيات منافسة ٣١١
الدراسة العاشرة: بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام ٣٥٣
مهمّة الإمام الباقر عليه السلام ٣٥٨
المنهج الحواري لدى الإمام الباقر عليه السلام ٣٦٠
الحسين عليه السلام في القرآن الكريم ٣٦٤
حركة الإمام الباقر عليه السلام ٣٧٠
علاقة العراق بالإمام الباقر عليه السلام ٣٨٢
الدراسة الحادية عشرة: بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام ٣٨٩
هل هناك اختلاف في المنهج؟ ٣٩٢
مبدأ التقيّة بين الحسين والصادق عليهما السلام.. ٤٠٠

دفاع أهل البيت عليهم السلام عن مصادر التشريع ٤١٢
الدراسة الثانية عشرة: بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام الكاظم عليه السلام ٤٢٧
التشيّع في داخل القصر العبّاسي ٤٣٠
الدور التربوي للإمام الكاظم عليه السلام ٤٣٥
المحافظة على الهوية الإسلاميّة ٤٤٠
الدراسة الثالثة عشرة: بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام الرضا عليه السلام ٤٤٩
تحوّل في السياسة العبّاسية ٤٥٣
اتّجاهات في فهم الدين ٤٥٥
الإمام الرضا عليه السلام في مواجهة الانشقاقات ٤٥٦
الدراسة الرابعة عشرة: بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام الجواد عليه السلام ٤٦٥
دور الأئمّة عليهم السلام في تفسير القرآن الكريم ٤٦٨
الإمام الجواد عليه السلام يفسّر القرآن ٤٦٨
الإمام الحسين عليه السلام لم ينهض لاستلام الحكم ٤٧١
لماذا يدافعون عن يزيد؟ ٤٧٢
الدراسة الخامسة عشرة: بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام الهادي عليه السلام ٤٧٥
مبدأ انتصار الحقّ ٤٧٧
الإمام يؤكّد مبدأ انتصار الحقّ ٤٧٩
الإمام الهادي عليه السلام في خان الصعاليك ٤٨٠
الحقيقة تنتصر في داخل القصر ٤٨٤
الدراسة السادسة عشرة: بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام العسكري عليه السلام ٤٨٥
ما هي الأولويات في حياة الإنسان؟ ٤٨٧
ما هو مشروع الأئمّة والأنبياء عليهم السلام؟ ٤٨٩

الإمام العسكري عليه السلام مع الشاب الغفاري..٤٩٢
الإمام العسكري عليه السلام مع الجاثليق...٤٩٣
مهمّات مرحلية قام بها الإمام العسكري عليه السلام ٤٩٤
الدراسة السابعة عشرة: بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام المهدي عليه السلام ٤٩٧
المقدّمة الأولى: نظرية وحدة التاريخ...٤٩٩
المقدّمة الثانية: المهدي عليه السلام امتداد للحسين عليه السلام ٥٠٣
المقدّمة الثالثة: المستوى العلمي لقضيّة الإمام المهدي عليه السلام ٥٠٦
الاشتراك في الشخصية...٥١٣
الخطاب السياسي للحسين والمهدي عليهما السلام رؤية مقارنة ٥١٦
الآيات القرآنية...٥٣٠
الإمام المهدي عليه السلام في السُنّة الشريفة ٥٣٢
ظواهر المجتمع السعيد ٥٨٣
الإصلاح العالمي بين النظريتين ٥٩٨
مصادر التحقيق ٦٨٥
فهرست الموضوعات ٦٩٣

* * *